

في أخبار بني أيوب

لابن واصل

جمال الدين محمد
ابن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل

يؤرخ من آخر العهد الأيوبي إلى بدايات عصر المماليك

تحقيق
أستاذ دكتور
عمر عبد السلام تدمري





الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - 2004

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

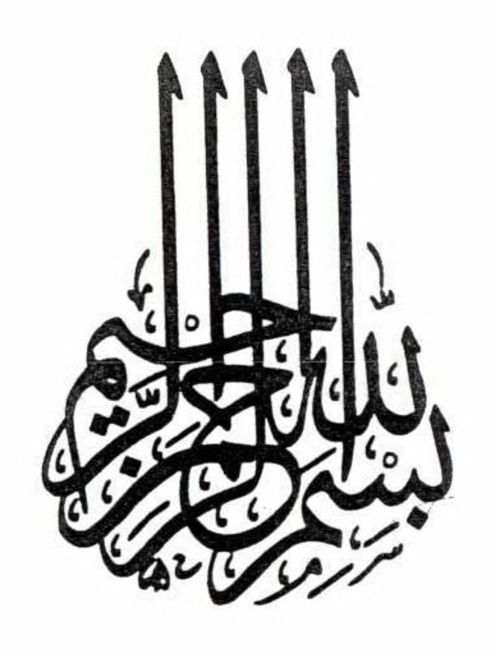
المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ ١١ - تلفاكس ٦٥٥٠١٥ ٠٠٩٦١١
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٧٢٠٣١٧ ٠٠٩٦١٧
e-mail: alassrya@terra.net.lb

ISBN 9953-34-289-X




بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي الكتاب

في عام ١٣٧٢هـ./١٩٥٣م. صدر الجزء الأول من هذا الكتاب «مفرّج الكروب» بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيّال، رحمه الله، مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، بوزارة التربية والتعليم، إدارة الثقافة العامّة، مطبعة جامعة فؤاد الأول.

ثم صدر، بتحقيقه الجزء الثاني، عام ١٣٧٩هـ./١٩٦٠م. عن المطبعة والإدارة المذكورتين. وصدر، بتحقيقه، أيضاً، الجزء الثالث عام ١٣٩٢هـ./١٩٧٢م. عن وزارة الثقافة، والإرشاد القومي، ومكتبة دار القلم بالقاهرة.

وفي عام ١٩٧٢م. صدر الجزء الرابع، بتحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع، عن وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب المصرية.

وصدر الجزء الخامس عام ١٩٧٧م. بتحقيقه أيضاً، وعن الوزارة نفسها.

وانتظر القرّاء والباحثون صدور الجزء السادس والأخير من هذا الكتاب المهمّ، ولكنّ انتظارهم طال رُبعَ قرنٍ ونيّفاً، ولمّا يصدرْ بعدُ.

لذلك بادرنا، بعد الاتكال على اللّه تعالى، إلى القيام بتحقيق هذا الجزء عن النسختين المخطوطتين المحفوظتين بالمكتبة الوطنية بباريس، على أن نُلحِق به «ذيل مفرّج الكروب»، عن النسختين المذكورتين، للمؤلّف «علي بن عبد الرحيم بن أحمد» المعروف بـ«ابن المغَيْزِل»، المتوفَّى سنة ٧٠١هـ.

راجياً من اللّه سبحانه أن يأتي هذا العمل موفّقاً، ويحظى باهتمام القرّاء والباحثين، واللّه من وراء القصد.

طرابلس الشام المحروسة
هاتف وفاكس المنزل ٦٢٩٤٣٦ ٦ ٠٠٩٦١

عمر عبد السلام تدمري



بسم الله الرحمن الرحيم

حياة «ابن واصل» من خلال كتابه

يتناول هذا الجزء، السادس والأخير، من «مفرّج الكروب» الحوادثَ من سنة ٦٤٦ إلى سنة ٦٦١هـ. أي نحو خمسة عشر عاماً، كان المؤلّف «ابن واصل» يعيش في خِضَمّ أحداثها، لصيقاً بالكثير من وقائعها، مشاهداً ومشاركاً، أو قريباً من صانعي القرار، يُخبرونه، ويحدّثونه، ويُطْلعونه على المعلومات والنصوص والوثائق، وهو قد بلغ سنّ النضوج بعد أن تجاوز الأربعين عاماً من عُمُره.

وبمطالعتنا لهذا الجزء يكتمل لدينا «شريط السيرة الذاتية» لابن واصل التي نجد إشاراتٍ كثيرةً عنها في طيّ صفحات الكتاب.

فمن هذا الجزء، والأجزاء السابقة، نستطيع أن نضع للمؤلّف ترجمة موسّعةً لا نجدها في كتب التاريخ والتراجم التي كتبت عنه، ولم تحظ بالاهتمام الكافي من قِبَل الأستاذين المحقّقين: الدكتور «الشيّال»، والدكتور «ربيع».

وما من شكٍّ في أن استعراض حياة «ابن واصل» ومفاصلها الأساسية، من خلال ما دوّنه بنفسه عن نفسه، يوفّر لنا الكثير من المعطيات عن شخصيته، واهتماماته، وموقعه، ونسيج علاقاته برجالات عصره من ملوك، وأمراء، وقادة، وقضاة، وعلماء، وأدباء، فضلاً عن رحلاته وتنقّلاته في بلاد الشام، والعراق، ومصر، وبلاد الروم، وبلاد الفرنج، وسفارته إلى صقلّية، وجنوب إيطاليا، والمناصب التي تقلّب فيها، ومصنّفاته المتنوّعة في التاريخ، والأدب، والمنطق، والهيئة، والهندسة، والفقه، وأصول الدين، . . وهذا كلّه يقدّم لنا صورةً واضحةً عن مؤلّفٍ عملاقٍ، واسعِ الاطّلاع، مُشارِكٍ في العلوم المختلفة، له مكانته وموقعه في مجتمعه وبين أقرانه. ومن هنا كان هذا الكتاب في مقدّمة مُنجزاته، وفي طليعة المصادر الأساسية عن تاريخ ملوك بني أيوب، وعصرهم الحافل بالصراع بين المسلمين والفرنج، والمسلمين والمغول، والصراع بين الأيوبيّين أنفسهم.

* * *

وُلد «**جمال الدين، محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل الحموي**» في شهر شوّال عام ٦٠٤هـ. في مدينة حماه، وعندما بَلغ الثانيةَ عشرةَ من عُمُره،



حضر الصلاةَ على «ملكة خاتون» بنت الملك العادل، والدة الملك المظفّر، وقد تُوُفّيت عام ٦١٦هـ. وأمَّ والدُه المصلّين عليها في قلعة حماه، يتقدّمهم زوجُها «الملك المنصور» صاحب حماه، وأكابر المدينة، وحضر العزاءَ الذي أقامه السلطان لها بالمدرسة المنصورية ظاهر حماه، وقال إنه رأى السلطان جالساً يمنةَ المحراب وهو مكتئب حزين، يلبس ملابس الحِداد، بثوبٍ أزرق، وعمامة زرقاء، وإلى جانبه أولاده الملك الناصر «قِلِج أرسلان» وإخوته، وعليهم كلّهم ملابس الحِداد، «وقرأت القرّاء بين يديه، ووعظت الوعّاظ، وأنشدت الشعراء المراثي»، وكان اقتُرح له أن تُنظَم المراثي على وزن قصيدة أبي العلاء المَعَرّي ورَوِيّها التي مطلعها:

يا ساهر البرقِ أيقِظْ راقدَ السَّمر لعلّ بالجِزْع أعواناً على السهر[(١)]

فعمل جماعة من الشعراء قصائدَ على هذا الوزن والروِيّ. وأجود قصيدة عُمِلت قصيدة «حسام الدين خُشترين بن تُليل» وهو جُنديّ كردي، وكان شاعراً مُجيداً، غير أنه كان ألكن لحّاناً، وإذا نَظَمَ أجاد وأحسن، . . وذكر قصيدته، وأبياتاً من قصيدة للملك المنصور يرثي زوجته[(٢)].

إنّ حُكم المؤلّف «ابن واصل» على جودة شِعر «خُشترين بن تليل» وانتقائه لشِعره، وشِعر الملك المنصور، يدلّ على تذوّقه الأدبيّ، وقُدرته على النقد، وحِفْظه للقصائد، أو سَعْيه للوقوف عليها في مظانّها، بعد سماعه لها وهو صغير.

ومن خلال سيرة مؤرّخنا «ابن واصل» نتعرّف أيضاً على سيرة والده، إذ كان يتقلّد القضاء بحماه من قِبَل الملك المنصور، ثم استعفي من منصبه مُراعاةً للقاضي «حُجّة الدين بن مراحل السلماني» لقديم المودّة بينهما، فأعفي، وأعطي قضاء المَعَرَّة، وعندما دنا الملك المعظم من المَعَرَّة عام ٦١٩هـ خرج والد المؤلّف وأعيانها إلى لقائه، فأقبل الملك على والده والجماعة إقبالاً عظيماً، وحين استقرّ به المقام سيّر إليه والد المؤلّف هديّة وكُتُباً نفيسةً، فقبِلها وأخذ يسيراً منها، وأمر بحمل الباقي إلى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، وكان نازلاً معه في داره، وكان المؤلّف مرافقاً أباه، فشاهد ذلك كلّه، وعُمُرُه، يومئذٍ، خمس عشرة سنة[(٣)].

وفي عام ٦٢١هـ، وبالتحديد، في أواخر شهر شعبان، سافر مع أبيه من حماه إلى دمشق بناءً لاستدعاء صاحبها الملك المعظّم، ولقيا منه إقبالاً عظيماً، ولازم والده الاجتماعَ بالملك المعظّم والحضور لخدمته، وكان الملك، في أكثر الأوقات، يحاضر

---

(١) شروح سقط الزَّنْد ـ السِفر الثاني ـ القسم الأول ـ ص١١٤.
(٢) مفرّج الكروب ـ ج٤/ ٦٥ ـ ٦٩.
(٣) مفرّج الكروب ـ ج٤/ ١١٨، ١١٩.

الفقهاء والعلماء ويباحثهم في دقائق العلوم، فطلب منه والد المؤلّف الإقامة بالقدس الشريف لينقطع هناك للعبادة، فلم يوافقه «المعظّم» على ذلك، وعرض عليه أن يولّيه أحد المنصبين: القضاء، أو الخطابة بالجامع الأمويّ بدمشق، فأبى إلّا المُضِيَّ إلى القدس، ففوّض إليه تدريس المدرسة الناصرية الصلاحية، فانتقل المؤلّف مع والده إلى القدس في أوائل سنة ٦٢٢هـ. وأقاما هناك[١].

وفي السنة التالية ٦٢٣هـ. قدِم «المعظّم» إلى القدس، واستدعى والدَ المؤلّف وباحَثَه في مسائل لُغوية وفِقْهيّة[٢].

وفي سنة ٦٢٤هـ. بنى المعظَّم بالحرم القُدْسيّ قُبَّة، وولّى تدريسَها للشيخ شمس الدين بن رزين البَعْلَبَكّيّ[٣]، فقرأ عليه المؤلّف، في تلك القبّة، كتاب «الإيضاح» لأبي علي الفارسيّ[٤]، وجوّد عليه القرآن، وكان البَعْلَبَكّيّ حَسَن القراءة، جيّد الأداء، حافظاً للقراءات العَشْر وطُرُقها[٥].

ووقف المؤلّف، وهو بالقدس، على نسخة من «كتاب» سِيبَوَيْه[٦]، وعليها خطّ المعظّم في عدّة مواضع[٧] كما وقف فيها على كتابٍ صنّفه المعظّم سمّاه: «السهم المصيب في الردّ على الخطيب»[٨]، وطالعه جميعه، فوجده في غاية الحُسْن[٩].

---

(١) مفرّج الكروب ـ ج٤/ ١٤١، ١٤٢.

(٢) مفرّج الكروب ـ ج٤/ ٢١٢.

(٣) هو محمد بن عبد الكريم بن رزين البعلبكي. توفي فجأة سنة ٦٣٥هـ. (ذيل الروضتين ١٦٥، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ـ تأليفنا ـ القسم الثاني ـ ج٤/ ٥٠ رقم ١٠٤٦).

(٤) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار، أبو علي الفارسي، الفَسَوي، النحوي، صاحب التصانيف. توفي سنة ٣٧٧هـ. ببغداد، وله تسعٌ وثمانون سنة. انظر عنه في كتاب: «أبو علي الفارسي، حياته ومكانته بين أئمّة العربية» للدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ـ طبعة مصر ١٣٧٧هـ.، والحياة الثقافية في طرابلس الشام ـ تأليفنا ـ ص٢١٠، ٢١١، وتاريخ الإسلام، للذهبي ـ بتحقيقنا ـ طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٩هـ./ ١٩٨٩م ـ ص٦٠٨، ٦٠٩ وفيه مصادر أخرى.

(٥) مفرّج الكروب ـ ج٤/ ٢١٢.

(٦) هو أبو بشير، عمرو بن عثمان بن قَنْبُر البصري، إمام أهل النحو. سُمّي «سِيبَوَيْه» لأنّ وجنتيه كانتا كالتفّاحتين. وقيل هو لَقَبٌ بالفارسية معناه رائحة التفاح. توفي سنة ١٨٠هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام ـ بتحقيقنا ـ وفيات ١٨٠هـ. ـ ص١٥٤ ـ ١٥٧ رقم ١٢٧ وفيه حشدنا مصادر كثيرة لترجمته. طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١١هـ./ ١٩٩٠م.

(٧) مفرّج الكروب ـ ج٤/ ٢١٠.

(٨) يقصد: الخطيب المشهور، أبا يحيى، عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نُباتة، صاحب ديوان الخُطَب. توفي سنة ٣٧٤هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام ـ بتحقيقنا ـ طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٩هـ./ ١٩٨٩م. ـ ص٥٥٩ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(٩) مفرّج الكروب ٤/ ٢١٢.

وفي السنة نفسها ٦٢٤هـ. سافر والده إلى الحجّ وبقي مجاوراً بمكة المكرّمة إلى أن حجّ ثانية في العام الذي يليه ٦٢٥هـ. وعاد في سنة ٦٢٦هـ. فأقام هو مكان والده بالمدرسة الناصرية الصلاحية بالقدس مدّة غيابه[(١)].

وفي سنة ٦٢٦هـ. نرى المؤلّف بدمشق وهو يحضر مجلس الوعظ الذي عقده «سِبْط ابن الجوزيّ» بجامعها الأمويّ، وذكر فضائل القدس، وسمعه يورد قصيدةً تائيّة على وزن قصيدة «دِعبل بن علي الخُزاعيّ»[(٢)]، وعلق بذهنه منها بيتٌ واحد[(٣)]. وكان في أكثر الأوقات يصعد مع جماعةٍ على منارة دمشق ويشاهد القتال الدائر بين الملك الكامل والملك الناصر[(٤)]. وعندما دخل العسكر المصريّ دمشق، كان هو في ذلك اليوم يقف عند باب قلعتها[(٥)]، فكان شاهداً عياناً لتلك الحوادث.

وفي أواخر سنة ٦٢٧هـ. قصد حلب لخدمة القاضي «بهاء الدين بن شدّاد»[(٦)]، فحضر مجلسه، واستفاد منه، وأقام بمدرسته التي أنشأها إلى جانب داره نحو سنةٍ وزيادة[(٧)]. واشتغل أثناء ذلك بالعِلم على «ابن الخبّاز»[(٨)]، في المذهب والأصول، و«ابن يعيش»[(٩)] في النحو، وتردّد على «ابن شدّاد» حتى عاد إلى دمشق في شهر

---

(١) مفرّج الكروب ٤/ ٢٠٨، وانظر عن (قاضي نابلس) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٩٤هـ.) ص٢٢٩ رقم ٢٥٧.

(٢) هو أبو علي، دِعْبل بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد اللّه الخزاعي، شاعر مشهور. له ديوان، وكتاب في طبقات الشعراء. توفي سنة ٢٤٦هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٢٤١ ـ ٢٥٠هـ.) ـ بتحقيقنا ـ دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١١هـ./ ١٩٩١م ـ ص٢٥٨ ـ ٢٦٤ رقم ١٧٨ وفيه حشدنا عشرات المصادر لترجمته.

(٣) مفرّج الكروب ٤/ ٢٤٥.

(٤) مفرّج الكروب ٤/ ٢٥٣.

(٥) مفرّج الكروب ٤/ ٢٥٧.

(٦) هو يوسف بن رافع بن تميم بن عُتبة بن محمد بن عتّاب، بهاء الدين، المعروف بابن شدّاد، قاضي القضاة الأسدي، الحلبيّ الأصل، الموصليّ المولد والمنشأ، الشافعيّ، الفقيه، والمؤرّخ، صاحب كتاب. «النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية»، توفي سنة ٦٣٢هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام حوادث ووفيات ٦٣١ ـ ٦٤٠هـ.) ـ بتحقيقنا ـ بيروت ١٤١٨هـ./ ١٩٩٨م. ص١٣٣ ـ ١٣٧ رقم ١٥٠ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(٧) مفرّج الكروب ٣/ ٩.

(٨) هو العلاّمة، نجم الدين، محمد بن أبي بكر بن علي بن الخبّاز الموصلي، الشافعي، الفقيه. توفي سنة ٦٣١هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦٣١ ـ ٦٤٠هـ.) ص٨٤، ٨٥ رقم ٦٢ وفيه مصادر ترجمته.

(٩) هو العلاّمة، موفّق الدين، أبو البقاء، يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا محمد بن علي بن المفضّل الأسدي، الموصليّ الأصل، الحلبيّ، النحويّ. له شرح «المفصّل» للزمخشري، و«التصريف» لابن جنّي. توفي سنة ٦٤٣هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام =

شعبان من السنة التالية ٦٢٨هـ[١]. وفيها ورد كتاب من «الناصر داود» صاحب الكرَك يستدعي والده إليه، فسافر معه في أواخر ٦٢٨هـ. ووصلا الكرَك أوائل ٦٢٩هـ. ووجدا منه إحساناً كثيراً وتفضُّلاً زائداً، وكان أول اجتماع لهما به في الجَوْسَق بوادي الكرك[٢]. ثم اجتمعا به في قلعة الكرَك[٣] واجتمع هو ووالده والملك داود في خيمةٍ إلى جانب خيمة السلطان «الكامل» ملك مصر، وحضر فيها القاضي شمس الدين، قاضي عسكر الملك المنصور، وكمال الدين ابن شيخ الشيوخ، ومن أصحاب الناصر داود: شمس الدين الخسرو شاهي شيخ الناصر، والشيخ الكاشي معلّمه، والقاضي شمس الدين قاضي نابلس والقدس وما معهما من البلاد[٤].

وأقام المؤلّف في خدمة الناصر داود بالكرَك، وعندما سافر الملك الناصر في صُحبة الملك الكامل، سافر معه والد المؤلّف، فلما وصل الكامل إلى سَلَمية ونزل بها، استأذن والده من الناصر داود في الدخول إلى بلده حماه، فأذِن له، وما إنْ دخلها حتى عرضت له حُمَّى حادّة، أعقَبَها دوسنطاريا، فتُوُفّي لعشرٍ بقين من ذي القعدة ٦٢٩هـ. عن عُمُر بلغ ٥٨ عاماً، حيث كان مولده، حسب ما أخبر به، في سنة ٥٧١هـ[٥].

وعندما عاد الملك الناصر داود إلى الكرَك في عام ٦٣٠هـ. التقاه المؤلّف في موضع يقال له العلفدان، بالقرب من زَيْزا من أعمال البلقاء، فتصدّق عليه، وأحسن إليه، وقرّر له ما كان لوالده، ولازَم خدمته والحضور في مجلسه في غالب الأوقات، والاستفادة معه على الشيخ خسرو شاهي، في العلوم النظرية[٦].

ونعود فنراه مقيماً بحماه من جديد، حيث تقدّم إليه الملك المظفّر بالمسير معه إلى بغداد، فخرج معه في رحلة إليها في مُستَهَلّ شهر المحرّم سنة ٦٤١هـ. وقصدا حلب فأقاما بها أياماً، ومنها إلى حَرّان، ثم دُنَيْسر، وفيما هما بين رأس عين ودُنَيسر بَلَغهما خبر حركة التتار وقصْدهم بلاد الروم، فصعَدا إلى ماردين، فأقاما بها يوماً واحداً، ثم سارا إلى نصيبين. ومنها إلى الموصل، وهنا يذكر المؤلّف أنه كان بصُحبة

= (حوادث ووفيات ٦٤١ ـ ٦٥٠هـ.) ـ بتحقيقنا ـ طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٩هـ./ ١٩٩٨م. ـ ص٢٣٣ ـ ٢٣٥ رقم ٢٨٧ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(١) مفرّج الكروب ٤/ ٣١١.

(٢) مفرّج الكروب ٤/ ٣٣٠.

(٣) مفرّج الكروب ٥/ ١٤.

(٤) مفرّج الكروب ٥/ ١٥.

(٥) مفرّج الكروب ٥/ ١٨.

(٦) مفرّج الكروب ٥/ ٣٥.

نسيبه القاضي شهاب الدين ابن أبي الدم[(١)]، ونزلا بخانقاه على الشطّ، ووجدا بها «محيي الدين بن الجوزي» رسول الخليفة، وتابعا رحلتهما إلى بغداد عبر نهر دجلة في مُعدّية تُعرف هناك بالركوة، أعطاهما إيّاها شخص يُدعى «بدر الدين»، وسارت الدوابّ في البرّ، وحين وصلا تِكريت طولع الديوان ببطاقةٍ حملها الحمام الزاجل بوصولهما، ووصلا إلى المَزْرَفَة ونزلا بها حتى جاء من جهة الديوان من أوصلهما معه على ظهر الدوابّ إلى بغداد، وأُمِرا بالنزول في جامع السلطان حتى يخرج الموكب لتلقّيهما، ودخلا بغداد ونزلا بقَرَاح القاضي، وأقاما بها شهرين قبل أن يخرجا منها عائدين، فوصلا إلى الموصل واجتمعا بصاحبها بدر الدين لؤلؤ، فأخبرهما باستظهار التتار على المسلمين ببلاد الروم، ثم توجّها إلى نصيبين، واجتمعا بالأمير حسام الدين بركة خان، مقدَّم الخوارزميّة، وتحدّثا معه في أمر القيام بنُصرة الملك الصالح نجم الدين أيوب، والمُضِيّ بالخوارزميّة إلى خدمته ومعاضدته على أعدائه، وكان الحديث بينهم بواسطة ترجمان، وانتقلا من نصيبين إلى حلب، ووجدا فيها القاضي «أفضل الدين الخُونَجيّ»، وكان قاضياً ببلاد الروم، وهو على عَزْم المُضيّ إلى الديار المصرية[(٢)].

وفيما كان المؤلّف بحلب نظَمَ أبياتاً ذكر فيها المنازل بين بغداد وحماه، ووصف مشاعر الشوق إلى بلده، وهو يستعرض البلاد التي مرّ بها في طريق العودة، وهي:

طواها سُراها حين طال سفارُها ... وأنْحَلَها تهجيرُها وابتكارُها
وأَتْبَعَها جذبُ البُرى وأذابها اشـ ... ـتياقٌ إلى أرضٍ بعيدٍ مَزارُها
وما باعثُ الأشواق نحو بلادها ... سوى أهلها لا شيحُها وعَرَارُها
إذا لاح برقٌ من حماه وأرضها ... تَضاعَفَ بلواها وزاد أُوارُها
وتُعرِض عن ماء الفرات ودجلة ... إذا ذُكر العاصي ويبدو انكسارُها
ولما أبيحت عزمة العَود بعدما ... تطاول من شوقٍ إليها انتظارُها
تزحلَق عن دار السلام طوالباً ... بنا أرضٌ وأنّا والأنينُ شِعارُها
وفي أرض تِكْريتَ أنيخت [بها] ضُحى ... وقد نفى النومَ عنها وجْدُها وادّكارُها
وجاءت إلى المستعصميّة وأَنْثَنَتْ ... إلى العُقْر والأشواق تُضْرَم نارُها
وفي المَوْصِل الحَدْباء قيل لها ابشري ... بأنّ ليالي البُعد آن انحسارُها
وشامت بُروقاً في نصِيبين أومضَتْ ... فأسعَرَ نيرانَ الغرام استعارُها

---

(١) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ١٤٠أ (حوادث سنة ٦٥٦هـ.) وابن أبي الدم هو: إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم، قاضي حماه. له «التاريخ المظفّري». توفي سنة ٦٤٢هـ.

(٢) مفرّج الكروب ٥/ ٣٢٣ _ ٣٢٥.

وأمسـت بنـا فـي ماردين ووجْـدُهـا يـزيـد ويـنـمـو إذ يـقـلّ اصـطـبـارُهـا
وأمّـت صـبـاحـاً رأسَ عَـيْـنٍ حـثـيـثـةً إلى أن عـلا شـمـسَ الـنـهـار اصـفـرارُهـا
وجـاءت بـنـا جُـلّابُ حَـرّانَ سُـرّعـاً وأمـسـى إلـى شـطّ الـفُـراتِ ابـتـدارُهـا
وفـي حـلـبَ الـشـهـبـاء أضْـحَـى مقرُّهـا وطـيُّ الـفـيـافـي سُـؤْلُـهـا واخـتـيـارُهـا
عـسـاهـا إذا مـا فـارقَـتْ حَـلَـبـاً بـنـا تَـقَـرُّ بـقِـنَّـسـريـن مـنـهـا قـرارُهـا
وتـأتـي إلـى أرض الـمَـعَـرَّة والـمُـنَـى تـبـشّـرُهـا أنْ قـد تـدانـتْ ديـارُهـا
وتـصـبـح فـي أوطـانـهـا مـسـتـقِـرَّةً وقـد زال عـنـهـا بـؤسُـهـا وضِـرارُهـا[١]

ولم تنته سنة ٦٤١هـ. التي سافر فيها إلى بغداد، حتى سافر في أواخرها إلى الديار المصرية، وفي الطريق إليها دخل بيتَ المقدس، ورأى بنفسه الرهبان والقُسُوس عند الصخرة المشرَّفة، وقد وضعوا عليها قناني الخمر برسم القرابين التي تؤدّى في الكنيسة، ودخل الجامعَ الأقصى فرأى فيه جَرَساً معلَّقاً، وقد أُبطِل بالحَرَم الشريف الأذانُ وإقامةُ الصلاة، وصادَف أن قدِم الملك الناصر داود إلى القدس في ذلك اليوم الذي زار فيه المؤلّف المدينة، ونزل الملك في غربيّها، فتحاشى المؤلّف اللقاءَ به، ولم يجتمع به خيفةَ أن يصدّه عن متابعة سفره إلى الديار المصرية، وغادر القدسَ إلى غزّة، ومنها وصل إلى العبّاسة، أولِ بلدٍ يلقاه القاصد إلى مصر من الشام، ودخل القاهرة في شهر المحرّم من السنة التالية ٦٤٢هـ. فاجتمع بالأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني، نائب السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بها، الذي أنزله في داره المعروفة بدار المُلْك على شاطئ النيل، وهي دار جليلة بدرب الدَّيْلَم، وأفاض عليه إنعامه وإحسانه[٢]. واصطحب معه المؤلّف منذ ذلك اليوم، وأفاد منه الكثير من الأخبار.

وفي شهر رجب من سنة ٦٤٤هـ. وقّع الملك الصالح أيوب للمؤلّف بوظيفة التدريس في الجامع الأقمر بالقاهرة، وهو من بناء الخليفة الفاطميّ، الآمر بأحكام اللّه، وكُتب التوقيع بإنشاء الصاحب «فخر الدين بن لُقمان الإسعِرديّ»[٣].

وفي مصر أقام علاقات واسعة مع أعيانها من العلماء والأمراء، فكان يجتمع كثيراً بالصاحب، الوزير، جمال الدين يحيى بن مطروح[٤]، وله به أُنسٌ كثير، ويعود تاريخ العلاقة به إلى سنة ٦٣٦هـ. حين قدِم الملك الصالح من الشرق إلى دمشق، ثم

(١) مفرّج الكروب ٥/ ٣٢٥، ٣٢٦.
(٢) مفرّج الكروب ٥/ ٣٣٣، ٣٣٤.
(٣) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ١٧٠أ.
(٤) توفي (ابن مطروح) سنة ٦٤٩هـ.

اجتمع به في دمشق ثانيةً بعد قدومه من مصر مع «محيي الدين بن الجوزيّ»، ومرّة أخرى بحماه، حيث تردّد إليه كثيراً وهو ينزل بدار «زين الدين بن قرناص» على نهر العاصي، فكان «ابن مطروح» يأخذ العلم عنه، ويتذاكران في أشياء من الأدب، وتجدّد الاجتماع بينهما في مصر، فكان «ابن مطروح» ينشده الكثير من أشعاره[(١)].

وكان «ابن واصل» يحضر سِماطَ السلطان، ويرى هناك الوزير الصاحب «معين الدين ابن شيخ الشيوخ»، وقاضي مصر «بدر الدين يوسف بن الحسن»[(٢)].

وفي أوائل عام ٦٤٦هـ. خرج «ابن واصل» مع الأمير «حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني» نائب السلطان بالقاهرة، في سفرته إلى دمشق، وأقام معه نحو أربعة أشهر، ثم رجع معه إلى القاهرة لما ورد المرسوم بعودته[(٣)]. وكان يخلو معه في كلّ الأوقات، وربّما سهر عنده وحادثه إلى أن يمضي مُعظم الليل[(٤)]. وتوثّقت الصداقة بينهما إلى حدّ أنّ «حسام الدين» كان يُطْلعه على كلّ بطاقةٍ أو مكاتبةٍ من السلطان[(٥)].

وعندما قدِم الملك المعظّم إلى مصر عقِب وفاة والده الملك الصالح سنة ٦٤٧هـ. خرج المؤلّف بصُحبة الأمير «حسام الدين» للقائه، فوصلا إلى الصالحية ونزلا بها، ثم ركبا منها يوم السبت الرابع عشر من ذي القعدة ٦٤٧هـ. فالتقيا بالملك المعظّم قريباً من الصالحية، فأشار «حسام الدين» على المؤلّف أن يقبّل يده، فترجّل وتقدّم إليه وقبّل يده، وأثنى عليه «حسام الدين» أمام الملك ثناءً كثيراً، فأقبل عليه وأمره بالركوب، وساق السلطان، وعن يمينه الأمير حسام الدين، وعن يساره القاضي بدر الدين[(٦)]. وبعد ذلك سيّر إلى الأمير خلعةً سنيّةً، ووصل الجميع ومعهم المؤلّف إلى المنزلة المعروفة بمنزلة حاتم، وتقدّم الأمير حسام الدين إلى المؤلّف أن يدخل دِهليز السلطان، فدخله، ولقي فيه خطيب جامع القاهرة ومدرّس مدرسة منازل العزّ بمدينة مصر، الخطيب «فخر الدين ابن القاضي عماد الدين بن السّكّري»، والخطيب «أصيل الدين الإسعِرديّ»، وكان أحد أئمّة السلطان الملك الصالح، وشاهد السلطان المعظّم وقد جلس على طُرّاحته، وقام بين يديه «جمال الدين بن الخشّاب» أحد شعراء مصر، وأنشده قصيدةً مدحه بها وهنّأه بمقْدَمه، وعلِق بذهنه منها بيت واحد[(٧)]. وأقبل السلطان على من عنده، وأراد أن يختبر الخطيبين: «ابن عماد الدين» و«أصيل الدين»، في مسألة عن الخطيب «ابن نُباتة» فلم ينطقا لعدم معرفتهما بعلم المنطق،

(١) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٧٣ أ، ب.
(٢) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٧٤ أ.
(٣) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٥٩ب.
(٤) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٧٧ أ.
(٥) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٧٨ب و٨١ب.
(٦) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٨٣أ.
(٧) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٨٣ب.

فتصدّى المؤلّف للمسألة وشرحها، فأُعجب به السلطان، وأقبل عليه[١]، ومنذ ذلك اليوم وهو من روّاد مجلس السلطان، يشارك في المحاورات والمناقشات التي تدور بينه وبين العلماء والأدباء، والسلطان يجاذبه في أشياء من علم الكلام، والأدب، من بعد العصر إلى قُبَيل غروب الشمس[٢].

ورحل السلطان والكلّ معه فنزلوا تِلْبانة، ثم انتقلوا إلى مرحلةٍ أخرى قريبة من المنصورة، ودخلوا المنصورة يوم الخميس ٢٣ من ذي القعدة ٦٤٧هـ. فكان السماط يُمدّ كل يوم، ويحضره المؤلّف مع الأمراء، والأكابر، والعلماء، ومنهم العلّامة «العزّ بن عبد السلام»، و«القاضي ابن الجُمَّيْزي»، والعلّامة «سراج الدين الأرمَويّ»، والشريف «عماد الدين العباسي السلماني»، والقاضي «عماد الدين بن القُطْب» والخطيب «فخر الدين بن السّكّري»، والخطيب «أصيل الدين الإسعِرديّ»، وغيرهم من أهل الفضل والأدباء والشعراء[٣].

وحضر المؤلّف يوماً مجلس السلطان وهو يسأل عن حديث «نِعمَ العبدُ صُهَيب» فأجاب عن ذلك، فكان «المعظّم» يُثْني عليه. ولم يزل ملازماً مجلسه إلى أن عاد مع الأمير «حسام الدين» إلى القاهرة، وقرّر عند ذلك تأليف كتاب باسم «المعظّم» والعودة إليه[٤].

وفيما كان بالمنصورة، ركب مع قاضي مصر «عماد الدين بن القطب» وصهر القاضي زوج أخته، الشريف «عماد الدين»، ووقفوا في البرّ الغربيّ، وبينهم وبين الفرنج النيل، فكانوا يشاهدون وقائع الحرب عن كثب[٥].

وفي الثاني من ذي الحجّة ٦٤٧هـ. تقدّم «المعظّم» إلى الأمير «حسام الدين» بالعودة إلى القاهرة، والإقامة بدار الوزارة نائباً للسلطنة، وخلع «المعظّم» على المؤلّف، ودخل القاهرة في الرابع من ذي الحجّة[٦].

وعاد السلطان المعظّم فأرسل في الخامس من المحرّم ٦٤٨هـ. يطلب من الأمير حسام الدين أن يقدم عليه، وهذه المرّة تأخر المؤلّف عن مرافقته ليتفرّغ لإنجاز كتاب عمله باسم «المعظّم» في الهيئة، سمّاه «النخبة الملكية في الهيئة الفلكية»، وضمّ إليه تاريخاً كان ألّفه باسم الملك الصالح، ثم توجّه يوم الأحد الثامن والعشرين من المحرّم حاملاً الكتابين، فبات بقليوب، ورحل منها إلى مَرصَفا وبات فيها، وفي

(١) مفرّج الكروب ٦/ورقة ٨٤أ.
(٢) مفرّج الكروب ٦/ورقة ٨٤أ.
(٣) مفرّج الكروب ٦/ورقة ٨٤ب، ٨٥أ.
(٤) مفرّج الكروب ٦/ورقة ٨٥أ.
(٥) مفرّج الكروب ٦/ورقة ٨٥ب.
(٦) مفرّج الكروب ٦/ورقة ٨٦أ.

صباح اليوم الأخير من المحرّم علم بمقتل السلطان، فانصرف عائداً إلى القاهرة فوصلها آخر النهار[١].

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٦٤٩هـ. سافر المؤلّف إلى الحجاز للحجّ مع الأمير حسام الدين، عن طريق النيل إلى قوص، ومنها إلى عَيْذاب، ثم إلى جدّة، ودخلا مكة المكرّمة مُحرمَين في أواخر شهر شعبان، وأقاما بها شهور رمضان، وشوّال، وذي القعدة. ثم توجَّها إلى المدينة المنوّرة، ومنها إلى يَنبُع حيث مكثا بها خمسة عشر يوماً، ثم سافرا إلى مصر على الهُجُن، فوصلا إلى القاهرة بعد خمسة عشر يوماً أخرى[٢].

وفي سنة ٦٥١هـ. ترك الأمير حسام الدين الخدمة في مصر وأقام بالشام[٣]، وافتقده المؤلّف، ولم نعد نقف على أخبار «ابن واصل» الخاصة لعدّة سنوات، إلى أنْ أخبرنا أنه كان في الجيزة عندما عمّ الطاعون الشامَ، والديارَ المصرية، فانتقل إلى القاهرة، وعندما وجد أنّ الطاعون قد انتشر في أنحائها عاد أدراجَه إلى الجيزة، وما لبث الوباء أن عمّها[٤].

وفي سنة ٦٥٣هـ. حجّ أخو المؤلّف، وكان الأمير على الركب الشامي الأمير «مجد الدين بن أبي زكري»، وهو فاضل في الأدب والمحاضرات، فأفادنا «ابن واصل» أنه كان يعرفه منذ إقامته بدمشق، وأنه اجتمع به مراراً، وكانا ينشدان لبعضهما الأشعار. والتقى أخو المؤلف في أثناء الحج بالملك الناصر داود وتعرّف عليه الملك وأثنى على أخيه المؤلّف، وأجازه وأجاز أولاده، كما أجاز أخاه المؤلّف بكل مرويّاته[٥].

وأخو المؤلّف هو: القاضي عماد الدين، عبد الرحمن بن سالم. . الحموي، الشافعيّ. وُلد سنة ٦٢٤هـ. وسمع من صفيّة القُرشية، وأبي القاسم بن رواحة. ناب عنه في قضاء حماه، وكان شيخ حديث بها. سمع منه المِزّي، والبرزالي، وهو أرّخ وفاته في ٦ شعبان ٦٩٢هـ[٦].

وفي سنة ٦٥٧هـ. يخبرنا أنه حضر مجلس الملك المنصور «نور الدين علي بن الملك المعزّ» إلى جانب «العزّ بن عبد السلام»، وقاضي القضاة بالديار المصرية «بدر الدين يوسف بن الحسن»[٧].

---

(١) مفرّج الكروب ٦/ورقة ٩٠أ، ب.
(٢) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١١٠أ، ب.
(٣) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١١١أ.
(٤) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١٣٠ب.
(٥) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١١٦أ.
(٦) المقتفي ١/ورقة ٢٠٤أ، تاريخ الإسلام ٥٢/١٥٨ رقم ١١٩.
(٧) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١٤٥ب، ١٤٦أ.

وعندما سقطت حلب بيد التتار في أوائل شهر صفر سنة ٦٥٧هـ. خرج أهل حماه جافلين، ومعهم الملك المنصور صاحب حماه إلى أن وصل إلى القاهرة، ومنذ أن أقام بها إلى أن غادرها عائداً إلى بلده، كان المؤلّف كثير التردّد إلى داره في درب شمس الدولة، ولم يكن له سابقُ معرفةٍ به، ولكنّ أخاه الأصغر كان في خدمته، وله به أُنس كبير، عرّفه بأخيه، وكان كثيراً ما يذكره له، فلما اجتمع به مال إليه جدًّا وسُرّ به سروراً كثيراً، كما حدّث عن نفسه، ولازمه مدّة مقامه بالقاهرة، إلى أن خرج الملك المنصور بصحبة السلطان المظفّر قُطُز لقتال التتار، في شهر رمضان، فأفطر المؤلّف ليلة السفر عنده وودّعه، وأنشده بيتين يُظَنّ أنهما للقاضي «الأرّجاني»[١].

وبعدما انتصر المظفّر قطز على التتار في موقعة عين جالوت. جهّز «ابن واصل» هديّةً غرِم عليها، ليمضي بها إلى المعسكر ويقدّمها للسلطان، وفي الطريق إليه تلقّى نبأ مقتله[٢]، وبعد تولّي الظاهر بيبرس السلطنة بمصر، وُلّي «ابن واصل» تدريس الزاوية التي كان يقرئ فيها الإمام الشافعيّ، مضافة إلى التدريس بالجامع الأقمر، وقضاء الجيزة، والإطفيحية[٣].

وفي شهر رمضان سنة ٦٥٩هـ. توجّه المؤلّف رسولاً من قِبَل الملك الظاهر بيبرس إلى الإمبراطور الألمانيّ صاحب صقلية «منفريد» ولد الإمبراطور «فردريك»، فأقام عنده مُكرَماً بمدينةٍ من مدائن أنبولية في البرّ الطويل المتّصل ببرّ الأندلس واجتمع به مراراً[٤]. وصنّف له كتاباً في المنطق سمّاه «الإنبروزية»[٥] (الإمبراطوريّة).

وفي سنة ٦٦١هـ. نراه في الإسكندرية عندما زارها الملك الظاهر بيبرس وقد زُيّنت ابتهاجاً بقدومه، فشاهد الزينة والأبراج التي رُفعت ترحيباً له، وذلك في شهر شوّال من تلك السنة[٦]، وبآخرها ينتهي الكتاب الذي بين أيدينا «مفرّج الكروب».

ويعود المؤلّف أخيراً إلى بلده ومسقط رأسه حماه، فكان يتردّد إليه المؤرّخ «أبو الفداء»، ويعرض عليه ما يحلّه من أشكال كتاب إقليدس، ويستفيد منه، وقرأ عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب، في العَرُوض، وصحّح عليه أسماء من له ترجمة في كتاب «الأغاني»[٧].

---

(١) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١٦٠أ.
(٢) مفرّج الكروب ج٦/ورقة ١٦٣ب.
(٣) مفرّج الكروب ج٦/ورقة ٨٤ب.
(٤) مفرّج الكروب ج٤/ ٢٣٤ و٢٤٨.
(٥) المختصر في أخبار البشر ٤/ ٣٨، أعيان العصر ٤/ ٤٤٧.
(٦) مفرّج الكروب ج٦/ورقة ٤٢٤أ.
(٧) المختصر في أخبار البشر ٤/ ٤٣٨.

وفي أوائل سنة ٦٩٠هـ. دخل مصر من جديد، وهذه المرّة بصُحبة الملك المظفّر صاحب حماه، فأجاز هناك للعلاّمة «أثير الدين» جميع مَرْوِيّاته ومصنّفاته[١]. وأضرّ أخيراً[٢]، وتُوفّي يوم الجمعة في الثاني والعشرين من شوّال سنة ٦٩٧هـ. وقد نيّف على التسعين.

* * *

من هذه السيرة التي جمعناها عن المؤلّف من خلال أجزاء كتابه «مفرّج الكروب» وألّفنا بينها لتأتي متتابعةً متساوقةً سنةً بعد أخرى، يتبيّن لنا أنّنا أمام مؤرّخٍ عملاقٍ في علاقاته الواسعة مع سلاطين وملوك عصره، والصداقات التي ربطته بهم، ولم تقتصر تلك العلائق على ملوك المسلمين فحسْب، بل تَعَدَّتْهم إلى الفرنج، حيث أقام علاقةً حميمة مع ملك الألمان صاحب صقلّية، أثناء سفارته إلى بلاده موفداً من قِبَل السلطان الملك الظاهر بيبرس، إلى جانب شبكة العلائق الواسعة والكثيرة التي نسجها مع الوزراء والأمراء والأعيان، والعلماء من قضاة وفقهاء، وأطبّاء وأدباء وشعراء، . . وطوافٍ ورحلاتٍ في بلاد الشام وبلاد الروم، والعراق، ومصر، وصقلّية، وجنوب إيطاليا. ورؤيته، ومعايشته، بل ومشاركته الشخصية في عدّة وقائع. واستقائه الأخبار والمعلومات من مصادر مباشرة كانت صانعةً للأحداث في أغلب الأحيان.

هذا، إلى جانب اتّساع دائرة معارفه العلمية وتمكّنه من العلوم الدينية والعقلية، على السواء، من فقهٍ، وقراءات، وأصول دين، ونحو وصرف، وأدب، ونظْم شِعر، وعلم الهيئة، والمنطق، والفَلَك، والرياضيّات، مع حافظةٍ قويّة، ومقدرة بارعة في التأليف والتصنيف، وبراعة في التأريخ وعرض الوقائع والأحداث بأسلوب سهل، وواضح دون تعقيد، وتقديم وجْبةٍ غنية من الأدب الذي يصبّ في مجرى التاريخ.

وفوق هذا وذاك، تمتّع «ابن واصل» بذهنٍ متَّقِد، وذكاءٍ شديد، نوّه به كلّ الذين كتبوا سيرته وترجموا له، مع اشتغاله بالتدريس، والقضاء مدّة طويلة، حتى قيل إنه كان يشغل في حلقته في ثلاثين عِلماً وأكثر[٣]. وبذكائه وفراسته استطاع أن يكشف التزوير في المكاتبات التي كانت تحمل اسم وتوقيع الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد وفاته في سنة ٦٤٧هـ. وهي تأتي إلى الأمير «حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني» على أنها صادرة من الملك الصالح، وقد أخفى الأمير «فخر الدين

---

(١) أعيان العصر ٤/ ٤٤٨.

(٢) أعيان العصر ٤/ ٤٤٩.

(٣) أعيان العصر ٤/ ٤٤٧.

يوسف ابن شيخ الشيوخ» وفاته، طمعاً بتولية الملك المعظّم تورانشاه السلطنة، ليصبح «فخر الدين» أتابكاً للعساكر، ويقوم بتدبير المملكة، ويستحوذ على السلطان بعد ذلك. فاتّفق أنْ ورد على الأمير «حسام الدين» كتابٌ من العسكر في بعض المهامّ، فأوقف صديقه «ابنَ واصل» عليه، وقد ارتاب بأمره، وحين اطّلع مؤرّخنا على الكتاب أقسم بأنّه ليس بخط الملك الصالح، وحين سأله الأمير: كيف عرفت ذلك؟ قال: أحضِر لي بعض الكتب التي فيها خطّه، فأحضرها، فقابل «ابن واصل» بينها وبين الكتاب الذي وصل أخيراً، وتبيّن له اختلاف الخط، واستدلّ على ذلك من كتابة «الباء» من اسم «أيوب»، إذ كان الملك يكتبها ممدودة، ووردت في الكتاب شبيهة بالراء[١]. وظهر فيما بعد أنّ الكاتب هو واحد من خَدَم الملك الصالح يُدعى «سُهَيل» ويُعرف بالسُهَيلي، كان خطّه يشبه خط الملك[٢].

وعندما كان سفيراً عند صاحب صقلّية سأله الإمبراطور عن مسائل تتعلّق بعلم المناظر وغيرها، فأخذها وسهر ليلته، وأصبح وقد أملى الجواب عليها في مجلَّدٍ صغير، فعظُم شأنه عند الإمبراطور وأدهشه، وقال له: يا قاضٍ، ما سألناك عن حلالٍ ولا عن حرامٍ في دينك الذي هو من اختصاصك كقاضٍ، وإنّما سألناك عن أشياء لا يعرفها إلا الفلاسفة الأقدمون، فأجبتَ عنها، وليس معك كتبٌ ولا ما تستعين به[٣].

وهكذا كان مؤرّخنا «ابن واصل» مقرّباً من ملوك عصره، ومثله أخوه الأصغر منه، وقبلهما أبوهما، وكلّهم تولّوا القضاء، وخدموا ملوك حماه.

ولم نعرف إنْ كان المؤلّف قد تزوّج أو أنجب، فرغم سيرته الحافلة بالأخبار لم يتناول ما يفيد بشيءٍ عن أسرته الخاصّة ولو بإشارةٍ واحدة، رغم أنه أشار إلى وجود أبناءٍ لأخيه[٤]، وأنّ المؤرّخ القاضي «شهاب الدين ابن أبي الدم» هو نسيبه[٥]. وأن الحكيم «زين الدين بن سعد الدين بن سعد اللّه بن واصل هو ابن عمّه الذي اعتقله الملك المجاهد صاحب حمص. وشفع فيه صاحب مصياف مقدّم الإسماعيلية فخلّص بعد مدّة[٦].

---

(١) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١٧٧أ.
(٢) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١٧٦أ.
(٣) أعيان العصر ٤/٤٤٧.
(٤) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١١٦أ.
(٥) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١٤٠أ.
(٦) مفرّج الكروب ٥/٢٢٧ حوادث سنة ٦٣٧هـ.

البلدان التي أقام بها
أو تنقّل بينها المؤلّف وتواريخ ذلك

حماه	٦٠٤ ـ ٦١٦هـ.	نصيبين	٦٤١هـ.	جدّة	٦٤٩هـ.
المَعَرّة	٦١٩هـ.	ماردين	٦٤١هـ.	مكة المكرّمة	٦٤٩هـ.
حماه	٦٢١هـ.	رأس عين	٦٤١هـ.	المدينة المنوّرة	٦٤٩هـ.
دمشق	٦٢١هـ.	حَرّان	٦٤١هـ.	ينبُع	٦٤٩هـ.
القدس	٦٢٢هـ.	حلب	٦٤١هـ.	القاهرة	٦٤٩هـ.
دمشق	٦٢٦هـ.	قنسرين	٦٤١هـ.	الجيزة	٦٥١هـ.
حلب	٦٢٧هـ.	المَعَرَّة	٦٤١هـ.	القاهرة	٦٥١هـ.
دمشق	٦٢٨هـ.	حماه	٦٤١هـ.	الجيزة	٦٥١هـ.
الكَرَك	٦٢٩هـ.	القدس	٦٤١هـ.	صقلّية	٦٥٩هـ.
البلقاء	٦٣٠هـ.	غزّة	٦٤١هـ.	جنوب إيطاليا	٦٥٩هـ.
حماه	٦٤٠هـ.	العبّاسية	٦٤١هـ.	الإسكندرية	٦٦١هـ.
حلب	٦٤١هـ.	القاهرة	٦٤٢هـ.	حماه	؟ ـ ٦٩٠هـ.
حَرّان	٦٤١هـ.	دمشق	٦٤٦هـ.	القاهرة	٦٩٠هـ.
دُنيسر	٦٤١هـ.	القاهرة	٦٤٦هـ.	حماه	٦٩٠ـ ٦٩٧هـ.
ماردين	٦٤١هـ.	الصالحيّة	٦٤٧هـ.		
نصيبين	٦٤١هـ.	منزلة حاتم	٦٤٧هـ.		
الموصل	٦٤١هـ.	تلبانة	٦٤٧هـ.		
تِكريت	٦٤١هـ.	المنصورة	٦٤٧هـ.		
المَزْرَفَة	٦٤١هـ.	القاهرة	٦٤٧هـ.		
بغداد	٦٤١هـ.	قليوب	٦٤٨هـ		
تكريت	٦٤١هـ.	مَرصَفا	٦٤٨هـ.		
المستعصمية	٦٤١هـ	القاهرة	٦٤٨هـ.		
العُقْر	٦٤١هـ.	قوص	٦٤٩هـ.		
المُوصل	٦٤١هـ.	عَيْذاب	٦٤٩هـ.		

أساتذته وشيوخه وأقرانه الذين أفاد منهم:

ممّا لا شك فيه أنّ والد المؤلّف كان أول أساتذته بحكم التربية والتنشئة الأُسَرية، وبحكم المرافقة الدائمة لسنواتٍ طويلة بين الوالد وولده كما هو واضح من السيرة الذاتية التي سبقت.

أمّا أساتذته وشيوخه الذين تلقّى العلم عليهم، أو سمع منهم، أو أخذ الإجازة بمرويّاتهم فهم كثيرون، إلّا أنّ المعروفين لدينا لا يزيدون على العشرة إلّا قليلاً، وإنْ كنّا نعتقد أنهم أكثر من ذلك بكثير، نظراً لرحلته الواسعة، من جهة، وتنوّع معارفه من جهةٍ أخرى.

وفيما يلي أسماء شيوخه أو الذين سمع منهم، نذكرهم مرتّبين على الألف باء.

١ ـ ابن أبي زكري

هو الأمير مجد الدين بن أبي زكري. كان أميراً جليلاً، عظيم القدر، جواداً، شجاعاً، من بيتٍ كبير من الأكراد. خدم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو بالشرق، وقدِم في خدمته إلى الشام، ولما مَلَك مصر كان في خدمته إلى أن تُوُفّي، وقُتل ابنه الملك المعظّم، ثم اتّصل بخدمة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف واستنابه بنابلس وما معها، واستشهد فيها على أيدي التتار.

كان فاضلاً في الأدب والمحاضرات، حَسَن المحادثة، كريم العشرة.

اجتمع به المؤلّف مراراً، وسمع شيئاً من شِعره، كما أنشده المؤلّف[١].

٢ ـ ابن الخبّاز

هو العلّامة محمد بن أبي بكر بن علي، نجم الدين ابن الخبّاز، الموصلي، الشافعيّ، الفقيه. كان من كبار العلماء.

ولد سنة ٥٥٧هـ. ورحل إلى مصر وأقام بها مدّة، وتفقّه عليه جماعة.

وكان كيّساً، لطيفاً، متواضعاً، بصيراً بالمذهب.

توفي بحلب في سابع ذي الحجّة سنة ٦٣١هـ[٢].

---

(١) مفرّج الكروب ٦/ورقة ١١٦أ و١٥٠ب.

(٢) انظر عن (ابن الخباز) في: عقود الجمان، لابن الشعار ٦/ورقة ١٥٧، ١٥٨، وذيل الروضتين ١٦٢، والأعلاق الخطيرة ج١ ق١/١٠٧، ووفيات الأعيان ٧/١٠٠، وتاريخ الإسلام (٦٣١ ـ ٦٤٠هـ.) ص٨٤، ٨٥ رقم ٦٢، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/٤٩٩ رقم ٤٥٦، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/٤٦ (٨/١١٣)، وطبقات الشافعية للمطري، ورقة ٢٠٣ب، ٢٠٤أ، والعقد المذهب ٣٦٦ رقم ١٤٢٦، وطبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح ٢/٨٤٦، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/٤١٥ رقم ٣٨٤، وطبقات النحاة واللغويين، له، ورقة ١٤، والمقفى =

اشتغل عليه «ابن واصل» في المذهب والأصول، أثناء إقامته بحلب سنتي ٦٢٧ و٦٢٨هـ[١].

٣ ـ ابن الخشّاب

هو جمال الدين بن الخشّاب، أحد شعراء مصر، سمعه يُنشِد السلطان الملك المعظّم ابن الملك الصالح عندما وصل إلى العسكر بالمنصورة عام ٦٤٧هـ. ويهنّئه بمَقْدمه بقصيدةٍ هائيّة، لم يعلق بخاطره منها سوى بيتٍ واحد، هو:

بكم بني أيّوبَ أهل العُلى ... يكسر دينَ الشِّرْك دينُ الإلٰه[٢]

٤ ـ ابن رزين

هو محمد بن عبد الكريم بن رزين البَعْلبَكّيّ، شمس الدين النحويّ. ولّاه الملك المعظّم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل (ت ٦٢٤هـ.) التدريس، بعد أن بنى بالحرم القُدسيّ الشريف قبّةً. ووقف عليها وقفاً جليلاً على أن يُشتغل فيها بالقراءات السبع، وشرط أن لا يُصرف من وقْفها شيء إلّا للحنفية فقط.

كان ابن رزين تلميذاً للشيخ تاج الدين الكِنْديّ[٣]، وتُوفّي فجأةً في سنة ٦٣٥هـ[٤].

قال المؤلّف: قرأت عليه في قبّة الحرم القدسيّ كتاب «الإيضاح» لأبي علي الفارسيّ، عام ٦٢٤هـ. وجوّدت عليه القرآن العظيم، وكان حَسَن القراءة جيّد الأداء، حافظاً للقراءات العَشْر وطُرُقها[٥].

٥ ـ ابن شدّاد

هو القاضي، بهاء الدين، أبو المحاسن، وأبو العزّ، يوسف بن رافع بن

= الكبير للمقريزي ٥/ ٤٤١، ٤٤٢ رقم ١٩٢٣، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٦ ـ ٢٨٨، ومعجم الشافعية لابن عبد الهادي، ورقة ٦٨، وهدية العارفين ٢/ ١١٣، ومعجم المؤلفين ٩/ ١١٤، وكنوز الذهب ١/ ٣١٧.

(١) مفرّج الكروب ٤/ ٣١١.

(٢) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٨٣ب.

(٣) هو أبو اليُمْن، زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عِصْمة بن حِمْيَر، الكِنْدي، المقريء، النحويّ، اللغويّ، العلّامة. ولد سنة ٥٢٠هـ. وتوفي سنة ٦١٣هـ. انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام (٦١١ ـ ٦٢٠هـ.) ص١٤١ ـ ١٤٧ رقم ١٤٣ وفيه حشدنا مصادر ترجمته الكثيرة.

(٤) ذيل الروضتين ١٦٥، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ـ تأليفنا ـ القسم الثاني ج٤/ ٥٠ رقم ٤٦.

(٥) مفرّج الكروب ٤/ ٢١٢.

تميم بن عُتْبة بن محمد بن عتّاب الأسدي، الحلبيّ الأصل، الموصليّ المولد والمنشأ، الشافعيّ، الفقيه، المعروف بابن شدّاد.

ولد سنة ٥٣٩هـ. وتفقّه وتفنّن، وبرع في العلم، وحدّث بمصر، ودمشق، وحلب. وكان ثقةً، حُجّة، عارفاً بأمور الدين، اشتهر اسمه، وسار ذِكره، وكان ذا صلاح وعبادة. وكان في زمانه كالقاضي أبي يوسف في زمانه، دبّر أمور المُلك بحلبَ، واجتمعت الألسُن على مدحه، وأنشأ دار حديثٍ بحلب، وصنّف كتاب «دلائل الأحكام» في أربع مجلّدات، و«الموجز الباهر» في الفقه، و«ملجأ الحكّام» في الأقضيّة، في مجلّدين، و«النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية» وهو سيرة الناصر صلاح الدين الأيوبيّ.

توفّي سنة ٦٣٢هـ(١).

قال «ابن واصل» إنه قصد حلب لخدمته في سنة ٦٢٧هـ. فحضر مجلسه، واستفاد منه، وأقام بمدرسته التي أنشأها إلى جانب داره نحو سنة وزيادة(٢).

٦ ـ ابن مطروح

الأمير، الصاحب، جمال الدين، أبو الحسين، يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح، الأديب، الشاعر. وُلد بأسيوط سنة ٥٩٢هـ. وخدم الملك الصالح نجم

---

(١) انظر عن (ابن شدّاد) في: التكملة لوفيات النقلة ٣/ ٣٨٤، ٣٨٥ رقم ٢٥٧٤، وذيل الروضتين ١٦٣، ووفيات الأعيان ٧/ ٨٤ ـ ١٠٠، وتاريخ إربل ١/ ٢٢١، ومفرّج الكروب ٥/ ٨٩ ـ ٩١، وزبدة الحلب ٣/ ٢١٩، والأعلاق الخطيرة ج١ ق١/ ٩٥ و١٠٢ و١٠٧، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥٦، وتاريخ الإسلام (٦٣١ ـ ٦٤٠هـ.) ص١٣٣ ـ ١٣٧ رقم ١٥٠، والمعين في طبقات المحدّثين ١٩٦ رقم ٢٠٨١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦١، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٥٩، والعبر ٥/ ١٣٢، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٨٣ ـ ٣٨٧ رقم ٢٤٦، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٦١٩ ـ ٦٢١ رقم ٥٨٤، والمختار من تاريخ ابن الجزري ١٥٩، ١٦٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٦٠، ونثر الجمان ٢/ورقة ٦٦، ٦٧، ومرآة الجنان ٤/ ٨٢ ـ ٨٤، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ١١٥ ـ ١١٧، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٥١ (٨/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢)، وطبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير ٢/ ٨٤٨ ـ ٨٥٠ رقم ٢٠، والبداية والنهاية ١٣/ ١٤٣، والعقد المذهب ١٥٨ رقم ٣٩٧، وطبقات فقهاء الشافعيين لابن الصلاح ٢/ ٩٠٤، ونزهة الأنام لابن دقماق ٧٧، ٧٨، وغاية النهاية ٢/ ٣٩٥، ٣٩٦، وذيل التقييد ٢/ ٣٢١ رقم ١٧١٦، وكنوز الذهب ١/ ٢٨٩، ٢٩٠، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤٢٧، ٤٢٨ رقم ٣٩٨، والأنس الجليل ٢/ ٤٤٧، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٩٢، وكشف الظنون ١٢٥ و٧٥٩ و١٠١٥ و١٢٧٥ و١٧٣٩ و١٨١٦ و١٨٩٨، وشذرات الذهب ٥/ ١٥٨، ١٥٩، وإيضاح المكنون ٢/ ٦٨١، وهدية العارفين ٢/ ٥٥٣، ٥٥٤، والأعلام ٩/ ٣٠٦، وفهرس المخطوطات المصوّرة ٢/ ١١ و٣/ ٣٢٨، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) مفرّج الكروب ٣/ ٩.

الدين في مدّة نيابته بالديار المصرية عن والده الملك الكامل سنة ٦٢٥هـ. ورتّبه ناظر الخزانة، ولما تملّك الصالح دمشق سنة ٦٤٣هـ. رتّبه والياً للبلد، ولبس زيّ الأمراء، وارتفعت منزلته، فلما قدِم الصالح دمشق سنة ٦٤٦هـ. عزله وتنكّر له لأمورٍ نَقَمَها عليه، ومع ذلك بقي ملازماً خدمته وهو مُعرِضٌ عنه إلى أن توفي الملك الصالح، فلزِم بيته، وتوفّي سنة ٦٤٩هـ[١].

قال «ابن واصل»: كان لي به أنسٌ كثير، واجتمعت به اجتماعات كثيرة، أولها بدمشق حين قدِم الملك الصالح من الشرق، وبعد ذلك اجتمعت به بدمشق بعد قدومه من مصر مع محيي الدين بن الجوزي، ثم في حماه وهو نازل بالدار التي على العاصي المعروفة بدار زين الدين بن قُرناص، ثم بالأمير مبارز الدين آقُش المنصوري، وكنت أتردّد إليه كثيراً منها، وكان يأخذ عني شيئاً من العلم، ونتذاكر في أشياء من الأدب. ثم اجتمعت به بالديار المصرية، وأنشدني كثيراً من أشعاره[٢].

٧ ـ ابن يعيش

العلّامة، موفّق الدين، أبو البقاء، يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا محمد بن علي بن المفضّل الأسدي، الموصليّ الأصل، الحلبي، النحويّ.

وُلد بحلب سنة ٥٥٣هـ. وكان من كبار أئمّة العربية، تخرّج به أهل حلب،

---

(١) انظر عن (ابن مطروح) في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٨٨، ٧٨٩، وفيه وفاته سنة ٦٥٥هـ.، وعقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي (نسخة أسعد أفندي ٢٣٣٠) ج١٠/ ورقة ٥أ، وذيل الروضتين ١٨٧ (في وفيات سنة ٦٥٠هـ.) ووفيات الأعيان ٦/ ٢٥٨ ـ ٢٦٦ رقم ٨١١، وصلة التكملة، للحسيني، ورقة ٦٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٨٦، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٣١، وتاريخ الإسلام (٦٤١ ـ ٦٥٠هـ.) ٤٣٣ ـ ٤٣٥ رقم ٥٨٣، والمشتبه ١/ ١١٧ و٢/ ٤٨١، وتكملة إكمال الإكمال ٢٩٨ ـ ٣٠٢، والعبر ٥/ ٢٠٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٧٣، ٢٧٤ رقم ١٨٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٤٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٧، ١٨٨، ومرآة الجنان ٤/ ١١٩، ١٢٠، والدرّة الزكية ٢٠، ٢١، وإنسان العيون لابن أبي عذيبة، ورقة ٣٩٤، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨٢ (في المتوفين سنة ٦٥٠هـ.)، وعيون التواريخ ٢٠/ ٥٤ ـ ٦١، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٨٥، وعقد الجمان (١) ٥٩ ـ ٦٢، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٨٢، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٤ (في حوادث سنة ٦٤٩هـ.)، و٧/ ٢٧ (في حوادث ووفيات سنة ٦٥٠هـ.) وثمرات الأوراق لابن حجّة الحموي ١٥، وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٧ رقم ٤٨ وفيه وفاته سنة ٦٥٤هـ.، وتاريخ ابن سباط ـ بتحقيقنا ـ ١/ ٣٦١، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٩٠، وشذرات الذهب ٥/ ٢٤٧، ٢٤٨، وكشف الظنون ٧٦٨، وديوان الإسلام ٤/ ٢٨٨ رقم ٢٠٥٤، والأعلام ٨/ ١٦٢، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٢١٧، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ١٠٥.

(٢) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٧٣أ، ب.

وطال عُمُره وشاع ذِكره. أقرأ العربية والتصريف مدّة طويلة، وكان ظريفاً مطبوعاً، خفيف الروح، طيّب المزاج مع سكينة ورزانة، وله نوادر كثيرة. وكان طويل الروح، حسن التصرّف. شرح «المفصّل» للزمخشري، و«التصريف» لأبي الفتح بن جنّي.

توفّي سنة ٦٤٣هـ[١].

اشتغل عليه «ابن واصل» في النحو، أثناء إقامته بحلب سنتي ٦٢٧ و٦٢٨هـ[٢].

٨ ـ البِرْزاليّ

هو الحافظ، الرحّال، زكيّ الدين، أبو عبد اللّه، محمد بن يوسف بن محمد بن أبي يُدّاس، البرزالي، الإشبيلي.

وُلد، تقريباً سنة ٥٧٧هـ.

رحل من إشبيلية بالأندلس إلى الإسكندرية، فمصر، وحجّ، ثم جاور، ورحل إلى دمشق، ثم عاد إلى مصر، ثم عاد إلى دمشق، ورحل إلى خُراسان وبلاد الجبل، وسمع بأصبهان، ونيسابور، ومرو، وهَرَاة، وهَمَذان، وبغداد، والريّ، والموصل، وتكريت، وإربل، وحلب، وحرّان، وعاد إلى دمشق فاستوطنها وكتب، ونسخ، وخرّج لكثيرٍ من شيوخ دمشق، وولي مشيخة مشهد عُروة. وحدّث بالكثير، ولم يفتُر عن السماع، وكان يحفظ ويُذاكر مذاكرة حسنة.

---

(١) انظر عن (ابن يعيش) في: إنباه الرواة على أنباه النُحاة، للقفطي ٤/ ٣٩ ـ ٤٤ رقم ٨٢٣، وعقود الجمان لابن الشعّار ج١٠/ ورقة ١٠٨أ، ووفيات الأعيان ٧/ ٤٦ ـ ٥٣ رقم ٨٣٣، وصلة التكملة للحسيني، ورقة ٣١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٧٤، ١٧٥، وفيه: «يعيش بن محمد بن علي»، وطبقات الشافعية للمطري، ورقة ٢٠٦أ، وتاريخ الإسلام (٦٤١ ـ ٦٥٠هـ.) ص٢٣٣ ـ ٢٣٥ رقم ٢٨٧، والمعين في طبقات المحدّثين ٢٠٣ رقم ٢١٤٥، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٤٥، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦٨، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٤٤، ١٤٥ رقم ١٠١، والعبر ٥/ ١٨١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٧٦ وفيه: «يعيش بن محمد بن علي»، وهو يتابع أبا الفداء في مختصره، وتلخيص أخبار النحويين واللغويين لابن مكتوم (نسخة التيمورية) ورقة ٢٧٤، ومرآة الجنان ٤/ ١٠٦ ـ ١٠٨ وفيه «موفق الدين بن يعيش»، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٤١، ٥٤٢، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٥، وبغية الوعاة ٢/ ٣٥١، ٣٥٢ رقم ٢١٦٥، وتاريخ الخلفاء ٤٧٦، وكشف الظنون ٤١٢ و١٧٧٥، ومفتاح السعادة ١/ ١٥٨، ١٥٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢٢٨، وهدية العارفين ٢/ ٥٤٨، وديوان الإسلام ٤/ ٤١٠ رقم ٢٢٢٧، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤/ ٣٨٣ ـ ٣٨٦ رقم ٢٠٤، واكتفاء القنوع لڤانديك ٣٠١، والأعلام ٨/ ٢٠٦، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٢٥٦، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٥/ ٣٦٨، ٣٦٩.

(٢) مفرّج الكروب ٤/ ٣١١.

توفّي سنة ٦٣٦هـ[١].

قال الحافظ «الذهبيّ»: حدّث عنه «ابن واصل» بدمشق، وببلده حماه[٢].

٩ ـ خُسرو شاهي

العلّامة شمس الدين، أبو محمد، عبد الحميد بن عيسى بن عَمُّويْه بن يونس بن خليل، الخسرو شاهي، التبريزيّ، المتكلّم.

ولد سنة ٥٨٠هـ. بخُسرو شاه، واشتغل بالعقليّات على الفخر الرازي، وسمع من المؤيّد الطوسيّ.

برع في علم الكلام، وتفنّن في العلوم، ودرّس وقرأ وأفاد. وتميّز في العلوم الحكمية، وحرّر الأصول الطبّيّة، وأتقن العلوم الشرعية.

توفّي سنة ٦٥٢هـ[٣].

---

(١) انظر عن (البرزالي) في: التكملة لوفيات النقلة ٣/ ٥١٤، ٥١٥ رقم ٢٨٩٤، وتكملة الصلة لابن الأبّار ٢/٦٤٣، ٦٤٤ رقم ١٦٦٢، وذيل الروضتين ١٦٨، وتاريخ إربل ١/ ٣٠٠ رقم ٢٠٢، وتكملة إكمال الإكمال ١٧٦، وتلخيص مجمع الآداب ٣/ ٢٥٠، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٩ وفيه: «محمود» وهو غلط، وتاريخ الإسلام٦٣١ ـ ٦٤٠هـ.) ص٣٠٧، ٣٠٨ رقم ٤٣٩، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦٤، والمعين في طبقات المحدّثين ١٩٨ رقم ١٢٠١، وتذكرة الحفّاظ ١٤٢٣/٤، والعبر ٥/ ١٥١، والمختصر المحتاج إليه ٢/ ١٠، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٥٥ ـ ٥٧ رقم ٣٧، ومرآة الجنان ٤/ ٩٤، وذيل المشتبه للسلامي ٤٦، ٤٧، والبداية والنهاية ١٣/ ١٥٣، والوافي بالوفيات ٥/ ٢٥٢ رقم ٢٣٣١، والمقفّى الكبير ٧/ ٥١٠، ٥١١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣١٤، وطبقات الحفّاظ ٢٥٠ رقم ١١٠٥، ودرّة الحجال في أسماء الرجال لابن أبي حجلة ٢/ ٢٩٨ رقم ٨٣٨، وشذرات الذهب ٥/ ١٨٢، وهدية العارفين ٢/ ١١٣، والدارس في تاريخ المدارس ١/ ٨٦، وديوان الإسلام ١/ ٢٩١ رقم ٤٥١، وإيضاح المكنون ٢/ ٥٠٩، وفهرس مخطوطات التيمورية ٣/ ٣٠، وعلم التأريخ عند المسلمين ٦١٩، والأعلام ٨/ ٢٤، ومعجم المؤلّفين ١٢/ ١٣٥، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ١/ ١٦٥.

(٢) تاريخ الإسلام (٦٩١ ـ ٧٠٠هـ.) ص٣٣٨.

(٣) انظر عن (الخسرو شاهي) في: عيون الأنباء ٢/ ١٧٣، ١٧٤، والفوائد الجليّة ١٥١، ١٥٢، ومعجم البلدان ٣/ ٤٣٨، ومرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٩٣، وذيل الروضتين ١٩٨، والحوادث الجامعة، وفيه: «عبد الحميد بن حسن بن شاهي»، والعبر ٥/ ٢١١، ٢١٢، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥١، وتاريخ الإسلام (٦٥١ ـ ٦٦٠هـ.) ص١٢٥، ١٢٦ رقم ٦٨، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٨١، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٦٠، وطبقات الفقهاء الشافعيين ٢/ ٨٧١ رقم ٧، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨٥، وعيون التواريخ ٢٠/ ٧٧، والوافي بالوفيات ١٨/ ٧٣ ـ ٧٥ رقم ٧٦، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٠٦، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤٣٩ رقم ٤١٠، وفوات الوفيات ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٩ رقم ٢٤٥، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٢، وعقد الجمان (١) ٩٤، والدليل الشافي ١/ ٣٩٥ رقم ١٣٥٩، والمنهل الصافي ٧/ ١٤٩ رقم ١٣٦٣، وتاريخ الخلفاء =

قال «ابن واصل» إنه استفاد منه في العلوم النظرية، مع الملك الناصر داود عندما كان يحضر مجلسه بالكرَك في سنة ٦٣٠هـ[١].

١٠ ـ خشترين

حسام الدين، خشترين بن تُليل، جندي كُرديّ،

كان شاعراً مُجيداً، غير أنه كان أَلْكَن لحّاناً، وإذا نَظَم أجاد وأحسن.

انفرد «ابن واصل» بذِكره دون ترجمة، وقال إنه سمع منه قصيدة أنشدها في رثاء «ملكة خاتون» بنت الملك العادل، والدة الملك المظفّر، زوج الملك المنصور، في العزاء الذي أقيم بعد وفاتها عام ٦١٦هـ[٢].

١١ ـ سِبْط ابن الجوزي

الإمام، الواعظ، المؤرّخ، شمس الدين، أبو المظفّر، يوسف بن قُزُغْلي بن عبد اللّه التركيّ، ثم البغدادي العوني، الحنفيّ، سِبْط الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزيّ، نزيل دمشق.

وُلد سنة ٥٨١هـ.

كان إماماً، فقيهاً، واعظاً، وحيداً في الوعظ، علّامة في التاريخ والسِيَر، وافر الحُرمة، محبَّباً إلى الناس، حُلْو الوعظ، لطيف الشمائل. أقبل عليه أولاد الملك العادل، وصنّف في الوعظ والتاريخ وغير ذلك. ودرّس بالمدارس، وحظي عند الملك المعظّم إلى غاية.

صنّف «مناقب أبي حنيفة» في مجلّد، و«معادن الإبريز في التفسير» تسعة وعشرين مجلّداً، و«شرح الجامع الكبير» في مجلّدين، و«مرآة الزمان» في التاريخ.

توفّي سنة ٦٥٤هـ[٣].

= ٤٧٦، وشذرات الذهب ٥/ ٢٥٥، وهدية العارفين ١/ ٥٠٦، ومعجم المؤلفين ٥/ ١٠٣.

(١) مفرّج الكروب ٥/ ٣٥.

(٢) مفرّج الكروب ٤/ ٦٥ ـ ٦٩.

(٣) انظر عن (سبط ابن الجوزي) في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧١٦، وذيل مرآة الزمان ١/ ٣٩ ـ ٤٣، وذيل الروضتين ٤٨، ٤٩ و١٩٥، والمعين في طبقات المحدّثين ٢٠٨ رقم ٢١٨١ وفيه «يوسف بن الفرغلي» وهو غلط، وأرّخ وفاته بسنة ٦٥٦هـ. (الحاشية ٢١٨١). وتاريخ الإسلام (٦٥١ ـ ٦٦٠هـ.) ص١٨٣ ـ ١٨٥ رقم ١٧٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٣، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٦، ٢٩٧ رقم ٢٠٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٢، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٤٠، ٢٤١، والعبر ٥/ ٢٢٠، ووفيات الأعيان ٣/ ١٤٢، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٦، والجواهر المضيّة ٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣٢ رقم ٧١٩، وميزان الاعتدال ٣/ ٣٣٣، =

حضر «ابن واصل» مجلس وعظه الذي كان يعقده في الجامع الأمويّ الكبير بدمشق، وهو يذكر فضائل بيت المقدس، وسمعه يورد قصيدةً تائيّة على وزن قصيدة «دِعبل بن علي الخُزاعيّ»، ولم يعلق بذهنه منها سوى بيتٍ واحد. وذلك في سنة ٦٢٦هـ[(١)].

١٢ ـ قيصر بن أبي القاسم

العالم، المهندس، الفلكي، الرياضيّ، عَلَم الدين، قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر، الحنفيّ.

ولُد بمصر، ومات بدمشق سنة ٦٤٩هـ.

له رسالة في بديهيّات إقليدس[(٢)].

وصفه «ابن واصل» بـ«شيخنا في العلوم الرياضية»، وقال: كان عظيماً في العلوم الرياضية[(٣)].

١٣ ـ المعظّم تورانشاه

السلطان، الملك، المعظّم، غياث الدين، تورانشاه بن أيّوب بن محمد بن العادل.

كان قويّ المشاركة في العلوم، حَسَن المباحث، ذكيّاً، ورموه بأشياء شنيعة قُتل من أجلها في سنة ٦٤٨هـ[(٤)].

= والمختصر في أخبار البشر ٣/٢٠٦، وعيون التواريخ ٢٠/١٠٣، ١٠٤، وفوات الوفيات ٤/ ٣٥٦، ٣٥٧، والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٤، ١٩٥، ومنتخب المختار لابن رافع ٢٣٦ ـ ٢٣٩ رقم ١٩٦، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٢٣، ٦٢٤ وفيه: «يوسف بن عبد اللّه بن فيروز»، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٠١، ولسان الميزان ٦/ ٣٢٨ رقم ١٩٦٨، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٩، وعقد الجمان (١) ١٣٢ ـ ١٣٥، والفوائد البهيّة ١٨٣، وتاريخ الخلفاء ٤٧٧، وتاج التراجم ٦١، وكشف الظنون ١٧٢ و٢٠٥ و٤٣٧ و٤٤٨ و٥٥٨ و٥٦٩ و٥١٩ و٥٢٠ و١٥٦٩ و١٥٩٢ و١٦٤٧ و١٧٢٣ و١٨٣٧ و١٩٨٨، وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٦، والدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤٧٨، ومفتاح السعادة ١/ ٢٥٥، ٢٥٦، وإيضاح المكنون ١/ ٢٧٤، وهدية العارفين ٢/ ٥٥٤، ٥٥٥، وفهرست الخديوية ٥/ ٥٧، ٥٨، وفهرس مخطوطات الموصل ٢٣٥، وفهرس الفهارس ٢/ ٤٥١، وفهرس المخطوطات المصوّرة ١/ ٣٣٣، ومعجم المؤلّفين ١٣/ ٣٢٤، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٣/ ١٤٣، ١٤٤، ومختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا ٤٦٠، ٤٦١ رقم ٨٦١، وتاريخ الأدب العربي ١/ ٣٤٦، وذيل تاريخ الأدب العربي ١/ ٥٨٩، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ـ القسم الثاني ـ ج٥/ ٦٩، ٧٠ رقم ١٣٦٨.

(١) مفرّج الكروب ٤/ ٢٤٥.

(٢) تراث العرب العلمي ـ قدري طوقان ٣٥٣، معجم المؤلفين ٨/ ١٣٦.

(٣) مفرّج الكروب ٥/ ١٤٦.

(٤) ستأتي ترجمته ومصادرها في حوادث ووفيات سنة ٦٤٨هـ. من هذا الكتاب.

وقف «ابن واصل» على نسخة من كتاب سيبويه وعليها خطّ الملك المعظّم في عدّة مواضع، وذلك في سنة ٦٢٣هـ[١]. كما صنّف «المعظّم» كتاباً بعنوان: «السهم المصيب في الردّ على الخطيب»، وقف عليه «ابن واصل» وهو في القدس فطالعه جميعه ووجده في غاية الحُسن، وعندما أتى إلى القدس سنة ٦٢٣هـ. استدعى «المعظّم» والد ابن واصل وباحثه في مسائل لُغَوية وفقهيّة، وكان المؤلّف حاضراً ذلك المجلس[٢]. وتردّد على مجالسه عندما نزل مصر سنة ٦٤٧هـ. فكان الاثنان يفيدان من بعضهما[٣].

١٤ ـ الناصر داود

الملك الناصر داود بن عيسى بن أبي بكر العادل الأيوبيّ.

وُلد بدمشق سنة ٦٠٣هـ. وتولّى السلطنة بدمشق بعد وفاة أبيه الملك المعظّم عيسى في سنة ٦٢٤هـ. ثم انتقل إلى الكرَك بعد سنتين، وفي سنة ٦٣٠هـ. دخل مصر، ثم عاد إلى الكرَك، ومنها سافر إلى بغداد لمقابلة الخليفة العباسي المستنصر باللَّه، وعاد إلى الكرَك، وحرّر القدس من الفرنج سنة ٦٣٧هـ.

كان يؤوي العلماء في بلاطه من الحكماء والأطبّاء والشعراء والأدباء والفلاسفة والكُتّاب وغيرهم.

توفّي سنة ٦٥٦هـ[٤].

قال «ابن واصل»: وكنت سمعت له وأنا في خدمته بالكرَك، أبياتاً قالها على طريقة الصوفية، وعُمُرُه إذ ذاك خمسٌ وعشرون سنة، وهو أكبر منّي بسنةٍ واحدة[٥].

تلاميذه

إذا كان شيوخ «ابن واصل» الذين أخذ عليهم العلم أو سمع منهم لم يبلغوا الخمسة عشر، كما تقدّم، فإنّ تلاميذه، بالمقابل، لم يبلغوا العشرة، حسبما وفّرته لنا المصادر، وإنْ كنّا نعتقد أنّ هؤلاء وأولئك يزيدون على ذلك بكثير، خاصّةً إذا عَرَفْنا أنه كان يشغل في حلقته في ثلاثين عِلماً وأكثر[٦].

---

(١) مفرّج الكروب ٤/ ٢١٠.

(٢) مفرّج الكروب ٤/ ٢١٢.

(٣) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٨٤أ و٨٥أ.

(٤) انظر مقدّمة كتابه: الفوائد الجليّة في الفرائد الناصرية ـ تحقيق الدكتور ناظم رشيد ـ سلسلة كتب التراث، بغداد ١٩٩٢، كما ستأتي ترجمته ومصادرها في حوادث ووفيات سنة ٦٥٦هـ. من هذا الكتاب.

(٥) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ١٣٣ب.

(٦) أعيان العصر ٤/ ٤٤٧.

وقد عرفنا من تلاميذه أو الذين أخذوا عنه وأفادوا منه، كُلاً من:

١ ـ ابن الأكفاني

محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري، السنجاري، المصريّ، رضيّ الدين، أبو عبد اللَّه، المعروف بابن الأكفانيّ.

طبيب، رياضيّ، حكيم، ناظم.

ولد بسنجار ونشأ بها، وسكن القاهرة، وزاول صناعة الطبّ،

من تصانيفه: «نُخب الذخائر في أحوال الجواهر»، و«اللُباب في الحساب»، و«غُنية اللبيب عند غيبة الطبيب»، و«إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد»، و«نهاية القصد في صناعة الفصد»، وله نظْم.

توفّي سنة ٧٤٩هـ[(١)].

حكى عن «ابن واصل» غرائب من حفظه وذكائه[(٢)].

٢ ـ ابن مطروح

تقدّم في شيوخ «ابن واصل»، رقم (٦)

قال «ابن واصل»: كان يأخذ عنّي شيئاً من العلم[(٣)].

٣ ـ ابن النفيس

العلّامة، علي بن أبي الحزم، علاء الدين، ابن النفيس القُرشي، الدمشقي، الطبيب. شيخ الأطبّاء في عصره.

---

(١) انظر عن (ابن الأكفاني) في: أعيان العصر ٤/ ٢٢٥ ـ ٢٣١ رقم ١٤٤٠، والوافي بالوفيات ٢/ ٢٥ ـ ٢٧ رقم ٢٧٥، وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/ ٦٢٦، ٦٢٧، والسلوك ج١ ق٣/ ٧٩٧، ونَيل الأمل في ذيل الدول لعبد الباسط الظاهري ـ بتحقيقنا ـ ج١/ ١٧٤ رقم ٩٩، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٥٢٣، والبدر الطالع ٢/ ٧٩، ٨٠، وكشف الظنون ٦٦ و١٤٩٠ و١٥٤٢ و١٩٣٥ و١٩٩٠، وإيضاح المكنون ٢/ ٦٩٢، وهدية العارفين ٢/ ١٥٥، وفهرست الخديوية ٦/ ٣٠ و٤٨، وفهرس دار الكتب المصرية ٦/ ١٨٠، ونور عثمانية كتبخانة ٢٠٢، والأعلام ٦/ ١٨٩، ومجلّة معهد المخطوطات العربية، للمنجّد ٥/ ٢٥١، ومجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق، لكرد علي ١٧/ ٤٦٣، ومعجم المؤلّفين ٨/ ٢٠٠، ٢٠١، وديوان الإسلام ١/ ١٩٤، ١٩٥، رقم ٢٩٣، ومختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا ١٦، ١٧ رقم ٣٦، وتاريخ الأدب العربي ٢/ ١٣٧، وذيله ٢/ ١٦٩، ومخطوطات الطب الإسلامي ١٥ ـ ١٧، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ١/ ٩٥، والمقفّى الكبير ٥/ ٧١ ـ ٧٣ رقم ١٦٠٩.

(٢) أعيان العصر ٤/ ٤٤٩.

(٣) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٧٣أ.

اشتغل وبرع في الصناعة والعلاج، وصنّف، ونبّه، واستدرك، وأفاد، وشغّل، وألّف في الطبّ كتاب «الشامل»، وهو كتاب عظيم تدلّ فهرسته على أن يكون ثلاثمائة مجلّدة، بيّض منها ثمانين مجلّدة. وفي الكُحْل كتاب «المهذّب»، و«شرح القانون» لابن سينا. وانتهت إليه رياسة الطبّ بالديار المصرية، وخلّف ثروة واسعة، ووقف داره وأملاكه وكتبه على البيمارستان المنصوريّ.

أخبر من رآه يصنّف في الطبّ أنه كان يكتب من صدره من غير مراجعة كتاب حالة التصنيف. وصنّف في الفقه، وفي أصول الفقه، وعلم الحديث، والنحو، وعِلم المعاني والبيان.

توفي سنة ٦٨٧هـ. وكان من أبناء الثمانين[(١)].

قال الحكيم السديد الدمياطي إنّ «ابن واصل» تعشّى ليلة عند «ابن النفيس» وصلّينا العِشاء الآخرة، إلّا أنّ القاضي جمال الدين كان يحتدّ في البحث ويحمارّ وجهُه، والشيخ علاء الدين في غاية الرياضة. ثم إنّ القاضي آخراً قال: واللّهِ يا شيخ علاء الدين، أمّا نحن فعندنا نُكَيتات ومواخذات وإيرادات وأجوبة، وأمّا أنت فهكذا خزائن علوم، هذا أمر بارع[(٢)].

٤ ـ أبو الفداء

الملك المؤيَّد، الإمام، العالم، السلطان، صاحب حماه، عماد الدين،

---

(١) انظر عن (ابن النفيس) في: دول الإسلام ٢/ ١٨٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٤، وتلخيص مجمع الآداب ٢/ ٤٤، وتاريخ الإسلام (٦٨١ ـ ٦٩٠هـ.) ص٣١١ ـ ٣١٣ رقم ٤٦٦، ومرآة الجنان ٤/ ٢٠٧، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٢٩، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٥٠٦، ٥٠٧ رقم ١٢٠٤، والبداية والنهاية ١٣/ ٣١٣، وعيون التواريخ ٢١/ ٤٢٩، ٤٣٠، وفيه: «علي بن علي بن أبي الحرم»، وتذكرة النبيه ١/ ١١٥، ١١٦، ودرّة الأسلاك ١/ورقة ١١٤، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/ ٤٢، ٤٣ رقم ٤٨٠، والسلوك ج١ ق٣/ ٧٤٦، وعقد الجمان (٢) ٣٧٤، ٣٧٥، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧، وتاريخ الخلفاء ٤٨٤، وحسن المحاضرة ١/ ٣١٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٩٠، وتاريخ الخميس ٢/ ٤٢٥، وروضات الجنات ٤٩٤، ٤٩٥، وكشف الظنون ٤٦٣ و٤٦٤ و٤٩٠ و٨٨٥ و١٠٢٤ و١١١٤ و١٢٦٩ و١٣١١ و١٣١٢ و١٨٩٩ و٢٠٣١، وإيضاح المكنون ١/ ١٨٨، وهدية العارفين ١/ ٧١٤، ومفتاح السعادة ٢٦٩، والدارس ٢/ ١٣١، وشذرات الذهب ٥/ ٤٠١، وديوان الإسلام ٤/ ٣٣٩، ٣٤٠ رقم ٢١٢٨، وتاريخ الأدب العربي ١/ ٤٩٣، وذيل تاريخ الأدب العربي ١/ ٨٩٩، والأعلام ٥/ ٧٨، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٥٧، ومعجم المؤلفين ٧/ ٥٥، ومختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا ١٦٨ و١٦٩، ومخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا، لرمضان ششن وغيره ٩٥ ـ ١٠٦، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٥/ ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢) أعيان العصر ٤/ ٤٤٨.

إسماعيل بن علي بن الملك المظفّر ابن المنصور الأيوبيّ.

المؤرّخ، الجغرافيّ، الفقيه، الرياضيّ، الناظم، الناثر.

نظَم «الحاوي» فأجاده، وصنّف «تقويم البلدان» فأجاده، وألّف «المختصر في أخبار البشر» في أربع مجلّدات.

مات بحماه سنة ٧٣٢هـ. وعاش ستّين سنة(١).

قال: تردّدت إلى «ابن واصل» بحماه مِراراً كثيرة. وكنت أعرض عليه ما أحلّه من أشكال الكتاب إقليدس، وأستفيد منه. وكذلك قرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب، في العَرُوض، فإنّه صنّف لهذه المنظومة شرحاً حسناً مطوّلاً، فقرأته عليه، وصحّحت أسماء من له ترجمة في كتاب «الأغاني»(٢).

٥ ـ أثير الدين

الإمام، العلّامة، النحويّ، الأستاذ، أبو حيّان، محمد بن يوسف بن علي بن حيّان الأندلسيّ، المالكيّ.

---

(١) انظر عن (أبي الفداء) في: دول الإسلام ٢/ ٢٣٩، وذيل العبر ١٧٠، ١٧١، والإعلام بوفيات الإعلام ٣٠٩، وذيل تذكرة الحفاظ ٣١، وذيل تاريخ الإسلام ـ بتحقيقنا ـ ٤٨٧، ٤٨٨ رقم ٩٠٠، والمختصر في أخبار البشر ٤/ ١٠٤، وتاريخ حوادث الزمان ـ بتحقيقنا ـ ج٢/ ٥٤٠ رقم ٦٢٣، والدرّ الفاخر ٣٦٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٩٧، ومرآة الجنان ٤/ ٢٨٤، وتاريخ سلاطين المماليك ١٨٤، وطبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٨٤، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ رقم ١٩٢، وعقود الجمان للزركشي ٧٣، والبداية والنهاية ١٤/ ١٥٨، والوافي بالوفيات ٩/ ١٧٣ رقم ٤٠٨٥، وفوات الوفيات ١/ ١٨٣ ـ ١٨٨، وتذكرة النبيه ٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٥، ودرّة الأسلاك ٢/ ورقة ٢٧٢، وأعيان العصر ١/ ٥٠٣ ـ ٥١١ رقم ٢٦٣، والجوهر الثمين ٢/ ١٦٤، والنفحة المسكية ـ بتحقيقنا ـ ص١٣١، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ١٠٩ ـ ١١١، والدرّ المنتخب في تكملة تاريخ حلب ١/ ورقة ١٦٢ب ـ ١٦٥ب، والسلوك ج٢ ق٢/ ٣٥٤، والمقفّى الكبير ٢/ ١٠٠ رقم ٧٥٣، والدرر الكامنة ١/ ٣٩٦ رقم ٩٤١، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٢، والمنهل الصافي ٢/ ٣٩٩ ـ ٤٠٨ رقم ٤٣٧، والدليل الشافي ١/ ١٢٥ رقم ٤٣٦، وتاريخ الخلفاء ٤٨٨، وتاريخ ابن سباط ٢/ ٦٥١، ٦٥٢، وكشف الظنون ١/ ٤٦٨، وشذرات الذهب ٦/ ٩٨، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٤٦٦ وفيه وفاته سنة ٦٣٣هـ. وإيضاح المكنون ٢/ ٣٨٢، وهدية العارفين ١/ ٢١٤، وديوان الإسلام ٤/ ١٥٠ رقم ١٨٦٥، والبدر الطالع ١/ ١٥١ رقم ٩٤، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٢٢، والأعلام ١/ ٣١٩، ومعجم المؤلفين ٢/ ٢٨٢، والتاريخ العربي والمؤرّخون ٤/ ٣٩ ـ ٤٢ رقم ٨، وتاريخ الأدب العربي ٢/ ٤٥، وذيل تاريخ الأدب العربي ٢/ ٤٤، وفهرس الجغرافية بالمكتبة الظاهرية ١١٦، ومختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا ٢٤٠، ٢٤١ رقم ٤٠٧.

(٢) المختصر في أخبار البشر ٤/ ٣٨.

وُلد سنة ٦٥٤هـ.

وكان عالماً، بارعاً، فاضلاً، راسخاً في النحو، عارفاً بفنون كثيرة. وله شهرة طائلة وتصانيف حافلة، وشُهرته تُغني في ذلك عن التعريف به.

توفي سنة ٧٤٥هـ[(١)].

قال «أثير الدين» عن «ابن واصل»: «قدم المذكور علينا القاهرة مع الملك المظفّر صاحب حماه، فسمعت منه، وأجاز لي جميع مرويّاته ومصنّفاته، وذلك بالكبش من القاهرة في يوم الخميس التاسع والعشرين من المحرّم سنة تسعين وستّ مئة. وهو من بقايا من رأيناه من أهل العلم الذين خُتمت بهم المئة السابعة. وأنشدنا

---

(١) انظر عن (أثير الدين) في: الإحاطة في أخبار غرناطة ٣/ ٤٣، وتاريخ الشجاعي ٢٧٧، وذيل تذكرة الحفاظ ٢٣، والمعجم المختص بالمحدّثين ٢٦٧، ٢٦٨ رقم ٣٤٤، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٧٢٣، ٧٢٤ رقم ٦٨٩، ومستفاد الرحلة والاغتراب ١٤٠ ـ ١٤٢، والمختصر في أخبار البشر ٤/ ١٤٢، وملء العيبة ٢/ ٢٥٢ و٢٥٥ و٣١٧ و٣١٩، والوفيات لابن رافع ١/ ٤٩٢ ـ ٤٩٤ رقم ٣٩٩، وأعيان العصر ٥/ ٣٢٥ ـ ٣٥٣ رقم ١٨٣١، والوافي بالوفيات ٥/ ٢٦٧ رقم ٢٣٤٥، ونكت الهميان ٢٨٠، وفوات الوفيات ٤/ ٧١ رقم ٥٠٦، وعيون التواريخ، ورقة ٧٠، ٧١، وتذكرة النبيه ٣/ ٦٨، ٦٩، ودرّة الأسلاك ١/ورقة ٣٤٥، وطبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٣١ ـ ٤٤ (٩/ ٢٧٦ رقم ١٣٣٦)، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٣٩، ٣٤٠، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٩ رقم ٤١٤، وطبقات الأولياء لابن الملقّن ٥٠٦، ٥٠٧ و٥٥٧، وغاية النهاية ٢/ ٢٨٥ رقم ٢٥٠٥، والوفيات لابن قنفذ ٣٤٩ رقم ٧٤٥، وذيل التقييد ١/ ٢٨٣ رقم ٥٦٢، والردّ الوافر ٦٢ ـ ٦٧ رقم ٢٧، والسلوك ج٢ ق٣/ ٢٧٦، والمُقفّى الكبير ٧/ ٥٠٣ ـ ٥٠٨ رقم ٣٦٠٠، والدرر الكامنة ٤/ ٣٠٢ ـ ٣١٠ رقم ٨٣٢، وطبقات اللغويّين والنُحاة لابن قاضي شهبة، ورقة ١٢٩، وبغية الوعاة ٢/ ١٢١ ـ ١٢٣، ونفح الطيب ٩/ ٣٣١ ـ ٤٠٢، والبدر الطالع ٢/ ٢٨٨ ـ ٢٩١، وعقد الجمان، ورقة ٣١٤ب ـ ٣١٦أ، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢ رقم ٦٢٦، ودرّة الحجال ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٤، والمنهل الصافي ٦/ ورقة ٧٧٣ ـ ٧٧٦، ووجيز الكلام ١/ ٨ ـ ١٠ رقم ٢، وطبقات المفسّرين للداودي ٢/ ٢٨٦ ـ ٢٩١ رقم ٦٠٨، ونيل الأمل في ذيل الدول ـ بتحقيقنا ـ ج١/ ٩٥، ٩٦ رقم ٢٠، وكشف الظنون ٥ و٦ و٤٩ و٦١ و٢٢٦ و٢٣٨ و٢٣٩ و٣٦٢ و٣٩٣ و٤٠٥ و٦٨٨ و٧١٧ و٩١٨ و٩٦٢ و١٠٢٨ و١١٠٨ و١١٥٢ و١١٨٩ و١١٩٤ و١٥٣٩ و١٥٦١ و١٥٨٠ و١٥٩١، و١٦١١ و١٦٧٨ و١٨٠٥ و١٨١٨ و١٨٦٤ و١٨٧٥ و١٨٧٦ و١٩١٠ و١٩٥٨ و١٩٨٣ و١٩٨٦ و١٩٩٣ و١٩٩٤، وإيضاح المكنون ١/ ٢٤ و١٠١ و١٢٢ و٥٨٣ و٢/ ١٩٩ و٤٤٦ و٦٢٤ و٦٥٥ و٦٥٧ و٦٧١ و٦٧٧ و٦٨٢، وهدية العارفين ٢/ ١٥٢، ١٥٣، وديوان الإسلام ٢/ ١٥٠، ١٥١ رقم ٧٦٢، وتاريخ الأدب العربي ٢/ ١٠٩، وذيله ٢/ ١٣٥، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٢٩، وفهرس الفهارس ١/ ١٠٨، ١٠٩، والرسالة المستطرفة ١٠١،. وبدائع الزهور ج١ ق١/ ١٩٩، ٢٠٠، والأعلام ٧/ ١٥٢، ومعجم المؤلفين ١٢/ ١٣٠، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٩، والمستدرك عليه ـ إعدادنا ـ ٢/ ١٢٢، ١٢٣.

لنفسه مما كتبت به لصاحب حماه الملك المنصور محمد بن مظفّر». وذكر له أبياتاً[١].

٦ ـ دَبيران

هو علي بن عمر بن علي، الكاتب، القزوينيّ، المتكلّم، المنطقيّ، الفيلسوف، صاحب التصانيف في مذهب الأوائل، أبو الحسن، نجم الدين.

له تصانيف عدّة.

مات سنة ٦٧٥هـ. وهو يقول بقِدَم العالم[٢].

قال الصفدي إنه حضر حلقة «ابن واصل» وأورد عليه أشكالاً في المنطق[٣].

٧ ـ السديد

هو الحكيم الدمياطي.

قال الصفدي إنه حكى عنه[٤].

* * *

والمعروف أنّ «ابن واصل» أُعطي التدريس في المدرسة الناصرية الصلاحية بالقدس بعد وفاة والده، من قِبَل الملك الناصر داود بن عيسى، وذلك في سنة ٦٣٠هـ[٥]. وفي سنة ٦٤٤هـ. وقّع الملك الصالح أيوب له بوظيفة التدريس في الجامع الأقمر بالقاهرة[٦]، وعندما تولّى الظاهر بيبرس السلطنةَ في مصرِ سنة ٦٥٨هـ. أُعطي تدريس الزاوية التي كان يقريء فيها الإمام الشافعيّ، مُضافةً إلى تدريسه بالجامع الأقمر، مع تولّيه القضاء[٧]. ولا شكّ في أنّ الكثيرين حضروا حلقته وسمعوه وتخرّجوا عليه واشتغلوا عنده، غير أنّ المصادر لم تذكر إلّا ما ندر منهم.

وكان لا يفتر عن الاشتغال بالعلم، حَضَراً وسَفَراً، فهو يشارك بالمناقشات

---

(١) أعيان العصر ٤/ ٤٤٨، ٤٤٩.

(٢) انظر عن (دبيران) في: تاريخ الإسلام (٦٧١ ـ ٦٨٠هـ.) ص٢٠٧ رقم ٢٥٨، وأعيان العصر ٣/ ٤١٨ و٦/ ٧، والوافي بالوفيات ٢١/ ٣٦٦، ٣٦٧ رقم ٢٣٧، وتاريخ مختصر الدول ٢٨٧، وفوات الوفيات ٣/ ٥٦ رقم ٣٤٦، وتاريخ الخلفاء ٤٨٣، وكشف الظنون ٥٤٠ و٦٨٠ و٨٤٢ و١١٨٢ و١٦١٤ و١٨١٩، وهدية العارفين ١/ ٧١٣، وفهرس المخطوطات المصوّرة بدار الكتب المصرية ١/ ٢٢٥، والأعلام ٤/ ٣١٥، ومعجم المؤلفين ٧/ ١٥٩.

(٣) أعيان العصر ٤/ ٤٤٦.

(٤) أعيان العصر ٤/ ٤٤٧.

(٥) مفرّج الكروب ٤/ ٣٥.

(٦) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٧٠أ.

(٧) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ٨٤ب.

العلمية التي كانت تدور في مجالس الملوك، بل إنه شارك في مجلس العلم عند صاحب صقلّية ملك الفرنج، وألّف له كتاباً أثناء سفارته[١].

وهو كثير المطالعة، قرأ كتاب «الإيضاح» لأبي علي الفارسيّ[٢]، وكتاب سيبويه، وكتاب «السهم المصيب في الردّ على الخطيب» من تصنيف الملك المعظّم[٣]. وكتاب «فرائد القلائد» للآمديّ، سيف الدين عليّ، الذي صنّفه للناصر داود، في العلوم العقلية[٤]. ووقف على «حماسة» صنّفها بعض المغاربة من أصحاب الأمير محمد بن يحيى بن عبد الواحد صاحب تونس[٥]. واطّلع على رسالةٍ ألّفها الفقيه عفيف الدين، عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي، الحنفيّ[٦]. واطّلع على «الكامل في التاريخ» لابن الأثير[٧]، و«ذيل كتاب الروضتين» لأبي شامة[٨]، وقرأ الكثير من دواوين الشعراء، وأثبت عدّة قصائد منها في صفحات متفرّقة من كتابه. كما اطّلع على كتاب إقليدس، و«منظومة» ابن الحاجب، في العَرُوض، وكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني و«الموجز» في المنطق، لأفضل الدين الخونجيّ، وكتاب «الجُمَل» للخونجيّ أيضاً، وكتاب «الأدوية المفردة» لابن البيطار، وكتاب «الأربعين» في أصول الدين، وغيره[٩]. وقرأ كتاب «الفوائد الجليّة في الفرائد الناصرية» للناصر داود، ونقل الكثير من قصائده ونثريّاته وضمّنها كتابه هذا.

ـ مؤلّفات «ابن واصل»

تنوّعت مؤلَّفات «ابن واصل» بتنوُّع معارفه العلمية، فصنّف في علم المنطق، والفَلَك، والطبّ، والهيئة، والتاريخ، والسِيَر، وأصول الدين، والعَرُوض والقوافي، والأدب.

وقاربت مصنّفاته العشرين بين رسالةٍ صغيرة وكتاب في عدّة مجلّدات، نذكرها فيما يلي مرتّبةً على حروف الألف باء.

(١) المختصر أخبار البشر ٤/ ٣٨، أعيان العصر ٤/ ٤٤٧.
(٢) مفرّج الكروب ٤/ ٢١٢.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) مفرّج الكروب ٥/ ٤٠.
(٥) مفرّج الكروب ٦/ورقة ٧٢ب.
(٦) التاريخ الصالحي ـ مخطوطة الفاتح باستانبول، رقم ٤٢٢٤، ونسخة الظاهرية، رقم ١٩٥ تاريخ.
(٧) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ١٤١أ و٣٩٩أ.
(٨) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ١٥٥أ.
(٩) يُستَدَلّ على ذلك من الكتب التي صنّفها.

١ ـ الإنبروزية

في عِلم المناظر (في المنطق). مجلّد صغير ألّفه للإمبراطور الألمانيّ «منفريد» صاحب صقلّية، أثناء سفارته إلى هناك سنة ٦٥٩هـ[١].

٢ ـ التاريخ الصالحي

وقيل: «البارع الصالحي في التاريخ»[٢]. ألّفه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو كتاب كبير قال في مقدّمته إنه «افتتحه بذِكر الأنبياء المرسَلين، وتواريخ الملوك المتقدّمين، ولما انتهى إلى ذِكر النبيّ ﷺ ابتدأ بذِكر نسبه ونسب أمّه وأعمامه وعمّاته وذِكر مولده ومَرْباه وأحواله إلى أن ابتعثه اللَّه تعالى. ثم أتْبَعَ ذلك بذِكر مبعثه وأحواله إلى أنْ هاجر، ثم بذِكر هجرته وغزواته وسَرَاياه وفتوحاته، ثم بذكر وفاته، ومن تولّى غسله، ونزل في قبره، وزوجاته وأولاده ومَوَاليه، وكُتّاب وحْيه، وقُضاته ورُسُله، ومؤذّنيه وأصحاب إذنه، وخيله وبغاله حُمُره وإبله وغنمه ودروعه ومَغَافِره وتُرْسيّه وقُسِيّه ونَبْله ورايته ولوائه ونقش خاتمه، وصفته وسيرته ومعجزاته. ثم أتبَعَ ذلك بذِكر الخلفاء الذين وُلّوا بعده على ترتيبهم في الزمن، وذِكر الحوادث الكائنة في أيامهم سنةً سنةً على ترتيب سِنيّ الهجرة، وعند ذِكر موت كل واحد منهم نذكر مبلغ عُمُره، ومقدار مدّة ولايته، وأولاده وكُتّابه وحُجّابه ووزرائه وصفته ونقش خاتمه، إلى أن ينتهي إلى ذِكر خليفة الوقت وإمام العصر، الإمام المستنصر باللَّه أمير المؤمنين صلوات اللَّه عليه وعلى آبائه الراشدين[٣] . . .».

وينتهي الكتاب عند دخول الملك الصالح دمشق في سنة ٦٣٦هـ.

منه نسخة في مجلّد قديم كامل، هامّ، من ٢٤٢ ورقة × ٢ = ٤٨٤ صفحة، في خزانة فاتح، باستانبول، رقم ٤٢٢٤[٤]، ونسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق، رقم ١٩٥ تاريخ، ونسخة في متحف روزن بلييننغراد، رقم ٦٣، ونسخة في مكتبة غوتا بألمانيا، رقم Pertsch ١٥٦٣، ونسخة في المتحف البريطاني، رقم Or. ٦٦٥٧ (من بدء الخليقة إلى موت الحسن)[٥].

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٤/ ٣٨.

(٢) هدية العارفين ٢/ ١٣٨، ديوان الإسلام ٤/ ٣٨٢ رقم ٩.

(٣) التاريخ الصالحي، ورقة ٢ب، نسخة الفاتح ٤٢٢٤.

(٤) التاريخ العربي والمؤرّخون، د. شاكر مصطفى ٤/ ٣٥.

(٥) في مكتبتنا نسخة مصوّرة عنها.

٣ ـ التاريخ الكبير

من أهمّ كتب «ابن واصل» الضائعة. أشار إليه مرّتين في «مفرّج الكروب»، أولاهما حين أحال إليه في الحديث عن نسب الفاطميّين، والثانية حين أحال مرة أخرى إليه للإطّلاع بالتفصيل على الحروب الكثيرة التي قامت بين قراقوش التقوي قائد صلاح الدين، وبين المغاربة، معتذراً بأنه «ليس هذا موضع ذِكرها»[١]. ورغم أنّ هذِه الحروب تكرّرت في السنوات ٥٧١ و٥٧٢ و٥٧٥ و٥٧٦ و٥٧٨ و٥٨٢، إلّا أننا لا نجد التفصيل الذي أشار إليه في أيّ كتابٍ من كتبه الأخرى[٢].

٤ ـ تجريد الأغاني من ذكر المثالث والمثاني

وقيل: «مختصر الأغاني»[٣]. جرّده «ابن واصل» للملك المنصور ناصر الدين أبي المعالي، في ٢٤٨ ورقة × ٢ = ٤٩٦ صفحة، منه نسخة في مكتبة آيا صوفيا باستانبول، رقم ٣١١٤، كُتبت في سنة ٦٦٦هـ[٤]. قال «الصفدي» إنه مَلَك نسخة عُظمى من هذا الكتاب، وكان خط «ابن واصل» عليها بعدما أضرّ[٥].

طُبع في ثلاثة أقسام من ستة أجزاء، نشره طه حسين، وإبراهيم الأبياري، مطبعة مصر ١٣٧٤هـ./ ١٩٥٥م. و١٣٨٣هـ./ ١٩٦٣م. وصدر على النحو التالي:

قسم ١، ج١ في ٤٦١ صفحة.

قسم ١، ج٢ في ٤٤٥ صفحة.

قسم ٢، ج١ في ٤٤٥ صفحة.

قسم ٢، ج٢ في ٤٤٩ صفحة.

قسم ٣، ج١ في ٤٤٧ صفحة.

قسم ٣، ج٢ في ٤٦٧ صفحة[٦].

٥ ـ خصائص الأنبياء

من الكتب الضائعة حتّى الآن ـ ذُكر في: إيضاح المكنون ١/ ٤٣٠، وهدية العارفين ٢/ ١٣٨، وديوان الإسلام ٤/ ٣٨٢ رقم ١٢.

---

(١) مفرّج الكروب، طبعة د. الشيّال (١٩٥٣) ج١/ ٢٠٤ و٢٣٦.

(٢) التاريخ العربي والمؤرّخون ٤/ ٣٥.

(٣) أعيان العصر ٤/ ٤٤٩، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/ ٥١.

(٤) مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا ١٧٩ رقم ٢٥١.

(٥) أعيان العصر ٤/ ٤٤٩.

(٦) المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٥/ ٣٢١، ٣٢٢.

٦ ـ خفايا الأفكار

من الكتب الضائعة حتى الآن. ذُكر في: هدية العارفين ٢/ ١٣٨، وديوان الإسلام ٤/ ٣٨٣ رقم ١٣.

٧ ـ شرح أبيات ابن اللمطي

من الكتب الضائعة حتى الآن[١]. أمّا «ابن اللمطي» فتذكر المصادر اثنين يُعرفان بهذه النسبة[٢]، وهما من الأمراء، ولا يُعرف إن كان المقصود أحدهما، أو غيرهما.

٨ ـ شرح الجُمَل

في المنطق. وهو شرح لكتاب «الجُمَل» الذي ألّفه أفضل الدين، محمد بن ناماوَر بن عبد الملك الخُونَجيّ[٣]، القاضي أبو عبد اللّه الشافعيّ، المتوفّى سنة ٦٤٦هـ.

٩ ـ شرح قصيدة ابن الحاجب

في العَرُوض والقوافي. و«ابن الحاجب» هو: أبو عمرو، عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الكُرديّ، الدُّوِيْنيّ الأصل، الأنطاكيّ المولد، المقرىء، المالكيّ، العلّامة جمال الدين، النحوي، الأصوليّ، الفقيه، صاحب التصانيف المنقّحة، المتوفى سنة ٦٤٦هـ[٤]. وعنوان القصيدة: «المقصد الجليل في علم الخليل»، أولها:

الحمد للّه ذي العرش المجيد على ... الباسه من لباس فضله حُلَلا

---

(١) مفرّج الكروب ٦/ ورقة ١٣٧ب، ١٣٨أ.

(٢) الأول هو: الأمير، أبو التُقَى، صالح بن إسماعيل بن أحمد بن حسن. توفي سنة ٦٣٣. انظر عنه في التكملة لوفيات النقلة ٣/ ٤١٣، ٤١٤ رقم ٢٦٥٠، ونهاية الأرب ٢٩/ ٢١٤، ٢١٥، ونثر الجمان ٢/ ورقة ٣٥، ٣٦، وتاريخ الإسلام (٦٣١ ـ ٦٤٠هـ.) ص١٤٩ رقم ١٧٥، والوافي بالوفيات ١٦/ ٢٥٠، ٢٥١ رقم ٢٧٣، ونزهة الأنام ٨٢.
والثاني هو: الأمير، مكرّم الدين، إسماعيل بن أحمد بن الحسن ابن اللمطي. توفي سنة ٦٣٨هـ. انظر عنه في: التكملة لوفيات النقلة ٣/ ٥٥٣، ٥٥٤ رقم ٢٩٦٨، وتاريخ الإسلام (٦٣١ ـ ٦٤٠هـ.) ص٣٦٣ ٣٦٤ رقم ٥٢٢.

(٣) انظر عن (الخونجي) في: تاريخ الإسلام (٦٤١ ـ ٦٥٠هـ.) ص٣٣٠، ٣٣١ رقم ٤٤٨ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(٤) انظر عن (ابن الحاجب، عثمان بن عمر) في: تاريخ الإسلام (٦٤١ ـ ٦٥٠هـ.) ص٣١٩ ـ ٣٢١ رقم ٤٢٩ وفيه حشدنا مصادر كثيرة لترجمته.

وقد شرحها «ابن واصل» شرحاً وافياً[١].

١٠ ـ شرح الموجز

في المنطق. وهو شرح لكتاب أفضل الدين الخُونَجي، الذي تقدّم ذِكره.

١١ ـ مختصر الأدوية المفرَدَة

في الطبّ. وقيل: «مختصر المفردات»[٢]. وهو اختصار كتاب «الأدوية المفرَدَة» لابن البيطار[٣].

١٢ ـ مختصر مسألة أربعين

في الكلام[٤]، ويقال: «مختصر الأربعين» في أصول الدين. وهو اختصار كتاب الإمام الفخر الرازي[٥].

منه نسخة في مكتبة آق حصار، زينل زاده، رقم ١١٧، كُتبت سنة ٧٧١هـ. في ٩٢ ورقة × ٢ = ١٨٤ صفحة.

أوله: «الحمد للّه رب العالمين وصلواته... المسألة الأولى في حدوث العالم...[٦]».

١٣ ـ مختصر المجسطي[٧]

وهو اختصار لكتاب بطلميوس القلوذي، في الرياضة، من أيام أدريانوس ملك اليونان[٨].

---

(١) كشف الظنون ١١٣٤ وفيه أرّخ وفاة «ابن واصل» بسنة ٦٨٦هـ. بالأرقام والحروف.
(٢) ديوان الإسلام ٤/ ٣٨٢ رقم ١٠.
(٣) هو الحكيم العلّامة، ضياء الدين، عبد اللّه بن أحمد بن البيطار الأندلسي، المالقيّ. توفي سنة ٦٤٦هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (٦٤١ ـ ٦٥٠هـ.) ص٣١١، ٣١٢ رقم ٤١٦ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.
(٤) مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا ١٧٩.
(٥) هو العلّامة، أبو عبد اللّه، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي القُرشي، البكري، التيميّ، الطبرستاني الأصل، الرازي. توفي سنة ٦٠٦هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (٦٠١ ـ ٦١٠هـ.) ص٢١١ ـ ٢٢٣ رقم ٣١١ وفيه حشدنا عشرات المصادر لترجمته.
(٦) مختارات من المخطوطات العربية.. ص١٧٩.
(٧) ذُكِر في: ديوان الإسلام ٤/ ٣٨٢ رقم ٣.
(٨) انظر: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، للقفطي ـ ص٦٧.

١٤ ـ مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب

وقيل: «مفرّج الكروب في دولة بني أيوب[١]»، وقيل: «مفرّج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب[٢]».

وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وسنتحدّث عنه بعد قليل.

١٥ ـ نخبة الأملاك في هيئة الأفلاك

وقيل: «النخبة الملكية في الهيئة الفلكية»، وهو في الفلك والرياضيّات. ألّفه باسم الملك المعظّم الأيوبيّ، وهو في مصر سنة ٦٤٨هـ[٣].

١٦ ـ نخبة الفكر

في المنطق[٤].

١٧ ـ نظْم الدُرَر في التاريخ والسِيَر

فرغ من تأليفه في شهر رجب سنة ٦٩٢هـ.

قال الدكتور «شاكر مصطفى»: منه المجلّد الأول مع ثلاث كرّاسات من المجلّد الثاني، يبدو أنّ المؤلّف توقّف عندها ولم يُتَح له تجاوُزُها. وكانت النسخة في ملك «أحمد عُبَيد» صاحب المكتبة العربية، ثم بيعت لأوروبا[٥].

١٨ ـ هداية الألباب[٦]

في المنطق. وقيل: «هديّة الألباب»[٧].

هذا ما عرفناه من أسماء مصنّفات «ابن واصل»، عدا ما نَظَمَه من قصائد في الشِعر، ولا ندري إنْ كان جَمَعَها في كتابٍ مُفرَدٍ أم لا.

ـ وصف المخطوط

اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب الذي بين أيدينا على نسختين خطّيتين محفوظتين

---

(١) أعيان العصر ٤/ ٤٤٩.

(٢) كشف الظنون ٢/ ١٧٧٣.

(٣) أعيان العصر ٤/ ٤٤٩.

(٤) كشف الظنون ١٩٣٧، هدية العارفين ٢/ ١٣٩، ديوان الإسلام ٤/ ٣٨٣ رقم ١٥.

(٥) التاريخ العربي والمؤرّخون ٤/ ٣٥ رقم ٣.

(٦) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/ ٥٠، إيضاح المكنون ٢/ ٧١٨.

(٧) هدية العارفين ٢/ ١٣٩.

في المكتبة الوطنية بباريس، تحملان الرقمين ١٧٠٢ و١٧٠٣، ويوجد في دار الكتب المصرية نسخة مصوّرة عن نسخة باريس ذات الرقم ١٧٠٢، وهي تحت رقم ٥٣١٩ تاريخ، ونسخة أخرى بجامعة الإسكندرية، رقم ٦٤، وهي بعنوان: «تاريخ الواصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين».

والنُسختان المعتَمَدتان فيهما اضطرابٌ في ترتيب الصفحات، وسَقَطٌ كثير، ولهذا كان لا بدّ من الاعتماد على النسختين معاً لضبط ترتيب الصفحات، واستدراك السَقَط منهما، وإنْ كنّا اعتبرنا النسخة ذات الرقم (١٧٠٣) هي الأصل. وهما تختلفان في الخط، وفي العناوين، وفي بداية الصفحة من الجزء ونهايته. فالنسخة (١٧٠٢) تبدأ فيها حوادث سنة ٦٤٦هـ. في السطر الرابع عشر من الورقة ٣٥٢ب. أمّا النسخة (١٧٠٣) فتبدأ فيها حوادث سنة ٦٤٦هـ. اعتباراً من السطر الخامس من الورقة ٥٩ ب. والخط في النسخة الأولى هو خط النسخ المملوكي، بينما هو في النسخة الثانية مزيج من خط الرقعة والنسخ.

إلّا أنّ الاختلاف الأهمّ هو أنّ نسخة (١٧٠٣) تنتهي أثناء حوادث سنة ٦٥٨هـ. عند أوائل الورقة ١٧٢أ. وذلك بالعبارة التالية:

«يقول العبد الفقير إلى اللّه تعالى وعفوه علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب الملكي المظفّري: انتهى إلى هاهنا ما أملاه القاضي الإمام جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، متّع اللّه بحياته. ولم يستوعب حوادث سنة تسعٍ وخمسين وستماية».

وبعد هذه العبارة تتابع النسخة تكملة «مفرّج الكروب» باختصار، دون تصريح باسم الكاتب الناسخ، ولا تأريخ النسخة.

بينما ينتهي «مفرّج الكروب» في النسخة (١٧٠٢) في أوائل الورقة ٤٢٥ب. ويصل إلى أثناء حوادث سنة ٦٦١هـ. بالعبارة التالية:

«قال العبد الفقير إلى رحمة اللّه تعالى وعفوه نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفّري: انتهى إلى هاهنا إملاء القاضي الإمام العالم العلّامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، رحمه اللّه تعالى، ولم نستوعب حوادث سنة أحد وستين وستماية. وجرت أمور كثيرة، ونحن نذكر بعون اللّه تعالى مختصراً من تمام التاريخ على حسب الطاقة...».

وبعد هذه العبارة تتابع النسخة تكملة «مفرّج الكروب». وفي آخرها نقرأ تاريخ النسخ واسم الناسخ:

«.. وكان الفراغ منه يوم الخميس المبارك حادي عشر محرم سنة إحدى

وعشرين [و] ثمان ماية، خُتمت بالخير والحُسنَى، على يد الفقير، شمس الدين، أحمد بن أحمد بن محمد الزيني، كاتب السرّ لحضرة مولانا السلطان برقوق، أدام اللّه عزّه وأنصاره، آمين».

وهنا لا بدّ أن نتوقّف قليلاً لبيان الفرق بين النسختين، حيث تقف نسخة (١٧٠٣) عند حوادث سنة ٦٥٩هـ. بينما تقف النسخة (١٧٠٢) عند حوادث سنة ٦٦١هـ. والاثنتان من إملاء «ابن واصل»، والمُمْلَى عليه في المرّتين شخصٌ واحدٌ هو «علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب» الذي ألّف «تكملة مفرّج الكروب»، ووصل بالتكملة إلى حوادث سنة ٦٩٥هـ. حسب النسخة (١٧٠٣).

فما هو السرّ في اختلاف النسختين؟

ليس لدينا إجابةٌ قاطعة.

ولكنّ المدّة المختلفة بين النسختين (٦٥٩ ـ ٦٦١هـ.) هي المدّة التي كان فيها «ابن واصل» مقيماً في جنوب إيطاليا سفيراً من السلطان الظاهر بيبرس إلى أمبراطور الدولة الرومانية «منفريد بن فردريك».

وبالعودة إلى عبارة «علي بن عبد الرحيم» الأولى نجده يدعو لابن واصل بأن «يمتّعه اللّه بحياته»، ما يعني أنّ المؤلّف كان حيّاً حين كُتبت النسخة (١٧٠٣).

أمّا عبارته الثانية في النسخة (١٧٠٢) ففيها يترحّم الكاتب على المؤلّف «ابن واصل»، والمعروف أنّ «ابن واصل» توفي سنة ٦٩٧هـ.، وبهذا تكون النسخة (١٧٠٢) كُتبت بعد السنة المذكورة. أمّا النسخة (١٧٠٣) فنرجّح أنها كُتبت بعد سنة ٦٨٠هـ، وقبل وفاته إذ يشير «ابن واصل» في موضع من كتابه إلى كسرة التتار على يد السلطان المنصور قلاوون عند حمص، وذلك في سنة ٦٨٠هـ.[1] وهذا يدلّ على أنّه أملى كتابه بعد هذه السنة.

وكان في موضع آخر من الكتاب أشار إلى حادثة ذبح الإمبراطور صاحب صقلّية بأمرٍ من البابا في سنة ٦٦٣هـ. في غالب ظنّه[2]، ما يعني أنه أملى كتابه بعد أن استقرّ ببلده حماه.

والنسختان مملوءتان بالأغلاط النحوية، والأخطاء اللُغَوية والإملائية، وفي إحداهما نقص مُفرَدات، وأحياناً جملة أو فقرة، وفي الأخرى مثل ذلك، أو زيادة، فكان علينا أن نستدرك النقْص والسهو من إحداهما، والإشارة إلى ذلك في الحواشي.

واقتضى منّا التحقيق أن نصحّح ونصوب النصّ، ونضبط الكثير من الألفاظ،

---

(١) مفرّج الكروب ٤/ ٢٥١.

(٢) مفرّج الكروب ٤/ ٣٢٤.

ونشرح ما ورد فيه من المصطَلَحات والألقاب التاريخية، ونعرّف بالأعلام الواردة أسماؤهم، وحشد المصادر للوقوف على أماكن تراجمهم.

وفي آخر الكتاب ستأتي الفهارس التفصيلية بإذن اللّه.

وعسى أن يأتي تحقيقنا لهذا الكتاب استجابة لرغبة القرّاء والباحثين الكرام، ومُحبّي التاريخ، بعد طول انتظار،

سائلاً المولى عزّ وجلّ أن يكون وراء القصد، وأن يغضّ القاريء الكريم الطرْف عمّا يراه من خطأ، فقد بذلنا جهد المُقِلّ، وما من معصوم من الزلل، وفوق كل ذي علمٍ عليم.

والحمد للّه رب العالمين.

طرابلس الشام المحروسة

ساحة السلطان الأشرف خليل

عشاء الأحد ١٣ محرّم ١٤٢٤هـ./ ١٦/ ٣/ ٢٠٠٣م.

المحقّق
طالب العلم وخادمه
عمر عبد السلام تدمري

مصادر ترجمة «ابن واصل»

- ذيل مرآة الزمان، لليونيني - ج٤/ ص٢٥٧.
- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووَفَيَات الأكابر والأعيان من أبنائه، لابن الجَزَري - بتحقيقنا - ج١/ ص٤٠٩، ٤١٠ رقم ٢٤١.
- المقتفي، للبرزالي - (مخطوط بمتحف طوبقابي) ج١/ ورقة ٢٧٤ب.
- المختصر في أخبار البشر - لأبي الفداء - ج٤/ ص٣٨.
- الإشارة إلى وَفَيَات الأعيان، للذهبي - ص٣٨٣.
- الإعلام بوَفَيَات الأعلام، للذهبي - ٢٩١.
- تاريخ الإسلام ووَفَيَات المشاهير والأعلام، للذهبي (٦٩١ - ٧٠٠هـ.) - بتحقيقنا - ج٥٢/ ص٣٣٧، ٣٣٨ رقم ٤٩١.
- مستدرك العِبَر في خبر من غبر، للذهبي (٥١/ ٥٦٦).
- تاريخ ابن الوردي - ج٢/ ص٢٤٤.
- طبقات الشافعية، للإسنوي - ج٢/ ص٥٥٦، ٥٥٥ رقم ١٢٦٠.
- أعيان العصر وأعوان النصر، للصفدي - ج٤/ ص٤٤٦ - ٤٤٩ رقم ١٥٧٢.
- نكت الهميان في نُكَت العُميان، للصفدي - ص٢٥٠.
- الوافي بالوَفَيَات - للصفدي - ج٣/ ص٨٥ رقم ١٠٠٤.
- تذكرة النبيه في أيام الملك المنصور وبنيه، لابن حبيب الحلبي - ج١/ ص٢٠٦، ٢٠٧.
- درّة الأسلاك في دولة الأتراك، لابن حبيب الحلبي (مخطوط) ج١/ ورقة ١٣٧.
- طبقات الفقهاء الشافعيين، لابن كثير - ج٢/ ص٩٤٧ رقم ١٤.
- طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة - ج٣/ ص٥٠، ٥١ رقم ٤٨٧.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي - ج١ ق٣/ ص٨٥١.
- المقفّى الكبير، للمقريزي - ج٧/ ص٥١١.

- الدليل الشافي على المنهل الصافي، لابن تغري بردي - ج٢/ ص٦٢٢ رقم ٢١٣٧.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي - ج٨/ ص١٣.
- بغية الوُعاة في طبقات اللّغويّين والنُحاة، للسيوطي - ج١/ ص١٠٨، ١٠٩ رقم ١٧٩.
- صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط - بتحقيقنا - ج١/ ص٥١٦.
- كشف الظنون، لحاجّي خليفة - ص٦١ و١٢٩ و١١٣٤ و١٧٧٢ و١٩٣٧.
- إيضاح المكنون، لإسماعيل باشا البغدادي - ج١/ ص٤٣٠ و٢/ ٧١٨.
- هديّة العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي - ج٢/ ص١٣٨، ١٣٩.
- ديوان الإسلام، لابن الغزّي - ج٤/ ص٣٨٢ رقم ٢١٨٧.
- تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان - ج١/ ص٣٥٣.
- ذيل تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان - ج١/ ص٥٥٥.
- فهرس المخطوطات المصوّرة بدار الكتب المصرية، لفؤاد سيد - ج٢/ ص١٥٣.
- فهرس المخطوطات المصوّرة بدار الكتب المصرية، للطفي عبد البديع - ج٢/ ص٢٥٨.
- الأعلام، للزركلي - ج٦/ اص١٣٣.
- معجم المؤلفين، لكحّالة - ج١٠/ ص١٧.
- مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا، لرمضان ششن - ص١٧٩ رقم ٢٥١.
- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي - ج٥/ ص٤٣٨، ٤٣٩.
- ذخائر التراث العربي الإسلامي، لعبد الجبار عبد الرحمن - ج١/ ص٢٧٥، ٢٧٦.
- التاريخ العربي والمؤرّخون، لشاكر مصطفى - ج٤/ ص٣٤ - ٣٦ رقم ٥.
- تجريد الأغاني من ذكر المثالث والمثاني، لطه حسين وإبراهيم الأبياري (المقدمة).

ترجمة « ابن واصل »
في كتاب « المختصر في أخبار البشر »
ج٤/ ٣٨، ٣٩

« في الثامن والعشرين من شوال، هذه السنة ـ أعني سنة سبعٍ وتسعين وستمائة ـ تُوفّي الشيخ العلاّمة، جمال الدين، محمد بن سالم بن واصِل، قاضي القضاة الشافعيّ، بحماه المحروسة.

وكان مولده في سنة أربعٍ وستمائة.

وكان فاضلاً، إماماً، مبرّزاً في علوم كثيرة، مثل: المنطق، والهندسة، وأصول الدين، والفقه، والهيئة، والتاريخ. وله مصنّفات حسنة، منها: مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، ومنها: الإنبروزية، في المنطق، صنّفها للإنبروز، ملك الفرنج، صاحب صقلّية، لما توجّه القاضي جمال الدين المذكور رسولاً إليه في أيام الملك الظاهر بيبرس الصالحيّ. واختصر « الأغاني » اختصاراً حسناً. وله غير ذلك من المصنّفات.

ولقد تردّدت إليه بحماه مِراراً كثيرة. وكنت أعرض عليه ما أحلّه من أشكال كتاب إقليدس، وأستفيد منه. وكذلك قرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب، في العَرُوض، فإنّ جمال الدين صنّف لهذه المنظومة شرحاً حسناً مطوّلاً، فقرأته عليه، وصحّحت أسماء من له ترجمة في كتاب « الأغاني »، فرحِمَه اللّه ورضي عنه.

وكان توجّه إلى الإنبراطور رسولاً من جهة الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر والشام في سنة تسعٍ وخمسين وستمائة.

ومعنى « الإنبراطور » بالفرنجيّة: ملك الأمراء. ومملكته جزيرة صقلّية، ومن البرّ الطويل بلاد أنبولية والأنبردية.

قال جمال الدين: ووالد الإنبراطور الذي رأيته كان يسمّى فردريك، وكان مصافياً للسلطان الملك الكامل. ثم مات فردريك المذكور في سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة، ومَلَكَ صقلّية وغيرها من البرّ الطويل بعده ولدُه كرا بن فردريك، ثم مات كرا ومَلَك بعده أخوه منفريدا بن فردريك، وكلّ من مَلَك منهم يُسمّى إنبراطور. وكان الإنبراطور من بين ملوك الفرنج مُصافياً للمسلمين، ويحبّ العلوم.

قال: فلما وصلت إلى الإنبراطور منفريدا المذكور أكرمني، وأقمت عنده في مدينةٍ من/ مدائن البرّ الطويل المتّصل بالأندلس من مدينة أنبولية. واجتمعت به مراراً، ووجدته متميّزاً، ومُحِبّاً للعلوم العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس.

قال: وبالقرب من البلد الذي كنت فيه مدينة تُسمَّى لو حاره، أهلها كلّهم مسلمون من أهل جزيرة صقلّية، يُقام فيها الجمعة، ويُعلن بشعار الإسلام.

قال: ووجدت أكثر أصحاب الإنبراطور منفريذا المذكور مسلمين، ويُعلن في معسكره بالأذان والصلاة. وبين البلد الذي كنت فيه وبين رومية مسيرة خمسة أيام.

وقال: بعد توجّهي من عند الإنبراطور اتفق البابا خليفة الفرنج وريدا فرنس على قصد الإنبراطور وقتاله. وكان البابا قد حَرَمَه كل ذلك بسبب مَيل الإنبراطور المذكور إلى المسلمين. وكذلك كان أخوه كرا، ووالده فردريك مُحَرَمَين من جهة البابا برومية لِمَيْلهم إلى الإسلام.

قال: ولقد حكى لي لما كنت عنده أنّ مرتبة الإنبراطور كانت قبل فردريك لوالده، ولما مات والد فردريك المذكور كان فردريك شابّاً أول ما ترعرع، وأنه طمع في الإنبراطورية جماعة من ملوك الفرنج، وكلٌّ منهم رجى (هكذا) أن يفوّضها البابا إليه. وكان فردريك شابّاً ماكراً، وجنسه من الألمانية، فاجتمع بكل واحدٍ من الملوك الذين قد طمعوا في أخذ الإنبراطورية بانفراده، وقال له: إنّي لا أصلح لهذه المرتبة، وليس لي فيها غرض، فإذا اجتمعنا عند الباب فقُل ينبغي أن يتقلّد الحديث في هذا الأمر ابن الإنبراطور المتوفّى، ومن رضي بتقليده الإنبراطورية فأنا راضٍ به، فإنّ البابا إذا ردّ الاختيار إليّ في ذلك اخترتُك ولا أختار غيرك، وقصدي الإنتماءَ إليك.

ولما قال هذه المقالة لكلّ واحدٍ من الملوك المذكورين بانفراده، وصدّقه في ذلك، ووثق به، واعتقد صِدقه، فلما اجتمعوا عند البابا بمدينة رومية ومعهم فردريك المذكور قال البابا للملوك المذكورين: ما ترون في أمر هذه المرتبة، ومن هو الأحقّ بها؟ ووضع تاج المُلك بين أيديهم، فكلّ واحدٍ منهم قال: قد حكّمت فردريك في ذلك فإنه ولد الإنبراطور وأحقّ الجماعة بأن يُسمع قولُه في ذلك، فقام فردريك وقال: أنا ابن الإنبراطور، وأنا أحقّ بتاجه ومرتبته، والجماعة كلّهم قد رضوا بي. ووضع التاج على رأسه، فأبلسوا كلّهم، وخرج مسرعاً والتاج على رأسه.

وكان قد حصّل جماعة من أصحابه الألمانية الشجعان راكبين مستعدّين، وركب، واجتمعت عليه أصحابه الألمانية، وسار بهم على حَمِيّةٍ إلى بلاده.

قال القاضي جمال الدين: واستمرّ الإنبراطور منفريذا بن فردريك المذكور في مملكته، وقصد البابا وريدا فرنس بجموعهما، واقتتلوا معه وهزموه، وقبضوا عليه. وتقدّم البابا بذبحه فذُبح منفريذا المذكور، ومَلَك بلاده بعده أخو ريدا فرنس، وذلك في سنة ثلاثٍ وستين وستمائة، في غالب ظنّي».

ترجمة «ابن واصل» في أعيان العصر وأعوان النصر ج٤/ ٤٤٦ ـ ٤٤٩ رقم ١٥٧٢

«محمد بن سالم بن نصر اللّه بن سالم بن واصل، القاضي، الإمام، العلّامة، جمال الدين بن واصل الحموي، الشافعيّ، قاضي القضاة بحماه.

كان أحد الأئمّة الأعلام، والقائمين بجمع العلوم الخافقة الذوائب والأعلام.

برع في العلوم الشرعية، وطلع كالشمس في الفنون العقلية، وجمع شمل ما تفرّق في العلوم الأدبية. صنّف، وجمع، وألّف، ودخل في كل فنٍّ وما تخلّى عنه ولا تخلّف. وأفتى، واشتغل، ودرّس، وقضى، وحكم، وفَصَل لما علم وتفرّس. وبعُد صِيته واشتهر، وبرّز على الأقران في الجدال ومهر. وغلب عليه الفكر إلى أن صار يذهل عن جليسه، ويغيب عن وجوده في حضرة أنيسه.

وأُديمُ نحو محدّثي نظري أنْ قد فهمتُ وعندكم عقلي

وُلّي القضاءَ مدّةً مديدة، وفاز منها بالسيرة الحميدة. وأضرّ أخيراً، وحاز بذلك أجراً كبيراً.

ولم يزل على حاله إلى أن قُطِع عُمُرُ ابن واصل، ولم يبق في حياته حاصل.

وتُوفّي، رحِمه اللّه تعالى، يوم الجمعة، ثاني عشري شوّال سنة سبع وتسعين وستّ مئة.

ومولده بحماه في ثاني شوّال سنة أربع وستّ مئة.

ودُفن بتُربته بعَقَبَة بيرين.

وقيل إنه كان يشغل في حلقته في ثلاثين علماً وأكثر. وحضر حلقته نجم الدين دبيران المنطقيّ، وأورد عليه إشكالاً في المنطق.

وكان قد جُهّز عن صاحب مصر رسولاً إلى الأنبرور، فتوجّه، فأعظمه الأنبرور، وسأله عن مسائل تتعلّق بعلم المناظر وغيرها، فأخذها وبات بها، وأصبح وقد أملى الجواب عليها في مجلّد صغير، فعظُم في عين الأنبرور وقال: يا قاضي، ما سألناك

عن حلال ولا حرام في دينك الذي أنت فيه قاضٍ، وإنّما سألناك عن أشياء لا يعرفها إلّا الفلاسفة الأقدمون، فأجبت عنها، وليس معك كتب ولا ما تستعين به، مثلك يكون قسّيساً، وحسد المسلمين عليه، وزاد في تعظيمه وإكرامه، وأحضر له الأرغُل، وهو الآلة عندهم في الطرب، ولا يضرب به إلّا في أيام أعيادهم، فقيل إنه ما اهتزّ له ولا تحرّك. وعندهم إنّ أحداً ما يسمعه فيملك نفسه من الطرب، إلّا أنه لما قام وجدوا كِعابه ممّا حكّها في البساط قد أدماها الحكّ، وبقي أثر الدم في البساط، فزاد تعجّب الأنبرور منه أيضاً وأعطاه شيئاً كثيراً.

وحكى لي عنه الشيخ شمس الدين بن الأكفاني غرائب من حفظه وذكائه. وحكى الحكيم السديد الدمياطي عنه أنه تعشّى ليلة عند الشيخ علاء الدين بن النفيس، وصلّينا العِشاء الآخرة. قال: إلّا أنّ القاضي جمال الدين كان يحتدّ في البحث ويحمارّ وجهُهُ، والشيخ علاء الدين في غاية الرياضة. ثم إنّ القاضي آخِراً قال: واللّه يا شيخ علاء الدين أمّا نحن فعندنا نُكَيتات ومواخذات وإيرادات وأجوبة، وأمّا أنت فهكذا خزائن علوم، هذا أمر بارع. أو كما قال.

وأخبرني شيخنا العلّامة أثير الدين قال: قدم المذكور علينا القاهرة مع الملك المظفَّر صاحب حماه، فسمعت منه، وأجاز لي جميع مَرويّاته ومصنّفاته، وذلك بالكبش من القاهرة في يوم الخميس التاسع والعشرين من المحرّم سنة تسعين وستّ مئة. وهو من بقايا من رأيناه من أهل العلم الذين خُتمت بهم المئة السابعة.

وأنشَدَنا لنفسه ممّا كتب به لصاحب حماه الملك المنصور محمد بن مظفّر:

يا سيّداً ما زال نجمُ سَعدِهِ — في فَلَكِ العلياء يعلو الأنجُما
إحسانك الغَمْرُ ربيعٌ دائمٌ — فلا نرى في صفر مُحَرَّما

ومن شِعر قاضي القضاة جمال الدين بن واصل أيضاً:

وأعيذ مصقول العِذارِ صُحبتُه — ورَبْعُ سروري بالتّأهّلِ عامرُ
وفارقتهُ حيناً فجاء بلحيةٍ — تروع وقد دارت عليه الدوائرُ
فكرّرتُ طرْفي في رسوم جماله — وأنشدتُ بيتاً قاله قبلُ شاعرُ
«كأنْ لم يكن بين الحجون إلى الصفا — أنيسٌ ولم يَسْمرْ بمكة سامرُ»
«فقال مجيباً والفؤاد كأنّما — يُقلقه في القلب منّي طائرُ»
«بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا — صروفُ الليالي والجدود العواثرُ»[١]

(١) الأبيات الثلاثة الأخيرة من أبيات لمضاض بن عمرو الجرهمي يتشوّق إلى مكة لمّا أجلتهم =

قلت: ومن مصنّفاته (التاريخ) الذي له، وكتاب مفرّج الكروب في دولة بني أيّوب. وله (مختصر الأربعين في أصول الدين)، (شرح الموجز في المنطق) لأفضل الدين الخونجي، و(شرح الجُمَل) له أيضاً، و(شرح قصيدة ابن الحاج) في العَرُوض والقوافي، و(التاريخ الصالحي)، و(مختصر الأدوية المفردة) لابن البيطار، واختصر (الأغاني) الكبير، وملكت به نسخة عُظمى. وكان خطّه عليها بعدما أضرّ، وكتاب (نخبة الأملاك في هيئة الأفلاك).

= خُزاعة عنها. والبيت الأول من الأمثال السائرة. (العقد الفريد ـ بتقديمنا ـ ج٥/ ٥٩، الطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٥٥٤، ٥٥٥، معجم البلدان ٢/ ٢٢٥).

ترجمة «ابن واصل»
في «تاريخ الإسلام» وفيات ٦٩٧هـ.
ص٣٣٧، ٣٣٨ رقم ٤٩١

«محمد بن سالم بن نصر اللَّه بن سالم بن واصل، قاضي حماة، جمال الدين الحمويّ، الشافعيّ، أحد الأعلام.

وُلد بحماة في ثاني شوّال سنة أربع وستمائة،

وعُمّر دهراً طويلاً، وبرع في العلوم، والحكمة، والفلسفة، والرياضيّات، والأخبار، وأيام الناس. وصنّف، ودرّس، وأفتى، وأشغل، وبعُد صيته، واشتهر اسمه. وكان من أذكياء العالم.

وُلّي القضاء مدّة طويلة. وحدّث عن الحافظ زين الدين البرزالي بدمشق وببلده، وتخرّج به جماعة. وما زال حريصاً على الاشتغال، وغلب عليه الفكر حتى صار يذهل عن أحوال نفسه وعمّن يجالسه.

تُوفّي يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوّال. ودُفن بتُربته بعَقَبَة نقيرين(١)، عن أربع وتسعين سنة».

---

(١) وردت في الأصل: «بقيرين»، وفي أعيان العصر: «بيرين».

ترجمة « ابن واصل »
في «طبقات الشافعية » لابن قاضي شهبة
٣/ ص٥٠ ، ٥١ رقم ٤٨٧

« . . اشتغل بالعلوم وتفنّن، وقرأ المذهب والأصول على الشيخ نجم الدين بن الخبّاز، والنحو على الموفّق بن يعيش.

قال الذهبيّ: . . .

وقال الإسنوي[1]: كان إماماً عالماً بعلوم كثيرة، خصوصاً العقليات، وصنّف تصانيف كثيرة في الأصلين، والحكمة، والمنطق، والعَرُوض، والطبّ، والتأريخ والأدبيّات.

وقال الكمال الأُدفُويّ: كان عالماً بالعلوم النقلية والعقلية، جامعاً للفنون الأدبية والحكمية، والرياضيّة. خُتمت به المائة السابعة في جمعه للعلوم والفضائل. أفتى، ودرّس، وشرح، وصنّف، وكتب عنه واستفاد منه الأعيان. وكان من نوادر الزمان.

ومن تصانيفه: «مختصر الأربعين» في أصول الدين، و«شرح الموجز» في المنطق، و«شرح الجُمَل» فيه أيضاً، و«هداية الألباب»، و«شرح قصيدة أبي عمرو بن الحاجب» في العَرُوض والقوافي. وصنّف «التاريخ الصالحي»، والتاريخ المسمّى «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب»، و«مختصر الأغاني»، و«مختصر كتاب ابن البيطار» في الأدوية المفرَدَة، وغير ذلك . . . ».

(١) طبقات الشافعية، للإسنوي ٢/ ٥٥٤، ٥٥٥ رقم ١٢٦٠.

بداية الجزء السادس من « مفرج الكروب » بحوادث سنة ٦٤٦هـ. مخطوطة باريس ١٧٠٢

لم انس حين غدوت لابس حلة اضحى عليها من جمالك رونق
بحمامة غمت حوى فكانها فلك ووجهك بدر في المناطق
ان كنت حين اراك اخضع هيبة واغض طرفي عن سواك والطرف
فالقلب مني ليس يغفل دائما بل كل جارحة اليك تحدق
ومن شعره ايضا يقول
تالله ما المغرى في حسنه فاي حشا عليه لم يهم
العذار وميم مبسمه على ما ادعى برهان لم
وقال في غلام راه بالزيادة من دمشق شعر
يا خليلي في الزيادة قلبي سلبت مقلتاه جفني رقاده
فمتى ارجو السلو عنه وطرفي ناظر حسن وجهه في الزيادة
وقال في غلام يتعلم الطف شعر
ناديت من اهواه وهو معلم للفقه يا نزهة المتأمل
ابعدت طرفك وهو بعضك فالذي سواك ابعد من لقاء المبعد — الاطول
فاجابني انطقني قلبها عن حاجة لا بل المعنى عن سبل
لا ريب يا من بالهلال مشبهي ان الهلال قلامة من انملي
وقال في غلام حريري شعر
صبوت الى غلام حريري عربي يكر يدعو من له مستجيري
اقول له الا ترثي لصب عديم للمساعد والنصير
اقام ببابكم خمسين شهرا فقال كذا مقامات الحريري
وقال في غلام نحوي شعر
لي حبيب اسمع بالنحو معربي وهو مني كما اعانيه ادري

قلت ما ذا تقول حين تنادي يا حبيبي المساق عجل جهرا
قال لي يا غلام او يا غلامي قلت لبيك من لبيك عشرا
وقال في غلام قاض شعر
رب قاض لنا مليح ابجرب عن منطق لسديد
اذا رمانا بسهم لحظ قلنا له دائم القعود
وقال في سماع حضرة غلام ولم يرقص شعر
وسماع شهدته مع حبيب بان فيه وجهه عن جفنيه
رقص القوم والذي همت فيه واقف مثل صعده سمرا
يا حبيبي الاتد ود فنادى الى وهل حتى الجميع سوى
وقال في غلام شاعر شعر
ومهجتي رسا اديب شاعر ناديته يا سيد الادباء
انت الذي الفاظه قد خانت في النظم مبسمه بغير مراء
فاجابني ما ذاك مني منكرا ان الحسان سميه الشعراء
وقال في غلام جوالقي شعر
وبنفسي جو القي نقي الخد في حسنه تحار العقول
ابدا عارضاه لامه فاسلوا وذا عذاب طويل
وقال في غلام صوفي شعر
علمت صوفيا كبدر الدجى لكنه في وصلي الزاهد
يشهد وجدي بغرامي له فديت صوفي له شاهد
وقال في غلام منزمزم شعر
وشادن ما شدى او لاح منظره الا اغتدى نزهة للسمع والبصر

الورقة ٣٨٨ من نسخة باريس ١٧٠٢.

آخر « مفرج الكروب » في نسخة باريس ١٧٠٢.

أسكنتهُ بالمخفيّ من أضلعي شوقًا لبارق ثغره وعذيبه

يا غايبًا إذ آل الفتور بلحظه خلده لي أنا قد صبت بعيبه

لدن وما مرّ النسيم بعطفه أرج وما نفح العبير بطيبه

ومن شعره في قصيدة

من لي بغصنٍ باللحاظ ممنطق حلو الشمايل واللمى والمنطق

مثري الروادف مملق من خصره اسمعت في الدنيا بمثرٍ مملق

ومنها

واقول يا أخت الغزال ملاحةً فتقول لا عاش الغزال ولا بقي

وهذا البيت اختلف فيه هو وابن شمس الخلافة فادعى كل منهما

ان البيت له وشهد لكل واحد منهما جماعة ان البيت له والله اعلم

ومن شعره رحمه الله في مرضه

يا رب ان عجز الطبيب فداوني بلطيف صنعك واشفني يا شافي

انا من ضيوفك قد حسبت وان من شيم الكرام البرّ بالاضياف

وفي جمادى الاخرة من هذه السنة استاذن الامير حسام

الدين بن علي الملك المعز وهو مقيم في معسكره بالصالحية

في الحج الى بيت الله فاذن له في ذلك وامر له بحراقة

يسافر عليها الى قوص وامر له بالفي دينار كتب له

بخمسمائة منها على جهة قوص وخمسمائة على جهة عيذاب

وطلب من الملك المعز عز الدين اردم احد جمدارية

الملك الصالح ان يحج صحبة الامير حسام الدين فاذن

له ودخل حسام الدين وعز الدين ارذم الى مصر فاقام

حسام الدين وعز الدين في دار على البحر لحسام الدين

بقرب الرصد واخذ حسام الدين في التجهيز للحج وطلب

بنجاز

الورقة ١٠٩ب من نسخة باريس رقم ١٧٠٣.

الطواشي بالجافاين من اهل حماة اليه ولما تكامل الجمع معه رحل من
نابلس وترك بنابلس الامير مجير الدين بن ابي زكري والامير نور الدين
علي بن شجاع الدين الاكتع مع جماعة من العسكر ووصل بالعساكر
الى غزة فانضم اليه الناصرية الذين كانوا هربوا منه وانضم اليه
اخوه الملك الظاهر غازي رضي عنه وعنهم ونزل بالعساكر كلها على
غزة ونزل بجامعه خلق من التركمان والاكراد الشهرزورية م

ذكر كبس التتر نابلس وقتل
مجير الدين وابن الشجاع الاكتع

وبعد رحيل الملك الناصر من نابلس قدم جمع من التتر وهجموا نابلس
وقتلوا مجير الدين والامير علي بن شجاع الدين الاكتع وكانا اميرين
جليلين متميزين مشاركين في الادب والفضيلة وقد تقدم قبض
البحرية عليهما واعتقالهما بالكرك ثم خلاصهما من الاعتقال لما وقع
الصلح بين السلطان الملك الناصر والملك المغيث بن العادل صاحب
الكرك وقد قدمت ذكره مع الامير فخر الدين وما فعل من المعروف
في طريق مكة وكان على ذهنه رحمه الله شيء كثير من الشعر ولقد
رايته يوما وانا بالديار المصرية فيما بين مصر والقاهرة وانشدني
مقطعات حسنة فمما انشدني لبعض الشعراء وهو معنى لطيف م

دنف ناى عن من يحب فشاق اطلالا سحرا على اطلاله
سال الحمى عنه واصغى للصدى كيما يجيب فقال مثل مقاله
ناداه اين ترى محط رحاله فاجاب اين ترى محط رحاله

ولما وصل الخبر الى الملك الناصر بما جرى بنابلس وجاءه غلمان مجير
الدين مجرحين امر بالرحيل فرحلت العساكر ومن معهم من الاثقال
واغذوا السير حتى وصلوا العريش فضرب دهليزه به ونزل هو والعساكر

المنصورة

الورقة ١٥٠ب من نسخة باريس ١٧٠٣.



مفرج الكروب

في أخبار بني أيوب

لابن واصل

جمال الدين محمد

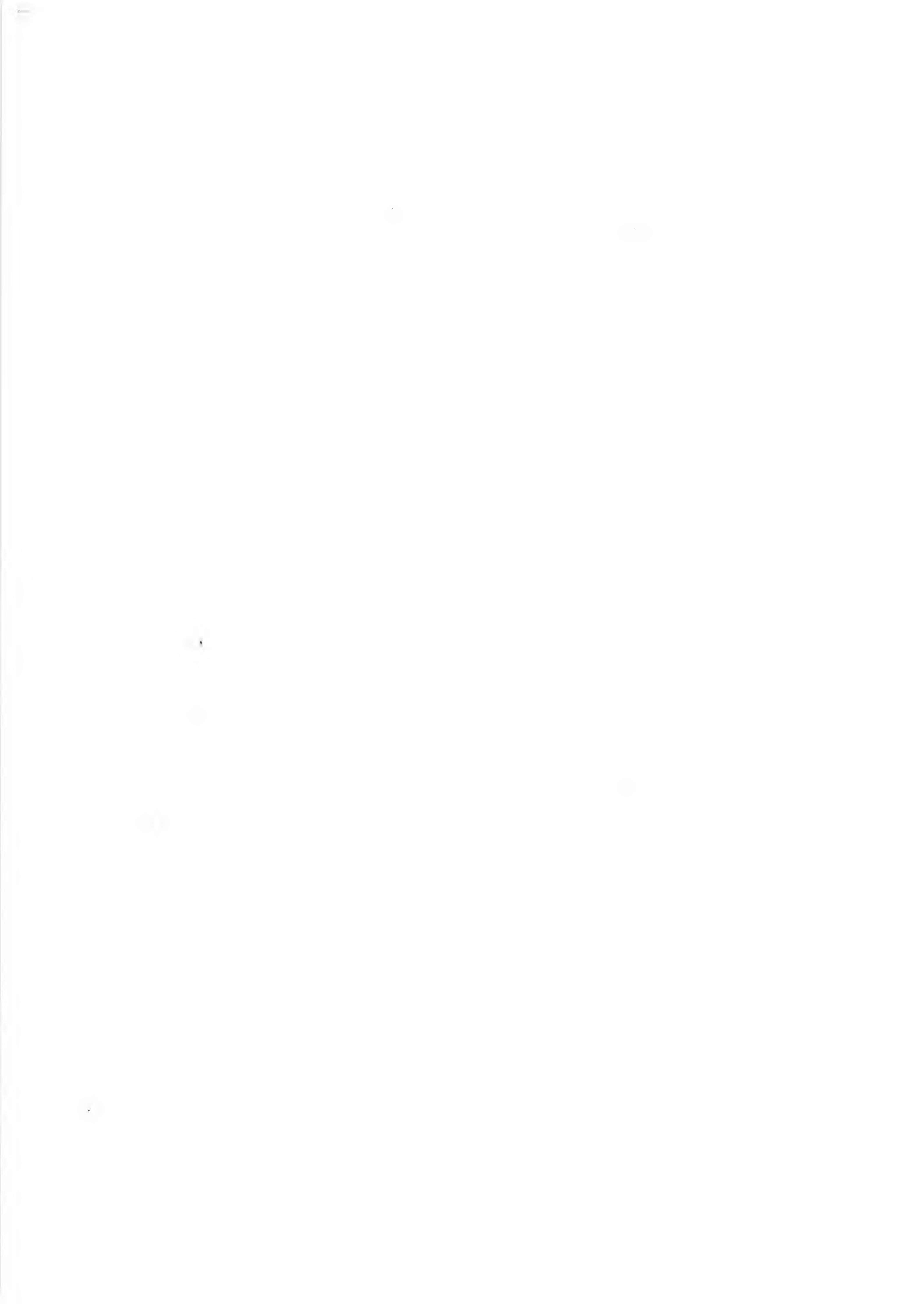
ابن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل

يؤرخ من آخر العهد الأيوبي إلى بدايات عصر المماليك

تحقيق

أستاذ دكتور

عمر عبد السلام تدمري



بسم الله الرحمن الرحيم

[٦٤٦هـ.]

/ ٥٩ب/ ودخلت سنة ستٍّ وأربعين وستماية

والسلطان الملك الصالح نجم الدين (أيوب)[١] نازلٌ بأشمون طَناح[٢].

وبالقاهرة نائبه حسام الدين محمد (بن)[٣] أبي عليّ.

والحلقة السلطانية[٤] والدّهليز[٥] بالصّالحية.

والأمير فخر الدين (يوسف)[٦] بن (شيخ الشيوخ)[٧] بدمشق في بقيّة العساكر[٨].

[مرسوم الملك الصالح بالرحيل إلى الصالحية]

ثم ورد في أوائل هذه السنة مرسوم من السلطان الملك الصالح إلى حسام الدين

---

(١) إضافة من نسخة باريس رقم ١٧٠٢ ورقة ٣٥٢ب، وسأرمز لها بحرف (ب).

(٢) ترِد «أشمون» بالنون، و«أشموم» بالميم، كما في: السلوك للمقريزي - ج١ ق٢/ ٣٣٠ وفيه الخبر.

(٣) «بن» ساقطة من نسخة (ب).

(٤) الحلقة السلطانية: هي أجناد الحلقة. عرّفهم «القلقشندي» بأنهم: عدد جمّ، وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعمّمين وغيرهم. بواسطة النزول عن الإقطاعات... ولكلّ أربعين نفساً منهم مقدّم منهم، ليس له عليهم حكمٌ إلّا إذا خرج العسكر [في الحرب] كانت مواقفه معهم، وترتيبهم في موقفهم إليه. (صبح الأعشى - ج٤/ ١٥، ١٦).

(٥) الدِهْليز: لفظ فارسيّ بمعنى: معبر ما بين الباب والدار. دخل العربية ودَرَج على ألسِنَةَ الناس، ولا زال شائعاً حتى الآن في بلاد الشام. وكان يحرس دهاليز السُلطان أجناد يقال لهم «البحرية»، يبيتون بالقلعة، وحول دهاليز السلطان في السفر. وأول من رتّبهم وسمّاهم بهذا الاسم، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. (صبح الأعشى ٥/ ١٦).

(٦) إضافة من (ب).

(٧) إضافة من (ب).

(٨) الخبر في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٠.

(بن أبي علي)[١] بأن يرحل إلى الصالحية ويتقدّم على الحلقة يسير بهم[٢] إلى دمشق. واستناب الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٣] بالديار المصرية الأمير جمال الدين بن يغمور - وكان متولّياً للصناعة -، فرحل حسام الدين [بن][٤] (أبي علي محمد)[٥] فنزل بها[٦] (وتقدّم بالحلقة السلطانية، وأقام مقام السلطان بها)[٧]، وطال مُقامه بها نحو أربعة أشهر[٨].

[خروج المؤلّف إلى الصالحية]

(وخرجت في هذه السَفرة صُحبَتَه، وأقمت معه هذه المدّة كلّها بالمنزلة المذكورة، ثم رجعت معه إلى القاهرة لما ورد المرسوم إليه بالرجوع إليها[٩].).

ذِكر منازلة عسكر حلب وحمص وحصارها وتسلّمها

ولما جرى ما تقدّم ذِكره من تسليم قلعة (سَلَمِيَة المعروفة بشُمَيْمِيس[١٠])[١١] إلى نواب السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[١٢]، وانزعاج الحلبيّين لذلك،

---

(١) إضافة من (ب).

(٢) في (ب): لتسييرهم.

(٣) إضافة من (ب).

(٤) أضفناها على النسختين تصويباً.

(٥) إضافة من (ب).

(٦) في (ب) ورقة ٣٥٢ب: «فنزل بالصالحية».

(٧) ما بين القوسين ورد في النسختين باختلاف طفيف.

(٨) الخبر في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٠ نقلاً عن مفرّج الكروب، وهو باختصار في: نهاية الأرب، للنويري ٢٩/ ٣٢٨، وتاريخ الإسلام للذهبي (بتحقيقنا)، حوادث ووفيات ٦٤١ - ٦٥٠هـ. - صفحة ٣٥٤.

(٩) خبر خروج المؤلّف في نسخة باريس ١٧٠٣، وليس في (ب). وانظر الحاشية السابقة.

(١٠) شُمَيْمِيس: هكذا في الأصل، وكذلك في: المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ٣/ ١٧٦ ووردت في المطبوع من: مفرّج الكروب ٥/ ٣٣٧ «شميميش»، ومثله في: زبدة الحلب لابن العديم ٣/ ٢٣٤، والسلوك ج١ ق٣/ ٤٤٦، وشفاء القلوب في مناقب بني أيوب، للحنبلي ٤١٢، وورد في: نهاية الأرب ٢٩/ ٣٢٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٥هـ.) - بتحقيقنا - ص٣٥ «شُمَيْمس»، وفي: مرآة الزمان لسِبط ابن الجوزي - ج٨ ق٢/ ٧٦٦ «سمين»!، وفي: المختار من تاريخ ابن الجزري، للذهبي ٢٠٨ «شمس»!، وفي: تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٧٨ «سميميس»، وفي: عيون التواريخ، لابن شاكر الكتبي ٢٠/ ١١ «شميس»، ومثله في: عقد الجمان، لبدر الدين العيني (١) ٣٣.

وهي في: سَلَمية من أعمال حمص.

(١١) ما بين القوسين من (ب).

(١٢) ما بين القوسين من (ب).

خرجت العساكر من حلب مع الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني، وأحسن الملك الناصر إلى خال أبيه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وعضد الأمير شمس الدين (لؤلؤ)[١] به ليتّفق معه على الرأي، وخلع عليه.

وقدمت العساكر الحلبية/ ٦٠أ/ إلى حمص ونازلوها ونصبوا عليها المجانيق[٢] وضايقوها مضايقة شديدة (مدّة)[٣] شهرين.

وتواترت رُسُل الملك الأشرف صاحب حمص ووزيره مخلص الدين إبراهيم بن قرناص إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وهو بدمشق، كما ذكرنا في العساكر المصرية، وإلى السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٤] وهو مقيم (بأشمون طناح)[٥] في الديار المصرية، وحلقته مع الأمير حسام الدين بالصالحية، فلم يأتهما نجدة، وتأخّر عنهما الغَوْث، وضاق بهما الخناق، لكنّهما تمسَّكا وصبرا على طول الحصار لما علما أنّ معظم العسكر بدمشق، وبقيّتها[٦] مبرّزة بمصر.

[مرض الملك الصالح]

وكان الملك الصالح (نجم الدين)[٧] وهو بأشمون (طناح)[٨] قد عرض له ورمٌ في مأبضه[٩] ثم فُتح وحصل (له)[١٠] منه ناصور[١١] يعسُر برْؤه، وحصلت في رئته بعد ذلك قُرحةٌ تيقّن الأطبّاء أنه لا خلاص له منها، لكنه لم يشعر بذلك. وكان كِبْر

---

(١) ما بين القوسين من (ب).
(٢) وترد «المناجنيق»، مفردها: «منجنيق». وهي آلة حربية من آلات الحصار، من الخشب، مؤلّفة من دفّتين قائمتين بينهما سهم طويل له رأس ثقيل وذَنَب خفيف بنهايته كفّة تُجعل فيها الحجر المقذوفة بعد جذبها إلى أسفل، ثم تُرسل فتنطلق باتجاه هدفها، أكثر ما يُستعمل المنجنيق في ضرب الأسوار والقلاع، وأول من استعمله من العرب ملك الحيرة جُذيمة الأبرش عام ٣٦٦ قبل الهجرة. (صبح الأعشى ٢/١٤٣).
(٣) من (ب).
(٤) من (ب).
(٥) من (ب).
(٦) في (ب): «وبقيتهما».
(٧) من (ب).
(٨) من (ب)، وفيها «طناج» بالجيم.
(٩) في (أ): «مابضه» من غير همزة. والمأبض، أو الأبض: باطن الرُكبة أو المِرفق، وجمعها مآبض وآباض. (محيط المحيط). وفي «ب»: «مخاصيه»، وفي: تاريخ الإسلام - ص٣٥٤ «في أُنْثَيَيْه»، وهذا أوضح.
(١٠) من (ب).
(١١) يقال: «ناصور» و«ناسور».

نفسه وعُلُوّ همّته يحمله على النهضة والحركة، ومرضه وضعفه يوجب له تراخيه (على الإنجاد للملك الأشرف)[١].

ولما علم الملك الأشرف تأخّر الإنجاد له، وأنه لا خلاص له إلّا بتسليم البلد راسل الأمير شمس الدين (لؤلؤ الأميني)[٢] في ذلك، وأذعن إلى الصُلح، وطلب العِوَض عن حمص بتلّ باشر[٣]، مُضافاً إلى ما بيده من الرحبة وتَدمُر، فسلّم حمص، فتسلّمها الأمير شمس الدين[٤] (لؤلؤ الأميني)[٥] للملك الناصر صاحب حلب[٦].

(قال)[٧]: واطلع الأمير شمس الدين لؤلؤ في أثناء ذلك على كتاب لمخلص الدين بن قرناص[٨] إلى فخر الدين (يوسف)[٩] بن الشيخ يستعجله ليَقْدَم عليه ويدفع عنه عسكر حلب، فغضب شمس الدين (لؤلؤ)[١٠] لما وقف على ذلك الكتاب. وحمل الملك الأشرف على القبض على مخلص الدين (إبراهيم بن قرناص)[١١]، فقبض عليه وعذّبه حتى مات.

وتسلّم الملك الأشرف تلّ باشر. ودخل نوّاب الملك الناصر (إلى حمص)[١٢] واستولوا عليها[١٣].

---

(١) من (ب).
(٢) من (ب).
(٣) تل باشر: قلعة حصينة، وكورة واسعة أيضاً في شماليّ حلب، بينها وبين حلب يومان. (معجم البلدان ٢/ ٤٠).
(٤) في «ب»: «بدر الدين»، والمثبت من (أ) هو الصحيح.
(٥) من (ب).
(٦) تاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٦هـ.) ص٣٧ و٣٥٥.
(٧) من (ب).
(٨) في «ب»: «قرباص».
(٩) من (ب).
(١٠) من (ب).
(١١) من (ب).
(١٢) ما بين القوسين مكرّر في الأصل.
(١٣) خبر منازلة حمص وتسلّمها في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٧٠، وذيل الروضتين لأبي شامة ١٨٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٧٧، ونهاية الأرب ٢٩/ ٣٢٨ و٣٦٦ و٤١٢، وأخبار الأيوبيين لابن العميد ١٥٨، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢١٢، وتاريخ الإسلام(حوادث ٦٤٦هـ.) ص٢٣٧، ونزهة الأنام في تاريخ الإسلام، لابن دقماق ١٧٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٧٩، والبداية والنهاية، لابن كثير ١٣/ ١٧٤، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٥٩، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٣٠، والنجوم الزاهرة، لابن تغري بردي ٦/ ٣٥٩، وشفاء القلوب ٤١٢، وتاريخ ابن سباط (بتحقيقنا) ١/ ٣٤٢.

[وفاة الأمير سعيد الدين بن الدريوش]

(وفي هذه المدّة، مدّة الحصار، توفي الأمير سعد الدين بن الدريوش[١]، وهو أكبر أمراء حلب، على حمص، فحُمل تابوته إلى حلب، ودُفن في بستانه المعروف بالجوهريّ)[٢].

ذِكر مسير السلطان الملك الصالح
إلى دمشق/ ٦٠ب/ لأخذ حمص من الملك الناصر صاحب حلب

ولما بلغ السلطانَ الملكَ الصالح (نجمَ الدين أيوب)[٣] وهو بأشمون طَنَاح أَخْذَ عسكر الملك الناصر حمص واستيلاءهم عليها غضب لذلك، وعظُم عليه جداً. وقد كان يظنّ أنّ أمرها يطول ويتراخى، وأنّ حمص تمتنع على عسكر حلب حتى تصل[٤] عساكره إليها ويدفعوهم عنها. فرحل من أشمون إلى القاهرة، وورد أمره إلى الأمير حسام الدين وهو مقيم بالصالحية مع الحلقة يأمره بالقدوم عليه ليتّفق معه على ما يريده. فقدِم حسام الدين إلى القاهرة جريدة[٥]، واجتمع بالسلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٦]، فاتفقا على المسير إلى الشام لانتزاع حمص من أيدي الحلبيّين. واستناب الملك الصالح بالقاهرة والديار المصرية جمال الدين بن يغمور[٧]. ثم سافر في النيل إلى الطينة[٨] وهي قرب قطْيا.

وتقدّم الملك الصالح (نجم الدين)[٩] إلى العسكر الذي كان مقيماً بالصالحية، وهو الحلقة، بالرحيل، فرحلوا (عن الصالحية)[١٠] نحو دمشق. ورحل السلطان بهم

---

(١) لم أجد للأمير سعد الدين بن الدريوش ترجمة في المصادر، وهو ممّن ينفرد بذكره «ابن واصل»، وهو ممّا يُستدرَك على كتاب «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» للشيخ راغب الطباخ.

(٢) خبر الأمير ابن الدريوش، بين القوسين لم يرِد في النسخة (أ)، وهو في (ب).

(٣) من (ب).

(٤) في (أ): «يصل»، والمثبت من (ب).

(٥) جريدة = تجريدة: الفرقة من العسكر الخيّالة دون الرجّالة، والمقصود فيها سير الجنود على وجه السرعة دون أثقال أو حشد.

(٦) من (ب).

(٧) نهاية الأرب ٢٩/ ٣٣٤، تاريخ الإسلام (في ترجمة أيوب السلطان الملك الصالح ـ وفيات سنة ٦٤٧هـ. ـ رقم ٤٦١) ص٣٥٥.

(٨) في (أ): «المطينه»، والمثبت من (ب).

(٩) من (ب).

(١٠) من (ب).

وهو في محفّة إذ لا يستطيع ركوب الفرس لضعفه ولمكان الجُرح الذي به (في مخاصيه)[١].

ولما وصل إلى دمشق نزل بقلعتها، وتقدّم إلى الأمير فخر الدين (يوسف)[٢] ابن شيخ الشيوخ[٣] بالمسير بالعساكر مقدّماً عليها إلى حمص، وتقدّم إلى الأمير حسام الدين (محمد [بن] أبي علي)[٤] بالمسير بالحلقة السلطانية (المنصورة)[٥]، وجعل إليه التقدّم[٦] عليها، وبعث معه الدّهليز السلطاني[٧]، فسارت العساكر إلى حمص ونازلوها وبها نواب الملك الناصر صاحب حلب[٨].

ذِكر محاصرة عساكر[٩] الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[١٠] حمص ورحيلهم عنها

قال[١١]: ولما نزل الأميران حسام الدين، وفخر الدين (بن الشيخ)[١٢] بالعساكر[١٣] على حمص ضايقوها ونصبوا عليها المجانيق[١٤] وممّا نُصب عليها/ ٦١أ/ منجنيق مغربيّ.

(قال صاحب هذا التاريخ)[١٥]: وذكر لي حسام الدين (محمد [بن] أبي علي)[١٦]

---

(١) زيادة من (ب).
(٢) زيادة من (ب).
(٣) في (أ): «ابن الشيخ»، والمثبت من (ب).
(٤) زيادة من (ب)، وما بين الحاصرتين ساقط.
(٥) زيادة من (ب).
(٦) في (ب): «التقدمة».
(٧) في (أ): «السلطانية»، والمثبت من (ب).
(٨) خبر حمص في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٧٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٧٧، وأخبار الأيوبيين ١٥٨، و١٦٤ (حوادث سنة ٦٤٩هـ.)، ونهاية الأرب ٢٩/ ٣٢٨، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢١٢، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٦هـ.) ٣٨ و٣٥٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٥٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢١، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٣١.
(٩) في (ب): «عسكر».
(١٠) من (ب).
(١١) من (ب).
(١٢) من (أ) وليس في (ب).
(١٣) من (أ) وليس في (ب).
(١٤) في (ب): «المناجنيق».
(١٥) زيادة من (ب).
(١٦) زيادة من (ب)، وما بين الحاصرتين إضافة منّا للتصويب.

أنه كان يرمي حجراً زنتها ماية (رطل)[١] وأربعون رِطلاً بالشاميّ[٢]، ونُصب عليها قرابُغا[٣] اثنا عشر منجنيقاً شيطانية، وأوتروا[٤] الرمي بالحجار إليها، وجدّوا في حصارها ليُسرع أخْذها لأنّ الزمان كان شتاءً، والبرد شديداً.

وخرج السلطان الملك الناصر من حلب في منتصف شهر رمضان من هذه السنة، والحصار على حمص، ونزل بأرض كَفَرْطاب. ولم يزل الحصار مستمرًّا إلى أن ورد الشيخ نجم الدين البادَرائيّ[٥]، رحِمه اللّه، رسول الخليفة (الإمام)[٦] المستعصم باللّه، وكان قد ورد للإصلاح بين السلطانَين: الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٧]، والملك الناصر (صلاح الدين يوسف)[٨] صاحب حلب، على أن يرجع السلطان الملك الصالح عن قصد حمص، وتُقَرَّر بيد الملك الناصر، فوقع الاتفاق على ذلك.

وتقدّم الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٩] إلى عساكره بالرحيل عن حمص، فرحلوا عنها بعد أن كانوا قد شارفوا (على)[١٠] أخذها، وإنّما أجاب السلطان الملك الصالح إلى الصُلح لأمرين: **أحدهما**: ما كان به من المرض، **والثاني**: أنه بلغه حركة الفرنج، وقصْدهم الديار المصرية في جموع عظيمة من داخل البحر، فرأى أنّ الصُلح والاتفاق متعيّناً عليه.

(قال)[١١]: وورد على الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[١٢] وهو بدمشق الشيخ شمس الدين الخُسْرُوَ شَاهي[١٣] رسولاً من الملك الناصر داود (بن الملك المعظّم)[١٤]، ومعه الملك الأمجد الحسن بن الملك الناصر (داود)[١٥]، وكان مضمون الرسالة الرغبة إلى الملك الصالح في أن يتسلّم منه الكَرَك ويعوّضه عنها

---

(١) زيادة من (ب).
(٢) في (ب) ورقة ٣٥٤أ «بالحلبي».
(٣) قَرابُغا: ضرْب من أنواع المجانيق. ويقال: «قُره بُغا» و«قُوابغا» بالواو. و«قُرا» بالتركية بضمّ القاف تعني أسود. و«بُغا» بضم الباء الموحّدة، تعني الشيطان.
(٤) في (أ): «وواتروا»، والمثبت من (ب).
(٥) اسمه «عبد اللّه». وفي مرآة الزمان ـ ج٨ ق٢/ ٧٧٠ «البادراني» بالنون. والمثبت هو الصحيح، فالبادَرائي (بفتح الدال والراء) نسبة إلى بادرايا بنواحي واسط. وهو: عبد اللّه بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد اللّه.. توفي سنة ٦٥٥هـ. انظر ترجمته ومصادرها الكثيرة في تاريخ الإسلام ـ بتحقيقنا ـ ص٢٠٠ ـ ٢٠٢ رقم ١٩٨.
(٦) زيادة من (ب).
(٧) زيادة من (ب).
(٨) زيادة من (ب).
(٩) زيادة من (ب).
(١٠) زيادة من (ب).
(١١) زيادة من (ب).
(١٢) زيادة من (ب).
(١٣) الخُسْرُوشاهي: نسبة إلى: خسروشاه، قرية بينها وبين مَرو فرسخان، وخُسروشاه أيضاً بُليدة في فارس، بينها وبين تبريز ستة فراسخ. (معجم البلدان ٢/ ٣٧١).
(١٤) زيادة من (ب).
(١٥) زيادة من (ب).

الشَوْبَك وخُبزاً في الديار المصرية. فأجاب الملك الصالح إلى ذلك[١].

ذِكر رجوع السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٢] إلى الديار المصرية

ثم رحل السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٣] إلى الديار المصرية وهو محمول في المحفّة. إذ لا يمكنه الركوب على الفَرَس بسبب (ما ذكرنا من)[٤] المرض الذي (كان)[٥] به. /٦١ب/ فلما رحل عن دمشق مرحلتين تقدّم إلى الأمير حسام الدين أن يتوجّه إلى الكرَك ليتسلّمه من الملك الناصر داود ويسلّم (إليه)[٦] الشوْبك.

(قال القاضي جمال الدين بن واصل قاضي حماه وأعمالها صاحب هذا التاريخ)[٧]: حكى لي حسام الدين (محمد بن أبي علي)[٨]، رحِمه اللّه، قال: لما ورد عليّ الأمر بذلك كرهت المُضِيَّ إلى الكرَك، وعرفت تقلّب الملك الناصر وأنه لا يَثْبُتُ على أمرِ واحدِ وخفت أن يقبض عليّ ويبدو له (رأي)[٩] فيما اتفق مع السلطان عليه، فكتبت إلى السلطان (الملك الصالح)[١٠] مطالعة تتضمّن إعفائي من ذلك، فجاء (في)[١١] جواب المطالعة: «إنّي قد أعفيتك من ذلك، و(قد)[١٢] سيّرت تاج الدين بن مهاجر ليقوم بهذا الأمر. قال، فظننت أن السلطان قد شقّ عليه استعفائي من الأمر الذي (قد)[١٣] ندبني له، وغضب منه، فتقدّم (السلطان)[١٤] الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[١٥] إلى تاج الدين بن مهاجر أن يرحل إلى الكرَك، فمضى تاج الدين إلى الكرَك واجتمع بالملك الناصر، فطلب منه ما وقع الاتفاق عليه، فرجع الملك الناصر (داود)[١٦] عن ما كان قرّره مع (السلطان)[١٧] الملك الصالح، وذلك أنه بلغه حركة الفرنج إلى الديار المصرية، (ومرضه أيضاً)[١٨] وتربّص الدوائر.

---

(١) خبر محاصرة حمص والرحيل عنها في: مرآة الزمان ـ ج٨ ق٢/ ٧٧٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٧٧، وأخبار الأيوبيين ١٥٨ و١٦٤ (حوادث سنة ٦٤٩هـ.)، ونهاية الأرب ٢٩/ ٣٢٨، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢١٢، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٦هـ.) ص٣٨، ٣٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٥٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢١، ونزهة الأنام في تاريخ الإسلام، لابن دُقماق ١٧٨، ١٧٩، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٣١، ٣٣٢.

(٢) زيادة من (ب).

(٣) زيادة من (ب).

(٤) زيادة من (ب).

(٥) زيادة من (ب).

(٦) زيادة من (ب).

(٧) ما بين القوسين زيادة من (ب).

(٨) زيادة من (ب).

(٩) زيادة من (ب).

(١٠) زيادة من (ب).

(١١) زيادة من (ب).

(١٢) زيادة من (ب).

(١٣) زيادة من (ب).

(١٤) زيادة من (ب).

(١٥) زيادة من (ب).

(١٦) زيادة من (ب).

(١٧) زيادة من (ب).

(١٨) زيادة من (ب).

قال حسام الدين: فلما وصلنا إلى الناعمة[1] من بلد الغَور مضيت إلى (باب)[2] دِهليز السلطان. وكانت عادتي[3] المُضِيّ إليه للمنادمة كل ليلة. وكان الملك الصالح (نجم الدين أيوب، رحمه اللّه)[4] مع ما هو فيه من المرض والجراحة التي به يجتمع بالندماء (في)[5] كل ليلة على عادته وهو مستند إلى مِخدّة للألم الذي به. قال: واجتمع جماعةٌ (من)[6] الندماء على باب الدِهليز. فخرج من عنده مَن استدعاهم واحداً واحداً بأسمائهم، فدخلوا كلّهم ولم يستدْعني أحد، فركبت وأتيت وطاقي وقلت، إنه إنما لم يستدعني إليه حَرَداً على مخالفتي أمره في المُضِيّ إلى الكرَك. قال: فلم تمض (عليّ)[7] إلّا ساعة حتى جاء جاندار[8] يستدعيني إلى السلطان وقال: إنّ السلطان سأل عنك، فأخبر أنك أتيت (إلى)[9] باب الدِهليز ولم يطلُبْك الذي خرج يستدعي الجماعة، وإنك رجعت إلى وطاقك[10]، فغضب غضباً شديداً على الغلام الذي خرج يستدعي الجماعة/ ٦٢أ/ ولم يستدْعِك معهم، وإنه ضربه ضرباً (مُثخناً)[11] مُبْرحاً. قال (حسام الدين)[12] فركبت وعدت إلى الدِهليز ودخلت إلى (عند)[13] السلطان، فاستدناني إليه، وتقدّم إليّ بأن أتوجّه إلى الديار المصرية وأنوب عنه فيها على العادة، وأن أباشر (أيضاً)[14] ما كان مفوّضاً إلى جمال الدين بن يغمور مع نيابة السلطنة وهو الصناعة، وأن يتوجّه جمال الدين بن يغمور إلى دمشق لينوب عنه فيها[15]. وكان قد عزل جمال الدين (بن)[16]

(١) في (ب) ورقة ٣٥٥أ «الناعم».
(٢) ليست في (ب).
(٣) في (أ): «عادته»، والتصحيح من (ب).
(٤) زيادة من (ب).
(٥) زيادة من (ب).
(٦) زيادة من (ب).
(٧) زيادة من (ب).
(٨) في (ب) ورة ٣٥٥أ «حزندار». والمثبت من (أ): «جأندار». وكلمة «جاندار» لفظ مركّب من «جان» التركية، وهي بمعنى روح. و«دار» الفارسية، بمعنى مالِك أو صاحب. وأمير جاندار لقب موظف من العصرين الأيوبي والمملوكي من مرتبة أمراء الطبلخاناه، مهمّته تنظيم دخول الأمراء على السلطان وتقديم البريد له مع الدوادار، يعمل بإمرته صنف من العسكر يُعرفون باسم بردداريّة أو جانداريّة، انحصر عملهم عند مباشري الديوان. (معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ـ ص٤٣، ٤٤).
(٩) ليست في (ب).
(١٠) وطاق: لفظ تركيّ، أصله: أوتاق. معناه: الخيمة الكبيرة. ذكرته المصادر العربية في العصرين الأيوبي والمملوكي على أنه المخيّم الذي كان يقام أثناء سير المعارك في الموقع المتقدّم، ويكون بمثابة مقرّ قيادة للملك أو السلطان. (معجم المصطلحات ٤٤٢، ٤٤٣).
(١١) زيادة من (ب).
(١٢) زيادة من (ب).
(١٣) زيادة من (ب).
(١٤) زيادة من (ب).
(١٥) تاريخ الإسلام ٣٥٥، السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٢.
(١٦) زيادة من (ب) للتصويب.

مطروح[١] عن نيابته بدمشق، وتغيّر عليه، وسافر معه إلى الديار المصرية. قال (حسام الدين)[٢]: فرحلت بُكرة الغد ووصلت إلى أريحا، فما استقررت بها إلّا وقد وصلت مِحفّة السلطان إليها. قال: فسافرت وجَدَدْتُ[٣] في السير لأسبق إلى البلاد[٤].

[وفاة قاضي القضاة الخُونَجيّ]

[[٥] وفي هذه (السنة)[٦] توفي الشيخ الإمام قاضي القضاة أفضل الدين الخُونَجيّ[٧]، رحمه اللّه.

وكان إليه قضاء مصر وما معها من الجانب القِبْليّ، وكان إمامَ وقته في عِلم المنطق، وله فيه كتاب «كشف الأسرار»[٨] الذي لم يُصنّف مثله في هذا الفنّ. وكان في الذكاء والإدراك إلى الغاية القُصوى.

وقد قدّمت شيئاً من أخباره[٩]، وستأتي بقيّةٌ له إن شاء اللّه تعالى.

ولما تُوُفّي بقي نوّابه في القضاء على حالهم إلى أن جرى ما سنذكره.

والقضاء بالقاهرة والجانب البحريّ كان إلى القاضي بدر الدين قاضي سِنْجار[١٠] (وكان يلي)[١١] أيضاً تدريس المدرسة التي أنشأها السلطان الملك الصالح، رحمه اللّه، بالقاهرة[١٢].

---

(١) هو الصاحب جمال الدين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح. توفي سنة ٦٤٩هـ. وستأتي ترجمته فيها.

(٢) زيادة من (ب).

(٣) في (ب) ورقة ٣٥٥ب: «حديث».

(٤) ينفرد المؤلّف ـ رحمه اللّه ـ بهذا الخبر الذي رواه له الأمير حسام الدين وهو: أبو علي بن محمد بن الأمير أبي علي بن باسك الهَذَباني المعروف بابن أبي علي. توفي سنة ٦٥٨هـ. انظر ترجمته ومصادرها في: تاريخ الإسلام ـ بتحقيقنا ـ ص٣٧٧، ٣٧٨ رقم ٤٧٦.

(٥) من هنا ليس في (ب). (٦) كُتبت فوق السطر.

(٧) هو: أبو عبد اللّه، محمد بن نَامَاوَر بن عبد الملك الخُونَجي، الشافعيّ. انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام ـ وفيات ٦٤٦هـ. ـ (بتحقيقنا) ـ ص٣٣٠، ٣٣١ رقم ٤٤٨ وفيه حشدنا مصادر كثيرة عنه. و«الخُونَجي»: بضم الخاء المعجمة، وفتح النون.

(٨) هو كتاب «كشف الأسرار عن غوامض الأفكار»، انظر: كشف الظنون ٢/١٤٨٦ وفيه وفاته سنة ٦٤٩هـ. ثم صُحّحت.

(٩) انظر الجزء الخامس من «مفرّج الكروب» ـ ص١٦٠ ـ ١٦٢ و٣٢٥ و٣٣٥.

(١٠) هو: يوسف بن الحسن الزَرْزَاري. توفي سنة ٦٦٣هـ. انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام ـ وفيات ٦٦٣هـ. ـ (بتحقيقنا) ـ ص١٦٢ ـ ١٦٤ رقم ١١٧ وفيه حشدنا مصادرها.

(١١) كُتب على هامش المخطوط.

(١٢) حتى هنا ينتهي النقص في (ب).

[٦٤٧هـ.]

ودخلت سنة سبع وأربعين وستماية

[وصول حسام الدين إلى القاهرة]

فوصل في أوائلها حسام الدين (محمد)[١] بن أبي علي إلى القاهرة، وكان دخوله إليها يوم الثلاثاء لثلاث من المحرّم[٢] (من هذه السنة)[٣]، ونزل بدار الوزارة، وتوجّه الأمير جمال الدين بن يغمور إلى دمشق ليكون نائباً عن السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٤] بها وخرج (جمال الدين)[٥] من القاهرة قبل وصول حسام الدين إليها، فالتقيا في الرمل. ووصل (جمال الدين بن يغمور)[٦] إلى دمشق، فأقام بها نائباً[٧].

وكان (السلطان)[٨] الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٩] قد عزل شهاب الدين رشيداً[١٠] عن قلعة دمشق[١١].

وسيّر إلى دمشق القاضي الأسعد شرف/ ٦٢ب/ الدين الفايزي[١٢] هبة اللّه بن صاعد[١٣] ـ وكان نصرانياً أسلم في صباه ـ قائماً فيها مقام الوزير.

ثم وصل السلطان الملك الصالح إلى أشمون طناح[١٤] يوم الإثنين لثلاثٍ مضَيْن

(١) من (ب)، ورقة ٣٥٥ب.
(٢) في (ب): «لثلاثٍ بقين من المحرّم». وفي تاريخ الإسلام ٣٥٥ «ثالث محرّم».
(٣) زيادة من (ب).
(٤) زيادة من (ب).
(٥) زيادة من (ب).
(٦) زيادة من (ب).
(٧) تاريخ الإسلام ٤٠ و٣٥٥ وفيه مصادر أخرى للخبر.
(٨) من (ب). (٩) من (ب).
(١٠) هكذا في (أ)، وفي (ب) ورقة ٣٥٥ب «رشيد».
(١١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٢، أخبار الأيوبيين ١٥٨.
(١٢) في (أ): «الفانري»، والتصحيح من (ب).
(١٣) انظر عن (هبة اللّه بن صاعد الفائزي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ـ ص٢٢٠، ٢٢١ رقم ٢٣٢ وفيه مصادر ترجمته.
(١٤) في (ب) وردت «طناح» مهملة.

من صفر[(١)] من هذه السنة، (وهي سنة سبع وأربعين وستماية.

قال صاحب التاريخ)[(٢)]: وذلك لأنه تواترت عليه الأخبار بأنّ (ملك الإفرنج)[(٣)] ريدافرنس[(٤)] مقدّم[(٥)] الإفرنسيسية من الفرنج، وكان قد خرج من بلاده في جموعٍ عظيمة طامعاً في قصد الديار المصرية، وقصد تملّكها، قد شتّى بجزيرة قبرص، فجعل السلطان (الملك الصالح)[(٦)] مُقامه بأشمون طناح ليكون في مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط.

وكان هذا ريدافرنس من أعظم ملوك الفرنجية وأشدّهم بأساً[(٧)].

وإفرنس هي أمّة من الفرنج، ومعنى ريدافرنس ملك افرنس. فإنّ ريد في لغتهم معناها: الملك.

وكان متديّناً بدين النصرانية مرتبطاً به، فحدَّثَته نفسه أن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج، إذ هو بيت معبودهم على ما يزعمون، وعلم أنّ ذلك لا يتمّ له إلّا بملْك الدِيار المصرية. وذُكر أنّ جَمْعه كان ما بين فارسٍ وراجل يزيد على خمسين ألفاً. وكان خروجه وحركته في السنة الماضية، وقصد أولاً جزيرة قبرص، فبلغ السلطانَ (الملك الصالح نجم الدين أيوب)[(٨)] أنه يصل إلى البلاد في أول الربيع، فذلك الذي حمله على المبادرة إلى مصالحة الحلبيّين، ولولا ذلك لما ترك عسكره يرحل عن حمص إلّا بعد أخْذها.

وأخذ الملك الصالح (نجم الدين)[(٩)] في جمع الذخائر والأقوات والزَّرَدْخاناه[(١٠)] وآلات الحرب بدمياط، واستكثر من ذلك. وورد أمره من أشمون طناح إلى نائبه في المُلْك الأمير حسام الدين (محمد)[(١١)] بن أبي علي بأن يُهَيّء

(١) في السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٣ «فنزل بأشموم طناح في المحرّم».
(٢) ما بين القوسين زيادة من (ب) ورقة ٣٥٥ب.
(٣) زيادة من (ب).
(٤) هو: روادي فرانس: ملك فرنسا، لويس التاسع.
(٥) في (أ): «مقد»، وهو سهوٌ من الناسخ، والتصحيح من (ب).
(٦) زيادة من (ب).
(٧) تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٧هـ.) ـ ص٣٥٥.
(٨) ما بين القوسين زيادة من (ب).
(٩) زيادة من (ب).
(١٠) الزردخاناه: الزرّادخانه: لفظ فارسيّ معناه: دار السلاح، دخل العربية بلفظ زردخانه، أطلق في العصرين الأيوبي والمملوكي على المكان المُعدّ لحفظ السلاح، وهو بلغة اليوم مستودع السلاح والذخيرة.
(١١) من (ب).

الشواني[١] بالصناعة، ويعمّرها بالرجال والعُدَد، ويسيّرها إليه أولاً فأوّلاً. فقام (الأمير)[٢] حسام الدين في ذلك مجتهداً. و(تقدّم)[٣] الملك الصالح أيضاً إلى الأمير فخر الدين (يوسف بن شيخ الشيوخ)[٤] بأن ينزل ويَقْدَم على جيزة[٥] دمياط في العسكر مقدَّماً عليهم، ليكون في مقابلة العدوّ إذا وصلوا، فرحل فخر الدين (يوسف بن شيخ الشيوخ)[٦] بالعساكر فنزل بالجيزة وبينها وبين دِمياط بحرُ النيل./ ٦٣أ/ وأقام السلطان (الملك الصالح)[٧] بمنزلته لمرضه[٨].

ذِكر وصول الفرنج
إلى الديار المصرية وتملّكهم ثغر دمياط

ولما كانت ثاني ساعة من نهار يوم الجمعة[٩] لسبع بقين من صفر من هذه السنة، (وهي سنة سبع وأربعين وستماية)[١٠] وصلت مراكب الفرنج وفيها جموعهم العظيمة وقد انضمّت إليهم إفرنج الساحل جميعها، فأرسوا في البحر بإزاء المسلمين[١١].

وفي ثاني هذا اليوم، وهو يوم السبت شرعوا في النزول إلى البرّ[١٢] الذي فيه المسلمون. وضُربت خيمة الملك ريدافرنس، وكانت حمراء، وناوشهم بعض المسلمين بعض المناوشة، فاستُشهِد في ذلك اليوم الأمير نجم الدين ابن شيخ الإسلام، رحِمَه اللّه، وقد قدّمنا ذِكره، وأنه كان هو وأخوه شهاب الدين يؤنسان الملك الصالح وهو بالكرَك بأمر الملك الناصر (داود)[١٣] لهما في ذلك[١٤]. وكان

---

(١) الشواني: مفردها: شِيني، وهي طراز من السفن الحربية عرفها اليونان والرومان واستعملها العرب في العصر الإسلامي، تسير بالشراع، يصل عدد مجاذيفها إلى ١٠٠، ومزوّدة بأبراج خاصة، تحمل على متنها حوالى ١٥٠ من المقاتلين المسلحين (معجم المصطلحات ٢٧٨).

(٢) زيادة من (ب).

(٣) زيادة من (ب).

(٤) زيادة من (ب).

(٥) في (ب) ورقة ٣٥٦أ «بحيرة» وكُتبت مهملة. والمثبت من (أ) وهو الصحيح كما في: تاريخ الإسلام ٣٥٦.

(٦) زيادة من (ب).

(٧) زيادة من (ب).

(٨) تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٧هـ.) ص٣٥٦، السلوك ج١ ق٢/٣٣٣، ٣٣٤.

(٩) في (ب) ورقة ٣٥٦أ «يوم الخميس».

(١٠) زيادة من (ب).

(١١) تاريخ الإسلام ٣٥٦، السلوك ج١ ق٢/٣٣٣، ٣٣٤.

(١٢) في (ب) ورقة ٣٥٦أ «إلى البحر»، والمثبت من (أ) وتاريخ الإسلام.

(١٣) زيادة من (ب).

(١٤) راجع الجزء الخامس من «مفرّج الكروب» ـ ص٢٤١.

رجلاً صالحاً. واستُشهد (أيضاً)[١] من أمراء مصر أمير آخر يقال له الوزيري[٢]، فلما أمسى المسلمون رحل بهم الأمير فخر الدين (يوسف بن شيخ الشيوخ)[٣]، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقيّ الذي فيه دمياط، وخلا البرّ الغربيّ للفرنج.

ولما عدّا[٤] فخر الدين (يوسف بن الشيخ)[٥] والعسكر إلى البرّ الشرقي رحل هو والعسكر طالباً جهة أشمون طناح، وحصل عند العسكر الطمع بسبب مرض السلطان (الملك الصالح نجم الدين أيوب)[٦] فلم يكن لهم من يردّهم ولا يردعهم. وخلا البرّ الشرقيّ والغربيّ من عساكر المسلمين، فخاف أهل دمياط على أنفسهم أن يُستَحْصَروا، وكان فيها جماعة من الكِنانيّة شُجعان، فألقى اللّه سبحانه (وتعالى)[٧] الرعب في قلوبهم، فخرجوا هم وأهل دمياط على وجوههم طول الليل، ولم يبق بدمياط أحد، بل تركوها صفراً من الرجال والنساء والصبيان، ورحلوا تحت الليل مع العسكر هاربين إلى أشمون طناح، وكان هذا فعلاً قبيحاً منهم ومن فخر الدين والعسكر، فإنّ فخر الدين (يوسف)[٨] لو منع/٦٣ب/ العسكر من الهرب وأقام لامتنعت دمياط، فإنّ دمياط في المرّة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل كانت أقلّ ذخائر وعُدداً، ولم يقدر الفرنج عليها إلّا بعد سنة، فإنها نوزلت سنة خمس عشرة وستماية وأُخِذت سنة ست عشرة وستماية[٩]، ولم يتمكّن العدوّ منها إلّا بعد أن فني أهلُها بالوباء والجوع، والكِنانيّةُ وأهلُ دمياط لو غلّقوا أبوابها وتحصّنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشمون طناح لمَا قدر الفرنج عليهم، وكانت العساكر ردّت إليهم ومنعت عنهم، والأقوات والآلات والعُدَد كانت عندهم في غاية الكثرة، فكانوا قدروا

---

(١) من (ب).

(٢) هو الأمير صارم الدين أزبك الوزيري. (نهاية الأرب ٢٩/ ٣٣٤).

(٣) زيادة من (ب).

(٤) هكذا في النسختين. والصواب: «عدّى».

(٥) زيادة من (ب).

(٦) زيادة من (ب).

(٧) زيادة من (ب).

(٨) من (ب).

(٩) راجع الجزء الثالث من «مفرّج الكروب» ص٢٥٨ ـ ٢٦١، والتاريخ الصالحي، لابن واصل (مخطوط الفاتح رقم ٤٢٢٤) ـ ج٢/ورقة ٢٢٥ب، وانظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ بتحقيقنا ـ ج١٠/ ٣٠٤ ـ ٣٠٧، والمختصر من الكامل في التاريخ وتكملته، للأمير سنجر المسروري ـ بتحقيقنا ـ ص١٠٩، ومرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٥٨٥، وذيل الروضتين ١٠٩، والدرّ المطلوب لابن أيبك الدواداري ١٩٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١١٨، ونهاية الأرب ٢٣/ ٧٨ ـ ٨١، ودول الإسلام ٢/ ١١٧، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦١٥هـ.) ص١٨، ١٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٣٤، والإعلام والتبيين لابن الحريري ٤٨، والبداية والنهاية ١٣/ ٧٨، ٧٩، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٤٤، والسلوك ج١ ق١/ ١٨٨، ١٨٩، وتاريخ الخلفاء ٤٥٦، وتاريخ ابن سباط ـ بتحقيقنا ـ ج١/ ٢٦٠، ٢٦١.

على حفظها سنة[١] وأكثر (من ذلك)[٢]، لكنْ إذا أراد اللّه أمراً فلا مَرَدّ له. لكنّ أهل دمياط لما رأوا هرب العساكر، وعلموا مرضَ السلطان، خافوا أن يستمرّ عليهم الحصار مدّةً طويلة فيهلكوا جوعاً، كما هلك أهل دمياط في المرة الأولى[٣].

(قال)[٤]: ولما أصبح الصباح من يوم الأحد لسبع بقين من صفر جاء الفرنج إلى دمياط فوجدوها صفراً من الناس وأبوابها مُفتَّحة، فملكوها صَفْواً عفواً، واحتووا على كل ما (كان)[٥] فيها من العُدَد والأسلحة والذخائر والأقوات والمجانيق. وكانت هذه مصيبة عظيمة لم يجر مثلُها[٦].

(قال صاحب التاريخ)[٧]: ووردت يوم الأحد إلى الأمير حسام الدين (محمد بن أبي علي الهَذَباني)[٨] وأنا عنده بطاقةٌ بذلك، فاشتدّ الجَزَع والخوف، ووقع اليأس من الديار المصرية بالكلّية، (لا)[٩] سيما والسلطان مريض قد ضعفت قواه عن الحركة وليس له قدرة على ضبط جُنده، وقد اشتدّ طمعهم فيه.

ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان حنق على الكِنانيّين حنقاً شديداً، وأمر بشنقهم، فشُنقوا جميعاً[١٠]، وتألّم مما فعله فخرُ الدين والعسكر، لكنّ الوقت كان لا يحتمل إلّا الصبر والإغضاء[١١] عمّا فعلوا[١٢].

---

(١) هكذا في (أ). وفي (ب): «سنتين».

(٢) من (ب).

(٣) تاريخ الإسلام ٣٥٦، نهاية الأرب ٢٩/ ٣٣٥، السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٥.

(٤) من (ب). (٥) من (ب).

(٦) تاريخ الإسلام ٣٥٦، السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٦.

(٧) زيادة من (ب).

(٨) زيادة من (ب).

(٩) زيادة من (ب).

(١٠) وكانوا نيّفاً وخمسين أميراً. (نهاية الأرب ٢٩/ ٣٣٥) وأخبار الأيوبيين ١٥٨، وفي: سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢٣/ ١٩١ «وشنق من مقاتليها ستين»، وقال ابن العبري، في (تاريخ الزمان ٢٩٤): «فسخط الصالح عليهم وأمر بصلبهم وهم ٦٤ أميراً على ٣٢ صليباً زوجاً زوجاً كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم»، وقال في (تاريخ مختصر الدول ٢٥٩) «وكانوا أربعة وخمسين أميراً»، وفي (المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٧٩) أما المشنوقين هم من بني كنانة. وفي (أخبار الأيوبيين لابن العميد ١٥٨) «كانوا نيف وخمسين أميراً»، وفي (الحوادث الجامعة ـ ص١١٩): «صلب نيفاً وثمانين زعيماً»، وفي تاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٧هـ.) ص٤٢: «وشنق من أعيان أهلها ستين رجلاً»، ومثله في المختار من تاريخ ابن الجزري ـ ص٢١٦.

(١١) في (ب) ورقة ٣٥٧أ «الإعفاء».

(١٢) أخبار الأيوبيين ١٥٨، تاريخ الإسلام ٤١، ٤٢ و٣٥٦، السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٦.

ذكر رحيل السلطان الملك الصالح
/ ١٦٤أ/ والعسكر إلى المنصورة ونزولهم بها

ولما جرى ما ذكرناه رحل السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[١] بالعساكر إلى المنصورة فنزل بها، وهي المنزلة التي كان أبوه الملك الكامل نزلها نَوبة دمياط بحر أشمون طناح[٢].

وكنّا ذكرنا أنّ الملك الكامل[٣] كان أمر ببناء الأبنية فيها، وجعل بينها وبين البحر سوراً، وللملك الكامل فيها قصر على[٤] بحر النيل، فنزله الملك الصالح وضرب دِهليزه إلى جانبه.

وكان استقرار السلطان بالمنصورة يوم الثلاثاء لخمسٍ بقين من صفر. وشرعت العساكر في تجديد الأبنية، وقامت بها الأسواق، وأُصلح السور الذي على البحر، وسُتر بالستائر، وجاءت الشواني والحراريق[٥] وفيها العُدَد الكاملة والمقاتلة، فأرسَوْا قُدّام السور، وجاء إلى المنصورة من الرجَّالة، والحرافشة[٦]، والغُزاة المطّوِّعة من سائر النواحيْ خلقٌ كثير لا يقع عليهم الإحصاء. وورد من العُربان أممٌ كثيرة، وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم، وحصّن الفرنجُ أسوارَ دِمياط وشحنوها بالمقاتلة[٧].

وفي يوم الإثنين سلْخ ربيع الأول ورد إلى القاهرة من أسارى الفرنج الذين تخطّفتهم العربان وغيرهم ستة وثلاثون[٨] أسيراً، منهم فارسان.

وفي يوم السبت لخمسٍ مَضَيْن من ربيع الآخر وصل (أيضاً)[٩] إلى القاهرة

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) من (ب).

(٣) تاريخ الإسلام ٣٥٦، السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٧.

(٤) في (ب) ورقة ٣٥٧ب «الملك الصالح نجم الدين أيوب»، وهو غلط. وقد توفي الملك الكامل بن الملك العادل في سنة ٦٣٢هـ. انظر عنه في الجزء الخامس من «مفرّج الكروب» ص١٥٣ ـ ١٧١.

(٥) في (ب) ورقة ٣٥٧أ «وفيها قصراً عالي على».

(٦) الحراريق: مفردها: حرّاقة. وهي سفينة حربية كبيرة كانت تحمل الأسلحة النارية. (معجم الألفاظ التاريخية ـ لمحمد أحمد دهمان ـ ص٦٠ رقم ٣١٧).

(٧) الحرافشة: مفردها: حرفوش، وهو الذي ليس بصاحب صنعة أو حرفة، ولا يملك دكّاناً، وهو فقير أو بمعناه. (معجم الألفاظ ٦٠ رقم ٢١٨).

(٨) تاريخ الإسلام ٣٥٦، السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٧.

(٩) في (ب) ورقة ٣٥٧ب: «وأربعون»، والمثبت يتفق مع السلوك.

منهم تسعة[١] وثلاثون أسيراً أسرتهم العرب والخوارزمية.

ثم دخل منهم إلى القاهرة اثنان وعشرون أُخذوا من غزّة، وكان دخولهم لسبعٍ مَضَيْن من ربيع الآخر.

وفي يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر وصل منهم خمسة وثلاثون[٢] أسيراً، منهم ثلاثة من الخيّالة.

[تسلّم صيدا من الفرنج]

وورد يوم الجمعة لخمسٍ بقين من ربيع الآخر بأنّ عسكر السلطان (الملك الصالح)[٣] بدمشق/ ٦٤ب/ خرجوا إلى صيدا وتسلّموها من أيدي الفرنج[٤].

ثم كان بعد كل قليلٍ يصل من (الفرنج أسارى)[٥] جمعٌ بعد جمْع، ووصل منهم لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى خمسون أسيراً. وكل هذا يجري والسلطان (الملك الصالح)[٦] يتزايد مرضه، وقواه تضعُف ويتلاشى، والأطبّاء ملازمون (له)[٧] ليلاً ونهاراً، وقد وقع يأسهم من عافيته، ونفسه مع ذلك وعزيمته في غاية القوّة، وتعاضد عليه مرضان عظيمان: (الجراحة الناصورة[٨] في مأبضه[٩]، والسُّل)[١٠].

ذِكر تسليم الكرَك إلى السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[١١]

(قال صاحب التاريخ: و)[١٢] لما ضاقت الأمور على الملك الناصر داود (بن

---

(١) من (ب).

(٢) هكذا في النسختين. وفي: السلوك ـ ص٣٣٧ «سبع».

(٣) هكذا في النسختين. وفي: السلوك ـ ص٣٣٧ «خمسة وأربعون».

(٤) زيادة من (ب).

(٥) السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٧، Grousset - L'Empire du Levant - 111, P. 494, Paris 1949, Michaud - History of the crusades - 11, P. 392 - Paris 1822 لبنان من السقوط بيد الصليبيين حتى التحرير ـ تأليفنا ـ القسم السياسي، ص٢٦٢، وفي تاريخ ابن الفرات (مخطوط ڤينا رقم ٨١٤) ج٦/ ورقة ٤٤ب إن الأمير سعد الدين بن نزار كان متولي صيدا في سنة ٦٤٨هـ.

(٦) من (ب).

(٧) من (ب).

(٨) من (ب).

(٩) في السلوك: «الناصورية».

(١٠) في (ب) ورقة ٣٥٧ب: «الخراجة في مخاصيه».

(١١) تاريخ الإسلام ٣٥٦، السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٧.

(١٢) من (ب).

الملك المعظّم)[١] بالكرَك (مع قلّة سعده)[٢] استناب بها ولده الملك المعظّم شرف الدين عيسى، وأخذ ما يعزّ عليه من الجواهر، ومضى في البرّيّة إلى حلب[٣]، . (وقد زالت السعادة عنه)[٤]، مستجيراً بالسلطان الملك الناصر بن الملك العزيز صاحب حلب، وملتجئاً إليه كما فعل عمّه الملك الصالح (عماد الدين)[٥] إسماعيل، فأنزله الملك الناصر وأكرمه (غاية الإكرام ثم إنه)[٦] سيّر ما معه من الجوهر إلى بغداد ليكون وديعةً له عند الخليفة المستعصم باللَّه.

فلما وصل الجوهر إلى بغداد قُبض، وسُيّر إلى الملك الناصر خطّ بقبْضه. وأراد الملك الناصر بذلك أن يكون آمِناً عليه بكونه مُودَعاً في دار الخلافة، فلم تقع عينه بعد ذلك عليه[٧]. (وكان رزقاً للتتر ساقه اللَّه إليهم لما أخذوا بغداد وقتلوا الخليفة)[٨].

وذكر الملك الناصر أنّ قيمة الجوهر (الذي بعثه إلى بغداد)[٩] يزيد على مائة ألف دينار[١٠] إذا بيع بالهوان، (فإنه يزيد على ذلك)[١١].

وكان (ولده)[١٢] الملك المعظّم الذي تركه الناصر نائباً عنه بالكرَك أمُّه أمّ ولدٍ تركية، كان يميل إليها الملك الناصر (داود ميلاً[١٣]) كثيراً، وكان الملك الناصر يحبّه أكثر من محبّته لإخوته الباقين، وكان له ولدان من ابنة عمّه الملك الأمجد الحسن بن الملك العادل هما أكبر من (ابنه)[١٤] الملك المعظّم، وهما الملك الظاهر شادي، والملك الأمجد حسن[١٥]. والملك الظاهر أكبر أولاده، وُلد بقلعة دمشق قبل أن تؤخذ دمشق منه.

وكان (ابنه أيضاً الملك)[١٦] الأمجد نبيهاً، فاضلاً، مشاركاً/ ٦٥أ/ في علوم شتّى، وكان له أولاد من أمّهات شتّى. فلما قدّم الملك (الناصر ولده)[١٧] الملك المعظّم تألّم الباقون من ذلك وخصوصاً ولدا ابنة عمّه لكِبَر سنّهما وتميّزهما في أنفسهما عن الباقين.

---

(١) من (ب). (٢) من (ب).
(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٧هـ.) ص٤٠.
(٤) من (ب). (٥) من (ب).
(٦) من (ب).
(٧) السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٧، ٣٣٨.
(٨) ما بين القوسين زيادة من (ب) ورقة ٣٥٧ب.
(٩) من (ب). (١٠) السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٨.
(١١) من (ب). (١٢) من (ب).
(١٣) من (ب). (١٤) من (ب).
(١٥) السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٨، شفاء القلوب ٣٩٥ رقم ٩٩ و١٠١.
(١٦) من (ب). (١٧) من (ب).

وكان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[1] لما كان بالكَرَك كانت أمّهما بنت الملك الأمجد تخدمه وتقوم بمصالحه كلّها، لأنها ابنة عمّه، ولوصيّة زوجها الملك الناصر (داود)[2] لها بذلك، فكان ولداهما: الملك الظاهر، والملك الأمجد يأنسان بالملك الصالح، ويلازمانه في أكثر الأوقات، واتّفق مع ذلك ضيق الوقت وتطاول مدّة الحَصْر، فاتفقا مع أمّهما على القبض على أخيهما الملك المعظّم، (ففعلا ذلك)[3] واستوليا على الكَرَك (لذهاب المُلْك منهما)[4]، وعزما على تسليمها إلى السلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[5]، وأن يأخذا منه عِوَضاً عنها، فسار الملك الأمجد إلى العسكر بالمنصورة، فوصل إليه يوم السبت لسبعٍ مَضين من جمادى الآخرة من هذه السنة، أعني سنة سبع وأربعين وستماية. وقرّر مع السلطان (الملك الصالح)[6] تسليم الكرَك إليه، وتوثّق منه لنفسه ولإخوته، فطلب خبزاً بالديار والمصرية يقوم بهم، فأكرمه السلطان الملك الصالح، وأقبل عليه إقبالاً كثيراً، وسيّر إلى الكرَك الطواشي بدر الدين الصّوابيّ متسلّماً لها، ونائباً عنه بها[7].

(وبعد ذلك)[8] وصل إلى العسكر أولاد الملك الناصر جميعهم وأخواه: الملك القاهر عبد الملك، والملك المغيث عبد العزيز (أولاد الملك المعظّم)[9]، ونساؤهم وجواريهم وغلمانهم وأتباعهم، وأُقطِعوا إقطاعات جليلة، ورُتّبت لهم الرواتب الكثيرة، وأنزل أولاد الملك الناصر الأكابر منهم وإخوته في الجانب الغربيّ قبالة المنصورة. وفرح الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[10] بأخذ الكرَك فرحاً كثيراً مع ما هو فيه من المرض. وزُيّنت القاهرة ومصر، وضُربت بالقلعتين البشائر. وكان تسليم الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[11] الكرك يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى/ ٦٥ب/ الآخرة[12].

---

(١) من (ب).
(٢) من (ب).
(٣) من (ب).
(٤) من (ب).
(٥) من (ب).
(٦) من (ب).
(٧) تاريخ الإسلام ٣٥٧، السلوك ج١ ق٢/٣٣٨.
(٨) من (ب).
(٩) تاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٧هـ.) ـ ص٤١، مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٧٣، المختصر أخبار البشر ٣/ ١٧٩، أخبار الأيوبيين ١٥٨، نهاية الأرب ٢٩/ ٣٣٥، دول الإسلام ٢/ ١٥١ (حوادث ٦٤٦هـ.) و١٥٢ (حوادث ٦٤٧هـ.)، المختار من تاريخ ابن الجزري ٢١٦، العِبر في خبر من غبر ٥/ ١٩٢، عيون التواريخ ٢٠/ ٢٩، السلوك ج١ ق٢/٣٣٨.
(١٠)من (ب).
(١١)من (ب).
(١٢)تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٧هـ.) ـ ص٣٥٦، ٣٥٧، السلوك ج١ ق٢/٣٣٨.

وفي يوم الخميس لثلاث عشر [ة][1] ليلة مَضَتْ من رجب وصل إلى القاهرة من أسارى الفرنج سبعة وأربعون راجلاً، وأحد عشر فارساً، وظفر المسلمون بعد أيام بمسطّح[2] لهم في البحر فيه مقاتلة بقرب نَسْتَرَوَه[3]. (حتى امتلأت القاهرة بالأسارى)[4].

ذكر وفاة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل رحمهما اللّه

(قال)[5]: وتزايد المرض بالسلطان الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[6] واشتدّ، وكان به كما ذكرنا مَرَضان: الناصور الذي في مأبضه[7]، والسّلّ. وما كان يشعر بالسلّ، وإنما كان يظنّ أنّ عجْزَه وضَعْفه عن الحركة إنما هو بسبب الجرح (الذي في بيضه)[8]. ففي آخر مرضه قلّت الموادّ وفنيت، فخفّ الجرْح، فكتب إلى الأمير حسام الدين (محمد بن أبي علي)[9] يبشّره بعافيته وأنّ الجرح قد بريء وما بقي إلا الركوب واللّعِب بالكُرة[10].

وكان عنده بالمعسكر من الأطبّاء الرشيد المعروف بأبي خليفة[11] طبيب والده (الملك الكامل)[12]، فكتب إلى حسام الدين (محمد بن أبي علي)[13] يطلب منه إنفاذ الحكيم مهذّب[14] الدين أبي الفضل الحَمَويّ، فسيّره إليه، ثم بعث يطلب منه

(١) في الأصل «عشر».
(٢) المسطّح: جمعه: مسطَّحات. نوع من السفن. والغالب أنه سُمّي بذلك لأنه كان له سطح. (السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٩ بالحاشية ١).
(٣) في السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٩ «نستراوة»، وتسمّى أيضاً: «نسترو» وكانت حسب ياقوت الحموي: جزيرة يُصاد فيها السمك. (معجم البلدان ٥/ ٢٨٤) وهي تُطلق على بلدة البُرُلس الحالية، وعلى بحيرة البُرُلس.
(٤) زيادة من (ب) ورقة ٣٥٨ب.
(٥) من (ب).
(٦) من (ب).
(٧) في (ب): «مخاصيه».
(٨) من (ب).
(٩) من (ب).
(١٠) في (ب) ورقة ٣٥٨ب «واللعب بالصولجة»، ومثله في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٢.
(١١) انظر عن: الرشيد المعروف بأبي خليفة في ترجمة رشيد الدين أبي سعيد بن الموفق يعقوب النصراني. (عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة ٢/ ١٣٢، ١٣٣).
(١٢) من (ب).
(١٣) من (ب).
(١٤) في (ب): «موفق».

إنفاذ الحكيم فتح الدين بن أبي الحوافر رئيس الأطبّاء، فسيّره إليه، فوصل إليه قبل موته بأيام، وقد ضعُفت قواه جدّاً، وامتنع من تناول الغذاء، فلم يحضر عنده، (ومات الملك الصالح نجم الدين أيوب)(١). ولما مات أُحضِر (الحكم)(٢) ليتولى غسْله، وقصد بذلك كتمان موته، فإنّ غيره لو دخل لارتيبَ به وتُفُطّن لموته.

وانتقل الملك الصالح إلى رحمة اللّه ورضوانه وهو في مقابلة الفرنج مُرابطٌ ومجاهدٌ في سبيل اللّه. وكانت وفاته ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان من هذه السنة(٣) (أعني سنة سبع وأربعين وستماية)(٤)، فكانت مدّة ملكه الديارَ المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً(٥). وكان عُمُره نحو أربع وأربعين سنة، لأنّ مولده سنة/ ٦٦أ/ ثلاث(٦) وستماية(٧).

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) زيادة من (ب).

(٣) انظر عن (السلطان الملك الصالح) في: تاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٧هـ.) ص٤٣، ٤٤ (ووفيات ٦٤٧هـ.) ص٣٣٧ ـ ٣٥٨ رقم ٤٦١ وفيه حشدنا مصادر كثيرة عنه.

(٤) زيادة من (ب).

(٥) في تاريخ الملك الأشرف قايتباي (بتحقيقنا) ص٥٢ «عشرة أشهر وعشرة أيام». والمثبت يتفق مع كتاب: تاريخ النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، لابن قرطاي العزّي (مخطوط غوته رقم ١٦٥٥، ورقة ٤٢ب).

(٦) في (ب) ورقة ٣٥٩أ «سنة ثمانية»، وهو غلط. والمثبت هو الصحيح.

(٧) انظر عن (السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب) في: الفوائد الجليّة في الفرائد الناصرية، للملك داود بن عيسى الأيوبي ٩٧ و١١٢ و١٣٣ و٢٤٧ و٢٥٧، ومرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٧٥، وذيل الروضتين ١٨٢، ١٨٣، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ٢٥٩، وتاريخ الزمان، له ٢٩٤، وأخبار الأيوبيين ١٥٩، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٧٩، ١٨٠، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٣٢، ٣٣٧ و٣/ ٤٩٤ و٤/ ١٥٥ و٥/ ٨٢ و٨٤ ـ ٨٦ و٩٢ و٣٣٢ و٦/ ٢٤٧ ـ ٢٤٩، و٢٥٨ ـ ٢٦٠، ونهاية الأرب ٢٩/ ٣٣٦، ٣٣٧، والنور اللائح والدرّ الصادح في اصطفاء الملك الصالح، للقيسراني (بتحقيقنا) ص٥٥، والحوادث الجامعة المنسوب للقفطي ٢١، ١٢٢ وفيه وفاته ٦٤٨هـ. والدر المطلوب ٣٧٠ ـ ٣٧٤، ونزهة المالك والمملوك، للعباسي الصفدي ـ بتحقيقنا ـ ١٤٣، وتاريخ النوادر، لقرطاي ٤/ ورقة ٤٢ب و٥٤ب، ونزهة الأنام لابن دقماق ١٨٧، والجوهر الثمين، له ٢/ ٣٦ ـ ٣٩، والنفحة المسكية في الدولة التركية، له ـ بتحقيقنا ـ ص٣٧، والعبر ٥/ ١٩٣، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٨٧ ـ ١٩٣ رقم ١١٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٧هـ.) ص٤٣، ٤٤ (ووفيات ٦٤٧هـ.) ص٣٣٧ ـ ٣٥٨ رقم ٤٦١، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢١٦، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٤٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨١، ١٨٢، ومرآة الجنان لليافعي ٤/ ١١٦، والبداية والنهاية ١٣/ ١٧٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ٣٠، ٣١، والوافي بالوفيات ١٠/ ٥٥ ـ ٥٨ رقم ٤٥٠٠، والعسجد المسبوك للغسّاني ٢/ ٥٧٤، ومآثر الإنافة للقلقشندي ٢/ ٩٣، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٦٠، وأمراء دمشق في الإسلام، للصفدي ١٥، والمواعظ والاعتبار، للمقريزي ٢/ ٢٣٦، والسلوك =

ذِكر سيرته رحمه اللّه

كان ملكاً مَهيباً، عزيز النفس (عن أحوال الرعيّة)[١] أبيّها عالِيهَا، حَيّياً، عفيفاً، طاهر اللسان والذيل، لا يرى[٢] الهزْل ولا العَبَث، شديد الوقار، كثير الصمت، واشترى من المماليك التُرك ما لم يشتره (غيره من الملوك ولا)[٣] أحدٌ من أهل بيته، حتى صاروا معظم عسكره[٤]، (منهم سيف الدين قلاوون الألفي، وركن الدين بيبرس الصالحيّ، وعزّ الدين التُركمانيّ، وغيرهم، ومن هؤلاء وأشباههم.

وكنّا ذكرنا الأمير ركن الدين بيبرس الذي أعدمه كان من مماليك الملك الكامل، وأنّ الملك الصالح (كان)[٥] لما رأى من غدر الأكراد وغدْرهم[٦] به يوم أُخِذت دمشق، وثبات مماليكه معه لما فرّ الناس عنه بقصر ابن معين بالغور، مال إلى مماليكه ورجّحهم.

وصار لما مَلَك مصرَ يقطع الأمراء الذين كانوا عند أبيه وأخيه ويعتقلهم، وكلّما قطع خُبزَ أميرٍ جعل مملوكاً من مماليكه عِوَضه، حتّى صار أكثر أمراء الدولة مماليك. واشترى بمصر جماعة كثيرةً من التُرك، وجعلهم بطانتَه، والمحيطين بدِهليزه، وسمّاهم «البحرية»[٧] وصاروا عسكراً كبيراً في غاية الشجاعة والشهامة، انتفع المسلمون بهم غاية الانتفاع لما طرقت الفرنج البلاد خصوصاً يوم الكبْسة، على ما سنذكره (إن شاء اللّه تعالى)[٨]، فهم كانوا أنصار الإسلام يومئذٍ وعُدّته وعُمدته، وبهم انتصر المسلمون على التتر بعد ذلك.

= ج١ ق٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٤، وسمط النجوم العوالي، للعصامي ٤/ ١٤، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٦١، ومورد اللطافة، للسخاوي، ورقة ٩٣أ، وشفاء القلوب، للحنبلي ٣٦٧ ـ ٣٨٢ رقم ٨٣، وتاريخ الملك الأشرف قايتباي ـ مجهول المؤلف ـ بتحقيقنا ـ ص٥٢، وتاريخ ابن سباط ـ بتحقيقنا ـ ١/ ٣٤٥، ٣٤٦، وتاريخ الأزمنة، للدويهي ٢٢٧، ٢٢٨، ونزهة الأساطين ٦١، ٦٢ رقم ٧، وحسن المحاضرة ٢/ ٣٥٥، ٣٨٦، وبدائع الزهور لابن إياس ج١ ق١/ ٢٧٨، ٢٧٩، وترويح القلوب في مناقب بني أيوب للزبيدي ٦٢ رقم ١٠٧، وشذرات الذهب ٥/ ٢٣٧وأخبار الدول، للقرماني ٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢ و٢٦٤، والأعلام للزركلي ١/ ٣٨٢.

(١) زيادة من (ب).

(٢) في (ب) ورقة ٣٥٩أ «يؤثر».

(٣) زيادة من (ب).

(٤) تاريخ الإسلام ٣٥٧.

(٥) من (ب).

(٦) في (أ): «غيرهم»، والتصحيح من (ب) ورقة ٣٥٩أ.

(٧) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٩١، ١٩٢، تاريخ الإسلام ٣٥٧، السلوك ج١ ق٢/ ٣٣٩، ٣٤٠.

(٨) زيادة من (ب).

(قال القاضي جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ)[١]: وحكى لي حسام الدين (محمد)[٢] بن أبي علي رحمه اللّه، أنّ هؤلاء المماليك مع فَرْط جَبَرُوتهم وسطْوَتهم بلغ من عِظَم هيبة الملك الصالح (نجم الدين أيوب)[٣]، أنه كان إذا خرج وشاهدوا صورته يُرعِدون خوفاً منه، ولا يبقى أحدٌ منهم يجسر أن يتحدّث مع أحدٍ، وأنه كان مع هذه الشهامة العظيمة والهَيْبة البالغة لا يكاد يرفع طرْفه إلى مُحادِثه حياءً منه وخَفَراً، وأنه لم يُسمَع منه قطّ في شتيمته لغلمانه لفظٌ فيه هجر، ولا ينطق حال غضبه بكلمةٍ قبيحة قطّ، وأكثر ما يقول إذا شتم: يا متخلّف[٤]. لا يزيد على مثل هذا. وكان/٦٦ب/مع هذه الطهارة في اللسان طاهرَ الذَّيل، لم يطأ قطّ غير الحلال من جاريةٍ مملوكةٍ له أو زوجة، مع أنه كان قليل العناية بأمر الباه، لم يكن عنده في آخر وقتٍ غير زوجتين، إحداهما هي المعروفة ببنت العالمة، تزوّجها بعده الجُوكَنْدار[٥] أحد مماليكه، والأخرى شجر الدرّ[٦] والدة خليل، وهي التي دُعي لها باسم السلطنة بعد ابنه الملك المعظّم مدّة، وتزوّجها الملك المُعِزّ عز الدين أيبك التُركُمانيّ. وكان من أمرها وأمره ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

وحُكي لي (أنّ الملك الصالح نجم الدين)[٧] كان إذا جلس مع نُدَمائه، والمغنّون[٨] عنده لا يحصل عنده من الخفّة والطرب ما يحصل عند غيره، بل يكون صامتاً لا يتزعزع ولا يتحرّك، وعليه السكينة والوقار، وجُلَساؤه لِما يَرَوْن من وقاره يلتزمون هذه الحالة، ويكونون كأنّ الطير على رؤوسِهم[٩]. وإذا تكلّم مع بعض خواصّه تكلّم بكلماتٍ نزرةٍ في غاية الوقار، وتكون تلك الكلمات متعلّقة بمهمّ عظيم من استشارةٍ في أمر، أو تقدُّم بأمرٍ من الأمور المهمّة، لا يعدو حديثه في غالب أحواله هذا النحو. ولا يتكلّم أحد قَطُّ بين يديه إلّا جواباً، وعندما لا يكون في مجلس الأنس يكون منفرداً بنفسه لا يدنو منه أحد، والقَصَص ترِد إليه مع الخدّام، فيوقّع عليها،

---

(١) ما بين القوسين زيادة من (ب).
(٢) من (ب).
(٣) من (ب).
(٤) تاريخ الإسلام ٣٥٧، السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٠.
(٥) الجوكندار: لفظ فارسي مركب من: «الجوكان» بمعنى العصا المعقوفة، و«دار» بمعنى «حامل». والعصا هي التي كان يلعب بها السلطان ويقذف بها الكرة، وهي عصا البولو التي تشبه الآن لعبة الهوكي.
(٦) يرد اسمها: «شجر الدرّ» و«شجرة الدر».
(٧) زيادة من (ب).
(٨) في (ب) ورقة ٣٥٩ب: «ويلعبون».
(٩) في الأصل: «روسهم».

ويبرز إلى كتّاب الإنشاء بما يعتمدونه. وكان لا يستقلّ أحدٌ من أرباب الدولة أن ينفرد بأمرٍ، بل يراجع بالقَصَص مع الخدّام[١]،

وكان حَسَن العقيدة، جميلَ الطّويّة. ومع أنه ما كان له مَيل إلى مطالعة الكتب والعلوم، لكنّه كان يحبّ أهلَ الفضل والدّين، يُجْري عليهم الجامكيّات[٢] والجرايات، ويُحسن إليهم، لكنّه كان قليلَ المخالطة لهم ولغيرهم، لمحبّته العُزلة والانفراد، ولا يجتمع كثيراً إلّا بنُدَمائه على الوجه الذي ذكرت من الإنقباض والسّكينة،/ ٦٧أ/ وكانت همّته عالية جدّاً يسمو إلى الاستيلاء على المعاقل والحصون، والانفراد بها لنفسه. وكان مائلاً إلى العمارة، واتّخاذ الأبنية العظيمة[٣]، ويباشرها بنفسه، وعمل له من ذلك ما لم يُعمل لأحدٍ من ملوك زمانه، بنى بالجزيرة التي قدّمنا ذكرها قلعةً غرِم عليها جُمَلاً عظيمةً من مال. وهذه الجزيرة كانت متنزّهاً للملوك، وكان للملك الكامل فيها قصر يتنزّه فيه في الأحايين، ومَقْعد يُعرف بالبانياسيّ، فبنى الملك الصالح فيها من الآدُر العِظام والقصور ما لم يُبْن مثله (من جميع الملوك)[٤] ولا أكاسرة العجم في قديم الزمان، يحار الناظر ويُدهش إذا دخلها ورأى ما فيها من الذَهَب العظيم، والزّخرفة الكثيرة، والرُخام الفاخر، وجعل في المقعد المعروف بالبانياسيّ طاقات عظاماً بشبابيك الحديد على البحر، وشادروانين[٥] للماء، وبينهما بُحَيْرَة كبيرة كلّها معمولة بالرخام الفائق، ويلي المقعدَ من جهةِ الشرق بستانٌ فيه صنوف المحمّضات، ويخرج من هذا[٦] المقعد إلى قاعاتٍ مُزخرَفة في غاية الحُسْن، ينفد من كلّ واحدةٍ إلى أخرى كثيرةِ العدد، وفي آخرها مجلس عظيم برسم مدّ السّماط[٧] فيه من

(١) تاريخ الإسلام ٣٥٧.

(٢) الجامكيّات: مفردها: جامكية. لفظ فارسي مشتق من «جامة» بمعنى اللباس، أي نفقات أو تعويض اللباس الحكومي. وترد بمعنى الأجر أو الراتب أو المنحة.

(٣) تاريخ الإسلام ٣٥٧.

(٤) من (ب) ورقة ١٣٦٠أ.

(٥) الشادروان = الشاذروان: آلة لفصل مياه الأنهار عند التحويل، وهي ألواح خشبية متينة يوضع خلفها أعمدة لتثبيتها، فيرتفع مستوى المياه في النهر لتسقي الأماكن المرتفعة. (معجم الألفاظ ٩٥ رقم ٥١١).

(٦) في الأصل: «هذه».

(٧) السماط: ما يُبسَط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين، ويُطلق أحياناً على المائدة السلطانية. وكانت تمدّ طرفي النهار من كل يوم أسمطة جليلة لعامّة الأمراء ومنها ثلاثة، واحداً بعد واحد في الزمان.

١ ـ الأول لا يأكل منه السلطان.

٢ ـ والثاني بعده يسمّى الخاص، قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل.

٣ ـ ثم الثالث بعده ويسمّى الطاريء، ومنه يأكل السلطان.

=

الذَهَب، والترخيم البديع، والخشب المذهب ما لا يمكن التعبير عن وصف حُسنه، بل خبره أيضاً يصغر الخبر عنه.

وكانت هذه الجزيرة لا يحيط بها الماء إلا أيام الزيادة، ومُعظم البحر يكون أبداً غربيّها، فلم يزل (السلطان الملك الصالح)[١] يتحيّل بتغريق السفن في البحر من جهة الغرب إلى أن انصرف شطر من الماء عظيم إلى جهة الشرق، وصار الماء يحيط بها من الجانبين دائماً، وصار بينهما وبين مصر بحرٌ زاخر، فنصب عليه جسراً يُجاز عليه من مصر إليها، وبنى أيضاً على البحر من ناحية اللُوق قصوراً في غاية الحُسن، وجعل إلى جانبها مَيْداناً يُضرب فيه بالصوالجة[٢]. وكان (الملك الصالح)[٣] مُغرَى/ ٦٧ب/ باللعِب بها، وبنى قصراً عظيماً بين مصر والقاهرة على تلٍّ عالٍ في غاية الحسن والإشراف[٤]، وسمّاه الكَبْش، وقصوراً حسنة في بستان الخشاب، وكذلك بنى بالعلاقمة[٥] والسانح قصوراً في غاية الحسن، وأمر بأن يحيط من قصوره بالسانح مدينة وسمّاها بالصالحية، ورتّب فيها الجامع، وسكنها الناس، ورتب فيها الوالي والقضاة، وبُنيت فيها الأسواق. وبالجملة، فكانت همّته في العمارة وبناء الآدُر والقصور لا يشبهها همّةٌ لأحدٍ من الملوك[٦].

[[٧]وقد كنّا ذكرنا أن القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن المعروف بقاضي سنجار، رحمه الله، كانت منزلته عنده في أعلى المنازل لما كنّا قدّمنا ذِكره من إنجاده بالخوارزمية لما كان محصوراً بسنْجار[٨]، ولأنه لما أرسله الملك الصالح إلى سلطان الروم غياث الدين بن علاء الدين مَيَّله إلى جانب مخدومه الملك الصالح نجم الدين، وحَرَفَه عن الملك الصالح إسماعيل[٩]. وذكرنا أنه التجأ[١٠] إلى الملك المظفّر،

= أما مساءً فسماطان: الأول ثم الثاني، ويسمّى الخاص. ويؤكل من جميع هذه الأسمطة ويوزّع الباقي. (معجم الألفاظ ٩٢، ٩٣ قم ٤٩٩).

(١) زيادة من (ب) ورقة ٣٦٠أ.

(٢) الصوالجة: مفردها: صَوْلج. لفظ فارسيّ معرّب. عصا معقوفة من طرفها يضرب بها الفارس الكرة. (معجم المصطلحات ٢٩٧).

(٣) زيادة من (ب).

(٤) في (ب) ورقة ٣٦٠ «والإشراق».

(٥) العلاقمة: بليدة دون بلبيس فيها أسواق وبازار. (معجم البلدان).

(٦) السلوك ج١ ق٢/ ٣٤١، ٣٤٢.

(٧) من هنا يبدأ النقص في وسط الورقة ٣٦٠ب من النسخة (ب).

(٨) راجع ذلك في الجزء الخامس من «مفرّج الكروب» ـ ص١٨٧، ١٨٨.

(٩) مفرّج الكروب ٥/ ٢٥٠.

(١٠) في الأصل: «إلتجى».

رحمه اللَّه، وأقام عنده مدّة، وأنه سافر إلى الديار المصرية، ولما قدِمها ولّاه الملك الصالح قضاءَ مصر والوجهَ القِبْليّ، وعزل عن ذلك القاضي شرف الدين بن عين الدولة الإسكندريّ، واقتصر بشرف الدين على القاهرة والوجه البحريّ[(١)].

وتُوفي شرف الدين بن عين الدولة[(٢)]، فنقل القاضي بدر الدين إلى القاهرة والوجه البحري، وولّى مصرَ والوجهَ القِبْليّ الشيخَ عزّ الدين بن عبد السلام[(٣)]، وكان وفد إليه من دمشق بعد ما جرى له من الإنكار على الملك الصالح عماد الدين في تسليم الشقيف وصفد إلى الفرنج ما قدّمنا ذكره[(٤)].

ثم إنه بلغ الشيخَ عزَّ الدين أنّ بالقرب من دار الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، وهو يومئذٍ وزيرُ الملك الصالح مسجداً، وعلى ظهره/ ١٦٨أ/ طبلخَاناه[(٥)] للصاحب معين الدين، فأنكر ذلك ومضى هو وأولاده إليها، وخرّبوا ما أُحدِث، ونقلوا الطبل خاناه عن ظهر المسجد. ثم رجع إلى مجلس الحكم وأحضر الشهود وأشهدهم على نفسه بأنه أسقط عدالة الصاحب معين الدين، ثم أشهدهم على نفسه بأنه قد عزل نفسه من الحكم، وركب ولقي السلطان وأخبره بذلك، فلم يُعجب ذلك السلطانَ وأعرض عنه. واجتمع الصاحب معين الدين بالسلطان وقال: إنْ تُرِكَ عزّ الدين في الخطابة فربّما يبدو منه على المنبر ما لا يليق ويشهر بذلك كما جرى منه في دمشق، فعزله عن الخطابة، فلزِم بيته وأبقى نوّابه في القضاء على حالهم[(٦)].

ثم اتفق أنه ورد إلى مصر رسول الخليفة المستعصم باللَّه وصُحبته الشيخ أفضل الدين الخُونَجيّ[(٧)]، رحمه اللَّه، وكان إمامَ وقته في المنطِق والمعقولات. وكان أفضل

---

(١) مفرّج الكروب ٥/ ٢٩٨.

(٢) هو: أبو المكارم محمد بن عبد اللَّه بن الحسن بن علي بن عين الدولة الصفراوي. توفي سنة ٦٣٩هـ. انظر عنه في: نزهة النظار في قضاة الأمصار، لابن الملقّن ١٩٢، ١٩٣.

(٣) هو شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي، الدمشقي، الشافعي. توفي سنة ٦٦٠هـ.
انظر عنه في: تاريخ الإسلام - وفيات ٦٦٠هـ. - بتحقيقنا - ص٤١٦ - ٤١٩ رقم ٥٣٤ وفيه حشدنا مصادر كثيرة.

(٤) مفرّج الكروب ٥/ ٣٠٢.

(٥) طبلخاناه: لفظ فارسي بمعنى مكان الطبول، أو المكان المخصّص من حواصل السلطان لطبول الفرقة وأبواقها وتوابعها من الآلات. وتعني أيضاً الفرقة الموسيقية السلطانية، وكانت العادة أن تدقّ نوبة في كل ليلة بعد صلاة المغرب، وتكون في صحبة السلطان في الأسفار والحروب. (معجم الألفاظ ١٠٦ رقم ٥٨٠).

(٦) مفرّج الكروب ٥/ ٣٠٣، ٣٠٤.

(٧) تقدّم ذكره.

الدين ببلاد الروم وفارقها لما طرق التتر البلاد، وكسروا السلطان غياث الدين، كما قدّمنا ذِكره، ونزل السلطان الملك الصالح إلى المُصَلّى لصلاة العيد في سنة إحدى وأربعين وستماية[١]، وحضر رسول الخليفة عنده، فأجرى رسول الخليفة حديث أفضل الدين وأثنى عليه. ولم يكن الملك الصالح يعرفه، وقال إنه كان معظّماً عند أبيك الملك الكامل، رحمه اللّه، وأرسله إلى سلطان الروم، وأنه كان معظّماً أيضاً عند سلطان الروم، وولّاه القضاء ببلاده، وأنه خرج من الروم لما جرى من قصد التتر بلاد الروم ما ذكرناه[٢]. فإنْ كان السلطان يُولّيه ما يليق به، وإلّا مضيت به إلى الديوان العزيز ليُوَلّى ببغداد على المناصب. فقال السلطان الملك الصالح: إنّ مصر وعملها كان يتولّاه عزّ الدين بن عبد السلام، وليس لها اليوم قاضٍ، وقد ولّيتُها لأفضل الدين، فتولّاها/ ٦٨ب/ أفضل الدين، وسلك سيرةً حسنة، فعظُم بذلك قدْرُه، وعَلَتْ عند الملك الصالح منزلته[٣].

ثم بنى الملك الصالح مدرسته التي بين القصرين ورتّب فيها أربعة مدرّسين للمذاهب الأربعة، وجعل القاضي أفضل الدين المدرّس بها على المذهب الشافعيّ، رحمه اللّه، سنة ستٍّ وأربعين وستمائة، و(السلطان)[٤] الملك الصالح بدمشق. ولما رجع إلى الديار المصرية ونزل بالمنصورة في مقاتلة الفرنج، وكان قبل ذلك قد ورد القاضي عماد الدين بن القُطْب الحمويّ على السلطان الملك الصالح رسولاً من صاحب حمص كما ذكرناه[٥]، وأقام بمصر، كتب الأمير حسام الدين بن أبي علي نائب السلطنة إلى الملك الصالح كتاباً يُثني فيه على عماد الدين، ويذكر أنه يصلُح لقضاء مصر، فورد الأمر من السلطان الملك الصالح بأن يُولّى مصر وعملها[٦]، فوليها إلى آخر أيام الملك الصالح، والقاضي بدر الدين معه قضاء القاهرة وعملها[٧].

وكان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ[٨] يكره القاضي بدر الدين، فكتب مرّةً إلى السلطان الملك الصالح كتاباً يغضّ منه، وينسبه إلى أنه يأخذ من نوّابه بالأطراف أموالاً يحملونها إليه، وأنه إذا عدّل شاهداً أخذ منه مالاً وأشباه ذلك. فلما وقف

---

(١) مفرّج الكروب ٥/ ٣٣٥.
(٢) مفرّج الكروب ٥/ ٣٠٣.
(٣) مفرّج الكروب ٥/ ٣٣٥.
(٤) كتبت فوق السطر.
(٥) مفرّج الكروب ٥/ ٣٣٠.
(٦) مفرّج الكروب ٥/ ٣٣٢.
(٧) مفرّج الكروب ٥/ ٣٣٥، نزهة النظار ١٩٥.
(٨) هو الأمير الصاحب يوسف بن محمد بن علي بن محمد بن حمّويه، أبو الفضل الحموي، الجُويني الأصل، الدمشقي. ولد سنة ٥٨٢ وتوفي ٦٤٧هـ.
انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٧هـ.) ص٣٧٢ ـ ٣٧٥ رقم ٤٩٠ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

الملك الصالح على كتاب فخر الدين كتب إليه بخطّه على رأس كتابه ما معناه: يا أخي فخر الدين، للقاضي بدر الدين عليّ حقوق عظيمة لا أقوم بشُكرها، والذي قد تولّاه قليلٌ في حقّه، وما قمت له بما يجب عليّ من مكافأته.

فلما وقف فخر الدين على ما كتبه السلطان بخطّه لم يعاود السلطانَ في قضيّته، وترك الورقة في جملة أوراقٍ عنده. فلما استشهد فخر الدين، رحمه اللّه، بالمنصورة[١]، على ما سيأتي ذِكره، وخلّف بنتاً صغيرة احتيط على ما في داره، فوُجِدت/ ١٦٩أ/ في أوراقه الورقة التي على رأسها خطّ الملك الصالح، فحلّها نوّاب الأيتام إلى القاضي بدر الدين، رحمه اللّه، فكان كل من دخل إليه يُوقفه عليها.

وورد جماعة من أهل العلم مهاجرون إلى الديار المصرية في أيام الملك الصالح، فكان كلّ من يرِد إليه منهم يُكرمه ويُحسن إليه، لكنّه كان لا يجتمع بهم لأنّه لم يكن له ـ رحمه اللّه ـ مشاركةٌ في العلم، بخلاف أبيه[٢]. وكان اجتماعه بالناس قليلاً جدّاً يكاد يُحصر عنده إلا رسولٌ يرِد إليه، وإنّما كان يقتصر على نُدمائه المعروفين بحضور مجلس الشراب[٣].

وممّن ورد عليه من الشام الشريف عماد الدين العبّاسيّ من أهل سَلميّة. وكان فاضلاً في المذاهب، وولّاه تدريس المدرسة الصلاحية التي بسوق الغَزْل بمصر، وكان مدرّسها الشريف شمس الدين الحسينيّ قاضي العسكر في الأيام الكاملية، وكان خِصّيصاً بالسلطان الملك الكامل، رحمه اللّه.



واتّفق له اتّفاقٌ رديء، وهو أنه كان أمر الملك العادل بن الملك الكامل بكتْب محضرٍ يتضمّن القدْح في أخيه الملك الصالح، وأنه لا يصلُح للمُلْك، وأثبت المحضر عند القاضي شرف الدين بن عين الدولة، على ما بلغني، بشهادة الشريف شمس الدين قاضي العسكر، وفُلْك الدين المسيريّ[٤]، وكان من كُبَراء الدولة، ثم سيّر المحضر المثبَت إلى الخليفة، فلما قبض على الملك العادل وولي السلطان الملك الصالح ديار مصر سيّر عزّ الدين عبد العزيز بن القاضي نجم الدين أبي البركات [عبد الرحمن][٥] بن عُصْرُون إلى بغداد، فسيّر إليه المحضر المثبت، فأحضره عزّ الدين لما عاد من الرسالة إلى الملك الصالح، فوقف عليه، وتقدّم إلى الشريف شمس

---

(١) تاريخ الإسلام (وفيات سنة ٦٤٧هـ.) ص٣٧٣.
(٢) تاريخ الإسلام (وفيات سنة ٦٤٧هـ.) ص٣٥٧.
(٣) تاريخ الإسلام (وفيات سنة ٦٤٧هـ.) ص٣٥٧.
(٤) انظر عن (فلك الدين المسيري) في: زبدة الحلب لابن العديم ٣/ ٢٢٩، ومفرّج الكروب ٥/ ١٢٩.
(٥) إضافة من مفرّج الكروب ٥/ ٣٥١.

الدين أن يخرج من الديار المصرية إلى حيث شاء، ولا يقيم في بلاد الملك الصالح، فسافر متوجّهاً/ ٦٩ب/ إلى حلب.

ولما خرج من القاهرة خرج فُلْك الدين المسيريّ مُودَعاً لوالي مشهد التِّبْن، وعاد إلى منزله، فتُوفِّي تلك الليلة خوفاً وجزعاً، لأنه تحقّق أنه ما نفى الشريف شمس الدين وترك هؤلاء [إلّا][1] لأمرٍ عظيم يتمّ عليه من جهة السلطان. وولي الشريف عماد الدين مدرسته.

وكان الشريف شمس الدين يجلس في دار العدل في كل اثنين وخميس مع قاضي القاهرة.

فلما سافر شمس الدين أمر الشريف عماد الدين بأن يجلس بدله في دار العدل. وورد إلى مصر الحكيم نجم الدين بن اللَّبُوديّ، وكان فاضلاً في الطبّ والمنطق وغير ذلك، فأحسن إليه وأقطع إقطاعاً، وكذلك ورد القاضي نجم الدين بن القاضي شمس الدين قاضي نابلس، وكان هو وأبوه معظَّمَيْن عند الملك، فأُكرم إكراماً كثيراً، وتوجّه مع الأمير حسام الدين بن أبي علي إلى نابلس سنة إحدى وأربعين وستماية، وأقام مدّةً بتلك الناحية لترتيب أمورها. ثم رجع نجم الدين بعد ذلك إلى القاهرة، ثم أرسل الملك الصالح نجم الدين إلى الخليفة المستعصم بالله في سنة خمسٍ وأربعين وستماية، فأُكرم إكراماً عظيماً، وقيل له: لا ينبغي أن يكون لقبك نجم الدين ولقب أستاذك نجم الدين، وإنما ينبغي أن تُلقَّب بغير ذلك، وأمر الخليفة أن يُلقّب جمال الدين.

ومن الواردين إليه عزّ الدين عبد العزيز بن القاضي نجم الدين بن أبي عُصْرون، وكان له فضلٌ في علم الأدب، وكان ينظم الشِعر الجيّد، ويُحسن الترسُّل، لم يكن في بيته في عصره مثله، وأرسله الملك الصالح إلى الخليفة مرّتين. وتُوفِّي بعد أن رجع من الرسالة الثانية ببيت المقدس.

ووصل إليّ من صدقة السلطان الملك الصالح، رحمه الله، أنه أمر أن يوقّع لي بتدريس الجامع الأقمر./ ٧٠أ/ وهذا الجامع بناه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور بن المستعلي سنة تسع عشرة وخمس مائة[2]، وهو مما يلي القصر، وكان الآمر يخطب فيه بنفسه. ولما زالت الدولة المصرية رتّب فيه السلطان الملك الناصر

---

(١) إضافة على الأصل يقتضيها السياق.

(٢) انظر عن الجامع الأقمر في: صبح الأعشى ٣/ ٣٦١، والمواعظ والاعتبار ٢/ ٢٩٠، وإتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزي ٣/ ٧٧، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٧٣، والخطط التوفيقية ٢/ ١٢، ١٣.

صلاح الدين، رحمه اللّه، مدرّساً وفُقهاء، ووقف عليه وقفاً جليلاً بمصر والقاهرة، وكان يذكر الدرس فيه قبل الشيخ شمس الدين عثمان.

وكان فاضلاً في المذهب، وكان يتولّى وكالة بيت المال، فلما تُوُفّي طلب التدريس بهذا المكان جماعة من الأعيان، فلم يسمح الملك الصالح بتولية أحدٍ منهم له.

ولما ذُكرت للملك الصالح، رحمه اللّه، أمر بأن يوقّع لي به، فكتب لي به توقيع كريم بإنشاء الصاحب فخر الدين بن لُقْمان الإسعِرديّ، وهو من فُضلاء كُتّاب الإنشاء، وهو حيّ إلى الآن. وكان فخر الدين هذا أوصله الصاحب بهاء الدين زُهير[١] إلى الملك الصالح وهو بالشرق، فتقدّم عنده، وصورة التوقيع بعد البسملة والطُرّة:

«أمّا بعد، فلما خصّ اللّه به آراءنا من السَّداد، وأعلى هِمَمنا حتى كادت تبلغ السبْع الشداد، ومَنَحَنا به من نِعَمِه التي جازت حدّ التّعداد، وأمدّنا به من حُسن التّأييد الذي يؤلّف بين الأضداد. لا تزال فكرتنا توضح لنا من الرشاد سُبُلاً، وصائب رأينا يجدّد لنا من العلاء حُللاً لا تضمحلّ ولا تَبْلَى، وعزايمنا مصروفةٌ إلى التوبة بذِكر الأفاضل، وهِمَمُنا مقتضية رفع قدر العالم الذي برز فيما يناظر فيه ويناضل.

ولما كان فلان، إلى الآخر، الألقاب التي تجري بذِكرها العادة، ممّن يرفُل من العِلم في صافي إهابه، وبهر من فضله اللامع نزر شِهابه، وأضاف إلى علم الشريعة عِلْمَ العربية، وأبت له إلّا الجَمْعَ بين الفضائل همّةٌ له عليّة، ونفسٌ أبيّة، خرج أمرُنا بأن يتولّى التدريس بالجامع الأقمر ليرجع روض المشتغلين بغمام فضله مريعاً مُخْصباً، وأغصان/ ٧٠ب/ الفضائل متأوّدة نسيمَ مذاكرته التي تضاهي نسيم الصِبا، فَلْيَتَوَلّ ما ولّيناه، ولْيَشكُرْ من نعمتنا ما أوليناه، ولْيأخُذِ الطلبة بحفظ الماضي من الدروس، والتكرار الذي يظهر له ثباته في قلوبهم كثباته في الطروس، ولْيتناول من العلوم ما كان لمن تقدّمه من المدرّسين في الجامع المذكور، ولْيَعقد من المواظبة والاجتهاد في نفْع الطلبة ما عُرف من سعيه الحميد وفِعله المشكور. والفقهاء بالجامع المشار إليه يجرون في تناول ما بأسمائهم على عادتهم المستمرّة، ولا يغيّر عليهم ما ألِفُوه من عوائد الإحسان أول مرة، بعد العلامة الشريفة أعلاه، وثبوته حيث يثبت مثله، إن شاء اللّه تعالى»[٢].

وكتب في العاشر من رجب الفرد سنة أربع وأربعين وستماية، وعلامة السلطان، رحمه اللّه، في أعلاه أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، وهذه كانت علامته في التواقيع وفي المكاتبات التي ترِد إلى نائب السلطنة حسام الدين يحيى بن مطروح.

---

(١) في الأصل: «بهاء الدين بن زهير».

(٢) انفرد المؤلّف ـ رحمه اللّه ـ بهذا الخبر والنص.

وبالجملة أقول: لم يجتمع عند ملك من الملوك من بني أيوب ولا من غيرهم مثل هذين الرجلين، وإنْ كان الملك الناصر صلاح الدين عنده القاضي الفاضل.

وكان كامل الفضل والمروءة، لكنه لم يوجد عنده شخص آخر بهذه الصفة.

وسأذكر كل واحدٍ من هذين الرجلين الفاضلين، وأبتديء منهما بذِكر الصاحب بهاء الدين[١]،

[الصاحب بهاء الدين زهير]

ذكر لي عنه أنه رحمه اللّه وُلد بمكة شرّفها اللّه تعالى لخمسٍ مَضَيْن من ذي الحجّة سنة إحدى وثمانين وخمسماية، ووُلّي بصعيد مصر، واتّصل بخدمة السلطان الملك الصالح بالقاهرة في حياة/ ٧١أ/ السلطان الملك الكامل. فلما أمر الملك الكامل ولده الملك الصالح بالمسير إلى الشرق والمقام به بعد أن كان قد ولّاه عهده، ثم تغيّر عليه كما قدّمنا ذِكره. ونقل ولاية العهد إلى أخيه الملك العادل سافر بهاء الدّين في خدمة الملك الصالح، وأقام معه في الشرق.

فلما مات الملك الكامل، وتسلّم الملك الصالح دمشق بتسليم الملك الجواد إيّاها إليه كان بهاء الدين في صُحبته، فلما اعتقل الملك الصالح في الكرَك أقام بهاء الدين بنابلس عند الملك الناصر داود إلى أنْ خرج الملك الصالح من الاعتقال، وسار إلى مصر وملكها وبهاء الدين في خدمته، وأقام عنده في أعلى المنازل، وسيّره رسولاً في سنة خمسٍ وأربعين وستماية إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يطلب منه إنفاذ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل إليه، فلم يُجب الملك الناصر إلى ذلك، وأنكر هذه الرسالة واستعظمها، وقال: كيف يَسَعني أن أسيّر عمّه إليه، وهو خال أبي وكبير البيت ليقتله[٢] وقد استجار بي، وهذا شيء لا أفعله، ورجع بهاء الدين إلى الملك الصالح. وجرى بعد ذلك ما قدّمنا ذِكره.

وقبل موت الملك الصالح بمدّةٍ يسيرة جدّاً وهو نازل بالمنصورة، تغيّر الملك الصالح على بهاء الدين لأمرٍ لم أطّلِع عليه وأبعده، واتصل بهاء الدين بعد ذلك بخدمة الملك الناصر صاحب حلب، وله فيه مدائح، سأذكر إن شاء اللّه بعضها.

---

(١) هو بهاء الدين، أبو الفضل، زهير بن محمد بن علي بن يحيى. . الأزدي، المهلّبي، الشاعر، الكاتب، توفي سنة ٦٥٦هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٥٠ ـ ٢٥٤ رقم٢٦٢ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(٢) في الأصل: «ليقبله» وهو غلط، والمثبت هو الصواب كما في: تاريخ الإسلام ـ ص٢٥١.

ولبهاء الدين في مخدومه الملك الصالح مدائح حسنة، من جُملتها قصيدته القافِيَة[(١)]، وهي في غاية الحسن، وهي:

وَعَدَ الزيارةَ طرْفُهُ المتملِّقُ ... وبلاءُ قلبي من جُفونٍ تنطقُ
إنّي لأهوى الحُسنَ حيث وَجدتُهُ ... وأهيمُ بالقدّ الرشيق وأعشقُ
وبليّتي كَفَلٌ عليه ذُؤابةٌ ... مثلُ الكثيب عليه صِلٌّ مُطْرِقُ
/٧١أ/ يا عاذلي أنا من سمعتَ حديثَهُ ... فعساك تحنو أو لعلّك ترفُقُ
لو كنتَ منّا حيث تسمعُ أو ترى ... لرأيتَ ثوبَ الصبرِ كيف يُمزّق
ورأيتَ ألْطفَ عاشقين تَشاكيا ... وعجبتُ ممّن لا يحبُّ ويعشَقُ
أيسُومُني العُذّالُ عنه تصبُّراً ... وحياته قلبي أرقّ وأشفقُ
إنْ عَنّفوا، إنْ سَوّفوا، إنْ خوّفوا ... لا أنتهي، لا أنثني، لا أرفقُ[(٢)]
أبداً أزيدُ مع الوصالِ تلهُّفاً ... كالعِقد في جيد المليحةِ يقلقُ[(٣)]
يا قاتلي إنّي عليك لَمُشفِقٌ ... يا هاجري إنّي إليك لشيّقُ
وأذاع أنّي قد سلوتُك معشَرٌ ... يا ربّ لا عاشوا لذاك ولا بقوا
ما أطْمَعَ العُذّالَ إلّا أنّني ... خوفاً عليك إليهمُ أتملّقُ
وإذا وعدتُ الطَّيفَ منك[(٤)] بهَجْعةٍ ... فاشْهَدْ عليّ بأنني لا أصدُقُ
فعلامَ قلبُك ليس بالقلب الذي ... قد كان لي منه المحِبُّ المُشفقُ
وأظنّ خدَّك شامِتاً بفِراقِنا ... فلقد نظرتُ إليه وهو مُخَلَّقُ
ولقد سَعَيتُ إلى العلاء بعزْمةٍ[(٥)] ... تقضي لسعيي أنّه لا يخفق[(٦)]
وسَرَيْتُ في ليلٍ كأنّ نجومَهُ ... من فَرْط غَيْرتها إليّ تُحدقُ
حتّى وصلتُ سُرادقَ المَلِكِ الذي ... تقفُ الملوكُ ببابه تسترزق[(٧)]
ووقفتُ من ملك الزّمان بموقفٍ ... ألقيتُ قلبَ الدّهر منه يخفق

---

(١) انظر ديوان بهاء الدين زهير ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

(٢) في الديوان ٢٢٤:
إنْ عنّفوا أو خوّفوا أو شوّفوا ... لا أنثني لا أنتهي لا أفرقُ

(٣) في الديوان بعده زيادة بيت (ص٢٢٥):
ويزيدني تلفاً فأذكر فعلَه ... كالمِسك تسحقُهُ الأكُفُ فيَعبَقُ

(٤) في الديوان ٢٢٥ «إذا وعدتُ الطرفَ فيك . . .».

(٥) في الديوان ٢٢٥: «بهمّة».

(٦) في الديوان ٢٢٥: «لا يُلحق».

(٧) في الأصل: «تسترق».

فإليك يا نجمَ السّماءِ فإنّني ... قد لاح نجمُ الدين لي يتألّق

الصالحُ الملكُ الذي لزمانِهِ ... حُسنٌ يتيهُ به الزمان ورَوْنقُ

مَلِكٌ تحدّثُ عن أبيه وجدّه ... نَسَبٌ لَعَمري[1] في العُلى لا يُلحقُ

سجدتْ له حتّى العيونُ مهابةً ... أوَ ما تراها حين يُقبلُ تطرقُ

رَحْبُ الجناب خصيبةٌ أكنافُهُ ... فلَكَمْ سديرٌ عنده[2] وخَوَرْنقُ

فالعيشُ إلّا في ذراه مُنكّدٌ ... والرزقُ إلّا من نداه[3] مضيَّقُ

يا عزَّ من أضحى إليه ينتمي ... وعُلُوَّ من أمسى به يتعلّقُ

/٧٢أ/ أقسمتُ ما الصُنعُ الجميلُ تصنّعٌ ... فيه ولا الخُلْقُ الكريمُ تخلّقُ

يدعو[4] الوفودَ لمالِهِ فكأنّما ... يدعو[5] عليه فشمْلُهُ يتفرّقُ

أبداً تحِنّ إلى الطِراد جيادُهُ ... فلها إليه تشوُّفٌ وتشوّقُ

يُبدي لسطوته الخميسُ تطرُّباً ... فالسُمْرُ ترقصُ والسيوفُ تصفقُ

في ثني[6] لأمتِه هِزَبْرٌ باسلٌ ... تحت التريكة[7] منه بدرٌ مشرقُ

يُرْوي القنا بدم الأعادي في الوغى ... فلِذاكَ تُثمرُ بالرؤوس[8] وتورقُ

يمضي فيقدُمُ جيشَهُ [من] هيبةٍ ... جَيشٌ يغَصُّ به الزمانُ ويَشرَقُ

ملأ القلوبَ مخافةً[9] ومحبّةً ... فالبأسُ يُرهَبُ والمكارمُ تُعشقُ

ستجوب آفاقَ البلاد جيادُهُ ... ويُرَى لها[10] في كل فجٍّ فيلقُ

لبّيك يا مَن لا مَرَدّ لأمرِهِ ... فإذا دعا العيّوقَ لا يتعوّقُ

لبّيك يا خيرَ الملوك بأسرِهِمْ ... وأعزَّ من تُحدَى إليه الأيْنُقُ

لبّيك ألْفاً أيّها الملكُ الذي ... جَمَعَ القلوبَ نوالُهُ المتفرّقُ

لعدلْتَ حتّى لابها[11] متظلّمٌ ... وأنلْتَ حتّى ما بها مُسترزقُ

أنا من دَعوتَ وقد أجابك مُسرعاً ... هذا الثناءُ له وهذا المنطقُ

ألْفيتُ شوقاً للمكارم والعُلى ... فعلمتُ أنّ الفضل فيها ينفُقُ

يا من إذا وعد[12] المنى قُصّادَهُ ... قالت مواهبُهُ يقول ويصدُقُ

---

(١) في الديوان ٢٢٤: «سَنَد لَعَمْرُك».
(٢) في الديوان ٢٢٦: «عندها».
(٣) في الديوان ٢٢٦: «يديه».
(٤) في الأصل: «يدعوا».
(٥) في الأصل: «يدعوا».
(٦) في الديوان ٢٢٦ «في طيّ».
(٧) في الديوان ٢٢٦ «العريكة».
(٨) في الأصل: «بالرؤس».
(٩) في الديوان ٢٢٦: «مهابة».
(١٠) في الديوان ٢٢٦: «له».
(١١) في الديوان ٢٢٧ «حتى ما بها».
(١٢) في الأصل: «وعدا».

يا من رفضتُ الناس حين لقيتُهُ حتّى ظننتُ بأنهم لم يُخلقوا
قيّدتُ في مصرَ لديك[١] ركائبي غيري يُغرّب تارةً ويُشرّقُ
وحَلَلْتُ عندك إذ حلَلْتُ بمعقل يُلقَى لديه ما ردّ والأبلقُ
وتيقّن الأعداء[٢] أنّي بعدها أبداً إلى رُتب العُلى لا أُسبَقُ
فرُزقتُ ما لم يُرزقوا، ولحقتُ[٣] ما لم يلحقوا، ونطقت ما لم ينطقوا[٤]

فانظُر إلى هذا النظم ما أبدعه وأبرعه، وما احتوى عليه من المعاني اللطيفة وبراءته من الحشْو والتكلّف، والحوشيّ من اللغة، وما أشدّ/ ٧٢ب/ لُصُوقه بالأسماع والقلوب.

ولقد وقفتُ على حماسةٍ صنّفها بعضُ المغاربة من أصحاب الأمير محمد بن يحيى بن عبد الواحد صاحب تونس، لم أجد من المتأخّرين صنّف حماسةً أحسن منها، أتى فيها بشيءٍ كثير من شِعر بهاء الدين زُهير كاتب الملك الصالح.

ومن تغزّله اللطيف في أول قصيدة:

أغُصْنَ النَّقا لولا القوامُ المهفهَفُ لما كان يهواك المُعَنّى المعنّفُ
ويا ظَبْيُ لولا أنّ فيك محاسناً حَكَيْن الذي أهوى لما كنتَ توصفُ
كلفتُ بغصن وهو غصنٌ مُمَنْطَقٌ وهِمْتُ بظَبْيٍ، وهو ظبيٌ مشنّفُ
ومـمّا دهاني أنه من حيائه أقول كليلٌ طرْفُه وهو مُرهفُ
وذلك أيضاً مثل بستان خدّه به الورد يُدعَى[٥] مُضْعَفاً وهو مُضْعِفُ
فياظَبْيُ هلّا كان فيك التفاتةٌ ويا غُصنُ هلّا كان فيك تعطّفُ
ويا حَرَمَ الحُسنِ الذي هو آمِنٌ وألْبابُنا من حوله تُتخطّفُ
عسى عَطْفَةٌ للوصل يا واوَ صُدْغِهِ وحقّك إنّي[٦] أعرف الواو تعطِفُ[٧]

وسأعود إلى ذكر شيءٍ من شِعره عند ذِكر أخبار الملك الناصر صلاح الدين

---

(١) في الديوان ٢٢٧ «إليك».
(٢) في الديوان ٢٢٧ «الأقوام».
(٣) في الأصل: «أو لحقت»
(٤) في الديوان:

فرُزقت ما لم يُرزقوا ونطقتُ ما لم ينطقوا ولحقتُ مالم يلحقوا

(٥) في الديوان ٢٠٩ «يُسمى».
(٦) في الديوان ٢٠٩ «عليّ فإنّي».
(٧) الأبيات في ديوان زهير ٢٠٩، وذيل مرآة الزمان ١/ ٩٢، والمنهل الصافي ٥/ ٣٧٢، وورد البيتان الأولان في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٥١، ٢٥٢.

يوسف بن الملك العزيز، وعند ذكر وفاة بهاء الدين في سنة ستٍ وخمسين وستماية.

[الصاحب جمال الدين ابن مطروح]

وأمّا جمال الدين يحيى بن مطروح[١]، رحمه اللّه، فكان من خُلَصاء أصحاب الملك الصالح من أهل صعيد مصر، وأقام بقوص مدّة، وتقلّبت به الأحوال. وكان أيضاً له بالسلطان الملك الصالح حين كان وليَّ عهدِ أبيه الملك الكامل. ولما سافر إلى الشرق سافر معه، وأقام في خدمته هناك؛ ثم قدِم معه إلى دمشقَ حين مَلَكَهَا وأخذها من الملك الجواد، وكان ناظرَ جيشه، وسافر معه إلى نابلس حين سافر إليها، ثم توجّه منها إلى مصر صُحبة مُحيي الدين بن الجوزيّ رسول الخليفة.

ولما اعتُقل الملك الصالح بالكَرك/ ٧٣أ/ سافر مع مُحيي الدين إلى الشام، ومضى إلى الخوارزميّة، وحرّضهم على القيام بنُصرة مخدومه الملك الصالح. ثم توجّه إلى حماة فأقام بها ضيفاً لصاحبها الملك المظفّر.

ولما ملك الملك الصالح الديار المصرية سافر إليها ووُلّي الخزانة، ثم استنابه الملك الصالح بدمشق بعد استقدام الأمير حسام الدين إليه.

ثم لما قدِم الملكُ الصالح إلى دمشق سنة ستٍّ وأربعين وستماية، تغيّر عليه وعزله، واستصحبه معه إلى الديار المصرية في أوائل سنة سبع وأربعين وستماية، فأقام في المعسكر السلطاني بالمنصورة إلى أن تُوفّي السلطان وهو مُتغيّر عليه.

ولما قام الأمير فخر الدين بالتّقدمة على العساكر بعد موت السلطان، على ما سنذكره، صَحِبه وقرّبه.

وبعد مقتل الأمير فخر الدين انتقل إلى مصر، ونزل بدارٍ كان ابتناها حَسَنةٍ على شاطيء النيل، وأمر أن يُكتب على بابها:

دارٌ بنيناها بإحسان من	لم تَخْلُ دارٌ قطّ من رِفْدِهِ
الملك الصالح ربّ العلى	أيوب زاد اللّه في مجده
اليُمْنُ والتوفيقُ من حزبِهِ	والنصرُ والتّأييدُ من جُنده
أغنى وأقْنى فالذي عندنا[٢]	من نعمة اللّه ومن عنده
فقُلْ لحُسّادي ألا هكذا	فليصنع السيّدُ مع عبده

وله شِعر حَسَن بديع، وكان لي به، رحمه اللّه، أنسٌ كثير، واجتمعتُ به

---

(١) توفي (ابن مطروح) في سنة ٦٤٩هـ. وستأتي ترجمته فيها.

(٢) في الأصل: «فالذي من عندنا».

اجتماعاتٍ كثيرة، أولها بدمشق حين قدِم الملكُ الصالح من الشرق، وبعد ذلك اجتمعتُ به بدمشق بعد قدومه من مصر معَ محيي الدين بن الجوزيّ، ثم في حماه، وهو نازلٌ بالدار التي على العاصي المعروفة بدار زين الدين بن قُرناص، ثم بالأمير مبارز الدين آقُش المنصوريّ، وكنت أتردّد إليه كثيراً فيها، وكان يأخذ عنّي شيئاً من العلم ونتذاكر في أشياء من الأدب/ ٧٣ب/ ثم اجتمعت به بالديار المصرية، وأنشدني كثيراً من أشعاره، فمن ذلك قوله:

قد رأيناك والغزالةُ تسنَحْ ... فرأينا حُلاكَ أحلى وأملحْ
وترنّحت والقضيب ولكنْ ... لم تدعْ ناظراً إلى الغُصْن يطمح
ولقد غضّ ناظرُ النّرجسِ الغَضّ ... حياءً من مُقلتَيْك وأفلحْ
أيُّ عينٍ ترى حُسنَ عينيكَ ... فترنو[١] من بعد ذاك وتفتح
وادّعى الوردُ أنّه لون[٢] خدّيكَ ... ولا شكّ أنّه كان يمزح
فلهذا صبا بحُسنك قلبٌ ... كان يُدعى إلى الغرام فيجمح
وعهدت الرُقاد[٣] يألَفُ جسمي ... فرأى جفنك المليح مُرجح

ومن ذلك قوله:

عانقتُه فسكرتُ من طِيب الشذا ... غُصنٌ رطيبٌ بالنسيم قد اغتدى
نشوان ما شرب المُدامَ وإنّما ... أضحى بخمر رُضابه متنبّذا
يا ناظرِي أمّا وقد عاينتَهُ ... واللّه لا رمداً تخاف ولا قَذا
مهما اكتحلتَ بخدّه وعِذارِهِ ... لم تلْقَ إلّا عسجداً وزُمُرّداً
جاء العَذُول يلومُني من بعدما ... أخذ الغرامُ عليّ فيه مأخذا
لا أرعَوي، ولا أنثني، لا أنتهي ... عن حبّه، فلْيَهْذِ فيه مَن هَذا
واللّهِ لا خَطَرَ السُّلُوّ بخاطري ... ما دُمتُ في قيد الحياةِ ولا أذا
إنْ عشتُ عشتُ على هواهُ وإنْ ... أمُت وجْداً به وصبابةً يا حبّذا

ومن ذلك قوله:

حَذارِ سيوف الهند من أعيُن التُرْكِ ... فما انتُضيَتْ إلّا لتُؤْذِنَ بالفتْك
وإيّاك من تلك القُدود فإنّها ... رِماحٌ أُعِدّتْ للطعان بلا شك
فإنْ كنتَ في أمنٍ من البِيض والقنا ... وإلّا فقد عرّضتَ نفسَك للهلك

(١) في الأصل: «فترنوا».
(٢) في الأصل: «لو».
(٣) كتب على الهامش: «السقام».

وربَّ غَزالٍ باتَ منهم مُغازِلي ... وقد عَبَقَتْ منه المضاجعُ بالمسك
/ ٧٤أ/ إذا ما سقاني في الهجير رُضابه ... تيقّنتُ أنّي بين قارة والنبك[١]
وما بيننا والحمد للّه[٢] رِيبةٌ ... رشَفاتٍ من فمٍ باردٍ ضنك
وبشّرني بالمُلْك فارتعتُ هيبةً ... فقال: أما هذا فمَنْ خاتم المُلْك
فيا طِيبَ ذاك الشُّهْد في ذلك اللّمى ... ويا حُسنَ ذاك الدُّرّ في ذلك السِلك
وباتت أباريقُ المُدامةِ بيننا ... تُقهقِهُ من فرْط المَسَرّة والضحك
ومن عجبٍ أنّا سفكنا دماءها ... فلم تجزنا إلا السرورَ على السفك
فقُم ننهب[٣] اللذّاتِ قبل فواتها ... ودعني من قول ابن حجرٍ: قِفا نبْك

وسأعود إلى ذِكره عند ذكر وفاته في سنة تسعٍ وأربعين وستماية.

❋ ❋ ❋

وكان في خدمة السلطان الملك الصالح، رحمه اللّه، من الفُضلاء والعلماء وكُتّاب الإنشاء غير هؤلاء جماعة، فلا نطوّل بذِكرهم، إلّا أنهم كانوا لا يحضرون عنده إلّا إذا مُدّ سِماط عام فيَحضرونه، ثم يقومون إذا رُفع السِماط، فإنه كما قدّمنا كان لا يجتمع إلّا برسولٍ يرد إليه فيؤدّي رسالته، أو بنُدمائه المختصّين به الذين ذكرناهم وقت المنادمة فقط، ثم لا يتكلّم مع أحدٍ منهم إلّا بمُهم. وأمّا حديث المباراة والمباسطة فلا، وأكثر أوقاته مُختَل بنفسه، والأوراق ترِد إليه مع الخدّام، فيوقّع عليها بما يأمر به، ثم تخرج الأوراق من عنده إلى كتّاب الدرْج[٤]، فتُوقّع بمقتضى ما وقّع به عليها. وكان الأكابر وأرباب الدولة يتردّدون كل يوم إلى الباب، ويقعدون على مصاطب هناك إلى قُربِ الظُهر، ثم ينصرفون.

ولقد رأيت الوزير الصاحب معينَ الدين بن شيخ الشيوخ، ومنزلته المنزلة العظيمة، على الباب، وعنده القاضي بدر الدين، مع عِظَم منزلته، وغيرهما من الأكابر. بلا[٥] في وقت مدّ السّماط العامّ، ربّما حادَثَ القاضي بدر الدين والصاحبَ معين الدين في بعض المهمات.

---

(١) قارة والنبك: بلدتان في الطريق بين حمص ودمشق.
(٢) في الأصل: «والحمد للّه».
(٣) في الأصل: «ينهب».
(٤) كتاب الدرْج: طبقة من كتّاب الدواوين في العصر الإسلامي، يأتي ترتيبهم بالمقام الثاني بعد طبقة كتّاب الدَسْت. سمّوا «كتّاب الدرْج» لأنهم كانوا يكتبون رسائلهم في دروج الورق، والمقصود بالدرْج: الورق المستطيل المركب من عدّة أوصال مدرجة إلى بعضها. (صبح الأعشى ١/ ١٣٧).
(٥) هكذا في الأصل. والصواب: «بلى».

/ ٧٤ب/ ثم إذا رُفع السِّماط العامّ ينهض السلطان، ويتفرّق الجمع، فهذا كان حاله في أيامه كلها، وما سمعت بملكٍ من ملوك هذا البيت ولا من غيرهم كان له هذا الناموس والضبط وهذه المهابة(١).

[أولاد الملك الصالح]

وكان له من الأولاد ثلاثة(٢):

---

(١) حتى هنا ينتهي النقص من النسخة (ب).

(٢) النص في النسخة (ب) ورقة ٣٦٠ب يختلف عما في النسخة (أ)، رأينا إثباته فيما يلي للمقارنة، مع مراعاة أننا سنذكره كما ورد بأخطائه:

«وكان للملك الصالح نجم الدين أيوب ثلاث بنون(!). ولما ورد إلى دمشق من الشرق أكبرهم الملك المغيث فتح الدين عمر، وأوسطهم الملك المعظم غياث الدين توران شاه، وأصغرهم الملك القاهر.

وكان يحب الملك المغيث ويؤثره جداً لأنه كان يناسبه في كثرة العقل والسكون والشهامة والنجابة، فاستصحبه معه لما قدم إلى دمشق، واستصحب أيضاً ابنه الأصغر الملقب بالقاهر، وترك ابنه الأوسط الملك المعظم بآمد، وكان مرتّباً معه فيها الأمير حسام الدين محمد [بن] أبي علي.

وكان الملك المعظم يميل إلى العلوم، ويجتمع بالفقهاء كثيراً ويباحثهم، ويعرف شي (!) من الخلاف والفقه والأصول والأدب، إلّا أنه كان عنده هوج واضطراب. وكان أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب يكرهه لذلك. وكان جدّه الملك الكامل يحبه، فكان يلقي عليه وهو صغير المسائل العويصة في العلوم ويأمره أن يعرضها على من يحضر مجلسه من العلماء ويمتحنهم بها.

ثم جرى للملك المغيث من موته معتقلاً بقلعة دمشق ما جرى في حبس الملك الصالح عماد الدين إسماعيل.

ومات الملك القاهر/ورقة ٣٦١أ/ وهو بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو الأصغر بقلعة دمشق أيضاً قبل أن يأخذها الملك الصالح إسماعيل أيضاً، وقد ذكرناه.

ولما قدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشرق كان قد استدعى حسامَ الدين محمد بن أبي علي من آمد، وبقا (!) بآمد الملك المعظم، فجاءت عساكر الروم مع الحلبيين وحاصروا آمد كما ذكرنا، وأبقوا حصن كيفا للملك المعظم بن الملك الصالح نجم الدين مع قلعة الهيثم، فأقام بها إلى أن مات أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وكان ولد للملك الصالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بالكرك ولده خليل من أم ولده المسمّاة شجر الدرّ، وكان قد عقد عقده عليها، وصارت زوجة له. وورد معه ولده خليل إلى القاهرة لما ملكها.

ومات خليل في حياة أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب صغيراً.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب لكراهته لابنه الملك المعظم لم يأذن له في القدوم عليه إلى مصر مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ويكون وليّ عهده إذا مات. وبلغ من كراهيته له ما أخبرني الأمير حسام الدين محمد ابن أبي علي قال: قال لي السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب: إذ قُضي عليّ بالموت فلا تسلّم البلاد إلّا للخليفة المستعصم باللّه، ليرى فيها رأيه.

ولما مرض المرضة التي مات فيه (!) كانت نفسه قوية، وأمله متسعاً، ولم يغب على ظنه أنه =

[الملك المغيث فتح الدين عمر[١]، وهو أكبرهم، وورد مع أبيه من الشرق إلى دمشق، وجرى له ما قدّمنا ذِكره من الاعتقال بقلعة دمشق وموته بها[٢]. وكان الملك الصالح يتّهم عمّه الملك الصالح عماد الدين بقتله، ولهذا طلبه الملكُ الصالح عمادُ الدين من الملك الناصر صاحب حلب، ولم يُجبه إلى ذلك الملك الناصر، كما قدّمنا ذِكره. وقدِم معه من الشرق ولدٌ له طِفلٌ يُلقّب الملك القاهر، كان الملك الصالح تركه بقلعة دمشق مع ولده الملك المغيث حين سافر إلى نابلس، ثم ورد عليه وهو بنابلس الخبر بموته[٣].

فحكى لي الأمير حسام الدين، رحمه اللّه، قال: كنّا عنده حين ورد عليه الخبر بموته، فحين قرأ الكتاب دَمَعَت عينه ولم ينزعج، ولم يتغيّر عن ما هو بصدده إلى أن انقضى المجلس، وهذا غاية ما يكون من الثبات. وكان ترك بالشرق ولده الملك المعظّم تورانشاه فأقام بحصن كيفا[٤].

وكان يميل إلى الفضيلة ويشتغل بالعلم.

وكان جدّه الملك السلطان الملك الكامل، رحمه اللّه، يحبّه جدّاً لِما يرى فيه من مخايل الذكاء، وكان صغير السنّ في حياة الملك الكامل، فكان إذا حضر الفُضلاء عند الملك الكامل يُلقي عليه مسائل مُشْكِلة، ويأمره أن يسأل الجماعة عنها.

وأنشد يوماً بحضرة جدّه أبياتاً لبعض الشعراء أجازه[٥] فيها:

فمن مثلي ومثل أبي وجدّي

وكان ابن قابيا رسول الملك المجاهد صاحب حمص حاضراً فقال له: لا واللّهِ يا خَوَند، ما أحدٌ في الدنيا مثلك ولا مثل أبيك وجدّك.

ثم لما/ ٧٥أ/ سافر الملك الصالح في أيام أبيه إلى الشرق سافر معه هو وأخوه الملك المغيث][٦].

= يموت من مرضه ذلك. وكان به ما قدّمنا ذكره الخرّاجة والسل، ولم يكن يشعر أن به سلّاً؛ بل كان يجد في مداواة الجراحة، فورد عليه السل قبل موته بأيام يسيرة كما ذكرنا. وكانت الخرّاجة لما انقطعت منها المواد ختمت وصلحت . . .». (انظر: مفرّج الكروب ٥/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(١) انظر عن (الملك المغيث عمر) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٢هـ.) ص١٣٣ رقم ١١٣ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(٢) مفرّج الكروب ٥/ ٢٣٠ و٣٤٦.

(٣) مفرّج الكروب ٥/ ٢١٣.

(٤) مفرّج الكروب ٥/ ٢١٢، ٢١٣.

(٥) في الأصل: «لبعض الشعر أجاب».

(٦) ما بين الحاصرتين، من أول قوله: «الملك المغيث فتح الدين عمر . . .» إلى هنا، ليس في النسخة (ب).

وكان الملك الصالح يحبّ الملك المغيث جدّاً لمناسبته له في العقل والضبط والشهامة، وكان يرشّحه لولاية عهده، وكان يكره الملك المعظّم جدّاً.

فحكى لي الأمير حسام الدين بن أبي علي قال: ممّا أوصاني به الملك الصالح أنه إذا نزل به الموت فلا تستحضر تورانشاه من حصن كيفا، ولا تُوَله البلادَ، فإنّي أعرف أنه ما يجيء منه خير. ولا تُوَلّ البلاد لأحدٍ من أقاربي، بل فوّضْ أمر البلاد إلى الخليفة يولّي فيها من قِبَله من أراد(١).

ولما كان الملك الصالح معتَقَلاً بالكَرَك وُلد له ولدٌ من زوجته المسمّاة شجر الدرّ، وسمّاه خليلاً، ووصل إلى مصر مع أمّه، وعاش بها مدّةً يسيرة، وتُوُفّي بها طفلاً(٢).

ولما فُوّض المُلْك إلى شجر الدرّ هذه كانت علامتها في الكتب والتواقيع: «والدة خليل(٣)». ولم يكن عند الملك الصالح من النساء إلّا هذه، وأخرى يقال لها: «بنت العالمة»، تزوّجها بعده الجُوكَنْدار أحد مماليكه.

ذكر ما تجدّد من الأمور
بعد موت الملك الصالح رحمه اللّه

كنّا ذكرنا أنّ الملك الصالح كان به مرضان، أحدهما جرحٌ في مأبضه، والآخر مرض السّلّ. ولم يكن له شعور بالسّلّ. وكان طبيبه الخِصّيص به: الرشيد، المعروف بأبي خليفة النصرانيّ، وكان لا يجتمع به إلّا في أندر الأوقات، وإنما يقف على الباب ويخرج الخادم إليه يذكر عن السلطان ما يجد، ويستوصف منه ما يصلُح له. ولما قلّت الموادّ في جسمه خَفّ الجرح الذي في مأبضه، فتوهّم الملك الصالح أنه قد حصلت له العافية، فكتب إلى الأمير حسام الدين نائبه في المملكة كتاباً يذكر فيه أنّ الجراحة التي كانت به قد صلحت، وخفّتْ الرطوبات التي فيها، وما بقي إلا الركوب واللعب بالصوالجة، فتأخذ بحظّك/ ٧٥ب/ من هذه البشرى. فسُرّ الأميرِ حسام الدين بذلك، وأوقفني على كتابه.

وقد كنت سمعت من بعض أولاد الحكيم الرشيد طبيب السلطان حقيقة مرضه، وأنّ الجراحة لم تخفّ إلا بسبب فناء الرطوبات وضعف القوّة عن دفع شيء إليها، فلأجل ذلك لم يوص الملك الصالح، وترك الأمر مهملاً، ولو أوصى لما خرج عن نائبه في المملكة الأمير حسام الدين، إذ لم يكن يعتمد على أحدٍ غيره، ولم يكن يثق بفخر الدين بن الشيخ، وإنّما كان تقدُّمه على الجيوش لعِظَم قدره وعُلُوّ منزلته التي

---

(١) مفرّج الكروب ٥/ ٣٧٥، ٣٧٦.
(٢) مفرّج الكروب ٥/ ٢٤٠ و٢٧٥.
(٣) تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ص١٩٩.

كانت عند أبيه الملك الكامل، ولطاعة الجُنْد والأمراء له، ولمعرفَته بإيالة المُلْك وحُسن السياسة. وكان قد صار في آخر وقتٍ سالماً من رجوعه بالعساكر إلى دمياط، وتهاونه بها حتى أخذها الفرنج، وصار ذلك مؤدّياً إلى تملّكهم الديار المصرية، بل الإسلام كلّه، والعياذ باللّه.

(ذكر قيام الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بعد موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بتدبير أمر المملكة)(١)

ولما اتّفقت وفاة السلطان الملك الصالح في مثل ذلك الوقت الصعب، رأت شجر الدّر زوجة السلطان أنه ما يقوم بهذا الأمر، ويجمع شملَ العساكر مثل الأمير فخر الدين، فاتّفقت هي والطواشي(٢) جمال الدين محسّن، وهو كان أقرب الخدّام إلى السلطان، وإليه القيام بأمر مماليكه الجمدارية(٣)، والبحرية. وكانوا قد صاروا جمعاً عظيماً، ولهم شوكة شديدة على أن استدعيا الأمير فخر الدين بن الشيخ، وعرّفاه موت السلطان، واتّفقوا على كتم هذا الأمر عن كل أحدٍ، لئلّا يطّلع الفرنج على موت السلطان فيتقدّموا إلى جهة المسلمين، فرُبّما لا يثبُت المسلمون لهم، إذ لا جامع يجمعهم، واتّفقوا على تحليف العساكر ووُلاة البلاد، للسلطان الملك الصالح، وبعده لولده الملك المعظّم غياث الدين تورانشاه(٤)، ولفخر الدين بن الشيخ بأتابكية العسكر، والقيام بتدبير المملكة. ثم أحضر الحكيم فتح/ ٧٦أ/ الدين ابن [أبي] الحوافر، وهو أحد حكماء السلطان.

وكان السلطان كتب إلى الأمير حسام الدين باستدعائه، فسيّره إليه، فوصل إلى العسكر المنصور، وقد شارف السلطان الموت. ولما مات أحضروه لغسْل السلطان وتكفينه والصلاة عليه، لئلّا تقع الريبة(٥) بدخول غيره، فدخل فتح الدين إليه فغسّله وكفّنه وصلى عليه، وجُعل في تابوتٍ، ثم نُقل التابوت الذي فيه السلطان سرّاً في

---

(١) العنوان من النسخة (ب) ورقة ٣٦١ب.

(٢) الطواشي: لفظ فارسي ـ تركي، معناه: مَخْصيّ. دخل العربية في العصر الإسلامي المتأخر ليصبح لقباً للخصيّ المملوك الذي كان يستخدم في القصور السلطانية ضمن أجنحة الحريم. (معجم المصطلحات ٣٠٨).

(٣) الجَمْدارية: لفظ فارسيّ مركب، معناه المسؤول عن غرفة الملابس أو المستحمّين، أصبح لقباً في العصر الأيوبي وما بعده لموظف من مرتبة أمراء الطبلخاناه. مفرده: جمدار.

(٤) تاريخ النوادر ٣/ورقة ٤٢ب.

(٥) في الأصل: «ليلاً يقع الرتبة».

المركب، وبعثه إلى قلعة الجزيرة، فترِك بها إلى أن نُقل إلى القاهرة فيما بعد، كما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

ثم أُحضِرت الأمراء والأجناد بالدِهليز السلطاني، وقيل لهم إن السلطان (قد)(١) رسَم أن تحلفا له ولولده الملك المعظّم بولاية العهد بعده، وللأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بالتّقدمة على العساكر، والقيام بتدبير المملكة، فأجابه إلى ذلك، وحلفوا، وكذلك حلفت الجَمْداريّة والبحريّة(٢).

ثم ورد إلى القاهرة كتابٌ إلى الأمير حسام الدين وقيل له إنه من السلطان، وقد كتب بين الأسطر علامته المعروفة، وهي: «أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب»، وكان الكاتب لها خادمٌ من خَدَم السلطان، يُعرف بالسُهَيليّ(٣)، وهو الآن حيّ. وكان خطّه يشبه خطّ الملك الصالح، ومضمون الكتاب: التقدّم إليه من جهة السلطان، أن يحلف للسلطان ولابنه بعده بولاية العهد، ولفخر الدين بالتّقدمة والأتابكيّة، وأن يحلف النواب ومن عنده من الأكابر هذه اليمين، وأن يتقدّم إلى الخطباء بأن يخطبوا بعد السلطان لابنه الملك المعظّم، فحضر عند الأمير حسام الدين قاضي القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن قاضي القضاة بالقاهرة وما معها من الوجه البحريّ والصاحب بهاء الدين زهير كاتب الإنشاء.

وكان السلطان قد غضب عليه وعزله/ ٧٦ب/ كما تقدّم ذِكره. ووالي القاهرة شمس الدين بن باخل وغيرهم من الأجناد وأرباب الدولة، ووقع الحَلَفُ على الوجه المذكور بُكرة الخميس(٤) لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان.

وكانت وفاة الملك الصالح ليلة نصف شعبان.

ثم استُدعي بهاء الدين إلى العسكر، فمضى إليه، ورُدّ إلى منصبه، واتّصل بعد ذلك بالملك الناصر صاحب حلب، كما قدّمنا ذِكره.

وبولغ في كتمان موت الملك الصالح عن كل كبير من الدولة وصغير، حتّى عن الأمير حسام الدين بن أبي علي نائب السلطنة بالديار المصرية، فكانت الكتب بعد ذلك ترد إليه من العسكر فيما يتعلّق بالمهامّ، وعليها صورة علامة السلطان بخطّ السُهَيليّ الخادم، وهو لا يظنّ أنّ العلامة إلّا خطّ السلطان، لفرْط المشابهة بين الخطّين.

---

(١) كتبت فوق السطر.

(٢) تاريخ النوادر ١٤/ ورقة ٤٢ب.

(٣) في تاريخ النوادر ١٤/ ورقة ٤٢ب «اسمه سهيل»، ومثله في السلوك.

(٤) في الأصل: «وبكرة الخميس». وفي (ب) ورقة ٣٦٢أ «يوم».

وقد كنت أنا تحقّقت يوم التّحليف موتَ السلطان، لأنّ أحد أولاد الرشيد طبيب السلطان كان ورد ذلك اليوم من العسكر، وقال لي: ما فارقت العسكر إلّا وقد أخبرني أبي بأنه قد امتنع من الغذاء بالكلّية، وسقط[١] نبضُه ولا شكّ أنه قد مات. وانضاف إلى ذلك عندي قرينة قويّة جدّاً، وهي أنّ الملك الصالح ما كان يثق بفخر الدين الثقة التي تُوجب له أن يفوّض إليه الأمورَ بعده، وهو يعرف همّة فخر الدين وعُلوّها، وأنه يوم ملك السلطان الملك الصالح مصرَ وأطلقه، ركب فخر الدين رَكبةً عظيمة، ودعا له المَصريّون وأحدقوا به، فأوجب ذلك أن استشعر منه، وألزمه دارَه إلى أن مات الصاحب معين الدين بدمشق، فاحتاج إلى الاستعانة بفخر الدين لشهامته ونجابته، فأخرجه وقدّمه.

وكان الملك الصالح لا يعتمد في الحقيقة إلّا على حسام الدين. وقد تقدّم ذِكر ما أوصاه/ ١٧٧أ/ به عند سفره إلى الشام في حقّ أخيه الملك العادل، وأن يسلّم الديار المصرية إلى الخليفة، ولا يسلّمها إلى ولده الملك المعظّم، ولا إلى أقاربه، لا سيّما وقد جرى من فخر الدين ما جرى من الرجوع بالعسكر عن دمياط، وأوجب ذلك هرب أهل دمياط عنها، وإخلائها للفرنج حتى ملكوها، وأمر السلطان بشنق الكِنانية لمفارقتهم دمياط، لكنّه لم يُظْهِرْ التغيّرَ على فخر الدين، والعسكر في ذلك الوقت الصعب، فعلمتُ بهذه القرينة أنّ الملك الصالح لو أوصى إلى أحدٍ يقوم بتدبير المُلك بعدهَ لَمَا عَدَلَ عن حسام الدين، لثقته به الثقة الكلّية، وإنّي عرضت هذا الأمر الذي خطر لي على الأمير حسام الدين، وكنت أخلو[٢] معه في كل الأوقات وربّما أسهر عنده وأحادثه إلى أن يمضي معظم الليل، فبقي متحيّراً في ذلك، فاتّفق أنه ورد عليه مرّةً كتابٌ من العسكر في بعض المهام، فأوقفني عليه، وكان قد حصل عنده بعضُ الارتياب به،

فقلتُ له: واللّهِ العظيم ما هذه العلامة بخطّ السلطان الملك الصالح،

فقال: كيف عرفت ذلك؟

فقلت: احضر لي بعضَ الكُتُب التي فيها خطّه، فأحضره لي، فقابلت بين حروفه وحروف ذلك الكتاب، فتبيّن له مخالفةَ الخطّ للخطّ، فمن ذلك أنه كان يكتب «الباء» من «أيوب» ممدودة، وفي ذلك الكتاب كانت شبيهةً بالراء. ولما تبيّن ذلك له أخذ بالتفتيش عنه من خواصّ السلطان بالمعسكر، فأخبروه بموته، وحينئذٍ اشتدّ خوفه أن يغلب فخر الدين على الملك، ويستبدّ به لنفسه، أو يقيم فيه صبيّاً من ذُرّية الملك

(١) هكذا في الأصل.
(٢) في الأصل: «اخلوا».

الكامل، ويقوم بأتابكيّته، فإنّ فخر الدين، رحمه اللّه، كان عالي الهمّة جدّاً، فكانت نفسه تطمع إلى معالي الأمور.

ثم شرع فخر الدين في إطلاق المحبَّسين، فأفرج عن محيي الدين بن الجوزي[١]، وسيف الدين بن/ ٧٧ب/ عدلان، ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان السلطان قد اعتقلهم. وكان السلطان قد غضب على جمال الدين بن مطروح فعزله عن نيابة السلطنة بدمشق وأبعده، فقرّبه فخر الدين وأدناه، وأحضر بهاء الدين زهيراً بعد إبعاد السلطان إليه، وردّه إلى منصبه، وأخذ في التصرّف في الأموال، فأطلق منها جملةً عظيمة، وخلع على خواصّ الأمراء[٢]، فتحقّق حينئذٍ عند أكثر الناس موتُ السلطان، إلّا أنّ أحداً لا يجسر أن ينطق به إقامةً للحُرمة، بسبب كون الفرنج في البلاد، والخطبة والسّكّة مستمرّة للملك الصالح، وبعده لابنه الملك المعظّم.

ثم توجّه من العسكر قُصاد إلى حصن كيفا لإحضار الملك المعظّم من جهة الطواشي جمال الدين مُحسِن، وشجرة[٣] الدرّ، وما أمكن فخر الدين إلّا موافقتهما[٤] على ذلك.

ومن جملة من توجّه لإحضاره فارس[٥] الدين أقطاي[٦] الجَمْدار، وكان يستبعد وصوله من حصن كيفا بسبب البُعد وعدم التمكّن بسبب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والحلبيّين، وسيّر حسام الدين من عنده قاصداً[٧]، هو أحد مماليكه الخواصّ، يعرف بزين الدين العاشق، وبعث معه كتاباً يحثّه فيه على سُرعة القدوم خوفاً أن يُخرج البلاد من يده. ولم يثق حسام الدين بمن توجّه من العسكر لإحضاره.

[وكان التقدّم بالخطبة للملك المعظّم باللّه بالخطبة لأبيه يوم الإثنين لثمانٍ بقين من شعبان سنة سبع وأربعين وستماية. ورسّم في ذلك اليوم أن ينقش اسم الملك

---

(١) في (ب) ورقة ٣٦٣أ «الحرري».
(٢) في الأصل: «الامر»، والتصحيح من (ب).
(٣) شجرة = شجر.
(٤) في الأصل: «موافقهما».
(٥) في الأصل: «فاس».
(٦) في (ب) ورقة ٣٦٣ب «أقطايا»، ومثل ذلك في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٧٣، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢١٧، وقيّده اليافعي بالحروف في: مرآة الجنان ٤/ ١١٦ من غير ألِفٍ في أوله، فقال: «قطايا بالقاف والطاء المهملة وبين الألِف مثنّاة من تحت»، وقال ابن تغري بردي في: النجوم الزاهرة ٧/ ٧ «أقطاي الجمدار المعروف بأقطايا»، والمثبت يتفق مع: نهاية الأرب ٢٩/ ٣٣٧، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٧هـ.) ص٤٣، وغيره.
(٧) الخبر باختصار في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٤، ٣٤٥.

المعظّم على سكة الدراهم والدنانير بعد اسم أبيه، فخطب الخطباء باسم الملك المعظّم في يوم الجمعة الثالثة ليوم الإثنين المذكور.

وكان الملك المغيث بن الملك العادل بن الملك الكامل عند عمّاته[١] بنات الملك العادل، فذكر للأمير حسام الدين محمد بن أبي علي أن فخر الدين بن شيخ الشيوخ ربّما طمع في السلطنة ليستولي على المملكة ويديرها باسمه].

وكان عند القطبيات بنات الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وهنّ أخوات ولده الملك المفضّل قُطب الدين ولد الملك العادل بن الملك الكامل، وهو الملك المغيث فتح الدين عمر.

فبلغني من بعض أهل القاهرة أنّ فخر الدين بن الشيخ ربّما استدعاه، وفوّض إليه المملكة ليقوم بأتابكيّته، فذكرت ذلك للأمير حسام الدين، فعظُم ذلك عليه، لأنه كان/ ٧٨أ/ لفرط محبّته لأستاذه الملك الصالح يكره أن يخرج الملك عن ذرّيّته.

وكان عُمْر الملك المغيث هذا على ما قيل نحو أربع عشرة سنة، فأحضر حسام الدين حين سمع منّي هذا القول شمس الدين بن باخل[٢] والي القاهرة[٣] ليلاً، وأمره أن ينقل الملك المغيث هذا بُكرةً من دار القطبيات ويصعد به إلى قلعة الجبل، ففعل ما أمره به، وصعد حسام الدين إلى القلعة، وأمر والي القلعة بالاحتفاظ به والاحتياط عليه، وأن لا يسلّمه إلى من يطلبه منه[٤].

واستمرّت المكاتبة بين فخر الدين وحسام الدين، وعنوان المكاتبة: من فخر الدين الخادم يوسف بن حمّوَيْه، ومن حسام الدين المملوك أبو علي، وبينهما مجاملة في الظاهر، وفخر الدين يعمل على الاستبداد والاستقلال إن تعذّر وصول الملك المعظّم، وصار له موكب عظيم بالعسكر، وأمراء الدولة كلّهم يركبون في خدمته ويترجّلون له، ويمدّ لهم السّماط فيأكلون وينصرفون[٥].

ووصل قاصد حسام الدين إلى حصن كيفا، واجتمع بالملك المعظّم، وحثّه على سُرعة الوصول إلى الديار المصرية، وقال له: إنْ تأخّرت فات الأمر، وتغلّب فخر الدين على البلاد، وربّما جعلها باسم ابن عمّك الملك المغيث بن الملك العادل[٦].

---

(١) في السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٥ «عند عمّات أبيه».
(٢) في (ب) ورقة ٣٦٣ب: «باحل».
(٣) في (ب) ورقة ٣٦٣ب: «القلعة».
(٤) السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٥.
(٥) السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٥.
(٦) السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٥.

ووصلت أيضاً قُصّاد العسكر وفارس أقطاي[١]، وحثّوه على سرعة الحركة، وقد ذُكر أنه طلب منه فارس الدين أقطاي إسكندرية، فوعده بها. ولما وصل ولم يَفِ له بذلك ولا أحسن إليه، فسدت نيّته[٢] له، وانضاف إلى ذلك فساد نيّات باقي المماليك الجَمْدارية والبحريّة، فكان عاقبة ذلك ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر مسير الملك
المعظّم بن الملك الصالح /٧٨ب/ إلى الديار المصرية

ولما حثّه القصّاد على سرعة الحركة إلى الديار المصريّة سار في جماعةٍ من أصحابه وخواصّه، ومعه كاتبه النشو بن حُشَيْش النّصرانيّ المصريّ، وكان خِصّيصاً به جدًّا، وهو غالبٌ على أمره كلّه، وكانت مكاتبات الملك المعظّم ترد إلى حسام الدين في حياة السلطان الملك الصالح بخط هذا الكاتب، ووقفتُ على بعضها وهو يُثني فيه على مخدومه وما هو متّصف به من الفضيلة.

وقد كان الأمير حسام الدين بآمِد أتابكاً للملك المظفّر، فكان يذكر لي معرفته وفضيلته، ويقول لي إنه إذا وصل تكون أنت أقرب الناس إليه، فإنه بخلاف والده في ذلك.

ولما خرج الملك المعظّم من حصن كيفا سار مُجدًّا خوفاً أن يَحُول بدرُ الدين لؤلؤ والحلبيّون بينه وبين مقصده، وكان خروجه من حصن كيفا ليلة السبت لإحدى عشرة ليلةٍ مضت من شهر رمضان من هذه السنة، أعني سنة سبع وأربعين وستماية، وترك بالحصن ولده الملك الموحّد عبد اللّه، وعُمُره على ما سمعتُ من الملك المعظّم نحو عشر سنين، وترك عنده من يقوم بتدبير أمره، وعدّة من خرج معه من خواصّه وألزامه نحو خمسين فارساً، وقصد جهة عانة، وهي من بلاد الخليفة. وبلغ صاحبَ الموصل والحلبيّين خروجُه وتوجّهه إلى الديار المصرية، فأرسلوا جماعة ليقبضوا عليه، ويتّفقوا معه على ما يريدونه، فلم يقعوا به ووصل إلى عانة وعدًا[٣] الفرات منها[٤].

---

(١) في (ب): «أقطايا».

(٢) في الأصل: «بيته».

(٣) هكذا في الأصل، والصواب: «وعدّى».

(٤) خبر مسير المعظم في: نزهة الأنام ١٨٨، والسلوك ج١ ق٢/٣٤٦، وانظر مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٧٥، وتاريخ الزمان ٢٩٤، وأخبار الأيوبيين ١٥٩، ونهاية الأرب ٢٩/ ٣٥٣، وعيون التواريخ ١٠/ ٣١، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٦٠، ٣٦١.

ذِكر تقدُّم الفرنج ونزولهم قبالة عسكر المسلمين

ولما تحقّق الفرنج موتَ (السلطان)[١] الملك الصالح رحلوا من دمياط بفارسهم وراجلهم، وشوانيهم في البحر تُحاذيهم، ونزلوا على فارس كور[٢]، ثم/ ٧٩أ/ تقدّموا منها مرحلةً، وذلك يوم الخميس لخمسٍ بقين من شعبان.

وفي غد هذا اليوم، وهو يوم الجمعة، ورد من الأمير فخر الدين كتاب ينذر الناس كافّة ويأمرهمْ بالجهاد في سبيل اللّه، وفيه حكاية علامة السلطان، رحمه اللّه، وأوله بعد البسملة:

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ [فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ][٣] بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٤] الآية.

وهو كتاب بليغٌ بإنشاء الصاحب بهاء الدين زهير، رحمه اللّه، فيه مواعظ جَمَّة وتحريض على قتال الكفّار، وأنّ الفرنج ـ لعنهم اللّه ـ قد قصدوا البلاد بحدّهم وحديدهم، وأطمعَتْهم أنفُسُهم بملْك البلاد، وقد وجب على المسلمين كافّةً النفيرُ إليهم ودفْعهم عن البلاد.

فقُرِيء هذا الكتاب على الناس على المنبر بجامع الصلاة بالقاهرة، فبكا[٥] الناس بكاءً كثيراً، وانزعجوا لذلك. وخرج من القاهرة ومصر وسائر النواحي خلق عظيم[٦]. وعظُم الخوف لموت السلطان.

وتمكّن الفرنج بملك ثغر دمياط وكثر بهم، وتحقّقوا أنه إن اندفع العسكر الذي بالمنصورة إلى ورائهم ولو مرحلةً واحدةً مُلكت ديار مصر بأجمعها في أسرع الأوقات.

ولما كان يوم الثلاثاء مُستَهَلّ شهر رمضان وقعت بين الفرنج والمسلمين وقعةٌ استشهد فيها أمير مجلس المعروف بالعلائي[٧]، وجماعة من الأجناد. ونزلت الفرنج شرمساح[٨].

---

(١) كتبت على هامش المخطوط.

(٢) ذكرها ياقوت الحموي في (معجم البلدان): «الفارسكر»، وكانت في أيامه قرية من كورة الدقهلية، وهي الآن من مراكز مديرية الدقهلية. (الخطط التوفيقية ١٤/ ٦٤ ـ ٦٦).

(٣) ما بين الحاصرتين استدركناه من (ب) ورقة ٣٦٤ب، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٤٦.

(٤) سورة

(٥) هكذا، والصواب: «فبكى».

(٦) تاريخ النوادر ٣/ ورقة ٤٢ب.

(٧) في تاريخ النوادر ٤/ ورقة ٤٢ ب «العلاني». ومثله في (ب) ورقة ٣٦٤ب، وتشديد اللام. والمثبت يتفق مع: السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٧.

(٨) في السلوك: «شارمساح».

وفي يوم الإثنين لسبع مَضَيْن من شهر رمضان نزلت الفرنج البَرَمُون، وكثر الاضطراب بسبب دُنُوّهم من عساكر المسلمين.

وفي يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان وصلت الفرنج إلى طرف جزيرة دمياط، وصاروا في مقابلة المسلمين، وهي المنزلة التي كانوا نازلين فيها من المرة الأولى في أيام السلطان الملك الكامل، رحمه اللّٰه، وانتصر المسلمون عليهم وهم فيها ومعظم عساكر المسلمين في المنصورة، وهي في البرّ الشرقيّ، وجماعة من العسكر وأولاد الملك/ ٧٩ب/ الناصر داود الأكابر، وهم: الملك الظاهر شاذي، والملك الأمجد حسن، والملك المعظّم عيسى، والملك الأوحد يوسف في البّر الغربيّ قبالة الفرنج، وبينهم وبين الفرنج بحر النيل. وكانت عدّة أولاد الملك الناصر الأكابر والأصاغر يومئذٍ الذين قدموا إلى مصر اثني عشر ولداً ذكراً، وكان بالبرّ (الغربيّ)[١] أيضاً أخو الملك الناصر، وهما الملك القاهر عبد الملك، والملك المغيث عبد العزيز.

ولما نزلت الفرنج بجموعهم في طرف الجزيرة التي فيها دمياط، وصاروا في مقابلة المسلمين خندقوا عليهم، وأداروا على معسكرهم سوراً، وستروه بالستارة، ونصبوا المجانيق يرمون بها المسلمين، وأرست شوانيهم بإزائهم في بحر النيل، وشواني المسلمين بإزاء المنصورة، ونشب القتال بين الفريقين برًا وبحراً.

وفي يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان قفز إلى المسلمين[٢] ستّة من خيّالة الفرنج[٣].

وفي غد هذا اليوم، وهو يوم الخميس، كان وصول الملك المعظّم تورانشاه إلى عانة، ثم انفصل منها متوجّهاً إلى دمشق على السَّمَاوَة[٤].

ذِكر وصول الملك المعظّم غياث الدين تورانشاه بن الملك الصالح إلى دمشق

وكان رحيله من عَانة يوم الأحد لعشرٍ بقين من رمضان، ثم وصل إلى القُصَير في دِهليز ضربه له الأمير جمال الدين بن يغمور، رحمه اللّٰه، نائب السلطنة بدمشق يوم الإثنين لليلتين بقيتا[٥] من شهر رمضان، ودخل غد ذلك اليوم، وهو يوم الإثنين،

---

(١) كتبت على هامش المخطوط.

(٢) في الأصل: «إلى المسلمون».

(٣) خبر تقدّم الفرنج إلى دمياط في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٦، ٣٤٧ نقلاً عن كتابنا مفرّج الكروب هذا.

(٤) السماوة: هي الصحراء الممتدّة بين الكوفة والشام، وتسمّى أيضاً بادية السماوة. (معجم البلدان).

(٥) في الأصل: «للثلثين بقنا».

إلى دمشق، وزُيِّن البلد وضُربت البشائر، ونزل بالقلعة، وقام بخدمته الأمير جمال الدين بن يغمور[١].

ووصل إليه من حماه الخطيب زين الدين عبد الرحمن بن موهوب[٢]، رحمه اللّه، رسولاً من صاحبها/ ١٨٠أ/ الملك المنصور ـ قدّس اللّه روحه ـ وصُحبته القاضي نجم الدين عبد الرحيم بن القاضي شمس الدين بن البارزيّ، رحمهما اللّه. ووصل إليه أيضاً رسول السلطان الملك الناصر بن الملك العزيز صاحب حلب، كلّ منهما يهنئه بمَقدمه.

([٣]وجرى أمرٌ طريفٌ من الملك المعظَم، وهو أنه لما استقرّ بقلعة دمشق جاءه الشعراء يهنّئونه (ويمدحونه)[٤]، فحضر [رجل][٥] من أهل دمشق وامتدحه بقصيدةٍ مَطْلعُها:

قُل لنا كيف جئتَ من حصن كيفا حيـن أرغـمـتَ الأعـادي أُنُـوفـا؟

فأجابه الملك المعظّم في الوقت:

الـطـريـق الـطـريـق يـا ألـفَ نـحـسٍ مـرّةً آمـنـاً، وطَـوراً مَـخُـوفـا

فاستظرف الناس ذلك من الملك المعظّم، واشتهرت هذه القضية، وعيّد الملك المعظّم بدمشق عيد الفِطر)[٦].

وفي هذا اليوم بعينه أُسر من الفرنج كُنْد[٧] كبير من أقارب الملك ريدافرنس، واستمرّ القتال بين الفريقين في البرّ والبحر. وكل يوم يُقتل من الفرنج ويؤسر جماعة.

وكان الفرنج يجدون من حرافشة المسلمين أذًى كثيراً، ويتخطّف الحرافشةُ منهم ويقتلون، فإذا شعر الفرنج بهم رموا بأنفسهم في الماء، وسبحوا إلى أن يخرجوا من جانب المسلمين، وكانوا يتحيّلون في التخطّف منهم بكلّ حيلة.

وبلغني أنّ إنساناً منهم قوّر بِطّيخةً خضراء، وجعلها مُلبَّسةً على رأسه، ثم سبح في الماء، وقرُب من الفرنج، حتى ظنّه بعضهم أنه بِطّيخة شايفة[٨] على الماء، فنزل

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٥١، ٣٥٢.

(٢) في (ب) ورقة ٣٦٥أ «مرهوب» بالراء.

(٣) من هنا ناقص من النسخة (ب).

(٤) كتبت على هامش المخطوط.

(٥) إضافة على الأصل يقتضيها السياق.

(٦) حتى هنا ينتهي النقص من (ب) ورقة ٣٦٥أ.

(٧) كُند: تعريب Conte بالفرنسية.

(٨) هكذا في الأصل، وفي (ب) ورقة ٣٦٥ب «سايبه». والصواب: «فاشية».

ليتناولها، فخطفه ذلك الشخص وأسره، وأتى به [إلى][1] المسلمين.

ولأربع مَضَيْن من شوّال، وردت البشائر إلى القاهرة بوصول الملك المعظّم إلى دمشق واستقراره[2] بقلعتها، فحصل السرور التامّ بذلك، وضُربت البشائر بالقاهرة وبالعسكر.

وفي يوم الأربعاء لسبعٍ مَضَيْن من شوّال أخذ المسلمون/ ٨٠ب/ من الفرنج شينياً، فيه مايتا رجل وكُند كبيرٌ.

وفي يوم الخميس منتصف شوّال ركبت الفرنج والمسلمون، ودخل المسلمون إليهم إلى برّهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فقُتل من الفرنج أربعون فارساً، وقُتلت خيلُهم أيضاً.

وفي غد هذا اليوم، وهو يوم الجمعة، وصل إلى القاهرة منهم سبعة وستّون أسيراً، منهم ثلاثة من أكابر الداوية[3].

وفي يوم الخميس لثمانٍ بقين من شوّال أحرق المسلمون للفرنج مَرَمّة[4] عظيمة في البحر، واستظهر عليهم المسلمون استظهاراً بيّناً[5].

ذِكر مسير الملك المعظّم من دمشق إلى الديار المصرية

وسافر الملك المعظَّم من دمشق متوجّهاً إلى الديار المصرية بعد أن خلع على الأمير جمال الدين بن يغمور، وأعطاه مالاً كثيراً، وقرّره في النيابة عنه بها، وخلع على الأمراء القيمُرية، وأعطاهم مالاً كثيراً، وأخرج من الخزائن جملةً من المال، وفرّق ذلك في الجُند، واستصحب معه القاضي الأسعد شرف الدين هبة اللّه بن صاعد المعروف بالفائزيّ.

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) في الأصل: «واستقروا»، والمثبت من (ب).

(٣) أطلق المؤرّخون المسلمون لفظ الفرسان الداوية (أو الديوية كما في بعض المصادر) على جمعية فرسان المعبد Templiers وقد أسّسها «هيج دي بينز Hugh de payns سنة ١١١٩م. لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس. ثم تحوّلت مع جمعية فرسان الهسبتاليين إلى هيئة حربية دينية فكان لرؤسائهما وفرسانهما شأن كبير في تاريخ الإمارات الصليبية بالشام. (السلوك ج١ ق١/ ٦٨ حاشية ٤) وقد عرّفهم ياقوت الحموي بقوله: قوم من الفرنج حبسوا أنفسهم على حرب المسلمين ومنعوها النكاح. (المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ ص١٣٦).

(٤) هذه إشارة إلى البرجين المتحرّكين اللذين ابتناهما ملك فرنسا حين ذاك على الضفة الشمالية لبحر أشموم، لوقاية الجنود والعمّال المستخدمين في إقامة جسر هناك عبر المجرى. (السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٨ بالحاشية ٦).

(٥) الخبر في السلوك ج١ ق٢/ ٣٤٦ ـ ٣٤٨ نقلاً عن «مفرّج الكروب».

وكنّا ذكرنا أنّ السلطان الملك الصالح جعله ناظراً في دواوينها.

ولما وصل الملك المعظّم إلى الرمل أسلم على يده نشْوُ الدولة بن حُشَيش كاتبُ إنشائه، ولقّبه معين الدين، ورشّحه لأن يكون وزيره، كما كان معين الدين بن الشيخ وزير أبيه الملك الصالح[١].

ذِكر الكبسة بالمنصورة ومقتل الأمير فخر الدين بن الشيخ، رحمه اللّه، ثم النصرة على الفرنج

قد ذكرنا استقرار الفرنج في مخيّمهم قبالة المسلمين، واتّصال القتال بين الفريقين، وبينهم بحر أشمون، وهو بحرٌ صغير، وفيه مخايض رقاق، فدلّ بعضُ المفسدين الفرنجَ على مَخَاضةٍ من تلك المخايض تُعرف[٢]/ ٨١أ/ بمخاضة سلمون، فركبت الفرنج وقصدوا تلك المخايض بُكرة الثلاثاء لخمسٍ مَضَيْن من ذي القعدة، فلم يشعر المسلمون بهم إلّا وهم قد خالطوا مُعَسكَرهم[٣].

وكان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ يغتسل في الحمّام، وأتاه الصريخ بأنّ الفرنج قد هجموا العسكر، فركب دهِشاً غير مُعتدٍّ ولا مستحفظ، فصادفه جماعة من الفرنج، فاستشهد، رحمه اللّه، وكانت خاتمته خاتمة حسنة[٤].

[وكان أميراً فاضلاً، عالماً، متأدّباً، جواداً، سَمْحاً، عالي الهمّة، كبير النفس، ما كان في إخوته مثله بل ولا في غير إخوته. نال من الدنيا سعداً عظيماً ومكانة عالية، وانتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وكانت همّته ترقا[٥] إلى المُلْك.

وختم اللّه له بالشهادة، رحمه اللّه ورضي عنه][٦].

ودخل ريدافرنس المنصورة، ووصل إلى قصر السلطان الذي على البحر، وتفرّقت الفرنج في أزِقّة المنصورة، وهرب كل من فيها من الجند والعامّة والسُّوقة

---

(١) خبر مسير المعظم في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٢، وانظر: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٧٥، وتاريخ الزمان ٢٩٤، وأخبار الأيوبيين ١٥٩، ونهاية الأرب ٢٩، ٣٥٣، وعيون التواريخ ٢٠/ ٣١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٧هـ.) ص٤٤، ٤٥، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٦٠، ٣٦١.

(٢) في الأصل: «يعرف».

(٣) السلوك ج١ ق٢/٣٤٩.

(٤) تاريخ الملك الأشرف قايتباي ـ بتحقيقنا ـ ص٥٢، تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٧هـ.) ص٣٧٣.

(٥) في المخطوط هكذا. والصواب: «ترقى».

(٦) ما بين الحاصرتين ليس في النسخة (أ)، وهو من (ب) ورقة ٣٦٦أ.

يميناً وشمالاً. وكادت ساقة الإسلام تُستأصل، وأيقن الفرنج بالظفر[١].

وكان من سعادة المسلمين تفرُّقُ الفرنج في الأزِقّة، واشتدّ الأمر، وأُعضِل الخَطْب، فانتخت الطائفة التركية مماليك السلطان، رحمه اللّه، من الجَمْداريّة والبحريّة، أسود الحرب، وفرسان الطعن والضرب، وحملوا على الفرنج حملةً واحدةً عظيمة، فزعزعوا بها أركانهم، وهدّوا بُنيانهم، ونكّسوا صُلبانهم، وأخذتهم سيوف التُرك ودبابيسهم[٢] فأثخنوا فيهم قتلاً وجرحاً، وطرحوهم في أزقّة المنصورة. وكانت عدّة القتلى منهم تناهز[٣] ألفاً وخمس ماية من فرسانهم وصناديدهم وشجعانهم.

وأمّا رجّالتهم فكانوا قد جاءوا إلى الجسر المنصوب على بحر أشمون ليعبروا منه، ولو تراخى الأمر، وعَدّت الرجّالة إلى برّ المسلمين، وتكاملوا فيه، لأعضل الأمر، وكانوا حموا فارسهم لأنهم كانوا جمعاً عظيماً، ولولا ضيق مجال القتال، لكَوْن القتال بين الأزِقّة والدروب، لكانوا استؤصلوا، لكنْ سلِم الباقون منهم، ومضوا إلى مكانٍ يقال له جديلة، فاجتمعوا بها وامتنعوا، ودخل الليل ففرّق بينهم، وضربوا عليهم بجديلة سوراً، وخندقوا عليهم خندقاً، فأقامت منهم طائفة بالبر/ ٨١ب/ الشرقيّ، ومعظمهم في طرف[٤] الجزيرة المتّصلة بدمياط على الطائفتين الخندق والسور.

وكانت هذه الواقعة مقدّمة النصر ومفتاح الظَفَر[٥].

ولما وقعت هذه الواقعة وردت البطاقة إلى القاهرة بعد الظهر من يوم الثلاثاء المذكور، ووقف عليها الأمير حسام الدين، وأوقفني، عليها، ومضمونها أنه سرّح الطائر وقد هجم العدوّ المنصورة، والحرب قائمة، والقتال بين المسلمين والفرنج

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٠.

(٢) الدبابيس: مفردها: دبّوس. آلة من آلات الحرب تشبه الإبرة، كانت تصنع من عود طوله نحو قدمين من الخشب الغليظ في أحد طرفيه رأس من حديد قطرها ثلاث بوصات تقريباً. (تكملة المعاجم العربية ٤/ ٢٨).

(٣) في الأصل: «يناهز».

(٤) في (ب) ورقة ٣٦٦ب: «طرق».

(٥) خبر الكبسة بالمنصورة في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٠، ٣٥١، وانظر: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٧٤، وذيل الروضتين ١٨٣، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٨٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٥٩، وتاريخ الزمان ٢٩٤، وأخبار الأيوبيين ١٥٩، والدر المطلوب ٣٧٥ ـ ٣٧٨، وتاريخ النوادر ٤/ورقة ٤٢ب، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢١٧، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٧هـ.) ص٤٤، ودول الإسلام ٢/ ١٥٢، والعبر ٥/ ١٩٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٢، وعيون التواريخ ٢٠/ ٣١، والبداية والنهاية ١٣/ ١٧٧، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٦٠، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٤، ٣٦٥، وتاريخ الملك الأشرف قايتباي ٥٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٤٦، ٣٤٧.

شديد، وليس في البطاقة غير ما هذا معناه، فانزعجنا وانزعج المسلمون كافّة، وغلب على الظنون بوار الإسلام، وورد المنهزمون من المسلمين آخر النهار من ذلك اليوم، وبقي باب النصر مفتوحاً طول ليلة الأربعاء، والجُند والعامّة والكتّاب والمتصرّفون يدخلون منه وهم منهزمون، لا علم لهم بما تجدّد بعد دخول الفرنج المنصورة[١].

وممّن دخل تلك الليلة القاضي تاج الدين المعروف بابن بنت الأعزّ، وكان يومئذٍ الناظر بديوان الصُحبة.

(وكان الأمير حسام الدين شكره للسلطان الملك الصالح، فولّاه نظر ديوان الصحبة، فكان فيه بمثابة الوزير، فاجتمع بالأمير حسام الدين بدار الوزارة، وأخبره بدخول العدوّ المنصورةَ، وأنه لم يعلم ما تجدّد بعد ذلك)[٢].

وبقيت القلوب منزعجةً إلى أن طلعت الشمس من يوم الأربعاء، فوردت البُشرى بالنصر، وزُيّن البلدان: القاهرة ومصر، وعظُم الفرح والسرور بما سناه اللّه من النصر[٣].

وكانت هذه أول وقعة انتُصِر فيها بأسود التُرك على الكلاب الشِرك[٤]. ووردت البُشْرَى على الملك المعظّم بذلك وهو في الطريق، فجدّ بالسير إلى الديار المصرية.

(ونُقل الأمير فخر الدين، رحمه اللّه، إلى القرافة التي فيها ضريح الشافعيّ، رحمه اللّه، فدُفن بها، رحمه اللّه ورضي عنه)[٥].

([٦]ذِكر سيرته

كان أميراً فاضلاً، عالماً، متأدّباً، جواداً، عالي الهمّة جدّاً، سَمْحاً إلى الغاية، كبير النفس.

وأمّه أمّ إخوته بنت شهاب الدين بن الشيخ شرف الدين أبي سعد بن عُصرون. وكانت أرضعت الملك الكامل، فكان هؤلاء الأربعة: فخر الدين - وهوأكبرهم وأعلمهم - وعماد الدين، ومعين الدين، وكمال الدين، إخوة الملك الكامل من الرضاعة، فرُبّوا معه وتقدّموا عنده، ونالوا من السعادة في أيامه كلّها ما لا مَزِيد عليه.

وقد تقدّم أنّ عماد الدين قُتل بدمشق غِيلةً[٧].

---

(١) الخبر باختصار في: السلوك ج١ ق٢/٣٥١.

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب) ورقة ٣٦٦ب.

(٣) السلوك ج١ ق٢/٣٥١.

(٤) هكذا في الأصل. وفي الدر المطلوب ٣٧٧ «بكلاب الفرنج».

(٥) ما بين القوسين ليس في (ب).

(٦) من هنا ليس في (ب).

(٧) مفرّج الكروب ٥/ ٢٠٠، ٢٠١، الدر المطلوب ٣٧٤.

وتُوُفّي معين الدين، وهو وزير الملك الصالح ومقدّم جيوشه بعد فتحه لدمشق بأيام[١].

وكمال الدين كان قد قدّمه الملك الصالح على جيشٍ ومضى للقاء الملك الناصر داود، فكسره الملك الناصر، ثم مَنّ عليه وعلى أصحابه وأطلقهم، وتُوفي بعد رجوعه إلى مصر بقليل[٢].

وقد ذكرنا تقديم الملك الصالح لفخر الدين على الجيوش وقيامه بتدبير المملكة بعده[٣]. فما زال سعيداً في أيام حياته، وخُتم له بالسعادة، فحصلت له سعادة الدنيا والآخرة، رحمه اللّه ورضي عنه.

وكان معمَّماً في أول أمره، ثم ألزمه أن يخلع العمامة ويلبس الشَّرَبُوش[٤]، فأجابه إلى ذلك، فأقطعه بلداً يقال له مُنية السودان، ثم طلب منه أن ينادمه، فأجابه إلى ذلك، فأقطعه شُبرا.

فقال ابن البَطْريق: وكان شاعراً مُجيداً، صحِب السلطان الملكَ المظفَّر لما كان بمصر عند خاله الملك الكامل.

على مُنية السودان صار مُشَرْبَشاً وأعطوه شُبرا
عندما شرب الخمرا

فلو ملكت مصرَ الفرنجُ وأنعـ ـموا عليه بيبوس تنصّر بالأخرى

وقال فيه، وفي عماد الدين أخيه.

وكان يذكر الدرس بالمدرسة/ ٨٢ب/ التي بناها الملك الكامل إلى جانب ضريح الشافعيّ، رحمه اللّه.

ولد الشيخ في العلوم وفي الإمرة بالمال وحده والجاهِ
فأميرٌ ولا قتال عليه وفقيه والعلم عند اللّهِ

وقال في عماد الدين:

جاءني الشافعيّ عند رُقادي وهو يبكي بحُرقةٍ وينادي

---

(١) توفي (معين الدين) في سنة ٦٤٣هـ. (مفرّج الكروب ٥/ ٣٤٩) وهو: الحسن بن محمد بن عمر بن علي، انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٣هـ.) ص١٥٩، ١٦٠ رقم ١٦٢ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(٢) توفي (كمال الدين) في سنة ٦٤٠هـ. (مفرّج الكروب ٥/ ٣٠١) وهو: أحمد بن محمد بن عمر بن علي. مقدّم الجيوش الصلاحية. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٠هـ.) ص٤٢٧ رقم ٦٣٨ وفيه مصادر ترجمته.

(٣) مفرّج الكروب ٥/ ٣٧٩.

(٤) مفرّج الكروب ٥/ ١٦٥.

عمّروا قُبّتي لعَمْري ولكنْ هدموا مذهبي بفقه العمادِ

وقال شرف الدين بن عنين فيهم:

أولاد شيخ الشيوخ قالوا ألقابنا كلّها مُحالُ

لا فخر فينا ولا عماد ولا معين ولا كمالُ

ولقد كذبا كِلاهما، فإنّ هؤلاء الأربعة كانوا سادات زمانهم، وإنما الشعراء شأنهم الهجْر والغضّ من الأكابر، ومن الذي يسلَم لسانهم؟

وكان ابن[1] البطريق هذا قد استوزره الملك المظفّر وهو بمصر، وكان يذهب مذهب الإمامية، وله في صعوده إلى قلعة الجبل كلّ يوم، وأنه لا يحصل في صعوده على طائل.

لي على الريق كل يوم عيونٌ وأمورٌ أغصّ منها بريقي

أقصد القلعة الخراب كأنّي من حجارة المنجنيقِ

فثيابي تبلى وحيلي يحفى هذه قلعة على التحقيق

وكان جمال الدين يحيى بن مطروح قصد الاجتماع بالصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ مرةً، فقيل له إنه يزور ضريح الإمام الشافعيّ، رحمه اللّه، فقصده ووجده واجتمع به، فقال:

زرتُ الإمامَ الشافعيّ ولم أكن لزيارتي يوماً له بالتارك

فوجدت مولانا الوزيرَ يزوره فظفرت عند الشافعيّ بمالكي

وكانت لهم مع الإقطاعات الكثيرة مناصبُ شرعية، منها/ ١٨٣أ/ المدرسة بالقرافة التي بناها الملك الكامل إلى جانب ضريح الشافعيّ، ومنها المدرسة التي إلى جانب الضريح الذي فيه رأس الحسين عليه السلام بالقاهرة، ومنها خانكاه سعيد السعداء التي هي أمام دار الوزارة. ولم تزل هذه المناصب لهم إلى أن ماتوا كلهم. وكانت بعد ذلك لولديْ عماد الدين وكمال الدين مدّة، ثم انتُزعتْ منهما، ولم يكن لفخر الدين إلّا بنت واحدة)[2].

ذِكر وصول الملك المعظّم

(بن الملك الصالح نجم الدين أيوب)[3] إلى المعسكر بالمنصورة

ولما تواترت الأخبار بقرب الملك المعظّم، (قال صاحب التاريخ)[4] خرج أولاً

---

(١) في الأصل: «وكان بن».

(٢) إلى هنا ينتهي النقص من النسخة (ب) ورقة ٣٦٦ب، وأول النقص من العنوان «ذكر سيرته».

(٣) ما بين القوسين من (ب) ورقة ٣٦٦ب.

(٤) ما بين القوسين من (ب) ورقة ٣٦٦ب.

القاضي بدر الدين إلى لقاء الملك المعظّم، فلقيه بغزّة. ثم خرج الأمير حسام الدين نائب السلطنة إلى لقائه، وخرجتُ في صُحبته، فإنه كان في أيام الملك الصالح، رحمه اللّه، يعدُني بأنه إذا وصل إلى أبيه، أن يجمع بيني وبينه، لِما يعلمه منه من محبّة الفضيلة والاجتماع بالعلماء، فوصلنا إلى الصالحية، فنزلنا بها، ثم ركبنا منها يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة، فلقيناه على مسافةٍ قريبة من الصالحية، فأهوى الأمير حسام الدين إلى الترجُل، فمُنِع من ذلك، وساق الملك المعظّم إليه وعانقه، وأقبل عليه إقبالاً عظيماً، وأشار إليّ حسام الدين بتقبيل يد السلطان، فترجّلت وتقدّمت إليه، وقبّلت يده، وأثنى عليّ حسام الدين عنده ثناءً كثيراً، فأقبل عليّ وأمرني بالركوب، فركبت، وساق السلطان، وعن يمينه الأمير حسام الدين، وعن يساره القاضي بدر الدين.

وحكى لي بعد النزول في المنزلة حسامُ الدين أنّ القاضي بدَر الدين قال له: ما رأيت أحداً مثل مولانا السلطان في فضله، وعلمه، وذكائه، وبراعته في جميع الفنون.

ثم/ ٨٣ب/ نزل الملك المعظّم في قصور والده بالصالحية[١]، وجاءه من العسكر جمعٌ كثير من الأمراء ومماليك والده، ومن يومئذٍ وقع التصريح بموت الملك الصالح.

وكانت مدّة كتمان موته نحو ثلاثة أشهر، كات الخطبة فيها للملك الصالح، وبولاية العهد للملك المعظّم.

وسيرّ في ذلك اليوم خلعةً سنيّة تامّة للأمير حسام الدين، وسيفاً[٢] مُحلّى بالذهب، وفرساً[٣] من أجوَد الخيل، بسَرْجٍ مُحلّى بالذهب، وثلاثة آلاف دينار[٤]، فلبس الخلعة، وقبّل حافر الفرس.

ورحل الملك المعظّم من الغد، وحسامُ الدين لابس الخلعة، وهو عن يمينه، والقاضي بدر الدين عن يساره، إلى أن وصلنا إلى المنزلة المعروفة بمنزلة حاتم[٥].

([٦] وفي ذلك اليوم بعد العصر تقدّم إليّ حسامُ الدين أن أحضر بابَ الدِهليز، فحضرتُ وحسامُ الدين على باب الدّهليز يتوضأ لصلاة العصر، فتقدّم إليّ بأن أدخل الدِهليز، فدخلتُ، فوجدتُ في الدِهليز الخطيبَ فخرَ الدين بن القاضي عماد

(١) الدر المطلوب ٣٧٦، السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٢.
(٢) في الأصل: «وسيف».
(٣) في الأصل: «وفرس».
(٤) السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٣، تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٨هـ.) ص٣٩٠.
(٥) في الأصل: «خاتم»، والمثبت من (ب) ورقة ٣٦٧أ.
(٦) من هنا يبدأ النقص في (ب) ورقة ٣٦٧أ.

الدين بن السُّكّريّ، وهو خطيب جامع القاهرة، ومدرّس مدرسة منازل العزّ بمدينة مصر، وهي وقف الملك المظفّر تقيّ[١] الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب.

وكان أبوه[٢] في أيام الملك العادل الكبير قاضي قضاة الديار المصرية، وفي داخل الدِهليز الخطيبُ أصيلُ الدين الأسعِرديّ، وهو أحد أئمّة السلطان الملك الصالح، رحمه اللّه، ولم يكن السلطان حاضراً.

ثم خرج السلطان وجلس على طُرّاحته، وقام جمال الدين بن الخشّاب، وهو أحد شعراء مصر، وأنشد قصيدةً مدح السلطان بها، وهنّأه بمَقْدَمه، وهي هائيّة، علق بخاطري منها يومئذٍ بيتٌ واحد، وهو:

بكم بني أيوب أهل العُلى يكسر دين الشِرْك دينُ الإله[٣])[٤]

/ ٨٤أ/ ثم أقبل السلطان علينا. وذكر الخطيب ابن[٥] نُباتة[٦]، (وكان)[٧] أراد بذلك مشاكَلَةَ الخطيبين: [ابن] عماد الدين، والأصيل الدين[٨]، فإنهم[٩] خطيبان، فلم ينطقا، إذ لم يكن عندهما فضيلة توجب لهما النُطق.

فقلت أنا: إنّ بعض الناس قد أورد على الخطيب بن نُباتة في قوله: الحمد للّه الذي إذا وعد وفى، وإذا أوعد تجاوز وعفا، وكأنه نظر إلى قول الشاعر:

وإنّي إذا أوعدتُه أو وعدتُه لمُخلِفُ إيعادي ومُنجز[١٠] موعدي

---

(١) في الأصل: «بقي».

(٢) اسمه عبد الرحمن بن عبد العليّ بن علي، أبو القاسم عماد الدين المصري الشافعي المعروف بابن السكري. ولد سنة ٥٥٣ وتولّى القضاء سنة ٦٠٥ وتوفي سنة ٦٢٤هـ. انظر عنه في: نزهة النظار ١٩١، ١٩٢، ورفع الإصر عن قضاة مصر ٣٤٠، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٢٤هـ.) ص١٩٧، ١٩٨ رقم ٢٤٦ وفيه حشدنا مصادر أخرى.

(٣) في الأصل: «الالاه».

(٤) هنا ينتهي النقص بين القوسين من (ب) ورقة ٣٦٧أ.

(٥) في الأصل: «بن».

(٦) هو عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نُباتة الخطيب المشهور، صاحب ديوان الخطب، أبو يحيى. ولد سنة ٣٣٥ وتوفي سنة ٣٧٤هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٣٧٤هـ.) ص٥٥٩ وفيه مصادر ترجمته.

(٧) كتبت فوق السطر.

(٨) هكذا في الأصل. وهو: أصيل الدين الإسعردي.

(٩) الصواب: «فإنهما».

(١٠) في (ب) ورقة ٣٦٧أ «مخلف».

وهذا، وإنْ كان مدحاً في حقّ البشر، لكنّه لا يكون مدَحاً في حقّ اللّه تعالى، فإن الخُلف في كلام اللّه تعالى مُحالٌ عقلاً، فأعرض عنهما، وأقبل عليّ بوجهه وقال: أليس أنّ اللّه يعفو[(١)] بعد الوعيد؟

قلت: يا خَوَنْد هذا حقّ، لكنّه وعيده يكون عامّاً، فإذا عفا عن شخصٍ من المتواعدين[(٢)] علم أنه ما أراد بذلك العموم ذلك الشخص، فأمّا إذا توعّد شخصاً بعينه بأنه يعاقبه، فلو لم يعاقبه لزم الخُلفُ في خبره، وهو مُحالٌ.

فأعجبه ذلك، وأخذ يجاذبني في أشياء من علم الكلام وغيره. وكان له فيه نظر حَسَن[(٣)].

وانتقل الحديث إلى فنّ الأدب فتكلّم[(٤)] فيه كلاماً حسناً، ورجّح أبا تمّام على المتنبّي، وأشار إلى حسام الدين وقال: الأمير حسام الدين يوافقني على ترجيح أبي تمّام على المتنبّي. ولم يزل بقية ذلك اليوم يجاذبني في هذا وأمثاله إلى أن كادت الشمس تغرُب، ثم قام وانصرف إلى خيامنا، فقال لي الأمير حسام الدين: كيف ترى السلطان؟

فقلت: في غاية ما يكون من الفضيلة والاستحضار للعلوم.

فقال: قد كنتُ أخبرتك بهذا.

ولما أصبحنا رحلنا إلى منزلة أخرى يقال [لها][(٥)] تِلْبَانَة[(٦)].

/ ٨٤ب/ ثم رحلنا إلى مرحلةٍ أخرى قريبةٍ من المنصورة.

ثم كان الوصول إلى المنصورة يوم الخميس لسبع[(٧)] بقين من ذي القعدة، وتلقَّتْه الأمراء والبحرية والجَمْدارية مماليك أبيه، واستقرّ في قصر أبيه[(٨)]، فلو أحسن

---

(١) في الأصل: «يعفوا».

(٢) في الأصل: «من المتوادعين» وهو غلط، والتصحيح من تاريخ الإسلام ٣٩٠.

(٣) العبارة في (ب) ورقة ٣٦٧أ مختلفة، نصّها: «وإنما يعفو اللّه تعالى من لم يخبر أنه يعاقبه، وأمّا من أخبر أنه يعاقبه فلا بدّ وأن يعاقبه واللانام (!) أن يخبره مطابقاً للمخبر عنه، وهذا محال. وانجرّ البحث في هذا إلى أشياء كثيرة، وانتقل البحث إلى مسائل أدبية وبحث في ترجيح أبي تمّام على المتنبّي، وغير ذلك من الفنون، وكانت عبارته رحمه اللّه غزيرة، وعنده استحضار لمسائل كثيرة من العلوم. ولم نزل ذلك الوقت نجاري في العلوم إلى أن كادت الشمس تغرب». وانظر: تاريخ الإسلام ٣٩٠.

(٤) في الأصل: «فيكلم».

(٥) إضافة من (ب).

(٦) تلبانة: قرية صغيرة بمركز منية القمح من مديرية الشرقية، واسمها أيضاً تلبانة ديري تمييزاً لها من تلبانة عدي من ناحية المرتاحية. (الخطط التوفيقية ٩/ ١٤٠).

(٧) هكذا في الأصل. وفي (ب) ورقة ٣٦٧ب، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٥٣ «لتسع».

(٨) تاريخ النوادر ٣/ ٤٢ب، تاريخ الملك الأشرف قايتباي ٥٣، السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٣، تاريخ الإسلام ٣٩٠.

إليهم وسلك معهم ما كان أبوه يسلكه من البرّ بهم، والتقريب لهم، والإحسان إليهم لنَصَرَوه وشدّوا من أزره وعاضدوه، ولكنّه اطّرَحَهم بالكلّية وجفاهم، وقدّم عليهم من لا يصلحُ للتّقدّم عليهم، ففسدت أحواله، كما فسدت أحوال عمّه الملك العادل بعد أبيه الملك الكامل.

ثم ركب الملك المعظّم بالعساكر إلى قبالة الفرنج، وناوشهم القتال، وحاصرهم في منزلتهم التي نزلوها. وكان يمدّ السّماط العامَّ كل يوم، ويحضر سِماطه الأمراءُ والأكابر من المعمّمين وقدّم إلى العسكر جماعة من العلماء، منهم الشيخ العلّامة عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام.

وكان الملك الصالح قد ولّاه تدريس مدرسته التي أنشأها بين القصرين، بعد وفاة القاضي أفضل الدين الخُونَجِيّ، والقاضي بهاء الدين بن الجُمَّيْزيّ[١]، رحمه اللّه، وهو من أكابر العلماء المفتين القائمين بعلم المذهب، وكان معظّماً عند الملك الكامل وولديه العادل والصالح. وكان إليه تدريس الزاوية التي كان الشافعيّ، رحمه اللّه، يُقرىء العلم فيها، **ووُلّيتُها أنا في أيام الملك الظاهر ركن الدين في سنة ثمانٍ وخمسين وستماية، مضافةً إلى الجامع الأقمر، وقضاء الجزيرة، والأطفيحية، على ما سيأتي ذِكره.**

والشيخ العلّامة سراج الدين الأُرمَويّ، إمام وقته في الفقه، والمنطق، والعلوم العقلية. وكان يومئذٍ معيداً بالمدرسة التي أنشأها الملك الكامل بقرب ضريح الشافعيّ، رحمه اللّه.

/ ٨٥أ/ والشريف عماد الدين العباسيّ السلمانيّ، مدرّس المدرسة الصلاحية بسوق الغَزْل.

والقاضي عماد الدين بن القُطْب[٢]، وهو يتولّى الحكم بمصر وما معها من الأعمال بعد موت أفضل الدين. وقد ذكرنا ذلك.

وكان في العسكر فخر الدين بن السُّكّري[٣]، وأصيل الدين الخطيب الإسعِرديّ[٤]، فاجتمع هؤلاء وغيرهم من الذين نذكرهم[٥] من أهل الفضل والأدباء والشعراء في المعسكر السلطاني، لأنهم وجدوا بالملك المعظّم سوق الفضيلة نافقة،

---

(١) مهملة في الأصل و(ب) ورقة ٣٦٧ب. والتصحيح من: نزهة النظار ١٩٥.

(٢) مفرّج الكروب ٥/ ٣٣٠ و٣٣٢.

(٣) مفرّج الكروب ٥/ ٢٤٢.

(٤) مفرّج الكروب ٥/ ٢٥١ ووقع فيه: «الأشعردي» بالشين المعجمة.

(٥) في الأصل: «يذكرهم».

فكانوا يحضرون السِّماطَ ويُجاريهم[١] السلطان في العلم ويباحثهم.

وحضرتُ عنده يوماً وهو يسأل عن قوله عليه السلام: «نِعمَ العبدُ صُهَيْبٌ[٢] لو لم يخَفِ اللّهَ لم يَعْصِه[٣]». ومعلوم أنّ «لو» لمّا كان معناها امتناعُ الشيء لامتناع غيره، كان مُقتضى ذلك أن يكون المنفيّ والمثبَت منفيًا[٤]. ويلزم على ذلك أن يكون صُهَيب خاف اللّه وعصاه، وليس المراد ذلك.

فأجبت عنه بأنّ «لو» لها معنيان، **أحدهما**: هذا، **والثاني**: محض الاشتراط، وهو المراد من الحديث، والمراد أنه على تقدير عدم الخوف من اللّه لا يكون منه معصية. وبطريق الأولى أنه إذا كان منه خوفٌ كانت المعصية أَولى بعدم الوقوع منه، فكان الملك المعظّم، رحمه اللّه، بعد ذلك يُثني عليّ وعلى الشريف عماد الدين السلماني خاصّةً، لأنّه اتفقت له معه مباحثات وأسئلة[٥] سألها الملك المعظّم، فأجاب عنها الشريف بأجوبةٍ حَسَنة.

ولم أزل ملازماً مجلسَه إلى أن دخلتُ مع حسام الدين إلى القاهرة، وعزمت على تأليف كتابٍ باسمه والعَود إليه، فقطع عن ذلك ما سأذكره.

ذِكر وقوع أسطول المسلمين على أسطول
/ ٨٥ب/ الفرنج وقطع الميرة عنهم وضعف الفرنج

لما استقرّ الفرنج بمنزلتهم كانت تأتيهم الميرة من دمياط في بحر النيل، فعمد المسلمون إلى مراكب شحنوها بالمقاتلة، وكانوا قد حملوها على الجمال إلى بحر المحلّة، وألقوها فيه، وفيه ماء من أيام زيادة النيل واقف، لكنّه متّصل بالمنْيَل[٦]، فلما حاذت[٧] مراكب الفرنج وهي مُقلعة من دمياط بحر المحلّة، وفيها المراكب المُكْمِنة للمسلمين، خرجت عليها المراكب من بحر المحلّة.

ووقع القتال بين الفريقين، وجاءت أساطيل المسلمين منحدرةً من جهة

---

(١) في الأصل: «ويحاربهم».

(٢) هو: الصحابيّ صُهَيب بن سنان الروميّ. توفي سنة ٣٨هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ـ بتحقيقنا ـ ص٥٩٧ ـ ٦٠٠ وفيه حشدنا الكثير من مصادر ترجمته.

(٣) الحديث موضوع. انظر: موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ـ إعداد محمد السعيد بن بسيوني زغلول ـ دار الفكر، بيروت ١٩٩٤ ـ مجلّد ١٠/ ٥٤.

(٤) في الأصل: «منفنا». والعبارة في (ب) ورقة ٣٦٧ب: «وقادة لو أن المثبت بعدها يكون منفياً والمنفي مثبتا».

(٥) في الأصل: «اسولة».

(٦) في (ب) ورقة ٣٦٨أ «بالنيل».

(٧) في (ب): «جاوزت»، وفي السلوك: «جاءت».

المنصورة، والتقى الأسطول والمراكب التي كانت مُكْمِنة، وأحاطوا بهم، وأخذوهم أخذاً باليد. وكانت عدّة المراكب المأخوذة من الفرنج اثنين[١] وخمسين مركباً، وقُتل وأُسِر ممّن فيها نحو ألف رجل، وأخذ ما فيها من الميرة، ثم حُملت الأسرى على الجِمال وقُدِم بهم إلى العسكر، وانقطعت الميرة بسبب ذلك عن الفرنج، ووهنوا وهناً عظيماً[٢].

وكنت أنا يومئذٍ بالمنصورة، فركبت مع القاضي عماد الدين بن القُطْب قاضي مصر، والشريف عماد الدين، وهو صهره زوج أخته، ووقفنا في البرّ الغربيّ الذي فيه أولاد الملك الناصر وأخواه، ويُجاز[٣] إليه من برّ المنصورة في جسرٍ عظيم من مراكب، عند قرية تُسمَّى جوجَر[٤]، وبيننا وبين منزلة الفرنج بحر النيل، وحجارة المنجنيق تقع[٥] من جهتهم إلى جهة أساطيل المسلمين.

وكان يوماً مشهوداً أعزّ اللّه فيه الإسلام وأوهَى قوى أهل الشِرك، واشتدّ من يومئذٍ عندهم الغلاء وعُدمت الأقوات، وبقوا محصورين لا يستطيعون المُقام ولا الذهاب، واستضرى[٦] عليهم المسلمون وطمعوا فيهم.

وفي مستَهَلّ ذي الحجّة أخذ الفرنج من المراكب المسلمين[٧] التي هي في بحر المحلّة سبع حراريق وهرب/ ٨٦أ/ من فيها من المسلمين.

وفي ثاني ذي الحجّة تقدّم الملك المعظّم إلى الأمير حسام الدين بالدخول إلى القاهرة، والمقام بدار الوزارة، جارياً في ذلك على عادته في نيابة السلطنة.

وخلع عليّ وعلى جماعة من الفقهاء[٨] الذين وردوا إلى خدمته، ووصل إحسانه إلى كلّ من ورد بابه.

وكان دخولنا إلى القاهرة بعد يومين.

---

(١) هكذا في النسختين. وفي السلوك: «اثنتين».

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٣، ٣٥٤، الدرّة المضية ٣٧٨.

(٣) في الأصل: «تجاز».

(٤) جوجر: من القرى القديمة، على الضفة الغربية للنيل قرب طلخا. (القاموس الجغرافي، لمحمد رمزي ق٢ ج٢/ ٨٦).

(٥) في الأصل: «يقع».

(٦) في الأصل: «استصرى»، وفي (ب) ورقة ٣٦٨أ «استظري»، والضبط من السلوك.

(٧) هكذا. والصواب: «من مراكب المسلمين».

(٨) ذكرهم المقريزي، وهم: الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وبهاء الدين بن الجميزي، والشريف عماد الدين، والقاضي عماد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة اللّه بن إسماعيل بن نبهان بن محمد بن المقنشع الحموي قاضي مصر، وسراج الدين الأرموي. (السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٤).

وفي يوم الإثنين لتسع مضَين من ذي الحجّة، وهو يوم عَرَفَة، خرجت شواني المسلمين على مراكب وصلت للفرنج تحمل الميرة، فالتقوا عند مسجد النصر، فأخذت شواني المسلمين من مراكب الفرنج اثنين[(١)] وثلاثين مركباً، منها تسع شواني، فازداد عند ذلك ضعف الفرنج ووهنهم، وقوي الغلاء عندهم. وعند ذلك شرعت الفرنج في مراسلة المسلمين، وطلبوا الهدنةَ منهم. ووصلت رُسُل الفرنج، فاجتمع بهم الأمير زين الدين أمير جاندار، وقاضي القضاة بدر الدين [السنجاري][(٢)] فطلب الفرنج أن يسلّموا إلى المسلمين ثغرَ دمياط، على أن يأخذوا بدل ذلك بيتَ المقدس، وبعض الساحل، فلم تقع[(٣)] الإجابة إلى ذلك[(٤)].

وفي يوم الجمعة لثلاثٍ بقين من ذي الحجّة، أحرقت[(٥)] الفرنج أخشابهم كلّها وأقبّوا[(٦)] مراكبهم، وعزموا على الهرب إلى دمياط، وخرجت هذه السنة وهم مقيمون بمنزلتهم في مقابلة المسلمين[(٧)].

ذِكر ما تجدّد في هذه السنة بالشرق

كانت نصيبين قد صارت مشتركة بين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والملك السعيد صاحب ماردين، ولكلّ واحدٍ منهما فيها والٍ، فوقع بين الولدين[(٨)] تنازع أدّى إلى خروج بدر الدين لؤلؤ إلى نصيبين، فاستولى عليها[(٩)]، ثم سار إلى رأس عين، وبها عسكر لصاحب ماردين كانوا قد توجّهوا لإنجاد السلطان/ ٨٦ب/ الملك الناصر على عسكر السلطان الملك الصالح صاحب مصر، لما كان محاصراً بحمص.

---

(١) هكذا في النسختين. وفي السلوك «اثنتين».
(٢) إضافة من: السلوك.
(٣) في الأصل: «فلم يقع».
(٤) تاريخ النوادر ٣/ ورقة ٤٢ب، الدرّ المطلوب ٣٧٨.
(٥) هكذا في النسختين. والصواب: «أحرق».
(٦) في (ب) ورقة ٣٦٨ب «وأبقوا». وفي السلوك: «وأتلفوا».
(٧) خبر وقوع أسطول المسلمين في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٣، ٣٥٤.
(٨) في الأصل: «الوالدين» وهو غلط.
(٩) كان ذلك في سنة ٦٤٦هـ. فقد قال ابن شداد: «أقطع الملك الناصر صلاح الدين نصيبين لصاحب ماردين ولصاحب الموصل... فسار إلى نصيبين صاحب ماردين الملك السعيد نجم الدين إيلغازي في سنة ثلاث وأربعين واستولى عليها، وبقيت في يده إلى أن وصل الشيخ نجم الدين الباذرائي، رسول الدين العزيز المستعصمي، وأصلح بين صاحب الموصل وصاحب ماردين على أن تكون نصيبين على القاعدة التي قررها الملك الناصر، صاحب حلب، في سنة خمس وأربعين». (الأعلاق الخطيرة ج٣ ق١/ ١٣٧، ١٣٨) ثم نقض بدر الدين لؤلؤ هذه القاعدة، وقصد نصيبين واستولى عليها، وأخذ عسكر صاحب ماردين، وذلك في سنة ستّ وأربعين. (ج٣ ق١/ ١٣٨).

فلما وقع الصلح بين الملك الناصر والملك الصالح عادوا، فوقع عليهم بدر الدين لؤلؤ فنهبهم وأخذ خيولهم، وقبض على مقدّمهم، ثم عاد إلى دُنَيْسَر، ونقل ما بها من الغلال إلى نصيبين، وخرّب دُنَيسر حتى لم يبق قائماً سوى الجامع، على ما قيل.

وبلغ ذلك الملكَ الناصر يوسف صاحب حلب، رحمه اللّه، فجهّز العسكر من حلب، وقدِم عليهم عمّ أبيه الملك المعظّم تورانشاه بن صلاح الدين، فساروا إلى ماردين وتأهّبوا للقاء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان نازلاً بنصيبين، وقد عمّر قلعتَها في مدّةٍ قريبة، وهو مهتمّ في جمع العساكر وتجنيدهم. وبينما هم كذلك إذ ورد رسول الخليفة المستعصم باللّه ليُصلح بينهم، وطلب من بدر الدين تسليم دارا إلى صاحب ماردين، فأجاب إلى ذلك، ولم يبق إلّا انتظام الصلح[١].

ثم إنّ بدر الدين رجع عن ذلك، فوقع بين الفريقين مُصَافٌّ بظاهر نصيبين، فوقعت الكسرة على بدر الدين فهزموه[٢] الحلبيّون والملك السعيد هزيمة قبيحة، واستولى على خيامه وسُرادقه وخزائنه، ونزلت العساكر إلى نصيبين، ففتحوا قلعتها بالأمان، ورتّبوا فيها الولاة، ثم ساروا إلى دارا فنازلوها، ونصبوا عليها المجانيق، وحاصروها مدّة ثلاثة أشهر، ثم ملكوها وأخربوها. ثم توجّهت فرقة من عسكر حلب إلى قرقيسيا[٣] فملكوها. ثم عاد العسكر الحلبيّ إلى حلب، وصاحب ماردين إلى بلده.

---

(١) الأعلاق الخطيرة ج٣ ق١/ ١٤٣، ١٤٤، شفاء القلوب ٤١٢.

(٢) في الصواب: «فهزمه».

(٣) في الأصل: «قرقيسا»، والمثبت من (الأعلاق الخطيرة ج٣ ق١/ ١٥١) وهي قصبة كورة الخابور، عند مصب نهر الخابور في الفرات.

٦٤٨هـ

ودخلت سنة ثمانٍ وأربعين وستماية

والحال على ما ذكرناه من ضيق الأمر على الفرنج وعزمهم على الهرب إلى دمياط (وقد أحرقوا أخشابهم وأقبوا مراكبهم)[١].

/ ١٨٧أ/ ذِكر هزيمة الفرنج واستئصالهم قتلاً وأسراً وأسر ملكهم

ولما جرى ما ذكرناه، وعِيل صبرُ الفرنج، ولم يبقَ لهم لفَرْط الجوع وانقطاع المادّة صبرٌ على المقام، تأهّبوا للهرب.

ولما كانت ليلة الأربعاء لثلاث ليالٍ مَضَيْن من المحرّم، وهي الليلة الغرّاء المُسفِرة عن النصر العظيم والفتح الأكبر، رحل الفرنج بفارسهم وراجلهم، متوجّهين إلى دمياط، ليمتنعوا بها، وأخذت مراكبهم في الانحدار في بحر النيل قبالتهم عقد المسلمون إلى برّهم، وركبوا أكتافهم واتبعوهم.

وطلع الصباح من يوم الأربعاء المذكور، وقد أحاط بهم المسلمون، وأخذتهم سيوفهم، واستولوا عليهم قتلاً وأسراً، ولم يَسلَم منهم إلّا الشاذّ. فذُكر أنّ عدّة القتلى يومئذٍ بلغت ثلاثين ألفاً. وكان للبحرية والجَمْدَاريّة مماليكِ الملك الصالح في هذه الوقعة القدح المُعَلّى، والحظ الأوفر الأوفى.

وانحاز الملك ريدافرنس الملعون، والأكابر من أصحابه إلى تلّ هناك، فوقفوا به مستسلمين، طالبين الأمان، فأتاهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي، فأمّنهم، فنزلوا على أَيْمانٍ، وأُحيط عليهم، ومضوا[٢] بريدافرنس وبهم إلى المنصورة، وضُرب في رجْل ريدافرنس القيد، واعتُقل في الدار التي كان نازلاً بها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان، ووكّل به الطواشي صبيح المعظّمي، وهو أحد خدّام الملك المعظّم تورانشاه، وكان خِصّيصاً به، وقدِم في صُحبته من حصن كيفا، فقدّمه وأعلى شأنه وعظّمه، ([٣] وجعله أمير جانداره، وكذا قدّم واحداً من أصحابه يقال له الطّوريّ[٤].

---

(١) ما بين القوسين ليس في (ب) ورقة ٣٦٩أ. وقد وردت هذه العبارة قبل قليل.

(٢) في (ب) ورقة ٣٦٩ب: «ومضى».

(٣) من هنا يبدأ النقص في (ب) ورقة ٣٦٩ب.

(٤) في السلوك ج١ ق٢/٣٥٦ «سيف الدين يوسف بن الطودي».

وكذلك قدِم معه من حصن كيفا رجل كرديّ، فقيه، يُقال له شمس الدين الكتبي[١]، كان قاضياً بحصن كيفا، فأكرمه. وضرب له خيمةً/ ٨٧ب/ بالقرب من دِهليزه، فكان الناس يتحدّثون أنه يعزل قاضي القضاة بدر الدين قاضي القاهرة، والقاضي عماد الدين بن القُطب الحموي قاضي مصر، ويجمع الإقليمين بهذا الكرديّ. واشتهر ذلك.

وكذلك عظُم شأن كاتب إنشائه النَّشْو المصريّ، وكان أسلم على يده عند دخول الرمل. واشتهر أنّ الوزارة تكون[٢] له. وكان هذا شابّاً، حَسَن الصورة، حَسَنَ المحادثة.

وحين كنّا بالمنصورة كان يتردّد فيما بين السلطان والأمير حسام الدين. وكان الأمير يعرفه لما كان أتابكاً للملك المعظّم بآمِد، وهو من أهل مصر، وله أقارب بها، وكان جيّد الإنشاء، واتّصل بعد قتل الملك المعظّم بالسلطان الناصر، وصار أحد كتّاب إنشائه بدمشق)[٣].

وفي هذه الواقعة، (وفي اعتقال ملك الإفرنج ريدافرنس في دار فخر الدين بن لُقمان، وتوكيل الطواشيّ صَبِيح به، قال)[٤] الصاحب جمال الدين (يحيى)[٥] بن مطروح، رحمه اللّه:

قُل للفرنسيس إذا جئتَهُ	مقال حقّ عن قَؤول[٦] نصيح
آجَرَكَ اللّهُ على ما مضى[٧]	من قتل عُبّاد يسوع المسيح
أتيتَ مصراً تبتغي مِلْكَها[٨]	تحسب أنّ الزمر بالطبل[٩] ريح

(١) مهملة في الأصل. ولم تذكره المصادر لنتحقّق من صحته.

(٢) في الأصل: «يكون».

(٣) إلى هنا ينتهي النقض من (ب) الورقة ٣٦٩ب.

(٤) ما بين القوسين زيادة من (ب) ورقة ٣٦٩ب.

(٥) من (ب).

(٦) في الأصل: «قول». والمثبت من (ب).
وفي تاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٨هـ.) ص٥١:
مقال صدق من قؤول فصيح
وفي السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٣ «مقال نصح».
وفي تاريخ ابن سباط ١/ ٣٥٢ «صحيح».

(٧) في (ب) ورقة ٣٦٩ب: «ما جرى» ومثله في السلوك.

(٨) في (ب) ورقة ٣٧٠أ «أخذها».

(٩) في المختصر لأبي الفداء، والسلوك: «يا طبل». وفي تاريخ الإسلام: «والطبل»، والمثبت يتفق مع تاريخ ابن سباط ١/ ٣٥٢.

فساقَكَ الحَيْنُ[١] إلى أدهم[٢] ضاق به[٣] عن ناظريك الفسيح
وكلّ أصحابك أوردتهم[٤] بحُسن تدبيرك بطنَ الضّريح
خمسون ألفاً[٥] لا يُرى[٦] منهمُ إلّا قتيلٌ أو أسيرٌ جريح[٧]
وفّقك اللّه لأمثالها[٨] لعلّ عيسى منكُمُ يستريح
إن كان بابكم[٩] بدا راضياً فرُبّ غشٍّ قد أتى من نصيح
وقل لهم إنْ أضمروا[١٠] عودةً لأخذ ثارٍ أو لقصد صحيح[١١]
دارُ ابنِ لُقمان على حالها والقيدُ باقٍ والطُّواشي صَبيح[١٢]

ولما جرى ذلك رحل الملك المعظّم والعساكر إلى جهة دمياط، ونزلوا بفارس كور، وهي من أعمال دمياط، وضُرب بها دِهليز السلطنة، ونُصب/ ٨٨ب/ إلى جانبه بُرج خشب كان يصعد إليه في بعض الأوقات[١٣].

وسُيّرت البشائر إلى مصر والقاهرة ودمشق وسائر البلاد.

وأقام الملك المعظّم متراخياً عن قصد دمياط، فلو أسرع الوصول إليها والنزولَ

---

(١) في (ب): «الحمق».
(٢) في (ب): «موضع».
(٣) في (ب): «له».
(٤) في تاريخ الإسلام، والسلوك: «أودعتهم»، والمثبت يتفق مع: المختصر لأبي الفداء، وتاريخ ابن سباط.
(٥) في تاريخ الإسلام: «تسعين ألفاً»، وفي السلوك: «سبعون ألفاً». والمثبت يتفق مع المختصر، وتاريخ ابن سباط.
(٦) في تاريخ الإسلام: «لا ترى».
(٧) في تاريخ الإسلام: «إلا قتيلاً أو أسيراً أو جريح». وفي المختصر، وابن سباط «غير قتيل..».
(٨) في السلوك: «ألهمك اللّه إلى مثلها».
(٩) في السلوك: «إن يكن الباب».
(١٠) في السلوك: «أزمعوا».
(١١) في تاريخ الإسلام: «لأخذ الثأر أو لعقد صحيح». وفي السلوك: «أو لفعل قبيح»، وفي (ب) ورقة ٣٧٠أ «أو لهد صحيح». والمثبت يتفق مع المختصر، وابن سباط.
(١٢) راجع الأبيات في: المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٨٢، والدر المطلوب ٣٨٤، ٣٨٥، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٢١، ٢٢٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٨هـ) ص٥١، ٥٢، وعيون التواريخ ٢٠/ ٣٨، ٣٩، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٦١، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٦٣، ٣٦٤، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٧٠، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٥٢، ٣٥٣، والإعلام والتبيين ٦١، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٨٢، ٣٨٣، وعقد الجمان (١) ٣٠، ٣١.
(١٣) السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٦.

عليها، وطلب تسليمها من الملك ريدافرنس الذي هو في قبضته، لحصل ذلك في أقرب الأوقات، لكنْ أقعده عن ذلك سوء التدبير الذي اقتضاه ما سبق من المقادير.

وفي يوم الجمعة لخمسٍ مَضَين من المحرّم ورد على الأمير حسام الدين بن عليّ مرسوم الملك المعظّم بأنْ يَقْدَمَ عليه.

واستناب الملك المعظّم في نيابة السلطنة الأمير جمالَ الدين آقُش النجيبي[١]، الصالحيّ، أحد أمراء الملك الصالح، فر(حّله)[٢] حسام الدين من القاهرة متوجّهاً إلى العسكر بفارس كور، وقال لي عند سفره، وكان قويّ الحَدْس، فطِناً، لوذعيًّا: إعلم أنّ هذا الصّبيّ ـ يعني الملك المعظّم ـ لا بدّ أن يجري عليه ما جرى لعمّه الملك العادل، من القبض عليه والاستبدال به، فإنّ قرائن أحواله، وما يعتمده في نفسه، يُشبه ما جرى لعمّه، وما يتمّ له أصلاً أمر. وسافر ونزل بفارس كور، ولم يحتفل به الاحتفال الذي يليق به، بل كان لا يجتمع به إلّا وقت السّماط، ولا يشاوره في أمرٍ من الأمور. وكذلك كان حاله مع أمراء أبيه الأكابر كلهم. وكذلك اطّرح مماليك أبيه الجَمْداريّة والبحرية، وخصوصاً مقدَّمهم فارس الدين أقطاي الجَمْدار، الذي توجّه إليه إلى آمِد، وأحضره إلى مقرّ ملكه.

وكان وعده بأن يُقْطِعه إسكندرية، فلم يفِ له بذلك ولا أرضاه[٣].

وكان عنده جماعة من أعيان الأمراء كان أبوه يعتَمد عليهم، ويُعلي منازلهم، مثل سيف الدين القَيمُريّ، وعزّ الدين القيمُريّ، وفخر الدين (حسين)[٤] بن أبي زكري، والأمير فخر الدين بن حشترين، وغيرهم.

/ ٨٨ب/ ولم يكن عزّ الدين من القيمُرية أنفسهم، وإنّما كان من أتباعهم فنُسب إليهم، وكذا كان عنده من الأمراء الأكابر الذين طال صُحبتهم لأبيه، مثل شهاب الدين بن كمشا، واسمه سعد الدين، كان ابن أخت الملك العادل الكبير، ومثل زين الدين أمير جاندار، وشهاب الدين الغرس، فهؤلاء كلّهم اطّرحهم وأعرض عنهم، وكانوا ملازمين وطاقاتهم، ولا يراهم إلّا وقت السّماط العامّ، وإذا رُفع السّماط رجعوا إلى مخيّمهم، وإنما كانت ملازمته لأقوام قدِموا معه من الحصن، لم يكن لهم في أنفُس الناس وقْعٌ، وإنما أراد أن يحدّد لهُ دولته في باديء الأمر، قبل أن يستحكم أمره، ويستقرّ في كرسيّ مُلكه في قلعته. وأبوه لما أراد تحديد دولةٍ له إنّما فعل ذلك

---

(١) مهملة في الأصل. والتحرير من: السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٨.

(٢) كتبت فوق السطر.

(٣) السلوك ج١ ق٢/ ٣٥٨.

(٤) من (ب) ورقة ٣٧٠ب.

بالتدريج، وفي مدّة طويلة، ولكنّ اللّه تعالى إذا أراد أمراً هيّأ أسبابه. وانضاف إلى ذلك أمور أخرى، منها أنه قيل إنه أراد أن يرسل فارس الدين أقطاي إلى الموصل، ثم يتقدّم بهلاكه، وغير ذلك مما كثُرت الأقاويل فيه، فاستوحشت البحرية منه، وخافوا على أنفسهم، فكان ما سنذكره[١].

ذكر مقتل الملك المعظّم غياث الدين (توران شاه)[٢] بن الملك الصالح رحمه اللّه

ولما جرى ما ذكرناه من تغيُّر قلوب البحرية، وإبعاده لأمراء أبيه وخواصّه، وتقديم الأراذل عليهم، اتّفق جماعةٌ من مماليك أبيه على قتله.

فلما كانت بُكرة يوم الإثنين، لليلة، بقيت من المحرّم، من هذه السنة ـ أعني سنة ثمانٍ وأربعين وستماية ـ مُدّ السِّماط العام في دِهليزه على ما جرت به العادة، وأكل الناس/ ٨٩أ/ بين يديه، وأكل معهم. ولما رُفع السِّماط، وتفرّقت الأمراء إلى وطاقاتهم، نهض من مجلسه طالباً للدخول إلى خيمةٍ له ليختلي[٣] بنفسه، دخل عليه ركن الدين بيبرس، المعروف بالبُنْدُقداريّ، وهو أحد جَمْداريّة أبيه، وهو الذي ملك البلاد بعد ذلك، على ما سنذكره، وتلقّب بالملك الظاهر، (وكان مملوكاً لأمير علاء الدين أيدكين البُنْدُقدار، أحد مماليك السلطان الملك الصالح وأمرائه الكبار الذين كانوا في صُحبته بالشرق، وثبتوا معه لما فارقه الناس، وأقاموا عند الملك الناصر داود، حتّى خرج الملك الصالح من الاعتقال، ودخلوا معه ديار مصر وأسرهم.

واتفق أنّ الملك الصالح كان غضب على علاء الدين هذا مرّةً واعتقله، وأخذ مماليكه، ورُكن الدين هوأحدهم، فصار جَمداراً له،)[٤] فجذب سيفه، وحمل على الملك المعظّم، فضربه بالسيف، فوقعت الضربة بين إصبعين من أصابع الملك المعظّم، فجرحته جرحاً خفيفاً. ورمى ركن الدين بيبرس السيفَ من يده رُعباً وهرب، ورجع الملك المعظّم، وجلس على طراحته، واجتمع بين يديه أصحابه والبحرية، فقالوا: أيّ شيء جرى؟

فقال: جرحني بعض البحرية.

فقال له بعضهم: ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية.

فقال: ما فعل بي هذا إلّا البحرية.

---

(١) النص باختصار في (ب) ورقة ٣٧٠ب، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٥٨.
(٢) من ب.
(٣) في الأصل: «ليتخلو».
(٤) ما بين القوسين ليس في (ب)، ورقة ٣٧٠ب.

فخافت البحرية منه حينئذٍ واستشعروا.

ثم قام وصعِد برج الخشب الذي إلى جانب دِهليزه، وأُحضِر الجرائحيّ ليداوي يده، وشرب شراباً، فاجتمعت البحرية، وخافوا منه على أنفسهم، وعلموا أنه بعد ذلك لا يستبقيهم. وقصدوا قتله. وانضمّ هذا إلى ما في أنفسهم منه، فجذبوا سيوفهم وأحاطوا بالبرج، (ومقدّمهم المشار إليه فارس الدين أقطاي، وهو الذي ذهب إليه إلى حصن كيفا، وقاسى المشاقّ الشديدة حتّى أوصله/ ٨٩ب/ إلى كرسي مُلكه. وكان راجياً منه أن يكون أقرب الناس إليه، وأنه يُقْطعه الإسكندرية)[١]. ففتح الملك المعظّم طاقات البرج، واستغاث بالناس، فلم يُجبْه أحد، ولم يأت أحدٌ من الأمراء لنُصرته، لأنّ الجميع كانت قلوبهم نافرةً منه (وأيضاً فخافوا على أنفسهم، لأنّ البحرية كانوا مستعدّين، وكانوا شوكة قويّة، وفي غاية ما يكون من الشجاعة.

ثم أحضروا ناراً ليحرقوا بها البرج، وناداه فارس الدين: إنزِلْ فما عليك بأس، وإن لم تنزل وإلّا أحرقنا البرج. فنزل من البرج. وكانت قد طالت محاصرتهم للبرج.

ولما بلغ الأميرَ حسامَ الدين الخبرُ ركب هو وطلْبُه، وركبا القيمُرية وأطلابُهم[٢]، وخافت البحرية أن يأتيهم الأمراء، ولا يتمّ لهم أمر، فأرسلوا إلى حسام الدين، وإلى الأمراء يقولون لهم: إنه قد قُتل وانفصل الأمر، فلا تقيموا فتنة تُودي[٣] إلى هلاك الإسلام، فتوقّفوا.

وكان رسول الخليفة بالعسكر فركب، فألزموه أن يرجع إلى خيمته، وتوعّدوه بالقتل إنْ لم ينزل.

وكان رجال الطبلخاناه قد شرعوا في ضرب الكوسات[٤]، ليركب الحلقة والعسكر، فتوعّدوهم إن لم يقصُروا عن ذلك، فأقصروا.

ولما نزل الملك المعظّم إليهم اعتنقه فارس الدين أقطاي ـ على ما بلغني ـ

---

(١) ما بين القوسين ليس في (ب)، ورقة ٣٧١ب.

(٢) الأطلاب: مفردها: الطُلْب، من التطلب أو المطلّب: لفظ عاميّ درج على ألسنة الناس في عصر المماليك، معناه الحضور بمجموعة من فرق الجند إلى أماكن الاحتفالات على هيئة مخصوصة (معجم المصطلحات ١٠٨).

(٣) في الأصل: «يودي».

(٤) الكوسات: بلغة الجمع. مفردها كوسة. وهي صنوج من نحاس تشبه الترس المدوَّر الصغير، يُدق بإحداهما على الأخرى بإيقاع مخصوص، وهي من ضمن الآلات الموسيقية التي عرفها العرب في العصر الإسلامي. (انظر: صبح الأعشى ٤/ ٩ و١٣، وزبدة كشف الممالك لابن شاهين ١١٣، ومعجم المصطلحات ٣٧٣).

واستجار به الملك المعظَّم وقال: الذي وعدْتك به من إقطاعك إسكندرية أنا مقيمٌ عليه، وأفعل معك كلّما[1] تريد.

فلم يثق بقوله)[2]، وقصده حينئذٍ ركن الدين بيبرس مرّةً ثانية، وبيده السيف فمرّ يعدو[3] إلى جهة بحر النيل، وفيه الشواني ليعتصم بأحدها. ورآه الذين في الشواني، فقصدوا جهة البرّ ليحملوه في أحدها، ولو أدركها لخلّص./ ٩٠أ/ فاتّبعه ركن الدين، فضربه بالسيف فقتله، (وبقي مطروحاً على جانب البحر يومين، لا يجسر أحدٌ أن يتقدّم إليه. فجاء جماعة من الفقراء فعدّوا به إلى البرّ الغربيّ، فدفنوه به، رحمه الله)[4].

(وكان شابًّا ما أظنّه كان استكمل ثلاثين سنة، ولم أُحِطْ عِلماً بتاريخ مولده.

وكان مدّة ملكه لمصر شهرين وأياماً[5])[6].

---

(١) هكذا في الأصل. والمراد: «كل ما».

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب) ورقة ٣٧١ب.

(٣) في الأصل: «يعدوا».

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب) ورقة ٣٧١ب.

(٥) ما بين القوسين ليس في (أ) وهو من (ب) ورقة ٣٧١ب.

(٦) انظر عن (تورانشاه) في:

مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٨١ ـ ٧٨٣، وذيل الروضتين ١٨٥، ومذكرات جوانڤيل (ترجمة د. حسن حبشي) ١٣٩، ١٤٠ و١٦٣ ـ ١٦٥، وتاريخ مختصر الدول ٢٦٠، وتاريخ الزمان ٢٩٤، ٢٩٥، وأخبار الأيوبيين ١٦٠، وتلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب لابن الفوطي ٢٤٦، ٢٤٧، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٨١، والنور اللائح والدر الصادح ـ بتحقيقنا ـ ٥٦، والدر المطلوب ٣٨١ ـ ٣٨٣ ونهاية الأرب ٢٩/ ٣٥٩ ـ ٣٦٢، وتاريخ النوادر ٤/ ١٤٣، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٩٣ ـ ١٩٦ رقم ١١٤، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٨هـ.) ص٣٨٦ ـ ٣٩١ رقم ٥٠٣، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٠، والعبر ٥/ ١٩٩، ٢٠٠، ودول الإسلام ٢/ ١٥٤، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٢٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٣، ١٨٤، ومرآة الجنان ٤/ ١١٧، ١١٨، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨/ ١٣٤ ـ ١٣٦، رقم ١١٢٣، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٧٦، وفوات الوفيات ١/ ١٦٣ ـ ١٦٥ رقم ٩١، وعيون التواريخ ٢٠/ ٤٣، والوافي بالوفيات ١٠/ ٤٤١ ـ ٤٤٣ رقم ٤٩٣٣، ومآثر الإنافة ٢/ ٩٣، والنفحة المسكية ـ بتحقيقنا ـ ص٣٨، والجوهر الثمين ٢/ ٤٠ ـ ٤٣، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٦٠، ٣٦١، ونزهة الأنام ١٩٣، والمقفى الكبير ٢/ ٦٢٥ رقم ١٠٣٧، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٦٠، ٣٦١، وعقد الجمان (١) ٢٣ ـ ٢٨، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٦٤ ـ ٣٧٢ و٧/ ٢٠، وشفاء القلوب ٤٢٦ ـ ٤٣١ رقم ١٢٥، والدليل الشافي ١/ ٢٣٠ رقم ٨٠٢، والمنهل الصافي ٤/ ١٨٣، ١٨٤ رقم ٨٠٤، وسمط النجوم العوالي ٤/ ١٤، ١٥، ونزهة الأساطين ٦٣، ٦٤ رقم ٨، ووفيات الأعيان ١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٩ رقم ١٢٧، وتحفة الناظرين للشرقاوي (على هامش فتوح الشام للواقدي) ١/ ١٧٠، ١٧١، ومختار الأخبار لبيبرس المنصوري ٨، ومنتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والعلماء والأعيان لابن الحريري ٣٤٠، ٣٤١، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٤٩، ٣٥٠، وبدائع =

ذِكر سيرته رحمه اللّه

كان فاضلاً، مشاركاً في فنون كثيرة من العلم والأدب، لكنّ حظّه كان قليلاً، وأدركتْه حِرفة الأدب كما أدركت عبدَ اللّه بن المعتزّ، والملك الأفضل بن صلاح الدين، والملكَ الناصر داود بن الملك المعظّم.

وكان فيه مع ذلك هَوج[١]، وعدم ثبات في الأمور، ولم يُحسِن السيرةَ في مماليك أبيه وأمراء دولته، وجرّ هذا التدبير السَّيء عليه من هلاكه، مثل ما جر على عمّه الملك العادل، حتّى قبض عليه الأشرفية والخدّام، وملكّوا أخاه الملك الصالح. والكلّ بتقدير اللّه سبحانه. لكنْ أجرى اللّه سبحانه عادته بأنّ لكلّ مقدَّرٍ سبباً.

وكنت لما توجّه حسامُ الدين إلى العسكرَ تأخرت عنه، حتّى صنعتُ باسم الملك المعظّم كتاباً بديعاً في الهيئة، سمّيته «النُخبة الملكيّة في الهيئة الفلكيّة»، وضممتُ إليه تاريخاً كنت ألّفته باسم الملك الصالح[٢]، رحمه اللّه، سُقْتُ فيه أخبار الأنبياء عليهم السلام، والخلفاء، والملوك، وآخره دخول الملك الصالح دمشق لما قدِم إليها من الشرق سنة ستّ وثلاثين وستماية.

وتوجّهت إلى المعسكر، والكتابان معي، لأقدّمهما للملك المعظّم يوم الأحد لليلتين بقيتا من المحرّم، وذلك قبل مقتله بيومٍ واحد، فبِتّ بقليوب، ثم رحلت منها يوم الإثنين إلى مَرصَفا، وهي ضيعة كبيرَة من الضياع/ ٩٠ب/ الجارية في إقطاع الأمير حسام الدين بن أبي علي، فبتُّ بها ليلة الثلاثاء، ولا عِلم لي بما جرى، لكنّي كنت مستشعراً في نفسي بما كان حسام الدين قاله لي، وهو أنه لا بدّ أن يجري عليهم من وثوب العسكر به ما جرى لعمّه الملك العادل، فكانت نفسي تحدّثني به.

فأصبحتُ يوم الثلاثاء متوجّهاً إلى العسكر، فلقيني شخص من الناس، وقال:

= الزهور ج١ ق١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٥، وتاريخ الأزمنة للدويهي ٢٢٩، ٢٣٠، وشذرات الذهب ٥/ ٢٤١، ٢٤٢، وأخبار الدول للقرماني (الطبعة المحققة، بيروت) ٢/ ٢٦٢، ٢٦٣ و٣٩٧، وتاريخ الملك الأشرف قايتباي ٥٤.

وقال ابن خلكان: توران: بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وبعدها راء ثم بعد الألف نون، وهو لفظ أعجمي. وشاه: بالشين المعجمة، هو الملك باللغة العجمية، ومعناه ملك الشرق، وإنما قيل للمشرق توران لأنه بلد الترك، والعجم يسمون الترك تركان ثم حرّفوه فقالوا: توران. (وفيات الأعيان ١/ ٣٠٩).

(١) في (أ): «هرج»، والمثبت من (ب).

(٢) هو الكتاب المعروف بالتاريخ الصالحي، وهو مخطوط في جزءين بمكتبة الفاتح. استانبول، رقم ٤٢٢٤، وفي مكتبتنا نسخة مصورة عنه.

احتفظ على نفسك ودوابّك، فارتعْتُ لهذا القول، وتقدّمتُ إلى (سـ)[١] فقلت لأهلها: هل بلغكم خبرٌ عن العسكر؟

فقالوا: بَلَغَنا أنه وقع خُلفٌ بين الحلْقة والبحرية، فزاد ارتياعي، وتقدّمتُ إلى قرب بلدةٍ على البحر، يقال لها مُنْية العنبريّ، فوجدتُ كُردياً من الأجناد قد جاء من العسكر يريد القاهرة، وهو يبكي، فسألته عن الخبر. فقال: قُتل السلطان أمس، فاسترجعتُ، وعظُم ذلك عليّ وخفْت إنْ تقدّمت أن تُقطَع[٢] عليّ الطريق، فرجعتُ إلى جهة القاهرة فوصلتُها آخر النهار[٣].

ذِكر عقد السلطنة لشجر الدرّ زوجة الملك الصالح وقيام عزّ الدين التركماني بأتابكيّة العسكر

ولما جرى من قتْل الملك المعظّم ما ذكرناه، اجتمعت الأمراء والبحرية عند دِهليز السلطان، وتحدّثوا في الذي يقيمونه في أتابكية[٤] العسكر بعد اتفاقهم، على أن تكون شجر الدرّ والدة خليل بن الملك الصالح هي القائمة بأمر السلطنة والمُلك، وأنّ التواقيع السلطانية تخرج باسمها، وعلامتها. وعرضوا الأتابكية على الأمير حسام الدين، وقالوا له: إنّ السلطان الملك الصالح كان يعتمد عليك، فأنت أحقّ/ ٩١أ/ بهذا الأمر. فامتنع من ذلك، وأشار أن يكون الطواشي شهاب الدين (رشيد)[٥] الكبير هو القائم بهذا الأمر، فعرضوا ذلك عليه فامتنع، فعرضوا ذلك على الأمير خاص تُرْك الكبير. وكان من أكابر أمراء الصالحية، فلم يفعل، فوقع الاتفاق على عزّ الدين أيبك[٦] التُركماني الصالحيّ، فحلَفَت الجماعة لشجر الدرّ بالسلطنة، ولعزّ الدين بالأتابكية، والقيام بأمر العسكر، وورد إلى القاهرة الأمير عزّ الدين الرومي الصالحيّ، فصعِد إلى القلعة، وأُنهي ذلك إلى الملكة والدة خليل، وصارت الأمور كلها معذوقة[٧] بها. وصارت التواقيع تبرز من جهتها، وعليها علامة بخطّها صورتها «والدة

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل. وهي ليست في (ب).

(٢) في الأصل: «يقطع».

(٣) رواية المؤلف عن نفسه، هنا، مختصرة في (ب) ورقة ٣٧٢أ.

(٤) أتابك: لفظ تركي مركب، من «أتا» بمعنى «أب» أو الشيخ المحترم، و«بك» بمعنى الأمير، استخدم لقباً لمربّي ومراقب أبناء ملوك السلاجقة، وأول من حمل هذا اللقب نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي سنة ٤٦٥هـ. وتطوّر مدلول هذا اللقب في العصر المملوكي ليطلق على أمير الجيش وقائده. (حدائق الياسمين لابن كنان ١١٣).

(٥) الاستدراك من (ب) ورقة ٣٧٢ب.

(٦) في الأصل: «أبيك».

(٧) معذوقة = معدوقة: اسم مفعول من فعل عدق، ومعناه: جمع. (لسان العرب).

خليل »، وخُطب لها بالسلطنة بالقاهرة ومصر وسائر الديار المصرية[١].

وهذا أمرٌ لم نعرف أنه جرى مثله في الإسلام قبل ذلك. وأمّا الحُكْم والتّصرّف فقد جرى مثله لضيفة خاتون[٢] بنت الملك العادل بحلب وبلادها، بعد وفاة ولدها الملك العزيز، إلى أن تُوُفّيت، وكانت الخطبة بالسلطنة لابن ابنها الملك الناصر، رحمه اللّه.

(قال: ولما قُتل الملك المعظّم بن الملك الصالح بقي مطروحاً على ساحل البحر لا يجسر أحد يتقدّم إليه، فعدّى بعض الملّاحين من الجانب الغربيّ، ودفنه في برّ الغرب)[٣].

ذكر فتح دمياط

ولما حلف الأمراء والأجناد، واستقرّت القاعدةُ على ما ذَكَرنا، شرعوا في الحديث مع الملك ريدافرنس المأسور في تسليم دمياط إلى المسلمين، وجعل المتحدّث في ذلك الأمير حسام الدين بن أبي علي لاتّفاق الجماعة على الاقتداء برأيه ومَشُورته، ولِما يعلمونه من معرفته، واعتماد مخدومهم السلطان الملك الصالح عليه، فجرت بينه وبين ريدافرنس محاورات، حتّى وقع الاتفاق على تسليم دمياط، وأن يذهب بنفسه ومن معه/ ٩١ب/ من الملوك والأكابر سالمين.

(قال القاضي جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ)[٤]: وحكى لي حسام الدين عنه أنه كان فطِناً عاقلاً.

قال: إنّي قلت له في بعض محاورتي له: كيف خطر للملِكِ مع ما أرى من عقله وفضله وصحّة ذهنه أن يقدم على خشبٍ، ويركب متْنَ هذا البحر، ويأتي إلى هذه البلاد المملوءة من عساكر الإسلام، ويعتقد أنه يحصل لها تملّكها، وفيما فعل غاية الغرر بنفسه وأهل ملّته.

فضحك ولم يُحِرْ جواباً.

فقلت له: إنه قد ذهب بعض فقهاء شريعتنا، أنّ من ركب هذا البحر، مرةً بعد أخرى، مغرّراً بنفسه وماله، إنه لا تُقبَل شهادته إذا شهِد، لأنه يُستدلّ بذلك على ضعف عقله، ومن كان ضعيف العقل لا تُقْبل شهادته.

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦١، ٣٦٢، تاريخ النوادر ٤/ ٤٣أ، تاريخ مختصر الدول ٢٥٩، النور اللائح ٥٦، الدر المطلوب ٣٨٣، تاريخ الملك الأشرف قايتباي ٥٥.

(٢) توفيت (ضيفة خاتون) في سنة ٦٤٠هـ. انظر عنها في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٠هـ.) ص٤٣٧ رقم ٦٥٩ وفيه مصادر ترجمتها.

(٣) ما بين القوسين زيادة من (ب) ورقة ٣٧٢ب.

(٤) زيادة من (ب) ورقة ٣٧٣أ.

قال: فضحك، وقال: لقد صدق هذا القائل، وما قصّر فيما حكم به.

قلت: والمختار من مذهبنا، إنْ تكرّر ركوبُ البحر لا ترد به الشهادة، لأنّ الغالب في ركوب البحر السلامة.

ولنا وجهان: فيما إذا لم يمكن الحجّ إلاّ بركوب البحر، هل يجبّ الحجّ أحدَهما؟ لا، لِما في ركوب البحر من الخطر والتغرير بالنفس.

والثاني: نعم، لأنّ الغالب إنّما هو السلامة[١].

ولما وقع الاتّفاق بين المسلمين وريدافرنس على تسليم دمياط، أرسل ريدافرنس إلى من بدمياط يأمرهم بتسليم البلد إلى المسلمين، فأجابوا إلى ذلك بعد امتناع ومراجعاتٍ بينه وبينهم، ودخل العَلَمُ السلطانيّ إلى دمياط يوم الجمعة، لثلاثٍ مضينَ من صفر مِن هذه السنة، أعني سنة ثمانٍ وأربعين وستماية، ورُفع العلم السلطانيّ على سورها، وأعلِن فيها بكلمة الإسلام.

وأُفرج عن ريدافرنس، وانتقل هو وأصحابه إلى الجانب الغربيّ، ثم ركب البحر غداء هذا اليوم، وأقلع هو وأصحابه إلى عكا/ ١٩٢/ وأقام بالساحل مدّةً، وعمّر قيسارية. ثم رجع إلى بلاده، وطهّر اللّه الديار المصرية منهم[٢].

وكانت هذه النصرة أعظم من النُصرة الأولى، أعني التي كانت في سنة ثمان عشرة وستماية في أيام الملك الكامل[٣] بأضعافٍ مضاعفة، لكثرة من قُتل منهم وأُسِر، وامتلأت الحبوس بالقاهرة من الفرنج. ووردت البشائر بذلك إلى سائر بلاد الإسلام، وأُعلِن فيها بالفرح والسرور.

(ولما رجع ريدافرنس إلى بلاده لم يزل مقيماً بها إلى بعد سنة ستّين وستماية، فجمع جموعاً كبيرة، وأراد قصد بلاد الإسلام مرة ثانية، فقيل له: إنْ قصد ديارَ مصر ربّما جرى له ما جرى له في المرة الأولى.

---

(١) قارن بالدر المطلوب ٣٨٤.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٢، ٣٦٣.

(٣) خبر دمياط في سنة ٦١٨هـ. راجعه في: الكامل في التاريخ ـ بتحقيقنا ـ ج١٠/ ٣١٠، والتاريخ المنصوري ٩٢، ٩٣، وذيل الروضتين ١٢٨ ـ ١٣٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٣٦، ٢٣٧، وتاريخ الزمان ٢٦١، ٢٦٢، ومفرّج الكروب ٤/ ٩٢ ـ ١٠٦، والمختصر من الكامل في التاريخ وتكملته ـ بتحقيقنا ـ ص١٢٥، وأخبار الأيوبيين ١٣٤، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٢٩، ١٣٠، والدر المطلوب ٢٠٩ ـ ٢١٥، ونهاية الأرب ٢٩/ ١١٣ ـ ١١٨، ودول الإسلام ٢/ ١٢٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦١٨هـ.) ص٥٥ ـ ٥٧، والعبر ٥/ ٧٢، ٧٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٤٢، ١٤٣، ومرآة الجنان ٤/ ٣٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٩٥، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٤٩، ٣٥٠، والعسجد المسبوك ٢/ ٣٩، وفيه إشارة إلى أنه سيذكر الخبر فيما بعد، فسها ولم يذكره، والسلوك ج١ ق١/ ٢٥٩، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٧٧، ٢٧٩، وتاريخ الأزمنة ٢١٢.

وقيل له: إنّ الأَوْلى أن يقصد تونس من بلاد إفريقيّة، وكان ملكُها يومئذٍ محمد بن يحيى بن عبد الواحد بن عمر[١]، وكان يلقّب «المستنصر باللّه»، ويُدعى له على منابر إفريقيّة بالخلافة، وإنه إنْ ظهَرَ عليه ومَلَك إفريقيّة تمكّن من قصد مصر في البرّ والبحر، وكان تملّكها عليه سهلاً.

فقصد تونس في عالم عظيم من الفرنج، ونزلها وضايقها وكاد أن يستولي عليها. وكان معه جماعة من الملوك، فأوقع اللّه تعالى في عسكره وباءً عظيماً، فهلك ريدافرنس[٢]، لعنه اللّه، وجماعةٌ من الملوك الذين معه، ورجع الباقون من تونس خائبين، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾[٣]. ووصلت البُشرى بذلك إلى مصر في أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، فسيّر البُشرى بذلك إلى سائر البلاد.

ووردت إلى السلطان المنصور، قدّس اللّه روحه، البُشرى بذلك، وأنا يومئذٍ في خدمته بحماه. ووقفتُ على كتاب البشرى/ ٩٢ب/ الوارد إليه بذلك، إلّا أنّي لا أحقّق أيَّ سنةٍ هي تلك السنة)[٤].

ذكر رجوع العسكر إلى القاهرة وما تجدّد من الأحوال[٥]

ولما فُتحت دمياط، (ورحل ريدافرنس، رحلت العساكر متوجّهةً إلى القاهرة، فدخلوها وقد ضُربت البشائر بها أياماً متوالية لنصرة المسلمين على الفرنج، واسترجاع ثغر دمياط، وهي عقيلة الإسلام، وثغر الديار المصرية. وكانت هذه ثانية لأخذ الكفّار لها، واسترجاعها منهم، وانصرافهم مكسورين مفلولين، وكان دخول العساكر المنصورة إلى القاهرة)[٦] يوم الخميس لتسعٍ مضَين من صفر.

وتوجّه إلى دمشق الخطيب أصيل الدين الإسعِرديّ، وهو أحد أئمّة الملك الصالح، رحمه اللّه، رسولاً لاستحلاف الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة بدمشق، والأمراء الذين معه[٧].

(وكان بها جماعة من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب،

---

(١) توفي سنة ٦٧٥هـ. وهو الأمير الهنتاني، البربري، الموحّدي. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٧٥هـ.) ص٢٠١ ـ ٢٠٣ رقم ٥ وفيه مصادر ترجمته.

(٢) في سنة ٦٦٩هـ. (السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٥).

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢٥.

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب) ورقة ٣٧٣ب.

(٥) العنوان ليس في (ب).

(٦) ما بين القوسين ليس في (ب).

(٧) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٦.

وجماعة أمراء (من)[١] غيرهم، منهم: ناصر الدين القَيْمُري، وضياء الدين القَيْمُريّ - وكان سيف الدين القيمُريّ بالديار المصرية)[٢].

ولما قدِم أصيل الدين إلى دمشق طلب من الأمراء اليمينَ لشَجَر الدر والدة خليل بالسلطنة، ولعزّ الدين التُركمانيّ بالأتابكية وتقدمة العساكر[٣]. وطلب إقامة الخطبة لوالدة خليل، فَمَغْلَطَه جمال الدين، ولم يُجبْه إلى ذلك.

وتقدّمت المكاتبات من القيمُرية إلى السلطان الملك الناصر صاحب حلب يستدعونه للقدوم عليهم، ليسلّموا إليه دمشق[٤].

وفي يوم الإثنين لثلاث عشرة ليلةٍ خَلَت من صفر، خُلع على الأمراء بالقاهرة، وأُعطوا النفقة[٥].

[استيلاء الملك السعيد على غزّة]

وورد في هذه التاريخ الخبرُ بأنّ الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل قد أخذ ما في غزّة من المال وهرب[٦].

وكان الملك السعيد هذا له قلعة الصُبَيبة التي عند بانياس، مَلَكَها بعد وفاة أخيه الملك الظاهر[٧] بن الملك العزيز، كما تقدّم ذِكره. ثم بعد ذلك أعطاها لابن عمّه السلطان الملك الصالح، فأعطاه الملك الصالح خبزاً بالديار المصرية، وأقام في خدمته حتّى تُوُفّي الملك الصالح، وخدم ابنَه الملك المعظّم.

فلما قُتل الملك المعظّم بفارس كور هرب الملك السعيد إلى غزّة، وفعل ما ذكرناه، فاحتيط على داره بالقاهرة.

/ ١٩٣أ/ ثم إنّ نواب الملك الصالح بالصُبَيبة سلّموها إلى الملك السعيد فَمَلَكَها.

ثم كان من آخر أمره ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

---

(١) كتبت على الهامش.

(٢) ما بين القوسين ليس في الأصل، واستدركناه من (ب) ورقة ٣٧٣ب.

(٣) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٧.

(٤) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٦، ٣٦٧.

(٥) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٦.

(٦) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٦.

(٧) في الأصل: «القاهر»، والتصحيح من (ب) ورقة ٣٧٤أ، وهو: غازي بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب. قُتل سنة ٦٥٩هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٩هـ.) ص٣٩٢ رقم ٥٠٠ وفيه مصادر ترجمته.

ذِكر استيلاء الملك المغيث (فتح الدين عمر)[١] بن الملك العادل بن الملك الكامل على الكرَك والشَوْبك

كنّا قد ذكرنا أنّ الأمير حسام الدين بن أبي علي لما بلغه أنّ فخر الدين بن شيخ الشيوخ ربّما أخرج الملكَ المغيثَ، فتحَ الدين، عمر بن الملك العادل بن الكامل، وملّكه الديار المصرية، وكان عند عمّاته القُطبيّات، أصعده حسام الدين إلى قلعة الجبل، واعتقله بها[٢].

فلما ورد الملك المعظّم إلى المنصورة أمر به، فحُمل إلى شَوْبك فاعتُقل بها.

فلما قُتل الملك المعظّم أخرجه الأمير بدر الدين الصوابي الصالحي، وكان نائب الملك الصالح بالكرَك، وكانت الشوبك مضمونة إليه. وملّكه البلدين: الكرَك والشَوْبك،

وقام بتدبير دولته[٣]. ولم يزل مالكاً لها إلى أن جرى ما سنذكره إن شاء اللّه.

ذِكر مسير السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز إلى دمشق وتملكّه لها

كان قد ورد على السلطان الملك الناصر كتابُ الملك المعظّم يبشّر فيه بانتصاره على الفرنج، واعتقاله ريدافرنس، فضُربت البشائر بحلب. ثم بعد أيام ورد عليه الخبر بقتْله، وأردف ذلك وصولُ رُسُل القيمُرية بدمشق يستدعونه إلى وصولهِ إليهم، ليسلّموا إليه دمشق. فخرج السلطان الملك الناصر من حلب متوجّهاً إلى دمشق، فوصل إليها، وأحاطت بها العساكر يوم السبت لثمانٍ مضَين من شهر ربيع الآخر/ ٩٣ب/ من هذه السنة ـ أعني سنة ثمانٍ وأربعين وستماية ـ ثم زحف إليها يوم الإثنين لعشرٍ مضين من شهر ربيع الآخر، ففتحتْ له القيمُرية باب البلد، فدخل الملك الناصر وأصحابه دمشق، ومَلَكها صَفْواً عفْواً بغير مُمانعة ولا قتال، وخلع على الأمير جمال الدين بن يغمور والقَيْمُريّ وأحسن إليهم، وقبض على جماعةٍ من الأمراء المصريّين مماليك الملك الصالح واعتقلهم، واستقرّت قدمه في ملك دمشق[٤].

وكان أصيل الدين الإسعرديّ رسول المصريّين بدمشق، فلم يتعرّض له، وسار إلى مصر.

---

(١) الزيادة من (ب) ورقة ٣٧٤أ.
(٢) مفرّج الكروب ٥/ ٣٨٠.
(٣) الدر المطلوب ٣٨٥.
(٤) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٧.

وعصت على الملك الناصر بَعْلَبَكّ[١]، وعجلون، وصرخد، وشُمَيْميس مدّة. ثم سلّم ذلك كلّه إليه.

وكان لما وصلت الأخبار بخروج الملك الناصر من حلب لقصد دمشق، اجتمعت الأمراء والأجناد بقلعة الجبل، وجُدّدت عليهم الأَيْمان لوالدة خليل، والأمير عزّ الدين التركمانيّ.

ثم دارت النُقَباء على الأجناد بالخروج من القاهرة، والمسير إلى الشام، وذلك يوم الخميس لستٍّ مَضَيْن من شهر ربيع الآخر.

وفي يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الآخر تقدّم إلى الأمير حسام الدين بأن يسير بالعساكر إلى الشام مقدَّماً عليها.

ثم وردت الأخبار يوم الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر بأنّ الملك الناصر وعسكره قد نازلوا دمشق، فوقع الحثّ في القاهرة على خروج العساكر ليدركوا دمشق قبل أن يملكها[٢] الملك الناصر، ويدفعوه عنها[٣].

ذِكر القبض على جماعةٍ من الأمراء بالقاهرة

ولما كان يوم الأحد لتسع بقين من شهر ربيع الآخر، وردت الأخبار إلى القاهرة بأنّ الملك الناصر قد ملك دمشق، واستقرّ/ ١٩٤أ/ بقلعتها، وأنّ القيمُرية هم الذين كانوا كاتبوه واستدعوه، فملّكوه دمشق، وأنّهم فتحوا له باب البلد، وسلّموا إليه، وأنه قبض على خُشْداشيهم[٤] الأمراء الصالحية واعتقلهم، فعظُم ذلك على الأمراء الصالحية والبحرية الذين ليسوا بتُرك من الأكراد وغيرهم ويعتقلوهم[٥] خوفاً منهم أن يُداخلوا عليهم، كما فعلت القيمُرية بدمشق، فركب من المماليك جماعة، ونزلوإلى دار سيف الدين القيمُري، فقبضوا عليه، وحملوه إلى القلعة، واعتقلوه بها. ثم قبضُوا على عزّ الدين القيمُري، وعلى جماعة من الأمراء.

ووقع الاضطراب في القاهرة، وخاف الأمير حسام الدين على نفسه، فجاء جماعةٌ من الحجّاب إليه، وقالوا له: إنّ الأمير عزّ الدين يسلّم عليك، ويقول لك إن

(١) الدر المطلوب ٣٨٥، المختصر لأبي الفداء ٣/ ١٨٣، مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٨٠، نهاية الأرب ٢٩/ ٣٦٨.
(٢) في الأصل: «تملكها».
(٣) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٧.
(٤) خُشداش: فارسية معرّبة، معناها: الزميل في الخدمة.
(٥) هكذا في الأصل.

حكمك ما يجري مجرى حكم غيرك، لأنك كبير دولة أستاذنا الملك الصالح، فلْيَطْمئنّ قلبك، ولا تنزعج[١] لِما جرى.

ثم قبضوا على القاضي نجم الدين بن شمس قاضي نابلس وعلى كل من اتُّهِم بالمَيْل إلى الملك الناصر[٢].

([٣] وكنّا قد ذكرنا أنّ تاج الدين، المعروف بابن بنت الأعزّ، كان الأمير حسام الدين قد تشكّره[٤] عند الملك الصالح، فولّاه نظر الدواوين بالصُحبة.

وكان الشيخ عَلَم الدين قيصر[٥] ناظراً في الدواوين المصرية، فتغيّر عليه الأمير حسام الدين بن أبي عليّ. فلما قدِم الملك المعظّم إلى المنصورة تحدّث حسام الدين مع الملك المعظّم في عزله عن النظر في الدواوين، فأجابه إلى ذلك، وقرّر معه أن يتولّى النظر في الدواوين تاجُ الدين بن بنت الأعزّ، فولّاه الملك المعظّم ذلك.

ولما دخل حسام الدين إلى القاهرة، دخل معه تاجُ الدين متولّياً للنظر في دواوين/ ٩٤ب/ الديار المصرية. فلما قُتل الملك المعظّم ودخل العسكر إلى القاهرة، فُوّضت الوزارة إلى تاج الدين. وكان تاج الدين يكره قاضي القضاة بدر الدين، فحسّن للأمير عزّ الدين التركماني عزل القاضي بدر الدين)[٦]، فعُزل عن قضاء القاهرة، وما معها من البلاد. ووُلّي القضاء بالقاهرة القاضي عماد الدين بن القُطب الحمويّ، وكان قاضياً بمصر، ووُلّي قضاء مصر وما معها القاضي صدر الدين الجَزَريّ، وكان ينوب عن الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام في قضاء مصر لما كان قاضياً بها.

ثم بعد ذلك بثلاثة أشهر رُدّ القضاء بالقاهرة إلى القاضي بدر الدين (المعروف بقاضي سنجار)[٧] وعُزل الجَزَري عن مصر، ورُدّ القاضي عماد الدين إلى القضاء

---

(١) في الأصل: «تنزع».
(٢) الخبر باختصار في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٧.
(٣) من هنا يبدأ النقص في (ب) ورقة ٣٧٥ب.
(٤) في الأصل: «يشكره».
(٥) هو: علم الدين قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني، قال المؤلف ابن واصل ـ رحمه الله ـ إنه من الأماثل وأهل الفضل، شيخنا في العلوم الرياضية، وكان عظيماً فيها. (مفرّج الكروب ٥/ ١٤٥، ١٤٦) و٥/ ٣٤٣، وانظر ترجمته ومصادرها في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٩هـ.) ص٤٢٩، ٤٣٠ رقم ٥٧٦.
(٦) حتى هنا ينتهي النقص بين القوسين من (أ). وهو مستدرك من (ب) ورقة ٣٧٥ب.
(٧) من (ب).

بمصر. ثم بعد أيام عُزل القاضي عماد الدين عن مصر، ووُلّي القاضي بدر الدين القضاء بالديار المصرية بأسرها[١]. (ورجعت عزيمتهم عن المسير إلى الشام)[٢].

ذِكر عقْد السلطنة بالديار المصريّة
لعزّ الدين (أيبك)[٣] التركماني وتلقيبه بالملك المُعزّ

ولما جرى ما ذكرناه، من استيلاء السلطان الملك الناصر على دمشق، وقبض [على][٤] من قبض عليه من الأمراء، بالقاهرة، اجتمعت البحريةُ والأمراء الأتراك، وأجالوا الرأي بينهم وقالوا: إنه لا يمكن حفظ البلاد والمُلْك بامرأة، ولا بدّ أن يقوم بالمُلْك رجلٌ تجتمع الكلمة عليه، فاتّفق رأيهم على أن يُفوّض المُلْك إلى عزّ الدين أيبك التركمانيّ، ففوّضوا المُلك إليه، وأبطلوا اسم شجر الدرّ، والدة خليل، ولقّبوه الملك المُعِزّ.

ثم ركب الملك المُعِزّ عزّ الدين أيبك يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر بالسناجق السلطانية، وحملت[٥] أمراء الدولة الغاشية[٦] بين يديه بالنَّوْبة[٧]، وأول/ ١٩٥أ/ من حملها حسام الدين بن أبي علي، ثم حملها الأمراء بين يديه، أميراً بعد أمير، ودخل من باب النصر، وشقّ بين القصرين، وصعِد إلى قلعة الجبل، ومدّ السِّماط للأمراء، وزُيّن البلد لذلك.

وفي غير هذا اليوم ورد الخبر بتسليم الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل الكرَكَ والشَوْبك، وبتسليم الملك السعيد بن الملك العزيز الصُبَيبة. وقد مرّ ذِكر ذلك[٨].

---

(١) تقدّم مثل هذا الخبر في سيرة الملك الصالح، باختصار.

(٢) ما بين القوسين من (ب) ورقة ٣٧٥ب.

(٣) من (ب). (٤) من (ب).

(٥) الصواب: «وحمل».

(٦) الغاشية: في اللغة: حديدة تكون فوق مؤخّرة الرحل. وفي الاصطلاح: واحدة من شعارات الملك في العصر الإسلامي تتخذ من أديم مخرّز بالذهب يخالها الناظر للوهلة الأولى أنها مصنوعة من الذهب، يحملها مهاترة بين يدي السلطان في المواكب الرسمية وأثناء الاحتفالات. (معجم المصطلحات ٣٢٩).

(٧) النوبة: من معانيها في اللغة: الجماعة من الناس. وفي الاصطلاح أطلق هذا اللفظ في العصر المملوكي على أفراد وحدة من الجيش كانوا يتناوبون على حراسة السلطان، ومن ثمّ أطلق على الفرقة الموسيقية العسكرية، وعلى حملة الأعلام والطبول والصنوج من الدراويش أثناء قيامهم ببعض العروض الخاصة بالطوائف الصوفية. (المعجم ٤٢٦).

(٨) تقدّم مثله في خبر استيلاء الملك السعيد على غزّة. وهو في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٩، والدرّة الزكية ١٣.

ذِكر عقد السلطنة بالديار المصرية[١]
للملك الأشرف ابن الملك المسعود بن الملك الكامل

ثم اجتمع الأمراء والبحرية، واتُّفِق على أنه لا بُدّ من إقامة شخصٍ في المُلْك من بني أيوب، يجتمع الكلّ على طاعته[٢].

وكان سبب ذلك أنّ الأمير فارس الدين أقطاي، وهو مُقدَّم الجَمدارِيّة والبحرية، وإليه مَرجعهم، والأمير رُكن الدين بِيبرس البُنْدُقداريّ، وهو الذي صار المُلْك إليه فيما بعد، وسيف الدين الرشيدي، وسُنقُر الروميّ، وهؤلاء من أكابر الجَمدارية الصالحية، أنِفوا من أن يكون عزّ الدين التُركمانيّ سلطاناً، فاختاروا أن يقيموا صبيّاً من بني أيوب، يكون له اسمُ الملك، ويكونون هم الذين يدبّرون أمر المُلْك، ويأكلون الدنيا باسمه.

وكنّا ذكرنا أنّ الملك المسعود، صلاح الدين، يوسف ابن الملك الكامل، صاحب اليمن، المعروف بالأقسيس[٣]، كان خرج من اليمن في حياة (أبيه)[٤] الملك الكامل، قاصداً التوجّه إلى مصر، وأنه تُوفي بمكة، حَرَسَها اللّه تعالى، واستناب باليمن نورَ الدين عمَر، المعروف بابن رسول، فتغلّب عن اليمن، ثم تلقّب بالملك المنصور.

وتُوفّي بعد موت الملك/ ٩٥ب/ الكامل. فقام بملك اليمن بعده ولدُه الملك المظفّر شمس الدين يوسف، وهو الآن سلطان اليمن، وهو فاضلٌ جواد، مُحِبّ للفضيلة والفُضَلاء، [كان] مقصداً لهم، يلجأ إلى خدمته الفُضَلاء، يُكرمهم ويُحسِن إليهم، فجزاه اللّه أحسن الجزاء.

ولما تُوفّي الملك المسعود بن الملك الكامل، رحمهما اللّه بمكة، كان له ولد صغير فسُمّي يوسف باسم أبيه، ولُقّب صلاح الدين، وحُمل إلى مصر، وربّاه جدّه الملك الكامل، وكان يرشّحه لمُلْك اليمن.

ثم مات الملك الكامل، فبقي صلاح الدين يوسف بن الملك المسعود هذا، إلى أنْ ملك عمّه السلطان الملك الصالح الديار المصرية.

ورأيته أنا في سنة اثنين وأربعين وستماية، وكان نحيفاً مُصْفَرّ الوجه.

---

(١) تأخّر هذا الخبر في (ب) ورقة ٣٧٦ب.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٩.

(٣) الإقسيس = أطسز = طسز: اسم عُرف به الملك المسعود يوسف، الذي كان آخر ملوك بني أيوب باليمن. (صبح الأعشى ٥/ ٣٠، السلوك ج١ ق١/ ٢٣٧، الدرّة الزكية ١٣).

(٤) عن هامش المخطوط.

ثم تُوفّي في أيام عمّه الملك الصالح، وخلّف ولداً صغيراً، وهو الملك الأشرف مظفّر الدين موسى بن يوسف (بن يوسف)[١] بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، فكان عند عمّاته القُطبيّات بنات الملك العادل في القصر الغربيّ، فلما اتفق رأي البحرية على إقامة صبيٍّ من بني أيوب، أحضروا هذا الصبيَّ، وقلّدوه السلطنة، وجعلوا الملك المُعِزّ، عزّ الدّين التُركماني، أتابكاً له.

وكان عُمرُه يومئذٍ نحو عشر[٢] سنين، وخطبوا للملك الأشرف بالسلطنة، وجلس في السِّماط، وحضر الأمراء بين يديه. وكان ذلك لخمسٍ مضَيْن من جمادى الأولى، بعد تمليك الملك المعزّ بخمسة أيام.

وكانت التواقيع تخرج هكذا:

«رُسّم بالأمر العاليَ، المولوي، السلطاني، الملكي، الأشرفي، والملكي المُعِزّي».

ذِكر اتفاق جماعة من الجند والأمراء على الانتماء إلى الملك المغيث صاحب الكرك وتمليكه ثم بُطلان أمرهم

(كان الملك المُعِزّ قد سيّر إلى غزّة)[٣]/ ١٩٦أ/ الأمير ركن الدين خاصّ تُرك، وهو من أجلّ الأمراء الصالحية، ومعه جماعة كثيرة من العسكر، فلقيتهم عساكر الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فاندفعوا بين أيديهم راجعين إلى جهة مصر، ونزلوا بالسانح، وكان بالسانح[٤] جماعة من الأمراء، فاتّفقت كلمة [الكل][٥] على مكاتبة الملك المغيث صاحب الكَرَك، وخطبوا له بالصالحية يوم الجمعة لأربع مضَين من جمادى الآخرة، من هذه السنة، فأمر الملك المُعِزّ بالنداء بالقاهرة ومصر، بأنّ البلاد للخليفة المستعصم بالله، وأنّ الملك المُعِزّ عزّ الدين أيبك، نائبه بها، وذلك يوم [السَّبت][٦] لخمسٍ مضين من جمادى الآخرة، ووقع الحثّ في غد هذا اليوم على خروج العسكر إلى السانح[٧]. وجُدّدت الأَيمان للملك الأشرف بالسلطنة، والملك المُعِزّ بالأتابكية[٨].

---

(١) عن هامش المخطوط.

(٢) في السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٩ «نحو ست سنين»، ومثله في: نهاية الأرب ٢٩/ ٣١٤، وفي: تاريخ الإسلام ٥٨ «وله ثمان سنين»، وفي نزهة الأنام ١٩٧ «ست سنين»، والمثبت يتفق مع: النجوم الزاهرة ٧/ ٥.

(٣) ما بين القوسين من (ب) ورقة ٣٧٦أ.

(٤) في الأصل: «بالنهابح».

(٥) من (ب) ورقة ٣٧٦أ.

(٦) من (ب) ورقة ٣٧٦أ.

(٧) في الأصل: «النابح»، وفي (ب) ورقة ٣٧٦أ «الصالحية».

(٨) السلوك ج١ ق٢/ ٣٦٧.

وفي هذا اليوم هرب من السانح[١] الطّواشيّات[٢]: شهاب الدين رشيد الكبير، وشهاب الدين رشيد الصغير، وركن الدين خاصّ تُرك، وأَقش المُشْرِف، وكانوا من جملة الذين اتّفقوا على تمليك المغيث بن الملك العادل، صاحب الكرَك. ثم قبض غلمان شهاب الرشيد الصغير عليه، وجاءوا به إلى القاهرة، فاعتُقل بها ونجا الباقون، وخرجت الخِلَع للذين تخلّفوا بالسانح[٣]، وعُفي عنهم وطيّب قلوبهم، وخرجت لهم النفقة.

ولما كان يوم الخميس لعشرٍ مَضَين من جمادى الآخرة ركب الملك الأشرف مظفّر الدين موسى السّناجق[٤] السلطانية، والملك المُعِزّ راكبٌ بين يديه، والأمراء يحملون له الغاشية واحداً بعد واحد، إلى أن صعِد القلعة.

وفي يوم الأحد/ ٩٦ب/ [الخمسِ][٥] مَضَين من رجب رحل الأمير فارس الدين أقطاي مقدّم الجمدارية والبحرية إلى بلاد الشام، ومعه من العساكر ألفا فارس، فوصل إلى غزّة، وكان بها جماعة من أصحاب السلطان الملك الناصر، فأوقع بهم، فاندفعوا بين يديه[٦].

ذِكر إحضار تابوت السلطان الملك الصالح إلى القاهرة وعمل عزائه

كنّا قد ذكرنا وفاة الملك الصالح، رحمه اللّه، بالمنصورة، وهو في قبالة الفرنج، وأنه كُتم موته وغُسّل، وكُفّن سرًّا، وحُمل في تابوت إلى قلعة الجزيرة، وتُرك بها.

ولما كان يوم الخميس لسبع بقين من رجب اتّفق الملك المُعِزّ ومماليك الملك الصالح على حمله إلى القاهرة، ودَفْنه في تربة بُنيت له إلى جانب مدرسته التي أنشأها بين القصرين، وأن يُصلّى عليه، ويُعمل عزاؤه إذا لم يفعل ذلك، بسبب ما عاق عنه من وجود الفرنج في البلاد، والاشتغال بحربهم، فحُمل من قلعة الجزيرة ليلة الجمعة لستٍّ بقين من رجب إلى تُربته، ثم صُلّي عليه بعد صلاة الجمعة، ولبس العسكر

---

(١) في الأصل: «السايح».

(٢) الصواب: «الطواشية».

(٣) في الأصل: «السايح».

(٤) السناجق = الصناجق: لفظ تركي ـ فارسي، مفرده: سنجق. بمعنى: علم أو راية، ويُسمّى حاملها أو صاحبها: سنجقدار.

(٥) من (ب) ورقة ٣٧٧أ.

(٦) السلوك ج١ ق١/ ٣٧٠، الدر المطلوب ٣٨٥، نهاية الأرب ٢٩/ ٣٩٣، تاريخ الإسلام ٥٨.

البياض، وقطّعت مماليكُه شعورَهم. ثم جلس له في العزاء بُكرة السبت غدا[ة] هذا اليوم، وحضره الملك الأشرف المسمَّى يومئذٍ بالسلطنة، والملك المُعِزّ عزّ الدين، ومماليك السلطان البحرية، والجَمدارية، وأُمراء الدولة، والقضاة والمعمّمون الأكابر، وغُلّقت الأسواق بالقاهرة ومصر، وأقيمت عليه المآتم بالدفوف بين القصرين[١].

واستمرّ ذلك والحضور للعزاء إلى يوم الإثنين لثلاثٍ بقين من رجب، وجعل عنده سناجقه، وبُقجةَ قماش من/ ١٩٧أ/ ملابسه، وتَرْكاشه[٢]. وأقيم عنده قرّاء يقرأون على تُربته[٣].

[إجمال حوادث السنتين ٦٤٧ و٦٤٨هـ.]

فوقع في السنتين - أعني سنة سبعٍ وأربعين، وسنة ثمانٍ وأربعين - غرائبُ لم يقع مثل مجموعها في شيءٍ من التّواريخ، وهي:

طُرُوق العدوّ إلى البلاد في الكثرة العظيمة، وتمكّنهم من ثغرها في يومٍ واحد.

وموت سلطان البلاد في تلك الحال الصعبة، وبقاء البلاد بلا ملك يذبّ عنها، وكتمان موته ثلاثة أشهر، والخطبة والسّكّة باقيتان له في طول تلك المدّة.

وكبْس العدوّ المعسكر الخالي من السلطان، وتبدّد العسكر وهزيمتهم، ثم انتصارهم على العدوّ في الحال.

ثم قدوم سلطانٍ إلى البلاد، وسرور الناس به.

ثم كسْر العدوّ واستئصاله.

ثم قتْل ذلك السلطان، وإقامة امرأةٍ في المُلْك مقامه، والخطبة لها على المنابر، وخروج التّواقيع وعليها علامتها، ولم يجر بذلك عادة في الإسلام، ثم خلْعها من السلطنة، وإقامة سلطانٍ.

ثم خلع ذلك السلطان، وإقامة سلطانٍ بعده بخمسة أيام.

ثم الدّعوة لسلطانٍ ليس في البلاد ثم إبطال ذلك.

ثم إقامة مأتم وعزاء السلطان الذي مات من مدّةٍ تقارب سنة، وإظهار الحُزْن عليه، ولبْس الحِداد.

وهذه أمور لم تجتمع قبل ذلك في عصرٍ من الأعصار ما يُشبهها.

---

(١) الدرة الزكية ١٥.

(٢) التركاش: لفظ فارسي بمعنى الكنانة أو الجعبة التي يوضع فيها النشاب، وهو لفظ عامّي.

(٣) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧١.

[عودة أقطاي إلى مصر]

وفي أواخر رجب من هذه السنة رجع فارس الدين أقطاي من غزّة إلى الصالحية، ونزل بها، ثم وصل إلى القاهرة لأربعٍ مَضَين من شعبان[(١)].

[القبض على أمير جاندار الصالحي]

وفي غد هذا اليوم قُبض على زين الدين، أمير جاندار الصالحيّ، وكان من كُبراء الدولة الصالحيّة، واعتُقِل[(٢)].

[القبض على قاضي آمد]

وكذلك قُبض على/ ٩٧ب/ القاضي صدر الدين المعروف بقاضي آمِد، وكان كبيراً في دولة الملك الصالح، وهو من أقارب شمس الدين قاضي نابلس، ينتهي نَسَبُهُما إلى جدٍّ قريب[(٣)].

ذِكر تخريب ثغر دِمياط

ثم اتّفق أرباب الدولة على هدم أسوار دِمياط، وتخريبها ومحو آثارها، وذلك لِما اتّفق على المسلمين من قَصْد الفرنج البلادَ من هذه الجهة، مرةً بعد أخرى.

فإنّهم في أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين قصدوها، وأقاموا على محاصرتها مدّةً، وكادوا يملكونها، ثم نصر اللّه المسلمين عليهم. وقد ذكرنا ذلك.

ثم قصدوها في أيام السلطان الملك الكامل، وحاصروها أكثر من سنة، ثم ملكوها، وجرى من الحروب ما تقدَّم ذِكره.

ثم ملكوها في يومٍ واحدٍ، في آخر أيام السلطان الملك الصالح.

وجرى ما ذكرناه، فرأوا أنّ العناء بها يطول، واتّفق أنّهم كانوا مع ذلك خائفين من قصْد الملك النّاصر للبلاد، فلم يأمنوا أن يقصدوها عند حال اختلاف كلمة المسلمين، فتعود الحرب خدعة. ورأوا أنّ خرابها متعيّن.

فبعثوا يوم الإثنين لاثنتي عشرة [ليلةٍ][(٤)] بقيت من شعبان الصُّنّاع والفَعَلة والحجّارين إليها، فهدموها، وبنَوا مدينةً قريبةً منها، سمّوها المَنْشيّة[(٥)]. ولبُعدها عن

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢، الدرّة الزكية ١٥.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢، الدرّة الزكية ١٥.

(٣) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢، الدرّة الزكية ١٥.

(٤) من (ب) ورقة ٣٧٨ب.

(٥) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢ وفيه: «وهي موضع دمياط الآن».

البحر المالح يأمنون من الفرنج عليها. والحال على هذه إلى الآن.

وسور دمياط الذي خُرّب هو من عمارة الخليفة المتوكّل[(١)] على اللّه بن المعتصم، وهو عاشر خلفاء بني العبّاس[(٢)].

[القبض على الأمير النجيبي]

وفي يوم الأربعاء لستٍّ بقين من شعبان قُبض على الأمير جمال الدين آقُش النجيبيّ[(٣)]، واعتُقل.

[القبض على الأمير العجمي]

وبعد يوم قُبض على آقُش العجميّ[(٤)].

ذِكر مرض السلطان الملك الناصر (صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب)[(٥)] بدمشق/ ١٩٨أ/ وعافيته

ولما مَلَكَ السلطانُ الملك الناصر دمشق عزم على التوجّه بالعساكر إلى الديار المصرية ليملكها، ولم يكن ـ فيما بلغني ـ هذا من رأيه، وإنّما كان الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني مدبّر دولته يُلزِمه بذلك، ويحرّضه عليه، ويصغّر في عينه أمرَ عسكر مصر، ويسهّل عليه الأمر، ويقول له: إنّك إذا توجّهتَ إلى مصر انفضَّتْ عساكرها إليك كلُّها وملكْتَ البلادَ بغير قتال. فعزم على الحركة إليها[(٦)].

(وكان ذلك لسبب ضرب رقبته فيها، لأنّ الأمير شمس الدين لؤلؤ أُخذ أسيراً إلى مصر ضرب رقبته المعزّ، فمنها تقدّمه إلى منيّته)[(٧)].

([(٨)]وكان الملك النّاصر قد أرسل الصاحب، كمالَ الدين عمرَ بنَ أبي جَرادة، المعروف بابن العديم، رسولاً إلى الملك المعظّم، لما كان الملك المعظّم بالمنصورة.

---

(١) كان ذلك بعد أن هاجم الروم دمياط في سنة ٢٣٨هـ. انظر: معجم البلدان ٢/ ٤٧٣.

(٢) خبر تخريب دمياط في: الدرّة الزكية ١٥، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢.

(٣) في الأصل: «النحي»، وفي السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢ «التجيني»، وهو تحريف. والمثبت من (ب) ورقة ٣٧٨أ.

(٤) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢.

(٥) ما بين القوسين من (ب) ورقة ٣٧٨أ.

(٦) الخبر باختصار في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢.

(٧) ما بين القوسين من (ب) ورقة ٣٧٨أ.

(٨) من هنا ناقص في (ب). ورقة ٣٧٨أ.

فلما توجّه كمال الدين إلى مصر بَلَغَه وهو في الطريق كسْرُ الفرنج. ثم لما وصل إلى فاقوس بلغه قتْلُ الملك المعظّم، فوصل إلى العسكر، ودخل إلى القاهرة، وأُنزل بها، وتحدّث مع جماعةٍ من الأمراء في تمليكهم إلى مخدومه السلطان الملك الناصر، فوافقوه على ذلك، ووعدوه المساعدة على نصره، وقيل له من جهة الملك المُعِزّ: اذكُر ما معك من الرسالة، وأحضِر الكتاب الذي ورد معك.

فقال: إنّ رسالتي إلى رجل قد مات، والكتاب هو إليه، وما حملت برسالةٍ إليكم، فسُفّر وخُلع عليه، ورجع إلى دمشق، فوصل إليها قبل وصول الملك الناصر إليها، فعُوّق بها أياماً، ثم أُطلق وسافر إلى حلب.

وكانت القيمُرية قد كاتبوا إلى الملك الناصر يستدعونه إلى دمشق، فلما ودّع أمراء دمشق كمال الدين، قال له أمراء دمشق من التُرك: ما بيننا وبين الملك الناصر إلّا السيف، وإنْ جاءنا قاتلناه.

وقالت القيمُرية: نحن لا نزال[1]/ ٩٨ب/ نقاتل على أخبازنا[2]، فعرف من قولهم المقصود، وأنّهم لا يريدون قتاله[3] وإنّما يقاتلون عن أخبازهم[4].

وتوجّه إلى مخدومه الملك الناصر، فوجده قد وصل إلى القطيفة.

ثم وصل الملك الناصر إلى دمشق، وتسلّمها بفتح القَيْمُرية البابَ له حتّى دخل دمشق، كما ذكرناه.)[5].

وبينما الملك النّاصر على عزْم السفر إلى مصر، عَرَضَ له مرضٌ شديد، أشرف منه على التّلف، وكاد يقع اليأسُ منه، (وكان في صُحبته الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل والملك النّاصر داود. فذُكر أنّ الملك النّاصر يوسف سعى في التّدبير أن يملك دمشق. فهذا كان سبب تغيّر الملك النّاصر يوسف عليه، حتّى اعتقله، كما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.)[6].

ثم إنّ الملك النّاصر يوسف، رحمه اللّه، عُوفي من مرضه في أواخر شهر شعبان من هذه السنة، وكان في صُحبته الشيخ، شرف الدّين، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاريّ[7]، فهنّأه بعافيته، وبإقبال شهر الصوم بقصيدةٍ مطلعُها:

حُوشيتَ من مرضٍ يؤذيك حُوشيتَا وبالمُنَى وبشهر الصوم مُتّيتا

---

(١) في الأصل: «يزال».
(٢) في الأصل: «أخبارنا».
(٣) في الأصل: «قباله».
(٤) في الأصل: «أخبارهم».
(٥) هنا ينتهي النقص من (ب).
(٦) ما بين القوسين ليس في (ب) ورقة ٣٧٨ب.
(٧) توفي سنة ٦٦٢هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام. (وفيات ٦٦٢هـ.) ص١٠١ ـ ١٠٤ رقم ٥٤ وفيه حشدنا الكثير من مصادر ترجمته.

ولا برحتَ قريرَ العين في دَعَةٍ تشتّت الجورَ والإقتار[١] تشتيتا
يا أيّها النّاصرُ الملكُ الّذي قُهرَتْ به الملوكُ فأضحى عيشُها قُوتا
وقيت أقسام واقيها لهًى وكلا[٢] وبات[٣] غادرُها لا يملك البيتا
أنت الوقورُ إذا طاشت حُلومُهُم فزادك اللّهُ توقيراً وتثبيتا
بيّضت باسمك وجه المُلْك مقتدياً باليوسُفيَّيْن[٤] عاشا منذ سُمّيتا
وهذه مصرُ قد ألقَتْ مقالدَها يكفيك أن تعمل البيض المصاليتا
حقَّقْتَ لمن بنى الآمالَ فيك فبالآباء منهم وبالأبناء فُدّيتا
/ ٩٩أ/ وقدعفى البُخلُ مُذْشُدْتَ السَّماحَ لنا[٥] وعوفي المجدُ فينا منذ عوفيتا
وإذا العُلى أسكتت[٦] في الفضل ذا لَسَنٍ وذا اللّهى أنطقْتَ[٧] بالفضل سكّيتا
هديتنا بالنجوم الزُهر من شِيَمٍ أثَرْنَ من معدن النكر المواقيتا
ففتقَت أكبُدَ الحُسّاد من مدحٍ سارت فأفشت سحيق المسك مفتوتا
حييت فينا حياة الخضر مغتبطاً كما يملك قرين الخضرِ حُبّيتا
لديك عشناكما شئنا فدُمت لنا وعشتَ في سابغ النَعماء ماشيتا

([٨]وكان في صُحبته أيضاً الصاحب، بهاء الدين زهير، كاتب الإنشاء للملك الصالح، فقال يهنّئه أيضاً بعافيته:

لكم منّي الودُّ الذي ليس يبرحُ ولي منكم الشوقُ الشديدُ المبرحُ
وكم لي من رُسُل وكُتبٍ إليكمُ ولكنها عن لوعتي ليس تُفصحُ
وفي النّفس مالاً أستطيع أبثّه ولستُ به للرُسْل والكُتب أسمحُ
زعمتم بأنّي قد نقضتُ عهودكمُ لقد كذب الواشي الذي ليس ينصحُ
وإلّا فما أدري عسى كنت ناسياً، عسى كنتُ سكراناً، عسى كنت أمزحُ
خُلِقتُ وفيًا لا أرى الغدر في الهوى وذلك خُلُقٌ عنه لا أتزحزحُ
سلوا الناس غيري عن وفائي بعهدكم فإنّي أرى شكري لنفسي يقبُحُ

(١) في الأصل: «الإقبال»، والمثبت من (ب).
(٢) في الأصل: «غلّي»، والمثبت من (ب).
(٣) في الأصل: «باب»، والمثتب من (ب).
(٤) في الأصل: «فاليوسفين».
(٥) في (ب) ورقة ٣٧٨ب: «وعفى بالنحل قد سدّت السماح لنا».
(٦) في الأصل، و(ب): «أسكنت».
(٧) في (ب) «وإذا الذي اطلعت».
(٨) من هنا ليس في (ب) ورقة ٣٧٨ب.

أأحبابنا حتّى متّى وإلى متى   أعرض بالشكوى لكم وأصرّحُ

حياتي وصبري مُذ هجرتم كلاهما   غريبٌ ودمعي للغريبَيْن يشرحُ

رعى اللّه طيفاً منكم بات مؤنسي   وما ضرّه إذ بات لو كان يُصبحُ

ولكنْ أتى ليلاً وعاد بسحرةٍ   درى أنّ ضوء الصبح إن لاح يفضحُ

وبي رشأ ما فيه قدْحٌ لقادح   سوى أنه من خدّه النار تقدح

فبتّ به حُلواً مليحاً فحدّثوا   بأعجب شيءٍ كيف يحلو[١] ويَملُحُ

تبرّا من قتلي، وعيني ترى دمي   على خدّه من سيف حقيه يسفحُ

وحسبُك ذاك الخدّ لي منه شاهد   ولكنْ أراه باللحاظ يجرحُ

/٩٩ب/ ويبسمُ عن ثغر يقولون إنه   حُبابٌ على صهباء كالمسك ينفحُ

وقد شهد المسواك عندي بطيبه   ولم أر عدلاً وهو سكران يطفحُ

ويا عاذلي فيه جوابك حاضر   ولكن سكوتي عن جوابك أصلحُ

إذا كنت ما لي في كلامي راحة   فإنّ بقائي ساكناً لي أرْوَحُ

وأسمر أمّا قدّه فهو أهيفٌ   رشيقٌ وأمّا وجهه فهو أسجحُ

كأنّ الذي فيه من الحسن والصبى   بداخله زهرٌ به فهو يمرحُ

كأن النسيمَ الرطب عن قوامه   ليخجل غصنُ البانة المتطوّحُ

كأنّ المُدامَ الصِرْف مال بعطفه   كما مال في الأرجوحة المترجحُ

كأنّي وقد أنشدته مدح يوسفٍ   فأطربه حتى انثنى يترنّحُ

وإنّ مديح الناصر بن محمدٍ   ليَصْبُو إليه كُل قلبٍ ويجنحُ

مديحاً يُنيل المادحين جلالةً   ومدحاً بمدْح فهو يولي ويمنحُ

وليس بمحتاجٍ إلى مدح مادح   مكارمه تثني عليه وتمدحُ

فكل فصيح ألْكَن في مديحه   لأنّ لسان الجود بالمدح أفصحُ

وقد قاس قومٌ جُود يُمناه بالحيا   وقد غلطوا يُمناه أسمى وأسمحُ

وغيث سمعتُ الناس ينتجعونه   فأين ترى غيلان عنه وصيدحُ

لئن كان يختار انتجاع بلاله   فإنّ بلالاً عنده يترشحُ

دعوا ذِكر كعب في السماح وحاتم   فليس يُعدُّ اليوم ذاك التسمح

وليس صعاليك العُرب كيوسفٍ   تعالوا بنا للحق والحق أوضحُ

فما يوسف بقرِيّ بناب مُسِنّةٍ   ولا العرق مقصود ولا الشاة تذبحُ

---

(١) في الأصل: «يحلوا».

ولـكـنّ سـلـطـانـاً أقـلُّ عـبـيـدِه ... يتيه على كسرى الملوك ويجمحُ
وبعضُ عطاياهُ المدائن والقرى ... فمن ذا الذي في ذلك البحر يسبحُ
ولو سُئل الدنيا رآها حقيرةً ... وجاد بها سراً ولا يتبجّحُ
فقُل لملوك الأرض ما تلحقونه ... لقد أتعب الغادي الذي يتروّحُ
/١٠٠أ/ كثير حياء الوجه يقطُر ماؤه ... على أنه من بأسه النارُ تلفحُ
كذا الليث قد قالوا حيّي وإنه ... لَأَجْرأ من نلقى جَناناً وأوقحُ
مناقب قد أضحى بها الدهر حالياً ... فها عطفه منها موشّى مُوشّحُ
من النفر الغُرّ الذين وجوهُهُم ... مصابيح في الظَلْماء بل هي أصبحُ
فكم أشرقت منهم شموسٌ طوالعٌ ... وكم هطلت منهم سحايب دُلحُ
بَهَالِيلُ أملاك كأنّ أكُفَّهُمُ ... بحارٌ بها الأرزاقُ والناس سُبَّحُ
كذاك بنو أيوب لا زال منهمُ ... عظيمٌ مُرَجَّى أو كريمٌ مُمَدَّحُ
أناس همُ سنّوا الطريق إلى العُلى ... وهم أعربوا عنها فقالوا وأفصحوا
ولم يُتْعبوا من جاء في الناس بعدهم ... لقد بيّنوا للسالكين وأوضحوا
ليهن دمشق اليوم صحّتك التي ... بها فرحت والمدْن كالناس تفرحُ
فلا نهر إلّا ضاحكٌ متعطّفٌ ... ولا دوح إلّا مايسٌ ومترنّحُ
ولا غصن إلّا وهو نشوانُ راقصٌ ... ولا طير إلّا وهو فرحانُ يصدحُ
وقد أشرقتْ أقطارها فاغتدى لها ... شعاعٌ له فوق المجرّة مطرحُ
وشرّقت معناها فلو مكن الورى ... لطافوا بأركانٍ لها وتمسّحوا
ووالله ما زالت دمشق مليحةً ... ولكنّها عندي بك اليوم أملحُ
عرضتُ على خير الملوك بضاعتي ... وألفيتُ سوقاً صفقتي فيه تربحُ
وقد وثقتْ نفسي بأنّي عنده ... سأزداد عزّاً ما بقيتُ وأفلحُ
وإنّ خطوباً أشتكيها ستنجلي ... وإنّ أموراً أرتجيها ستنجحُ
وإنّ صلاح الدين ذا المجد والعلا ... لِما أفسدتْ منّي الحوادث يصلحُ
أمولاي سامحني فإنك لم تزل ... تسامح بالذنب العظيم وتسمحُ
لك العُذر ما للقول نحوك مُرتقًى ... مقامك أعلى من مقالي وأرجحُ
فما كل لفظٍ في خطابك مُرتَضًى ... ولا كلّ معنًى في مديحك يصلحُ
عطايا وإن كانت كثيراً تأخّرت ... فإنك تعفو(١) عن كثير وتصفحُ(٢)

---

(١) في الأصل: «يعفوا».

(٢) في الأصل: «ويصفح».

/ ١٠٠ب/ وهب لي أُنساً منك يُذهب وحشتي ... ويبسط قلباً ذا انقباضٍ ويشرحُ
وجُد لي بالقرب الذي قد عهدتُه ... وأرضى ببعضٍ منه إن كنت أصلحُ
وإنّي لديك اليوم في ألف نعمةٍ ... ولكنْ عسى ذكري ببالك يسنحُ
لَعَمْرُك كل الناس لا شك ناطق ... ولكنّ ذا يلغو[1] وهذا يسبّحُ
وقد يُحسنُ الناسُ الكلامَ وإنّما ... كلامي هو الدرّ المنقّى المنقّحُ
كلامٌ يسُرُ السامعيه كأنما ... لسامعه فيه الشراب المفرّحُ
نَسَبٌ ما رقّ النسيم من الصبا ... وغازله زهرُ الرُبَى المتفتّحُ
ومدحٌ يكون الدهرُ بعض رُواته ... فيُمسي ويضحى وهو يسري ويسرح)[2]

ذِكر اعتقال الملك الناصر
داود بن الملك المعظّم رحمه اللّه بحمص

لما عُوفي السلطانُ الملك النّاصر يوسف، رحمه اللّه، من مرضه في أواخر شعبان، نُمي إليه من الملك النّاصر داود أنه بدا منه في أيام مرضه، ووقوع اليأس منه ما أوغر صدره عليه، فيما يتعلّق بالقدح في مُلكه[3]، فتقدّم بالقبض عليه وسُيّر تحت الاحتياط إلى حمص، واعتُقل بقلعتها، فهذا ما بلغني خبره عن غير أولاد الملك النّاصر.

وأمّا الذي سمعته من جهتهم، فهو غير هذا.

فحكى لي ولده شهاب الدين غازي ـ وهو الآن مقيمٌ بالقاهرة ـ قال: خرج والدي من الكرَك لما قطع الملك الصالح نجمُ الدين عنه السُّبُل والمسافرين بالميرة، ورحل بذلك أكثر أهل بلاده، ورتّب عسكراً في بلاده يقطعون عنه الميرة.

وكان خروجه من الكرَك في صفر سنة سبع[4] وأربعين وستماية، واستصحب ما كان معه من الجواهر على أنه يبيعه بحلب، ويسيّر ثمنه إلى أولاده، فإنه كان قد نفد كل ما معه من المال والميرة.

ولما قدم إلى حلب قدّم من ذلك شيئاً للسلطان الملك/ ١٠١أ/ الناصر صاحب

---

(١) في الأصل: «ويلغوا».
(٢) إلى هنا ينتهي النقص ما بين القوسين في (ب).
(٣) ورد هذا الخبر إلى هنا باختلاف في (ب) ورقة ٣٧٨ب و٣٧٩أ، ونصّه: «لما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى دمشق وملكها/ كان في خدمته الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل، والملك الناصر داود بن الملك المعظم صاحب الكرك، فبلغه عن الملك الناصر داود أمراً (١) يكرهه فيما يتعلق بالقدح في دولته».
(٤) في الأصل: «تسع»، والتصحيح من (ب) ورقة ٣٧٩، ومن ج٥/ ٢٥٧ من مفرّج الكروب، والدرّة الزكية ١٦.

حلب، فأنزله الملك الناصر في دار علم الدين قيصر، ورتّب له راتباً.

ولما بلغ ذلك الملكَ الصالحَ نجم الدين، وكان في قبالة الفرنج سيّر إلى نائبه بدمشق، وأمره أن يخرّب داره التي هي داخل دمشق، وتُعرف بدار عزّ الدين أسامة[١] وقصره بالقابون، وينقل رُخامه إلى مصر، ففعل ذلك ونقل رُخامه إلى مصر. ثم جرى في تسليم الكرَك إلى الملك الصالح ما تقدّم ذِكره.

وانتقل أولاد الملك الناصر وإخوته وأهله إلى مصر، وأُعطوا إقطاعاً بدلاً عن الكرَك.

ثم لما مات الملك الصالح، وقتل ابنه الملك المعظم، ومَلَك الملك الناصر يوسف دمشق، تقدّم أرباب الدولة إلى إخوة الملك الناصر وأولاده وأهله بالخروج من مصر، ورحلوا إلى الشام.

ولما ملك الملك[٢] الناصر دمشق لم يُحسن إلى الملك الناصر [داود][٣]. وكانت قد تقدّمت منه وعودٌ جميلة، وكان يقول له: سترى ما أفعل في حقّك.

قال: وكان والدي[٤] قد سيّر جوهرة[٥] إلى الخليفة صُحبة عزّ الدين سليمان قال: وسمعتُه يقول: أقلّ ما يسوى هذا الجوهر مائة ألف دينار[٦].

ولما أيس من الملك الناصر يوسف بعد تملّكه دمشق طلب منه دستوراً ليمضي إلى الخليفة المستعصم بالله، فأعطاه الدستور.

فلما مضى إلى القُصَير قبض عليه [مستهلّ شعبان من سنة ثمانٍ وأربعين وستماية][٧] واعتقله في خيمةٍ في المِزّة، وجاء حريمه من مصر وأنا معهم، ومعي تسعة من أولاده الأصغار[٨]، فوصلنا إلى دمشق، والحريم في أربعين كجاوةً[٩]، فيها والدته وأخَوَاته إحدى وعشرين[١٠] جهة، وزوجته، وابنة عمّه الملك الأمجد بن الملك العادل، وزوجته الخوارزميّة، وستّ سراري. فحطّت الكجاوات على باب

---

(١) يرد في المصادر: «أسامه» و«سامه».
(٢) في الأصل: «ولما ملك ملك».
(٣) من (ب).
(٤) في الأصل: «وكان الذي»، والتصحيح من (ب) ورقة ٣٧٩أ.
(٥) في الأصل: «جوهراً»، والتصحيح من (ب) ورقة ٣٧٩أ.
(٦) في (ب) ورقة ٣٧٩أ، ب «خمس ماية ألف دينار»، ومثله في: الدرّة الزكية ١٦.
(٧) ما بين الحاصرتين زيادة من (ب) ورقة ٣٧٩ب.
(٨) هكذا في الأصل. وفي (ب) ورقة ٣٧٩ب: «الأصاغر».
(٩) كجاوة: جمعها كجاوات. عربات لحمل الأفراد.
(١٠)هكذا في الأصل، وهو غلط. وفي (ب) ورقة ٣٧٩ب «أحد عشر».

القلعة المسمّى بباب الجديد، ومضيتُ أنا إلى الملك الناصر يوسف، ومعي إخوتي الصغار، فأتيت إليه وهو يسير في الميدان الأخضر، ومعه الأمير شرف الدين لؤلؤ، والملك/ ١٠١ب/ الصالح عماد الدين إسماعيل، فقبّلنا يده، ومعنا خادمٌ لجدّي الملك المعظّم، يقال له شمس الدين صواب، فقال له شمس الدين صواب: ياخَوَنْد[١]، هؤلاء الصغار قد جاءوا إلى خدمتك، والحريم، وهم على باب الجديد[٢]، وهم يسألون من إحسانك أن يكون اعتقالُه عندهم، وأن يتصدّق عليه برُوحه[٣]. فقال: مبارك، انصرفوا بالحُرَم، أنزِلهم، وما يكون إلّا الخير.

ثم إنهم في تلك الليلة سيّروه إلى حمص، واعتقلوه بقلعتها، فنَظَمَ الملك الناصر [داود][٤]، رحمه اللّه، هذه القصيدة، ومطلعُها:

إلٰهي إلٰهي أنت أعلى وأعلمُ	بمحقوق[٥] ما تُبدي الصُدورُ وتكتُمُ[٦]
وأنت الذي تُرجى لكلّ عظيمةٍ	وتُخشَى، وأنت الحاكمُ المتحكّمُ
إلى علمك الفعليّ أشكو[٧] ظلامتي	وهل بسواه يُنصف المتظلّمُ؟
أبثُّ جنايات العشيرة مُعلِناً	إلى مَن بمكنون السراير[٨] يعلّم
أتيتهم مستصرخاً[٩] متحرّماً	كما يفعل المستصرخ[١٠] المتحرّمُ[١١]
فلما أيسنا[١٢] نصرَهم ونوالَهم	رَمَوْنا بإفك القول وهو مرجّم[١٣]
وقطّع منّي ما أُمِرتُ بوصله	وإحلالُ إبعاد القرابة يحرُم

---

(١) الخَوَنْد: لفظ فارسي، معناه: السيد العظيم، أو الأمير. استُعمل في العربية لقباً بمعنى السيد، أو السيدة.
(٢) في (ب): «باب الحديد».
(٣) في الأصل: «بزوجه»، والتصحيح من (أ).
(٤) من (ب).
(٥) في الدرّة الزكية: «بتحقيق».
(٦) في شفاء القلوب: «وأعظم».
(٧) في الأصل: «اشكوا». وفي ذيل مرآة الزمان: «إلى علمك الفصل»، وفي الدرّة الزكية: «علمك العلوي»، وفي شفاء القلوب: «العليّ».
(٨) في الدرّة الزكية: «بمعلوم السرائر».
(٩) في (ب) ورقة ٣٧٩ب: «مستنصراً».
(١٠) في (ب) ورقة ٣٧٩ب: «المستنصر».
(١١) في ذيل مرآة الزمان:

أتيتهم مستصرخاً متجرّماً — كما يفعل المستصرخ المتظلّم

(١٢) في ذيل مرآة الزمان: «يئسنا».
(١٣) في الدرّة الزكية: «وهو محرّم».

مليكي أتعلوني الملوكُ بقهرها[١] وأنت ملاذي منهمُ وهم هُمُ[٢]
فحسبي اعتصاماً[٣] أنني بك لائذٌ إذا هُزَّ خَطِّيٌّ وجُرِّدَ مِخْذَمُ[٤]

ومنها:

أغِثْنا أغِثْنا من عِدانا يكُنْ لنا بك النَّصرُ حتّى يُخذلوا ثم يُهزَموا
لِنُدرِكَهم من بأسنا بكتائبٍ[٥] تهدُّ صناديدَ الملوك وتهدم
لنَسْقِيَهم[٦] كأساً سَقَونا بمثلها ونعفو ونسخو إذ سَطَوا وتلوّموا
طلبنا جليلاً من عظيم، وإنّما يجود بجليّ[٧] المكرُماتِ المعظّم
فجدّدْ لنُعماك[٨] القديمة عندنا حديثَ أيادٍ لَفظُها يترنّم
فنصْرُكَ مجهولٌ لنا ومعجّلٌ وبرُّكَ معلومٌ لنا فهو مُعْلَمُ[٩]

ذِكر مسير السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بالعساكر إلى الديار المصرية لقصد تملُّكها

ولما صحّ مِزاجُ الملك النّاصر، أخذ الأميرُ شمس الدين لؤلؤ في تحريضه على قصْد الديار المصرية وتملّكها، فرحل بالعساكر من دمشق متوجّهاً إلى الديار المصرية، وكان خروجه من دمشق يوم الأحد منتصف شهر رمضان من هذه السنة، أعني سنة ثمانٍ وأربعين وستماية[١٠]، وسافر في خدمته الشيخ شرف الدين، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاريّ، وهو مُلازِمٌ له، ومنزلتُه عنده في غاية العُلُوّ.

(وكان السلطان الملك المنصور صاحب حماه، قدّس اللّه روحه، قد سيّر بجدّه للملك الناصر، فسافروا معه، وسافر معه أيضاً الملك الأشرف مظفّر الدين موسى بن

---

(١) في الدرّة الزكية: «يريدون يؤذوني وأنت ذخيرتي».
(٢) في (ب): «وهم وهم».
(٣) في (ب) ورقة ٣٨٠أ «فحسن اعتصامي».
(٤) المِخذَم: السيف القاطع.
(٥) في الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ٢٧٤ رقم ٤٣: «من بأسها في كتائب».
(٦) في الفوائد الجلية: «فنسقيهم».
(٧) في الفوائد الجلية: «بجّل».
(٨) في ذيل مرآة الزمان: «يجدد نعماك».
(٩) القصيدة أطول من ذلك، في ٤٨ بيتاً في: الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية، للملك الناصر داود بن عيسى الأيوبي ـ تحقيق د. ناظم رشيد، سلسلة كتب التراث ١٩٩٢ ـ ص٢٦٩ ـ ٢٧٥. ووردت الأبيات في: ذيل مرآة الزمان ١/ ١٦٧، والدرّة الزكية ١٥، وعيون التواريخ ٢٠/ ٥٣، وشفاء القلوب ٣٥٧.
(١٠) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢.

الملك المنصور، صاحب حمص كان، وبيده يومئذٍ تلّ باشر، والرَحْبَة، وتدمُر، والملك المعظّم فخر الدين تورانشاه بن الملك الناصر صلاح الدين وأخوه نُصرة الدين، ومن أولاد الملك الناصر داود الملك الظاهر شادي، والملك الأمجد حسن[1]، وغير هؤلاء من ملوك البيت، ومقدّم الجيوش الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني، وهو كان الحامل على الحركة، كما سبق ذِكره، والمجتهد في ذلك ظنّاً منه أنّ الأمر سهلٌ وأنّ عسكر مصر أكثرهم ينضمّ إليه والباقون لا يثبتون أصلاً[2].

ولَعَمْري إنّ النصر كان مظنوناً ظنّاً غالباً، بل يكاد يكون مقطوعاً به، لولا ما اتفّق من الأمور التي لم تكن في حساب أحدٍ، ولم تكن الحركة من رأي الملك النّاصر، فإنّه كان يميل إلى المسالمة، ولا يرى المناقشة/ ١٠٢ب/ وكان في هذه الحركة كالمُكرَه عليها)[3]. ويوم خروجه من دمشق أنشده الشيخ شرف الدين المقدّم ذِكره، وهما راكبان:

على طالع الإقبال والسّعد والنّصرِ مَسيرُكَ محروسُ الركاب إلى مصرِ
من أخَر مجرى النيل في الجري بعدما تكاثر عدُّ الرمل بالجحفل المجر
ونسترجع الإرثَ الذي مَطَلَتْ به رجالٌ إلى أن جئتَ يا وارث الأمر
فأنت صلاحُ الدين وابنُ صلاحِهِ فلا مَلِكٌ أَوْلَى منك بالنَّهْي والأمر
وما أحدٌ لليوسُفَينِ بثالثٍ سِوَاكَ وللبكْرين والشمس والبدر
وكم لك من حربٍ عوانٍ تمخّضتْ فشيّبت الولدانَ بالفتكة البكْر
وكم وقعةٍ وسّعت بالسيف خرْقها أضاق بها الإسلامُ دائرةَ الكُفْر
ومشكلة كشفتَ بالرأي لبْسَها فغادَرْتها في مثل مُنْصَدَع الفجر
نَصَحْتَ لخلق اللّه سرّاً وجهرةً فأصفوا لك الإخلاص في السرّ والجهر
وزينتنا من راحتيك بأنعُم عنينا بها في المُحْل عن صيّب القَطْر
وألّفتَ من بعد المعظّم شملَنا ولولاك كانت تلك قاصمة الظهر
وأمّنتنا من كلّ نحوِ من الأذى فلم يَسْطُ في التمثيل زيدٌ على عمر
فدُمتَ طويلَ الباع منشرح النَّدى بسيطَ رحاب المجد والشكر والعمر

وسار الملك النّاصر يطوي المراحل مع العساكر العظيمة، ومماليكه الناصرية،

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢، عقد الجمان (١) ٣٩.

(٢) كان لؤلؤ الأميني يستهزي بعسكر مصر ويقول: آخُذها بمائتي فارس، وفي رواية: «بمائتي قناع» أي امرأة. انظر: نهاية الأرب ٢٩/ ٣٧٧، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٢٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٨هـ.) ص٥٩، وعيون التواريخ ٢٠، ٤١، وعقد الجمان (١) ٣٩.

(٣) ما بين القوسن ورد في (ب) ورقة ٣٨٠ب، بعد القصيدة.

ومماليك أبيه العزيزية، وهم جمْعٌ كثيرٌ من التُرك، وفي قلوب بعضهم وحشةٌ من مقدَّم العسكر شمس الدين لؤلؤ، على ما بَلَغَني لأمورِ عاملهم بها، من الاطّراح بهم، وعدم الاكتراث بهم، فمالت أنفسهم إلى التُرك بمصر كذلك، وللجنسيّة[١]، فكان ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

ولما وصلت الأخبار إلى الديار المصرية بتوجُّه السلطان الملك الناصر انزعج الملك المُعِزّ ومن معه من البحرية، وأجمعوا على لقاء الملك الناصر، ومحاربته،/ ١٠٣أ/ ودفعه عن البلاد، وقبض على جماعةٍ من الأمراء، واتُّهِموا بالمَيْل إلى الملك الناصر، وكان القبض عليهم يوم الأربعاء ثاني شوال[٢].

[وصول الملك الناصر إلى غزّة]

وفي هذا اليوم كان وصول الملك الناصر بعساكره إلى غزّة، واستقراره بها.

وتقدّم الملك المُعِزّ إلى العسكر المصرية بالتّهيّؤ للحرب واللقاء.

وفي غد هذا اليوم كثُر الإرجاف، وتقدّم بإحضار الدوابّ من الربيع[٣].

[بروز الأمير حسام الدين من القاهرة]

وفي يوم الإثنين ثامن شوّال، وهو الموافق لثاني كانون الثاني[٤] تقدّم إلى الأمير حسام الدين بن [أبي][٥] علي وساير (الأمراء)[٦] بالتبريز من القاهرة[٧].

[بروز الأمير أقطاي]

وفي يوم الثلاثاء تاسع شوّال برز الأمير فارس الدين أقطاي[٨] الجمدار مقدّم البحرية، والجَمداريّة في جمهور العساكر. وتوجّه بهم إلى جهة الشام، فنزل بالسانح في الصالحية.

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٤.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢.

(٣) الربيع: يُقصد به هنا مكان الرعي، أو المكان الذي تُربع فيه الدواب والمواشي.
والخبر باختصار في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢، ٣٧٣، والدرة الزكية ١٦.

(٤) في (ب) ورقة ٣٨١أ «كانون الأول»، والمثبت من (أ) هو الصحيح، انظر: The Muslim and christian calendars - G. S. P. FREEMAN, GRENVILLE - london, oxford University Press, New York Toronto 1963, P.34.

(٥) الإستدراك من (ب).

(٦) الإستدراك من (ب).

(٧) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٣.

(٨) في (ب): «اقطايا».

وبرز الأمير حسام الدين إلى مشهد التبن[١]. ثم رحل يوم الخميس حادي عشر شوّال، ووصل إلى الصالحية فنزل بها أيضاً[٢].

[نيابة الأمير البندقدار بمصر]

وفي يوم السبت الثالث عشر من شوّال، استناب الملك المُعِزّ بالديار المصرية الأميرَ علاء الدين البُنْدُقدار، وواظب[٣] الجلوسَ بالمدرسة الصالحيّة مع نواب دار العدل، لترتيب الأمور، وكشف المظالم[٤].

[إبطال الخمور]

ونودي في يوم [السبت][٥] السابع والعشرين من شوّال بإبطال الخمور، والجهات المفردة[٦].

وكثُر الإرجاف في هذا اليوم بنزول الملك الناصر الداروم بالعساكر الشامية، وأنه على قصد الدخول إلى الرمل[٧].

[خلعة الملك المعزّ على ولدي الملك الصالح]

وفي يوم الإثنين التاسع[٨] والعشرين من شوّال خلع الملك المُعزّ على الملك المنصور نور[٩] الدين محمود بن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وأخيه[١٠] الملك السعيد عبد الملك، وكانا معتقلين من أيام الملك الصالح نجم الدين، كما تقدّم ذِكره. وإنّما فعل ذلك ليوهم أنّ الملك الصالح أباهما ـ وكان مع الملك الناصر ـ مُباطنٌ الملكَ/ ١٠٣ب/ المُعِزّ والبحريّة، فتقع بسبب ذلك النّفرة في قلب الملك النّاصر منه[١١].

---

(١) في الأصل: «مشهد التين»، والتصحيح من (ب) ورقة ٣٨١أ.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٣. (٣) في الأصل: «واضب».

(٤) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٣.

(٥) الإستدراك من (ب) ورقة ٣٨١ب.

(٦) في (ب) ورقة ٣٨١ب: «والجهات المفسدة لأحوال الدين». والمثبت من (أ) هو الصحيح. والمراد بالجهة هنا: الضريبة. وهي الضريبة المقرّرة لديوان المفرد: وهو الديوان الذي يتولّى نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة، وإيراده من البلاد المقرّرة له. (صبح الأعشى ٣/ ٤٥٧).

(٧) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٣.

(٨) في (ب) ورقة ٣٨١ب: «الثالث والعشرين».

(٩) في (ب) ورقة ٣٨١ب: «نصير».

(١٠) في الأصل: «وأخوه»، والصواب ما أثبتناه من (ب).

(١١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٣.

[المصالحة بين الملك المغيث والملك المعزّ]

ونودي يوم الثلاثاء، مُستَهَلّ ذي القعدة، بانتظام الصُلح بين الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل، صاحب الكرَك، وبين الملك المُعِزّ والبحرية، وقصد بذلك أيضاً الإيهام، ليبلغ الملكَ الناصرُ ذلك، ليتوقّف عن دخول الرمل[١].

[اجتماع العساكر بالصالحية]

ولما كان يوم الخميس، ثالث ذي القعدة، رحل الملك المُعزّ في بقية العساكر إلى الصالحية. واجتمعت عساكر مصر جميعها بها[٢].

[إقامة الملك الأشرف موسى بالقلعة]

وأقام بالقلعة الملك الأشرف مظفر[٣] الدين موسى للسلطنة، [والتواقيع تنفّذ باسمه واسم الملك المُعزّ بعده، فيكتب في التواقيع ما صورته: خرج الأمر العالي، المولوي، السلطاني، الأشرفي، والأمير العالي، المولوي، المعزّي][٤].

وفي يوم السبت الخامس من ذي القعدة، ورد الخبر بوصول السلطان الملك الناصر إلى قطْيا.

[تقارب العسكرين المصري والشامي في المواجهة]

وفي يوم الإثنين سابع ذي القعدة وصل السلطان الملك الناصر (بالعساكر)[٥] إلى كُرَاع[٦]، وهي قريبة من العبّاسة والسّدير[٧]، وتَقَارَبَ ما بين العسكرين. وغلب على الظنّ أنّ النصْرة لعساكر الشام لكثرتهم، ومَيْل بعض العساكر المصرية في الباطن إليهم، وكان مع الملك الناصر كما قدّمنا ذِكره، وجمْع كثير من مماليك أبيه الملك العزيز، ومن مماليكه أيضاً. فمال أكثرهم في الباطن إلى التُرك الذين بمصر للجنسيّة، ولنفرتهم من الأمير شمس الدين لؤلؤ، مدبّر الدولة، كما قدّمنا ذِكره، فكان ما سنذكره[٨].

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٣.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٣.

(٣) في (ب) ورقة ٣٨١ب «الأشرف شرف الدين».

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة من (ب) ورقة ٣٨١ب.

(٥) عن هامش المخطوط.

(٦) كُراع: في اللغة طرف الشيء. وكُراع الأرض: طرفها البعيد. (محيط المحيط) والكراع من طريق البدرية. (الدرة الزكية ١٧).

(٧) في (ب) ورقة ٣٨١ب «الديره».

(٨) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٤.

ذِكر كسرة العساكر الشامية
ورجوع السلطان الملك الناصر إلى دمشق

ولما نزل السلطان الملك الناصر بكُرَاع، رحل الملك المُعِزّ في عساكر مصر من الصالحية، ونزل بسَمُوط[١] قبالة الملك الناصر.

ولما كان يوم الخميس العاشر من ذي القعدة ركبت العساكر الشاميّة وترتّبت مَيْمنةً ومَيْسرة، وقلباً وجناحين، وترتّبت/ ١٠٤أ/ العساكر المصرية كذلك، وتدانى العسكران.

ثم وقع المصافّ في الساعة الرابعة من هذا اليوم، فحملت العساكر الشامية وراءهم، وثبت الملك المُعِزّ في جماعةٍ من البحرية وغيرهم قليلة، وانحاز إلى جانب. وكان على ما قيل قد عزم على الهرب إلى ناحية الشَوْبَك، ومعه الأمير فارس الدين أقطاي. وبقي الملك الناصر تحت السناجق السلطانية في جَمْعٍ قليل. وحالت أثقال العسكر والغبرة المنعقدة بينه وبين العسكر المتّبعين للمنهزمين من المصريّين، حتّى أبعدوا عنه، ووصلوا خلف المنهزمين إلى العبّاسة، وضُرِب بها دِهليز السلطان الملك الناصر، ولا عِلم لهم بما جرى خلفهم.

فحكى لي الأمير حسام الدين بن أبي علي، رحمه اللّه، أنه تقنطر به فرسُه وقت الحملة، وسقط عنه إلى الأرض، ووجده بعض العسكر على الأرض فأركبه.

قال: لم أشكّ أنّ الكسرة قد تمّت على المصريّين، وأنه لا يقوم لهم بعدها قائمة.

قال: وشاهدت طُلْباً واقفاً قريباً منّي، [نحو سبعين فارساً][٢] فقصدتهم فرأيت رَنكَهم رَنْك[٣] المصريّين، فلما دنوت منهم وجدت الملك المُعِزّ، وفارس الدين أقطاي وجماعة قليلة معهما لا يزيدون على سبعين فارساً، فسلّمت على الملك المُعِزّ وفارس الدين، ووقفتُ معهما.

---

(١) سَمُوط: موضع بين الخشبي والعباسة، كما قال أبو شامة في: كتاب الروضتين (٢٠) وقال المقريزي: «تجاه الكراع قريباً من الخشبي بالرمل». (السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٤).

(٢) زيادة من (ب) ورقة ٣٨٢ب.

(٣) رنك: جمعها رُنُوك. لفظ فارسي معناه: لون أو طِلاء، دخل العربية في نهاية العصر الإسلامي للدلالة من خلاله على الشعار الذي يتخذه السلطان كشارةٍ من شارات السيادة والملك، ومع التوسع في الاصطلاحات العسكرية عند المماليك أصبح لكل وحدة عسكرية أو لكل فئة من المماليك رَنك خاص بها، له رسومه التي تدلّ عليه من خلال وظيفة كل فئة أو وحدة بحسب الاختصاص. وكانت الرنوك تُنقش على المباني، وعلى الثياب، والسيوف، وسروج الخيل، والمراكب، وغيرها. وهي على أنواع، مثل السيف ويرمز إلى السلحدار، والعلم إلى العلم دار أو البيرقدار، والعصا للجوكندار، والكأس للساقي، وحدوة الفرس للأميراخور.

فقال الملك المُعِزّ: ترى هذا الجمع الذي قدّامك؟

فقلت: نعم.

فقال: هذا الملك الناصر وجماعته تحت السناجق.

قال: ثم حمل الملك المُعِزّ ومن معه من الترك على الطُلْب الذي فيه السلطان، فولّى السلطان منهزماً إلى الشام فكُسرت سناجقه، ونُهب ما معه، وأُسِر بعضهم، ونجا بعضهم، وانضاف بعض العزيزيّة/ ١٠٤ب/ إلى الملك المُعِزّ، وكثُر جَمعه.

ولقد كان اتّباع العساكر الشامية لعسكر وترْكهم السلطان وحده في جمع قليل، من سوء تدبير شمس الدين لؤلؤ، فإنّه كان يحبّ أنّه لما كُسر المصريّون أن يمنع العسكر عن البُعد عن الملك الناصر، وأنهم يسيرون معه إلى المنزلة حتّى ينزل بها، ثم يرحلون من الغد في جملة العسكر، فإنّه لو جرى الأمر هذا المجرى لملكوا البلاد لا محالة، لكنّه لا مَرَدَّ لِما أراده اللّه وقدّره.

وقُبض يومئذٍ على الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، والملك الأشرف صاحب حمص، والملك المعظّم توران شاه بن صلاح الدين، وأخيه نُصرة الدين. وبلغ الأمير شمس الدين لؤلؤ هربُ الملك الناصر، فقال: ما يضرّنا هذا بعد أنْ قد انتصرنا، هو يعود إلينا إذا مَلَكْنا البلاد.

وكان شمس الدين في جَمْع من العسكر.

ولما انهزم الملك الناصر رأى شمس الدين لؤلؤ وقد عاد بجمعه، طَلَب الملك المُعِزّ، فاستقلّهم، وأراد الحملة عليهم، فقيل له: أتركهُم، فما لنا حاجة بقتالهم. فقال: لا بدّ من قصدهم، وحمل في أصحابه عليهم، وحملوا عليه، فكسروا الجمع الذين مع شمس الدين، وقبضوا عليه وعلى الأمير ضياء الدين القيمُري، وأحضر شمس الدين بين يدي الملك المُعِزّ، فأمر بضرب عُنُقه.

فحكي لي حسام الدين قال: ما رأيت أحداً أحسن ثباتاً منه، ولا أشدّ صبراً، لم يتكلّم بكلمةٍ واحدة، ولا ذلّ ولا خضع، وبقي مطروحاً لا يرفع رأسه ولا يضطرب حتى أخذته السيوف وقُطِّع.

وكان، رحمه اللّه، أميراً جليل القدر، ديّناً يحبّ أهل الفضل والدين، ويُسدي إليهم المعروفَ الكثير، ويُحسن إليهم الإحسان العظيم.

ولما أُتي بضياء الدين القيمُريّ ضُربت عُنُقه.

ولما أُتي بالملك الصالح إلى الملك المُعِزّ ـ وإنّما أُتي به إليه غد يوم الواقعة ـ وُقف إلى جانبه.

/ ١٠٥أ/ قال حسام الدين: فقال لي الملك المُعِزّ: يا خَوَنْد، حسام الدين، أما تسلّم على المولى الملك الصالح؟

قال: فدنوتُ إليه وسلّمتُ عليه، وأمّا العسكر المنهزمون من عسكر مصر، فإنّ الهزيمة استمرّت بهم، ولا يعلمون ما تجدّد بعد ذلك، ووصلوا إلى القاهرة غد هذا اليوم، وهو يوم الجمعة، وهرب بعضهم إلى الصعيد، ونزل معظم العسكر الشامي العبّاسة وباتوا بها وفيهم الأمير جمال الدين بن يغمور، وغيره من أمراء الملك الناصر لا يظنّون إلّا أنّ الكسرة قد تمّت على المصريّين، وأنّ أمرهم قد زال بالكلّية، ثم جاءهم الخبر بهرب الملك الناصر، ومقتل شمس الدين لؤلؤ، ومقتل ضياء الدين القيمُري، وأسِر من أُسُر من الملوك وغيرهم، فاختلفت آراؤهم فيما يعتمدونه، فمنهم من أشار بدخول القاهرة ولو دخلوا لملكوا، فإنّ الملك المُعِزّ لم يكن جمعُه كبيراً، ومُعظم البحرية وغيرهم قد تفرّقوا أيادي سبأ[١].

وكان فيهم تاج الملوك بن الملك المعظّم بن صلاح الدين وهو مجروح، وباتوا بالعباسة[٢]. (وانضمّت أكثر العزيزية والناصرية إلى الملك المُعِزّ. وكان مقدّمهم والمشار إليه فيهم الأمير جمال الدين أيدُغدي العزيزي، وحلف لي أنه ما انضمّ إلى الملك المُعِزّ، إلّا بعد عِلمه بهرب الملك الناصر)[٣].

وهذه الواقعة من أغرب الوقائع وأعجبها، لم أسمع في شيء من التواريخ بواقعة تُشبهها إلّا واقعتين، **أحدهما**:[٤] قديمة، وهي أنه كان توجّه أبو العباس المعتضد بالله إلى مصر في حياة أبيه الموفّق أبي أحمد طلحة، وخلافة عمّه المعتمد على الله. ولم يكن للمعتمد مع أخيه الموفّق إلاّ مجرّد الاسم، وإلاّ كلّه للموفّق. فتوجّه أبو العباس في جيشٍ كثيف ليملك مصر. وصاحبها يومئذٍ أبو الجيش خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون، فخرج خمارويه في عساكر/ ١٠٥ب/ مصر لقتاله[٥].

---

(١) في (ب) ورقة ٢٨٣أ «أيادي شتًا».

(٢) خبر الكسرة في: أخبار الأيوبيين ١٦١ ـ ١٦٣، وتاريخ مختصر الدول ٢٦٠، ٢٦١، وتاريخ الزمان ٢٩٧، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٨٤، ١٨٥، ونهاية الأرب ٢٩/ ٤٢١، وذيل الروضتين ١٨٦، ومذكرات جوانفيل ٢٣٨، والدرّة الزكية ١٦ ـ ١٨، والعبر ٥/ ١٩٧، ١٩٨، ودول الإسلام ٢/ ١٥٥، ١٥٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٨هـ.) ص٥٩، ٦٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٥، ١٨٦، والبداية والنهاية ١٣/ ١٧٩، وعيون التواريخ ٢٠/ ٤١، ٤٢، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٧٩، ٥٨٠، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٦، وعقد الجمان (١) ٣٩، ٣٤، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠.

(٣) ما بين القوسين ليس في (ب).

(٤) هكذا في الأصل، والصواب: «إحداهما».

(٥) هذه الفقرة تقدّمت في (ب) ورقة ٣٨٢أ بعد عنوان «ذكر كسرة العساكر الشامية . .» مباشرة.

([١]) وكان المصافّ بين الفريقين بقرب الرملة، بمكانٍ يُعرف بالطواحين. وكان مع أبي العباس طبولٌ عظام، مجلّدةٌ بجلود البقر من طبول الخلافة، يُضرب بها ضرباً شديداً مزعجاً. فلما التقى الجيشان، وضُربت طبول أبي العبّاس الضربَ الشديد، وجاوبها صدى الجبال، نفرت منها خيول عساكر المصريّين، ووقعت عليهم الهزيمة، وولّوا الأدبار، وهرب مقدَّمهم أبو الجيش خمارَوَيْه، وأسرع الوصول إلى مصر، وهو لا يكاد يصدّق بالنجاة، فوصلها في ثلاثةٍ، ولا يعلم ما تجدّد بعد هربه، وخلا سُرادقه وخيامه من الناس، فاستولى عليها أبو العباس، ونزل في السُّرادق، وصلّى ركعتين شكراً للّه تعالى على النصر.

ثم إنه تحايا عسكر مصر وتراجعوا، وحملوا على عسكر أبي العباس. وسمع أبو العباس الضجّة وهو في السُّرادق، فركب فرسه وانهزم نحو دمشق، والتقى العسكران، واقتتلو قتالاً شديداً، فلم يُر أعجب من عسكرٍ يقتتلان، وقد هرب مقدّماهما معاً.

ثم كانت الهزيمة على عسكر أبي العباس، وانتصر المصريّون عليهم، ورجع أبو العباس إلى أبيه الموفّق[٢].

والثانية: وقد قدّمنا ذِكرها[٣]، وهي أنّ مظفّر الدين بن زين الدين، صاحب إربل، التقي هو وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فهزم بعض عسكر الموصل بعض عسكر إربل واتّبعوهم، وهزم مظفّر الدين بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل واتّبعه)[٤].

---

(١) من هنا يبدأ النقص من (ب).

(٢) تعرف هذه الواقعة بواقعة الطواحين. انظر عنها في: تاريخ الطبري ١٠/٨، وولاة مصر للكندي ٢٥٩، ٢٦٠، والولاة والقضاة، له ٢٣٥، ومروج الذهب ٤/ ٢١٠، والعيون والحدائق ج٤ ق١/ ١١٣، ١١٤، والمنتظم لابن الجوزي ٥/ ٨٠ (١٢/ ٢٤٣)، وزبدة الحلب ١/ ٨٢١، والمختصر لأبي الفداء ٢/ ٥٤، ونهاية الأرب ٢٢/ ٣٤٠، وتاريخ الإسلام (٢٦١ - ٢٨٠هـ.) ص٢٢٠، ودول الإسلام ١/ ١٦٥، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٤٠، ومرآة الجنان ٢/ ١٨٦، والبداية والنهاية ١١/ ٤٩، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٤٤، والنجوم الزاهرة ٣/ ٥٠، وتاريخ الخلفاء ٣٦٦.

(٣) في مفرّج الكروب ٤/ ٢٥ - ٢٨ (حوادث سنة ٦١٦هـ.)، وانظر: الكامل في التاريخ (حوادث سنة ٦١٥هـ.) - بتحقيقنا - وزبدة الحلب ٣/ ١٨٧، ونهاية الأرب ٢٩/ ١٠٦، والعسجد المسبوك ٢/ ٣٨٠، ٣٨١، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٩١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦١٧هـ.) - بتحقيقنا - ص٣٤.

(٤) حتى هنا ينتهي النقص من (ب) ورقة ٣٨٢ب.

ذِكر الأمور التي جرت بالقاهرة غد[١] يوم الوقعة

ولما كان غد يوم الوقعة، وهي[٢] يوم الجمعة الحادي عشر من ذي القعدة، وصل المنهزمون من عسكر مصر إلى القاهرة، يتبع بعضهم بعضاً، ووجوههم كاسفة، فمنهم من اختفى بالقاهرة، ومنهم من/ ١٠٦أ/ هرب إلى الصعيد، وأيقن أهل البلدين: القاهرة ومصر بأنّ الديار المصرية قد مَلَكَها الملك الناصر، ولم يشكّوا في هرب الملك المُعِزّ، ومن معه، فخُطب بقلعة الجبل للملك الناصر، وكذلك بجامع عَمرو بن العاص بمدينة مصر. وأمّا القاهرة فإنه لم يُقَم في جامعها خُطبة. وتوقّفوا لينكشف لهم حقيقة الأمر، وكان بالجامع الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، رحمه اللَّه، وهو يومئذٍ مدرّس المدرسة الصالحية على مذهب الشافعيّ، رحمه اللَّه، فخطب بجماعة يزيدون على أربعين خطبتين خفيفتين، لم يتعرّض فيهما لأحدٍ من الملوك، وصلّى بهم صلاة الجمعة، وباقي الناس صلّوا الظهر أربعاً وبعد فراغ الصلاة بساعة وردت الأخبار بانتصار الملك المُعِزّ والبحرية، وانهزام الملك الناصر، فضُربت البشائر، وورد جماعة، ومعهم نُصرة الدين بن صلاح الدين، وصعدوا به إلى القلعة، واعتُقل بها.

وكان بالقلعة ناصر الدين بن يغمور أستاد دار الملك الصالح إسماعيل، وأمين الدولة وزيره[٣]، وهما معتَقَلان بها من أيام الملك الصالح نجم الدين، رحمه اللَّه، لما بلغهم انكسار مصر خرجا من الحبس، وأظهرا السرور وأَمَرَا ونهيا.

ثم لما ورد الخبر بهرب الملك الناصر، وانتصار المصريّين، أعيدا إلى حبس، ونودي في آخر هذا اليوم بإظهار الزينة، فزيّن البَلَدان.

وأمّا الملك المُعِزّ، ومن معه من البحرية، ومن انضمّ إليهم من العزيزية والناصرية الذين فارقوا صاحبهم، فإنّهم توجّهوا إلى القاهرة على غير طريق العبّاسة[٤]، خوفاً من عساكر حلب النازلين بها، ووصلوا إلى القاهرة بُكرة يوم السبت الثاني عشر من ذي القعدة، فدخلوها، ولعبوا بين القصرين على خيولهم بالرماح، وتَطَاردوا./ ١٠٦ب/ وكان يوماً مشهوداً.

وطلع الملك المُعِزّ، ومعه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، إلى قلعة الجبل.

---

(١) في الأصل: «عند»، وفي (ب) ورقة ٣٨٣أ.

(٢) الصواب: «وهو» كما في (ب).

(٣) هو: أبو الحسن بن غزال.

(٤) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٦، ٣٧٧، عقد الجمان (١) ٤٢.

ولقد رأيت الملكَ الصالح لما دخل القاهرة، وهو بين يدي الملك المُعِزّ، وإلى جانبه الأمير حسام الدين بن أبي علي، وهو يحادثه.

فحكى لي حسام الدين قال: قلتُ له: هل رأى المولى القاهرة قبل هذه المرة؟

قال: نعم، رأيتها مع أبي الملك العادل، رحمه اللّه، وأنا صبيّ، واعتُقل الملك الصالح في دارٍ بقلعة الجبل، واعتُقل الملك الأشرف صاحب حمص، والملك المعظّم بن صلاح الدين، وأخوه نُصرة الدين في حبْس بالقلعة.

ولما دخل المُعِزّ وفارس الدين أقطاي تلقّاهم الملك الأشرف موسى بن الملك المسعود المنصوب في السلطنة، فهنّياه بالنصر والظفَر. وقال له فارس الدين أقطاي: يا خَوَند، كلّما حصل بسعادتك[١]، وما سعينا إلّا في تقرير مُلْكك.

وكان فارس الدّين يؤثر بقاء الملك الأشرف في المُلْك، لئلّا يستبدّ الملك المُعزّ بالمُلك، فإنه كان [يرى][٢] إنْ مال الملك إلى نفسه، فكان يؤثر بقاء الملك الأشرف، ليكون ذريعةً إلى ذلك.

واستمرّت الزينة بالبلدين والقلعتين أياماً[٣].

[شنق ابن يغمور والوزير أمين الدولة]

ولما كان يوم الإثنين الرابع عشر من ذي القعدة، تقدّم الملك المُعِزّ بشنْق ناصر الدين بن يغمور، أستاد دار الملك الصالح إسماعيل، ووزيره أمين الدولة، لخروجهما من محبسهما بقلعة الجبل، وتظاهرهما بالسرور، فشُنقا بباب القلعة[٤].

وكان أمين الدولة[٥] عنده رياسة وعقل وفضل، وكان صَبيح الوجه، حَسَنَه، إلّا أنّ اللّه تعالى لقّى كُلّاً منه، ومن القاضي رفيع الدين الجيلي[٦] قاضي دمشق بما

---

(١) في الأصل: «بسعاتك»، والتحرير من (ب) ورقة ٣٨٤أ.

(٢) ساقطة من (أ). وفي (ب) ورقة ٣٨٤أ «يرا».

(٣) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٧، ٣٧٨. (٤) السلوك ج١ ق٢/ ٣٧٨.

(٥) هو الصاحب أبو الحسن السامري، ثم المسلماني، وزير الملك الصالح عماد الدين إسماعيل. انظر عنه في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٨٤، وأخبار الأيوبيين ١٦٣، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٠٧، ونزهة الإسلام ٢٠١، والعبر ٥/ ١٩٩، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٨هـ.) ص٣٨٤، ٣٨٥ رقم ٥٠١، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٢٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٦، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨٠، ١٨١، وعيون التواريخ ٢٠/ ٤٧، وعقد الجمان (١) ٤٦، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢١، ٢٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٤١.

(٦) هو قاضي القضاة بدمشق الشافعي، أبو حامد عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل الجيلي، تولّى قضاء بعلبك ومدرستها الأمينية. قتل في سنة ٦٤٢هـ. انظر عنه في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٤٩ ـ ٧٥١، وذيل الروضتين ١٧٣، ١٧٤، وعيون الأنباء ٢/ ١٧١، ١٧٢، ونهاية الأرب =

سلكاه[١] من ظلم الرعيّة، وعسْفهم، وأخْذ أموالهم ظلماً، لأجل مخدومهما لما ضاق خناقه بقصد السلطان الملك/ ١٠٧أ/ الصالح نجم الدين له، فكان أمين الدولة يطالب الرفيع، بتحصيل الأموال.

وكان الرفيع يقيم شهودَ زُورٍ، يشهدون على أرباب الأموال والتّجار بالزّور والباطل، فسلّط اللَّه تعالى أمينَ الدولة على الرفيع، بأنْ بعثه مع رجل من أهل الجبل، يقال له ابن[٢] صُبح، فصعِد به على رأس شقيفٍ، ورماه منه، فتقطّع قِطعاً.

(حكى لي هذه الواقعة ابن[٣] صُبح هذا في القاهرة. قال: لما أتيتُ به إلى ذلك الموضع، وعرف أنّي أريد رَمْيَه.

قال: باللَّه عليك أمهِلْ عليّ حتى أصلّي ركعتين، فأمهلتُه حتّى صلّاهما، ثم رميته، فهلك)[٤].

وسلّط اللَّه التُرك على أمين الدولة فشنقوه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٥].

ذِكر مقتل الملك الصالح
عماد الدين إسماعيل رحمه اللَّه

ولما كانت ليلة الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة، أتى عزّ الدين أيبك الروميّ الصالحيّ في جماعةٍ من التُرك ليلاً، إلى الدّار الّتي فيها الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وأمروه أن يركب معهم.

= ٢٩/ ٣٠٣، ٣٠٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٠٩ ـ ١١١ رقم ٨٤، والعبر ٥/ ١٧٢، ١٧٣، ودول الإسلام ٢/ ١١١، والمختار من تاريخ ابن الجزري ١٩٤ ـ ١٩٦، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٢٧، ١٤٢٨، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٢هـ.) ص١٢٥ ـ ١٣٠ رقم ١٠٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٧٣، ١٧٤ وفيه «الرقيع» ووفاته في سنة ٦٤١هـ.، وطبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير ٢/ ٨٥٤ ـ ٨٥٦، والبداية والنهاية ١٣/ ١٦٢، ١٦٣ في وفيات ٦٤١هـ. وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٥٩٢ ـ ٥٩٤ رقم ٥٤٧، والوافي بالوفيات ١٨/ ٥٢٤ ـ ٥٢٦ رقم ٥٢٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧١، ١٧٢، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٣٤ وفيه «عبد العزيز بن إسماعيل بن عبد الهادي»، وهو خطأ، والفلاكة والمفلوكون للدُلجي ٧٥ وفيه وفاته ٦٤٣هـ. والمنهل الصافي ٧/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥ رقم ١٤٣٦، والدليل الشافي ١/ ٤١٥ رقم ١٤٣٠، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٠، والدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٨٨، وقضاة دمشق ٦٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢١٤، ٢١٥، ومجلة النصاب ١٧٧أ و٣٤٤أ ب، ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٥١، ٢٥٢، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ـ تأليفنا ـ ق٢ ج٢/ ٢١٣، ٢١٤ رقم ٥٤٩، ونزهة الأنام ٢٠٠.

(١) في (ب) ورقة ٣٨٤أ «بما سلطاه».

(٢) في الأصل: «بن».

(٣) في الأصل: «بن».

(٤) ما بين القوسين ليس في (ب) ورقة ٣٨٤أ.

(٥) سورة فُصّلت، الآية ٤٦.

وكان على ما بلغني مع غلمانٍ يمصّ قَصَبَ سُكّر، فركب معهم، ومعهم مِشْعل، ومضوا به إلى باب القلعة الذي يلي القُرافة وأطفوا[1] المِشعل، وخرجوا من الباب، فكان آخر العهد به، فقُتل، والله أعلم أنه خُنِق ودُفن مكانه[2].

وقيل: إنهم خنقوه، ثم فارقوا وهم يظنّون أنه قد مات، ولم يكن مات، ورأته امرأة هناك، فمضت إليهم، وأخبرتهم أنه حيّ، فعادوا إليه، وخنقوه حتّى مات.

ومن أعجب ما سمعتُه أنّ الملك الجواد بن مودود كان في حبس الملك الصالح هذا، وأنه سيّر إليه مَن خَنَقَه وفارقه، ثم أفاق.

وقيل للذي خنقه: إنه قد أفاق، فعاد إليه وخنقه حتّى مات. فانظر إلى هذه الواقعة ما أعجبها، وتحقّق أنّ من عمل/ ١٠٧ب/ خيراً أو شرّاً جُوزي به، إمّا عاجلاً، وإمّا آجِلاً.

ذِكر سيرته رحمه الله

كان ملكاً، شهماً، متيقّظاً، مُحسِناً إلى جُنده وغلمانه وحاشيته، كثير التّجمّل.

وكان أبوه الملك العادل، رحمه الله، كثير المحبّة لأمّه. وكانت من أحظى حظاياه عنده، وكانت ذات معروف وإحسانٍ، ووقفتْ مدرسةً على مذهب الشافعيّ ووقفتْ عليها وقفاً حسناً.

ومات الملك العادل، والملك الصالح هذا صغير السّنّ، وكان قد أقطعه بُصرَى والسواد، فبقيت في يده أيام أخيه الملك المعظّم، وأخيه الملك الأشرف، ثم جعله الملك الأشرف وليّ عهده، ومَلَك دمشق بعده، فأخذها منه أخوه الملك الكامل وعوّضه عنها بَعْلَبَكّ والبقاع، مُضافاً إلى ما كان له من جهة والده،

---

(١) الصواب: «أطفأوا».

(٢) انظر عن (الملك الصالح إسماعيل) في: الفوائد الجلية ١٠٥، ١١١، ٢٤٦، و٢٤٧ و٢٥٧ و٢٦٠ ـ ٢٦٢، وبغية الطلب لابن العديم (المصوّر) ٤/ ٣٤٧ ـ ٣٥٠ رقم ٥٣٦، وذيل الروضتين ١٨٦، وتاريخ مختصر الدول ٢٣٢، وأخبار الأيوبيين ١٦٣، وتلخيص مجمع الآداب ج٤ ق٢/ ٦٩٢، والدرّة الزكية ١٥، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٣ و٥/ ٨٢ و٨٤ و٣٣٤، ٣٣٥، ونزهة الأنام ٢٠٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٨٥، والعبر ٥/ ١٩٨، ٢٩٩، ودول الإسلام ٢/ ١٥٦، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٨هـ.) ص٣٨٢، ٣٨٤ رقم ٥٠٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٦، ومرآة الجنان ٤/ ١١٨، والبداية والنهاية ١٣/ ١٧٩، ١٨٠، والوافي بالوفيات ٩/ ٢١٥ رقم ٤١٢١، وعيون التواريخ ٢٠/ ٤٦، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٨٠، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٨٢، ٨٥، ٩٤، ٩٥، وعقد الجمان (١) ٤٧، والدليل الشافي ١/ ١٢٨ رقم ٤٤٧، والمنهل الصافي ٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢٢ رقم ٤٤٨، والنجوم الزاهرة ٧/ ٨، ٩، وشفاء القلوب ٣٢٤، ٣٢٥ رقم ٤٣، والدارس ١/ ٣١٦، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٦٠، وشذرات الذهب ٥/ ٢٤١، وترويح القلوب ٦١.

(١) ثم جرى بعد ذلك من ملكه دمشق، ثم انتزاعها منه، وسائر ما معه ما تقدّم ذِكره، وكان عاقبة أمره ما أوردناه، فسُبحان مُؤتي الملكَ من يشاء ونازعه ممن يشاء، ومُعِزّ من يشاء ومُذِلّ من يشاء.

[إستيلاء أقطاي على غزّة]

وفي يوم السبت السابع والعشرين من ذي الحجّة رحل الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار في ثلاثة آلاف فارس إلى غزّة، فاستولى عليها على ما حولها، ثم عاد بعد ذلك إلى القاهرة(٢).

[وصول الملك الناصر إلى دمشق]

وقدِم السلطان الملك الناصر إلى دمشق، وتلاحق به أصحابه وعساكره، وقد ضعُف جُنده بسبب ما عرض في هذه الكسرة لهم من الوهْن، وأخذ في إصلاح جُنده وتقوية عساكره(٣).

وكنّا قد ذكرنا رجوعَ الصاحب كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم من مصر إلى الشام، بعد قتْل الملك المعظّم، وأنّه وجد الملك الناصر بالقطيعة، وفارقه من تلك المنزلة، وتوجّه إلى حلب.

ثم لما/ ١٠٨أ/ دخل السلطان الملك الناصر دمشق ومَلَكَها. بعث إلى كمال الدين كتاباً يتقاضاه فيه بأن يصل إلى دمشق، وفيه بخطّه ما صورتُه: «لا يلبث بعد كتابنا هذا يوماً، وليُفْطِر عندنا إن كان أوجب صوماً». فتوجّه إلى دمشق مسرعاً، وأقام بدمشق ليتجهّز رسولاً عن السلطان الملك الناصر إلى الخليفة المستعصم بالله، وسار من دمشق إلى بغداد، وجعل طريقه على حلب، وصُحبته تقدمة سنيّة، ومضمون الرسالة: «إنه قد تعيّن قتال البحرية، وإزالة أمرهم من مصر، وتصويب محاربتهم» فأدّى الرسالة وقدّم التقدمة. وسافر الملك الناصر إلى مصر، وجرى له ما قدّمنا ذِكره. وبلغ الصاحبَ كمال الدين خبرُ كسرة الملك الناصر حول الموصل، ورجع إلى السلطان في المحرّم من سنة تسعٍ وأربعين وستماية.

---

(١) هنا وقع سَقَط من النسخة (ب) آخر الورقة ٣٨٤ب. مقداره ٢٢ صفحة = ١١ ورقة، ينتهي أثناء خبر استيلاء التتر على بغداد.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٨٠، الدرّة الزكية ١٩.

(٣) نهاية الأرب ٢٩/ ٤٢٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٩هـ.) ص٦٥، السلوك ج١ ق٢/ ٣٨٠، النجوم الزاهرة ٧/ ٢١.

٦٤٩هـ

ودخلت سنة تسع وأربعين وستماية

والسلطان الملك الناصر مقيمٌ بدمشق، والملك المُعِزّ عزّ الدين أيبك التُركماني بالديار المصرية، وهو القائم بأمر مُلكها، ومعه فارس الدين أقطاي الجَمْدار والبحرية. واسم السلطنة بها للملك الأشرف مظفّر الدين موسى بن يوسف بن الملك المسعود.

[رسليّة ابن العديم إلى صاحب الموصل]

وفي هذه السنة توجّه الصاحب كمال الدين بن العديم، رحمه اللّه، رسولاً من السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف إلى بدر الدين صاحب الموصل.

وكنّا قد ذكرنا المصافّ الذي وقع في سنة سبع وأربعين وستماية بين بدر الدين، وعسكر حلب، والملك السعيد صاحب ماردين، وأنّ بدر الدين انهزم هزيمة قبيحة، وأُخِذت خيامُه وسُرادقُه، وأنه انهزم إلى الموصل. واستولى عسكر حلب على نصيبين وقلعتها، وأخذوا/ ١٠٨ب/ وسلّموها إلى صاحب ماردين.

وكان مضمون رسالة كمال الدين في هذه السنة التّوسّط في الإصلاح بين صاحب الموصل وصاحب ماردين، وأن تُردّ نصيبين إلى صاحب الموصل، وبلاد الخابور جميعها، وأن تُقام الخطبة في الموصل وبلادها للسلطان الملك الناصر. فاجتمع كمال الدين بالملك الناصر في سنجار وخطب بها للملك الناصر، ونُثرت الدراهم والدنانير وقت إقامة الخطبة. ثم عاد كمال الدين إلى حلب.

[نزول الملك الناصر على تلّ العجول]

وفي هذه السنة نزل عسكر الملك الناصر على تلّ العجول لمحاربة المصريّين، وأمرُ العسكر إلى الأمير سيف الدين بكتوت أستاد دار الملك الناصر. ولما جرى ذلك رحل الملك المُعِزّ وفارس الدين أقطاي بعسكر مصر، ونزلوا بالصالحية في مقابلة عسكر الشام.

وورد من جهة الخليفة المستعصم باللّه الشيخ الإمام نجم الدين عبد اللّه بن محمد البادَرائيّ للإصلاح بين الملك الناصر والمصريّين، وتردّد من دمشق إلى مصر، ومن مصر إلى الشام للإصلاح بينهم[1].

---

(١) مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٨٥، دول الإسلام ٢/ ١٥٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٤٩هـ.) ص٦٥، =

وخرجت هذه السنة والأمر على ذلك.

[وفاة بهاء الدين بن الجُمَّيزيّ]

وفي هذه السنة توفي الشيخ الإمام بهاء الدين بن الجُمَّيْزيّ[١]، رحمه اللّه.

وكان إماماً في عِلم الفقه وإليه الفتوى في الديار المصرية. وكان مدرّساً بالزاوية التي في جامع مصر، وهي التي كان الشافعيّ، رحمه اللّه، يُقرئ فيها العلم، ووقف عليها السلطان الملك الناصر صلاح الدين وقفاً جليلاً.

وكان مولده سنة تسعٍ وخمسين وخمسماية، فكان عُمُره نحو تسعين سنة، رحمه اللّه ورضي عنه.

وكان حجّ في سنة ثمانٍ وأربعين وستماية، ووقف على جبل عَرَفات على بغلةٍ.

[وفاة الصاحب ابن مطروح]

وفي هذه السنة تُوُفّي الصاحب/ ١٠٩أ/ جمال الدين، يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح[٢].

= المختار من تاريخ ابن الجزري ٢٣٠، العبر ٥/ ٢٠١، مرآة الجنان ٤/ ١١٩، عيون التواريخ ٢٠/ ٥١، ٥٢، السلوك ج١ ق٢/ ٣٨١، عقد الجمان (١) ٥١، الدرّة الزكية ٢٠، نزهة الأنام ٢٠٢.

(١) انظر عن (الجُميّزي) في: ذيل مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٨٦، وذيل الروضتين ١٨٧، وصلة التكملة لوفيات النقلة للحسيني ١/ورقة ٦٧، ٦٨، وتكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني ٢٩٨ ـ ٣٠٢، والعبر ٥/ ٢٠٣، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٦٥١، ٦٥٢ رقم ٦٢٠، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٥٣، ٢٥٤ رقم ١٦٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧١، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٩هـ.) ص٤٢٥ ـ ٤٢٨ رقم ٥٧٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٤٩، ودول الإسلام ٢/ ١٥٦، والمشتبه في الرجال ١/ ١٧٦، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٣١، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٣٠١ ـ ٣٤٠، ومرآة الجنان ٤/ ١١٩، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٩، وبرنامج شيوخ الرعيني ١٧٧، وتاريخ علماء بغداد ١٥٧، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨١، وطبقات الفقهاء الشافعيين ٢/ ٨٦٠، ٨٦١ رقم ٧، ونزهة الأنام ٢٠٣، ٢٠٤، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٨٣، ٥٨٤، وغاية النهاية ١/ ٥٨٣، ونهاية الغاية، ورقة ١٧٣، والوافي بالوفيات ٢٤/ ٢٨٤، رقم ٢١٢، وذيل التقييد للفاسي ٢/ ٢٢٥، ٢٢٦ رقم ١٤٩٠، وعيون التواريخ ١٠/ ٥٣، ٥٤، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٨٢، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤٤٩، ٤٥٠ رقم ٤١٧، وعقد الجمان (١) ٥٧، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٤، والدليل الشافي ١/ ٤٨٧، وتاريخ الخلفاء ٤٧٦ وفيه: «البهاء ابن بنت الحميري»، وهو تحريف.

(٢) انظر عن (ابن مطروح) في: مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٧٨٨، ٧٨٩ وفيه وفاته سنة ٦٥٥هـ. وعقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي (نسخة أسعد أفندي ٢٣٣٠) ج١٠/ ورقة ٥أ، وذيل الروضتين ١٨٧ (في وفيات سنة ٦٥٠هـ.)، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٥٨ ـ ٢٦٦ رقم ٨١١، وصلة التكملة للحسيني، ورقة ٦٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٨٦، وتكملة إكمال =

وقد ذكرتُ طرفاً من أخباره، وشيئاً من شِعره، عند ذِكر سيرة مخدومه السلطان الملك الصالح، رحمه الله.

ولما قُتل الملك المعظّم انقطع في داره، حتّى تُوفّي بها يوم الأربعاء مستَهلّ شعبان في هذه السنة.

وكان مولده بمدينة أسيوط من صعيد مصر، يوم الإثنين ثامن رجب سنة اثنتين وتسعين وخمس ماية،

ودُفِن بسفح الجبل المقطّم، وأمر أن يُكتب على قبره:

أصبحتُ بقعر حُفرةٍ مُرتَهَناً لا أملك من دُنياي إلّا كَفَنا
يا من وسِعَتْ عبادَه رحمتُه من بعض عبادك المسيئين أنا[1]

وكان كامل الفضيلة، والمروءة، والظُرف، والخُلُق الرضيّ.

وله النظْم البديع، والنثر الفائق. ومن جُملة شِعره من قصيدة:

هي رامةٌ فخذوا مين الوادي وذَرُوا السيوفَ تقرُّ في الأغمادِ
وحَذارِ من لحظاتِ أعيُن عينها فلَكَمْ صرعنَ بها من الآساد
من كان منكمُ واثقاً بفؤاده فهناك ما أنا واثقٌ بفؤادي
يا صاحبيَّ ولي بجزْعاء[2] الحِمَى قلبٌ أسيرٌ ما له من فادي
سَلَبَتْه منّي يوم بانوا مُقْلةٌ مكحولةٌ أجفانها بسوادي
وبحيٍّ من أنا في هواه ميّتٌ عينٌ على العشّاق بالمرصادِ

= الإكمال ٢٩٨ ـ ٣٠٢، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٣١، والمشتبه ١/ ١١٧ و٢/ ٤٨١، والعبر ٥/ ٢٠٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٧٣، ٢٧٤ رقم ١٨٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٤٩، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٩هـ.) ٤٣٣ ـ ٤٣٥ رقم ٥٨٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٨٧، ١٨٨، ومرآة الجنان ٤/ ١١٩، ١٢٠، والدرّة الزكية ٢٠، ٢١، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨٢ (في المتوفين سنة ٦٥٠هـ.)، وعيون التواريخ ٢٠/ ٥٤ ـ ٦١، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٨٥، ونزهة الأنام ٢٠٤ ـ ٢٠٩، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٤ (في حوادث سنة ٦٤٩هـ.) و٧/ ٢٧ (في حوادث سنة ٦٥٠هـ.)، وثمرات الأوراق لابن حجّة الحموي ١٥، وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٧ رقم ٤٨ وفيه وفاته سنة ٦٥٤هـ. وهو غلط، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٦١، وإنسان العيون لابن أبي عذيبة، ورقة ٣٩٤، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٩٠، وشذرات الذهب ٥/ ٢٤٧، ٢٤٨، وديوان الإسلام ٤/ ٢٨٨ رقم ٢٠٥٤، وكشف الظنون ٧٦٨، والأعلام ٨/ ١٦٢، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٢١٧.

(١) البيتان في: نزهة الأنام ٢٠٩، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٤٩هـ.) ص٤٣٥، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٢٦.

(٢) في الأصل: «بجزعاء».

وأَغَنَّ مسكيُّ اللَّمَى معسوله ... لولا الرقيبُ بلغتُ منه مرادي
كيف السبيلُ إلى وصالِ مُحَجَّبٍ ... ما بين بيض ظُباً[1] وسُمر صِعاد
حرسوا مُهَفْهَفَ قدّه بمثقّف ... فتشابه المَيّاسُ بالمَيّاد
قالت لنا أَلِفُ العِذار بخده: ... في ميم مبسمه شفاء الصادي[2]

ومن شعره:

علّقتُه[3] من آل يَعرُب لحظهُ ... أمضى وأفتَكُ من سيوف عرَيْبِهِ
/١٠٩ب/ أسكنتهُ بالمنحنى[4] من أضلُعي ... شوقاً لبارق ثغره وعُذَيبه
يا عائباً[5] ذاك الفتور بلحظه[6] ... خلّيه[7] لي أنا قد رضيتُ بعيبه[8]
لَدْنٌ وما مرّ النسيمُ بعطفه ... أرجٌ وما نفحُ العبير بجيبه[9]

ومن شعره في قصيدة:

من لي بغُصنٍ باللحاظ[10] مُمنْطَقِ ... حُلْو الشمائل[11] واللَّمى[12] والمنطقِ
مُثرى الروادف مُملق من خصره ... أسَمِعتَ في الدنيا بمُثْرٍ مُمْلِقِ[13]؟

ومنها:

وأقول: يا أختَ الغزالِ ملاحةً ... فتقول[14]: لا عاش الغزالُ ولا بقي[15]

وهذا البيت اختُلف فيه هو وابن شمس الخلافة، فادّعى كلٌّ منهما أنّ البيت له، وشهد لكلّ واحدٍ منهما جماعةٌ أنّ البيت له. والله أعلم.

---

(١) في متن المخطوط: «فناً». والمثبت عن هامش المخطوط.
(٢) الأبيات في: وفيات الأعيان ٦/ ٢٦٠، وعقود الجمان لابن الشعار ١٠/ ٣٢.
(٣) في الأصل: «وعلّقته».
(٤) في وفيات الأعيان، وتاريخ الإسلام: «في المنحنى».
(٥) وفي وفيات الأعيان: «يا عائبي»، والمثبت يتفق مع تاريخ الإسلام.
(٦) في وفيات الأعيان، وتاريخ الإسلام: «بطرفه».
(٧) في وفيات الأعيان، وتاريخ الإسلام: «خلوه».
(٨) كتب على هامش المخطوط: «تركه لي فأنا رضيت بعيبه».
(٩) الأبيات في: وفيات الأعيان ٦/ ٢٦١، وتاريخ الإسلام ٤٣٤، ونزهة الأنام ٢٠٥، ٢٠٦.
(١٠) في تاريخ الإسلام: «بالجمال».
(١١) في الأصل: «الشمائر» وهو غلط، وفي: تاريخ الإسلام: «المعاني».
(١٢) في الأصل: «اللما».
(١٣) البيتان في: وفيات الأعيان ٦/ ٢٦١، وتاريخ الإسلام ٤٣٤.
(١٤) في الأصل: «فيقول».
(١٥) البيت في وفيات الأعيان ٦/ ٢٦١، وتاريخ الإسلام ٤٣٤.

ومن شِعره، رحمه اللّه، في مرضه:

يا ربّ إنْ عجز الطبيبُ فداوني — بلطيف صُنعك واشفني يا شافي

أنا من ضيوفك قد حُسِبتُ وإنّ من — شِيَم الكرام البِرُّ بالأضياف[1]

[سفر الأمير حسام الدين والمؤلّف للحجّ]

وفي جمادى الآخرة من هذه السنة، استأذن الأمير حسام الدين بن علي الملك المُعِزَّ، وهو مقيمٌ في معسكره بالصالحية، في الحجّ إلى بيت اللّه، فأذِن له في ذلك، وأمر له بحرّاقة يسافر عليها إلى قوص، وأمر له بألف دينار، كُتب له بخمسمائة منها على جهة قوص، وخمسمائة على جهة عَيْذاب. فطلب من الملك المُعزّ: عزُّ الدين أردم أحد جَمْدارية الملك الصالح أن يحجّ صُحبة الأمير حسام الدين، فأذِن له، ودخل حسام الدين وعزّ الدين أردم إلى مصر، فأقام حسام الدين، وعزّ الدين في دارٍ على البحر لحسام الدين بقرب الرصْد.

وأخذ حسام الدّين في التّجهيز للحجّ، وطلب/ ١١٠أ/ منّي أن أحجّ معه، فأجبته إلى ذلك، وتجهزتُ للحجّ معه. وترك حسام الدين بطُلْبه المقيم بالصّالحية، من يقوم مقامه من أقاربه فيه.

وسافرنا من تلك الدّار في الحرّاقة التي أُطلِقت له، ولم يكن في الحرّاقة إلّا أنا وهو، وعزّ الدين أردم، وبعض مماليك حسام الدين، وأمّا باقي الغلمان وما يحتاج إليه فكانوا في مركبٍ آخر، وأقلعت الحرّاقة، وذلك المركب الآخر، والنيل في غاية قوّته.

واتّفق أنه أقلع أيضاً، مع إقلاعنا، الأمير عزّ الدين الأفرم، وهو أحد الجَمدارية الصالحية، وهو اليوم من أجلّ الأمراء، وهو أمير جاندار السلطان الأعظم الملك المنصور، خلّد اللّه سلطانه، فوصلنا إلى قوص في ستّة أيام، مع بعد المسافة، فكنت أظنّ لقِصَر المدّة أنّ المسافة بين مصر وقوص قريبة، فقال لي الأمير عزّ الدين الأفرم، ونحن بالجامع بقوص، يوم الجمعة: تدري كم بينك وبين القاهرة؟

فقلت: لا واللّهِ.

فقال: بينك وبين القاهرة مثل ما بين القاهرة وحمص، وإنّما لأجل طيبة الهواء[2] في قوّة زيادة النيل، والسير ليلاً ونهاراً، قصرت المدّة جدّاً.

---

(١) البيتان في وفيات الأعيان ٦/ ٢٦١، ونزهة الأنام ٢٠٦.
وكتب على هامش المخطوط بحذاء البيتين:
«هذان البيتان قال قاضي القضاة تاج الدين السبكي رحمه اللّه في الطبقات الكبرى إنهما لأبي عبد اللّه بن خفيف كذا رأيت فيها. فاللّه أعلم محمد البصروي».

(٢) في الأصل: «الهوى».

ثم سافرنا من قوص في البرّ سيراً، في غاية الطيبة، لم نشرب ماء من ماء المناهل، ولم نشرب إلّا ماء النّيل المستصحَب معنا، حتّى وصلنا مكة، شرّفها اللّه تعالى.

ولما وصلنا عَيْذاب أقمنا بها أياماً، حتّى استكرى حسامُ الدين مركباً بثلاثمائة دينار مصرية، وعدّينا به إلى جُدّة، وأحرمنا، ودخلنا مكةَ معتَمِرين في أواخر شعبان، وأقمنا بمكة شهر رمضان، وشوّال، وذي القعدة.

وكان الغلاء بمكة شديداً، فكان الإردبّ من القمح بثلاثماية درهم، ونزل الأمير بدار الضيافة التي بقرب الصفا، وخلع على الشريف أبي سعد بن علي بن قتادة، وعلى أبي غانم الشَّيْبي،/ ١١٠ب/ متولّي سدانة الكعبة، شرّفَها اللّه تعالى، وأحسن إليهما، وإلى أهل مكة من الضعفاء والمجاورين مدّة مُقامنا. بعد قضاء المناسك، توجّهنا لزيارة قبر المصطفى ﷺ.

وكان قدِم إلى مكة ونحن بها الأمير ناصر الدين بن بُرطاس، وهو أحد أمراء الأكابر الكاملية. وكان الملك الصالح اعتقله مع من اعتُقل من الأمراء الكاملية، ثم أُطلق من الحبس بعد موت الملك الصالح، فسافر إلى المدينة معنا.

ثم توجّهنا من مدينة النبيّ، ﷺ، إلى الديار المصرية، فلما وصلنا ينبُع بَلَغنا أنّ العسكر الذي بغزّة بلغهم أنّ حسام الدين بالحجاز، وأنّه يتوجّه إلى مصر على جهة عَقَبَة أَيلة، وأنهم ربّما يقصدونه من غزّة، ويمضون به إلى السلطان الملك الناصر، فخاف حسام الدين، وأقام بينبُع، وأمّر على الحاجّ ناصرَ الدين بن بُرطاس.

وكان في الحاجّ الملك الأمجد حسن بن الملك الناصر داود، فتوجّه الحاجّ مع ناصر الدين إلى القاهرة، وأقمنا مع حسام الدين بينبُع، ومعه مماليكه، والحاجّ عز الدين أردم، وجماعة من أصحاب حسام الدين مدّة خمسة عشر يوماً، بعد مسير الحاج.

وورد بعض العرب، وضمن للأمير أنّه يسافر معه، ويوصله على البُخْت في أقرب الأوقات إلى القاهرة، فنقل حينئذٍ حسام الدين أثقاله إلى مركب في البحر، ونقل الجماعة الذين معه أثقالهم إليه. وسافر حسام الدين ونحن معه في الهُجُن، فوصلنا إلى القاهرة في خمسة عشر يوماً. ثم توجّه حسام الدين إلى الصالحية[1]، وأقام مع الملك المُعِزّ عليها، ولم يصل المركب الذي فيه الثقل إلّا/ ١١١أ/ بعد ثلاثة أشهر من دخولنا إلى القاهرة.

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٨٢.

٦٥٠هـ

ودخلت سنة خمسين وستماية

[تأخّر انتظام الصُلح بين عسكر مصر وعسكر دمشق]

وعسكر الملك الناصر نازلون على تلّ العجول مع الأمير سيف الدين بكتوت أستاذ الدار، وعسكر مصر نازلون بالصالحية في مقابلة عسكر دمشق، ونجم [الدين][١] البادَرَائيّ متردّد في الرسالة بينهم[٢].

واستمرّت هذه السنة كلّها، والحال على هذه الصورة، ولم ينتظم الصُلح بينهم.

(١) إضافة على الأصل للضرورة.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٨٢، ٣٨٣، الفوائد الجلية ٢١٩، ٢٢٠.

٦٥١هـ

ودخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة
والحال على ما ذكرنا

[الصلح بين الملك المُعِزّ والملك الناصر]

وفي هذه السنة تقرّر الصلح، ووقع الاتّفاق على أن يكون للملك المُعِزّ والبحرية ديار مصر، وغزّة، وبيت المقدس، وباقي البلاد الشامية تكون للملك الناصر، ووقع التّحالف على ذلك(١).

ودخل الملك المُعِزّ وفارس الدين أقطاي والعساكر إلى القاهرة.

[إطلاق سراح أمراء]

وأفرج عن الملك المعظّم فخر الدين تورانشاه بن صلاح الدين، وأخيه نصرة الدين، والملك الأشرف مظفّر الدين موسى بن الملك المنصور صاحب حمص من الاعتقال، وتوجّهوا إلى الشام(٢).

[سفر الأمير حسام الدين إلى الشام]

وفي هذه السنة استأذن حسام الدين بن أبي علي الملك المُعِزّ في [الـ](٣) ـتّوجّه إلى الشام. وكان قد ترك الخدمة، فأذِن له، وسافر إلى الشام، فأقطعه الملك الناصر خبزاً جليلاً، واحترمه غاية الاحترام، وأقام عنده مُكرَّماً معظَّماً.

[إقطاع العزيزية والناصرية]

وأقامت العزيزية والناصرية بالديار المصرية في خدمة الملك المُعِزّ، ومقدّما العزيزية الأمير جمال الدين أَيْدُغْدي، والأمير شمس الدين آقُش التركيّ، وأُقطِعوا الإقطاعات الجليلة بالديار المصرية.

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٣٨٣.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٨٦.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للضرورة.

[تعاظم شأن الأمير أقطاي]

وعظُم شأن فارس الدين أقطاي الجَمْدار، والتفّت البحرية والجمدارية عليه، وصار يركب بعَظَمَة، وشاوش. وكان منزله بين القصرين، وحدّثته نفسه بالمُلك، وصار أصحابه يلقّبونه بالملك الجواد، إلّا أنه لا يُعلن به.

ونزل الأمير ركن الدين بيبرس البُندقداري/ ١١١ب/ ببعض دُور دار الوزارة، وصار من أكابر الأمراء. وكذلك الأمير سيف الدين بلَبان الرشيدي، والأمير شمس الدين سُنقُر الرومي، وشمس الدين سُنقُر الأشقر، وعزّ الدين الأفرم، وغيرهم من أكابر الأمراء الجَمْداريّة، وكلّهم مجتمعون على معاضدة فارس الدين أقطاي، والملك المُعِزّ خائف من اتّفاقهم على خلعه، وتمليك فارس الدين.

وكان فارس الدين جواداً، شجاعاً، مِقداماً، فكان الناس يحبّونه لكرمه وبذله وشهامته[١].

وخرجت هذه السنة، والحال على هذه الصورة.

---

(١) خبر تعاظم شأن أقطاي في: الروض الزاهر ٥٣، والتحفة الملوكية ٣٤، وزبدة الفكرة ١٠، ونزهة الأنام ٢١٦، والنفحة المسكية ٤٠، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥١هـ.) ص٧، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٨٦ و٣٨٨، وعقد الجمان (١) ٨٠، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٠.

٦٥٢هـ

ودخلت سنة اثنتين وخمسين وستماية

[فساد العلاقة بين المُعزّ وفارس الدين أقطاي]

والسلطان الملك الناصر بدمشق، والملك المُعِزّ بالقاهرة، وقد فسد ما بينه في الباطن، وبين فارس الدين أقطاي، والبحرية، والعزيزية، والناصرية مُلتقون على الملك المُعِزّ، ومُعاضدون له، وقد اتّفقوا معه في التّدبير على إهلاك فارس الدين والبحرية،

[الإذن بالحجّ للقاضي بدر الدين]

واستأذن القاضي بدرُ الدين الملكَ المُعزّ في الحجّ، فأَذِن له، فسافر على البحر، وصام بمكة شهر رمضان، وأقام إلى الموسم، وعاد في السنة القابلة.

[ولاية قضاء حماه]

وفي المحرّم من هذه السنة وُلّي عماد الدين بن القطْب[١] قضاء حماه وهو بدمشق، وكان قدِم إليها من مصر بعد عزله.

ثم بعد أيام تُوفّي، فولّى السلطان الملك المنصور، قدّس اللّه روحه، القضاء بحماه للقاضي شمس الدين أبي طاهر إبراهيم بن هبة اللّه بن البارزيّ، رحمه اللّه، وعُزل عن قضائها محيي الدين، أبو يَعْلَى، حمزة بن محمد بن القاضي أبي القاسم[٢].

وكان وُلّي القضاء بعد القاضي شهاب الدين إبراهيم: عبدُ اللّه بن عبد المنعم[٣].

---

(١) هو أبو القاسم، القاسم بن إبراهيم بن هبة اللّه بن إسماعيل بن نبهان الحموي، الشافعي المعروف بابن المقنشع. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٢هـ.) ص١٣٢ رقم٨١.

(٢) المختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٠، وانظر عن (حمزة بن محمد) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٦٣هـ.) ص١٤٤، ١٤٥ رقم ٨٩، وذيل مرآة الزمان ٢/ ٣٢٦، وعقد الجمان (١) ٤١٢، والخبر في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٩٤.

(٣) هكذا وردت الجملة مضطربة في الأصل.

ذِكر مقتل فارس الدين أقطاي

كان فارس الدين يؤثر بقاء الملك الأشرف بن الملك المسعود/ ١١٢أ/ في السلطنة لئلّا يتمكّن الملك المُعِزّ من المُلك ليتمّ له ما يريد، فكان يجامل الملكَ المعِزّ في الظاهر، فأقام أياماً في بستان ابن سيف الإسلام، فيما بين مصر والقاهرة. وكان الملك المَعِزّ ينزل إليه في بعض الأوقات. وأجمع رأي الملك المعزّ والعزيزية على اغتياله، فأظهرت العزيزية الحَرَدَ على الملك المعزّ، وأنهم لا يُرضيهم الأخباز التي لهم، وأشهروا أنهم يريدون مفارقة الملك المُعزّ إلى الشام، فذكر الملك المعزّ ذلك لفارس الدين، وطلب منه أن يصعد إلى القلعة ليُصلح بينه وبينهم، فظنّ فارس الدين صِدْقَه واغترّ بقوله، فصعِد إلى القلعة مسترسلاً، ولو بطش بالملك المعزّ لتمّ له الأمر، فإنّ البحرية والجَمْدارية وأتباعهم كانوا جمعاً عظيماً.

ولما صعِد إلى القلعة كانت العزيزية قد اجتمعوا عند الملك المعزّ، وجاء فارس الدين فدخل دار السلطنة، فقام إليه الملك المُعزّ، ووضع يده في يده، ومضى معه ليحدّثه في معنى الصُلح مع العزيزية، وتطييب قلوبهم. ودخل بعض دهاليز الدار، وقد أكمن له في الدِّهليز ثلاثة من مماليكه، وهم سيف الدين قُطُز، وبهادُر، وعلم الدين، سَنْجَر الغَتْمي[١]، فوثب هؤلاء الثلاثة عليه فضربوه بأسيافهم حتّى قتلوه، وكان هذا في آخر النهار.

ولما علمت البحرية والجَمْدارية ما يجري على فارس الدين، وكانوا متفرّقين، فركب معظمهم ملبَّسين، وخرجوا من القاهرة أول الليل من باب زُوَيْلَة على جهة، وقصدوا جهة باب القراطين، وهو في السور الدائر على مصر والقاهرة، فوُجد مغلقاً، فأخرقوه وخرجوا منه، وسافروا قاصدين الشام[٢].

---

(١) في الأصل: «العتمي» بالعين المهملة.

(٢) خبر مقتل (أقطاي) في: مرآة الزمان جـ٨ ق٢/ ٥٩٢، والروض الزاهر ٥٣، وتاريخ الملك الظاهر ١١٢ ـ ١١٤، وأخبار الأيوبيين ١٦٤، وذيل الروضتين ١٨٨، والحوادث الجامعة ٢٧٢، وتاريخ النوادر ٣/ورقة ٤٦أ (حوادث ٦٥٤هـ.)، ونزهة الأنام ٢١٩، ٢٢٠، ونزهة المالك والمملوك ـ بتحقيقنا ـ ١٤٦، والنفحة المسكية ٤١، والجوهر الثمين ٢/ ٥٣ ـ ٥٥، والدرّة الزكية ٢٤، ٢٥، والتحفة الملوكية ٣٥، ٣٦، وزبدة الفكرة ١٢، ونهاية الأرب ٢٩/ ٤٢٩ ـ ٤٣٢، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٣٥ ـ ٢٣٨، والعبر ٥/ ٢١١، ودول الإسلام ٢/ ١٥٧، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٩٧، ١٩٨ رقم ١١٧ وصفحة ٢٩٨ رقم ٢٠٤، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٢هـ.) ص١٠ و(وفيات ٦٥٢هـ.) ص١١٨ ـ ١٢٠ رقم ٥٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٢، ومرآة الجنان ٤/ ١٢٨، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨٥، وعيون التواريخ ٢٠/ ٧٥ ـ ٧٧، والوافي بالوفيات ٩/ ٣١٧، ٣١٨ رقم ٤٢٥٠، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٠٥، ومآثر الإنافة ٢/ ٩٢، =

ذِكر خلع الملك الأشرف من السلطنة واستقلال الملك المُعِزّ بها

ولما أصبح الصباح قُبض على من بقي بالقاهرة ومصر من البحرية/ ١١٢ب/ وأودِعوا السجون، ولبست العزيزية لأَمَةَ الحرب، ولازموا الملك المُعِزّ، ونهبوا[١] البيوت البحرية، واعتقلوا كلَّ من وجدوه منهم ومن أتباعهم، وأبطل الملك المُعِزّ من يومئذٍ اسمَ الملك الأشرف، وبعث به إلى عمّاته القُطْبيّات، وركب بالسّناجق السلطانية. وحملت الأمراء الغاشية بين يديه واستقلّ[٢] بالمُلْك[٣].

وأمّا البحريّة، فإنّهم سافروا ووصلوا إلى غزّة، وسيّروا إلى السلطان الملك الناصر رُسُلهم يُخبرونه بأنهم واصلون إلى بابه، وأنهم يساعدونه على تمليك الدّيار المصرية، فأذِن لهم في القدوم عليه، فقدِموا إلى خدمته. وسافر من دمشق ونزل نحمنا[٤] من الغَور. وقدِم بعض عساكره إلى غَزّة. فنزلوا بها[٥].

ورحل الملك المُعِزّ (بعد)[٦] استقرار مُلكه إلى العبّاسة، فنزل بها في العساكر المصرية[٧]، ولم يزل الحال على ذلك إلى أن خرجت هذه السنة.

[تعزية صاحب الموصل]

وفي هذه السنة توجّه مجد الدين بن الصاحب كمال الدين بن العديم، رسولاً

= والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٩، وتلخيص مجمع الآداب ج٤ ق٣/ ١١، ١٢ رقم ١٨٣٦أ، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٨٩، ٣٩٠، والنجوم الزاهرة ٧/ ١١، ١٢، والمنهل الصافي ٢/ ٥٠٢ رقم ٥٠٥، والدليل الشافي ١/ ١٤٣ رقم ٥٠٤ وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٦٥، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٩١، وشذرات الذهب ٥/ ٢٥٥.

(١) في الأصل: «ونهبو»

(٢) في الأصل: «استقبل».

(٣) التحفة الملوكية ٣٥، ٣٦، زبدة الفكرة ١٣، نزهة الأنام ٢٢٠، أخبار الأيوبيين ١٦٤، النحفة المسكية ٤٢، العبر ٥/ ٢١٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٢هـ.) ص١١، السلوك ج١ ق٢/ ٣٩٢.

(٤) هكذا رُسمت في الأصل، ولم أتبيّن صحتها.

(٥) أخبار الأيوبيين ١٦٤، والتحفة الملوكية ٣٥، ٣٦، زبدة الفكرة ١٣٠، العبر ٥/ ٢١٠، المختار من تاريخ ابن الجزري ٢٣٥، ٢٣٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٢هـ.) ص١١، دول الإسلام ٢/ ١٥٧، الجوهر الثمين ٢/ ٥٤، ٥٥، النفحة المسكية ٤٢، الدرة الزكية ٢٦، عيون التواريخ ٢٠/ ٧٥، ٧٦، السلوك ج١ ق٢/ ٣٩٢، عقد الجمان (١) ٨٨.

(٦) كتبت على هامش المخطوط.

(٧) السلوك ج١ ق٢/ ٣٩٤، الدرّة الزكية ٢٩.

من الملك الناصر إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب المُوصل، مُعَزّياً له عن ولدٍ له مات، وعاد، وتوجّه الصاحب كمال الدين رسولاً من الملك الناصر إلى الخليفة المستعصم باللّه على طريق عانة والحديثة، وأدّى الرسالة، وتوجّه إلى الموصل لتحليف بدر الدين لؤلؤ للسلطان الملك الناصر، وكذا حلّف الملك السعيد صاحب ماردين ليكونا مع السلطان الملك الناصر على حرب المصريّين.

[قدوم ابنة كيْقُباذ إلى دمشق]

وفي هذه [السنة][١] قدِمت ابنةُ علاء الدين كيْقُباذ إلى دمشق صُحبة الشريف عزّ الدين المرتضى، وهي التي كنّا ذكرنا أنه عقد عقْد الملك الناصر ببلاد الروم عليها[٢].

(١) إضافة على النص للضرورة.
(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٣٩٤، مرآة الزمان ق٢ ج٨/ ٧٩١.

٦٥٣هـ

ودخلت سنة ثلاثٍ وخمسين وخمس مائة

[الوساطة بين الملك المُعزّ والملك الناصر]

والملك المُعِزّ وعسكر مصر بالعبّاسة/ ١١٣أ/ وعسكر الملك الناصر على غزّة. وقدِم الشيخ نجم الدين البادَرَائيّ، وتوسّط بين الفريقين بالصُلح[1].

ذِكر هرب العزيزية إلى الشام والقبض على بعضهم

وفي هذه السنة، في شهر رمضان، عَزَمتْ العزيزيةُ على القبض على الملك المُعِزّ.

وكان السبب في ذلك، على ما ذُكر، أنهم كاتبوا السلطان الملك الناصر في أنّهم يقبضون على الملك المُعِزّ ويقتلونه، ويملّكون الملكَ الناصرَ البلادَ. وأنه وعدهم على ذلك إقطاعَ بلادٍ عيّنها لهم.

وكان الملك المُعِزّ يركب كل يوم ثلاثاء للضرب بالصَّوالجة[2]، فاتّفقوا على أنه إذا ركب يوم الثلاثاء كذلك وهم معه أنهم يَثِبون عليه، وكنتُ يومئذٍ بالمعسكر في وطاق الأمير جمال الدين أيدُغدي العزيزي، وكان صديقاً، ولم يكن مساعداً لهم على هذا.

فلما كان يوم الثلاثاء في العشر الأوسط من شهر رمضان، ركب الملك المُعِزّ وقد نُمي الخبر إلى العزيزية، بأنه اطّلع على عزمهم، فهربوا على حميّةٍ، وممّن هرب الأمير شمس الدين آقُش التركي، ولم يهرب الأمير جمال الدين، بل أقام في خيمته.

ولما حاذى الملك المُعِزّ وطاقه ساق إليه حتّى قارب خيمته، فجاء إليه جمال الدين، فأمر به، فحُمل على دابّةٍ، وقُبض أيضاً على آخر من العزيزيّة، يُعرف بالأتابكيّ، وسيّر بهما إلى القاهرة، فاعتُقلا بقلعة الجبل، ونُهبت وطاقات العزيزية يومئذٍ كلّها.

ولما تحقّق الملك المُعِزُّ براءةَ الأمير جمال الدين مما عزم عليه غيره من

---

(١) تاريخ النوادر ٣/ ورقة ٤٥أ، الفوائد الجلية ٢١٩.

(٢) الصوالجة: مفردها: صولج. لفظ فارسي معرّب. عصا معقوفة من طرفها يضرب بها الفارس. منه اشتق لفظ: الصولجان.

العزيزية، اعتقله في دارٍ مكرّماً مُرَفّهاً، وإنّما كان ذنبه عنده أنه لم يُطْلعه على ما عزم عليه أصحابه. وكان جمال الدين كارهاً لذلك، لكنّه لم يمكنه إيذاؤهم، هذا ما ظهر لي، واللّه تعالى أعلم بالباطن، وأذِن/ ١١٣ب/ الملك المُعِزّ لأهل جمال الدين أن يحملوا إليه الطعام والشراب والملابس، وكل ما يحتاج إليه، وبقي الأمر على ذلك مدّة. ثم بعد ذلك أظهر الملك المُعِزّ موته، وأخفى خبره بالكلّية.

واتّفق وقوعُ الصُلح في هذه السنة بين السلطان الملك الناصر والملك المعزّ، على أن يكون للملك الناصر الشامُ جميعُه، وديارُ مصر للملك المُعزّ، وحدّ ما بينهما بئر القاضي، وهي فيما بين الورّادة والعريش(١).

[الإقامة الجبرية للأمير أيدُغدي]

وطلب الشيخ نجم الدين البادَرائي، رسول الخليفة، وهو المتوسّط في الصلح، كما ذكرنا، من الملك المُعِزّ الإفراجَ عن الأمير جمال الدين أيدُغدي العزيزيّ، فقال له ـ على ما بلغني ـ: ما بقي المولى يراه إلّا في عَرَصَات القيامة إشارةً إلى أنّه قد تُوفّي، وفات الأمر فيه. ولم يكن الأمر كذلك، بل كان في قاعةٍ من دُور السلطان، وهو مكرَّم، وعليه ملبوسٌ فاخر، وعنده كلّ ما يحتاج إليه.

وبلغني أنّ الملك المُعِزّ كان يدخل إليه في بعض الأوقات، ويلعب معه بالشطرنج، ولم تزل(٢) هذه حاله، وقد اشتهر عند الناس أنه قد مات إلى أن جرى من قتل الملك المُعِزّ ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

[زواج الملك المعزّ]

ولما تمّ الصلح دخل الملك المُعِزّ والعسكر القاهرة، وتزوّج الملك المُعِزّ في هذه السنة، أو التي قبلها الملكةَ شجَرَ الدرّ، زوجة السلطان الملك الصالح، وهي التي تقدّم [أنها](٣) مَلَكَتْ، وخُطِب لها بالديار المصرية ثلاثة أشهر بالسلطنة.

[ولادة ولد للملك الناصر]

وفي هذه السنة وُلد للسلطان الملك الناصر ولدُه علاء الدين من زوجه(٤)، ابنة

---

(١) خبر هرب العزيزية في: تاريخ النوادر ٣/ورقة ٤٦أ، ب، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٠، ١٩١، والروض الزاهر ٥٥، ٥٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٣هـ.) ١٥هـ. تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٢، والتحفة الملوكية ٣٨، وعقد الجمان (١) ١٠٧، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٤، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٦٦، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٩٨.

(٢) في الأصل: «يزل».

(٣) إضافة على الأصل.

(٤) زوجة = زوجته.

السلطان علاء الدين كَيْقُباذ بن كيخُسْرُو، وأمّها ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب[١]./ ١١٤أ/ وقد تقدّم ذِكر العقد عليها في بلاد الروم. ثم ذكرنا وصولَها إلى دمشق في سنة اثنتين وخمسين وستماية.

وكان له من أمّ ولدٍ ابنٌ آخر يقال له الملك العزيز، وهو الذي سافر إلى التتر، وقُتل معه، رحمه الله.

ذِكر ما تجدّد من أحوال الملك الناصر داود رحمه الله

كنّا قد ذكرنا أنّه اعتقله السلطان الملك الناصر يوسف في قلعة حمص سنة ثمانٍ وأربعين وستماية، ثم أفرج عنه بعد مدّةٍ بشفاعةٍ وردت من الديوان، وتوجّه إلى العراق، ولم يؤذن له في دخول بغداد، مُراعاةً للسلطان الملك الناصر، وطلب الوديعة التي كان أودعها، فلم يحصل له[٢].

وجرت له خطوبٌ يطول شرحُها، وآخر الأمر إنه وقعت شفاعة في حقّه أنه يكون في خدمة السلطان الملك الناصر، ويطلق له ما يقوم بكفايته، فأجيب إلى ذلك، وورد إلى دمشق.

ولما كانت هذه السنة طلب من السلطان الملك الناصر دُستوراً ليأذَنَ له في المُضِيّ إلى العراق، ويأخذ من الخليفة الوديعةَ التي تقدّم ذِكرُها، ثم يتوجّه إلى مكة ـ شرّفها الله تعالى ـ لقضاء فريضة الحجّ.

وكان السلطان الملك الناصر قد رتّب له راتباً لا يقوم بكفايته، وكان في النفوس ما فيها من الوحشة والانقباض. فلما أقام عنده أنِس به بعض الأُنس، وكادت تزول من نفس السلطان الملك الناصر يوسف وحشةُ الإساءة. ولما طلب منه الدستور المذكور أذِن له في ذلك، وطلب من السلطان أن يكتب له كتاباً إلى الخليفة يشفع له في ردّ وديعته إليه، ويخبر فيه بالرضى عنه، لينقطع بذلك/ ١١٤ب/ ما يحتجّ به عليه من جهة الملك الناصر، فأجيب إلى ذلك، وسافر إلى العراق، وجعل طريقه على كربلاء مشهد الحسين بن علي، عليهما السلام، وأقام به[٣].

وسيّر إلى الخليفة المستعصم بالله قصيدةً هي هذه:

مقامُكَ أعلى في الصدور وأعظَمُ وحِلْمُكَ أرجى في النفوس وأكرمُ

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٣هـ.) ص١٦.

(٢) الفوائد الجلية ٢١٨.

(٣) ذيل مرآة الزمان ١/ ١٣، ١٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٤هـ.) ص٢٦، ٢٧، عيون التواريخ ٢٠/ ٩٣، ٩٤، السلوك ج١ ق٢/ ٣٩٧.

فلا عَجَبٌ إنْ غُصّ بالقول شاعرٌ ... وفوّه مصطكُ اللّهاتَيْن مُعْجمُ
وأنّى بقولٍ، والمحلّ معظّمٌ ... ولِمْ لا وما يُرجى من الحِلْم أعظم
إليك أميرَ المؤمنين توجُّهي ... بوجه رجاءٍ عنده منك أنْعُم
إلى ماجدٍ يرجوه كلُّ ممجّدٍ ... عظيم ولا يغشاهُ إلّا المعظّم
ركبتُ إليه ظَهر تَيْماء[1] قَفرةٍ ... بها تُسَرّجُ الأعدا وخيلاً وتَلجِمُ
فأشجارُها ينعٌ، وأحجارها ظُبّى ... وأعشابُها نَبْلٌ، وأمواهُها دمُ
رميتُ فيافيها بكلّ نجيبةٍ ... بنسبتها يعلو الجديلُ وشدقمُ[2]
يُجاذبْنا فضلَ الأزِمّة بعدما ... بَرَاهنّ موصولٌ من السير مُبرمُ
تساقين من خمر الكلالِ مُدامةً ... فلا هُنّ أيقاظٌ، ولا هُنّ نُوّمُ
يطشْنَ الحَصَا في جمرة القيظِ بعدما ... غدا يتبعُ الجبّار كلبٌ ومِرْزمُ
فلوْحُ سبارِيت الفلاةِ مُسطّرٌ ... بإخفافها منه فصيحٌ وأعجمُ
يخالُ ابيضاضَ القاع تحتِ احمرارِها ... قراطيسَ ورّاقٍ علاهنّ عَنْدمُ
فلما توسّطن السماوة واغتدتْ ... تلفّتُ نحوَ الدّار شوقاً وتُرزِمُ[3]
وأصبح أصحابي نشاوى من السُّرَى ... يَدورُ عليهم كوبُهُ وهو مُفعمُ
تنكر للخرّيت بالبيد عُرْفُهُ ... فلا عَلَمٌ يعلو[4] ولا النجمُ ينجمُ
فظلّ لإفراط الأسى متندّماً ... وإنْ كان لا يُجدي الأسى والتندمُ
يُشوّفُ الرُّغام ظلّه لهدايةٍ ... ومَن بالرُغام يهتدي فهو يُرغمُ
يناجي فجاجَ الدُّو [والدوّ] صامتٌ[5] ... فلا يسمع النجوى، ولا يتكلّمُ
على حين قال الظّبْيُ، والظلّ قالصٌ ... وأوقدت المَغْرَاءُ[6]، فهي جهنّمُ
/١١٥أ/ وجَفّ مزادُ القوم فهي أشِنّةٌ[7] ... وخفّ لورْد الموت كفٌّ ومعصمُ
ووسّع ميدانُ المنايا لخيلِهِ ... فضاق مجالُ الريقِ والتحم الفمُ

---

(١) في الفوائد الجلية: «يهماء». والمثبت يتفق مع: ذيل مرآة الزمان ١/٦٨ و«الجديل وشدقم: فحلان من الإبل كانا للنعمان بن المنذر».
(٢) في الأصل: «تعلوا».
(٣) ترزم: أرزمت الناقة إرزاماً، أخرجت صوتاً تبين فيها حثيثها على ولدها.
(٤) في الأصل: «فجاج الدور صامت»، والتصحيح والاستدراك من الفوائد الجلية ٢٢٢ رقم ٢٣.
(٥) و«الدوّ»: الفلاة الواسعة.
(٦) المَغْزاء: الأرض الغليظة ذات الحجارة، وقيل: الصحراء.
(٧) أشِنّة: خلق.

فوحشُ الرّزايا للرّزيّة حُضَّرٌ(١) وطيرُ المنايا بالمنيّة حُوّمُ
فلما تبدّتْ كربلا وتُبيّنَتْ قِبابٌ بها السِبْطُ الزكيُّ المكرّمُ
ولُذتُ به مستشفعاً مُتحرّماً كما يفعلُ المستشفعُ المتحرّم
وأصبح لي دونَ البريّة شافعاً إلى مَن به مَعْوجُ أمري يُقوّمُ
أنختُ ركابي حيثُ أيقنتُ أنني بباب أمير المؤمنين مخيّمُ
ببابٍ يُلاقي البشرَ آمالُ وفْده بوجهٍ إلى أرفادهم تتبسّمُ(٢)
بحيث الأماني للأمان قسيمةٌ وحيث العطايا بالعواطف تُقسمُ
وحيث غصونُ المجد تهتزّ للندى(٣) بزعزع جُودٍ(٤) من سجاياه(٥) يُعجمُ(٦)
عليكَ أميرَ المؤمنينَ تهجُّمي(٧) بنفسٍ على الجوزاء لا تتطخّمُ(٨)
تلوُّم أن تغشى الملوكَ لحاجةٍ ولكنّها بي عنك لا تتلوّمُ
تضنّ بماء الوجه لكنّ رِفدكم له شرفٌ ينتابُهُ المتعظّمُ
فصُن ماءَ وجهي عن سؤالٍ فإنّه مَصُونٌ يصوناه(٩) الحيا والتكرّمُ
ألستُ بعبدٍ حُزْتني عن وراثةٍ له عندكم عهدٌ، تقادَم مُحكمُ
ومثلي يُخبّأ للفتوق ورتْقِها إذا هُزّ خطبيٌّ وجُرّد مِخْذَمُ
فلا زلتَ للآمال(١٠) تبقى مسلّماً لتُبْنَى بك(١١) الأملاك وهي تُسلمُ(١٢)

ثم توجّه، رحمه اللّه، إلى مكة، شرّفها اللّه تعالى، وقضى بها فرائضَ الحجّ وسُنّته.

---

(١) في ذيل مرآة الزمان: «خضّر»، والمثبت يتفق مع: الفوائد الجلية ٢٢٢ رقم ٢٧.
(٢) في الفوائد الجلية ٢٢٢ رقم ٣٢ «إلى إرفاده يتبسّم».
(٣) في الأصل: «للندا».
(٤) في الأصل: «يزعزع». وفي ذيل مرآة الزمان: «يزعزع جوداً».
(٥) كتب على هامش المخطوط: «عطاياه».
(٦) في الفوائد الجلية ٢٢٤ رقم ٣٤ «يسجم».
(٧) تهجّمي: دخولي.
(٨) في الفوائد: رقم ٣٥ «لا تتهجّم».
(٩) في الفوائد: رقم ٣٨ «فصوناه».
(١٠) في الفوائد: رقم ٤١ «بالأملاك».
(١١) في الأصل: «لتنتابك». والتصحيح من: الفوائد.
(١٢) الأبيات في: الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ٢٣٠ ـ ٢٣٤، وذيل مرآة الزمان ١/١٦٨، وتاريخ الإسلام ٢٤٥ ـ ٢٤٧.



[الفتنة بمكة]

ووقعت فتنة بمكة بين الركْب العراقيّ وأهل مكة، وركب أميرُ الحاجّ العراقيّ بمن معه من عسكر الخليفة، وكادت تقع بينهم ملحمةٌ عظيمة، فقام الملك الناصر داود في إصلاح، أحسن قيام، واجتمع بأمير مكة الشريف بن قتادة، وأحضره إلى أمير الحاج مُذعناً له بالطاعة، وقد جعل عمامته في عنقه، فرضي عنه/ ١١٥ب/ أمير الحاج وخلع عليه، وزاده على ما جرت له به العادة من الرسم، وقضى الناس مناسكهم، وتفرّقوا إلى أوطانهم وهم شاكرون للملك الناصر على ما فعله من إصلاح[١] ذات البين، وكفّ الأيدي العادية عنهم، وكثُر دعاؤهم له.

ثم توجّه الملك الناصر عائداً إلى العراق مع أمير الحاجّ العراقيّ[٢].

ولما قدم مدينةَ سيّدِنا المصطفى، صلّى اللّه عليه وسلّم، قام بين يدي الحُجرة المقدّسة، وأنشد مادحاً للنبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، وفرائصُه ترعد، ولسانه ـ هَيبةً للمقام الجليل ـ يتلجلج:

عليك سلامُ اللّه يا خيرَ مُرسَلٍ ... أتاه صريحُ الوحي من خير مرسَل
إليك امتطينا اليَعْمُلات رواسماً ... يَجُبْن الفلا ما بين رضْوَى فيذبل
إلى خير من أطْرَتْهُ بالمدْح ألسُنٌ ... فصدّقها نصُّ الكتاب المنزل
إليك رسول اللّه قمتُ مجمجماً ... وقد كَلّ عن ثقل البلاغة مقولي
وأدهشني نورٌ تألّقَ مشرِقاً ... يلوح على سامي ضريحك من علِ
تنثني عن مدحي لمجدك هيبةً ... يُراعُ لها قلبي ويرعدُ مِفصَلي
وعلمي أنّ اللّه أعطاك مدحةً ... مفصّلها في مجملات المفصّل[٣]
فماذا يقول المادحون بمدْحهم ... بمن مدْحُهُ يعلو على كلّ معقل[٤]

ثم إنه أحضر شيخَ الحرم وخدّامه، ووقف بين يدي النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، متمسّكاً بأذيال الحُجرة النبويّة، وقال: اشهدوا أنّ هذا مقامي من رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، داخلاً عليه، مستشفعاً به إلى ابن عمّه الإمام المستعصم باللّه أمير المؤمنين، في أن يردّ عليّ وديعتي. فأعظم الناس هذا المقام الشريف، وجرت

---

(١) في الأصل: «من صلاح».
(٢) خبر: الفتنة باختصار في: تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٣هـ.) ص١٦، عقد الجمان (١) ١٠٩، السلوك ج١ ق٢/ ٣٩٦.
(٣) في الأصل: «المفصلي».
(٤) في الأصل: «معقلي».

عَبَراتهم، وكثُر بكاؤهم. وكُتب في الحال بصورة ما جرى إلى الخليفة، وحمل المكتوب أميرُ الحاجّ، وحدّثه الحاضرون بصورة/ ١١٦أ/ ما جرى في تلك الحضرة الشريفة.

وكان ذلك في يوم السبت الثامن والعشرين من [ذي][1] الحجّة من هذه السنة، أعني سنة ثلاثٍ وخمسين وستماية[2].

[حجّ أخي المؤلّف]

وحجّ أخي في تلك السنة، وكان أمير الحاجّ الشاميّ الأمير مجد الدين بن أبي زكري، رحمه اللَّه،

وكان أميراً جليلاً، عظيم القدر، جواداً، شجاعاً، من بيتٍ كبيرٍ من الأكراد. خدم السلطان الملك الصالح نجم الدين، رحمه اللَّه، وهو بالشرق، وقدِم في خدمته إلى الشام.

ولما مَلَك مصر كان في خدمته إلى (أن) تُوفّي، وقُتل ابنه الملك المعظّم. ثم اتّصل بخدمة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف، واستنابه بنابلس وما معها، وآخر أمره أنه استشهد بنابلس بأيدي التتر، على ما سنذكره.

وكان فاضلاً في الأدب والمحاضرات، حَسَن المحادثة، كريم العشرة.

اجتمعت به مراراً. وأنشدني شيئاً من الشِعر، وأنشدتُه.

أخبرني أخي أنّه كان أميراً على الركْب في هذه السنة، وأحسن إلى الناس إحساناً كثيراً، وتصدّق صدقاتٍ كثيرة، ووصل بِرّه إلى الفقراء والأغنياء.

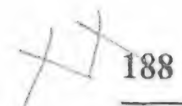
قال أخي: واجتمعت بالمدينة النبويّة، على ساكنها السلام، بالملك الناصر داود، رحمه اللَّه، ولم يكن أخي يعرفه قبل هذه السنة، لأنّي لما كنت أنا ووالدي، رحمه اللَّه، في خدمته.

وكان أخي صغيراً لم يبلغ ستّ سنين.

ولما اجتمع به في هذه السنة في الحجّ سأل عنه، فعرف به، ففرح كثيراً، وترحّم على والدي، رحمه اللَّه. وذكر عهده السالف، وأثنى عليه ثناءً كثيراً، وسأله عنّي وأحفى في المسألة، فعرَّفَه أخي أنّي بالديار المصرية. فذكر، رحمه اللَّه، شوقه إليّ، رحمه اللَّه ورضي عنه.

(١) إضافة للتوضيح.

(٢) الفوائد الجلية ٢٣٦، تاريخ الإسلام ٢٤٧.



وأجاز أخي في هذا اليوم المذكور جميع مسموعاته، وكذلك أجازني وأجاز أولاده، وكتب له خطّه/ ١١٦ب/ بذلك، وصورته:

«أجزتُ ذلك المذكورين، وكتب داود بن عيسى بن أبي بكر».

ثم توجّه الحاجّ العراقيّ وصُحبتهم الملك الناصر، فلما صاروا ببعض المنازل خرج عليهم جمعٌ عظيم من العرب يريدون نهبهم وأخْذ أموالهم، وأشرعوا إليهم الأسِنّة، وأخذوا في مقاتلتهم ومحاربتهم، واشتدّ بينهم قتال، وكادوا يظفرون بأمير الحاجّ ومن معه من الحجّاج، فخرج الملك الناصر فشقّ الصفوف، واستُدعي بأمير السريّة الخارجة على الحجّاج، وهو الأمير أحمد بن حجّي بن يزيد من آل مرّي[1].

وكان أبوه الأمير حجّي صاحب الملك الناصر داود، ورأيته أنا بالكرَك عنده في السنة التي كنت فيها في خدمة الملك الناصر، وكان أيضاً صاحب السلطان الملك المعظّم عيسى بن الملك العادل والد الملك الناصر، ولهما ـ أعني المعظّم وابنه الناصر ـ عليه أيادٍ عظيمة، فدنا حينئذٍ أحمد من الملك الناصر، وحذّره الناصر سوءَ عاقبة فِعله وإقدامه على ركْب الخليفة، وأخذ في مخادعته تارةً بالتّرهيب، وتارةً بالتّرغيب، إلى أن انقاد له، وأجاب إلى الموادعة، والكفّ عن المحاربة.

ولما رجع الحاجّ وصُحبتهم الملك الناصر إلى العراق خرج أمر الخليفة بإنزال الملك الناصر الحلّة، فنزل بها، وقُرّر له راتبٌ لا يكفيه.

وسنذكر بعد ذلك ما تجدّد له.

---

(١) في الأصل: «مرا»، والتصحيح من: الفوائد الجلية ٢٣٧ و٢٤١ وفيه الخبر.

٦٥٤هـ.

ودخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

والمماليك على ما كانت عليه في السنة الماضية.

[سفارة ابن العديم إلى بغداد]

وفي شوّال من هذه السنة توجّه الصاحب كما الدين بن أبي جَرَادة، المعروف بابن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف إلى الخليفة المستعصم باللَّه، وكان سفره على البرّية، ووصل إلى بغداد في الثاني والعشرين من ذي القعدة، وأقام/ ١١٧أ/ ببغداد أربعة أشهر، وخرج من بغداد في أول ربيع الآخر من السنة المقبلة عائداً إلى دمشق، وكان قدِم إلى بغداد بتقدمةٍ كثيرة من السلطان الملك الناصر، وطلب من الخليفة الخلعة لمخدومه الملك الناصر.

[وصول رسول من الملك المعزّ إلى خليفة بغداد]

وكان قد قدِم أيضاً إلى بغداد الأمير شمس الدين سُنقُر الأقرع، وهو في الأصل من غلمان الملك المظفّر شهاب الدين غازي بن الملك العادل، وكان ورد رسولاً من الملك المعزّ عزّ الدين إلى الخليفة في تعطيل وصول خلعة الخليفة إلى الملك الناصر، فتحيّر الخليفة فيما يفعل، فأحضر الوزير مؤيّد الدين العلقميّ جمال الدين بن كمال الدين، وكان سافر مع أبيه في هذه الرسالة، واستدعى له الوزير بسكّين كبيرة من يشم وناوله إيّاها، وقال له: خذ هذه علامة على أنه لا بدّ من خلعة الملك الناصر في وقتٍ آخر بعد هذا الوقت، وأخذ جمال الدين السكّين، ولم يحصل للملك الناصر الخلعة في ذلك الوقت(١).

[عزل قاضي الديار المصرية]

وفي هذه السنة عُزِل القاضي بدر الدين الحسن بن يوسف المعروف بقاضي سنجار عن قضاء الديار المصرية، ووليها القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خَلَف المعروف بابن بنت الأعزّ(٢).

---

(١) خبر رسول المعزّ باختصار في: السلوك ج١ ق٢/ ٣٩٨، وزبدة الفكرة ٢٠.

(٢) السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٠، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٤هـ.)=

وكان فقيهاً فاضلاً في الفقه والأصول، متديّناً.

ولم يزل متولّياً الحكم إلى أن قتل الملك المُعِزّ في السنة المقابلة، على ما سنذكره.

وكنّا ذكرنا أنه كان الوزير في أول دولة الملك المُعِزّ، ثم عُزل عن الوزارة، ووليها شرف الدين هبة اللّه بن صاعد المعروف بالأسعد[١]، وتمكّن تمكّناً كثيراً، بحيث أنه تقدّم على الجيش في الحرب. وكان قد عصى ركن الدين الضمريّ بالصعيد، وانضاف إليه جماعة، فجُهّز في جيشٍ لقتاله، فتوجّه بذلك/ ١١٧ب/ الجيش، فهرب ركن الدين وتوارى، ونودي عليه بالقاهرة، فلم يقع الظفر به، وهرب إلى الشام، واتّصل بالملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل صاحب الكَرَك.

وكان ما سنذكره.

وكان شرف الدين هذا قد قدّم بهاء الدين بن حِنّا، وجعله وزيراً لشجرة الدرّ، زوجة الملك المعزّ. وكان فخر الدين[٢] بن بهاء الدين هذا مزوّجاً بابنة شرف الدين الفائزي.

وكان والد بهاء الدين بن حِنّا ـ على ما يقال ـ نصرانياً ثم أسلم. وكان بهاء الدين يكتب عن نفسه: «علي بن محمد».

وكان شرف الدين ـ على ما ذُكر ـ في صِباه نصرانياً. وهو منسوبٌ إلى الملك الفائز إبراهيم بن الملك العادل. وقد تقدّم ذِكره.

وفي شرف الدين الفائزيّ يقول الصاحب جمال الدين ابن مطروح[٣]:

لعن اللَّه صاعداً ... وأباه فصاعدا
وبنيه فنازلاً ... واحداً ثم واحدا[٤]

ولم يكن شرف الدين رديء السيرة، بل كان فيه كرم طباع وأرْيحيّة، وحُسْن نظر في حقّ من يصحبه وينتمي إليه. ولم تزل منزلته عند الملك المُعِزّ عاليةً إلى أن جرى على الملك المُعِزّ ما سنذكره.

= ص٢٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ٩٣ وفيه: «ابن الأعز»، وأخبار الأيوبيين ١٦٦، تاريخ الإسلام ٢٩.

(١) أخبار الأيوبيين ١٦٥، الدرة الزكية ٣٠.

(٢) في الأصل: «مجد الدين» والتصحيح من هامش المخطوط، ومن: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ص٢٢١.

(٣) في المصادر إن القائل هو البهاء زهير الكاتب.

(٤) ديوان البهاء زهير ٨٩، تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ). ص٢٢١، عيون التواريخ ٢٠/ ١٢٨.

ذِكر ما تجدّد للملك الناصر داود في هذه السنة

قد ذكرنا أنّ الملك الناصر لما قدِم من الحجّ أُنزل بالحلَّة، وأُجري عليه راتبٌ لا يليق به، وأقام بالحلَّة.

وكان الخليفة قد عمّر ببغداد في أثناء مقام الملك الناصر بالحلّة قصراً، ثم تم بناء القصر فهنّته الخطباء والشعراء. فعمل الملك الناصر قصيدة يهنّئه فيها ببناء القصر، وتلّطف فيها في استعطافه، وعدّد خِدَمه وخِدَمَ أسلافه، وذكر استشفاعه بالنبيّ صلّى اللّه/ ١١٨أ/ عليه وسلّم إليه. والقصيدة هي هذه:

ألا سام بالكُوم[١] الهجان[٢] تأيُّدا ... فقد سامَها شدّ الوجا[٣] شدْو[٤] الحدا

وراخ لها فضْلَ الأزمّةِ من وجا[٥] ... بَرى نيّها بري المدى بشبا المُدَى[٦]

أنِخْها ببابٍ ينتدي[٧] كلُّ سيّدٍ ... حماهُ فيَغدو[٨] مُستماحاً مُسوّدا[٩]

ببَاب أمير المؤمنين ومَن بهِ ... على نائبات الدهرِ يُعدَى ويغتدى[١٠]

إمامٌ ترى الغادي على سيب جوده ... بقَيْد أياديه الجسام مُقَيّدا

به أينع العُودُ الخلافيّ فاغتَدَى ... يَميلُ جلالاً بل يميد[١١] تمجّدا

إذا حرّكتهُ الأريحيّةُ للندى ... تهاوى قطارُ المنّ يسقطُ عسجدا

له من بني العباس طولُ مكارم ... تطولُ مكان النجم جَدّاً ومَحْتِدا

ترى منه في يوم الفخار[١٢] مفوّهاً ... خطيباً، وفي يوم الجلاد مؤيّدًا

تحرّكه للمكرُمات سحابة ... وتندبه للنائبات مهنّدا

به هذّب اللّهُ الأمورَ سديدةً ... وهيّأ[١٣] سهماً في العدوّ[١٤] مُسدَّدا

أقام به أمرَ البريّة فانبرى ... يقوّم من مُعوَجّها ما تأوّدا

---

(١) الكُوم: الإبل الضخمة السنام.

(٢) الهجان: البيض الكرام.

(٣) الوجا: «أن يشتكي البعير باطن خفّه».

(٤) في الأصل: «الوحى شدوك»، والتصحيح من: الفوائد الجلية.

(٥) في الأصل: «من جى».

(٦) في الأصل: «برانيها يرى المدى بسبا المدى».

و«نيّها»: لحمها. و«المدى»: جمع مدية، وهي كبد القوس، و«شبا»: «حدّ»، و«مُدَى» جمع مدية وهي السكين.

(٧) في الأصل: «تتندى».

(٨) في الأصل: «فتغدوا».

(٩) في الأصل: «مسودى».

(١٠) في الأصل: «بعدى ليعتدا».

(١١) في الأصل: «تميل.. تميد».

(١٢) في الفوائد الجلية: «الجدال».

(١٣) في الأصل: «وهيأه».

(١٤) في الفوائد: «في العداة».

يشدّ من الإسلام واهيَ أزرهِ ... ويجمعُ شملاً كان منه مبدّدا

فلا زلتَ يا مُولي الأيادي مؤيّداً ... على كاهلِ الجوزاء تعلو[1] مؤيّدا

وهُنّيتَ بالقصر العَليّ الذي غدا ... بعَليلكَ مُشتدّ البناء مُشيّدا

ترى منه أشجارَ الأماني وريقةً ... ونورَ التّهاني بالدوام مُورّدَا

تفيءُ غصونُ السَّعد فوقكَ لدنَةً ... لتجني ثمارَ النصر دانيةَ المدى

حللتَ به كالليث حلّ عرينَهُ ... أو البدرِ ما بين الذرا عين قد بدا

فمن نوركَ الزاهي تألّقَ زاهراً ... ومن مجدكَ العالي تعالى مُمَجّدا

وأعوزَ هذا اليومَ، إنْ كنت قائماً ... أقولُ فأستوفي المقالة منشدا[2]

خطيبُ معاليكم، وشاعرُ مجدكم ... مقالُ لَعَمْري[3] سار فيكم فأبعدا

يمتّ بنفس، بل ببيتٍ مُؤثّلِ ... وأفعالِ طاعاتٍ تفلّ بها العدا[4]

/118ب/ أعادوا لواءَ الكُفر تحت لوائكمْ ... كسيراً، وخاضوا الموتَ فيكمُ مُصرّدا[5]

له منكمُ عهدٌ تقادَم مُحكَمٌ ... يزيدُ، وإنْ رثّ الوفاءُ تجدّدا

أيهضُمه الدّهرُ الخؤونُ، وأنتم ... له عدّةٌ، تُوفونَ وعداً وموعدا

وكيف وإنّي قد نزلتُ حماكُمُ ... دخيلاً أرجّي جدّكم لي مُنجدا

يقومُ بنصري من ذؤابة هاشم ... أئمّة حقٍ، تُستجاشُ، وتُجتدى[6]

همُ ما هُمُ قد قسّموا الدّهر قسمةً ... عديلي سواءٍ: للنزال وللندى[7]

حماسةُ مجْدٍ، بل سماحةُ محتدٍ ... تُعدّ ادّخاراً للجلاد وللجدا[8]

أتيتُك من غوري تِهامة قاصداً ... أقذُّ متن البيدِ نحوكَ مُنجدا

أيحسُنُ يا نجْلَ الخلافة أن يُرى ... مُهاجرُكُمْ عنكمْ طريداً مشرّدا؟

ويبعدُ عنكم مَن غدا مشفّعاً ... أبا أحمدٍ في الغُرب منكم بأحمدا

فلا زال منه الدّهر غوثٌ[9] مُجدّدٌ ... تُرى منه عِزًّا في عُلاك مجدّدا

---

(١) في الأصل: «تعلوا».

(٢) في الفوائد: «مقصدا».

(٣) في الفوائد: «مقالي كشعري».

(٤) في الأصل: «العدى».

(٥) مصرّدا = من الصرد، الطعن النافذ، وصرد الرمح والسهم نفذ حده.

(٦) في الأصل: «وتحتدا».

(٧) في الأصل: «للندا».

(٨) الجداء: العطاء.

(٩) في الفوائد: «عون».

ولا زالَ عاصي الدّهرِ طوع أبائكم إذا فُهتُمُ أمراً أصاخ تعبُّدا[١]

فلم يُجْدِ شيءٌ من هذه المدائح والخِدَم وأنواع التّضرّع والتّوسّل، ولم يرعوا حقّه، ولا حقّ خدمته ومهاجرته إلى الإمام المستنصر باللّه، رحمه اللّه، بل سيّروا إليه من حاسبه على جميع ما وصل إليه طول المدّة من النّفقات، وما أوصلوه إليه مفرّقاً وما ضيّفوه به في تردّده وإقامته وظعنه، من خُبزٍ ولحم وعليق، وأوصلوا إليه شيئاً نزْراً، وقالوا: قد وصل إليك قيمةُ وديعتك، فاكتُب خَطّك بوصوله، وأنه لم يبق لك عند الديوان حقّ ولا مطالبة، فلم يمكنه إلّا الإجابة والمسارعة إلى ما طُلب منه، فكتب خطّه بأنه لم يبق له عندهم شيء، وما وصل إليه من ثمن وديعته، إلّا أقلّ من العُشر، فانصرف عنهم ساخطاً، واجتمع عليه جماعةٌ من العرب، وأرادوا التوصّل به إلى نهْب البلاد والإفساد فيها، فامتنع من ذلك، وأقام عند العرب وأقام السلطان/ ١١٩أ/ الملك الناصر مقام الملك الناصر عند العرب، فأهمّه مقامه عندهم، وخاف عاقبة ذلك، فسيّر الملك الظاهر شادي ولد الملك الناصر داود، وهو أكبر أولاده إليه، وحلف له اليمين الشرعية أنه لا يتعرّض له بأذى، فوصل الملك الظاهر شاذي إلى والده، وأنهى إليه ذلك، فقدم إلى دمشق. ووجدا الملك الناصر يوسف قد أوغروا صدره عليه، فنزل بالصالحية بتُربة والده الملك المعظّم وشرط عليه أن لا يركب فرساً. وحصل عند السلطان الملك الناصر منه تغيّر شديد. ثم أذِن له في ركوب الفرس بشرط أن لا يدخل البلد، ولا يركب في موكب[٢].

واستمرّ الحال على ذلك، إلى أن خرجت هذه السنة.

---

(١) القصيدة بزيادة أبيات في: الفوائد الجلية ٢٤١ ـ ٢٤٦.

(٢) الفوائد الجلية ٢٤١.

٦٥٥هـ.

ودخلت سنة خمس وخمسين وستمائة

والحال في الممالك على حالها.

[عزْم الملك المُعِزّ على الزواج]

واشتهر في هذه السنة أنّ الملك المُعِزّ صاحب مصر قد عزم على أن يتزوّج بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأنه قد تردّد بينه [وبينه](١) رسائل في ذلك. وبلغ ذلك زوجتَه الملكةَ شجر الدرّ، التي كانت زوجة الملك الصالح، فغارت من ذلك، وعظُم عليها ذلك. وكانت تركيّةً، ذاتَ نفْسٍ قويّة، وشهامة عظيمة، فعزمت على الفتك به، وإقامة غيره في المُلك مقامه(٢).

ذِكر مقتل الملك المُعِزّ عزّ الدين أيبك

ولما عَزَمَت على ذلك بعثت إلى صفيّ الدين بن مرزوق، وكان مقيماً بمصر، وكان من المتقدّمين في دولة السلطان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل، وله وجاهة ومكانة عند الملوك، تستشيره في قتل الملك المُعِزّ، ووعدته أن يكون الوزيرَ والحاكمَ في الدولة، فبعث إليها يُنكر عليها هذا الأمر، ويَنهاها عنه، فطلبت مملوكاً للطواشي محسن/ ١١٩ب/ الجَوْجَري، الصالحيّ، وعرّفتْه ما عزمت عليه، ووعدته، إنْ قَتَلَه، الوعودَ الجميلة، واستدعت جماعةً من الخدّام الصالحية، وأطلعتهم على هذا الأمر واتّفقت معهم ومع مملوك الجَوْجَريّ على الفتْك بالملك المُعِزّ.

ولما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول كان الملك المُعِزّ نازلاً باللُّوق، في القصور التي بناها الملك الصالح، وإلى جانبها ميدان تحفّ به البساتين.

وكانت عادة الملك المُعِزّ يلعب فيه بالصّوالجة كل يوم ثلاثاء. ففي هذا اليوم لعب فيه على عادته إلى آخر النهار، ثم توجّه إلى قلعة الجبل، وفي خدمته أمراء الدولة، ووزيره شرف الدين، الأسعد، هبة اللّه ابن صاعد، والقاضي بدر الدين، وكان يومئذٍ معزولاً عن القضاء، كما قدّمنا ذِكره.

---

(١) كتبت فوق السطر.

(٢) زبدة الفكرة ٢٤، التحفة الملوكية ٣٩، السلوك ج١ ق٢/ ٤٠١.

ولما صعِد الملك المُعِزّ إلى قلعة الجبل، فارقه الموكب، ورجع الوزير شرف الدين إلى منظرةٍ له بالقاهرة، كان ابتناها بقرب الجامع الأقمر، كنّا نجتمع به فيها، وكان يميل إليّ كثيراً.

ولما دخل الملك المُعزّ داره، وأتى إلى حمّام الدار ليغتسل فيها، ويزيل عنه الثياب التي اتّسخت بلعب الكُرَة. فلما شرع في قلع ثيابه، وثب عليه سنجر مملوك الجَوْجَري، والخدّام الصالحية الذين اتّفقت معهم على قتله، فرموه إلى الأرض، وجلسوا على صدره، وخفقوه[(١)].

وسيّرت في ذلك الوقت إلى صفيّ الدين بن مرزوق من قال له: إنّ السلطان يستدعيك. فركب حماره وتوجّه إلى القلعة.

وكانت عادته مع عِظَم مكانته أنه لا يركب فرساً ولا بغلةً، وإنما يركب حماراً. وربّما كان في الموكب السلطاني يركبه.

ولما وصل إلى القلعة دخلها من باب سرٍّ فُتح له، ودخل إلى شجر الدرّ، فرآها جالسةً والملك/ ١٢٠أ/ المُعِزّ بين يديها ميّتاً، فأخبرته الخبر، فعظُم عليه هذا الأمر جدّاً، وخاف خوفاً شديداً، واستشارته فيما تفعل؟ فقال: ما أعرف ما أقول، وقد وقعتِ في أمرٍ عظيمٍ مالك مخلّصٌ منه.

وكان الأمير جمال الدين أيدُغدي العزيزيّ معتَقَلاً في بعض الأدُرّ السلطانية،

---

(١) خبر مقتل المعزّ في:
أخبار الأيوبيين ١٦٥، وذيل الروضتين ١٩٦، وتاريخ مختصر الدول ٢٦٠، وتاريخ الزمان ٢٩٥، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٢، والنور اللائح ٥٦، وذيل مرآة الزمان ١/ ٤٥ ـ ٤٧، والدرّة الزكية ٣٠ ـ ٣٢، ونزهة المالك والمملوك ١٤٧، وتاريخ النوادر ٤/ورقة ٥١ب، ومختار الأخبار ٩، ونهاية الأرب ٢٩/ ٤٥٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٥هـ.) ٢٨ و(وفيات ٦٥٥هـ.) ١٩٣ ـ ١٩٦ رقم ١٨٨، والعبر ٥/ ٢٢٠، ودول الإسلام ٢/ ١٥٩، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٩٨ ـ ٢٠٠ رقم ١١٨، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٤١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٣، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٦، ١٣٧، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢٦٩، والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٨، ١٩٩، والوافي بالوفيات ٩/ ٤٦٩ ـ ٤٧٤ رقم ٤٤٣٠، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٠٦ ـ ١٠٨، ودرّة الأسلاك ١/ ورقة ١٤، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٦٣، والنفحة المسكية ٤٣، والجوهر الثمين ٢/ ٥٥، ٥٦، ومآثر الإنافة ٢/ ٩٤، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٤، وعقد الجمان (١) ١٤٠ ـ ١٤٢، والمنهل الصافي ١/ ٢٠، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢ ـ ٣٢، والدليل الشافي ٤ و١٦٠ رقم ٥٧١، وتحفة الأحباب ٩٩، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٠، ٣٧١، وتاريخ الملك الأشرف قايتباي ٥٦، ونزهة الأنام ٢٣١، ٢٣٢، ونزهة الأساطين ٦٩ رقم ٢، وبدائع الزهور ج١ ق٢/ ٢٩٣، ٢٩٤، وتاريخ الأزمنة ٢٣٥، وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٧، وتاريخ الخلفاء ٤٦٦، وتحفة الناظرين ١/ ١٧٣، وأخبار الدول ٢/ ٢٦٧، ٢٦٨.

وكان الملك المُعزّ كما ـ قدّمنا ذِكره ـ قد أشهر موته، لئلا يلزمه رسولُ الخليفة بإطلاقه، وكان مُكرماً له، وعنده كلّ ما يحتاج إليه، فأحضرته شجر الدرّ في تلك الليلة، وطلبت منه أن يقوم بالأمر، فامتنع، إذ لم يمكنه أن يفعل شيئاً من ذلك، ولا له من يساعده عليه، وسيّرت في تلك الليلة إصبع الملك المُعِزّ وخاتمه إلى الأمير عزّ الدين الحلبيّ الكبير، وطلبت منه أن يقوم بالأمر، فلم يلتفت إلى ذلك، ولم يجسُر عليه.

وانطمّت الأخبار عن الناس تلك الليلة.

ولما أصبح الصباح من يوم الأربعاء الرابع والعشرين، من شهر ربيع الأول، ركب الأمراء والأكابر إلى القلعة على عادتهم، وليس عند أحدٍ خبرٌ مما جرى. ولم يركب الوزير شرف الدين الفائزيّ ذلك اليوم.

وتحيّرت شجر الدرّ فيما تفعل، فأرسلت إلى الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المُعِزّ تقول له عن أبيه، أنْ ينزل إلى البحر مع جمْعٍ من الأمراء لإصلاح أمر الشواني التي تجهّزت للمُضيّ إلى دمياط، ففعل. وقصدتَ بذلك أن يقلّ من على الباب، لتتمكّن مما تريد، فلم يتمّ لها مُراد.

ونزل الملك المنصور نور الدين، وأمير جاندار إلى البحر في جَمْعٍ من الأمراء.

وبلغني أنّ الخادم المعروف بالجَوْجَريّ، وهو كبير الخدّام الذين قتلوا الملك المُعِزّ، خرج يومئذٍ إلى الباب، فوجد الأمير سابق الدين الصَّيْرميّ، فقال له: يا سابق، هكذا هكذا وإلّا فلا لا. وكانوا يظنّون أنّ الأمر إذا ظهر ساعدهم/ ١٢٠ب/ الناس، فلم يتّفق ذلك.

ولما تعالى النهار، وشاع الخبر في البلد بقتْل الملك المُعِزّ، اضطرب النّاس في البلد اضطراباً عظيماً، واختلفت أقاويل الناس، ولم يقفوا على حقيقة الخبر، وركب العسكر إلى جهة القلعة، وأحدقوا بها. ودخل (القلعة)[1] مماليكُ الملك المُعزّ، والأميرُ بهاء الدين تغري الأشرفيّ، وهو مقدّم الخليفة. وطمع الأمير عزّ الدين أيبك الحلبيّ الكبير في التقدّم، وساعده على ذلك جماعة من الأمراء الصالحية، فلم يتمّ لهم ما أرادوا.

ذِكر تملُّك المنصور نور الدين علي بن الملك المُعِزّ

ثم استحضر الذين في القلعة الوزير شرف الدين الفائزي، فصعِد إليهم، واتفقوا على تمليك الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المُعِزّ، وعُمُره يومئذٍ نحو

---

(١) كتبت على هامش المخطوط.

خمس عشرة سنة[١]، ورتّبوه في المُلك[٢]. ونودي في البلد بشعاره، وسكن الناس، وتفرّقت الأمراء الصالحية إلى دُورهم.

وكان مدّة مُلْك الملك المُعِزّ نحو سبع سنين[٣].

[تنصيب الأمير سنجر الحلبي أتابكاً]

ولما كان يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول وقع في البلد خبطٌ عظيم، وركب العسكر إلى القلعة. واتّفق رأي الذين في القلعة على نصْب الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبيّ، المعروف بالمشدّ، أتابكاً للملك المنصور، وهو الذي نصّب نفسَه للسلطنة بدمشق، بعد قتل الملك المظفّر قُطُز، واستحلفوا العسكر له، وحلفت له الأمراء الصالحية على كُرْهٍ لذلك من أكثرهم، وامتنع الأمير عزّ الدين الحلبيّ الكبير، ثم خاف على نفسه فحلف، وانتظمت الأمور[٤].

[الخطبة للملك المنصور]

ولما كان يوم الجمعة، وهو غد هذا اليوم، خُطِب للملك المنصور بمصر والقاهرة.

[امتناع شجر الدّرّ بدار السلطنة]

وأمّا شجر الدرّ فإنها امتنعت بدار السلطنة هي والذين قتلوا الملك المُعِزّ،

---

(١) في زبدة الفكرة ٢٥، والتحفة الملوكية ٣٩، ونزهة الأنام ٢٣٢، والنفحة المسكية ٤٥، والجوهر الثمين ٢/ ٥٧ «كان عمره عشر سنين»، وفي بدائع الزهور ١ ق٢/ ٢٩٦ «كان له إحد وعشرين سنة»!، والمثبت يتفق مع: السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥، والمواعظ والاعتبار ٢/ ٢٣٨، والنجوم الزاهرة ٧/ ٤١، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٢.

(٢) خبر تملّك المنصور علي في:
مختار الأخبار ١٠، والتحفة الملوكية ٣٩، وزبدة الفكرة ٢٤، ٢٥، وأخبار الأيوبيين ١٦٦، والدرّة الزكية ٧٣، والنفحة المسكية ٤٥، والجوهر الثمين ٢/ ٥٧، ونزهة الأنام ٢٣٢، ٢٣٣، ونهاية الأرب ٢٩/ ٤٥٩، ٤٦٠، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٢، ونزهة المالك ١٤٧، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥، وغيره.

(٣) في: نهاية الأرب ٢٩/ ٤٥٨ «كانت مدّة سلطنة الملك المعزّ ست سنين وأحد عشر شهراً إلا أربعة أيام». وفي: النفحة المسكية ٤٤ «سبع سنين إلا ثلاثة وثلاثين يوماً». وفي زبدة الفكرة ٢٤ «كانت دولة المعز خمس سنين وأشهراً»، ومثله في: التحفة الملوكية ٣٩، وفي أخبار الأيوبيين: «كانت مملكة المعز سبع سنين إلا ثلاثة وثلاثين يوماً أولها يوم السبت وآخرها يوم الثلاثاء لتتمة ستمائة أربعة وخمسين سنة وأربعة وثلاثين يوماً للهجرة ولتمام ستة آلاف وتسع مائة ثمانية وأربعين سنة وسبعة أشهر وسبعة عشر يوماً للعالم شمسية». وانظر: السلوك: وغيره من المصادر.

(٤) خبر تنصيب الأمير سنجر في: السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥.

وطلب مماليك الملك المُعِزّ هجوم الدار عليها لقبْضها/ ١٢١أ/ وقبْضهم، فحالت الأمراء الصالحية بينهم وبين ذلك، فحين ذلك أمّنها مماليك الملك المُعِزّ، وحلفوا لها أنهم لا يتعرّضون لها بمُسَاءة.

[إقامة شجر الدرّ بالبرج الأحمر]

ولما كان يوم الإثنين التاسع والعشرون من شهر ربيع الأول، أُخرجت شجرةُ الدرّ من دار السلطنة، ونُقلت إلى البرج المعروف بالبرج الأحمر، وتُركْ عندها بعض الجواري التي لها، وقبض على الخدّام، واقتُسمت الجواري.

[الخادم نصر العزيزي]

وكان نصر العزيزي، الصالحيّ، وهو أحد الخدّام القَتَلَة قد هرب يوم ظهور الواقعة إلى الشام، واحتيط على الدار، وجميع ما فيها.

[إطلاق ابن مرزوق]

وكان يوم ظهور الواقعة أُحضر من الدار صفيّ الدين بن مرزوق، وسُئل عن حضوره عند شجر الدرّ، فعرّفهم[1] صورة الحال، فصدّقوه في أنه كان مُلجأً إلى الحضور عندها، فأطلقوه.

[إعتقال الأمير أيدُغدي]

وحضر الأمير جمال الدين أيدُغدي، العزيزيّ، وكان الناس كلّهم قبل ذلك قد تيقّنوا موت، فأُمِر باعتقاله، ثم نُقل إلى إسكندرية، فاعتُقل بها، ولم يزل لذلك إلى أن أخرجه من الاعتقال الملكُ المظفّر سيف الدين قُطز، على ما سنذكره.

[صلْب الخدّام القتلة]

وفي يوم الإثنين المذكور تقدّموا بصلْب الخدّام الذين اتّفقوا على قتل المُعِزّ وهرب، سَنْجَر غلام الجَوْجَري الذي ساعد شجَرَ الدرّ على قتْل الملك المعزّ، ثم ظُفر به، وصُلب على باب القلعة، وصُلبت الخدّام، ومن جملتهم الطواشي محسن الجَوْجَري، الصالحيّ، وكان من أجلّ الخدّام، وجُعل إلى جانب غلامه سَنْجَر، فمات سَنْجَر وقت العصر من هذا اليوم على الخَشَبَة، وتأخر موت الباقين إلى تمام يومين[2].

(١) في الأصل: «فعرفتهم».
(٢) خبر الصلب في: السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٤.

[ركوب الملك بالسناجق السلطانية]

ولما كان يوم الخميس، ثاني شهر ربيع الآخر، ركب الملك المنصور، نور الدين، علي بن الملك المُعِزّ بالسّناجق السّلطانية وفي خدمته جميعُ الأمراء والعساكر، ودخل القاهرة من باب النصر، وترجّل له جميع الأمراء، خلا الأتابك عَلَم الدين سَنْجَر الحلبيّ، وصعِد القلعة،/ ١٢١ب/ ومُدّ السّماط للأمراء، وتقرّر في المُلك.

ووزر له وزير أبيه شرف الدين الأسعد هبة اللَّه بن صاعد الفائزيّ[١].

[الخطبة للمنصور]

وفي يوم الجمعة خُطِب للملك المنصور، وبعده لأتابكه عَلَم الدين.

[القضاء بالقاهرة]

وكان يوم الأربعاء مستهلّ الشهر فُوّض القضاء بالقاهرة وما معها للقاضي بدر الدين يوسف بن الحسن[٢]، وعُزل عن ذلك تاج الدين بن بنت الأعزّ، وأبقى له قضاء مصر وما معها[٣].

ذِكر تغيّر هذه القواعد
ومقتل شجر الدرّ والفائزي وما جرى من الفِتَن

ولما كان يوم الجمعة، العاشر من شهر ربيع الآخر، قبض مماليكُ الملك المُعِزّ، وهم: سيف الدين قُطُز، وعَلَم الدين سَنْجَر الغُتميّ، وسيف الدين بهادُر، وغيرُهم، على الأتابك عَلَم الدّين سَنْجَر الحلبيّ، لأنهم تخيّلوا منه الطمعَ في الاستيلاء على الملك، وأمروا به، فأنزل إلى الجُبّ بالقلعة، فاضطربت[٤] الأمراء الصالحية كذلك، وركب العسكر، ووقع (في)[٥] البلد اضطراب شديد، وغُلّقت الأسواق، وخيف على البلد النهب.

ثم خافت[٦] الأمراء الصالحية على أنفسهم فهرب أكثرهم إلى جهة الشام[٧].

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٤، نهاية الأرب ٢٩/ ٤٦٠، أخبار الأيوبيين ١٦٦، نزهة الأنام ٣٣٢.
(٢) هو «السنجاري».
(٣) السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥، نهاية الأرب ٢٩/ ٤٦١.
(٤) الصواب: «فاضطرب».
(٥) كتبت فوق السطر.
(٦) الصواب: «خاف».
(٧) السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥، تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ص١٩٦.

[موت أيبك الحلبي وخاص ترك]

وتقنطر[١] بالأمير عزّ الدين أيبك الحلبيّ فَرَسُه[٢]،

وكذلك ركن الدين خاص تُرك الصغير[٣]، فهلكا خارج القاهرة، وأُدْخِلا ميّتين[٤]، واتّبع العسكر المنهزمين، فقُبض على أكثرهم، وحُملوا إلى القلعة، واعتُقلوا بها.

[القبض على الفائزي]

وقُبض على شرف الدين الفائزي، واعتُقل[٥].

[وزارة القاضي بدر الدين]

وفُوّض أمر الوزارة إلى القاضي بدر الدين، مُضافاً إلى قضاء القاهرة وما معها، واحتيط على جميع موجود الفائزي، وكان له مالٌ، لكنْ كان أكثره مُودَعاً، وأُخذ خطّه لسيف الدين قُطز بمائة ألف دينار[٦].

[الإحاطة بابن حِنا]

وأحيط على بهاء الدين علي بن حِنا، وكان وزيراً/ ١٢٢أ/ لشجر الدرّ، كما قدّمنا ذِكره.

وأُخِذ خطّه بستّين ألف دينار[٧].

[أتابكية أقطاي]

وفي يوم الأربعاء، منتصف شهر ربيع الآخر، رُتب الأمير فارس الدين أقطاي

---

(١) في الأصل: «وتقطر».

(٢) انظر عن (أيبك الحلبي) في:
ذيل مرآة الزمان ١/ ٦٠، ٦١، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ص١٩٦ رقم ١٨٩، والوافي بالوفيات ٩/ ٤٧٤ رقم ٤٤٣١، ودرّة الأسلاك ١/حوادث ٦٥٥هـ، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥، والدليل الشافي ١/ ١٦١، والمنهل الصافي ٣/ ١٢٩، ١٣٠ رقم ٥٧٤، والنجوم الزاهرة ٧/ ٥٦، ٥٧.

(٣) انظر عن (خاص ترك) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ص١٥٧ رقم ١٩٢.

(٤) في الأصل: «متين».

(٥) ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٠، تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ص٢٢٠، السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥.

(٦) السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥، نزهة الأنام ٢٣٣، نهاية الأرب ٢٩/ ٤٦٠.

(٧) السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٤، الدرّة الزكية ٣٢.

المستعرب، وهو أحد الأمراء الصالحية، أتابكاً للملك المنصور(١).

[مقتل شجر الدرّ]

وفي يوم السبت، حادي عشر هذا الشهر، وُجدت شجرُ الدرّ مقتولةً خارج القلعة، فحُملت إلى تربةٍ كانت قد بَنَتها لنفسها، فدُفنت بها، وكان هذا عاقبة أمرها، فسبحان من لا يزول مُلكه.

وكان الملك الصالح، رحمه اللّه، شديد المحبّة لها. ولما اعتُقل بالكرَك كانت معه في الاعتقال، ووَلَدَت ولدَها خليل بن الملك الصالح بالكرَك، وحُمل معها إلى مصر، وبقي مدّةً يسيرة يركب مع الخدّام. وتُوفّي صغيراً.

وكانت حسنة السيرة، لكن الغَيْرة حملتها على ما فعلت. وكانت تركية، قوّية النفس(٢).

[تولية المؤلّف القضاء]

وفي اليوم السابع والعشرين من هذا الشهر، رسّم الملكُ المنصور لي بقضاء الخيرية والإطفيحيّة(٣) استقلالاً، وهي من أعمال ولاية القاضي تاج الدين، فانتُزعت لي منه، وكُتب لي بها توقيعٌ بإنشاء جمال الدين المَوْصِلي، كاتب الإنشاء، وخُلع عليّ

---

(١) السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥، نهاية الأرب ٢٩/ ٤٦٠، الدرّة الزكية ٧٢.

(٢) خبر مقتل شجر الدر في:
ذيل الروضتين ١٩٦، وتاريخ مختصر الدول ٢٦٠، وتاريخ الزمان ٢٩٥، وأخبار الأيوبيين ١٦٥، والنور اللائح ٥٦، وزبدة الفكرة ٢٤، والتحفة الملوكية ٣٩، ومختار الأخبار ٩، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٢، وذيل مرآة الزمان ١/ ٦١، والدرّة الزكية ٣٢، ونهاية الأرب ٢٩/ ٤٥٧، ونزهة المالك ١٤٧، والعبر ٥/ ٢٢٢، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ١٩٨ ـ ٢٠٠ رقم ١٩٥، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٤، وعيون التواريخ ٢٠/ ١١٢، والوافي بالوفيات ١٦/ ١٢٠ رقم ١٣٣، والنفحة المسكية ٤٣، والجوهر الثمين ٢/ ٥٦، ومآثر الإنافة ٢/ ٩٤، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٦٣ و٣٧٧، ودول الإسلام ٢/ ١٥٩، والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٩، والمواعظ والاعتبار ٢/ ٢٣٧، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٠٤، وعقد الجمان (١) ١٦٥، ١٦٦، والنجوم الزاهرة ٧/ ٥٦، والدليل الشافي ١/ ٣٤٢ رقم ١١٧٩، والمنهل الصافي ٢/ ٢١٩ ـ ٢٢١ رقم ١١٨٢، وتحفة الأحباب ٩٦ ـ ٩٩، وحسن المحاضرة ٢/ ٣٩، ونزهة الأساطين ٦٧، ٦٨ رقم ١، وتحفة الناظرين ١/ ١٧٣، وأخبار الدول ٢/ ٢٦٤ و٢٦٨، ونزهة الأنام ٢٣٢، وتاريخ النوادر ٤/ورقة ٥٠ب، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٩٤، ٢٩٥، وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٨، وأعلام النساء ٢/ ٢٩٠.

(٣) إطفيح: بالكسر في أوله، والفاء، وياء ساكنة، وحاء مهملة. بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل في شرقيّه، وفي قبلته مقام موسى بن عمران، عليه السلام. (معجم البلدان ١/ ٢١٨).

خلعة مكمّلة، وانتزع أيضاً من تاج الدين ولايته البَهْسَنَا، والفيّوم، ووقّع بها القاضي ظهيرُ الدين عبدُ اللّه بن عمّ القاضي بدر الدين، استقلالاً.

[خنق الفائزي]

وبعد أيام خُنق الفائزي(١)، شرفُ الدين، وحُمل إلى القرافة فدُفن بها.

وحكى لي القاضي برهان الدين الخضر بن الحسن، رحمه اللّه، أخو الصاحب بهاء الدين، قال: دخلت إليه في محبسه، فسألني أن أتحدّث في إطلاقه، على أن يحمل في صباح كل يوم ألفَ دينار،

فقلت له: كيف تقدر على هذا؟

فقال: أقدر عليه إلى تمام سنة، ومبلغ ذلك يجيء نحو ثلاثمائة ألف دينار وستّين ألف دينار وإلى أن تمضي سنة يفرّج اللّه/ ١٢٢ب/ تعالى عنّي.

فلم يلتفت مماليك الملك المُعزّ إلى ذلك وعجّلوا هلاكه، رحمه اللّه.

[الوزارة بمصر]

واستمرّ القاضي بدر الدين، رحمه اللّه، في الوزارة إلى رجب من هذه السنة، ثم عُزل عن الوزارة، ووُلّيها القاضي (تاج الدين ابن بنت الأعزّ، وعُزل عن قضاء مصر ووُلّي العمل كله)(٢) القاضي بدر الدين واستمرّ الحال على ذلك إلى أن خرجت هذه السنة(٣).

ذِكر مفارقة البحرية للسلطان الملك الناصر رحمه اللّه

وفي هذه السنة وقعت وحشةٌ في نفس السلطان الملك الناصر من البحرية، وأُنهي أنهم قد عزموا على اغتياله، والتّغلُّب على المُلْك، فتقدّم إليهم بالإنتزاح عن دمشق، ففارقوا دمشق على صورة العصيان له والمشاققة، ونزلوا بغزّة. ثم انتموا إلى الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل صاحب الكرك، وكان منه ومنهم ما سنذكره(٤).

---

(١) هو: هبة اللّه بن صاعد. انظر عنه في:
ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٠ ـ ٨٣، وإنسان العيون، لابن أبي عذيبة، ورقة ٣٩٤، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٤٣، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ص٢٢٠، ٢٢١ رقم ٢٣٢، والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٩، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٢٧، ١٢٨، ودرّة الأسلاك ١/ ورقة ١٤، والسلوك ج١ ق٢/ ١٠٦، والنجوم الزاهرة ٧/ ٥٨، وعقد الجمان (١) ١٦٣.

(٢) ما بين القوسين كتب على هامش المخطوط.

(٣) السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٥.

(٤) السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٥هـ.) ص٢٩.

[الإرجاف بإزالة أمر مماليك السلطان]

وفي شعبان من هذه السنة كثُر الإرجاف بالقاهرة، بأنّ الأجناد والأمراء اتّفقوا على إزالة أمر مماليك السلطان عن البلد، وأنّ الملك المنصور تغيّر على سيف الدين قُطُز مملوك والده، واجتمع أكثر الأمراء في دار الأمير، بهاء الدين، بُغْدي الأشرفي، بين القصرين، وهو مقدّم الحلقة.

ثم رضي الملك المنصور على سيف الدين قُطُز، وخلع عليه، وطيّب قلبه، وتفرّق الناس، وسكنت الفتنة.

[الفتنة بمصر]

وفي رابع شهر رمضان، من هذه السنة، وقعت فتنةٌ عظيمة، وهي أنّه ركب مقدّم العسكر بهاء الدين بغدي، ومعه الأمير بدر الدين بُلغان الأشرفي في جماعةٍ من العسكر، وقصدوا جهة القلعة، لحرب من بها من مماليك الملك المُعزّ، وأُركبا بمن معهما قريباً من سوق الغنم، فنزل إليهما مماليك الملك المعزّ في جمْع كبير، فانهزم من كان مع بُغْدي وبُلْغان[1] من الجُند، وقُبض عليهما بعد أن جرح بُغدي، وحُملا إلى القلعة.

ودخل مماليك الملك المُعِزّ ومن معهم إلى القاهرة، فقبضوا على الأمراء/ ١٢٣أ/ الأشرفية، كأيبك الأسمر، وأرز الرومي، وقُبض أيضاً على سابق الدين الصيرمي توريا، وغيرهم، ونُهبت دُورهم وأسبابهم، ووقع في البلد اضطرابٌ عظيم. ثم نودي بالأمان لمن دخل في طاعة السلطان، وسكن الناس.

[صلاة عيد الفِطر]

وفي يوم الإثنين، خامس رمضان، ركب الملك المنصور، وفي خدمته سيف الدين قُطُز وباقي مماليك أبيه، وشق القاهرة.

وكان عيد الفِطر يوم الخميس، نزل فيه الملك المنصور، وصلى بالمصلّى، ثم ركب إلى القلعة، ومُدّ السّماط.

[مفارقة البحرية للسلطان]

ووردت الأخبار بمفارقة البحرية للسلطان الملك الناصر يوسف على صورة العصيان له، وإظهار المشاقة. وظنّ المصريّون أنّ ذلك خديعةٌ من الملك الناصر،

---

(١) في السلوك ج١ ق٢/٤٠٦ قتل في الموقعة.

وأنه قد عزم على قصد البلاد، ولم يكن لِما ظنّوه حقيقة، فأخذوا في التجهّز للدفع عن المحاربة والمقاتلة.

[خروج أمراء من القاهرة]

وفي يوم السبت، ثالث شهر شوال، خرج من القاهرة عدّة أمراء، ومقدّمهم الدمياطي وخرج غد هذا اليوم آخرون، ونزلت العساكر بالعبّاسة وما حولها، ووقع الإنزعاج بسبب ذلك.

ثم وردت الأخبار بأنّ عساكر السلطان الملك الناصر وصلت إلى نابلس، لحرب البحرية، وكانوا نازلين بغزّة.

ثم ورد الخبر بأنّ البحرية كبسوا عسكر الملك الناصر، وقتلوا منهم جماعة ليلاً.

ثم ورد الخبر أنّ عسكر الملك الناصر كسروا البحرية، وأنّ البحرية انحازوا إلى ناحية زُغَر[١] من الغَور.

[وصول البحرية إلى القاهرة]

وفي يوم الثلاثاء، ثالث عشر شوّال، وصل جماعة من البحرية إلى القاهرة من جملتهم الأمير عزّ الدين الأفرم، فالتقوا بالإكرام، وأُفرِج عن أملاك عزّ الدين الأفرم، ونزل بداره بمصر التي عند دار الملك.

وترادفت الأخبار بأنّ البحرية قد رحلوا من زُغَر، طالبين بعض الجهات. ووقع الظنّ بأنهم ربّما يقصدون مصر. وكان الذي صحّ من أمرهم أنهم خرجوا/ ١٢٣ب/ من دمشق على حميّة، وأنهم قصدوا أولاً البيتَ المقدّس.

وكانت[٢] مقطعة كنك، وهو من البحرية الصالحية، من السّلطان الملك الناصر، وطلبوا منه أنه يكون معهم، فامتنع من ذلك، فاعتقلوه، وخطبوا بالقدس للملك المغيث صاحب الكرَك، و جاءوا إلى غزّة، وقبضوا على واليها، وأخذوا حواصل الملك الناصر بغزّة والقدس، وقصدتهم عساكر الملك الناصر، فجرى على عسكر الملك الناصر ما تقدّم ذِكره من الكبْسة، وقُتل من قتلوا منهم، ثم انتصرت عليهم عساكر الملك الناصر، فانهزموا إلى البلقاء، ثم إلى زُغَر، ودخلوا في طاعة الملك المغيث صاحب الكرَك، وأنفق فيهم جملةً كثيرة من المال، وطمّعوه في قصد

---

(١) زُغَر: بوزن زُفَر. وآخره راء مهملة. قرية بمشارف الشام. (معجم البلدان ٣/ ١٤٢، ١٤٣).
(٢) في الأصل: «وكان».

مصر وأخُذها له، فانقاد لهم، وأنزل إليهم بعض عسكره، والطواشي بدر الدين الصوابي الصالحي أتابكَه، وهو الذي أخرجه من الاعتقال بالشوبك وملك الكرك والشوبك لما بلغه قتْلُ الملك المعظّم.

وكان السلطان الملك الصالح، رحمه اللّه، استنابه بالكَرَك لما أخذها من أولاد الملك الناصر داود.

وكان الملك الصالح قد سيّر إلى الكرَك لما مَلَكَها جملةً عظيمةً من المال، فضيّعه كلّه الملك المغيث على البحرية، طمعاً في ملك مصر[1].

[عزْم البحرية على قصد مصر]

وفي ثاني عشر ذي القعدة، من هذه السنة، وردت الأخبار بأنّ البحرية قد عزموا على قصد ديار مصر، فخرج الأمير عَلَم الدين الغُتْمي المُعِزّي، وبعض العسكر.

وفي غد هذا اليوم وقع الإنزعاج الشديد وخرجت[2] الأمراء كلهم وسائر الحلقة وحثوا[3] على الخروج حثّاً شديداً، واجتمع العساكر المصرية بالصالحية.

ذكر الوقعة بين المصريين والبحرية وهزيمة البحرية

/ ١٢٤أ/ وتواترت الأخبار بقصد البحرية الديارَ المصرية، فاهتمّت العساكر المصرية بلقائهم، وتعبّوا لحربهم.

ولما كان سَحَر ليلة السبت، منتصف ذي القعدة، وصلت البحرية، ومَن معهم من عسكر الملك المغيث بن الملك العادل، صاحب الكرَك ووقعت الحرب بين الفريقين، واشتدّ القتال بينهم، وخرج جماعة من الناس، وكان أكثر ذلك في الغلمان والعَلَمْدارية[4]، والمصريّون مع ذلك يزدادون كثرةً[5]. وطلعت الشمس، ورأى البحرية كثرةَ المصريّين، فانهزموا واستؤسر منهم ذلك اليوم سيفُ الدين الرشيدي بعد جراحات أصيب بها، وهرب بدر الدين الصوابي، والأمير رُكن الدين البُندقداري،

---

(١) زبدة الفكرة ٢٥، التحفة الملوكية ٣٩، الدرّة الزكية ٣٠، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٣، أخبار الأيوبيين ١٦٨، الروض الزاهر ٥٩، ٦٠، ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٩، ٥٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٥هـ.) ص٢٩، ٣٠، العبر ٥/ ٢٢١، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٧٨، نزهة الأنام ٢٣٣، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٧٨، عيون التواريخ ٢٠/ ١٠٨، ١٠٩، السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٦، عقد الجمان (١) ١٥٦ ـ ١٥٨، تاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٢.

(٢) الصواب: «وخرج».

(٣) في الأصل: «وحقو».

(٤) العلمدارية: لفظ مركّب من «علم»، و«دار» الفارسية أي حامل العلم، أو ممسكه.

(٥) في الأصل: «كثيرة».

الملقب بعد ذلك بالملك الظاهر، إلى جهة الكرَك، وبعض البحرية دخل في العسكر المصري، ودخل العسكر إلى القاهرة وزُيِّنت[١] البلدان لهذه الواقعة[٢].

[وصول البادَرائي إلى الشام]

وفي هذه السنة، وصل الشيخ نجم الدين البادَرائي رسول الخليفة المستعصم بالله إلى دمشق، وأفاض الخلعة المكمَّلَة على السلطان الملك الناصر، رحمه الله، والفَرَس والطَّوق الذَّهَب، ومعه التَّقليد الشريف بالسلطنة، فركب السلطان الملك الناصر بالخِلعة الإماميّة، وكان يوم ركوبه بالخِلْعة يوماً مشهوداً[٣].

ذِكر ما تجدّد للملك الناصر داود رحمه الله

كنّا ذكرنا أنّ الملك الناصر، لما وصل إلى دمشق، أقام بالصالحية، عند تُربة والده الملك المعظّم[٤]، ولما رأى إعراضَ السلطان الملك الناصر عنه، وقيل له إنه قد عزم على قبْضك، والاحتياط عليك، فمضى إلى الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد البادَرائي رحمه الله، رسول الخليفة، فاستجار به، وسأله أن يتوجّه صُحبَته/ ١٢٤ب/ إلى العراق، فأجابه إلى ذلك.

وكان قد باع الملك الناصر داره التي بالمدينة، المعروفة بعزّ الدين أسامة[٥]، من الشيخ نجم الدين.

وكنّا ذكرنا أنّ الملك الصالح نجم الدين نقل رُخامها منها إلى الديار المصرية، وبناها الشيخ نجم الدين مدرسة، ووقف عليها وقْفاً جليلاً. وذكر الشيخ نجم الدين فيها الدرس، وحضر درسه السلطان الملك الناصر، والأمراء، والأكابر، والفُقهاء.

ولما توجّه الشيخ نجم الدين عائداً إلى العراق صُحبة الملك الناصر، وكان أبوه قد أرسله إلى ملك التتر يذكر انتماءه إليه، ودخوله في طاعته، كما فعل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فورد إلى الملك العزيز ومن معه كتاب السلطان الملك الناصر، بأنْ يشيروا على الشيخ نجم الدين البادَرائي، أن لا يستصحب الملك الناصر معه إلى العراق، وأنّهم يتحيّلون في انقطاعه عنه، وأنّهم يقبضون عليه ويعتقلونه.

---

(١) في الأصل: «وزيت».

(٢) ذيل مرآة الزمان ١/ ٥١، ٥٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٥هـ.) ص٣٠، زبدة الفكرة ٢٥، نزهة الأنام ٢٣٣، النجوم الزاهرة ٧/ ٤٥.

(٣) الخبر باختصار في: السلوك ج١ ق٢/ ٤٠٧، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٣، وذيل مرآة الزمان ١/ ٥٣، ٥٤، وتاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦٥٥هـ.) ص٣٠، وعيون التواريخ ١٠/ ١١٠.

(٤) الفوائد الجلية ٢٤١.

(٥) يرد في المصادر: «أسامة» و«سامه».

ولما خرج الشيخ نجم الدين من حلب متوجّهاً إلى العراق، خرج الملك الناصر داود في صُحبته، وخرج الملك العزيز، وجماعة من أصحاب السلطان لوداع الشيخ نجم الدين. وتقدّم بعضهم إلى الشيخ نجم الدين، وقال: الرأي أنّك لا تستصحب الملك الناصر، وأنا أحبّ نُصحَك، فإنّ هذا الأمر لا يعجب الديوان، ويعتب عليك بسببه، لِما فيه من إيغار صدر السلطان الملك الناصر.

ولما أحسّ الملك الناصر ذلك، وعلم عزمَهم على اقتطاعه عن الشيخ نجم الدين، والقبض عليه، تقدّم إلى الشيخ نجم الدين، وأخذ بذيله، مستجيراً به، وقال: مَعَاذ اللَّه أن يمنعني مولانا عن قصد الأبواب الشريفة، والاستظلال/ ١٢٥أ/ بظلّها، وأنا معي كتاب السلطان الملك الناصر، لما كتب المرة الأولى بالعراق، أنه يقرّر لي كل سنة مائة ألف درهم، ويأذن لي بالتوجُّه إلى حيث شئت، ولم يصل إليّ منه ذلك. وأخرج خطَّ الملك الناصر، فقرأه الشيخ والجماعة، فقال الشيخ: هذا قد استجار بالدّيوان، وطلب التوجّه إلى الخدمة الشريفة، فما يسَعُني منه، ومعه خطّ الملك الناصر، بأنه لا يُمنع من ذلك. فرجع الجماعة إلى حلب، وسافر الملك الناصر مع الشيخ نجم الدين، فلمّا وصلوا إلى قرقيسا[١] خاف الشيخ نجم الدين أن يصل به إلى العراق، من غير تقدّم، فأشار عليه أن يقيم حتّى يأخذ له دُستوراً[٢] بالوصول، فأقام بقرقيسا، ولم يصل إليه من العراق جواب، وأبطأ عليه الإذنُ بالقدوم، فعدّا[٣] الفُرات إلى جهة الشام، وتوجّه إلى جهة تيه بني إسرائيل، وأقام به، واجتمع إليه جماعة من العرب.

ثم كان من أمره ما سنذكره إن شاء اللَّه تعالى.

[ولاية البادرائي قضاء بغداد]

ولما قدِم الشيخ نجم الدين البادَرَائي وُلّي قضاء القضاة في بغداد في جميع بلاد الإسلام، ولم يبق في القضاء إلّا مدّة يسيرة.

وكان تقلّده القضاء على ما بلغني في ثالث عشر ذي الحجة، وكان يوم وُلّي مريضاً وتُوُفّي بعد سبعة عشر يوماً من ولايته[٤].

---

(١) قرقيسا = قرقيسيا.

(٢) دستور: كلمة فارسية معناها: قانون، دخلت العربية عن طريق الأتراك. كان يُقصد بها في البداية الكهنة من أتباع الديانة الزرادشتية. تطور مدلولها فيما بعد، ليصبح من معانيها: القاعدة الأساسية التي يقوم عليها الحكم في البلاد. (معجم المصطلحات ١٨١).

(٣) الصواب: «فعدّى».

(٤) انظر عن (البادرائي، عبد اللَّه بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد اللَّه) في: =

وكان فاضلاً، ديّناً، متواضعاً. وكان إذا ركب يُومي بإصبعه إلى كل من يمرّ به من العوامّ والسُّوقة وغيرهم، ويسلّم عليهم. وكان هذا دأبُه أبداً.

وبعد موته بيسير جاءت التتر، وملكوا بغداد، وقتلوا الخليفة، على ما سنذكره.

[ظهور النار بالمدينة المنوّرة]

وفي هذه السنة، في أوائلها، وردت الأخبار [بأنّ][1] ناراً ظهرت بمدينة النبيّ، ﷺ، في الحَرّة، فكانت تظهر ليلاً، ويكون لها ضوء عظيم، فيظهر من مسافةٍ بعيدة جدّاً. ولعلّها النار التي ذكرها النبيّ، ﷺ، وعُدّ من علامات الساعة، فقال: / ١٢٥ب/ «نار تظهر بالحجاز تضيء منه أعناق الإبل ببُصرَى»[2].

= ذيل الروضتين ١٩٨، وصلة التكملة لوفيات النقلة، للحسيني ٢/ورقة ٣١، ومختصر التاريخ، لابن الكازروني ٢٧٨، ٢٧٩، وذيل مرآة الزمان ١/ ٧٠ ـ ٧٣، وتكملة إكمال الإكمال ٢٧ ـ ٣١، والحوادث الجامعة ٣٢٢، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٣، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤ رقم ٢٣١، ودول الإسلام ٢/ ١٥٩، والعبر ٥/ ٢٢٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٢، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ص٢٠٠ ـ ٢٠٢ رقم ١٩٨، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٤١، ٢٤٢، والمشتبه ١/ ٤١، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/ ١٥٩ رقم ١١٥٦، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٢٧٦، ٢٧٧ رقم ٢٥٤، والوافي بالوفيات ١٧/ ٥٨٠، ٥٨١ رقم ٤٨٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ١١٥، ١١٦، والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٦، وطبقات الفقهاء الشافعيين ٢/ ٨٧٠ رقم ٦، ودرّة الأسلاك ١/ورقة ١٤، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٧ وفيه: «نجم الدين أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه بن محمد بن أبي؟» وهو وهْم، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٢٨، ٦٢٩ وفيه: «أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد اللَّه بن عثمان بن عبد اللَّه بن أبي الوفا البغدادي الشافعي الفرضي»، والمقفى الكبير ٤/ ١١٣، ١١٤ رقم ١٤٧١، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٠٧، ونزهة الأنام ٢٣٨، وتبصير المنتبه ١١٩ و١٣٣٥، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٢٣٧ رقم ٤٠٨، وعقد الجمان (١) ١٦٠، ١٦١، وتوضيح المشتبه ١/ ٣١٧، والنجوم الزاهرة ٧/ ٥٧، والدارس ٢/ ٢٠٥، وتاريخ الخلفاء ٤٧٧، وشفاء القلوب ٣٥٦، وروضات الجنات ٦٨٤، وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٩.

(١) إضافة يقتضيها السياق.

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري، من طريق أبي هريرة، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى». (كتاب الفتن ٨/ ١٠٠ باب خروج النار) ورواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٤٢/ ٢٩٠٢ باب: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز.

وخبر ظهور النار في المدينة المنورة في:

المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٣، وذيل الروضتين ١٩٤، والعبر ٥/ ٢١٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٤هـ.) ١٨ ـ ٢٢ و٢٤، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٤٠، وذيل مرآة الزمان ١/ ٤ ـ ١٠، ودول الإسلام ٢/ ١٥٨، ومرآة الجنان ٤/ ١٣١ ـ ١٣٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٨٠، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٢٠، والطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١١٢، والبداية والنهاية ١٣/ =

[حريق المسجد النبوي]

ثم اتّفق أنّ خدّام مسجد النبيّ، ﷺ، وقع منهم في بعض الليالي تفريط أوجب أن اشتعلت نار في المسجد الشريف، واحترقت سقوفه احتراقاً عظيماً حتّى سقطت إلى الأرض، واحترق منبر المسجد، وفي داخله بقيّةٌ من منبر النبيّ، ﷺ، فما احترق، واحترق الجِذْع الذي كان الناس يتبرّكون به، وهو داخل المنبر[١].

وقد مَسَسْته وتبرّكتُ به في حَجّتي التي كانت سنة تسعٍ وأربعين وستماية.

وتألم الناس لوقوع هذين الحادثين العظيمين، واستشعروا الخوف منهما، وكانا مقدّمتين لما جرى من بُطلان أمر الخلافة، وزوال دولة بني العبّاس.

وكانت هاتان الوقعتان في سنة أربعٍ وخمسين وستمائة.

ذكر وفاة الصاحبة غازية

خاتون بنت السلطان الملك الكامل رحمهما اللّٰه

وفي هذه السنة (أعني سنة)[٢] خمسٍ وخمسين وستمائة ـ تُوُفّيت الصاحبة، غازية خاتون[٣] بنت السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب، والدة السلطان السعيد الملك، المنصور، ناصر الدين محمد بن الملك المظفّر، صاحب حماه، وذلك بقلعة حماه المحروسة، وذلك ليلة الأحد التاسع عشر من ذي الحجّة بالقلعة.

= ١٨٧ ـ ١٩٣، ونزهة الأنام ٢٢٨، وتاريخ الخميس ٢/ ٤١٥ ـ ٤١٨، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٩٨، ٣٩٩، وعقد الجمان (١) ٩٢ (حوادث ٦٥٢هـ.) و١٢٢ ـ ١٢٧، والنجوم الزاهرة ٧/ ١٦ ـ ١٩، وتحقيق النصرة للمراغي ٦٩، ٧٠، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٩٨، ٢٩٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٣.

(١) خبر حريق المسجد النبوي، في:
المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٣، وذيل الروضتين ١٩٤، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٠، والعبر ٥/ ٢١٦، ودول الإسلام ٢/ ١٥٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٤هـ.) ص٢٤، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٤، ١٣٥، وعيون التواريخ ٢٠/ ٩٢، والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٣، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٢٠، ٦٢١، وتاريخ الخميس ٢/ ٤١٨ ـ ٤٢٠، وعقد الجمان (١) ١٢٨، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٦، وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٣، ٢٦٤، وتحقيق النصرة ٦٨، ٦٩، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٩١ (حوادث سنة ٦٥١هـ.).

(٢) تكرّرتا في الأصل.

(٣) انظر عن (غازية خاتون) في:
ذيل مرآة الزمان ١/ ٧٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٦، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٤٧ رقم ٢٤٣، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٥هـ.) ص٢٠٨، ٢٠٩ رقم ٢١٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٩، وعقد الجمان (١) ٢٠٤، والنجوم الزاهرة ٧/ ٥٧، وشفاء القلوب ٣٨٢ ـ ٣٨٥ رقم ٨٤.

وكنّا قدّمنا أنّها وصلت إلى حماه في سنة تسع وعشرين وستماية[١]، ووُلد لها من السلطان الملك المظفّر تقيّ الدين محمود بن الملك المنصور، رحمهما اللّه، ابنان[٢]، وثلاث بنات. أمّا الإبنان فأكبرهما السلطان السعيد، الملك، المنصور، ناصر الدين، أبو المعالي، محمد. وكان مولده كما قدّمنا في ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستماية/ ١٢٦أ/ بعدما قدم أبوه المظفّر من الشرق. وبعدما جرى له ممّا قدّمنا ذِكره بخَرْتَبرْت. وأصغرهما الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن عليّ.

وكان مولده سنة خمس وثلاثين وستماية.

وأمّا البناتُ فتُوفّيت الكبرى[٣] منهنّ قبل وفاة والدتها الصاحبة بقليل، فدفنتها بالقلعة، وأوقفت، رحمها[٤] اللّه، وقْفاً جليلاً، وذلك قريتان على النهر العاصي، يقال لأحديهما الزَّلْقيّة، ولها بستان كبير في الجانب الشرقيّ من النهر. ويقال للأخرى العقابية في الجانب الغربيّ، وقيْساريّة[٥] في الجانب الأعلى من حماه، وبعض قرية يقال لها يعردود، وجعلت بعضَ الوقْف لفكّ الأسرى، والباقي يُصرف على مقرئين يقرأون على تُربة ابنتها، ورواتب كثيرة في المواسم والأعياد.

ولما تُوفّيت الصاحبة، رحمها اللّه، دُفنت إلى جانب ابنتها.

ثم لما تُوفّيت الصاحبة خاتون بنت السلطان الملك العزيز، غياث الدين، محمد بن الملك الظاهر، والدة مولانا السلطان الملك المظفّر تقيّ الدين محمود، خلّد اللّه سلطانه، دُفنت في التّربة المذكورة.

ثم دُفن في هذه التُربة الأمير ناصر الدين بن المولى الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفّر.

ثم لما تُوفّي السلطان السعيد الملك المنصور دُفن في تُربةٍ، عُمِلت له، إلى جانب الجامع الأعلى، ونُقل المدفون بالقلعة إلى التُربة التي أعدّت له، كما قدّمنا ذِكره.

وكانت الصاحبة غازية خاتون المذكورة لما تُوفّي زوجُها السلطان الملك المظفّر، رحمه اللّه، ووُلّي ولدها السلطان السعيد، الملك، المنصور، وهو صغير

---

(١) مفرّج الكروب ٥/ ٢٩.

(٢) في: شفاء القلوب ٣٨٥ «ثلاث بنين، مات أحدهم واسمه عمر صغيراً، والمنصور محمد، والأفضل علي. وثلاث بنات».

(٣) واسمها: ملكة خاتون. (شفاء القلوب ٣٨٥).

(٤) في الأصل: «رحمهما».

(٥) قيسارية = قاسارية = قيسرية: الخان الكبير الذي يشغله التجار والمسافرون، وقد يشمل على سوق مسقوفة. وهو يسمى: الوكالة بمصر.

السنّ، له من العُمُر يومئذٍ عشرُ سنين وشهوراً[1]، قام بالأتابكية الأمير سيف الدين طُغْريل، أستاد دار الملك المظفّر أحسن قيام، بمعاضدة الشيخ الإمام شرف الدين، شيخ الشيوخ، عبد العزيز بن محمد/١٢٦ب/الأنصاريّ. وكانت الصاحبة تشاركهما في النظر في مصالح الدولة، والطّواشيّ شجاع الدين، مُرشد المنصوريّ.

وكانت سيرتها، رحمها اللّه، أحسن السِيَر. وكانت صالحة ديّنة تحبّ الخير وأهله، وإقامةَ مَنار العدل، واقتبس ولدُها السلطان الملك المنصور، وأخوه المولى الملك الأفضل من أخلاقها الرضيّة. واستقلّ بالمُلك، فقام بأعبائها أحسن قيامٍ.

[وفاة الأمير طغريل]

ثم تُوُفّي الأمير سيف الدين طُغريل[2]، قبل وفاة الصاحبة.

وكانت وفاته، رحمه اللّه، يوم الأحد، ثالث شوّال، سنة أربعٍ وخمسين وستمائة.

---

(١) الصواب: «وشهور».

(٢) لم أجد له ترجمة في المصادر المتوفرة.

٦٥٦هـ

ودخلت سنة ستٍّ وخمسين وستمائة

والسلطان الملك الناصر بدمشق، والبحرية، ومَن انضمّ إليهم من الأمراء الصالحية، وعسكر الملك المغيث، فتح الدين، عمر بن الملك العادل، صاحب الكرَك، متّفقون على قصد الديار المصرية، ووصل إليهم الملك المغيث، ونزل بدِهليزه بغزّة[(١)].

وأمرُ البحرية كلّه راجعٌ إلى الأمير ركن الدين بيبرس البُندُقْداريّ.

[الاستعداد لقتال المغيث]

ورحل الأمير سيف الدين قُطُز وعساكر مصر، ونزلوا حول العبّاسة، مستعدّين لقتال الملك المغيث ومَن معه[(٢)].

ذكر استيلاء التتر على بغداد ومقتل الخليفة المستعصم بالله، رحمه الله

وفي يوم الأربعاء، العاشر من صفر، من هذه السنة، قصد هولاكو، ملك التتر بغداد ومَلَكَها[(٣)].

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٦هـ.) ص٣٣.

(٢) ذيل مرآة الزمان ١/ ٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٦هـ.) ص٣٣.

(٣) خبر استيلاء التتر على بغداد، في:
أخبار الأيوبيين ١٦٦، ١٦٧، والحوادث الجامعة ١٥٧ ـ ١٥٩، ونزهة المالك ١٤٨، وذيل الروضتين ١٩٨، ١٩٩، وتاريخ الزمان ٣٠٧ ـ ٣٠٩، وتاريخ مختصر الدول ٢٦٩ ـ ٢٧٢، والدرّة الزكية ٣٤ ـ ٣٦، والفخري لابن الطقطقي ٣٣٤ ـ ٣٣٦، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٦٨ ـ ٢٧٤، ومذكرات جوانڤيل ٢٥٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٣، ١٩٤، وذيل مرآة الزمان ١/ ٨٥ ـ ٨٩، ونهاية الأرب ٢٣/ ٣٨٠ ـ ٣٨٣، ودول الإسلام الشريفة البهية، ورقة ٢٢، ٢٣، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٣، ١٩٤، وجامع التواريخ ج٢ ق٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٤، والعبر ٥/ ٢٢٥، ٢٢٦، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٤٤، ٢٤٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٦هـ.) ص٣٣ ـ ٣٩، ودول الإسلام ٢/ ١٥٩، ١٦٠، والتحفة الملوكية ٤١، وزبدة الفكرة ٣٥ ـ ٤٠، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٧، ١٣٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٥ ـ ١٩٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٠٠ ـ ٢٠٣، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٢٩ ـ ١٣٥، وتاريخ الخميس ٢/ ٤٢٠ ـ ٤٢٢، ودرّة الأسلاك ١/ورقة ١٥، ١٦، والنفحة المسكية ٤٥، والجوهر الثمين ١/ =

وقتل الخليفة المستعصم بالله[١] (رحمه الله)[٢].

وما دُهي الإسلام بداهيةٍ أعظَمَ من هذه الدّاهية، ولا أفظع.

وأنا أقصّ خبرها مُجمَلاً.

قد ذكرنا خبر التتر، وتملّكهم أكثَرَ الممالك الإسلامية، وما فعلوه من خراب البلاد، وسفْك دماء المسلمين. وكانوا قبل هذه قد قصدوا الألَمُوت، بلد الباطنية.

وكان صاحب الألموت وبلادها علاء الدين/ ١٢٧أ/ محمد بن جلال الدين حسن، المنتسب إلى نزار بن المستنصر العلوي صاحب مصر، وتُوفّي. وقام مقامه ولدُه، الملقّب شمس الشموس.

وكان الذي قصد الألموت منهم ملكهم هولاكوا[٣]، وهو من ذرّية جنكز خان، الذي قصد بلادَ الإسلام سنة ستّ عشر [ة] وستمائة[٤]. واندفع بين يديه السلطان علاء الدين محمد بن تكش، وفعل الأفاعيل العجيبة، التي قدّمنا ذِكرها. وهو صاحب آسة[٥] التّتر، الّتي يرجعون إليها.

وكان جنكز خان هذا منزَّلاً عندهم منزلةَ النبيّ لهم.

ولما نازل هولاكو الألموت، نزل إليه صاحب الألموت ابن علاء[٦] الدين، بإشارة نصير الدين الطُوسيّ[٧] عليه بذلك، وكان عنده وعند أبيه قبله، فقتل هولاكو

= ٢٢٠، وتاريخ النوادر ٤/ورقة ٥٣ب ـ ٥٦ب، ونزهة الأنام ٢٣٨، وتاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٧، ومآثر الإنافة ٢/ ٩٠ ـ ٩٢، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٠٩، ٤١٠، وعقد الجمان (١) ١٦٧ ـ ١٧٦، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٦، وبدائع الزهور ج١ ق٢/ ٢٩٧، وتاريخ الأزمنة ٢٣٧، ٢٣٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٠، ٢٧١، وأخبار الدول ٢/ ١٩٥ ـ ١٩٧، والنجوم الزاهرة ٧/ ٤٨ ـ ٥٣، وتاريخ الخلفاء ٤٧١، وتحقيق النصرة ٧٠، ومنتخب الزمان ٣٥٢.

(١) انظر عن (المستعصم بالله) في المصادر السابقة، ويضاف إليها: العقد الثمين ٥/ ٢٩٠ رقم ١٦٤٤، والمنهل الصافي ٧/ ١٢٧ ـ ١٢٩ رقم ١٣٥١، والدليل الشافي ١/ ٣٩٢ رقم ١٣٤٨، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٨٩ ـ ٢٩١، وفوات الوفيات ٩/ ٢٣٠ ـ ٢٣٥ رقم ٢٣٧، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ٢٥٨ ـ ٢٦٢ رقم ٢٦٩، والوافي بالوفيات ١٧/ ٦٤١ ـ ٦٤٣ رقم ٥٣٩.

(٢) ما بين القوسين عن هامش المخطوط.

(٣) هولاكوا = هولاكو.

(٤) راجع: مفرّج الكروب ٤/ ٣٤ ـ ٦٤.

(٥) آسة = الياسّة: ياسا الكبرى: اسم أطلقه المؤرّخون على مجموعة الأحكام التي كانت مدوّنة على طوامير خاصة في عهد جنكزخان، كانت بمثابة قانون يرجعون إليه، واللفظ محوّر عن المغولية: يساق أو جساق. (معجم المصطلحات ٤٤٥).

(٦) في الأصل: «بن».

(٧) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسن الطوسي، الفيلسوف، كان رأساً في علم الأوائل، =

ابنَ علاء الدين، وفتح الألموت، وما معها من البلاد التي في تلك الناحية، وكان لهم بالشام معاقل، ولصاحب الألموت فيها أبداً نائبٌ من قبَله.

وسنذكر ما آل إليه أمرها فيما بعد.

واستولى هولاكوا على بلاد الروم، وأبقى ركنَ الدين بنَ غياث الدين كيخُسْرُو فيها، له اسم السلطنة صورةً، وليس له من الأمر شيء.

وفي سنة أربعٍ وخمسين تهيّأ هولاكو لقصد العراق، وسبب قصده له أنّ وزير الخليفة مؤيّد الدين بن العلقميّ كان رافضيّاً، وأهل الكرْخ روافض، وفيها جماعة من الأشراف، وأبداً الفِتَن لا تزال بينهم وبين أهل باب البصرة، وهي سُنّة قائمة، بسبب التّعصُب في المذهب، فاتّفق أنّه وقع بين الفريقين محاربةٌ كما جرت بها العادة. فشكا أهل باب البصرة ذلك إلى ركن الدين الدواة دار[١]، والأمير أبي بكر بن الخليفة، فتقدّما إلى الجُند بنهب الكرْخ، فهجموا الكرْخَ وقتلوا ونهبوا، وهجموا على النّساء، وارتكبوا فيهنّ العظائم، فشكا أهل الكرْخ ذلك إلى الوزير مؤيّد الدين/ ١٢٧ب/ فأمرهم بالكفّ والتّغاضي عن ذلك، وأضمر هذا الأمر في نفسه، وحصل عنده بسبب ذلك الضغن على الخليفة[٢]، فجرى منه ما سنذكر.

وكان الخليفة المستنصر باللّه قد استكثر من الجُنْد، حتّى قيل إنّه بلغ عسكرُه نحو مائة ألف. وكان فيهم أمراء أكابر يُطلَق على كلٍ منهم لفظ الملك. وكان مع ذلك يصانع التتر ويُهادنهم.

فلما ولي المستعصم أشير عليه بقطع أكثر الجُند، وأنّ مُصانعَةَ التّتر وحمْلَ المال إليهم له به المقصود، وأنّه ما دام يحمل المال إليهم لا يقصدونه، ففعل ذلك، وقلّل (من)[٣] الجُند[٤].

= لا سيما معرفة الرياضي، وصنعة الأرصاد. ولد سنة ٥٩٧هـ. وصنّف كتباً عدّة، وتوفي سنة ٦٧٢هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٧٢هـ.) ص١١٣ ـ ١١٥ رقم ٨٦ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(١) الدواة دار = الدوادار: لقب موظف كانت مهمته تبليغ الرسائل والأوامر الموجّهة من السلطان، وتقديم الأوراق والإحالات والأوامر بعد صياغتها للسلطان من أجل الإطلاع عليها وتوقيعها. (معجم المصطلحات ١٨٦).

(٢) أخبار الأيوبيين ١٦٧، المختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٦هـ.) ص٣٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٥.

(٣) عن هامش المخطوط.

(٤) فصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس. (المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٦).

وكاتب الوزيرُ ابن العلقميّ التّتر، وأطمعهم في البلاد، وأرسل إليهم غلامه وأخاه، وسهّل عليهم مُلك العراق، وطلب منهم أن يكون نائبهم في البلاد، فوعدوه بذلك، وأخذوا في التجهّز لقصد العراق، وكاتبوا بدرَ الدين لؤلؤ صاحب الموصل في أن يسيّر إليهم ما يطلبونه من آلة الحرب، فسيّر إليهم ذلك، وكان مُدارياً لهم قبل ذلك، وسيّر إليهم ولده بالتّقدّم[١] الكثيرة وهاداهم. ولما تحقّق بدر الدين قَصْدَهم، علم أنّهم إنْ ملكوا العراق لا يُبقون عليه، فكاتب الخليفةَ سرّاً في التحذير منهم، وأنه يُعِدّ لحربهم، فكان الوزير لا يوصّل رُسُلَه إلى الخليفة، ومن وصل إلى الخليفة من رُسُله أطلعَ الخليفةُ عليه وزيره[٢].

وكان الشريف بن صلايا[٣] نائب الخليفة بإربل يُسيّر إلى الخليفة ويحذّروه من التّتر، وهو غافل لا يُجدي فيه التّحذير، ولا يوقظه التّنبيه، لِما يريدُ اللّه من بوار الإسلام.

ولما تحقّق الخليفة حركةَ نحوه، سيّر شرف الدين بن محيي الدين بن الجَوزيّ رسولاً إليهم، يعدهم بأموالٍ يحملها إليهم، ثم سيّر جماعة قيل إنّهم كانوا نحو مائة إلى الدّرْبَند[٤] الذي[٥] يسلكه التتر إلى جهة العراق، ويكونون فيه، ويطالعون بالأخبار فتوجّهوا ولم يأت من جهتهم خبر/ ١٢٨أ/ لأنّ الأكراد الذين كانوا عند الدَّرْبَنْد، وكانوا من جهة الخليفة دلّوا التتر ـ على ما قيل ـ عليهم، فقتلوهم كلّهم[٦].

وتوجّهت التّتر إلى العراق، وجاء بايجُوا نُويْن[٧] في جَحْفَلٍ عظيم، وفيه خلْق من الكُرْج، ومن عسكر بركة ابن عمّ هولاكوا، ومدد من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، مع ابنه الملك الصالح، من جهة البرّ الغربيّ عن دجْلة. وخرج معظم العسكر من بغداد للقائهم، ومقدّمهم ركن الدين الدواة دار، فالتقوا على نحو مرحلتين من بغداد، واقتتلوا قتالاً كثيراً، وفُتقت فتوقٌ من نهر الملك على البرّ الذي القتال فيه، ووقعت الكسرةُ على عسكر بغداد، فوقع بعضهم في الماء الذي خرج من تلك

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب: «التقادم»، وهي الهدايا والتقدمات.
(٢) العبر ٥/ ٢٢٥، تاريخ الإسلام ٣٤، ٣٥.
(٣) الصواب: «ابن صلايا».
(٤) الدربند: لفظ فارسي، معناه: سُنبلة يقفل بها باب الدكان أو الحانوت. دخل العربية منذ العصر الأيوبي، ثم انسحب لفظ الدربند ليُطلق على المعابر الضيقة بين جبلين والمضايق التي تقطعها الأنهار. (معجم المصطلحات ١٧٨).
(٥) من هنا ينتهي النقص من النسخة (ب) ورقة ٣٨٥أ، وقد بدأ اعتباراً من الورقة ١٢٨أ من النسخة (أ).
(٦) تاريخ الإسلام ٣٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٦، مرآة الجنان ٤/ ١٣٨.
(٧) هكذا في الأصل. وفي العبر ٥/ ٢٢٥ «ناجوانوين»، وفي تاريخ الإسلام ٣٥ «باجو نوين» وهو الصحيح.

الفتوق، فارتطمت خيلهم، وأخذتهم السيوف فهلكوا، وبعضهم رجع إلى بغداد هزيماً، وقصد بعضهم جهة الشام، قيل كانوا نحو ألف فارس. ثم توجّه بايجو[(١)] نُوِيْن ومن معه، فنزل في القرية مقابل دُور الخلافة، وبينه وبينهما الدجلة.

وقصد هولاكوا في جموع التّتر بغدادَ من جهة البرّ الشرقيّ عن دجلة، وهو البرّ الذي فيه مدينة بغداد وآدُرُ الخلافة، وضرب سوراً على عسكره. وأحاط بغداد. وحينئذٍ أشار مؤيّد الدين بن العلقميّ على الخليفة بمصانعة ملك التّتر ومصالحته، وسأل أن يخرج إليه، فتوثّق منه لنفسه، ثم رجع إلى الخليفة، وقال له إنه قد رغب أن يزوّج ابنته من ابنك أبي بكر، ويُبْقيك في منصب الخلافة، كما أبقى سلطانَ الروم في سلطنة الروم، ولا يؤثر إلّا أن تكون الطاعة له، كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف بعساكره عنك، فتُجيبه إلى هذا، فإنّ فيه حقْنُ دماء المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن يفعل ما يريد، وحسّن له الخروج/ ١٢٨ب/ إليه، فخرج إليه في جمْع من أكابر أصحابه، فأُنزِل في خيمةٍ. ثم دخل الوزير واستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا عقد النكاح، فخرجوا وقُتِلوا، وكذلك صار يخرج طائفة بعد طائفة، ثم مدّ الجسر، وعدّا[(٢)] بايجُو نُوِيْن ومَن معه، وبذل السيف في بغداد، وقتل كلّ من ظهر ولم يَسْلم إلّا من اختفى، وقتل من كان في دار الخلافة من الأشراف، ولم يَسلَم إلّا من هرب أو كان صغيراً، فإنه أُخذ أسيراً. واستمرّ القتْل والنّهبُ نحو أربعين يوماً، ثم نودي بالأمان، فظهر من كان اختفى، وقُتل الذين خرجوا إلى هولاكوا من القضاة، والأكابر، والمدرّسين. وممّن قتل محيي الدين بن الجَوْزيّ وأولاده، وهم: جمال الدين مدرّس المستنصرية على مذهب أحمد، وتاج الدين، وشرف الدين، وهو الذي كان أرسل إليهم.

وأمّا الوزير فلم يتمّ له ما أراد، ومات بعد مدّة يسيرة، ولقّاه اللّه تعالى ما فعله بالمسلمين، ثم ضرب هولاكوا عُنُق بايْجُو نُوِيْن، لأنّه كان على ما قيل كاتَبَ الخليفة، وهو في الجانب الغربيّ.

وأمّا الخليفة، رحمه اللّه، فإنهم قتلوه، لكنّه لم يطّلع أحدٌ على صورة قتله، فقيل إنه خُنق،

وقيل: رُفس إلى أن مات.

وقيل: غُرّق. واللّه أعلم بحقيقة ذلك[(٣)].

ونعود إلى ذكر أخبار مصر والشام.

---

(١) هكذا. وقد تقدّم قبل قليل: «بايجوا».

(٢) الصواب: «وعدّى».

(٣) قتل ممن عُرف ببغداد = الخليفة، وابناه: أحمد، وأبو بكر، وابن الجوزي، وأولاده الثلاثة، =

[الدعاء للمسلمين بالقاهرة]

وكنّا ذكرنا أنّ العساكر المصرية نزلوا حول العبّاسة، لما بلغهم اجتماع البحرية وبعض أمراء مصر مع الملك المغيث، فتح الدين، عمّ ابن[1] الملك العادل صاحب الكرَك. ولما جاءهم الخبر بمحاصرة التّتر لبغداد، كتبوا بذلك إلى القاهرة، وتقدّموا بأن يُدعى للمسلمين بالنصر، فأمر الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام الأئمّة والخطباء أن يقنُتوا في الصلوات الخمس، لأجل هذه النازلة العظيمة التي نزلت بالمسلمين.

ثم ورد الخبر من العسكر بأنّ بغداد مُلِكت، واشتدّ أسف المسلمين/ ١٢٩أ/ على ذلك وحُزنهم.

= والركن محمد بن محمد بن سُكينة، وشهاب الدين محمود بن أحمد الزنجاني كبير الشافعية، والقدوة الشيخ علي الخباز، والأديب نحْويّ النظامية، جمال الدين عبد اللّه بن خنقز، وشيخ الخليفة صدر الدين علي بن النيّار، وقريبه عبد اللّه بن عبيد اللّه، والعدل عبد اللّه بن عساكر اليعقوبي، والشرف محمد بن سكينة أخو الركن، والعدل عبد الوهاب بن عبد الرحيم بن عبد الوهاب بن سُكينة، وأخوه عبد الرحمن، ويحيى بن سعيد البردي، العدل، ووالد الرشيد بن أبي القاسم، وعبد القاهر بن محمد بن الفوطي كاتب ديوان العرض. وعلي بن الأخضر، والشاعر علي الرُصافي، وحسين بن داود الواسطي المحدّث، وعمر بن دهمان المحدّث قتلاً، وأحمد بن مسعود البعلي الجبيلي، وعبيد اللّه بن ياسر البعلي، ووالد الشيخ علي البندنيجي العدل، ومحمد بن الهيثمي، والعدل علي بن أبي البدر. (تاريخ الإسلام ٣٦، ٣٧) ونقل الحافظ الذهبي من تاريخ الظهير الكازروني ـ رحمهما اللّه ـ أسماء من قُتل صبْراً غير الخليفة، وغير الذين تقدّم ذكرهم ٣١ شخصاً، هم: ملك الدين محمد بن قيران الظاهري، أحد الأمراء، وشحنة بغداد الأمير قطب الدين سنجر البكلي، وشِحنةُ بغداد عز الدين ألب قُرا الظاهري، والأمير بلبان المستنصري، وأيدغمش الشرقي ناظر الحلة، وعماد الدين طغريل الناصري، والأمير محمد بن أبي فراس، وكمال الدين علي بن عسكر عارض الجيش، والسيد شريف الدين المراغي، وابنه صدر الدين محمد، ونقيب الطالبيين علي ابن النشابة، وشرف الدين عبد اللّه بن النيار، ومهذب الدين علي بن عسكر اليعقوبي، والشيخ عبد الوهاب بن سكينة المعدّل، وشيخ رباط الخلاطية العدل يحيى بن سعد التبريزي، والقاضي برهان الدين فضلي، والمدرس صدر الدين أبو معشر الشافعي، وخطيب جامع الخليفة عبد اللّه بن العباس الرشيدي، والمجوّد الكاتب علي بن يوسف الكتبي خازن كتب المستنصرية، والنقيب ظاهر علي بن حسن، والحاجب محمد بن البوقي، وعمر بن الخلال، ونقيب مشهد الكاظم تقي الدين الموسوي، وشرف الدين محمد بن طاوس العلوي، وجمال الدين ابن الفرضي الناسخ، والجمال القزويني مشرف وقف المستنصرية، والموفق عبد القاهر بن الفوطي شيخ الأدب، والقاضي تقيّ الدين علي بن النعماني كاتب الجيش، ونجم الدين علي بن الزبيدي، وتقيّ الدين عبد الرحمن بن الطبال وكيل الخدمة، (تاريخ الإسلام ٣١٠).

(١) في الأصل: «بن».

ولقد أخبرني من أثق بنقله يوم ورود الخبر بملْك التتر بغداد، إذ أنّه وقف على كتابٍ عتيق، فيه ما صورته:

«إنّ علي بن عبد اللّه بن العباس بن عبد المطّلب بلغ بعضَ خلفاء بني أميّة عنه أنّه يقول: إنّ الخلافة تصير إلى ولده، فأمر به فحُمل على جملٍ، وطِيف به وضُرب. وكان يقال عند ضربه: هذا جزاء من يفتري، ويقول إنّ الخلافة تكون في ولده. فكان علي بن عبد اللّه، رحمه اللّه، يقول: أي واللّهِ لتكوننّ الخلافة في ولدي، لا يزال فيهم حتّى يأتيهم العِلْج من خُراسان، فينتزعها منهم، فوقع مِصداقُ ذلك، وهو ورود هولاكوا ملك التتر، وإزالته مُلْك بني العباس.

وكانت مدّة ملكهم خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين سنة، وعدد خلفائهم سبعة[١] وثلاثون خليفة.

ذكر الواقعة بين المغيث
صاحب الكرَك وعسكر مصر وهرب الملك المغيث

ولما تكامل العسكر مع الملك المغيث بن الملك العادل بغزّة، دخل بهم الرملَ، ووصلوا إلى عسكر المصريّين، والتقى الفريقان، فكانت الكسرة على الملك المغيث ومن معه من البحرية، وأمراء الملك الصالح نجم الدين. وقُبض يومئذٍ على عزّ الدين أيبك الروميّ، وعزّ الدين أيبك الحَمَويّ، وركن الدين الصَّيرميّ، وابن أطلس خان الخُوَارزميّ، وأُحضروا بين يدي مماليك الملك المُعزّ، وهم الأمير سيف الدين قُطُز الغُتْميّ، وسيف الدين بهادُر، فأمروا بضرب أعناقهم، فضُربت أعناقهم، وحُملت رؤوسهم، وعُلّقت بالقاهرة على باب زُوَيلة. ثم أُنزلت الرؤوس في يوم التّعليق، ودُفنت لما أنكر على مماليك الملك المُعِزّ هذا الفعل لقُبحه. وهرب الملك المغيث، وأتابك بدر الدين الصوابيّ، والأمير ركن الدين بيبرس البُندقْداريّ الذي لُقّب بعد ذلك/ ١٢٩ب/ بالملك الظاهر، ومن معهم من البحرية.

ووصل الملك المغيث إلى الكرَك في أسوأ حال، ونهب ما كان معهم من الثقل ودِهليز الملك المغيث، ودخل العسكر القاهرة والدهليز معهم، وزُيّن لذلك البَلَدان[٢].

---

(١) من هنا يعود النقص في النسخة (ب) بما مقداره ٢٢ صفحة = إحدى عشرة ورقة.

(٢) أخبار الأيوبيين ١٦٨، ذيل مرآة الزمان ١/ ٩٠، ٩٢، المختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٥، الروض الزاهر ٥٧، تاريخ الإسلام ٣٩، ٤٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٨، البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٤، عيون التواريخ ٢٠/ ١٣٥، السلوك ج١ ق٢/ ٤١١، نزهة الأنام ٢٤٣، عقد الجمان (١) ٦٨١، النجوم الزاهرة ٧/ ٤٥، ٤٦ و٤٧، تاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٧.

ذكر ما آل إليه أمر الملك الناصر داود ووفاته رحمه الله

كنّا قد ذكرنا أنّ الملك الناصر داود أقام بقرقيسا، بعد مفارقة الشيخ نجم الدين البادَرائيّ، رحمه اللّه، إلى العراق، وأبطأ عنه الجواب، وأنه عدّا[1] الفرات، ووصل إلى تيه بني إسرائيل، وانضمّ إليه جماعةٌ من العرب، ورام، فيما قيل، أن يتّصل بالبحرية، ويتقوّى بهم. وبلغ ذلك الملكَ المغيثَ بنَ الملك العادل صاحب الكرَك، فخاف منه أن يكثُر جمعُه من العرب والتُرك فيقصده، فراسله مخادعاً له إظهارَ المودّة. ثم سيّر إليه جيشاً، فقبضوا عليه، وعلى مَن معه من أولاده. ولما وصلوا بهم إلى اللاحية من غورزُغرَ أفردوه منهم، وأُذِن للأولاد أن يتصرّفوا حيث شاءوا، ومضى أصحاب الملك المغيث بالملك الناصر إلى بلد الشَوْبَك، وكان قد تقدّم الملك المغيث بأن يهيّء له مطمورةً يُحبس فيها، لينقطع خبره. ولما وصلوا بالملك الناصر إلى ذلك المكان وجدوا المكان لم يتمّ عمله، فأنزلوه في طور هارون عليه السلام، فلجأ إليه مستشفعاً به وبأخيه موسى عليه السلام.

واتّفق له من الاتفاقات الغريبة، أنّ الخليفة لما قصده التّتر في الجموع العظيمة في هذه السنة، كما ذكرنا، مريداً مُلكَ العراق وإهلاك الخليفة، اضطرّ إلى الانتصار بكلّ أحد، فأرسل إلى السلطان الملك الناصر يستمدّه بالرجال، وطلب منه أن يسيّر إليه الملك الناصرَ داود، ليكون مقدَّماً على من يبعثه من العساكر الذين يستخدمهم/ ١٣٠أ/ لنصرة الإسلام، فوصل الرسول (من الخليفة)[2] بذلك إلى دمشق. ثم توجّه إلى الكرَك لإحضار الملك الناصر لهذا المهمّ، فأتى الملك النّاصر فرج بعد أن أقام في طور هارون ثلاث ليالي[3]، فقال الملك الناصر، رحمه اللّه، هذه الأبيات يشكر نعمة اللّه سبحانه بذلك، ويذكر انتفاعه بالاستشفاع بهذين النبيّين عليهما السلام:

تبارك اللّه إخلاصاً وإيماناً ... سبحانهُ خالقاً بالجود منّانا

هو الذي انتاشني[4] من قعر هاوية ... أقمتُ فيها مُطارَ اللُبّ حَرّانا[5]

موسى بنُ (عمران)[6]، بل هارونُ صاحِبُهُ ... تكفّلاني إشفاقاً[7] وتحنانا

(١) الصواب: «عدّى».

(٢) كتبت فوق السطر.

(٣) تاريخ الإسلام ٢٤٨.

(٤) انتاشني: أخرجني.

(٥) في الأصل: «حيرانا» والتصحيح من الفوائد الجلية.

(٦) كتبت على هامش المخطوط.

(٧) في: الفوائد الجلية: «إسعافاً»، والمثبت يتفق مع ذيل مرآة الزمان.

هما إلى اللّه قاما بالشفاعة[١] لي تلطّفاً منهما بِرّاً وإحسانا[٢]

فأفرج الملك المغيث عن الملك الناصر، وتوجّه إلى دمشق، ونزل بالبُوَيْضاء شرقيّ دمشق، وأقام بها يتجهّز للسير لنُصرة الخليفة، رحمه اللّه، وقَصَر الصلاةَ مدّة إقامته بالبُوَيضاء.

[رغبة الناصر داود بالجهاد]

وتواترت الأخبار بمضايقة التّتر لبغداد، فأشار على الملك الناصر داود جماعةٌ من أصحابه بأن يتأنّى في الحركة، فقال: إنّي قد بعتُ نفسي من اللّه تعالى، وما توجّهي لطلب الدنيا والتّقدّم على العساكر، إنّما مقصودي أن أبذل نفسي في سبيل اللّه تعالى، لعلّ اللّه تعالى أن يجعل على يدي نفعاً للمسلمين، أو يحصل إليّ الشهادة في سبيله.

وبينما هو على هذه النّيّة، إذ وردت الأخبار بأنّ التتر قد ملكوا بغداد، وشاع أيضاً خبرٌ باطل لا حقيقة له أنّ الخليفة قد لحِق بالعرب، فقال: لا بدّ لي من اللحاق به فإنّ له [في][٣] عُنُقي بَيْعة، وقد لزمني الوصولُ إليه، وأَخْذُ بغدادَ منه لا يُسقِط وجوبَ أتّباع أمره، والذي يخشاه الناسُ القتْلَ وأنا لا أخشاه.

[الطاعون بالشام ومصر]

وعرض في هذه السنة طاعونٌ عمّ الشام، وديارَ مصر، وغيرهما بسبب ذلك، فساد[٤] أدّى إلى الوقوع الطاعون[٥]/ ١٣٠ب/ وتغيُّر الأمزجة[٦].

[مشاهدات المؤلّف عن الوباء في مصر]

وأعجبُ شيءٍ رأيتُه في الديار المصرية أنه وقع ببُلْبيس حُمَّى وسُعالٌ، بحيث لم يكد يَسلم منه أحدٌ، وليس بالقاهرة شيء منه.

---

(١) في الأصل: «بالشفاعة»

(٢) الأبيات في الفوائد الجلية ٢٠١، ذيل مرآة الزمان ١/ ١٧٣، والتبيان الأول والثاني في: عيون التواريخ ٢٠/ ١٦٩.

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

(٤) في الأصل: «فسادا».

(٥) هكذا في الأصل. والصواب: «وقوع الطاعون».

(٦) قال أبو الفداء: «اشتدّ الوباء بالشام خصوصاً بدمشق حتى لم يوجد مغسّل للموتى»، وقال غيره: «ومات خلق بحيث أنه قيل إنه خرج من حلب في يوم واحد ألف ومائتا جنازة»، انظر: المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٢٧، وذيل الروضتين ٢٠٠، وذيل مرآة الزمان ١/ ٩١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٦هـ.) ص٤٢، وعيون التواريخ ١/ ٩١، وعقد الجمان (١) ١٨٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٠، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٨.

ثم بعد يوم أو يومين، حدث مثلُ ذلك بالقاهرة. وكنتُ يومئذٍ بالجيزة[1] مقيماً، فركبت إلى القاهرة، فوجدت هذا الأمر قد عمّ أهلَ القاهرة إلاّ القليل، فرجعت إلى الجيزة[2]، فما استقررت بها إلاّ وقد حدث بي ذلك، وعمّ أهل الجيزة[3]. وكان أكثر ما يدوم ذلك السُعالُ ثلاثةَ أيام ونحوها. وكان الغالب السّلامة. ثم صار (ينتقل من بلد)[4] إلى آخر، حتّى انتهى إلى آخر أعمال المصرية على التدريج.

[حكاية جالينوس عن الوباء]

ومثل هذا ما حكاه جالينوس[5] أنه وقعت ملحمة في بلاد اليونان، فوقع الوباء بسبب ذلك في البلاد النُوبة[6] مع بُعد المسافة.

[إصابة الملك داود بالطاعون]

وحكى عبد اللّه بن فضل، أحد ألزام الملك الناصر داود، قال: لما اشتدّ الوباء والطاعون عقيب أخذ التتر بغداد، تسخّطنا به، فقال لنا الملك الناصر: لا تتسخّطوا به، فإنّ الطاعون لما وقع بعَمَواس[7] في خلافة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه. قال بعض الناس: هذا رِجْز، هذا الطوفان الذي بُعث على بني إسرائيل، فبلغ ذلك مُعاذَ ابنَ[8] جبل[9] رضي اللّه عنه، فقام في الناس خطيباً، وقال: أيّها الناس لِمَ تجعلون دعوة نبيّكم صلّى اللّه عليه وسلّم ورحمةَ ربّكم عذاباً، وتزعُمون أنّ الطاعون هو الطوفان الذي بُعث على بني إسرائيل، وأنّ الطاعون رحمةُ ربكم رحِمكم بها، ودعوةُ

(١) مهملة في الأصل.
(٢) في الأصل: «الحبره».
(٣) مهملة في الأصل.
(٤) ما بين القوسين من هامش المخطوط.
(٥) مهملة في الأصل.
(٦) الصواب: «في بلاد النوبة».
(٧) عَمَواس: بفتح العين المهملة والميم والواو، وبعد الألف سين مهملة. بناحية الأردن. وكان طاعون عمواس في سنة ١٨هـ. انظر عنه في: تاريخ خليفة بن خياط ١٣٨، والمعرفة والتاريخ للفسوي ٣/ ٣٠٦ والطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢٨٣، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ١٥٠، وتاريخ الطبري ٤/ ٩٦، والإنباء بأنباء الأنبياء، للقضاعي - بتحقيقنا - ١٨٠، والكامل في التاريخ (بتحقيقنا) ٢/ ٣٧٦ - ٣٧٨، وتهذيب تاريخ دمشق ١/ ١٧٦، وتاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ١٧٠، ومنتخب الزمان ١/ ٣٢.
(٨) الصواب: «بن».
(٩) انظر عن (معاذ بن جبل) في: تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص١٧٥ - ١٧٩ وفيه حشدنا عشرات المصادر لترجمته.

من نبيّكم لكم. اللّهمَّ أدْخِلْ على آل مُعاذٍ منه نصيبَهم الأوفى. قال: ثم أقبض علينا الملك الناصر موت مُعاذ وابنه وأهل بيته بالطاعون.

ثم ابتهل الملك الناصر وقال: اللّهمّ اجعلْنا منهم، وارزُقنا ما رَزَقْتَهم، وأصبح من الغد أو بعده مطعوناً.

قال: وكنت غائباً، فلما سمعت بمرضه جئت إليه وهو يشكو ألماً مثل الطعن بالسيف في جنْبه/ ١٣١أ/ الأيسر، بحيث يمنعه من الإضطجاع. فلما كان سَحَر الليلة الخامسة وجد خفّاً[(١)] فاضطجع[(٢)] ونام، وأصبح بارئاً.

وحكى ولده الملك المظفّر شهاب الدين غازي، وهو الآن حيّ بالقاهرة، أنه نام بين الصلاتين ثم انتبه فقال: إنّي رأيت جنْبي الأيسر يقول لجنْبي الأيمن: أنا قد جاءت نوبتي فصبرت، والليلة نوبتُك، فاصبِرْ كما صبرت. فلما كان عشيّة النهار شكا ألماً خفيفاً تحت جنْبه الأيمن، وأخذ في التزايد، وتحقّقنا أنّ ذلك طاعون[(٣)]، فبينا أنا عنده بين الصلاتين، وقد سقطت قواه، إذ أخذته سِنةٌ، فانتبه وفرائصُه ترعب[(٤)] فأشار إليّ، فدَنَوت منه، فقال: رأيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، والخضر عليه السلام قد جاءآ إليّ وجلسا عندي، ثم انصرفا.

فلما كان آخر النهار قال: ما في رجاء[(٥)]، فتهيّأْ في تجهيزي. فبكيتُ وبكى الحاضرون، فقال: لاتكن إلّا رجلاً، ولا تعمل عمل النساء ولا تغيّر هيئتك، وأوصاني بأهله وأولاده. ثم اشتدّ به الضعف ليلاً، وقمت في حاجةٍ، فحدّثني بعض من كان جالساً عنده من أهله، أنه أفاق مرعوباً. فقال: باللّه تقدّموا إلى جانبي، فإنّي أجد وحشةً، فسُئل: مِمَّ ذلك؟ فقال: أرى صفّاً عن يميني، فيهم أبو بكر، وسعد، وصُوَرهم جميلة، وعليهم ثياب بيض، وصفّاً عن يساري، وصُوَرهم قبيحة، فيهم أبدان بلا رؤوس[(٦)]، وهؤلاء يطلبونني، وهؤلاء يطلبونني، وأنا أريد أن أروح إلى أهل اليمين، وكلّما قال لي أهل الشمال مقالتهم قلت: واللّه ما أجيء إليكم، خلّوني من أيديكم، ثم أغفى إغفاءةً، ثم استيقظ وقال: الحمد للّه خلّصت منهم[(٧)].

وكانت وفاته، رحمه اللّه، صباح تلك الليلة، وهي ليلة السبت السادس

---

(١) الصواب: «خفة».
(٢) في الأصل: «فاطجع».
(٣) الصواب: «طاعوناً».
(٤) هكذا في الأصل، والصواب: «ترعد».
(٥) في تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٤٩ وهو ينقل عن المؤلّف، رحمه اللّه: «ما بقي فيّ رجاء».
(٦) في الأصل: «روس».
(٧) الرواية نقلها الحافظ الذهبي ـ رحمه اللّه ـ عن المؤلّف في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٤٨، ٢٤٩.

والعشرين[١] من جمادى الأولى من هذه السنة، أعني سنة ستٍ وخمسين (وستماية.

ومولده سنة ثلاثٍ وستماية. فكان عُمُره نحو ثلاثٍ وخمسين)[٢]. وقد استولى عليه الشَيب استيلاءً كثيراً.

وفي صبحية موته جاء السلطان الملك الناصر، رحمه اللّه، في أقاربه وعساكره إلى البُوَيْضاء وأظهر التأسُّفَ/ ١٣١/ب والحُزن عليه، ورأى على بعض أقاربه ملبوساً ملوّناً، فأنكر ذلك غاية الإنكار، وقال: هذا يوم تُلبس فيه هذه الثياب وقد مات كبيرُنا وشيخُنا وأجلُّنا قدْراً ومكانة! ثم حُمل، رحمه اللّه، إلى الصالحيّة فدُفن بها، في تُربة والده الملك المعظّم، رحمهما اللّه[٣].

ذِكر سيرته رحمه اللّه

فضله وتفنُّنُه في أنواع العلوم والآداب أشهر من نارٍ على عَلَم، وقد ذكرنا من أشعاره طَرَفاً وافراً، وكان مُحبّاً للعلماء، مقرّباً لهم، محسناً إلى من يَقْدَم عليه منهم، كثير العطاء. قدِم عليه شرفُ الدين راجح الحلبيّ[٤]، شاعر الملك الظاهر، غازي بن

---

(١) في تاريخ الإسلام ٢٤٩ «ليلة الثامن والعشرين».

(٢) ما بين القوسين كتب على هامش المخطوط.

(٣) انظر عن (السلطان الناصر داود) في:
ذيل الروضتين ٢٠٠، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٢٦ ـ ١٨٤، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٩٦، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٥، ١٩٦، والدرة الزكية ٣٦، ٣٧، وديوان ابن مطروح ٨٤، والعبر ٥/ ٢٢٩، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٧٦ ـ ٣٨١ رقم ٢٧٠، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٣٨ ـ ٢٥٠ رقم ٢٦٠، ودول الإسلام ٢/ ١٦٠، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٤، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٨، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٩، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٦٨ ـ ١٧٦، وفوات الوفيات ١/ ٤١٩ ـ ٤٢٨ رقم ١٤٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٣٩٨ (في وفيات ٦٥٥هـ.) و٢١٤ (في وفيات ٦٥٦هـ.)، ومآثر الإنافة ٢/ ٩٦، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٤٣، وإنسان العيون، ورقة ٣٤٥، والذهب المسبوك للمقريزي ٨١، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٢، وعقد الجمان (١) ١٩٨، ١٩٩، والنجوم الزاهرة ٧/ ٦١، ٦٢، والدليل الشافي ١/ ٢٩٦، والمنهل الصافي ٥/ ٢٩٤ ـ ٣٠٠ رقم ١٠١٨، وصبح الأعشى ٤/ ١٧٥، والجواهر المضيّة ٢/ ٦٠٥، والوافي بالوفيات ٣٣/ ٤٨٠ ـ ٤٩٢ رقم ٥٨٤، والأنس الجليل ١/ ٤٠٥ ـ ٤٠٨ و٢/ ٥، ٦، ٩، ١٠، وشفاء القلوب ٣٤٦ ـ ٣٥٨ رقم ٩٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٧، ونزهة الأنام ٢٣٥، والدارس ١/ ٥٨١، وثمرات الأوراق ٢٤، ٢٥، والغيث المسجم ٤/ ١٣٤، ١٣٥، وكشف الظنون ١/ ٨١٦، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٥، وترويح القلوب ٥٩ رقم ٩٣، وقضاة دمشق ٦٦، وهدية العارفين ١/ ٣٦٠، والأعلام ٢/ ٣٣٤، ومعجم المؤلفين ٤/ ١٢١.
وانظر كتابه: الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية.

(٤) هو: راجح بن إسماعيل الحلبي. (ذيل مرآة الزمان ١/ ١٤٥).

صلاح الدين، صاحب حلب، والملك الأشرف، مظفّر الدين، موسى بن الملك العادل، ومدحه بعدّة قصائد، فوصل إليه منه ما يزيد على أربعين ألف دِرهم، وأجازه على قصيدةٍ واحدة، على ما بَلَغني، ألف دينار مصرية، وانقطع إليه الشيخ الإمام العلّامة شمس الدين عبد الحميد[١] الخُسْرو شاهي[٢]، تلميذ الإمام فخر الدين الرازيّ، وصل إليه منه أموالٌ جمّة، وانقطع إليه[٣] والدي، رحمه اللَّه، وتوفي في خدمته، وفخر الدين بن بُصَاقَة[٤] و[جمال الدين عبد الرحيم بن علي][٥] بن شيث[٦]. وكان أبوه جمال الدين نائب الملك المعظّم. ولزمه من الفضلاء غير ذلك، وصحِبَه من لا يُحصى عددُهم، وأقمتُ في خدمته مدّةً بعد وفاة والدي، وأحسن إليَّ جدّاً، وفارقتُه وهو كارهٌ لفراقي، وإنما آثرتُ المقام في وطني.

وكان له، رحمه اللَّه، مع الإجادة في النّظْم الإجادةُ في النثْر من الترسّل والخُطَب.

ولْنَذْكُر شيئاً من النظْم البديع غير ما تقدّم ذِكره، ونُردفه بذِكر ماله من النثر.

فمن شِعره، رحمه اللَّه:

لـمّـا بـدا فـي مَـرْوزِيّ[٧] قـبـائـهِ ... وعـلـيـه مِـن ذَوب الـنُـضـار تَـبَـهْـرُجُ

/ ١٣٢أ/ مـثّـلـتُـه قـمـراً عـلـيـه سـحـابـةٌ ... مـزرورةٌ فـيـهـا الـبـروقُ تَـرَجْـرَجُ[٨]

ومِنْ شِعره:

طـابـت دمـشـقُ جـوارَ شُـرب الـراح ... فـانْـعَـم بـطـيـب مَـرَاشـف الأقـداح

واسـتـحـلـهـا كـالـشـمـس فـي إشـراقـهـا ... تُـهـدي إلـيـك روائـح الـتُـفّـاح

---

(١) في الأصل: «شمس الدين بن عبد الحميد».

(٢) انظر عن (الخسرو شاهي) في: تاريخ الإسلام (وفيات سنة ٦٥٢هـ.) ص١٢٥، ١٢٦ رقم ٦٨ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(٣) هكذا، والصواب: «إلى».

(٤) في الأصل: «براقه». وهو: فخر القضاة أبو الفتح نصر اللَّه بن هبة اللَّه بن بُصاقة، الشاعر، الكاتب، الناصري، الأديب. توفي سنة ٦٥٠هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام ٤٥٦، ٤٥٧ رقم ٦١٨ وفيه مصادر ترجمته.

(٥) ما بين الحاصرتين استدركناه من المصادر.

(٦) في الأصل: «شبت»، والتصويب من المصادر. وقد توفي «عبد الرحيم بن علي بن الحسين بن شيث» سنة ٦٢٥هـ. انظر عنه في: تاريخ الإسلام ٢٣١، ٢٣٢ رقم ٣٠٦ وفيه حشدنا مصادر ترجمته.

(٧) مروزي: نسبة إلى مرو، وهو على غير قياس ومرو مدينة ببلاد فارس.

(٨) البيتان في: ذيل مرآة الزمان ١/ ١٤٨، والفوائد الجلية (بالملحق) ص٣٥٤ رقم ١.

راحا بغير (مزاجها)[١] شرابها (لسنا)[٢] وتبعث خفّة الأرواح
عذراء قلّدت اللآلي فانثنت سَكْرَى تُراقص مائس الأفراح
ما العمر إلّا قهوةٌ بصفائها تصفو النفوسُ بها من الأتراح
لا تسمعوا فيها ملامة لائمٍ ما العيشُ إلّا شُربُ هذي الراح[٣]

ومن شِعره:

إلى كم أُخفِي الوجدَ والدمعُ بائحُ وكم أرتجي صبْراً، وصبريَ بارحُ[٤]
خلعتُ عِناني، وانطلقتُ مع الصبا[٥] وشمّرتُ عن ساق الهوى لا أبارحُ
ولي[٦] ظبيةٌ كحلاء، قلبي كناسُها[٧] لذا جَنحتْ منّي إليها الجوانحُ
ولو لم يكن ظبياً نِفاراً ومُقلةً وجِيداً لما تاقَتْ إليها الجوارحُ
فيلبس[٨] غُصْن البانُ منها بحائل[٩] وشمس الضُحى منها عليها ملامحُ
ولولا سناها ما تألّق بارقٌ ولولا هواها ما ترنّم صادح
خببتُ[١٠] إليها والغرام يُحثّني وقد سَاقَني شوقٌ إليها مكافحُ
ولما أتاني طيفُها يخبرُ الهوى يوهمني بالمكر أنّي مصالح
تذكرتُ رَبْع الأُنس عن أيمن الحِمَى وأغصانُ بانٍ دونه تتناوحُ
فكادتْ تطيرُ النفسُ من فرطِ شَوقها إلى عالم فيه النفوس سوابحُ
مُقرّبةُ الأرواحِ في عالم البقا مُقرّبةٌ مَن ربّها لا تُنازح[١١]
يُطافُ عليهم من رحيق ختامِهِ من المِسْكِ ما تُحييك منه الروائحُ
جِنانٌ عليهم دانياتٌ قِطافُها وفي ظِلّها ما لا تمنّى القرائح

---

(١) كلمتان غير واضحتين في الأصل.
(٢) هكذا في الأصل.
(٣) الأبيات ليست في: الفوائد الجلية.
(٤) في ذيل مرآة الزمان، والفوائد الجلية: «بارح».
(٥) في الأصل: «الصبى».
(٦) في ذيل المرآة، والفوائد: «بي».
(٧) الكناس: موضع الظبي في الشجر يكتنّ فيه ويستتر.
(٨) في: ذيل المرآة، والفوائد: «على لين».
(٩) في: ذيل المرآة، والفوائد: «خمائل».
(١٠) في: ذيل المرآة، والفوائد: «حننت».
(١١) في: ذيل المرآة، والفوائد: «تبارح».

هنالك من لم يأتِهِ، فهو خاسرٌ ... ومَن حلّ فيه، فهو لا شكّ رابح[١]

/ ١٣٣أ/ ومن شعره:

ما استصرخَ الصبرَ قلبي وهو مذعورُ ... إلّا وقد سلبتْهُ الأعيُنُ الحورُ
ولا سبى خاطري جفنٌ له غُنُجٌ ... إلّا وصارمُهُ بالسِّحْرِ مشهورُ
أفدي التي صيّرتْ قلبي بها دنِفاً ... فوق السّوالفِ يُلقى، وهو مأسور
ورديّةُ الخدّ في فيها معتّقةٌ ... من سُكرها نرجسُ الأجفان مخمور
قد خيّم السحرُ في أجفان ناظرها ... والسّحرُ مما[٢] له في القلب تأثير
يحلو[٣] هواها، وإنْ أجرتْ دمي عَبَثاً ... ولا أبالي، فإنّ الموتَ مقدور
لولا سَناها، وخدّاها، لما عُبِدَتْ ... كما تعبّدتُها، نارٌ ولا نورُ[٤]

ومن شعره:

عيونٌ عن السّحر المبين تُبينُ ... لها عند تحريك القلوب[٥] سكونُ
تَصُولُ ببيض، وهي سُودٌ، فرندُها ... ذبولٌ فتورٌ، والجفون جفون
إذا ما رأتْ قلباً خلياً من الهوى ... تقول له: كن مُغرَماً فيكون[٦]

ومن شعره:

جميعي حين أذكرُكم شجونُ ... وكلّي حينَ أبكيكم عيونُ
وأنتمْ غايةُ الآمالِ عندي ... وإنْ بَخِلتْ تُقرّبكُم الظنونُ
وصالكمُ حياةُ الروح منّي ... وهجركمُ الأليمُ ليَ المنونُ
أرى الأشواقَ تجذ بُني إليكم ... وسائقُها الصَّبابةُ والحنينُ
بذلتُ لكمْ دموعَ العين لكنْ ... هواكمُ في حُشاشتي المصونُ
يعزُّ عليّ بُعدكمُ ولكنْ ... مماتي في محبّتكم يهون

---

(١) الأبيات في: ذيل مرآة الزمان ١/ ١٤٩، والفوائد الجلية (بالملحق) ص٣٥٤، ٣٥٥ رقم٢.
(٢) في ذيل المرآة، والفوائد: «فيما».
(٣) في الأصل: «يحلوا».
(٤) الأبيات في: ذيل مرآة الزمان ١/ ١٥١، والفوائد الجلية (بالملحق) ٣٥٧ رقم ٥.
(٥) في: روض الآداب، وتزيين الأسواق: «الجفون»، والمثبت يتفق مع المصادر.
(٦) الأبيات في: ذيل مرآة الزمان ١/ ١٥٣، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٥، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٨٦، والفوائد الجلية (بالملحق) ٣٥٩ رقم ١٢، والمنهل الصافي ٥/ ٣٠٠، وشفاء القلوب ٣٥٧، وتزيين الأسواق ٢/ ٤٨٨، وريحانة الألبّاء ١/ ١٦٨، وروض الآداب، لشهاب الدين أحمد بن علي الحجازي (ت ٨٧٥هـ.) مخطوط مكتبة أوقاف الموصل، رقم ١٢/ ١٤، ورقة ٩٤أ، وفيه البيتان الأول والثالث.

أحبّتنا أذبتُمْ بالتنائي فؤادي فهو مكتئبٌ حزينُ
هواكُمُ لا تغيّرهُ الليالي وصبري عنكمُ ما لا[1] يكون[2]

ومن شِعره في مقصود وهو معنًى بديع:

المِسْكُ بعضُ دم الغزال فلا تُضِعْ دَمَ (من سبى)[3] بلحاظه الآراما[4]
/١٣٣ب/ فلعلّه إمّا يحول بخده ورداً وإمّا في لُماهُ مُداما[5]

ومن شِعره:

طرْفي وقلبي[6] قاتلٌ وشهيدٌ ودمي على خدّيك منه شُهودُ
يا أيّها الرشأُ الذي لحظاتُهُ كم دُونهنّ صوارمٌ وأسودُ
مَن لي بطيفكَ بعدما منعَ الكرى عن ناظريَ البُعدُ والتّسهيد
أما وحبّكَ لستُ أضمرُ سلوةً[7] عن صبوتي، ودعِ الفؤادَ يبيد
وألذُّ ما لاقيتُ فيك منيّتي وأقلُّ ما بالنفس فيك أجودُ
ومن العجائب أنّ قلبكَ لم يكنْ لي، والحديدُ ألانَهُ[8] داودُ[9]

ومن لطيف شِعره وحسَنَه، ما كتب به إلى الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين، صاحب حمص، يستدعيه إلى مجلس أُنس، وذلك لما كانا نازلين ببستانٍ، حين كانا متّفقين على حرب السلطان الملك الصالح

---

(١) في ذيل المرآة، والفوائد الجلية: «قد لا».
(٢) الأبيات في ذيل المرآة ١/ ١٥٢، والفوائد الجلية (بالملحق) ٣٦٠ رقم ١٣.
(٣) ما بين القوسين كتب تحت السطر.
(٤) في الفوائد الجلية: «دم من يرى بلحاظه الآرامُ».
(٥) في ذيل المرآة، والفوائد:
فلعلّه إما يحاول نجدة ورد وإما في لماه مدامُ
والبيتان في ذيل المرآة ١/ ١٥٢، والفوائد الجلية ٣٥٨ رقم ٨.
(٦) في المصادر: «وقلبك».
(٧) في المصادر: «توبة».
(٨) في الأصل: «إلا أنه».
(٩) الأبيات في: الوافي بالوفيات ١٣/ ٤٩١، وفوات الوفيات ١/ ٤٢٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧٢، وعقود الجمان، للزركشي، ورقة ١١٣ب، وإنسان العيون ٣٦٠، والفوائد الجلية ٣٥٦ رقم ٤، ووردت الأبيات ١ و٣ و٥ و٦ في المختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٦، والأبيات ١ و٣ و٥ و٦ في شفاء القلوب ٣٥٨، وعقد الجمان (١) ٨ ٤٠ الأبيات ٣ و٤ و٦ والأبيات ١ ـ ٣ في: شذرات الذهب ٥/ ٢٧٥، و٣ و٦ في ريحانة الألبا ١٦٨، والبيت ٦ في: تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٨٦، وكلها في ذيل مرآة الزمان.

نجم الدين، صاحب الديار المصرية، وهما إذ ذاك مُعاضدان للملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل، صاحب دمشق. وكان ذلك يوم العيد في زمن الربيع:

يا ملكاً قد جمّل العصرا ... وفاق أملاك الورى طُرّا
وفات في نائله حاتماً ... وبذّ في إقدامه عَمْرا
وباكَرَ العلياءَ فافتضّها ... وكانت النّاهِدَةَ البِكرا
أما ترى الدهرَ وقد جاءنا ... مستقبلاً بالبِشرِ والبُشرى
يجري لدينا ما أتانا به ... أحسنُ وأكرِم بالذي أجرى
العيدُ والنيروزُ في حالةٍ ... وطلعةُ المنصور والنصرا
والأرضُ قد باهتْ[1] به واغتدتْ ... تختالُ في حُلّتها الخَضرا
عبّستِ السّحبُ على نَورِها ... فراحَ ثغرُ النَّوْر مُفْتَرّا
الصومُ قد ولّى بآلامِهِ ... والفِطْرُ باللذاتِ قد كرّا
فانهضْ بلا مطلٍ ولا فترةٍ ... نرتشف المشمولةَ الخمرا
حِيريةٌ قد عُتّقت حِقبةٌ ... فأقبلتْ تخبرُ عن كِسْرَى
واسْتَجِلْها صفراءَ قُدسيّةً ... تحسبُها في كأسِها تِبرا
أو ذَوْبَ خمر[2] حُلّ في جامد الـ ... ـماء فألقى فوقه دُرّا
وبادر[3] اللّذةَ في حينها ... وقُمْ بنا ننتهبُ العُمرا
في دوحةٍ أُتْرُجُها يانعٌ ... يلوحُ في الأغصان مُصفرّا
كأنّهُ إذ لاح في دَوحها ... وجهُ سماءٍ أطْلَعَتْ زَهْرا
واسلَمْ ودُمْ في عيشةٍ رغدةٍ ... تُبلي على جدّتها الدّهْرا[4]

وحكى لي شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود التلّعفريّ، الشاعر، قال: اجتمعت ليلةً بالملك الناصر داود على شاطئ البحر بعسقلان، وقد طلع البدر، وألقى شعاعه على البحر، فقال الملك الناصر مرتجلاً:

يا ليلةً قضّيتُ[5] عُمرَ ظلامها ... بمُدامةٍ صفراءَ ذاتِ تأجُجِ

---

(١) في المصادر: «تاهت».
(٢) في المصادر: «جمر».
(٣) في المصادر: «وباكر».
(٤) القصيدة في: الفوائد الجلية ٢٤٧ ـ ٢٤٩، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٥١، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧٣.
(٥) في المصادر: «قطّعت».

بالساحل الشاميّ[١] شذا[٢] نشرِه[٣] ... عن روضه[٤] المتضوّعَ المتأرّجِ
والنّيم زاهٍ قد هدا تيّارُهُ ... من بعد طول تقلّقٍ وتموّجِ
طوراً تُدغدغُه الشمالُ وتارةً ... يكرى فيُوقظُه بناتُ الخزْرجِ
والبدرُ قد ألقى سَنا أنوارِهِ ... في لُجّة المتدعّج المتدلّجِ[٥]
فكأنه إذ قَدَّ صفحةَ متنِهِ ... بضيائه[٦] المتوقّد المتوهّجِ
نهر تكوّن من نُضار بائعٍ ... يجري على أرضٍ من الفَيروزَجِ[٧]

وكنت سمعت له، وأنا في خدمته بالكَرَك، أبياتاً قالها على طريق الصوفيّة، وعُمُره إذ ذاك خمسٌ وعشرون سنة، وهو أكبر منّي بسنةٍ واحدة، لأنّ مولده سنة ثلاثٍ وستمائة، ومولدي سنة أربع:

وإذا الملوكُ تكثّرتْ بعبيدها ... ألفيتني بسواكَ لا أتكثّرُ
وإذا طَغَتْ وبَغت[٨] بما أتيتها[٩] ... أقبلتُ نحوك طائعاً[١٠] أستغفرُ
/ ١٣٤أ/ مالي مراد في حياةٍ زخرفتْ[١١] ... كلّا ولا أخشى جحيماً تَسْعَرُ
لكنّني أبغي رضاكَ وخَشْيتي ... أنّي تحيطُ بيَ الذُنوبُ فأهجر[١٢]

ومن شعره في الفجر:

وإنّي إذا ما الغِرُّ أبدى مودّتي ... خِداعاً وأخفى الغِلَّ بين الأضالعِ

---

(١) في الفوائد: «النامي». وفي ذيل المرآة: «النائي».
(٢) في المصادر: «روائح».
(٣) في الأصل: «شداه ونشره».
(٤) في الأصل: «ندكانه»، والمثبت من المصادر.
(٥) في المصادر: «المتجعّد المتدبّج».
(٦) في المصادر: «بشعاعه».
(٧) الأبيات في: الفوائد الجلية ٣٤٢، ٣٤٣، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٥٩، والوافي بالوفيات ١٣/ ٤٨٨، وفوات الوفيات ١/ ٤٢٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧٤، وعقود الجمان، ورقة ١١٣ب، وإنسان العيون ٣٥٧.
(٨) في الأصل: «وإذا بلعت وبغت»، والتصحيح من المصادر.
(٩) في المصادر: «خوّلتها».
(١٠) في المصادر: «خاضعاً».
(١١) في المصادر: «ما لي رجاء في جنان زخرفت».
(١٢) في المصادر:

لكنْ رجائي أن أراك وخشيتي ... من أن تقبّحني الذنوب فأُهجرُ

والأبيات من قصيدة طويلة في: الفوائد الجلية ١٦٦، ١٦٧، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٥٠ وفيه الأبيات ٥ و٦ و١٢ و١٣.

لأظهرُ جهلاً بالّذي أنا عالِمٌ ... بمكنونِهِ فِعلَ اللّبيبِ المُخادعِ
وأغدو إذا ما أمكنتني فرصةٌ ... عليه بماضي الحدّ أبيضَ قاطع
بضربةِ مِقدامٍ ثبُوتٍ مجرّبٍ ... تغيّبهُ بين اللها والأخادعِ(١)

ومن شعره، وهو بديع معناه:

زار الحبيبُ وذيلُ اللّيل مُنسدلٌ ... فانجابَ عن وجهه داجي غياهبهِ
فقال لي صاحبي، والضوءُ قد رُفعتْ ... يداهُ من ليلنا مُرخى جلاببهِ
أما ترى الضوءَ في ليل المحاق، لقد ... جاء الزمانُ بضربٍ من عجائبهِ
فقلت: يا عاذلاً عن نور طلعتهِ ... أما ترى البدرَ يبدو في عقاربهِ؟(٢)

ومن شعره في تفضيل الجارية على الغلام، وهو بديع:

أحبُّ الغادةَ الحسناء ترنو(٣) ... بمُقلةِ جُؤذرٍ فيها فتورُ
ولا أصبو إلى رشاءٍ غريرٍ ... وإن فَتَنَ الورى الرشا الغريرُ(٤)
وأنى يستوي شمسٌ وبدرٌ ... ومنها يستمِدّ ويستنيرُ؟
وهل تبدو الغزالةُ في سماءٍ ... فيظهرُ عندها للبدرِ نورُ؟(٥)

ومن شِعره، رحمه اللّه:

لئن عايَنَت عيناي أعلامَ جلّقٍ ... وبان من القصر المشيدِ قِبابُهُ
تيقّنت أنَّ البَيْن بان أو النوى ... ذوى شخصُهُ، والعيشُ عاش شبابُهُ(٦)

* * *

(١) الأبيات في: الفوائد الجلية ٢٥٦.
(٢) الأبيات في: الفوائد الجلية ٣٢٧، وذيل مرآة الزمان ١٤٩٨، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧١.
(٣) في الأصل: «ترنوا».
(٤) في المصادر: «ولو فتن الورى الظبي الغرير».
(٥) الأبيات في: الفوائد الجلية ٢٩٦، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٥١، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٥.
(٦) ورد البيتان بصيغة مختلفة في الفوائد الجلية ٢٩٢:
ولما بدت للعين أعلام جلّق ... ولاح من القصر المشيد قبابه
تبيّنت أن البين قد بان والنوى ... نأت ومشيب العيش عاد شبابه
وورد في: الوافي بالوفيات ١٣/ ٤٩١، وعقود الجمان، ورقة ١١٣أ، والمنهل الصافي ٥/ ٣٠٠، وإنسان العيون ٣٦٠.
إذا عاينت عيناي أعلام جلّق ... وبانت من القصر المشيد قبابه
تيقنت أن البين قد بان والنوى ... نأى شملها والعيش عاد شبابه
والبيتان أيضاً في: عيون التواريخ ٢٠/ ١٧١، وفوات الوفيات ١/ ٤٢٧، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٤٩.

ولنذكر بعض ما له من الترسُّل والنثر البديع، فمن ذلك رسالته إلى الخليفة المستعصم باللَّه، رحمه اللَّه، بعثها على يد فخر الدين بن بُصاقة[١]، وقد تقدّم ذكره. أولها: «أعزّ اللَّه سلطان الديوان/ ١٣٤ب/ العزيز النبويّ، لا زال عزمُه الشريف يستدرك فارطَ الأمور، وهمَّته[٢] العالية تُصلحُ ما أفسدته الدهور، وسعيه الميمونُ في مصالح المسلمين هو السعي المشكور.

العبد المملوك يقبّل العتبةَ الدّيوانية الشريفة تقبيلاً يتقرّب به إلى خالقه وخليفته، ويتشرّف به في حَلْبَة المساجلة[٣] على أهله وعشيرته، ويجعله في يوم معاده من أسباب وسيلته، ويُنهي أنه سيّر إلى الخدمة من ينوب عنه في أدائها، ويستنزل من كرمها مُشعنْجَر[٤] سمائها، وهو عبد الديوان نصر [اللَّه] بن بُصاقة[٥]، وحمّله من المشافهة[٦] ما هو مليّ بإعادته، ومن الأدعية الصالحة ما هو من وظائف العبد وعادته، والمسؤول من صدقات الديوان العزيز الإقبال عليه بوجه القبول، والإصغاء إليه بالسمع الذي إليه تباح مظنونات الأسرار إذا عومل غيرُه بالإحجام والنكول. وتزميل[٧] ما يُنْهيه في الخدمة بثوب كرمه المسدول الذيول، لا زال كرمُ الديوان [العزيز][٨] عالماً بخدمات عبيده، ممدّاً من محض النصيحة منهم بعُدده وعديده، إن شاء اللَّه تعالى[٩].

* * *

ومن ترسُّله ما كتبه إلى الملك المنصور، ناصر الدين إبراهيم بن الملك المجاهد، صاحب حمص، أوله:

أيا ملكاً يفْلي الفلاةَ[١٠] جوادُه ... تأيّدْ على قلبٍ لقاكَ مُرادُهُ

رحلت به ثم انثنيتَ مكلّفاً ... جوابَ بليغ لا يُرام انتقادُهُ

أتطلبُ أبكارَ المعاني وعُونَها[١١] ... لذي[١٢] جسدٍ قد سارعنه فؤادُهُ

(١) في الأصل: «براقه».

(٢) في الفوائد ٩٥ «هممه».

(٣) المساجلة: المفاخرة.

(٤) المثعنجر: السائل.

(٥) في الأصل: «نصر بن براقة».

(٦) في الفوائد: «المشافهات».

(٧) في ذيل مرآة الزمان: «ستر ما» والمثبت من الفوائد. و«تزميل»: إخفاء.

(٨) استدراك من: الفوائد، وذيل المرآة.

(٩) النص في: الفوائد الجلية ٩٥، ٩٦، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٩٣.

(١٠) في الأصل: «بالفلاة».

(١١) العون: جمعها العوان، وهي من النساء التي كان لها زوج، وقيل: الثيّب.

(١٢) في الفوائد: «ندى»، والمثبت ينفق مع ذيل المرآة.

أَلَمَّ بجسمي مُذْ رحلتَ نُحولُه وفارق جفني مُذْ نأيتَ رُقادُهُ
ولا عجبٌ ممّن نأت عنك دارُهُ إن[1] اقتربتْ أسقامُه وسُهادُهُ
أيا راحلاً ولّى وخلّى[2] بمهجتي أجيجاً تلاقَى زَنْدُهُ وزنادُهُ
أسَلْتَ شؤونُ المقلتين فغادرتْ غديرَ دموعي لا يُرجَى نفادُهُ
/١٣٥أ/ وخلّيتني[3] كالوحش غير مؤانسٍ خليلاً ولا مُلقًى إليه قيادُهُ[4]

أعزّ اللّه سلطان المقام العالي الملكي المنصوري الناصري[5]، ولا أوحش مماليكه من خدمته، وأعاد لهم أيام مشاهدته[6]، ومنّ عليهم بعد غيبته بطلوع طلعته.

المملوك يقبّل الأرض خدمةً متى يذكرها[7] فاضت عبراتُه وتوالت حَسَرَاتُه، وكيف لا وقد فارق مالِك رقّه وسُويداءَ قلبه، وإنسانَ عينه، وبدرَ ليله، وشمسَ نهاره، وهاميَ غيْثه عند امتساك قطاره، ومن اعتدّ[8] جوهرة لعمره، وكان هلاله بمنزلة كراه في إبان شهره[9]. ويشكو[10] إلى مولاه ما لقي بعده من توالي أرقِه، وتواتُر قَلَقه، وتوحّشه حتّى من الصديق الحميم، ونُفُوره حتّى من المُلْك العقيم، فلو نزل بسَنير[11] ما نزل به لزلزل حتّى استوت هضباته[12] بوهاده، أو حل بثُبير[13] ما حلّ به لنُسِف كما يُنسف في معاده[14]. فاللّه تعالى يجمع له بمولانا بين الجسد[15] وقلبه، ويعيد أيام الأنس بعودة قربه.

مملوك مولانا الأصغرُ، ومُحِبُّه الأكبرُ، وسيفُه الماضي في رقاب أعدائه،

---

(١) في الفوائد، وذيل المرآة: «إذا».
(٢) في الأصل: «وخلا».
(٣) في الفوائد، وذيل المرآة: «خلّفتني».
(٤) الأبيات في: الفوائد الجلية ١١٣، ١١٤، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٥٤، وفي ديوان الناصر داود، القصيدة رقم ٤٢.
(٥) في الفوائد ١١٤: «المقام العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري الناصري».
(٦) في الفوائد: «مشاهداته».
(٧) في الفوائد: «تذكّرها».
(٨) في الفوائد: «ومن قد اعتدّه».
(٩) في الفوائد: «وكان عنده بمنزلة لذيذ كراه في إبان سهره».
(١٠) في الأصل: «يشكوا».
(١١) سَنير: جبل بين حمص وبعلبك. (معجم البلدان ٣/ ٢٦٣).
(١٢) في الفوائد: «هضابه».
(١٣) ثبير: من أعظم جبال مكة. (معجم البلدان ٢/ ٧٢).
(١٤) في الفوائد: «في يوم معاده».
(١٥) في الفوائد: «فاللّه يجمع برؤية مولانا بين الجسد».

وعَلَمه[١] الذي يقف بين يديه في يوم هيجائه، سيف الدين عليُّ بن قلِج[٢] يقبّل الأرض تقبيلَ عبدٍ متوالٍ، قائمٍ في خدمة سلطانه، مُتعالٍ.

مماليك مولى[٣] أولاد مملوكه يقبّلون الأرض تقبيلاً يقرّبهم إلى اللّه تقرُّب[٤] الصُلحاء، ويُتوجّهم بين الملوك بتيجان العلاء.

المملوك يقبّل اليدَ الكريمةَ الأشرفيّة، جعلها اللّهُ في المكرُمات كَيد سميّه[٥] صلّى اللّه عليه، في المعجزات. واللّه تعالى مسؤول[٦] أن لا يطيل مدّة[٧] الفراق، كما هو مسؤول[٨] أن يقصّر الأيام الحاجزةَ بينه وبين التّلاقْ، بمنّه وكرمه[٩].

* * *

واتّفقت له، رحمه اللّه، وقعةٌ مع الفرنج بالساحل، انتصر فيها، فكتب يبشّر بهذه الوقعة، ومن فصول الكتاب:

«كتبت هذه الخدمة معلمةً بما منّ اللّه تعالى به/ ١٣٥ب/ من النصر والظَفَر، ومهنّئة باستعلاء الفئة المؤمنة على من جار[١٠] وكفَر:

كُتِبت حيث أثرت[١١] مِدادُها بمثار نقْع جيادها

وبالمكان الذي صُرعت (فيه)[١٢] كُماة أنجادها، بضَرب صِفاحها وطعن صِعادها، وكلّمتهم أَلْسُنُ الصِّفاح بنصيح أقوالها، وأشارت إليهم أنامِلُ الرماح بسُلاميّاتِ[١٣] نِصالها، فأصبحوا إشارة[١٤] لما أشار إليهم آنفاً، وامتطوا أنف الحرب حتّى صار[١٥] أنف الخطّيّ بهم[١٦] راعفاً»[١٧].

---

(١) في الفوائد، وذيل المرآة: «وعليّه».

(٢) هو الأمير سيف الدين علي بن قليج، توفي سنة ٦٤٢هـ. ودُفن بتربته داخل دمشق (مفرّج الكروب ٥/ ٣٦٣).

(٣) في الأصل: «مولا»، وفي المصادر: «مماليك مولانا».

(٤) في الفوائد: «تقريب».

(٥) أي النبي إبراهيم عليه السلام.

(٦) في الأصل: «مسؤل».

(٧) في الأصل: «المدة».

(٨) في الأصل: «مسؤل».

(٩) النص في: الفوائد الجلية ١١٤، ١١٥، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٥٤.

(١٠) في الفوائد: «حاد».

(١١) في الفوائد: «أترب».

(١٢) ليست في الفوائد.

(١٣) سُلاميّات: جمع سلامية، وهي الأُنملة من الأصابع.

(١٤) في الفوائد: «شارة».

(١٥) في الفوائد: «ظل».

(١٦) في الفوائد: «منهم».

(١٧) النّص في: الفوائد الجلية ١١٩، ١٢٠، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٥٥.

وكان الأمير سيف الدين قلِج ـ رحمه اللّه ـ كما قدّمنا، قد صار في خدمته، وأقطعه قلعة عجلون وأعمالها.

وكان أخوه عماد الدين، رحمه اللّه، قد قُتل بالشرق، في الواقعة الّتي جرت بين الحلبيّين وصاحب ماردين، وصاحب المَوْصل.

وكانت كما قدّمنا ذِكره في سنة سبع وأربعين وستماية.

* * *

(ولما ورد الخبر بموته على أخيه سيف الدين، كتب إليه الملك الناصر داود يعزّيه)[١]، وأوّله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[٢].

كتب اللّه اسم المولى (الأمير سيف الدين)[٣] في جريدة المهتدين، الذين هم بهذه الأخلاق يتخلّقون، وصيّره من الذين هم بهذه[٤] الآيات يتدبّرون، وأنزل عليه عند حدوث[٥] الحوادث صبراً، وعظّم له في الدارين أجراً، وأبقاه بعد مُعَمَّري زمنه[٦] دهراً، وجعل من يتقدّمه منهم عند أوله ذُخراً[٧].

ورد كتاب المولى الذي أبكى العيونَ وأنكاها، واجترأ على المدامع فأجراها، وهجم على الأسماع والألباب فأصمّها وأصماها، بمُصاب الأمير عماد الدين، أفاض اللّهُ عليه ملابسَ رضوانه، وبوّأه دارَ تجاوزه وغُفرانه. والمولى ثبّت اللّه عزائمه، وأقام ببقائه من كَنَفه[٨] الكريم دعائمَه. أهدى ممّن[٩] يُهدى إلى محجّة الصبر، وأن[١٠] يعرّف ما في الصبر من جزيل الأجر[١١]، لأنه يعلم أنّ هذه الدنيا دارُ خُسران، ومنزل أتراح وأحزان، لا[١٢] تُصفي لأحدٍ عيشاً إلّا كدّرته، ولا تُعاهده عهداً إلّا نقضته/

(١) ما بين القوسين كتبت على هامش المخطوط.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٦.
(٣) ما بين القوسين ليس في الفوائد الجلية.
(٤) في الفوائد: «لهذه».
(٥) في الفوائد: «عند نزول».
(٦) في الفوائد: «أهله».
(٧) في الفوائد: «يتقدّمه منهم عنه فداء وله زخراً».
(٨) في الفوائد: «من بيته».
(٩) في الفوائد: «أهدى من أن».
(١٠) في الفوائد: «أو أن».
(١١) في الفوائد: «جزيل الثواب والأجر».
(١٢) في الفوائد: «وأنها لا».

١٣٦أ/ألا ترى أنّ المرء إذا مُتّع بحياته كثُرت مصائبه في أحبابه ولذّاته، وإنْ سبقهم إلى حلول رَمْسه، كانت مصيبتُه في نفسه.

كُـن الـمُـعَـزِّي لا الـمُـعَـزَّى بـه إن كـان لا بـدّ مـن الـواحـد[١]

فاللَّه تعالى[٢] يجعل المولى وارثاً لأعمارهم، معمّراً من بعدهم ربوعَ ديارهم. وليعلم ـ أطال اللَّه له مدّة البقاء، وأفاض عليه سابغ[٣] النعماء.

إنّ العاقل كما يختارُ لنفسه خيرَ الخيرين، فكذلك يشكر[٤] إذا كُفي شرّ الشرّين، وهو ـ ثبّته اللَّه وعمّره، ووفّقه للصبر الجميل، وقدّره ـ أولى الناس أن يتّصف بهذه الصفات، ويتّسم بهذه السّمات، ليُكتبَ مع[٥] الصابرين، ويُدَّخَر له إن شاء اللَّه في (أعلى)[٦] عِلّيّين، وعلى كل حال، فالحمد للَّه رب العالمين[٧].

* * *

ولما ملك السلطان الملك الصالح، نجم الدين أيوب، رحمه اللَّه، الديار المصرية، وصار أخوه الملك العادل في قبضته، وصار بينه وبين الملك الناصر ما قدّمنا ذِكره من الوحشة. ورجع الملك الناصر إلى بلاده أقام بالساحل، مُرابطاً للفرنج، مُجاهداً لهم. وقوي بسبب الخُلْف بين الملوك شأنُ العدوّ، وأبعدوا في عمارة عسقلان، وتشييد[٨] أسوارها، وشنّ الغارات على ما حولها، فكتب الملك الناصر إلى ابن عمّه الملك الصالح يستنجد[٩] به على الفرنج، فلم يُنجده، وجمعت الفرنجُ جمْعاً كثيراً، وقصدوا مدينة نابلس فهجموها وبذلوا السيف في أهلها، وأسروا من وجدوه بها من النساء والولدان، وأقاموا بها ثلاثة أيام يسفكون وينهبون، وأقاموا على المساجد صُلبانهم، وأعلنوا بكُفرهم، وأظهروا طُغيانهم، ومن سلم من أهلها تعلّق برؤوس[١٠] الجبال. وبلغ الملكَ الناصرَ ذلك، فقدم مسرعاً في جيوشه. ولما

---

(١) البيت في: ريحانة الألبا ١/٣٥٨، ونهاية الأرب ٥/١٦٧، ١٧١، ومحاضرات الراغب الأصبهاني ٤/٥١٣ وينسبه لأبي نواس، وهو غير مذكور في ديوانه.
(٢) في الفوائد: «فاللَّه سبحانه».
(٣) في الفوائد: «سابغ».
(٤) في الفوائد: «فكذلك ينبغي أن يشكر».
(٥) في الفوائد: «ليكتب اسمه مع».
(٦) ليست في الفوائد.
(٧) النص في: الفوائد الجلية ١٢١، ١٢٢، وذيل مرآة الزمان ٢/٨٤٩.
(٨) في الأصل: «وتشيد».
(٩) في الأصل: «يستنجده».
(١٠) في الأصل: «برؤس».

تحقّقت الفرنج إقباله، رجعوا إلى حصونهم، وقد فازوا بما استولوا عليه من القتل والأسر، فكتب الملك الناصر إلى الشيخ الإمام العلاّمة عزّ الدين عبد العزيز بن عبد/ ١٣٦ب/ السلام، رحمه اللّه، وكان بالديار المصرية، وقد قلّده الملك الصالح بمصر القضاء والخطابة، يستغيث به، ويحرّضه على النفير والجهاد، وحثّ الملك الصالح على ذلك.

وهذه نسخة كتابه إليه:

«أحسن اللّه إعزاز[١] المجلس السامي، القَضَويّ[٢] العِزّيّ في مُصابه بالمسلمين، وصبَّرَنا وإيّاه على ما دُهي[٣] به حوزة الدين، وأثاب الذين استشهدوا بما وُعد به الشهداء من رضوانه، وعوّضهم عن منازلهم بمنازل الأمن من قصور جنانه، وسامَحَنا وإيّاه بما أهملناه من حميّة[٤] الدين وحِفْظ أركانِه، وبما اعتمدناه من إغفاله وخُذلانه. فلا حول ولا قوّة إلاّ باللّه، قول معترفٍ بتقصيره عن جهاد أعداء اللّه وأعداء دينه جهراً[٥] بلسانه وسرّاً بيقينه، وذلك لمصيبة[٦] المسلمين بمدينة نابلس التي قُتلت فيها المشايخُ والشُبّان، وسُبيتْ الحلائلُ والصّبيان. واستولتْ يد الكفّار على ما كان فيها مُدَّخراً من الأموال والغلال، وما جمعه المسلمون لأزمنتهم في السنين الطوال. فهو يومٌ يسكنه الكُفر[٧] بجرانه[٨]، ويتبختر فيه[٩] بين أنصاره وأعوانه، وزها على الإسلام برونق زمانه. وهواليوم الذي تقابلا فيه فأحجم الإسلام ثم تولّى، واقتسما فيه بالسُهمان[١٠]، فكان سهمُ الكُفر هو السهم المُعَلّى، فيا لها من فجيعةٍ أبكت العيون، وأنكت الجفون، وهجمت على القلوب من أسماعها، فودّت لو أنها سُبقت بالمنون، فيا ليتني نُبذتُ قبل سماعه[١١] مكاناً قصيّاً، أو ليت ربّي لم يجعلني بعباده حفيّا، أو لَيْتَنِي مِتُّ قَبْل ذلك فكنت نَسْياً مَنْسِيّاً[١٢].

---

(١) في الفوائد: «عزاء».
(٢) في الفوائد: «القاضوي».
(٣) في الفوائد: «دهمت».
(٤) في الفوائد: «حماية».
(٥) في الفوائد: «ذاكر جريمته جهراً».
(٦) في الأصل: «وذلك المصيبة»، وفي الفوائد: «بمصيبة».
(٧) في الفوائد: «فهو يوم ضرب فيه الكفر».
(٨) الجران: مقدّم العُنق. وضرب الكفر بجرانه أي قرّ قراره.
(٩) في الفوائد: «وتبختر تيهاً».
(١٠) هكذا في الأصل والنسختين الخطيتين من الفوائد الجلية.
(١١) في الفوائد: «سماعها».
(١٢) اقتباس من سورة مريم، الآية ٢٣.

ألا لـيـتَ أمّـي أيّـمُ طـولَ عُـمـرهـا فـلـم يـقْـضـهـا ربّي لـمـولًى ولا بَـعْـلِ
ويـا لـيـتـهـا لـمـا قـضـاهـا لـسـيّـد لـبـيـبٍ أريـبٍ طـيّـبِ الـفـرعِ والأصـلِ
قـضـاهـا مـن الـلائي خُـلِـقْـن عـواقـراً فـمـا بُـشّـرتْ يـومـاً بـأنـثى ولا فـحـلِ
/ ١٣٧أ/ ويا ليتها لما غدتْ بي حاملاً اجتثت[١] بما اجتنّتْ عليه من الحمل
ويـا لـيـتـنـي لـمـا وُلـدتُ وأصـبـحـتْ تُـشـدُّ إلـيّ الـشـدقـمـيّـات[٢] بـالـرّحْـل
لـحقت بأسلافي فكنت ضجيعَهم ولـم أر في الإسلام ما فيه من خبْل

فيا أيّها العزُّ الذي كنّا نظنّ أنّ الإسلام يزيد[٣] بسعيه عزّا، وأن رُقَى عن اسمه يكون عليه[٤] من سحر الكفّار حِرزاً، تيقّنْ أنّه قد عمّ بالشام النفيرُ، ووجبتْ الغزاةُ على الحَدَث الطرير[٥] والشيخ الكبير، وجاز للحرّة أن تبرزَ للقتال بغير إذْن[٦] بعلها، والأمة أن تبارز برُمحها ونصْلها، ووجب على المجاهدين[٧] الإسعادُ والإنجاد، وتعيّن[٨] في طاعة اللّه الجهاد.

فيا لسانَ الشريعة أين الجدالُ فيه (وأين)[٩] الجلاد؟ وأين مهنّدُ لسانكَ الماضي إذا كلّت المهنّدة الحِداد؟ أتُغمِدُ سيفَ لسانك في غِمده[١٠] وقد هجرتْ سيوفُ الكفّار جفونَها، وأجرْت عيونُ الأنام على الإسلام شؤونها[١١].

ألا وإنّ الإسلام بدا غريباً، وسيرجع[١٢] كما بدا، وتقاصرت الهِمَمُ عن إسعاده حتى لا ترى[١٣] له مُسعِدا، فإنّا للّه قول[١٤] من عزّ عزاؤه في الإسلام وذويه، وبذل في الدفاع عنه ما تملكه يدُه وتحتويه، وصبر في اللّه على احتمال الأذى، وعدم دونه

(١) كتبت فوق السطر. وفي الفوائد: «أصيبت».
(٢) الشدقميات: الشدقم فحل من فحول إبل العرب. وقيل: شدقم كان للنعمان بن المنذر، يُنسب إليه الشدقميات من الإبل.
(٣) في الفوائد: «يتزيّد».
(٤) في الفوائد: «وأن رقى اسمه تكون عليه».
(٥) الطرير: ذو طرّة وهيئة حسنة وجمال. وقيل: المستقبل الشباب.
(٦) في الفوائد: «بغير إشارة».
(٧) في الفوائد: «المجاورين».
(٨) في الفوائد: «وتعيّن عليهم».
(٩) ليست في الفوائد.
(١٠) في الفوائد: «في جفنه».
(١١) في الأصل: «شؤنها».
(١٢) في الفوائد: «وسيرجع غريباً».
(١٣) في الفوائد: «لا يرى».
(١٤) في الأصل: «فإنا للّه فعل فعل قول».

حاميه[١]، والله ـ سبحانه ـ يتلافى الإسلام بتلافيه، ويحميه بحمايته وحُسن نظره فيه، إنه قريبٌ مجيب»[٢].

[وفاة الصاحب زهير المهلّبي]

وفي هذه السنة تُوفّي الصاحب، بهاء الدين، زُهير[٣] بن محمد بن علي بن يحيى المهلّبي، كاتب الإنشاء للملك الصالح نجم الدين، رحمه الله.

ومولده، على ما ذُكر، بوادي نحلة من مكة، شرّفها الله تعالى.

وقد ذكرتُ أخباره وشيئاً من شِعره في أخبار الملك الصالح، رحمه الله، وذكرت اتّصاله بخدمة السلطان الملك الناصر، رحمه الله، وشيئاً من مديحه فيه. ثم إنّه فارقه ورجع إلى الديار المصرية، وأقام بالقاهرة في بيته يبيع موجوده وكُتُبه،/ ١٣٧ب/ وانكشف حاله بالكلّية[٤].

ولما عرض في البلاد الوباءُ العامّ بسبب فساد الهواء الحاصل عن جِيَف القتلى ببغداد، لَمَا فعل فيها التتر ما فعلوا.

---

(١) في الفوائد: «احتمال الأذى ورؤية جانيه».

(٢) النص في: الفوائد الجلية ١٣٥ ـ ١٣٨، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٥٧.

(٣) انظر عن (الصاحب بهاء الدين زهير) في:
ذيل الروضتين ٢٠١ (وفيات ٦٥٧هـ.)، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٨٤ ـ ١٩٧، والحوادث الجامعة ١٣٢ في وفيات سنة ٦٥١هـ، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٧، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٣٢ ـ ٣٣٨ رقم ٢٤٧، ونهاية الأرب ٢٩/ ٤٦٦، والتذكرة الفخرية للإربلي ١٦ و٧٥ و٢٠٣ و٢٠٥ و٢٠٨ و٢١٠ و٣٣٧ و٣٦٢، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٥٥، ٣٥٦، رقم ٢٥٥، والعبر ٥/ ٢٣٠، ودول الإسلام ٢/ ١٦٠، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٣٨، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٥١ ـ ٢٥٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٤، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ٢٥٠ ـ ٢٥٤ رقم ٢٦٢، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٩، ٢٠٠، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٨، وإنسان العيون، ورقة ٣٧٣، ودرّة الأسلاك ١/ ورقة ١٨، ١٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١١، ٢١٢، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧٩ ـ ١٨٨، والعسجد المسبوك ٢/ ١٤٤، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٣، وعقد الجمان (١) ١٨٦ ـ ١٨٨، والنجوم الزاهر ٧/ ٦٢، ٦٣، والدليل الشافي ١/ ٣٠٩، والمنهل الصافي ٥/ ٣٦٩ ـ ٣٧٧ رقم ١٠٥٧، وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٧ رقم ٣٠، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٨، والكنى والألقاب ٢/ ٩٨، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٠٠، ٣٠١، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٦، ٢٧٧، والدارس ٢/ ١٣٣، وهدية العارفين ١/ ٣٧٥، وديوان الإسلام ١/ ٢٢٣ رقم ٣٤٠، والأعلام ٣/ ٥٢، ومعجم المؤلفين ٤/ ١٨٧.

(٤) تاريخ الإسلام ٢٥١.

وقد تقدّم ذِكر هذا الوباء وعمومه البلاد، مرض بهذا الوباء أياماً ثم تُوفي، رحمه اللَّه، قُبَيل المغرب من يوم الأحد رابع[1] ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة ستٍّ وخمسين وستماية.

وكان مولده خامس ذي الحجّة من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

فكان عُمُره خمسة وسبعين سنة وشهراً واحداً.

ودُفن بالقرافة الصغرى.

وفضيلته في النظْم والنثر أشهر من أن يُطنَب في وصفه. وأمّا مروءته وكَرَم طباعه وعصبيّته لكلّ من يلوذ به ويقصده، فهو مشهور، ولم يبلُغْني عن أحدٍ من أصحاب الملوك أنّه كان يماثل هذين الرجلين، أعني: جمال الدين بن مطروح، وبهاء الدين زهير. بعد القاضي الفاضل، رحمهم اللَّه أجمعين.

وكان مَرْبا[2] بهاء الدين بقوص والصّعيد، وكان في أول أمره كاتباً عند المكرَّم بن اللمطي، متولّي تلك النواحي في أيام الملك الكامل، وابنه الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وله في ابن اللّمطي مدائح حَسَنة، من ذلك قصيدة، منها:

يا منسَك المعروف أحرَمَ منطقي ... زمناً، وقد[3] لبّاك من ميقاتِهِ

هذا زُهَيرُك لا زُهيرُ مزينةٍ ... وافاك لا هرِماً على علّاتِهِ

دعه وحوليّاته ثم استمعْ ... لزُهير عصرك حُسن ليليّاتِهِ

لو أُنشِدَت في آل جفنة أضربوا ... عن ذِكر حسّانٍ وعن جفناته[4]

وهذا شِعر في غاية الحُسن، لكنه لا يصل فهمُه إلى من ليس له ممارسة لعلم الأخبار. فلْنُشِر إلى شرحه على سبيل الاختصار.

قوله: «لا زهير مُزَيْنة» يعني به: زُهير بن أبي سُلمَى المُزَنيّ، وكان يمدح كثيراً هَرِم بن سِنان/ ١٣٨أ/ المُزَنيّ المدائح المشهورة.

وكان زُهير بن أبي سُلمَى أحد الشعراء الأربعة الذين فُضّلوا في الجاهلية على سائر الشعراء، فقالوا: أفضل الشعراء زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهِب، والأعشى إذا طرِب، وامروء القيس إذا ركب.

---

(١) في تاريخ الإسلام ٢٥٤ «في خامس ذي القعدة».

(٢) الصواب: «مربى».

(٣) في الأصل: «ولقد».

(٤) الأبيات في ديوان زهير ١٠١، والوافي بالوفيات ١٣/ ٢٤٢.

وكان «هرِمٌ» من المشهورين بالكرم، فضَّل ابنَ[1] زُهير هذا نفسَه على زهير الذي من مُزَينة، وممدوحه على هرِم ممدوح زهير بن أبي سُلمى،

وقوله: «دعه وحوليّاته»، يعني به القصائد التي كان زهير يَنْظُمُها في سنة، فضّل زهير هذا ما ينظمه من المدح في ممدوحه في ليلةٍ واحدة، على ما كان ينظّمه زهير في ممدوحه في سنة.

«لا هرِماً على علّاته»: يشير به إلى قول زهير:

فمن يلق يوماً على علّاته هرِماً ... يلْقَ السّماحةَ والنّدى خُلقا

يريد إنْ تلْقه عديمَ المال والجده تلْقَه سَمْحاً، فكيف إذا ألَفيْتَه على غير تلك الحال؟

وقوله: «لو أنشدت في آل جفنة»، يريد به أنّ حسّان بن ثابت الأنصاريّ مادح آل جَفْنَة ملوك الشام القصائد المشهورة البديعة، لو سمع آلُ جَفْنة شِعرَ زهير هذا لأعرضوا عنه.

وأغنى عن حسّان، وعن وصفه لجفانهم، وكان بهاء الدين في خدمة الملك الصالح لما كان بالشرق، كما قدّمنا ذِكره، فأرسله مرّةً إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وحضر عند بهاء الدين لما قدِم المَوْصلَ شعراؤها، ومدحوا بهاء الدين، ومن جُملتهم شرفُ الدين، أبو الطيّب، أحمد بن[2] محمد المعروف بابن الحلاوي[3]، وهو من الشعراء المجيدين من أهل زماننا، ومدح بهاءَ الدين بقصيدةٍ أجاد فيها، واستحسن منها قولَه في وصف شِعره:

تجيزُها وتجيز لمادحيك[4] بها ... فقُلْ لنا أزُهيرٌ أنتَ أمْ هرِمُ[5]

---

(١) في الأصل: «فضل بن». (٢) في الأصل: «ابن».

(٣) انظر عن (ابن الحلاوي) في:
التذكرة الفخرية للإربلي ١٣٦ و١٤٧ و١٤٩ و١٥٤ و١٦٠ و١٧٠ و٢١٠، وعقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلي (مخطوط أسعد أفندي ٢٣٢٣) ج١/ورقة ١٩٤أ، وذيل مرآة الزمان ١/ ٩٦ ـ ١٠٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٣٧ و٦/ ٢٦٤، والعبر ٥/ ٢٢٧، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٢٦ ـ ٢٢٨ رقم ٢٤٠، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣١٠، ٣١١ رقم ٢١٨، وفوات الوفيات ١/ ١٤٣ ـ ١٤٨ رقم ٥٤، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٥٤ ـ ١٥٩، والوافي بالوفيات ٨/ ١٠٢ ـ ١٠٨ رقم ٣٥٢٤، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٣، ونزهة الأنام ٢٤٨ ـ ٢٥٠، والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٠، والمنهل الصافي ٢/ ١٦٧ ـ ١٧٢ رقم ٢٩٧، والدليل الشافي ١/ ٨٤ رقم ٢٩٥، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٤.

(٤) في الأصل: «المادحيك»، وفي وفيات الأعيان ٦/ ٢٦٤ «المادحين».

(٥) وفيات الأعيان ٢/ ٣٣٧ و٦/ ٢٦٤، تاريخ الإسلام ٢٥٤، الوافي بالوفيات ١٤/ ٢٤٢.

ولما عاد زهير إلى مخدومه الملك الصالح، حضر عنده أصحابُه/ ١٣٨ب/ مسلّمين عليه، وسألوه عن الشعراء بالموصل، وما مدحوه به، فأخبرهم بما جرى وأنشدهم البيت المذكور. وكان من جملة الحاضرين عنده جمال الدين بن مطروح، رحمه اللّه، فلما خرجوا من عنده أرسل إلى كلّ واحدٍ منهم ما استصحبه من الهديّة على جاري العادة، فردّ جمال الدين بن مطروح رسوله ومعه ورقة فيها:

أقــول وقــد تــتــابــع مــنــه[1] بــرّ   وأهــلاً مــا بــرحــت لــكــلّ خــيــر

ألا لا تــذكــروا هَــرِمــاً لــجــودٍ   فــمــا هــرمٌ بــأكــرم مــن زُهَــيْــر[2]

وقد رُوي البيت الذي لابن حلاوي على صورةٍ أخرى وهي:

تـجـيـدهـا ثـم تـجـدّ والـمـادحـيـك بـهـا   فـقُـل لـنـا أزهـيـرٌ أنـت أم هـرِمُ

وكأنّ هذه الرواية أصحّ.

وحُكي أنه كتب إلى بهاء الدين زهير جمالُ الدين ابن مطروح يستدعي منه دَرْجَ ورقٍ، ببيتين هما:

أفْـلَـسْـتُ يـا سـيّـدي مـن الـورِقِ   فابعثْ[3] بدَرْجٍ[4] كعرضِك اليقَقِ

وآتِـنـي[5] بـالـمـداد مـقـتـرنـاً   فـمـرحـبـاً بـالـخـدود والـحَـدَقِ

فكتب إليه بهاء الدين:

مـولاي سـيّـرتُ مـا رسـمـت[6] بـه   وهـو يـسـيـر الـمِـداد والـورَقِ

وعـزّ عـنـدي يـسـيـرُ ذاك وقـد   شَـبَّـهْـتَـهُ بـالـخـدود والـحَـدَقِ[7]

وكان جمال الدين قد كتب في بيته «الورَق» مضبوطة بفتح الراء وكسرها، وكتب «معاً» إشارةً إلى عدم النفَقَة عنده، فأرسل إليه الدرْج، والمِدادَ، وقدْراً من النفقة.

وما كان بينهما تكلُّف، وكانا كلٌّ منهما[8] حَسَنَةَ الدنيا، زَهَت بهما دولةُ السلطان الملك الصالح، رحمه اللّه، وتجمّلت غاية الجمال.

ومن شِعر بهاء الدين زهير رحمه اللّه:

يــا روضــةَ الــحُــســنِ صِــلــي   فــمــا عــلــيــك ضَــيْــرُ

---

(١) في المصادر: «منك».
(٢) البيتان في: وفيات الأعيان ٢/ ٣٣٦، والوافي بالوفيات ١٤/ ٢٤٢.
(٣) في الديوان: «فجد».
(٤) في الأصل: «بدروج».
(٥) في الأصل: «وإن أتى».
(٦) في الديوان: «ما أمرت».
(٧) ديوان زهير ٢٢٣، وفيات الأعيان ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧.
(٨) في الأصل: «كلا منها».

فَـهـل رأيـتِ روضـةً لـيـس بـهـا زُهَـيْـرَ؟[١]

/ ١٣٩أ/ ومن شِعره:

أنـا ذا زُهـيـرُكِ لـيـس إلّا جُـود كـفّـك إلـى مُـزَيْـنـه
أهـوى جـمـيـلَ الـذِكـر عـنـك كـأنّـمـا هـو لـي بُـثَـيْـنَـه
فـاسـألْ ضـمـيـرَك عـن ودا دي إنّـه فـيـه جُـهَـيْـنـه[٢]

ومن شِعره:

كـيـف خـلاصـي مـن هـوًى مـازَجَ روحـي فـاخـتـلـطْ
وتـائـهٍ أقـبـض فـي حـبّـي لـه ومـا انـبَـسَـط
يـا بـدرُ إنْ رُمـتَ بـه تـشـبُّـهـاً رُمْـتَ شـطـط
ودَعْـهُ يـا غـصـنَ الـنّـقـا مـا أنـت مـن ذاك الـنّـمَـط
قـام بـعُـذري وجْـهُـهُ عـنـد عَـذولـي وبَـسَـط
لـلّـه أيُّ قـلـمٍ وذاك الـصّـدْغ خـطّ
ويـا لـه مـن عـجـبٍ فـي خـدّه كـيـف نـقـط
يَـمُـرُّ بـي مُـلـتـفـتـاً فـهـل رأيـتَ الـظـبْـيَ قـطّ
مـا فـيـه مـن عـيـبٍ سـوى فـتُـور جَـفْـنَـيـه[٣] فـقـط
يـا قَـمَـر الـسَّـعْـدِ الـذي لـديـه نـجْـمـي[٤] قـد هـبـط
يـا مـانـعـي حُـلْـوَ الـرضـى[٥] ومـا نـجـي مُـرَّ الـسَّـخَـط
حـاشـاك أن تـرضَـى بـأنْ أمـوت فـي الـحـبّ غـلـط[٦]

وقوله: «ما فيه من عَيْب»، البيت، في غاية الحسن، وهو شبيهٌ بقول النّابغة الذّبيانيّ[٧]:

---

(١) ديوان زهير ١١٢، وفيات الأعيان ٢/ ٣٣٥، الوافي بالوفيات ١٤/ ٢٤٠.
(٢) ديوان زهير ١٩٩، الوافي بالوفيات ١٤/ ٢٤٠.
(٣) في الديوان: «عينيه»، ومثله في المصادر.
(٤) في الديوان والمصادر: «لديه نجمي».
(٥) في الديوان والمصادر: «الرضا».
(٦) الأبيات في ديوان زهير ١٩٠، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٩١، ١٩٢، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٣٥، وتاريخ الإسلام ٢٥٢، والوافي بالوفيات ١٤/ ٢٤٣.
(٧) النابغة الذبياني: هو زياد بن معاوية بن ضباب. أحد الأشراف، كان خاصاً بالنعمان بن المنذر، مات على الجاهلية ولم يدرك الإسلام. انظر عنه في: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي (ت ٩٦٣هـ.) ج١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٩، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٩٢، والأغاني ٩/ ١٦٢، وطبقات الشعراء لابن سلام ٤٦، وتهذيب تاريخ دمشق ٥/ ٤٢٤، وغيره.

ولا عَيْبَ فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلولٌ من قراع الكتائب[١]

ومن شِعره:

يا مَن لعبث به شَمُول ما أحسن هذه الشمايل
نشْوانُ يَهزُّهُ دلالٌ كالغصن مع النسيم مايل
/ ١٣٩ب/ لا يمكنه الكلام لكنْ قد حُمّل طرْفُه رسايل
مولاي يحقّ لي بأنّي عن حبّك في الهوى أقاتل
لي فيك كما علمتَ وجْدٌ لا تعلمُ نشْرَه العواذل
ذا[٢] العام قضى وليت شِعري هل يحصلُ لي رضاكَ قابل
ها عبدُك واقفٌ ذليلٌ بالباب يمدّ كفّ سَايل
من وصْلك بالقليل يرضى والطَّلُّ من الحبيب وابل[٣]

ومن شِعره في أبيات:

وأنت يا نرجِسَ عينيهِ كم تشرب من قلبي وما أذبلك[٤])
مالَكَ في حُسنك من مُشْبهٍ ما تمّ للعالم[٥] ما تمّ لك[٦]

وله مُلغِزاً في يافا، وهي مدينة على ساحل البحر.

قد تقدّم أنّ الملك الناصر صلاح الدين، رحمه اللّه، فتحها[٧]، وكانت للفرنج،

---

(١) مناسبة هذا البيت أن عبد اللّه بن الزبير بن العوّام عند ما قُتل قدِم أخوه عروة على عبد الملك بن مروان فقال له يوماً: أريد أن تعطيني سيف أخي عبد اللّه، فقال له: هو بين السيوف ولا أميّزه من بينها. فقال عروة: إذا حضرت السيوف ميّزته أنا، فأمر عبد الملك بإحضارها، فلما حضرت أخذ منها سيفاً مفلّل الحد فقال: هذا سيف أخي. فقال عبد الملك: كنت تعرفه قبل الآن؟ فقال: لا. فقال: كيف عرفته؟ قال: بقول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

(وفيات الأعيان ٣/ ٢٥٧).

(٢) في الأصل: «ذا».

(٣) الأبيات في: «ذيل مرآة الزمان ١/ ١٩٥، وورد البيت الأول فقط في تاريخ الإسلام ٢٥٢.

(٤) حتى هنا ينتهي النقص من النسخة (ب).

(٥) في الديوان وغيره: «ما تم في العالم».

(٦) البيتان في ديوان زهير ٢٣٣، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٣٦، والوافي بالوفيات ١٤/ ٢٤١.

(٧) كان فتح يافا سنة ٥٨٣هـ. بعد موقعة حطين وقبل فتح بيت المقدس. انظر الكامل في التاريخ ـ بتحقيقنا ـ ج١٠/ ٢٩.
ثم فتحها صلاح الدين ثانية سنة ٥٨٨هـ (الكامل ١٠/ ١١٠).

ثم استعادها الفرنج، ثم استعادها الملك العادل[1] أخوه منهم، ثم استعادها الفرنج، ثم فتحها الملك الظاهر بيبرس الصالحيّ وخرّبها، على ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى:

بعَيْشِك خبّرني عن اسم مدينةٍ يكون رُباعيّاً إذا ما كتبتَه
على أنّه حرفان حين[2] تقوله وترجع حرفاً واحداً إنْ عَكَسْتَه

ذِكر ما تجدّد للتتر أخْذ بغداد

لما ملك التتر بغداد نادوا في الناس بالأمان، وأمّنوا أهل العراق كلهم، وولّوا فيها وُلاتهم.

[موت العلقمي]

وكان الوزير مؤيّد الدين العلقميّ[3] قد أطْمَعَتْه نفسُه بأنّ الأمور تكون مفوّضةً في العراق إليه، وكان قد عَزَم على أنه يُحسّن لهولاكو ملك التتر أن يقيم ببغداد خليفة من الشُرفاء الفاطميّين، فلم يتمّ له ذلك، واطّرحه التتر، وبقي معهم على صورة بعض/ ١٤٠أ/ الغلمان، فمات بعد قُرْبٍ كمداً، وندم على ما فعل حين لم ينفعه الندم.

[رحيل التتر عن بغداد]

ورحل التتر عن بغداد إلى بلاد أَذَرْبَيْجان. ثم رحل إليهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والشريف ابن صلايا وزير صاحب إربل، فأكرم بدر الدين ورُدّ إلى ولايته، وأمّا الشريف ابن صَلايا[4] فقُتل.

---

(١) كان ذلك في سنة ٥٩٣هـ. (الكامل (١٠/ ١٤٤).

(٢) في (ب) ورقة ٣٨٦أ «حتى».

(٣) هو: محمد بن محمد بن علي، انظر عنه في:
جامع التواريخ ج٢ ق١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤، وخلاصة الذهب المسبوك ٢٨٣، ٢٨٩، ومختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٤٧ و٢٥٢، و٢٦٧ و٢٧٢ و٢٧٨، والحوادث الجامعة ١٦٢، والفخري ٢٣٦، ٢٣٧، والعبر ٥/ ٢٣٥، ٢٣٦، ودول الإسلام ٢/ ١٦١، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٩٠ ـ ٢٩٢ رقم ٣١٥، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٣٣ و١٣٦ و١٩٣، ١٩٤، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٢٢، ٢١٣، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٤٠، ٦٤١، وتاريخ الخميس ٢/ ٤٢١، ٤٢٢، وعقد الجمان (١) ٢٠٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٣٧.

(٤) هو: محمد بن نصر بن يحيى، تاج الدين، أبو المكارم بن صَلايا. انظر عنه في:
الحوادث الجامعة ١٣٧، وذيل مرآة الزمان ١/ ٩١، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٤٧، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ٢٩٦، ٢٩٧ رقم ٣٢٦، والعبر ٥/ ٢٣٦، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٠٩ ـ ١١٢، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٠٣، ٢٠٤ وفيه «محمد بن نصر بن علي»، والنجوم الزاهرة ٧/ ١٦، وشذرات الذهب ٥/ ٢٨٤.

وقد ذكروا ـ واللّه أعلم ـ أنّ بدر الدين لؤلؤ هو كان السبب في قتله، وأنه قال لهولاكوا: هذا شريف علويّ وربّما تطاول أن يكون خليفة، ويبايعه على ذلك خلق عظيم، فتقدّم بقتله.

[وفاة بدر الدين لؤلؤ]

ولما رجع بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل لم يطلْ مُقامه بها وتُوُفّي[١]. وكانت قد طالت أيامه بالموصل، فإنّه كان القائم بتدبير دولة أستاذه نور الدين (أرسلان شاه بن عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي.

ولما تُوُفّي نور الدين)[٢] قام بتدبير دولته ولدُه الملكُ القاهر عزّ الدين مسعود.

---

(١) انظر عن (لؤلؤ الأرمني صاحب الموصل) في:
تاريخ الظاهر بيبرس ٤٧ و١١٣ و١١٥، ١١٦ و٢١٤ و٣٣٢، وذيل الروضتين ٢٠٣، ووفيات الأعيان ١/ ١٨١ و١٨٤ و١٩٤ و٤٠٩ و٥/ ٩٢ و٣٠٨ و٣٩١ و٧/ ٣٢٦ و٣٣٥ و٣٣٨، والدرة الزكية ٤٤، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٣، وتاريخ الزمان ٣١٥، وتاريخ مختصر الدول ٢٧٩، وتاريخ حوادث الزمان وأنبائه لابن الجزري ـ بتحقيقنا ـ في آخر وفيات سنة ٧٣٥هـ. في ذكر الأناشيد ص٨٣٦، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٨، وجامع التواريخ، مجلّد ٢ ج١/ ٣٢٧، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٥، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٥٦ ـ ٣٥٨ رقم ٢٥٦، ودول الإسلام ٢/ ١٦١، ١٦٢، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٧هـ.) ص٣٢٢ ـ ٣٢٤ رقم ٣٩٩، والعبر ٥/ ٢٤٠، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٠، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٣، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢١٦، وتاريخ إربل ١/ ١١٧ و٤٤٣ و٤٤٤، والوافي بالوفيات ٩/ ٤٣، ودرّة الأسلاك ١/ورقة ٢١، والتحفة الملوكية ٤٢، وعقد الجمان (١) ١٩٩ ـ ٢٠١، والنجوم الزاهرة ٧/ ٧٠، ونزهة الأنام ٢٥٧، والمنهل الصافي ١/ ١١، وشذرات الذهب ٥/ ٢٨٩، وتاريخ النوادر ٣/ ورقة ٥٩أ.

(٢) ما بين القوسين كتب على هامش المخطوط:
وكانت وفاة (نور الدين أرسلان شاه) في سنة ٦٠٧هـ. انظر عنه في: الكامل في التاريخ ـ بتحقيقنا ـ ١٠/ ٢٧٧ ـ ٢٨٠، والتاريخ الباهر ١٨٩ ـ ٢٠١، ومرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٥٤٦، والتكملة لوفيات النقلة ٢/ ٢١٠ رقم ٦١٢، وذيل الروضتين ٧٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٢٩، وتاريخ الزمان ٢٤٩، ومفرّج الكروب ٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٥، وتاريخ إربل ١/ ٥٧، وبغية الطلب (تراجم السلاجقة) ٣٠٣، ٣٠٤ رقم ٣١، ووفيات الأعيان ١/ ١٩٣، ١٩٤، والدر المطلوب ١٦٩ و١٧٢ ـ ١٧٤، والأعلاق الخطيرة ج٣ ق١/ ١٣٥ و١٨٥ ـ ١٩٠ و١٩٢ و٢٢٩ و٢٣١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١١٣، والمختصر من الكامل في التاريخ وتكملته للمسروري ـ بتحقيقنا ـ ص٧٩، ٨٠، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٥٠، ودول الإسلام ٢/ ١١٣، والعبر ٥/ ٢١، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٠٧هـ.) ص٢٤١، ٢٤٢ رقم ٣٣٢، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٤٩٦، ٤٩٧ رقم ٢٥٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٢٨، ومرآة الجنان ٤/ ١٣، ١٤، والوافي بالوفيات ٨/ ٣٤١ رقم ٣٧٦٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٥٧ و٦١، وطبقات الفقهاء الشافعيين ٢/ ٧٧١ رقم ١، والعسجد المسبوك ٢/ ٣٣٤، ٣٣٥، وتاريخ ابن الفرات ٩/ ورقة ٤٨، والسلوك =

ولما تُوُفّي الملك القاهر[١] سنة أربع عشرة[٢] وستماية أقام صبيَّيْن من ولده هما: ابنا بنت مظفَّر الدين بن زين الدين، واحداً بعد آخر، كما ذكرناه. واستبدّ بمُلْك المَوْصِل وبلادها سبعاً وأربعين سنة، وسعِد سعادةً كثيرة.

ولقد شاهدتُه لما توجّهت إلى العراق صُحبَة القاضي شهاب الدين بن أبي الدم نسيبي[٣]، رحمه الله. ورأيت من تحمُّله وعنايتِه بالرُسُل والواردين عليه ما لا رأيتُه عند ملكٍ من الملوك، وسايرناه يوماً في ميدان الموصل، وعُمُره يومئذٍ ما يزيد على ثمانين سنة، وما يُخَيّل لمن رآه، لِما في وجهه من النضارة وحُسن قامته، إلّا أنه في سنّ الشباب، وطلبنا منه مركباً نسير عليه إلى بغداد، فأنعم لنا بمركب مُسَمَّى في إصطلاحهم[٤] ركوة[٥]، ورتّب فيه ملّاحين، فنزلنا فيها وسِرنا في الماء إلى بغداد، ودوابُّنا تسير في البرّ إلى أنْ وصلنا إلى قرية تسمّى المزْرَفة[٦]، ومنها رحلنا في البرّ إلى غربيّ بغداد، ثم عدَّينا إلى بغداد[٧]. وكان ذلك/ ١٤٠ب/ في سنة إحدى وأربعين وستمائة في خلافة المستعصم، رحمه الله.

= ج١ ق١/ ١٧٢، وعقد الجمان ١٧/ورقة ٣٣٣، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٠٠، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٤٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢٤.

(١) انظر عن (الملك القاهر) في:
الكامل في التاريخ ١٠/ ٣١٣، ومرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٦٠١، والتكملة لوفيات النقلة ٢/ ٤٢٨ رقم ١٥٩٠، وذيل الروضتين ١١٤، وتاريخ الزمان ٢٥٤، وتاريخ مختصر الدول ٢٣١، ومفرّج الكروب ٣/ ٢٦١، ٢٦٢، والأعلاق الخطيرة ج٣ ق١/ ١٨٨ و١٩٢ و١٩٦، وتلخيص مجمع الآداب ٤/ رقم ٤٩٦ ورقم ٢٧٠٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١١٨، والمختصر من الكامل في التاريخ وتكملته ١٠٣، والدر المطلوب ١٩٧، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٢١، والعبر ٥/ ٥٣ و٥٥ و٥٦، ودول الإسلام ٢/ ١١٨، وتاريخ الإسلام (وفيات سنة ٦١٥هـ.) ص٢٦٥، ٢٦٦ رقم ٣٣٣، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٧٧، ٧٨ رقم ٥٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٣٤، ومرآة الجنان ٤/ ٣٠، والبداية والنهاية ١٣/ ٨١، والعسجد المسبوك ٢/ ٢٦٠، ٣٦١، وتاريخ ابن الفرات ٩/ورقة ٩٣، والسلوك ج١ ق١/ ٢٠١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٥، وتاريخ الأزمنة ٢٠٧، وشذرات الذهب ٥/ ٦٢، ٦٣.

(٢) الصحيح سنة خمس عشرة.

(٣) في الأصل: «سبيى».

(٤) في الأصل: «أصلابهم» والتصحيح من (ب) ورقة ٣٨٦ب.

(٥) في الأصل: «دلوره» والتصحيح مما تقدّم من: مفرّج الكروب ٤/ ٣٢٤.
و«ركوة»: زورق صغير من زوارق نهر دجلة استخدمها أهل العراق في العبور من شط إلى آخر.

(٦) المزرفة: قرية كبيرة فوق بغداد على دجلة، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ وإليها ينسب الرمان المزرفي. (معجم البلدان).
ووردت في الأصل: «المرزقة».

(٧) مفرّج الكروب ٥/ ٣٢٤.

وكان بدر الدين يُداري الملك الأشرف بن الملك العادل، والخليفة يُهاديهم. ثم صار بعدُ يداري التتر ويُهاديهم، ويُهادي نساءهم، فتمّ له بذلك ما أراد، إلى أن تُوُفّي سعيداً في دنياه، لم تطرُقْه آفة، ولم يختلّ لمُلْكه نظام.

ذكر قصد التتر ميّافارقين

ثم قصدت التَتَرُ مدينة ميّافارقين، وهي للملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفّر شهاب الدين غازي بن الملك العادل، وكان مَلَكها بعد وفاة أبيه سنة اثنتين وأربعين وستمائة[١]، فنازلوها وحصروها، وكان المتولّي لحصرها منهم أشموط بن هولاكو[٢].

وكان الملك الكامل قد قصد السلطانَ الملكَ الناصر، رحمه الله، مستعيناً به ومستنجداً به على التتر، فوعده بذلك.

وعاد الملك الكامل إلى ميّافارقين، ولم يكن للسلطان الملك الناصر إنجادُه، لِما رأى من تخاذل أصحابه، وضعْف قلوبهم عن مقابلة التتر لكثرتهم، وأنّه لم يتّفق لهم إلى تلك الغاية من انتصف منهم، وأنهم قد ملكوا العراق، وأزالوا مُلْك بني العبّاس الذي دام خمس ماية وأربعاً وعشرين سنة، بعدما أزالوا مُلْك العجم، وسلطان الروم، وصاحب الألَمُوت.

وأقام الملك الكامل صاحب ميّافارقين محصوراً إلى سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة، وجاهد في الله جهاداً عظيماً، وقاتل معه أهلُ ميّافارقين التتر قتالاً لم يقاتلهم أحد مثله، وأفنوا في قتالهم التتر من التتر خلقاً كثيراً، واشتدَّ[٣] عندهم الغلاء والجوع، وصبروا صبراً كثيراً، إلى أن جرى ما سنذكره، إن شاء الله تعالى.

واحتاج السلطان الملك الناصر، رحمه الله، إلى مراسلة التتر ومُهاداتهم، ووردت منهم إليه رُسُل، ووصل إليهم منه حِمْلٌ كثير من المال.

وكان، كما/ ١٤١أ/ قدّمنا ذِكره، أرسل إليهم الملك العزيز محمداً، ومعه هديّة كبيرة، وأرسل معه زين الدين المعروف بالحافظي، وهو من أهل قريةٍ من قرى غوطة

---

(١) مفرّج الكروب ٥/ ٣٤٤.

(٢) خبر ميّافارقين في: الحوادث الجامعة ١٦٤، وأخبار الأيوبيين ١٦٧، وتاريخ الزمان ٣١٤، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٦، ١٩٧، وذيل مرآة الزمان ١/ ٩١، والأعلاق الخطيرة ج٣ ق٢/ ٤٨٩، ٤٩٠ و٥٠٠ ـ ٥٠٤، وتاريخ مختصر الدول ٢٧٧، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٦هـ.) ص٤٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٩، ونهاية الأرب ٢٧/ ٣٨٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٥، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٩، ٣٨٠، وزبدة الفكرة ٤٠، ٤١.

(٣) في الأصل: و«اشتد».

دمشق، تُعرف بعَقْرَبا، فأكرموا الملك العزيز، ورجع إلى أبيه، ومعه زين الدين الحافظي.

[الوباء بالشام]

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ستٍّ وخمسين وستماية ـ اشتدّ الوباء جدّاً بالشام. خصوصاً بدمشق، حتّى أنه لم يكد يوجد مغسّل للموتى، وفني من أهل البلد خلقٌ لا يُحصَى، وعزّت الفراريج فلم توجد، وإنْ وُجد منها شيء في غاية الصِغَر، بيع بدرهمين وأكثر.

وأمّا في حلب فإنه بيع فيها الفرّوج بعشرة دراهم. وبيعت الحزّة الواحدة في دمشق من البِطّيخ الأخضر بدرهم، وبلغ الرطل (من التمر)[(١)] الهنديّ بستّين درهماً[(٢)].

[وفاة عون الدين بن العجمي]

وتُوُفّي في هذه السنة، من الفُضَلاء والأكابر، خلقٌ كثير. فممّن تُوُفّي من الأكابر عون الدين بن العجميّ[(٣)].

وكان من أكابر الدولة الناصرية وأعيانها.

وكان، رحمه اللّه، كامل الفضيلة، جميل الصورة.

وكان أبوه بهاء الدين من أكبر الأعيان بحلب (والمتموّلين بها، وكان متولّي الأوقاف بحلب)[(٤)]، وكان من الأجواد المشهورين.

وقد ذكره الشيخ عزّ الدين بن الأثير في تاريخه المعروف بـ«الكامل»[(٥)]، وأثنى عليه فيه ثناءً كثيراً.

---

(١) عن هامش المخطوط.

(٢) خبر الوباء في: ذيل مرآة الزمان ١/ ٩١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٦هـ.) ص٤٢، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٠٩ و٤١٠.

(٣) هو: سليمان بن عبد المجيد بن أبي الحسن بن أبي غالب عبد اللّه بن الحسن بن عبد الرحمن. انظر عنه في:
ذيل الروضتين ١٩٩، وذيل مرآة الزمان ١/ ٢٤٠ ـ ٢٤٣، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٤٩، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ٢٥٥، ٢٥٦ رقم ٢٦٤، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧٦، ١٧٧، والوافي بالوفيات ١٥/ ٣٩٩ رقم ٥٤٩، وفوات الوفيات ٢/ ٦٦ رقم ١٧٥، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٣، والمنهل الصافي ٦/ ٣٦، ٣٧ رقم ١٠٨٩، والدليل الشافي ١/ ٣١٨، رقم ١٠٨٦، ونزهة الأنام ٢٤٧، ٢٤٨، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٥٧، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤/ ٤١٥ رقم ٢٢٩.

(٤) ما بين القوسين كتب على هامش المخطوط.

(٥) الكامل في التاريخ ـ بتحقيقنا ـ ج١٠/ ٤٥٣ وترجمته آخر ما في الكتاب، في وفيات سنة =

وكان عون الدين، رحمه اللّه، يقول الشِعر الجيّد. ومن شِعره:

لهيب الخدّ حين بدا لعَيني هفا قلبي عليه كالفراشِ
فأحرقه، فصار عليه خالاً وها أثَرُ الدُّخان على الحواشي

[وفاة نظام الدين بن المولى]

وفيها تُوفّي نظام الدين بن المولى[1] أحد كُتّاب الإنشاء للسلطان الملك الناصر، رحمه اللّه.

[وفاة زكيّ الدين عبد العظيم]

وتُوفّي بمصر الشيخ زكيّ الدين عبد العظيم[2] شيخ دار الحديث التي بناها السلطان الملك الكامل، رحمه اللّه، بين القصرين.

= ٦٢٨هـ. وهو أيضاً في: البداية والنهاية ١٣/ ١٣٠، والمختصر من الكامل في التاريخ وتكملته ـ بتحقيقنا ـ ١٥٦.

(١) هو: محمد بن محمد بن محمد بن عبد المجيد. انظر عنه في:
تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٩٢، ٢٩٣ رقم ٣١٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٠٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٣، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤/ ٤١٦، ٤١٧ رقم ٢٣٣.

(٢) هو: عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد اللّه بن سلامة، أبو محمد المنذري، صاحب كتاب «التكملة لوفيات النقلة». انظر عنه في:
ذيل الروضتين ٢٠١، ووفيات الأعيان (انظر: فهرس الأعلام) ٨/ ٢٢٢، وذيل مرآة الزمان ١/ ٢٤٨ ـ ٢٥٣، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٧، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٢ رقم ٢٢٢، والمعين في طبقات المحدّثين ٢٠٨ رقم ٢١٨٦، ودول الإسلام ٢/ ١٦٠، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٤، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٤، وتذكرة الحفاظ ٤/ ٢٢٠، ٢٢١، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٦٨ ـ ٢٧٠ رقم ٢٨٤، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٩، ١٤٠، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٠٨ ـ ١١٨ وفوات الوفيات ٢/ ٣٦٦، ٣٦٧ رقم ٢٩١، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٢، وطبقات الفقهاء الشافعيين ٢/ ٨٧٥، ٨٧٦ رقم ١١، والوافي بالوفيات ١٩/ ١٤ ـ ١٦ رقم ٢، وذيل التقييد ٢/ ١٣٤، ١٣٥ رقم ١٢٩٧، ونزهة الأنام ٢٤٦، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٤ رقم ٤١٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٠، وطبقات الشافعية للإسنوي رقم ٨٤٦، وعقد الجمان (١) ١٨٨، ١٨٩، والمغرب في حلى المغرب ٣٦٤، ونهاية الأرب ٢٩/ ٤٦٦، ٤٦٧، وطبقات الحفاظ ٥٠٤، وتاريخ الخلفاء ٤٧٧، وحسن المحاضرة ١/ ٢٠١، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٠٠، وكشف الظنون ١٢٨ و٤٠٠ و٤٩٠ و٥٥٨ و٥٨٩ و١٠٠٤ و١١٧٢ و١٧٣٥ و١٣٣٧ و٢٠٢٠، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٧، ٢٧٨، وهدية العارفين ١/ ٥٨٦، وإيضاح المكنون ١/ ٢٨٠ و٦١٤ و٢/ ٣٧٣، وفهرس الفهارس للكتاني ٢/ ٤، وطبقات الشافعية لابن هداية اللّه ٢٢٥، وديوان الإسلام ٤/ ١٩٩، ٢٠٠ رقم ١٩٣٠، وفهرس المخطوطات المصورة للطفي عبد البديع ٢/ ٩٧، وفهرس المخطوطات المصورة لفؤاد سيّد ٢/ ٤، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ =

وكان رحمه اللَّه من أئمّة الحديث الحفّاظ المشهورين.

[وفاة أبي عبد اللَّه الفاسي]

وتُوفّي بحلب الشيخ أبو عبد اللَّه الفاسي[(١)]،

وكان عالماً بالعربية والقراءآت/ ١٤١ب/ وشرح «القصيدة الشاطبية» شرحاً حسناً، وله في تفسير القرآن العظيم اليد الطولى.

[وفاة سِبط ابن الجوزي]

وتُوفّي بدمشق الشيخ شمس الدين، يوسف، سِبط الشيخ جمال الدين بن الجوزيّ[(٢)]، وكان من الوعّاظ الفُضَلاء، وصنّف تاريخاً كبيراً سمّاه «مِرآة

= لبنان الإسلامي ـ تأليفنا ـ ق٢ ج٢/ ٢١٩، ٢٢٠ رقم ٥٥٦، ومقدمة كتاب التكملة لوفيات النقلة.

(١) في النسختين (أ) و(ب): «أبو عبد اللَّه القاسم»، وهو غلط، والصواب ما أثبتناه، وهو: محمد بن حسن بن محمد بن يوسف، أبو عبد اللَّه الفاسي، المغربي، المقرئ، نزيل حلب. انظر عنه في:
ذيل الروضتين ١٩٩، والعبر ٥/ ٢٣٥، ودول الإسلام ٢/ ١٢١، ١٢٢، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٣٨، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٦٦٨، ٦٦٩ رقم ٦٣٦، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٦١ رقم ٢٦٠، والمعين في طبقات المحدّثين ٢٠٩ رقم ٢١٨٩، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٤، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ٢٨٦ ـ ٢٨٨ رقم ٣١٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠١، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٧، والجواهر المضية ٢/ ٤٥، ٤٦ رقم ١٤٣، والوافي بالوفيات ٢/ ٣٥٤ رقم ٨٢٠، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٧، وغاية النهاية ٢/ ١٢٢، ١٢٣، رقم ٢٩٤٢، ونهاية الغاية، ورقة ٢٣٠، والمقفى الكبير ٥/ ٥٦٥، ٥٦٦ رقم ٢٠٩٧، وعقد الجمان (١) ١٩٤، ١٩٥، والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٩، وتاريخ الخلفاء ٤٧٧، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٠٢، وكشف الظنون ٦٤٧، وشذرات الذهب ٥/ ٢٨٣، ٢٨٤، وهدية العارفين ٢/ ١٢٦، وديوان الإسلام ٣/ ٤٢٠ رقم ١٦١٨، والأعلام ٦/ ٨٦، ومعجم المؤلفين ٩/ ٢٢٠، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤/ ٤١٥ رقم ٢٣٠.

(٢) هو: يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد اللَّه. انظر عنه في:
صلة التكملة لوفيات النقلة، للحسيني، ورقة ١١٨ب، والحوادث الجامعة ٣٢٨، وعقود الجمان في شعراء أهل الزمان، لابن الشعار، ج١٠/ ورقة ٢٢٩ب، وفيه: «عبيد اللَّه بن حمادي»، ومرآة الزمان (مخطوطة فيض اللَّه أفندي، رقم ١٥٢٤) ج٩/ ورقة ٦أ و٢٤ب و٣٦أ و٤٥ب و٤٨أ و٥٨أ و٨٧ب، ووفيات الأعيان ٣٠/ ١٤٢ و٦/ ٢٤٧، ٢٤٨، ومستفاد الرحلة والاغتراب ٣٨ ـ ٤٣، وتلخيص مجمع الآداب ٤٣٥، وتاريخ علماء بغداد للسلامي ٢٣٦، ولسان الميزان ٦/ ٣٢٨، وتاج التراجم لابن قطلوبُغا ٨٣، ومفتاح السعادة لطاش كبري زاده ١/ ٢٥٥، والأعلام للزركلي ٩/ ٣٢٤، وتكملة تاريخ الأدب العربي ١/ ٥٨٩، وذيل مرآة الزمان ١/ ٣٣٢ ـ ٣٤٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٤، والعبر =

الزمان»[١]. وكان لوعظه قبولٌ عظيم عند الملوك والخاصّة والعامّة.

[وفاة صدر الدين البكري]

وتُوفّي أيضاً الحافظ صدر الدين، [الحسن بن][٢] محمد بن البكريّ[٣].

= ٥/ ٢٧٧، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٤ رقم ٢٦٦، والمعين في طبقات المحدّثين ٢٠٨ رقم ٢١٨١، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٤٤، ودول الإسلام ٢/ ١٦١، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ٣٠٦ ـ ٣٠٨ رقم ٣٤٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٠، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٧، ١٤٨، وذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٢٥٨ ـ ٢٦١ رقم ٣٦٥، والعسجد المسبوك ٢/ ٦٣٥، ودرّة الأسلاك ١/ ورقة ١٧، وفوات الوفيات ١/ ٨٦، ٨٧ و٢/ ٢٨٦ و٤/ ١٧١ و٣٥١ و٣٥٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٢، ٤١٣، والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٨، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٩، والدارس ٢/ ٢٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢٨٦، ٢٨٧، والمنهج الأحمد ٣٨٥، ومختصر الذيل على طبقات الحنابلة ٧٥، والمقصد الأرشد رقم ١٢٦٨، والدرّ المنضد ١/ ٣٩٦، ٣٩٧ رقم ١٠٨١، ومختصر طبقات الحنابلة لابن شطي ٥٧، وتاريخ ابن الفرات ٥/ ورقة ١٧٢أ، وشفاء القلوب ١٧٥، ١٧٦، وطبقات المفسّرين للداوودي ٢/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢ رقم ٦٩٩، وعقد الجمان (١) ١٨٤، ونزهة الأنام ٢٥١، ٢٥٢، وكشف الظنون ٢١٣، وهدية العارفين ٢/ ٥٥٥، وتاريخ الأدب العربي ٩٢٠، وتاريخ علماء المستنصرية ٤٢١، وخطط الشام ٢٣٣، ٢٣٤، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٣٠٧، ٣٠٨، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٣/ ١٤٣، ١٤٤ (وفيه وفاته ٦٥٤هـ.) وهو غلط، ومثله في: مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا ٤٦٠، ٤٦١ رقم ٨٦١، وانظر كتابه: الإيضاح لقوانين الإصلاح، في الجدل والمناظرة، تحقيق: محمد بن محمد السيد الدغيم ـ طبعة مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٥.

(١) اسمه بالكامل: «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» وقد نشر جزءاً منه جيمس ريشارد جيويت، طبعة جامعة شيكاغو ١٩٠٧، وصدر منه قسمان ١ و٢ من الجزء الثامن بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٣٧٠هـ./ ١٩٥١م. وحقّق علي سويلم جزءاً منه، مطبوعات كلية اللغة والتاريخ والجغرافيا، بأنقرة ١٩٦٨، وحقق د. إحسان عباس السِفر الأول منه، دار الشروق، بيروت ١٤٠٥هـ./ ١٩٨٥م.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة على الأصل للتصويب.

(٣) انظر عن (صدر الدين الحسن بن محمد البكري) في:

صلة التكملة لوفيات النقلة للحسيني ٢/ ورقة ٤٤، وذيل مرآة الزمان ١/ ١٢٤، ١٢٥، والمعين في طبقات المحدّثين ٢٠٨ رقم ٢١٨٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٢٦ ـ ٣٢٨ رقم ٢٢٦، ودول الإسلام ٢/ ١٦٠، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٤، والعبر ٥/ ٢٢٧، ٢٢٨، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٤٤، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ٢٣٤ ـ ٢٣٦ رقم ٢٥٥، وميزان الاعتدال ١/ ٥٢٢ رقم ١٩٤٧، والمغني في الضعفاء ١/ ١٦٦ رقم ١٤٧٢، ومرآة الجنان ٤/ ١٣٩، والوافي بالوفيات ١٢/ ٢٥١، ٢٥٢ رقم ٢٢٨، وعيون التواريخ ٢/ ٦٧، وذيل التقييد ١/ ٥١٠، ٥١١ رقم ٩٩٨، ولسان الميزان (طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت) ٢/ ٤٧١، ٤٧٢ رقم ٢٦٠٥، والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٩، والمنهل الصافي ٥/ ١٣٢، ١٣٣، رقم ٩٢٨، والدليل الشافي ١/ ٢٦٩، وحسن المحاضرة ١/ ١٤٩ رقم=

وكان يُنْسب إل محمد بن أبي بكر الصدّيق.

[وفاة ابن اللهيب]

وتُوفّي بدمشق أيضاً أبو القاسم، المعروف بابن اللهيب[١].

وكان من أصحاب السلطان، الملك الناصر، رحمه اللَّه.

وفيه يقول الملك الناصر:

ابن اللهيب أتانا بكل أمرٍ عجيب
وليس ذا بغريبٍ شراره من لهيب[٢]

وكان ـ على ما ذُكر ـ ظالماً، فقال فيه الكمال علي بن الظهير:

اليوم زار ابنُ اللُّهَيْب أباه فرأى الذي قد قدّمته يداهُ
لم ينتفعْ بالظُّلم لكنْ ضَرّه إذا كان حسْبَ الظالمين اللَّهُ[٣]

[وفاة ابن عربي]

وتُوفّي أيضاً، في هذه السنة، الشيخ سعد الدين بن الشيخ محيي الدين بن عربيّ[٤].

وكان فاضلاً، حَسَن الشِعر،

ولْنذكُر شيئاً من ذلك، فمن شِعره قولُه في غلامٍ وُلّي القضاء:

لم أنس حين غَدَوتَ لابس حلّةٍ أضحى عليها من جمالك رونقُ

= ٧٤، وطبقات الحفاظ ٥٠٦ رقم ١١٣، (١/٣٥٦ رقم ٧٤)، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٤، وديوان الإسلام ١/ ٢٨٩، ٢٩٠ رقم ٤٤٨، وهدية العارفين ١/ ٢٨٢، ومعجم المؤلفين ٣/ ٢٨٩، ومعجم طبقات الحفاظ والمفسّرين ٧٧ رقم ١١١٣.

(١) عزفه أبو شامة بمتولّي الحشرية بدمشق. (ذيل الروضتين ١٩٩).

(٢) البيتان مما يُستدرك على كتاب: الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية.

(٣) البيتان في: ذيل الروضتين ١٩٩.

(٤) هو: محمد بن محمد بن علي بن العربي، الأديب، الشاعر، انظر عنه في: ذيل الروضتين ٢٠٠، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ٢٩٣، ٢٩٤ رقم ٣١٨، والوافي بالوفيات ١/ ١٨٦ ـ ١٨٨ رقم ١١٥، وفوات الوفيات ٣/ ٢٦٧ ـ ٢٧١، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٩٤ ـ ٢٠١، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٧، والمقفى الكبير ٧/ ١٢١ رقم ٣٢١٠، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٣، ونفح الطيب ٢/ ٢٦٩، وتاريخ الخلفاء ٤٧٧ وفيه: «سعد الدين بن العربي الشاعر»، ونزهة الأنام ٢٥٠، ٢٥١، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٠٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٨٣، وعقود الجمان، للزركشي ٢٥٨.

بـعـمـامـةٍ عـمّـت صـوى[١] فـكـأنّـهـا ... فَـلَـكٌ ووجـهُـك بـدرُه الـمـتـألّـق
إنْ كـنـت حـيـن أراك أخـضـع هـيـبـةً ... وأغـضّ طـرْفـي عـن سـواك وأطـرقُ
فـالـقـلـبُ منّـي لـيـس يـغـفـل دائـمـاً ... بـل كـلّ جـارحـةٍ إلـيـك تـحـدّقُ

ومن شِعره:

تـالـلّـهِ مـا لـمـعـذّبـي فـي حُـسـنـه ... شـبـهٌ فـأيُّ حَـشـاً عـلـيـه لـم تـهـم
لامُ الـعِـذارِ ومـيـمُ مَـبْـسَـمِـهِ عـلـى ... مـا ادّعـى بـرهـان قـلـب لـم يـرِمْ

ومن شِعره في غلامٍ رآه في المكان المسمَّى بالزيادة من دمشق:

يـا خـلـيـلـيَّ فـي الـزيـادة ظـبْـيٌ ... سَـلَـبَـتْ مُـقـلَـتَـاه جَـفْـنـي رُقـادَهْ
وكـيـف أرجـو الـسُّـلُـوّ عـنـه وطـرْفـي ... نـاظـرٌ حُـسـنَ وجـهـه فـي الـزيـادهْ[٢]

ومن شِعره في غلامٍ يقلّم أظفاره:

نـاديـت مـن أهـواه وهـو مـقـلّـمٌ ... أظـفـارَهُ: يـا نُـزهَـة الـمـتـأمّـل
أبعدتَ ظُفْرك وهو بعضُك فالّذي ... يـهـواك أجـدرُ بـالـبـعـاد الأطـول
فأجابني: أتظُنني قلّمتها عن حاجة ... لا بـل لـمـعـنّـى عـنَّ لـي فـتـأمـل
لأُريك يـامَـن بـالـهـلال يـقـيـسـنـي ... إنّ الـهـلال قُـلامـةٌ مـن أنـمُـلـي[٣]

ومن شِعره في غلامٍ حريريّ:

صَـبَـوْتُ إلـى حـريـريّ غـريـرِ ... تـكـرّر نـحـو مـنـزلـه مـسـيـري
أقـول لـه: ألا تـرثـي لـصـبٍّ ... عـديـمٍ لـلـمـسـاعـد والـنـصـيـرِ
أقـام بـبـابـكـم خـمـسـيـن شـهـراً ... فـقـال: كـذا «مـقـامـات الـحـريـري»

ومن شِعره في غلامٍ نحْويّ:

لـي حـبـيـبٌ بـالـنَّـحْـو أصبح مُغْرّى ... وهـو مـنّـي بـمـا أعـانـيـه أدرى
قـلـت: مـاذا تـقـول حـيـن يـنـادي ... يـا حـبـيـبـي الـمـضـافُ نـحـوك جـهـرا
قـال لـي: يـا غـلام أو يـا غـلامـي ... قـلـت: لـبّـيـك ثـم لـبّـيـك عـشـرا

ومن شعره في غلامٍ قاضٍ:

ورُبّ قـاضٍ لـنـا مـلـيـحٌ ... يُـعـربُ عـن مـنـطـقٍ لـذيـذِ

---

(١) صوى: العلامة التي تنير الطريق.
(٢) البيتان في: الوافي بالوفيات ١/ ٨٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٩٥، وفوات الوفيات ٣/ ٢٦٨.
(٣) في (أ): «اخملي»، والمثبت من (ب) ورقة ١٣٨أ.

إذا رمانا بسهمِ لحظٍ ... قلنا له: دايمُ النفوذ[١]

ومن شِعره، حضر في سماع، وامتنع من الرقْص:

وسماعٌ شهدتُهُ مع حبيبٍ ... نابَ لي فيه وجههُ عن ضياءِ
رقصَ القومُ، والّذي همْتُ فيه ... واقفٌ مثل صَعْدَةٍ سمراءِ
/ ١٤٢ب/ يا حبيبي ألا تدور؟ فناداني: ... وهل حَرَّكَ الجميعَ سوائي

ومن شِعره في غلام شاعر:

وبمُهجتي رشاءٌ أديبٌ شاعر ... ناديتُه: يا سيّد الأدباء
أنت الذي ألفاظُهُ قد جانَسَتْ ... في النظْم مَبْسَمَهُ بغير مِراء
فأجابني: ما ذاك منّي مُنكراً ... إنَّ التجانسَ شيمةُ الشعراء

ومن شِعره في غلام جوالقيّ:

وبنفسي جوالقيٌّ نقيّ الخدّ ... في حُسنه تَحار العقول
أبداً عارضاه لا ينبُتان ... فاسلو[٢] وذا عذاب يطول

ومن شِعره في غلام صوفيّ:

علقت صوفيّاً كبدر الدُّجى ... لكنّه في وصلي الزاهدُ[٣]
يشهدُ وجْدي بغرامي له ... فديت صوفيّاً له شاهدُ[٤]

ومن شعره في غلام مُزَمزم:

وشادنٍ ما شدا أو لاح منظرُه ... إلّا اغتدى نزهةً للسمع والبصر
مُزمزم ترقّ الكفّين ناعمها ... أغْنَتْه كفّاه عن ابريسم[٥] الوتر

ومن شِعره في غلام اسمُه سليمان:

أسلمني حبّ سُليمانكم ... إلى هوًى أيْسَرُهُ القتلُ
لما بدا جُند ملاحاته[٦] ... قال لنا ما قالت النملُ
قوموا ادخلُوا مساكِنَكم ... قبل ما تحطمنّكم[٧] أعينه النُجل

---

(١) البيتان في: الوافي الوفيات ١/ ١٨٧، وفوات الوفيات ٣/ ٢٦٨.
(٢) في النسختين: «لا ينبت فاسلو».
(٣) في المصادر: في «صلتي زاهد».
(٤) البيتان في: نزهة الأنام ٢٥١، ونفح الطيب ٢/ ٢٦٩.
(٥) في (ب) ورقة ٣٨٩أ «عن ناعم».
(٦) في (ب) ورقة ٣٨٩أ «ملاماته».
(٧) في (ب) ورقة ٣٨٩أ «قبل لما يحطمكم».

ومن شِعره في غلامٍ يهوديّ:

وغـزال مـن الـيـهـود أتـانـي زائـراً[١] مـن كـنـيـسِـهِ أو كـنـاسـه
بِتّ أجـنـي الـشـقـيـقَ مـن وجـنـتـيـه وأشـمّ الـعـنـبـر[٢] مـن أنـفـاسـه
واعتنقنا إذ لم نخف من رقيبٍ وأمِـنّـا الـوُشـاة مـن حُـرّاسـه
من رآني يـظـنّـني لـنـحـولـي واصـفـراري عـلامـةً فـوق رأسـه

[وفاة ابن قَزِل المعروف بالمشدّ]

/ ١٤٣أ/ وممّن تُوفّي في الدولة الناصرية، سيف الدين، علي بن سابق الدين عمر بن قَزِل[٣]، المعروف بالمُشدّ.

وكانت وفاته إمّا في سنة خمسٍ وخمسين، أو في أوائل هذه السنة، أعني سنة ستٍّ وخمسين وستماية.

وكان متقدّماً في الدولة النّاصريّة. وهو قريب الأمير جمال الدين بن يغمور، وابن أخي الأمير فخر الدين عثمان، أستاذ دار الملك الكامل، رحمه اللَّه. وكان متميّزاً.

وله شِعر حَسَن، فمن ذلك قصيدة له مدح بها السلطان الملك الناصر، رحمه اللَّه، مطلعها:

بـاكِـرْ[٤] كـؤوسَ الـمُـدام واشـربْ واسـتـجْـل وجـهَ الـحـبـيـب واطْـربْ
ولا تَـخَـفْ، لـلـهـمـوم داءً فـهـي دواءٌ لـه مـجـرَّبْ
مـن يـد شـافٍ لـه رُضـابٌ كـالـشـهـد، لا بـلْ جَـنـاهُ أطـيـبْ

---

(١) في (أ): «زيراً».

(٢) في (ب): «العبير».

(٣) انظر عن (ابن قزل) في:
ذيل الروضتين ١٩٨ (في وفيات ٦٥٥هـ.)، وزبدة الفكرة ٤٣، ٤٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٤، ودول الإسلام ٢/ ١٦١، الإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٢، والعبر ٥/ ٢٣٣، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ٢٧٤ ـ ٢٧٦ رقم ٢٩٥، والوافي بالوفيات ٢١/ ٣٥٣ ـ ٣٦٥ رقم ٢٣٣، والبداية والنهاية ١٣/ ١٩٧ (في وفيات سنة ٦٥٥هـ.)، وعقود الجمان للزركشي ٢١٧، وعقد الجمان (١) ١٦١، ١٦٢ (في وفيات سنة ٦٥٥هـ.) و١٩٧ (في وفيات ٦٥٦هـ.)، والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٤، والبدر السافر ٢٠، وحسن المحاضرة ١/ ٣٢٧، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٠٠ (وفيه: علي بن يحيى) وهو غلط، وشذرات الذهب ٥/ ٢٨٠، وإيضاح المكنون ١/ ٤٩١، وهدية العارفين ١/ ٧١٠، ومعجم المؤلفين ٧/ ١٥٩، ونزهة الأنام ٢٤٤ ـ ٢٤٦، وتاريخ آداب اللغة العربية ٣/ ١٨، والأعلام ٤/ ٣١٥.

(٤) في (ب) ورقة ٣٨٩ أ «بادر».

ومنها في المديح:

ملك هو البحر في العطايا ... لكنّ ندى راحتيه أعذب
إذا أتاه غريبُ قوم ... أحسَنَ في حقّه وأغربْ
يا ملكاً أضحت عِداهُ ... على جذوع النخيل تُصلَبْ
بهنّ عامٌ[1] أتى جديداً ... بكل ما يُرجَى ويُطلَبْ
وعِشْ لأمثاله مُرَجّى ... ما لاح عند الصباح كوكبْ

ومن شِعره فيه تهنئة بشهر رجب:

أيا ملكاً قد عظّم اللّه قدْره ... وخوّله ما يرتجي من مطالب
أتى رجبٌ فرداً لمثلك في الورى ... فلا غَرْو أنْ وافى لنا بالرغائب

وكتب إليه الشيخ تاج الدين الصَّرْخَديّ، رحمه اللّه، وكان قد زاره دفعتين بأبياتٍ من جملتها:

فإنْ أشرتَ بتثليث الزيارة ما ... من مذهب العبد يا مولاي تثليث

فأجابه سيف الدين المشدّ يستدعيه، ويستدعي الشيخ صدرَ الدين سليمان الحنفيّ، وكانت ليلة العشر الأول من شهر رمضان المعظّم/ ١٤٣ب/ سنة خمسٍ وخمسين وستمائة:

يا فاضلاً فاق أهلَ الأرض كلَّهم ... وعِلمُهُ في جميع الأرض مبثوثُ
ما حبل ودّي للأحباب مُنصرمٌ ... كلّا، ولا حُسن حِفْظي العهدَ منكوث
زُرْ ما سلمتَ وعزّزْنا بثالثةٍ ... إنّ الموحّد لا يثْنيه تثليث
وجُدْ بذلك بعد العشر مقتبلاً ... عشيّة العشر فالمشتاق محنوث
وإنْ تفضّل صدرُ الدين فهو فتًى ... أفعالُهُ في (الورى)[2] كسْبٌ وموروث
فاعذُرْ، فَدَيتُك مَن أضحَتْ قريحتُهُ ... يعوقها عن بديع النظم تربيث
إنّ القوافي كما تدري ممنّعة ... تاءآتها[3] وبسيط الوزن مبعوثُ

ومن شِعره في امرأةٍ منقّبة:

نقابٌ كالسحاب سحاب صيفٍ ... على شمسٍ لها فيه ابتهاجُ
تشفّ لطافةً عن وجنتيها ... كما شفّت على الرّاح الزُجاج

---

(١) في النسختين: «بهن عاماً».
(٢) على هامش (أ): «الهوى»، والمثبت من (ب) ورقة ٣٨٩ب.
(٣) في (ب): «ما إنها».

ومن مديحه في السلطان الملك الناصر، رحمه اللّه:

أدِرْكـؤوس[١] الـراح عـنـد الـصـبـاحْ فـإنّـمـا الـلـذّةُ فـي الإصـطـبـاحْ
واسـتَـجْـلِـهـا عـذراءَ مـع أهـيَـفٍ تـجـاذبـتْ عِـطْـفَـيـهِ أيـدي الـريـاح
بـدرٌ سـوادُ الـلـيـل مـن شـعـرهِ ومـن مُـحَـيّـاهُ ضـيـاءُ الـصـبـاح
يـنـتـسـب الآسُ إلـى صَـدْغـهِ وثـغـرُه يُـعـزى إلـيـه الأقـاح
كـأنّـمـا الـخـالُ عـلـى خـدّه الـمـورّد إذا فـتّـحَ والـمِـسْـكُ فـاح
فـانـهَـضْ إلـى صـافـيـةٍ لـم تـزلْ يـصـفـو بـهـا العَـيشُ ويـحلُـو الـمزاح
وقُـلْ لـمـن لام عـلـيـهـا اتّـئـدْ لـيس عـلـى طـاردِ هَـمّ مـن جـنـاح[٢]
مـا لـذّ لـي عـيـشٌ سـوى شُـربـهـا ومـدحـي الـنـاصـر ربّ الـسـمـاح
الـمـلـك الـنـاصـر خـيـر الـورى يـوسُـفُ بـحـرِ الـجـود لـيـثُ الـكـفـاح
مـا بـرحَـتْ ألـسُـنُ أسـيـافـهِ تـكـلّـم الأقـرانَ أنْ لا بـراح
وحـديـثـنـا عـنـد سُـمْـر الـقـنـا غـرائـب[٣] وهـي الـعـوالـي الـصـحـاح
/ ١٤٤أ/ لا زال مـسـروراً بـمـا يـشـتـهـي مـؤيّـد الـعـزْم بـبُـشـرى الـنـجـاح
مـا هـتـفـت[٤] ورْقـاءُ تـحـت الـدُجـى وغـرّد الـقـمْـريُّ وهـنّـا ونـاح

وله في الفانوس، وهو معنًى بديع:

وكـأنّـمـا الـفـانـوسُ فـي غـسَـق الـدُّجـى دَنِـفٌ[٥] بَـرَاهُ شـوقُـهُ[٦] وسُـهـادُه
حـنّـت أضـالـعـه[٧]، ورقّ أديـمُـه، وجـرت مـدامـعُـهُ، وذاب فـؤاده[٨]

ذِكر ما تجدّد للبحرية بعد كسرتهم بمصر

ولما رجعت البحرية من الشام مفلولين، ورجع الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل إلى الكَرَك، أخذت البحريةُ في العَيْث والفساد في الشام، فسيّر إليهم السلطان الملك الناصر جيشاً، وقدّم عليهم الأمير مجير الدين بن أبي زكري،

---

(١) في الأصل: «كؤس».
(٢) في (ب) ورقة ٣٩٠أ: «طارد هَمّ من جناح».
(٣) في النسختين: «غرائبا».
(٤) في (ب) ورقة ٣٩٠أ «ما وتمت».
(٥) في تاريخ الإسلام: «صب».
(٦) في تاريخ الإسلام: «سقمه».
(٧) في (أ): «أظالعه» والمثبت من (ب).
(٨) البيتان في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٦هـ.) ص٢٧٦.

والأمير نور الدين علي بن شجاع الدين بن كيلغ[١]، والتقوا بالبحرية بغزّة، فكسرتهم البحرية، وقبضوا على مجير الدين (ونور الدين)[٢] عليّ، وحملوهما إلى الكرَك فاعتُقِلا بها، فلم يزالا بها معتقلين إلى أن أخرجهما الملك المغيث، وسيّرهما إلى السلطان الملك الناصر لما اصطلح معه، كما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

فقوي عند هذه الكسرة أمرُ البحرية، وامتدّوا في البلاد، فعند ذلك برز السلطان الملك الناصر للقائهم، وضرب دِهليزَه قِبْليّ دمشق. وقربت البحرية من دمشق.

وفي بعض الأيام جاء الأمير ركن الدين البُنْدقداري مقدّم البحرية، وقطع أطناب خيمة السلطان المضروبة، وكثر الإرجاف في دمشق بهم[٣].

---

(١) في (أ): «كيلع»، وفي (ب): «لكع»، والتصحيح من المصادر.

(٢) عن هامش المخطوط.

(٣) خبر البحرية في: أخبار الأيوبيين ١٦٨، وذيل مرآة الزمان ١/ ٩٠، ٩٢، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ١٩٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٦هـ.) ص٣٩، ٤٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٩٨، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٠٤، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٣٥، والروض الزاهر ٥٧، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١١، وعقد الجمان (١) ١٨١، والنجوم الزاهرة ٧/ ٤٥، ٤٦ و٤٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٧٧.

٦٥٧هـ

ودخلت سنة سبع وخمسين وستماية

وفي أوائل هذه السنة رحل السلطان الملك الناصر بالعساكر متَّبعاً آثار البحرية، فاندفعوا بين يديه إلى جهة الكَرَك.

ذكر نزول السلطان الملك الناصر على بركة زيزا

وتوجّه السلطان الملك الناصر إلى جهة الكرَك، ليحاصر الملك، المغيثَ، بسبب حمايته للبحرية، وتقويته لهم، فنزل على بركة زَيْزاء، وهي على مرحلتين من الكرَك، وضرب خيامه بها، وفي صُحبته السلطان الشهيد الملك المنصور صاحب حماه، قدّس اللّه روحه، وطال مقام العسكر بها، وجاء إلى خدمة الملك الناصر رُسُلُ الملك المغيث، والقُطْبية ابنةُ الملك المفضّل قُطْب الدين بن الملك العادل، يضرعون إليه، ويطلبون رضاه عن الملك المغيث، فامتنع من ذلك إلّا بشرط أن يقبض على من عنده من البحرية، فأجاب الملك المغيثُ إلى ذلك. ولما أحسّ الأميرُ رُكن الدين البُندقداري بذلك، هرب من الكرَك في جماعةٍ منهم. وقبض الملك المغيث على من بقي عنده منهم، وسيّرهم على الجمال إلى السلطان الملك الناصر، وهو نازل ببركة زَيْزاء، فحملوا إلى (حلب)[1] واعتقلوا بها[2].

[الشاعر الهزّار يمدح الملك المغيث]

وكان من شعراء الملك الناصر، رحمه اللّه، شاعر من أهل الموصل، يقال له علاء الدين علي، ويُعرف بالهزّار، فتوجّه إلى الكرَك وامتدح الملك المغيث صاحبَ الكرَك، وأستاذ داره الطواشي نجيب، وحصل في حقّه منهما تقصير، فوصل إلى السلطان الملك الناصر وهو ببركة زَيْزاء، فسأله السلطان عن صاحب الكرَكَ وعن نجيب، وعن حواصل المكان.

وهذا حصن الكرَك يُعرف من قديم بحصن الغراب.

فلما سأل السلطانُ الملك الناصر للهزّار المَوْصليّ عن هؤلاء، أنشده ارتجالاً:

---

(١) استدراك من (ب) ورقة ٣٩٠ ب.

(٢) ذيل مرآة الزمان ١/٣٤٢، تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦٥٧هـ.) ص٤٣، تاريخ ابن الوردي ٢/٢٠١، عقد الجمان (١) ١٨٢، تاريخ النوادر ٤/ورقة ٥٩ب.

إنّ حصن الغراب قد ضاق حتّى لم يكن فيه ما يقوت الهزارا
قد وجدت المغيثَ فيه أواماً ورأيت النجيبَ فيه حمارا

(فأعجب السلطانَ ذلك وأعطاه ما كان عليه، وقال بعد انفصاله: هذين البيتين[١]، بهما، ومثلهما تُمهّد الممالك)[٢].

ذكر وصول الأمير ركن الدين البُنْدُقداري إلى السلطان الملك الناصر

ووصل إلى العسكر الأمير رُكن الدين البُنْدقداري، ومعه جماعةٌ من البحرية، فالتقاهم السلطان الملك الناصر، وأحسن إليهم، وعفا عن زلّتهم[٣].

ولما تقرّر الصلح بينه وبين الملك المغيث صاحب الكرَك رجع إلى دمشق، وفي صُحبته الأمير ركن الدين.

وتوجّه السلطان الملك المنصور إلى حماة، فأقام بها إلى أن تجدّد من أمر التتر ما سنذكره، إن شاء اللّه تعالى.

ودخلت سنة سبع وخمسين وستمائة والسلطان الملك الناصر مقيمٌ بدمشق، وسلطان مصر الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المُعِزّ، ومدبّر دولته الأمير سيف الدين قُطُز مملوك والده.

[وفاة القُمّيني]

وفيها تُوُفّي الشيخ يوسف القُمّيني[٤]، رحمه اللّه.

وكان مولّهاً بدار من قمّين[٥]، حمّام نور الدين الشهيد بدمشق. وبقي على ذلك

---

(١) الصواب: «هذان البيتان».

(٢) ما بين القوسين ليس في (ب).

(٣) أخبار الأيوبيين ١٦٩، والدرّة الزكية ٣٨، والروض الزاهر ٦١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٧هـ.) ص٤٣، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢١٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٥، والنجوم الزاهرة ٧/ ٥٣.

(٤) انظر عن (القمّيني) في:
ذيل الروضتين ٢٠٢، ٢٠٣، وذيل مرآة الزمان ١/ ٣٤٨، والعبر ٥/ ٢٤٠، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٠٢، رقم ٢١٠، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٧هـ.) ص٣٢٨ ـ ٣٣٠ رقم ٤٠٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٦، ٢١٧ وفيه: «الأقميني»، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٢١، وعقد الجمان (١) ٢٢٦، ٢٢٧، وشذرات الذهب ٥/ ٢٨٩، ٢٩٠، ونزهة الأنام ٢٥٨، ٢٥٩ وفيه: «الإقميني».

(٥) في الأصل: «بداروم قمين».

مدّة سنين، والناس كلّهم يُحسنون الظّنَّ به، ويحملون إليه ما يأكل، فيأكل بعد الجهد شيئاً قليلاً، ويترنّح في مشيته. وكان من غرائب العالم.

ولما تُوُفّي لم تُر لأحدٍ جنازةٌ مثل جنازته، لحُسن اعتقادِ الناس فيه.

[وفاة ابن الغرس]

وتُوُفّي أيضاً سيفُ الدّين بن الغَرْس، أحد حُجّاب السلطان الملك الناصر.

وكان والده والي دمشق في أيام الملك المعظّم عيسى بن الملك العادل.

وكان مهذّب السيرة، مُحباً للفُضلاء.

[وفاة لؤلؤ صاحب الموصل]

وفيها تُوفّي الملك الرحيم، بدر الدين، لؤلؤ[1]، صاحب الموصل.

وكان استبداده بالمُلك من سنة أربع عشرة وستمائة.

فكانت مدّة ملكه للموصل نحو ثلاثٍ وأربعين سنة.

وجاوز عُمُره ثمانين سنة.

وملك الموصل بعده ولدُه/ ١٤٥ب/ الملكُ الصالح.

وسنذكر ما انتهى أمره إليه.

ومَلَك سنجارَ ولدُه علاء الدين. وكان والده أرسله إلى السلطان الملك الناصر نجدةً له، فبقي عنده إلى أن رحل الملك الناصر مندفعاً بين يدي التتر، ووصل إلى قطيا، ودخل علاء الدين مع العسكر الذين كانوا مع الملك الناصر إلى القاهرة. وهرب الملك الناصر نحو أطراف الشام، على ما سنذكره.

[تعاظم الأراجيف من التتر]

وعظُمت الأراجيف في هذه السنة بتحرُّك التتر نحو الشام وقطْعهم الفُرات، والغارات على بلد حلب. وخرج معظم أهل الشام جافلين هاربين منهم[2].

ذكر استيلاء الملك المظفّر سيف الدين قُطُز على الديار المصرية

وفي أواخر هذه السنة، أعني سنةَ سبْعٍ وخمسين وستمائة، قبض سيف الدين

---

(١) تقدّم حشد مصادر ترجمة بدر الدين لؤلؤ، في حوادث السنة السابقة ٦٥٦هـ، عقب خبر رحيل التتر عن بغداد.

(٢) ذيل الروضتين ٢٠٣، الروض الزاهر ٦١، الدرّة الزكية ٤٤، العبر ٥/ ٢٣٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٧هـ.) ص٤٤، عيون التواريخ ٢٠/ ٢١٤.

قُطُز على ولد أستاذه الملك المنصور، نور الدين علي وخلَعَه من السلطنة واعتقَله، واعتقل والدته، وحلّف الناسَ لنفسه بالسلطنة.

وكان قد وصل إلى مصر قُبيل ذلك الصاحبُ كمالُ الدين عمر بن أبي جرادة، المعروف بابن العديم، رسولاً من السلطان الملك الناصر، يطلب النجدة على التتر، فأنزل بالكبْش، وهو الجوسَق[١] الذي بناه السلطان الملك الصالح، رحمه اللّه، بين القاهرة ومصر، وتقدّم سيف الدين قُطُز يجمع الفقهاء والقضاة والأعيان، لمشاورتهم فيما يعتمد عليه في أمر التتر وأن يؤخذ من أموال الناس ما يُستعان به على جهاد أعداء الدين فحضر الفقهاء والقضاة يومئذٍ في دار السلطنة بقلعة الجبل.

وحضر الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، رحمه اللّه، [و] قاضي القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن قاضي الديار المصرية. وكنت ممّن/ ١٤٦أ/ حضر ذلك اليوم، وجلس الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المُعِزّ في دَسْت السلطنة، وأفاضوا في الحديث.

وكان اعتقاد الجميع على ما يُفتي به[٢] الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام. وكان خلاصة ما قال: إنه إذا طرق العدوّ بلادَ الإسلام، وجب على العالم كلّهم قتالُهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعيّة ما تستعينون به على جهادهم، لكنْ بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من المال، وتبيعوا مالكم من الحوايص[٣] المذهبة، والآلات النفيسة، ويقتصر كلٌّ من الجند على مركوبه وسلاحه، ويتساووا في ذلك هم والعامّة، وأمّا أخْذُ أموال العامّة، مع بقاء ما في أيدي الجُند من الأموال والآلات الفاخرة، فلا. وانقضى المجلس على ذلك.

ثم اتّفق قبْضُ سيف الدين على الملك المنصور بعد أيامٍ، على ما ذكرنا، واستبدّ بأمر المُلك. واحتجّ الصاحب كمال الدين بأنّ ابن أستاذه صَبيّ لا يُحسن تدبيرَ المُلك، وفي مثل هذا الوقت الصَّعْب لا بدّ وأن يقوم بأمر الملك رجل شهمٌ يطيعه الناس، وينتصب للجهاد.

وكان عَلَمُ الدين الغُتْمي، وسيف الدين بهادُر حين جرى هذا الأمر غائبَيْن لرمي

---

(١) الجوسق: لفظ فارسيٍ، معناه العربي: القصير: أطلقه العرب على البروج العالية التي كانوا يرصدون من خلالها حركة الأفلاك. (المعرب للجواليقي ٩٦، معجم المصطلحات ١٣١).

(٢) في الأصل: «على ما يفتي بشى به».

(٣) الحوايص: مفردها: حياصة، وهي حزام كان يتقلّده العسكريون في العصرين الأيوبي والمملوكي، أو نطاق يُشدّ به الوسط، كان يتخذ إمّا من الذهب، أو الفضة المطلية بالذهب (حدائق الياسمين ٨٥، معجم المصطلحات ١٥٣).

البُنْدق[١]، واغتنم سيف الدين غيْبَتَهما. فلما فعل ما ذكرناه قبض عليهما واعتقلهما، وتقدّم إلى القاضي برهان الدين الخضر بن الحسن، أخي القاضي بدر الدين، أن يتوجّه في جواب الرسالة إلى السلطان الملك الناصر، ووُعد بالنّجدة، وإنفاذ العساكر، فسافر القاضي برهان الدين صُحبة كمال الدين إلى الشام. ولما وصل إلى دمشق أدّى الرسالة، ولم يزل بدمشق إلى أن رحل الملك الناصر إلى جهة الديار المصرية[٢].

وجرى ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

ولما تحقّق السلطانُ الملكُ الناصر/١٤٦ب/ حركَةَ التتر رحل إلى بَرْزَة، وهي شماليّ دمشق، فنزل بها بعساكره، واجتمع إليه أممٌ عظيمةٌ من عرب، وعجم، وتُركمان، وأتراك، وخلق كثيرة من المطّوعة على نيّة الجهاد. ورأى، رحمه اللّه، التّخاذل في أصحابه، وعلم أنه إن لاقى التتر لم يثبُتُ العسكرُ لهم، لكثرتهم وقوّتهم، فإنّ هولاكو قدِم إلى الشام في خلقٍ لا يُحصى من المُغل، وغيرهم من الكُرْج، والعجم، ولم يكن من حين خرج التتر على المسلمين سنة ستّ عشرة وستمائة وإلى هذه الغاية يلقاهم عسكر إلّا فلّوه، سوى وقائع كان جلال الدين مَنْكُبَرْتي بن خُوَارزمشاه انتصف من بعضهم فيها، ثم كبسوه على باب آمِد، كما قدّمنا ذِكره، وبدّدوا جمْعَه، وأعقب ذلك هلاكُه، رحمه اللّه، بالقرب من ميّافارقين، فعظُم لذلك الرعب في قلوب المسلمين منهم[٣].

ذكر مولد مولانا وسلطاننا الملك المظفّر تقيّ الدين محمود خلّد اللّه سلطانه

وفي هذه السنة كان مولدُ مولانا السلطان الملك، المظفّر، تقيّ الدين، محمود بن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن محمود بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وأمّه عائشة خاتون بنت السلطان الملك العزيز صاحب حلب، وأمّها فاطمة خاتون بنت السلطان الملك الكامل، رحمه اللّه، وأمّ أبيه غازية خاتون بنت الملك الكامل، وأمّ جدّه ملكة خاتون بنت الملك العادل.

طوبى لأعراقه التي تسبح   طوبى لفرعيه من هنا وهنا

---

(١) البندق: لفظ فارسي معرّب، مركّب من: بندق: وهي كُرات صغيرة من الحجر أو الطين بادئ الأمر، ثم من المعدن فيما بعد.

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٩، وتاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦٥٧هـ.) ص٤٥، ٤٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٢، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٧، والنجوم الزاهرة ٧/ ٧٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٨١.

(٣) تاريخ الزمان ٣١٥، الروض الزاهر ٦١، ٦٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٧هـ.) ص٤٦، البداية والنهاية ١٣/ ٢١٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢١٤، عقد الجمان (١) ٢١٩، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٤، شذرات الذهب ٥/ ٢٨٧، ٢٨٨.

وكانت ولادته السعيدة في أقسام الساعة العاشرة، من ليلة الأحد، خامس عشر المحرّم، وهو الموافق للثاني عشر من كانون الثاني، سنة ألفٍ وخمس مائة وسبعين للإسكندر ذي القرنين بن فيلفُس اليونانيّ، وهو الموافق الأول[١] يوم من فروردين[٢] ماه/ سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة ليزدجرد بن شهريار، آخر ملوك الفُرس، فكان مولده للعيون كلها قُرَّةً، وللقلوب مَسَرَّةً، بعد أن كان قد حصل عند السلطان الملك المنصور، رحمه الله، اليأس من الولد.

فإنّه كانت قد زُفّت إليه الصاحبة عائشة خاتون بنت الملك العزيز، في سنة خمسٍ وأربعين وستمائة، كما قدّمنا ذِكره، وطالت مدّة مقامها عنده، وضاق صدر الصاحبة الكبيرة غازية خاتون بنت الملك الكامل، وتألّمت لذلك الألم العظيم.

وتُوُفّيت، رحمها الله، في سنة خمسٍ وخمسين، وفي قلبها من الأسف على عدم الولد لابنها السلطان الملك المنصور ما فيه.

فاتّفق في أول هذه السنة المباركة ـ أعني سنة سبع وخمسين ـ ولادةُ هذا الملك الذي تجمّلت الدنيا بوجوده، وأشرقت الآفاق بأنوار فضله وجُوده، لا زالت الأفلاك جاريةً بإعزازه وسعوده، حتّى يربّى في المنازل العليّة على آبائه وجدوده. آمين.

ولما بُشّر بمولده الصاحبُ شرف الدين، شيخ الشيوخ، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاريّ، رحمه الله، كتب إلى السلطان الملك المنصور، قدّس الله روحه، يهنّئه بمولده السعيد:

أبشِرْ على رُغم العِدَى والحُسَّدِ ... بأجلّ مولودٍ وأمّ مولدي
بالنعمة الغرّاء، بل بالدّولة الزّهْراء ... بل بالمفسر المتجدّد
قمر نمّتْهُ الشمسُ والأسدُ الذي ... بهر العقولَ بباسه والسؤدد
وافاك بدراً كاملاً في ليلةٍ ... طلعتْ عليك نجومُها بالأسعد
ما بين محمود المظفّر أسفرتْ ... عنه وما بين العزيز محمد
أحنى على جدّيه حين تشاركا ... في خير ملكٍ منهما متولد
فاسلم لنا وله وللإسلام في ... ملكٍ عليه مُضاعفٍ متأبّدِ

/ ١٤٧ب/ وكتب أيضاً إلى الصاحبة، عصمة الدين، عائشة خاتون بنت السلطان الملك العزيز، رحمها الله، يهنّئها به:

يا عِصْمَة الدّين والعلياء والجُود ... لك الهناءُ بعزٍّ غير محدود

---

(١) في الأصل: «الموافق الأول يوم».

(٢) في (ب) ورقة ٣٩٢ب «فوردبن»، والمثبت هو الصحيح، كما في: تاريخ سِنيّ ملوك الأرض والأنبياء ١٦.

يا من غَدَتْ خيرَ أبناءِ الملوكِ لقد ولدتِ ملكَ البرايا خيرَ مولود
ظفرْت بالحمد منّا إذ أتيت به مظفَراً من بني أيوب محمود
فدام في ظلّك الصافي ودُمتِ له ونلت منه وفيه كلَّ مقصود
وإن يكن جاء بعد العيد مولدُه فإنّنا كل يومٍ منه في عيدِ

ذكر منازلة التتر حلب المنازلة[١] الأولى

وفي هذه السنة قدِم الملكُ هولاكو، ملكُ التتر، إلى الشرق، ونازل حرّان ومَلَكَها، واستولى على بلاد الجزيرة، ثم سيّر ولدَه أشموط إلى الشام وأمره بالإغارة عليه، وذلك في ذي الحجة، وأمره بقطْع الفُرات في جمع كثيف من التتر، ووصل إلى نهر الجوز، وتلّ باشر، ووصل الخبر إلى حلب من البِيرة بذلك، ونائب الملك بحلب الملك المعظّم فخر الدين توارن شاه بن السلطان الملك الناصر قد نزل بالعساكر على بَرْزَة، كما تقدّم ذِكره، فجفل الناس بين يدي التتر، فعظُم الخطْبُ، وجفل الناس بين يدي التتر إلى جهة دمشق، واجتمع عند الملك الناصر ببَرْزَة من الأمم من لا يُحصى عددُهم من أكراد، وتُركمان، ومطّوعة، يطلبون جهاد العدوّ، واحترز نوّابُ حلب، وجمعوا أهل الأطراف والحواضر، واجتمعوا كلّهم داخل البلد.

وكانت حلب في غاية الحصانة والقوّة، لأسوارها المحكَمة البناء، وقلعتها العظيمة، ولم يكن في ظن أحدٍ أنها تؤخذ بسرعة، وأنّ البلاد إذا أُخِذت تبقى هي بعدها المدّة الطويلة، ولكنْ إذا أراد اللّه/ ١٤٨أ/ أمراً فلا مَرَدّ له.

ولما كان العشر الأخير من ذي الحجّة قصد التتر حلب، ونزلوا على قريةٍ يقال لها المسلمية[٢]، وامتدّوا إلى جيلان والحارثي، وسيّروا جماعة من عسكرهم، فجاءوا إلى أن أشرفوا على المدينة، فخرج عسكر حلب وخرج معهم عسكر عظيم من العوامّ والسوقية، فأشرفوا على التتر وهم نازلون على هذه الأماكن المذكورة، وقد ركبوا جميعُهم لانتظار المسلمين، ولما رآهم المسلمون وتحقّقوا كثْرَتَهم كرّوا راجعين إلى المدينة. وتقدّم الملك المعظّم أن لا يخرج بعد ذلك أحد من المدينة ولا يظهر فيها.

ولما كان غد هذا اليوم رحلت[٣] التتر من منزلهم، طالبين المدينة. واجتمع عسكر المسلمين بالبواشير[٤] (وميدان الحصا)[٥]، وأخذوا في إجالة الرأي فيما

---

(١) في (أ): «المنزلة»، والمثبت من (ب) ورقة ٣٩٠أ.
(٢) في (ب) ورقة ٣٩٣ب: «سلمية».
(٣) الصواب: «رحل».
(٤) مهملة في الأصل. وفي المختصر لأبي الفداء ٤٩ «وهجموا النواثر»، والمثبت عن: تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦٥٨هـ.) ص٤٩.
(٥) ما بين القوسين ليس في (ب).

يعتمدونه، وأنهم هل يبرزون إلى ظاهر المدينة. فأشار عليهم الملك المعظّم أنهم لا يخرجون إليهم أصلاً لكثرتهم وقوّتهم، وضعف المسلمين عن لقائهم، فلم يوافقه جماعةُ العسكر على ذلك، وأبَوْا إلّا الخروج إلى ظاهر البلد، وخرج معهم العوامُّ والسُّوقة، واجتمعوا كلُّهم بجبل بانقوسا. ووصل جمع التتر إلى أسفل الجبل، وأكمنوا[١] على القرية المعروفة ببابلا[٢]، فنزل جماعة من العسكر إليهم ليقاتلوهم[٣]. فلما رآهم التتر قد نزلوا إليهم، اندفعوا بين أيديهم منهزمين، مكْراً منهم وخداعاً، فتبعوهم مدّة ساعةٍ من النهار، ثم كرّ التتر عليهم، فولّوا[٤] منهزمين من التتر إلى جهة البلد، والتتر متّبعون لهم، فلما حاذوا جبلَ بانقوسا، وعليه بقيّة عسكر المسلمين والعوامّ، فاندفعوا كلّهم منهزمين طالبين البلد، والتترُ في آثارهم، فقتلوا من المسلمين جمعاً كثيراً من الجُند والعوام[٥].

[استشهاد الأمير زريق العزيزي]

/ ١٤٨ب/ وممّن استشهد في ذلك اليوم الأمير علم الدين، زُرَيق العزيزيّ، رحمه الله.

وكان من أعيان الأمراء العزيزية.

[تسلّم التتر عزاز]

ونازل التتر المدينة ذلك اليوم إلى آخره، ثم رحلوا طالبين عزاز[٦]، فتسلّموها بالأمان.

---

(١) في الأصل: «اكموا»، والتصحيح من (ب) ورقة ٣٩٣ب.

(٢) هكذا في الأصل، وفي (ب): «باب الله».

(٣) في الأصل: «ليقالوهم».

(٤) في الأصل: «فولو».

(٥) خبر منازلة حلب في: أخبار الأيوبيين ١٧١، وتاريخ مختصر الدول ٢٧٩، ٢٨٠، والأعلاق الخطيرة ج٣ ق٣/ ٥٦١، والدرة الزكية ٤٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩٩، ٢٠٠، وتاريخ الزمان ٣١٥، ٣١٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٧هـ.) ص٤٦، ٤٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٢، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٢٥، ومآثر الإنافة ٢/ ١٠٣، ١٠٤، والتحفة الملوكية ٤٣، والجوهر الثمين ٢/ ٦٠، ونزهة الأنام ٢٥٥ ـ ٢٥٧، والسلوك ج١ ق٢/ ٤١٩، وعقد الجمان (١) ٢١٨، والنجوم الزاهرة ٧/ ٦٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٨١، ٣٨٢، وتاريخ الأزمنة ٢٣٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢٨٧، ٢٨٨.

(٦) عزاز = اعزاز: بلدة إلى الشمال من حلب.

٦٥٨هـ

ودخلت سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة

[نزول السلطان الناصر على بَرْزَة]

والسلطان الملك الناصر، رحمه اللّه، نازل بالعساكر والجموع على بَرْزَة، وعنده الأمير ركن الدين بيبرس البُنْدُقداري، وبعض البحرية، والناصرية، والعزيزية، والآراء مختلفة، والقلوب غير متّفقة، لِما يريد اللّه تعالى من ضرر المسلمين، ولو قدّر اللّه سبحانه لتلك الجموع أن يقصدوا العدوّ لما قدر العدوّ على حلب. ولكن إذا أراد اللّه أمراً هيّأ أسبابه.

(ذكر مفارقة ركن الدين البُنْدقداري والناصرية الملك الناصر رحمه اللّه)[١]

واتّفق في أول هذه السنة، أنّه نُقل إلى السلطان الملك الناصر أنّ جماعة من الناصرية قد عزموا على اغتياله، فهرب ليلاً من دِهْليزه في جماعةٍ من أصحابه، منهم الصاحب علاء الدين علي بن نصر اللّه، وكان من أخصّ أصحابه، إلى قلعة دمشق فدخلها، وبلغ الناصرية ذلك، فخافوا على أنفسهم، فركبوا وساروا على حميّة. وسار أيضاً ركن الدين البُنْدُقْداري في جماعةٍ من البحرية، وتوجّهوا إلى جهة غزّة، وهرب أيضاً الملك الظاهر غازي، وهو شقيق الملك الناصر، أمّهما أمّ ولد، تركيّة.

وأنكرت الناصرية بعد ذلك أنهم كانوا عزموا على قتْل الملك الناصر، وإنّما ذكروا أنهم عزموا على اعتقاله، وإقامة أخيه الملك الظاهر في السلطنة.

ولما اجتمعوا بغزّة/ ١٤٩أ/ أقاموا الملك الظاهر سلطاناً، وبقي الأمر كذلك، إلى أن جرى ما سنذكره.

[وعود الملك المظفّر لبيبرس]

وأمّا ركن الدين البُنْدُقداري، فإنّه كاتَبَ الملكَ المظفّر صاحبَ مصر، فكتب إليه الملك المظفّر في أن يَقْدَم عليه، ووعده الوعودَ الجميلة، ففارق الناصرية، ووصل في جماعةٍ إلى مصر، فأنزله الملك المظفّر بدار الوزارة، وأقبل عليه، وأقطعه قليوبَ وأعمالَها.

---

(١) العنوان ليس في (ب).

ذكر منازلة التتر لحلب
وهي المنازلة[١] الثانية واستيلائهم عليها

وفي أول هذه السنة قطع هولاكو ملكُ التتر الفرات في جموعه التي تفوت الإحصاءَ من التتر، والعجم، والكُرْج، وغيرهم من الأمم، ونزل بجموعه النَّيْرَب، وجبْرين، والملّاحة، وامتدّوا إلى تلك النّواحي، وأرسل إلى حلب ابنَ صاحب أَرْزُن، وصُحبَته بدر الدين محمد بن الخيّاط رئيس حرّان، وكان مضمون الرسالة إلى الملك المعظّم تورانشاه نائب السلطنة بحلب، أنّ هولاكو يقول لكم إنّكم تضعفون عن لقاء المُغْل، وما لكم قدرةٌ بهم، ونحن نقصد الملك الناصر ومن معه من العساكر، فتجعلون لنا عندكم شِحنةً بالقلعة، وشِحنةً بالمدينة، ونتوجّه نحن إلى جهة الملك الناصر، فإنْ كانت الكسرة علينا، فالأمر إليكم، إن شئتم أبقَيْتم على الشحنتين وطردتموها عنكم، وإن شئتم قتلتموها، وإنْ كان النُصرة لنا، فحلب وغيرُها لنا، وتكونون آمنين على أنفسكم.

فلما أدّى الرسول الرسالةَ على الملك المعظّم، قال الملك المعظّم: نحن لا نُجيب إلى هذا أبداً، وما بيننا وبينه إلّا السيف. فانصرف الرسول متعجّباً من هذا الجواب، ومتألّماً لِما يعلم أنّ من هذا الجواب يكون وبَالُه على أهل حلب والمسلمين.

ولما بلغ هولاكو ما أجاب به الملك المعظّم ركب في جحافله وعساكره الكثيرة، ورحل إلى حلب وأحاط بها ثاني صفر/ ١٤٩ب/ من هذه السنة. وهجم التتر البواشير بكرة هذا النهار، وقُتل أكثر من فيه من المسلمين[٢].

[وفاة الأمير أسد الدين]

وممّن استشهد في هذا اليوم الأمير، أسد الدين بن الملك الزاهر[٣] داود بن الملك الناصر صلاح الدين، رحمه اللّه،

---

(١) العنوان ليس من (ب) ورقة ٣٩٤أ.

(٢) الحوادث الجامعة ١٦٤، ١٦٥. (باختصار شديد)، وأخبار الأيوبيين ١٧١، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ٢٠١، وذيل مرآة الزمان ١/ ٣٤٥، ٣٤٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٤٩، ٥٠، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٢٠٢، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٨، ونزهة الأنام ١٤٨، ١٤٩، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٢٢، ٤٢٣.

(٣) اسمه: رسلان شاه. انظر عنه في:
ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٢٩، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٨هـ.) ٣٤٢ رقم ٤٣٠، والوافي بالوفيات ١١/ ٣٤٣ رقم ٣٧٧٤، والمنهل الصافي ٢/ ٢٩٩ رقم ٣٦٢، والدليل الشافي ١/ ١٠٤ رقم ٢٦٠، وشفاء القلوب ٣٤٥ رقم ٧٠، ونزهة الأنام ٢٧١، ٢٧٢، والعبر ٥/ ٢٥١، والنجوم الزاهرة ٧/ ٩٣.

[سقوط حلب بيد التتر]

وأحاطوا بالبلد، ونازلوه من جميع جهاته. وما أصبح صباح نهار الإثنين ثالث صفر إلّا وقد حفر التتر خندقاً، طوله قامة الإنسان، وعرضه يزيد على أربعة[١] أذرُع، وبنَوا حائطاً يزيد ارتفاعه على خمسة أذرُع، والتتر جميعُهم وراء ذلك، وفتحوا أبواباً في الحائط، ووكّلوا بكل باب جماعةً من المقاتلة، ونصبوا على باب العراق ما يزيد على عشرين منجنيقاً، وواتروا الرميَ بها نهاراً وليلاً، وشرع النقّابون في نقْب سور البلد.

ولم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهروا أولاً من حمّام حمدان في ذيل قلعة الشريف، وركبوا الأسوارَ من كل جانب، وذلك يوم الأحد التاسع من صفر، وأخذ المسلمون في الاندفاع إلى جهة القلعة ليعتصموا بها، فمن الناس من[٢] قدر على الصعود إليها فصعِد، ومن الناس من يرمي نفسَه في الخندق. ودخل التتر إلى البلد، وبذلوا السيف في المسلمين، وتصرّفوا فيهم قتلاً وسبْياً، وصعِد إلى القلعة خلقٌ عظيم، وأصبحوا يوم الإثنين وهم على ذاك في القتْل والسَّبْي، وامتلأت الأزِقّة والرحابُ من القتلى، كما فعلوا في بغداد، واحتمى في البلد مواضع لأجل فَرَمَانات لأنهم[٣] بأيديهم، فمن ذاك دار شهاب الدين بن عمرون، ودار نجم الدين بن أخي مردكين، ودار البازيار[٤]، ودار عَلَم الدين قيصر المَوْصِليّ، والخانقاه[٥] التي فيها الشيخ زين الدين الصوفيّ، رحمه اللّه، وكنيسة اليهودية، سلِم في هذه الأماكن المذكورة من سكانها، وممّن التجأ[٦] إليها من الناس، ما ينيف على ما ذُكِر لي على خمسين ألفاً، وأيضاً فاستتر/ ١٥٠أ/ جمْعٌ كثير لم يُعرف بهم.

وفي يوم الجمعة الرابع عشر من صفر أمر هولاكوا بالنداء في البلد، برفْع السيف، والأمان للناس كافةً، وأذّن المؤذّنون بالجامع على المنارة، وأقيمت الخطبة والصلاة، ونازل التتر القلعة وحاصروها، وفيها الملك المعظّم، ومن التجأ[٧] إليها من العسكر

---

(١) في (أ): «أربع»، والتصحيح من (ب) ورقة ٣٩٤ ب.

(٢) من هنا ناقص من (ب) نحو ٢٣ ورقة ٤٦ صفحة.

(٣) الصواب: «لأنها».

(٤) في المختصر لأبي الفداء ٣/ ٢٠١ «البازياد» (بالدال). والمثبت يتفق مع: تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٣.

(٥) الخانقاه = الخانكه: لفظ فارسي، معناه بيت. جمعه: خوانق. أطلق في العصر الإسلامي على الأماكن المعدّة للزهاد وأتباع الطرق الصوفية ومن في حكمهم. (معجم المصطلحات ١٥٨).

(٦) في الأصل: «التجى».

(٧) في الأصل: «تجى».

وغيرهم. واستمرّ الحصار عليهم[(١)]، إلى أن جرى ما سنذكره إن شاء اللَّه تعالى.

[نزول الملك المنصور برزة]

وكان السلطان الملك المنصور، صاحب حماه، قد رحل إلى دمشق، ونزل ببَرْزَةَ في خدمة السلطان الملك الناصر[(٢)]، رحمهما اللَّه.

[تأمين حماه]

وحين فُتحت حلب ورد بطاقةٌ إلى حماه (تخبر)[(٣)] باستيلاء العدوّ على حلب، وما حدث فيها من القتْل والسَّبْي وأخْذ الأموال، فوقع الإنزعاج العظيم لذلك بحماه، وكان قد التجأ إليها خلْقٌ عظيم من الجُفَال، وجفل أكثر الناس من حماه إلى جهة القِبلة، وسافر بهم الطواشي شجاع الدين مرشد المنصوري، ومعه سُنقُر الطواشي من حماه يؤثر[(٤)] جماعة من الأعيان إلى حلب، ومعهم مفاتيح البلد، واجتمعوا بهولاكوا، وطلبوا الأمان منه لأهل حماه، وأن يُنفذ من يتولّى حماه من قِبَله، فسيّر إليهم رجلاً عجميًّا، كان يدّعي أنّه من قرية خالد بن الوليد، رضي اللَّه عنه، يقال له خسرو شاه، فقدِم إلى حماه متولّي البلد، وأمّن الرعيّة. وكان في القلعة الأمير مجاهد الدين قايماز أمير جاندار يفعل في طاعة خُسْرُوشاه[(٥)].

ذِكر رحيل الملك الناصر رحمه اللَّه إلى الديار المصرية

ولما تحقّق السلطان الملك الناصر، رحمه اللَّه، ملكَ التتر لحلب، رحل بمن معه من العساكر إلى جهة الديار المصرية. وكان في كل منزلةٍ ينزلها يضرب باب دِهليز إلى جهة الشام، ووصل إلى نابلس، وأقام بها، وفي صُحبته السلطان الملك المنصور صاحب حماه، ووصل/ ١٥٠ب/ الطواشي بالجافلين من أهل حماه إليه. ولما تكامل الجمع معه رحل من نابلس، وترك بنابلس الأمير مجد الدين بن أبي زكري، والأمير نور الدين علي بن شجاع الدين الأكتع، مع جماعة من العسكر، ووصل

---

(١) أخبار الأيوبيين ١٧١، وتاريخ الزمان ٣١٦، وتاريخ مختصر الدول ٢٧٩، والعبر ٥/ ٢٤١، ودول الإسلام ٢/ ١٦٢، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ٥٠، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٨، ومآثر الإنافة ٢/ ١١٤، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٢٢، وعقد الجمان (١) ٢٣٠، ٢٣١، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٨٣، وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٠.

(٢) ذيل الروضتين ٢٠٤، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٣، تاريخ الإسلام ٥١، مآثر الإنافة ٢/ ١٠٤، عقد الجمان (١) ٢٣٢، شذرات الذهب ٥/ ٢٩٠.

(٣) عن هامش المخطوط.

(٤) مهملة في الأصل.

(٥) المصادر السابقة.

بالعساكر إلى غزّة، فانضمّ إليه الناصرية الذين كانوا هربوا منه، وانضمّ إليه أخوه الملك الظاهر غازي، ورضي عنه وعنهم، ونزل بالعساكر كلها على غزّة، ونزل بها معه خلق من التركمان والأكراد الشهرزورية[١].

ذكر كبْس التتر نابلس وقتْل مجير الدين وابن الشجاع الأكتع

وبعد رحيل الملك الناصر من نابلس قدِم جمْعٌ من التتر، وهجموا نابلس، وقتلوا مُجيرَ الدين[٢]، والأمير علي بن شجاع الدين الأكتع، وكانا أميرين جليلين متميّزين، مشاركين في الأدب والفضيلة، وقد تقدّم قبْضُ البحرية عليهما، واعتقالهما بالكرَك، ثم خلاصهما من الاعتقال لما وقع الصُلح بين السلطان الملك الناصر، والملك المغيث بن العادل، صاحب الكرَك.

وقد قدّمت ذكر حجّ الأمير مجير الدين، وما فعل من المعروف في طريق مكة، وكان على ذِهنه، رحمه الله، شيء كثير من الشِعر.

ولقد رأيته يوماً وأنا بالديار المصرية، فيما بين مصر والقاهرة، وأنشدني مقطّعاتٍ حَسَنة، فممّا أنشدني لبعض الشعراء وهو معنًى لطيف:

دنِفٌ نأى عن من يحبّ فشاقه ... إطلاله سَحَراً على إطلاله
سأل الحِمَى عنه وأصغى للصدى ... كيما يجيب فقال مثل مَقاله
ناداه: أين ترى محطّ رحاله؟ ... فأجاب: أين ترى محطّ رحاله؟

ولما وصل الخبر إلى الملك الناصر بما جرى بنابلس، وجاءه غلمان مجير الدين مجرَّحين، أمر بالرحيل، فرحلت العساكر ومن معهم من الجفّال، وأغذّوا السير حتّى وصلوا العريش، فضرب دِهليزه به، ونزل هو والملك/ ١٥١أ/ المنصور والعساكر، وسيّر الملك الناصر القاضي برهان الدين، الخضر بن الحسن، أخا القاضي بدر الدين إلى الملك المظفّر سيف الدين قُطز، وطلب منه المساعدة والمعاضدة.

وكنتُ قد ذكرت أنّ الملك المظفّر قُطز أرسله إلى الملك الناصر في جواب الرسالة التي ورد بها الصاحب كمال الدين بن العديم إلى مصر، فتوجّه القاضي برهان

---

(١) الروض الزهر ٦٢.

(٢) هو: إبراهيم بن أبي بكر بن أبي زكري، الأمير الكبير. انظر عنه في:
ذيل الروضتين ٢٠٤، وذيل مرآة الزمان ١/ ٣٨٧ و٢/ ٨ وفيه «ابن أبي زكري» والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٦، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٨هـ.) ٣٣٦ رقم ٤١٦، والوافي بالوفيات ٥/ ٣٣٩ رقم ٢٤١٨، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٣٢، والمقفى الكبير ١/ ١١٩، ١٢٠ رقم ٨١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٢١ وفيه «ابن أبي ذكري»، والمنهل الصافي ١/ ١٥.

الدين إلى الملك المظفّر، وكان خرج من القاهرة في العسكر لما بلغه قدومُ الملك الناصر، فسيّر الملك المظفّر سنجقَيْن: سنجقاً للملك الناصر، وسنجقاً للسلطان الملك المنصور، صاحب حماه، ليصلا مع العساكر التي معهما إلى مصر، ويتّفق معهما على الخروج إلى الشام، لإزاحة التتر عنه.

ورحل السلطان الملك الناصر من العريش، ووصل إلى قَطْيا[١]، فنزل بها، وجرت فتنة بين التركمان والأكراد الشهرزوريّة، ووقع نهبٌ في بعض الجفّال، وكثر الخبط، وخاف الملك الناصر أن يقدم إلى مصر فيقبض عليه، فتأخّر في تلك المنزلة، ورحلت العساكر طالبين مصر.

وسيّر السلطان الملك الناصر إلى الملك المنصور يقول له: تأخذ أهلي معك إلى مصر. ورحل الملك المنصور والعساكر كلهم، ولم يتخلّف مع الملك الناصر إلا جماعةٌ يسيرة، منهم أخوه الملك الظاهر، والملك الصالح بن الملك المجاهد صاحب حمص، وشهاب الدين القَيْمُري، على ما بَلَغني.

وبعد رحيل العساكر والجفّال إلى مصر، رحل الملك الناصر إلى جهة تيه بني إسرائيل[٢]، وكان من أمره ما سنذكره.

[دخول صاحب حماه والمظفّر قطز إلى القاهرة]

ولما رحل السلطان الملك المنصور، صاحب حماه، والعساكر الشامية، والجُفّال، وصل القاضي برهان الدين، ومعه السَّنْجقان المُسَيّران معه، من جهة الملك المظفّر قُطز، فسلّم إلى السلطان الملك المنصور السَّنْجق المسيّر إليه، ووصلت العساكر إلى الصالحية، فالتقاهم الملك المظفّر مُلتقًى حسناً،/ ١٥١ب/ ولقيه الملك المنصور، فأكرمه وأعظمه، وطيّب قلبه، ودخلوا إلى القاهرة، ودخل إليها السلطان الملك المنصور، فنزل بداره التي في درب شمس الدولة، وكان يجتمع به في غالب الأوقات. وكانت معه خيلٌ نفيسة، جليلة المقدار، فكان يسابق الملكَ المظفّر في الميدان، فيسبقه، ثم يترجّل، ويقدّم له الفرس الذي يسبقه بها، فعل ذلك معه مِراراً عديدة، وحلّ من قلبه في منزلة عظيمة، وأحبّه محبّةً شديدة، ووُعِد ببلادٍ إذا كسر العدوّ، ووفّى له بذلك، رحمه الله، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

---

(١) قطا: قرية بجوار الفرمة تحيط بها الرمال وتقع في الطريق إلى مصر من الشام.

(٢) أخبار الأيوبيين ١٧٠، ١٧١، ذيل الروضتين ٢٠٦، ٢٠٧، الروض الزاهر ٦٢، ٦٣، ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٥٠، ٣٥١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠١، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ٥١، ٥٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٤، عيون التواريخ ٢٠/ ٢٢٤، السلوك ج١ ق٢/ ٤١٩، ٤٢٠، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٧، تاريخ ابن سباط ١/ ٣٨٣، ٣٨٤ و٣٩٠.

ذكر ما تجدّد بالشام بعد مُضيّ العساكر إلى مصر

ولما جرى ما ذكرناه، وصل التتر إلى غزّة، واستولوا على ممالك الشام، ودخلت نوّابهم إلى دمشق، واستولوا عليها.

[استيلاء التتر على قلعة حلب]

وأمّا قلعة حلب فاستمرّ الحصار عليها من يوم الأحد تاسع صفر، وهو أول يوم استيلائهم على مدينة حلب، إلى نهار يوم الإثنين الحادي عشر من ربيع الأول من هذه السنة ـ أعني سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة ـ، ومدّة ذلك شهر واحد ويومان، ثم سلّمت القلعة إلى التتر بالأمان[1].

وكان بالقلعة صفيّ الدين بن طُوَيْره، رئيس حلب، ونجمُ الدين، أحمد بن عزّ الدين عبد العزيز بن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون، فقتلهما المسلمون بالقلعة، اتّهاماً لهما بمواطأة التتر، ومكاتبتهم[2] لهم.

ولما نزل المسلمون من القلعة سُلّم الأمراءُ والتُّرْك إلى رجلٍ يقال له سلطان جق. وأمّا العوامّ والغرباء وأهلُ البلد، فإنّهم نزلوا إلى أماكن الحِمَى، وهي التي قدّمنا ذكرها، وأمر هؤلاء أنّ كل من سَلِم من المسلمين يمضي إلى داره، وإلى مُلكه، ولا/ ١٥٢أ/ يُعسَف أحدٌ ولا يُعارَض، وكلّ من كان من عظْم إنسان، يعني من عَصَبَته، يرِثُه وجُعل نائب الملك بحلب، عمادُ الدين القزوينيّ، وعزّ الدين بتكجي (. . . . . . .)[3].

وكان الملك الناصر لما توجّه بالعساكر إلى جهة حمص انفرد عنه الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص، واتّصل بهولاكو ملك التتر.

[تسلّم الملك الأشرف حمص]

وكنّا ذكرنا أنّ حمص أخذها منه الملك الناصر في سنة ستٍّ وأربعين وستماية لما مال الملك الأشرف إلى الملك الصالح نجم الدين، وأعطاه قلعة شُمَيميس، وعوّضه الملك الناصر عنها قلعة جَعْبَر.

ولما اتّصل الملك الأشرف في هذه السنة بهولاكو، أعطاه حمص، وجعله نائبَ الملك على هؤلاء النّواب المذكورين.

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ٥٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٤.

(٢) الصواب: «ومكاتبتهما».

(٣) في الأصل كلمتان غير مفهومتين، رُسمتا: (ولا دلاعه ويفراعه)!

[وزارة القفطي]

وجُعلت الوزارة بحلب لمؤيّد الدين القِفْطيّ[١]، الذي كان وزيراً للملك الناصر، ثم تُوُفّي في الأحد الآخر من ربيع الأول، من هذه السنة.

[رحيل هولاكو إلى الشرق]

ثم رحل هولاكو بجموعه إلى جهة الشرق، وألزم عماد الدين القزويني بالرحيل إلى بغداد، وجُعل مكانه رجل عجميّ.

[تخريب أسوار حماه وحلب]

ثم قدم الملك الأشرف صاحب حمص إلى حماه، فنزل في دار الأمير مبارز الدين أقش، أستاذ دار السلطان الملك المنصور، وأخذ في إخراب أسوار قلعة حماه، بتقدّم هولاكوا إليه بذلك، وخرّب أسوار مدينة حلب، وأسوار قلعتها، وأخرجت الذخائر من قلعة حماه، وبيع بعضُها، وأُحرق البعض، وأُحرقت الزَّرَدْخانات التي فيها، وبيعت الكتب التي في دار السلطنة بأبخس الأثمان، ولم تُخرّب أسوار المدينة، فإنّه كان بحماه رجل يضمن الجهة المفرَدَة، يقال له إبراهيم بن الخسروشاه[٢] النائب بحماه جُملة، وقال له: إنّ الفرنج بالقرب من حماه، ويُخاف منهم على البلد، فلم يتعرّض للأسوار، ولم يخرّب الملك الأشرف من أسوار قلعة حمص إلّا قليل[٣] لأنها بلده.

[انتهاب التتر نابلس وغزّة وبيت المقدس]

وأمّا/ ١٥٢ب/ الذين توجّهوا إلى نابلس من التتر، وفعلوا ما فعلوه بها، امتدّوا إلى غزّة، ودخلوا البيت المقدس، وأسروا ونهبوا، ودخلوا إلى البلْقاء والكرَك، وقتلوا ونهبوا، وسبوا ما لا يُحصى كثرةً، وباعوا بعض الأسرى والغنائم بمدينة دمشق، والباقي باعوه بحلب والشرق، وحمى اللّه تعالى سبحانه منهم

---

(١) هو: إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الحميد، أبو إسحاق الشيباني، المقدسي، ثم المصري. انظر عنه في:
ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٢٦، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٨هـ.) ٣٣٥، ٣٣٦ رقم ٤١٥، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٣٢، ونزهة الأنام ٢٧٠، والوافي بالوفيات ٦/ ١٧٢، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٤١، والمنهل الصافي ١/ ١٧٣، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤/ ٤١٨ رقم ٢٣٧، وزبدة الفكرة ٥٨.

(٢) في الأصل: «الخروشاه».

(٣) الصواب: «إلا قليلاً».

دمشقَ وأعمالها، وعصى من في قلعة دمشق عليهم. وكان ذلك منسوباً إلى سواري النّقيب الذي كان فيها، فحاصرها التتر. وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان مَن في القلعة شدّة[١].

[حصار قلعة دمشق]

وفي ليلة السبت سادس شهر ربيع الآخر من هذه السنة، أمر التتر أهلَ دمشق بالزّحف إلى القلعة، واتّفق في تلك الليلة رعْدٌ شديد، وبرْق، ورياح عاصفة، وبقي الناس بين خوفين أحدهما أرضيّ، والآخر سماويّ، فلم يتمّ لهم زحفٌ في تلك الليلة، وأصبحوا على ما باتوا عليه. ثم رحل التتر المحاصرون للقلعة أياماً، ثم عادوا معهم المناجيق، وآلة الزحف، ورأى الناس من جَبروتهم ما أذهل عقولهم، وضايقوا القلعة، ونصبوا عليها مناجيق من جهة الميدان الأخضر، وحكْر السُّمّاق، ثم تسلّموها بالأمان، ونهبوا ما فيها، وذلك في منتصف جمادى الأولى من هذه السنة، وشرعوا في إخراب أسوار القلعة فخرّبوا أعاليها، ورموا ما فيها من العُدَد والمناجيق[٢] إلى الخندق، مع أحجار الخراب[٣].

[منازلة التتر لبعلبك]

ثم بعد ذلك توجّهوا إلى بعلبَكّ ونازلوا قلعتها[٤].

ذِكر مقتل الملك الكامل صاحب ميّافارقين قدّس الله روحه

/ ١٥٣أ/ كنّا قد ذكرنا منازلة التتر بميّافارقين، ولم يزل صاحبها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفّر شهاب الدين غازي بن الملك العادل، رحمه

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٥١، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ٥٣، عقد الجمان (١) ٢٣١، تاريخ ابن سباط ١/ ٣٨٩.

(٢) في الأصل: «المناخيق».

(٣) خبر حصار قلعة دمشق في:
أخبار الأيوبيين ١٧٤، وذيل مرآة الزمان ١/ ٣٥١، ٣٥٢، وذيل الروضتين ٢٠٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ٥٢، ودول الإسلام ٢/ ١٦٢، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٨، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٢٤، ومآثر الإنافة ٢/ ١٠٤، ١٠٥، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٢٦، وعقد الجمان (١) ٢٤٠، ٢٤١، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٨٨، ٣٨٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٠.

(٤) ذيل الروضتين ٢٠٤، ٢٠٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٣، ٢٠٤، أخبار الأيوبيين ١٧٢، الروض الناضر في أخبار الأوائل والأواخر ـ مخطوطة مكتبة بودليان بأكسفورد، رقم ١٧٢، ورقة ١٦١أ، السلوك ج١ ق٢/ ٤٢٦، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٦، ٧٧، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٥١، ٥٢، لبنان من السقوط بيد الصليبيين حتى التحرير (القسم السياسي) ـ تأليفنا ٢٧٠ ـ ٢٧٨.

اللّه، مجاهداً لهم مصابراً لقتالهم[١]، حتّى فني أكثر ميّافارقين، وعمّهم الموت قتلاً وفناءً بكثرة الغلاء عندهم، فعند ذلك ضعف[٢] قواهم عن محاربة العدوّ، فاستولى العدوّ عليها.

[استشهاد الملك الكامل]

واستشهد الملك الكامل[٣]، قدّس اللّه روحه، وجزاه عن الإسلام خيراً، وحُمل رأسه على رُمحٍ وطيف به في البلاد، فوصلوا به إلى حلب، ثم إلى حماه، ثم إلى دمشق. وكان وصول الرأس إلى مدينة دمشق يوم الإثنين السابع والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة، وطافوا به في دمشق بالمغاني والطبول، ثم عُلّق الرأس بسور باب الفراديس، فلم يزل معلّقاً في شبكة إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين، على ما سنذكره.

ودُفن بمشهد الحسين، عليه السلام، داخل باب الفراديس، شرقيّ المحراب. وغربيّ المحراب طاقةٌ، يقال لها رأس الحسين، عليه السلام.

وفي ذلك يقول الشيخ الحافظ شهاب الدين أبي شامة[٤]، رحمه اللّه:

ابن غازٍ[٥] غزا وجاهد قوماً ... أثخنوا في العراق والشرقين[٦]

ظاهراً غالباً ومات شهيداً ... بعد صبر عليهم عامين[٧]

ولم يَشنْه إذ طيف[٨] بالرأس منه ... وله[٩] أسوة برأس الحسين

---

(١) في الأصل: «لتعتالهم».

(٢) الصواب: «ضعفت».

(٣) هو: محمد بن غازي بن محمد بن أيوب بن شادي. انظر عنه في:
ذيل الروضتين ٢٠٥، وذيل مرآة الزمان ١/ ٤٣٠ - ٤٣٢ و٢/ ٧٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٦، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠١، ٢٠٢ رقم ١٢٠، ودول الإسلام ٢/ ١٦٤، والعبر ٥/ ٢٤٩، ٢٥٠، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٨هـ.) ٣٦٦ - ٣٦٨ رقم ٤٦٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٩٣، ومرآة الجنان ٤/ ١٥٠، والوافي بالوفيات ٤/ ٣٠٦، ٣٠٧ رقم ١٨٤٩، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٤١، ونزهة الأنام ٢٧١، والنجوم الزاهرة ٧/ ٩١، وشفاء القلوب ٣٨٧، ٣٨٨ رقم ٨٨، وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٥.

(٤) في الأصل: «بن أبي شامة».

(٥) في الأصل: «ابن غازي».

(٦) في ذيل الروضتين:

ابن غاز غزا وجاهد في ا ... للّه قوماً أثخنوا في المشرقين

(٧) في ذيل الروضتين:

والعراقين ظاهرا غالباً وبها ما ... ت شهيداً بعد صبر عليهم عامين

(٨) في ذيل الروضتين: «أن».

(٩) في ذيل الروضتين: «فله».

وافــق الـسِـبــط فــي الـشـهــادة والـــ ـحـمـل لـقـد حـاز أجـره مـرّتـيـن[١]

ثـم واروا فـي مـشـهـد الـراس ذاك الـــ ـراس فـاسـتـعـجـبـوا مـن الـحـالـيـن[٢]

وارتـجـوا أنّـه يـجـيء لـدى[٣] الـحـشـــ ـر[٤] رفيقَ الحُسين في الحُسْنَيَيْن[٥]

فـائـدة

ذُكر أنّ أول رأس حُمل في الإسلام، رأسُ الحسين بن عليّ، عليهما السلام، ولما وُضع بين يدي يزيد بن معاوية، تمثّل بقول ابن[٦] الحُمام المُرّي[٧]:

/ ١٥٣ب/ نُفَلِّق[٨] هاماً من رجالٍ[٩] أعِزّةٍ عـلـيـنـا وهـمُ كـانـوا أعـقَّ وأظْـلَـمـا[١٠]

وجعل ينكت أسنانه بقضيبٍ كان في يده. وكان بعض الصحابة، رضي اللّه عنهم حاضراً، فقال: إرفع قضيبك عن ثغره، فطالما رأيت رسولَ اللّه ﷺ يقبّله[١١].

ثم اختلفت الأقاويل في الموضع الذي دُفن فيه الرأس، فقيل: في الرقّة، وقيل: في عسقلان[١٢]، وفيها مشهدٌ يُعرف بمشهد الحسين عليه السلام، زُرته.

وذُكر لي أنّ الرأس كان به.

---

(١) في ذيل الروضتين زيادة بيت:

جـمـع الـلّـه حـسـن ديـن الـشـهـيـديـن عـلـى قُـبْـح ذَيْـنـك الـفِـعـلـيـن

(٢) في ذيل الروضتين: «من الحالتين».

(٣) في الأصل: «لد».

(٤) في ذيل الروضتين: «البعث».

(٥) الأبيات في: ذيل الروضتين ٢٠٥.

(٦) في الأصل: «بقول بن».

(٧) هو: الحصين بن الحُمام المُرّي. (الطبري ٥/ ٤٦٥).

(٨) في تاريخ الطبري: «يفلقن» والمثبت يتفق مع: تاريخ الإسلام، ومجمع الزوائد.

(٩) في تاريخ الإسلام: «من أناس».

(١٠) البيت في: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٦٠ و٤٦٣ و٤٦٥، والمفضلية ١٢، والمعجم الكبير للطبراني ٣/ ١٢٤ رقم ٢٨٤٨، والكامل في التاريخ ـ بتحقيقنا ـ ج ٣/ ١٨٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦١هـ.) ص١٨ و١٩، ومجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٩٣.

(١١) أخرجه البخاري في الفضائل ٧/ ٧٥ من طريق: جرير بن حازم، عن محمد بن سيرين، والترمذي، في الجامع الصحيح، رقم ٣٧٧٨، وابن حبّان، في صحيحه، رقم ٢٢٤٣، والمعجم الكبير، رقم ٢٨٧٨، ورواه الذهبي من طريق: علي بن زيد بن جدعان، عن أنس، قال: لما قتل الحسين جئ برأسه إلى عبيد اللّه بن زياد، فجعل ينكت بقضيب على ثناياه، وقال: إن كان لحَسَن الثغر، فقلت: لقد رأيت رسول اللّه ﷺ يقبّل موضع قضيبك من فيه». (تاريخ الإسلام ـ حوادث سنة ٦١هـ. ـ ص١٦، ١٧) وسير أعلام النبلاء ٣/ ٣٠٩.

(١٢) وفي: تاريخ الإسلام: دُفن في البقيع.

ثم قيل إنّ بعض الخلفاء المصريّين نقله إلى مصر، ودُفن في المشهد الذي بالقاهرة، المعروف بمشهد الحسين. وفي هذا المشهد ضريح معروف يذكرون أنّ الرأس مدفونٌ فيه.

وكان الشيخ مجد الدين، أبو الخطّاب، عمر بن دُحيم الحافظ، رحمه اللّه، يُنكر أنّ الرأس في هذا الضريح الذي اشتهر أنّ رأس الحسين فيه، ويقول: إنّ الرأس الذي نُقل من عسقلان، ودُفن في هذا الضريح، رأس بعض الحواريّين.

وقيل: إنّ أول رأس حُمل رأسُ عَمْرو بن الحَمِق الجرائحيّ، وهو أحد الذين دخلوا على عثمان، رضي اللّه عنه، وهو صحابيّ. وذُكر عنه أنّه قال: طعنته تسع طعنات، علمت أنّه مات بعد ستٍّ منها[١]، وإنّما طعنتُ باقي الطعنات، لما كان في قلبي منه. قُتل بعد حجْر بن عديّ وأصحابه، وحُمل رأسه إلى معاوية، ودُفن، على ما قيل، بعَذْرَاء[٢]، في الموضع الذي فيه قبورُهم، واللّه أعلم.

[خبر القاضي ابن سنيّ الدولة]

وأرجع إلى ذكر بقيّة الحوادث.

وكان القاضي بدمشق في الأيام الناصرية صدر الدين بن القاضي شمس الدين بن سنيّ الدولة، وكان قاضيها في الأيام الصالحية.

ولما ملك التتر حلبَ اتّفق معه القاضي محيي الدين بن محيي الدين بن زكيّ الدين على المُضِيّ إلى هولاكوا، ملك التتر، فقدّما إليه وهو بحلب، فقال له محيي الدين: أنا كنت قاضي/ ١٥٤أ/ دمشق، ووليها قبلي جماعةٌ من أبائي، وهذا كان نائبي بها، وقدِم محيي الدين إلى حماه، وحضر الفقهاء وغيرهم، وقُرئ بها توقيعُه، وعليه خلعة مُذَهَبَه، وهي التي خلعها عليه هولاكو. ثم قدم دمشق.

وكان التتر قد ولّوا[٣] القضاء بدمشق الشيخ كمال الدين التَّفْليسيّ، رحمه اللّه.

وكان فاضلاً في المذهب والأصول، وكان قبل ذلك ينوب عن صدر الدين[٤]، ثم

---

(١) في المصادر: طعنه تسع طعنات وقال: ثلاثٌ للّه، وستٌّ لِما في نفسي عليه. (الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٧٣، أنساب الأشراف ق٤ ج١/ ٥٧٤، ٥٧٥ رقم ١٤٧٠، تاريخ الطبري ٤/ ٣٩٣، تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص٤٥٦.

(٢) عذراء: قرية بغوطة دمشق، وإليها يُنسب مرج. (معجم البلدان ٤/ ١٩١).

(٣) في الأصل: «ولو».

(٤) انظر عن: صدر الدين، أحمد بن يحيى بن هبة اللّه بن الحسن، أبي العباس التغلبي، الدمشقي، في:

ذيل الروضتين ٢٠٦، وذيل مرآة الزمان ١/ ٣٨٥ و٢/ ١٠، وبغية الطلب ٣/ ٢٤١، وتالي كتاب =

قدم محيي الدين دمشق، وكان قد مرض صدر الدين في الطريق، ووصل إلى بَعْلَبَكّ، فتوفي، رحمه اللَّه.

ولما وصل محيي الدين دمشقَ، حضر الفقهاء، والقُضاة، والأكابر عنده، وقُرئ منشوره وعليه الخِلْعة المذهَبَة التي خلعها عليه هولاكوا[(١)].

[دخول التتر بعلبك وغيرها]

ثم فتح التتر بَعْلَبَكّ، وخرّبوا قلعتها، وشعّثوا، ونهبوا.

ثم توجّهوا [إلى] الصُبَيبة[(٢)] فأخذوها، وصار صاحبها الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل في خدمتهم، وأعلن بالفسق والفجور، وخالَطَهم.

وسنذكر ما آل إليه أمره.

ثم قصدت[(٣)] التتر الفرنج بالساحل، ومضت منهم طائفة نحو غزّة، ليمنعوا نجدةَ الفرنج من جهة مصر، وأخذوا في تخريب الحصون الإسلامية وهدْمها.

ذِكر ما تجدّد للملك الناصر رحمه اللَّه بعد هربه من قَطْيا ومقتله. قدّس اللَّه روحه

كنّا قد ذكرنا أنه لما رحلت العساكر الشامية من قَطْيا، والسلطان الملك المنصور صاحب حماه، رحمه اللَّه، رحل الملك النّاصر في جماعةٍ من أصحابه إلى جهة تيه

= وفيات الأعيان ١٤٣، ١٤٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٤١، ودول الإسلام ٢/ ١٦٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٥، والعبر ٥/ ٢٤٤، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٥، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٨هـ.) ص٣٣٢ ـ ٣٣٤ رقم ٤١٢، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٩، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٨، وطبقات الشافعية الوسطى، للسبكي، ورقة ٥١ب، وطبقات الفقهاء الشافعيين ٢/ ٨٦٧ رقم ١، والوافي بالوفيات ٨/ ٢٥٠ رقم ٣٦٨٨، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٢٩ و٢٢٤، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٣٣، ٢٣٤، ونزهة الأنام ٢٧١، وزبدة الفكرة ٥٨، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤٣٢ رقم ٤٠٢، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٤١، وعقد الجمان (١) ٢٧٣، ٢٧٤، والنجوم الزاهرة ٧/ ٩٢، والمنهل الصافي ٢/ ٢٥٧، ٢٥٩ رقم ٣٣٦، والدليل الشافي ١/ ٩٥ رقم ٣٣٤، والدارس ١/ ١١٩، ١٢٠، وقضاة دمشق ٧٠، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ـ تأليفنا ـ ق٢ ج١/ ٣٨٣ رقم ٢٥٠، ولبنان من السقوط بيد الصليبيين حتى التحرير ـ القسم السياسي ـ ٢٧٤، ٢٧٥.

(١) ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٥٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٥٤.

(٢) ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٥٨، المختصر في أخبار الشبر ٣/ ٢٠٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٥٥.

(٣) الصواب: «قصد».

بني إسرائيل، وتردّد في تلك النواحي لا يدري إلى أيّ جهةٍ يقصد، وخاف أن يقصد جهة الكَرَك أن يقبض/ ١٥٤ب/ عليه الملك المغيث بن الملك العادل صاحبها. ولو قصد جهة الحجاز لسلِم، لكنْ لِما يريده اللّه تعالى اجتمع به كُرديٌّ من أصحابه، كان شقّ إليه، ويحمل الطير بين يديه، وحسّن أن يقصد الملك هولاكوا، فإنّه كان سبقت إليه هدايا عظيمة، وتُحفٌ كثيرة منه، وقال له إنّه يملك الشام كما فعل بسلطان الروم، وأنا أُصلِح قضيّتك معهم، فاغترّ بقوله، ونزل ببركة زَيْزا، واجتمع حين [ذلك](١) بكتبُغا، نائب هولاكوا، ومن معه، وعرّفهم أنّ الملك النّاصر في جماعةٍ قليلة، فيقصدونه، فقصدوه وكبسوه، وقبضوا عليه، وقالوا: نسيّرك إلى الملك، فهو يُحسِن إليك، ونردّ إليك مُلكَك. ووصلوا به إلى عجلون، وكانت بعدُ عاصيةً، وفيها نوّابه، فأمرهم بتسليمها إليهم، فسُلّمت إليهم، فهدموها. ثم قدِموا به دمشق، ثم سيّروه إلى هولاكوا، فقدِم إلى حماه، وبها الملك الأشرف صاحب حمص، فخرج إلى لقائه هو وخُسْرُوشاه، النّائب بحماه، ثم توجّهوا به إلى حلب، ثم ساروا به إلى الأردو، وهو المنزل(٢) الملك، فأنزله ومن معه من أصحابه أولاً، وأحسن إليهم، ووعده بأنّه يردّ إليه مُلكه. فأقام عنده مدّة(٣).

[قتل الملوك الناصر وغازي وصاحب حمص]

ثم لما جرى، ما سنذكره، من كسرة التّتار بالشام، وعَود الشام إلى المسلمين، استشاط غضباً، وقال: هذا كلّه فِعلُ الملك الناصر، هو الذي جهّز عسكره إلى الديار المصرية، حتّى اجتمعت كلمتُهم وكلمةُ المصريّين على حربنا، وهزموا عسكرنا، وكلّ هذا بمواطأةٍ منه، ومن صاحب مصر، وأمر بقتل السلطان، وقتْل من معه، فوضعوا السيف فيهم، فقُتل الملك الناصر(٤)، رحمه اللّه، وأخوه

(١) استدراك على الأصل.

(٢) في الأصل: «وهو المنزل».

(٣) أخبار الأيوبيين ١٧٥، ذيل الروضتين ٢٠٦، تاريخ الزمان ٣١٧، تاريخ مختصر الدول ٢٨٠، ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٥٨، ٣٥٩، جامع التواريخ ٣٠١، دول الإسلام ٢/ ١٦٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ٥٣، مرآة الجنان ٤/ ١٤٨، ١٤٩، عقد الجمان (١) ٢٣٦، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٧، تاريخ ابن سباط ١/ ٣٩٠، شذرات الذهب ٥/ ٢٩٠.

(٤) هو: يوسف بن محمد بن محمد بن غازي الأيوبي. قتل سنة ٦٥٩هـ. انظر عنه في: ذيل الروضتين ٢١٢، وذيل مرآة الزمان ١/ ٤٦١ ـ ٤٦٩ و٢/ ١٣٤، ووفيات الأعيان ٣/ ٢٥٣ و٤/ ١٠ و٥/ ٨٥ و٦/ ٢٥٩، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ٢١١، ٢١٢، ودول الإسلام ٢/ ١٢٥، والعبر ٥/ ٢٥٦، ٢٥٧، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧ رقم ١٢٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٧، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٥٢، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٩هـ.) ص٤٠٠ ـ ٤٠٤ رقم ٥١٥، ومرآة الجنان ٤/ ١٥١، ١٥٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٢، وأمراء دمشق في =

الملك الظاهر غازي[١]، والملك الصالح ابن[٢] صاحب حمص، واستبْقوا الملك العزيز محمد بن الملك الناصر لأنه كان صغيراً، وبقي عنده مدّة وأحسنوا إليه، ثم تُوفّي/ ١٥٥أ/ بعد ذلك ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٣].

[مقدّمات ما حدث بالعراق والشام]

ولقد كانت النّار التي ظهرت بالحجاز، التي قدّمنا ذِكرها[٤]، وحريق المسجد النبويّ، ومنبر النبيّ ﷺ، من مقدّمات هذه الأمور العظيمة التي حدثت في العراق والشام.

وفي ظهور هذه النار، وحريق المسجد النبويّ، وهلاك الخليفة، وهلاك بغداد بالخوف، فإنّه وقع قُبَيل أخذ التتر بغداد.

يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة[٥] حاكياً لِما جرى في هذه العشر من السنين أعني عشر السنين من المفضَّلات العظيمة:

بعد ستّ من[٦] المئين وخمسين	لدى[٧] أربع جرى في العام
نار بأرض[٨] الحجاز مع[٩] حرق	المسجد مع[١٠] تغريق[١١] دار السلام

= الإسلام ١٠٢، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٥٧ ـ ٢٦٣، وفوات الوفيات ٤/ ٣٦١ ـ ٣٦٦ رقم ٥٩٥، ومآثر الأنافة ٢/ ٩٨٣ و٩٥ ـ ٩٨ و١٠٧، ١٠٨، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٦٦، وشفاء القلوب ٤٠٨ ـ ٤٢١ رقم ١٠٧، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٠٣، والدارس ١/ ١١٥ و٤٥٩، والقلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ٨٨، وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٩، ٣٠٠.

(١) هو: غازي بن محمد بن غازي بن صلاح الدين الأيوبي. انظر عنه في: دول الإسلام ٢/ ١٢٥، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٩هـ.) ٣٩٢ رقم ٥٠٠، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٥٩، ٢٦٠ رقم ٢٥٨، والعبر ٥/ ٢٥٥، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٧، ومرآة الجنان ٤/ ١٥١، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٠٦، وشفاء القلوب ٤٢١ رقم ١٠٨، وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٨.

(٢) هو: إسماعيل بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي.
انظر عنه في:
ذيل مرآة الزمان ٢/ ١٢٦، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٩هـ.) ص٣٨٥ رقم ٤٨٦، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٧، والوافي بالوفيات ٩/ ١٢٠، ١٢١ رقم ٤٠٣٥، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٦٦، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٠١، والمنهل الصافي ٢/ ٣٩٤، ٣٩٥ رقم ٤٣٢، والدليل الشافي ١/ ١٢٤ رقم ٤٣١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٨.

(٤) في حوادث سنة ٦٥٥هـ.

(٥) في الأصل: «شهاب الدين بن أبي سامة».

(٦) في الأصل: «بعد ست سنين من».

(٧) في الأصل: «لذا».

(٨) في الأصل: «أرض».

(٩) في الأصل: «فن».

(١٠) في الأصل: «معه».

(١١) في الأصل: «تغريق».

ثم أخْذ التتار بغداد في أول عام من بعد[1] ذاك العام
لم يَفن أهلُها وللكُفر أعوان عليهِم يا ضيعة الإسلام
وانقضت دولة الخلافة منها صار مُستَعصم[2] بغير اعتصام
ربِّ سلِّمْ وصُنْ وعافِ بقايا المُلك[3] يا ذا الجلال والإكرام[4]

ذِكر سيرة السلطان الملك الناصر رحمه اللَّه

كان، رحمه اللَّه، ملكاً، جليل الشأن، جواداً، كثير المعروف، عزيز الإحسان، حليماً، صفوحاً، حَسَن الأخلاق، كامل الأوصاف، جميل العشرة، طيّب المحادثة والمفاكهة، قريباً من الرعيّة، يؤثر العدل، ويكره الظُلْم.

ولي الملك بعد وفاة أبيه السلطان الملك العزيز، غياث الدين محمد وعُمُره نحو سبع سنين، فقامت جدّته ضيفة خاتون[5]، ابنة السلطان الملك العادل، بأمر مُلكه، فأحسنت القيام، وعدلت في الرعيّة، وأحسنت إليهم.

ثم تُوفّيت، رحمها اللَّه، سنة أربعين وستمائة.

وله من العُمر ثلاث عشرة سنة، فاستقلّ بالمُلْك وأمر ونهى.

وكان المُعَاضِد/ ١٥٥ب/ له على أموره الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني، رحمه اللَّه، وزاد مُلكه على مُلك أبيه وجدّه، فإنه مَلَك بلاد الجزيرة، كحرّان، والرُّها، والرقّة، ورأس عين، وما معها من البلاد، ومَلَك حمص، ثم مَلَكَ بعد قتْل الملك المعظّم بن الملك الصالح دمشقَ، وبَعْلَبَكّ، والأغوار، والسواحل، إلى غزّة، وصَفَتْ له الشامُ والبلادُ الشرقية، وأطاعه صاحب الموصل، وصاحب ماردين، وعظُم شأنه جدًا.

ثم دخل بعساكره إلى الديار المصرية، فكسر عساكرها، وخُطِب له بمصر وقلعة الجبل، وكاد يملك الإقليم، ويستولي على المماليك الأيوبيّة كلّها، كما استولى عليها جدّه الملك الناصر صلاح الدين، لولا ما قدّره اللَّه سبحانه من ظهور عسكر مصر،

---

(١) في الأصل: «هذا».

(٢) في الأصل: «فصار يستعصم».

(٣) في ذيل الروضتين: «المدن».

(٤) الأبيات في ذيل الروضتين ١٩٤ بإضافة بيت في آخرها:

فحنانا على الحجاز ومصر وسلام على بلاد الشام

(٥) انظر عن (ضيفة خاتون) في:

مفرّج الكروب ٥/ ٣١٢، ٣١٣، وزبدة الحلب ٣/ ١٦٢، وأخبار الأيوبيين ١٥٤، والأعلاق الخطيرة ج١ ق١/ ٢٦ و٩٥ وج٣ ق١/ ١١٩ و٢٠١ وق٢/ ٤٦٥ و٤٦٧ و٤٦٩، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٧١، ونهاية الأرب ٢٩/ ٣٠١، والدرّ المطلوب ٣٥١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٧٢، وشفاء القلوب ٣٢٨، والدارس ٢/ ٢٦٨، وترويح القلوب ١٠٨، ونزهة الأنام ١٤٨، ١٤٩.

وانهزامه إلى الشام، ومقتل مدبّر دولته شمس الدين لؤلؤ. وأقام بدمشق نحو عشر سنين حاكماً على الشام والشرق، إلى أن قدّر اللّه ما قدّر من استيلاء التتر على البلاد، وذهابه إليهم ومقتله، رحمه اللّه.

ولم أسمع عن أحدٍ من الملوك قبله مثل ما كان له من التّجمّل بكثرة الطعام وغيره. وكان يُذبح في مطبخه في كلّ يوم أربعُ مائة رأسٍ من الغنم، فكانت تُترك فضَلات السّماط الذي له، ويبيعها الفرّاشون والطبّاخون عند باب قلعة دمشق بأبخس الأثمان، فكانت تعمّ أهلَ دمشق كلّهم، فكان أكثر النّاس بدمشق يغنيهم ما يشترونه منها عن الطبخ في بيوتهم.

وحُكي لي عن الصاحب علاء الدين علي بن نصر اللّه، وكان من أخصّ أصحابه، قال: جاء السلطان الملك الناصر إلى داري بغتةً، ومعه جماعةٌ كثيرة من أصحابه، فمددت له في الوقت سماطاً فيه من الأطعمة الفاخرة من أنواع الدجاج المحشوّ بالسُكّر والقلوبات شيئاً كثيراً[١]، فبقي متعجّباً/ ١٥٦أ/ وقال: في أيّ [وقتٍ][٢] تهيّأ لك عمل هذا كله؟ فقلتُ: واللّهِ هذا كلّه من نعمتك ومن سماطك، وما صنعت لك شيئاً منه، وإنّما اشتريته من عند باب القلعة، وحكيتُ له ما يباع من ذلك، ومثل هذا لم يتّفق لملكٍ قبله[٣].

وكان يصل إلى الرسل الوافدين إليه والقاصدين بابه من إحسانه وعطاياه وبِرّه ما لم يصل من أحدٍ من الملوك إلى من يقصدهم.

وكان حليماً إلى الغاية، عظيم العفو عن الزلة.

وبلغني أنّ شخصاً اعترضه يوماً بورقةٍ، فأمر بأخذها منه، فقرأها، فوجد فيها الوقيعة فيه وذمّه، فقال لبعض غلمانه: قل له يخرج من دمشق إلى حيث شاء، فأنا ما أؤذيه ولا أقابله على فعله.

وتقرّب إليه جماعةٌ من الأدباء والفضلاء، فكان يحاضرهم أحسن محاضرة.

وكان على ذهنه شيء كثير من الأدب والشِعر، وكان ينظم نظماً حسناً. وسنذكر شيئاً منه، وكان حسن النادرة، سريع الجواب المُسكِت.

وسمعتُ له من ذلك شيئاً كثيراً.

ولما بنى الشيخ نجم الدين البادَرائي رسولُ الخليفة مدرسةً بدمشقَ التي كانت قبل ذلك داراً تُعرف بدار عزّ الدين أسامة، واشتراها الشيخ نجم الدين من الملك

---

(١) الصواب: «شيء كثير».

(٢) إضافة يقتضيها السياق.

(٣) تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٩هـ.) ص٤٠٢.

الناصر داود، جلس الشيخ نجم الدين لذِكر الدرس بها، وحضر السلطان الملك الناصر والأكابر من الأمراء والفقهاء وغيرهم، وجرت المناظرة بين الفقهاء، وكان ممّن حضر تاج الدين المعروف بالشحرور، وكان كثير الصياح، قليل الفوائد، فصاح ذلك اليوم صياحاً عظيماً والفقهاء معرضون عن جوابه، فقال: مالي نَوْبة، وكرّر ذلك مراراً، فأشار الملك الناصر بأصابعه الثلاث، يعني نوبة حُمّى ربع، وهي المعروفة عند العامّة بالمثلّثة.

وكان، رحمه اللّه، حَسَن المباسطة مع جُلسائه، وكان يَصْحَبُه كثيراً/ ١٥٦ب/ علاء الدين عليُّ بنُ نصر اللّه، وأخوهُ صفيُّ الدين نصر اللّه، ووجيهُ الدين بن السُّوَيد. وكان [من] المتموّلين.

ومن الشعراء والأدباء تاج الدين بن الحنفيّ، وكان يُلقَّب الهدهد. وشرف الدين سليمان بن سليمان الإربلّي، وكان من أصحاب النوادر المستطرَفة، وكان يصحَبه كثيراً الحكيم موفّق الدين عبد السلام بن عثمان الحمويّ، وكان من الفُضَلاء في عِلم الطّبّ، جيّد المباشرة جدّاً، وكان من ذوي المروءات، لم يقصده أحد إلّا وساعده بجاهه ونفعه عند السلطان.

وحكى لي وجيه الدين بن سُوَيد قال: كان صبيّ من القيمُرية، حَسَن الصورة، قد تزوّج وزُفّ ليلة عُرسه بدمشق، فنظمتُ هذين البيتين مَوَاليا:

لـمـا جلـوا ذا الـصّبـي كـالـبـدر فـي هـالـو
سبـى الـمـواشطَ وقـالـوا فيـهـمـا مـا قـالُـوا
صـبـي وكـردي وكـرديّـه مـن أشـكـالـو
لـولا بـنـات عِـذار ولا لـبـئـس حـالـو

وأنشدتُها السلطانَ الملك الناصر، فأعجبه[1] وطرب لها.

وكان ذلك الصبيّ أقاربه أكابر أمراء القيمُرية، فكانوا كلّما حضروا يقول على سبيل المباسطة: يا وجيه، لولا يوهمني أنّه ينشد البيتين قدّامهم، فأضع إصبعي على فمي، أي أسكُت عنّي، فيضحك.

وكان يكره الجُبْن المأكول جدّاً، ولا يستطيع أن يشمّ رائحته، ولا يحضر سماطه.

فحكى لي الصاحب علاء الدين بن نصر اللّه قال: كنت أنا وأخي صفيّ الدين نحبّ أن نأكل الجُبْن، وكان ينهانا عنه، ولا يمكّننا من إحضاره، فقلت يوماً

(١) الصواب: «فأعجبته».

للشاشنكير[١]: باللّهِ أحضِر لي قطعة جُبنٍ خفْيةً من السلطان، فقد تاقت إليه نفسي، فأحضر لي منه شيئاً، فجعلته تحت/ ١٥٧أ/ الخِوان، فشمّ رائحته، واغتاظ جدّاً، وقال: كم أنهاكم عن الجبن، وأنتم تخالفونني؟

قال: فقلت له: يا خَوَنْد، اللّه سبحانه قد نهانا عن أشياء، وأمرتنا أنت بها، فأطعناك، وخالَفْنا اللّه تعالى، فإذا عصيناك في هذه المرّة الواحدة أيّ شيءٍ يكون؟ فضحك وسكت.

وكان الصاحب شرف الدين شيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن يتردّد إلى دمشق مراراً في مهمّات مخدومه السلطان الملك المنصور صاحب حماه، قدّس اللّه روحه.

وكان السلطان الملك الناصر، رحمه اللّه، يُكرمه ويُعظّمه جدّاً، وكان يقيم في خدمته المدّةَ الطويلة، وبِرّه الكثير واصلٌ إليه، ويحضر عنده في غالب الأوقات ويحاضره، وكانت تقع بينه وبينه مُكاتباتٌ كثيرة.

وللشيخ شرف الدين فيه مدائح كثيرة، وقد تقدّم ذِكر بعضها. وكان سافر في خدمته إلى مصر لما قصدها الملك الناصر، وجرى له ما قدّمنا ذِكره.

ومن جملة ما كاتبه الملك الناصر به كتابٌ بخطّ نظام الدين بن الوليّ كاتب إنشائه. وكتب الملك الناصر، رحمه اللّه، بخطّ يده بين أسطُر الكتاب من شِعره:

إنْ طال ليلُك يا عبد العزيز لقد ... أسْهَرْتَ في وصفك الشبّانَ والشيبا

وإنْ رُميتَ لأجلي إنّ عرضك لم ... يعرض له دنسٌ يوماً ولا شِيبا

وصبر يوسف أدناه إلى شرفٍ ... فاصبرْ ألستَ من الأنصار محسوبا

أكرم به حَسَباً عزّ النبيّ به ... وصار في النيّرات الزُهر محسوبا

وهذا الشِعر في غاية الجودة.

وقد سمعت له، رحمه اللّه، أشعاراً كثيرة جيّدة، فمن ذلك أنه كتب بخطّه إلى وزيره مؤيّد الدين القِفْطيّ بخطّه:

أيا راكباً يطوي الفلا بشِمْلةٍ ... عُذافرةٍ وجْناء من نسل شدقم

---

(١) في الأصل «للشاسنكير».

و«شاشْنَكير» = «جاشْنَكير»: لقب موظّف مأخوذ من لفظٍ فارسيّ معناه: متذوّق الطعام، أطلق في العصر الأيوبي على المتحدث عن مأكول السلطان وشرابه، والمسؤول عن سلامته وخُلُوه من السموم. كان في البداية من أمراء الطبلخاناه، ثم أصبح من أخصّ موظّفي القصر السلطاني باعتباره المسؤول عن الأسمطة السلطانية بشكل عام في الحفلات والولائم الكبيرة. (معجم المصطلحات ١١٨).

إذا حلَباً وافَيْتها حيِّ أهلها وقل لهم: مشتاقكم لم يُهَوِّم

/١٥٧ب/ ومن شِعره، رحمه اللّه:

ألا هل يعيد اللّهُ وصْلَ الحبايب فقد طال حزني من دموعي السّواكب
لحم جرت في حلبة الشوق من دمي وجرت دموعي الشُهب مثل الجنايب
تروم اللواحي من سواي تصبُّراً وكم خاف منّي من عدوٍّ وصاحب
قضى الصبرُ في توديع بعض حبائبي[١] وأودع نادراً في سُوَيداء أترائبي
جفا النومُ عيني حين فاضت مدامعي وخاف هلاكاً في خلال النحايب
وكيف أُرجّى النومَ بعد بعادكم وفي قلبيَ الأشواق من كل جانب
دمي قد أظلّته نواظر غادةٍ هي الشمسُ تُجْلَى في سجوف الغياهب
رَمَتْني بسهم من كنانةِ سِحْرها فصار عليَّ الوجدُ ضربةَ لازب
وأصبحتُ عبداً بعدما كنت مالكاً كذلك ربّ السجن يوسف صاحبي

ومن شِعره، رحمه اللّه، وقد أنشد هذا الشعر من قول الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكّنا
فُطِرتُ على حبّي لها وأِلفْتُه ولا بُدّ أن ألقى به اللّه معلنا
ولم يخْلُ من قلبي هواها بقدر ما أقول أتاه فارغاً فتمكّنا

ومن شِعره، رحمه اللّه، هذا المخمّس:

أقول وقد غنّت على باب لعلع مطوّقةٌ ما نَوْحها عن تفجّع
وقد أضرمتْ في القلب نارَ التّوجّع حمامةُ غُصنِ البان إن كنت تدّعي
فراق حبيبٍ بان من غير موجع

فهلّا أذْبتَ الجسم من بعد بُعدنا وكان له بالحزن عن ذ[ي][٢] العنا غِنا
أَوَرقاء إنْ كان الهوى منك بيننا فأين البُكا والوجدُ والشوقُ والضنا
ولون محبّ مُستهامٍ مُوجع

ألم تنظري لي مهجةً قد تحرّقتْ على جيرةٍ كانت بهم قد تعلّقت
ولي مُقلةٌ من بعدهم قد تقرّحتْ لك اللّه لو ذُقتِ الهوى لتدفّقت
/١٥٨أ/ عيونك إن لم تُسعديها بأدمُع

فؤادي في بحرٍ من الشوق قد طما ولكنّه قد مات من دونه ظما

(١) رُسمت هكذا في الأصل، ولم أتبيّن صحّتها.
(٢) زيادة للتصويب.

أنا بيت أَيْكٍ قد بُغيتُ على الحِمَى خذي من فنون الوجد عنّي فإنّما
بدمعي يروى بأن سفح طُويلع
تسلى بأنفاسي وأسقي بعبرتي فما ريحُهُ إلّا تصعُّد زفرتي
ولا ماؤه إلّا بقطرة دمعتي فلا تحسبي نيرانَه غير مهجتي
ولا ترعى غُدرانه غيرُ أدمعي

ومن شِعره، رحمه اللّه:

من طول هجرك لا أمل لي بالتّفكُّر فيك شُغلُ
يا قاتلي بصدوده والـ قتل عمداً لا يحلُّ
الشمس أنت وإنّما لك وجه هذا الشمس ظلُّ
واعلم بأنّي منك يا روحي على شُرُف يُطِل
مالي إذا أمل الورى جَور الصبابةِ لا أمل
ولو أنّ روحي نظرتْ دنِفاً عليك استقل

ومن شِعره، رحمه اللّه:

فواللّهِ لو قَطَّعَتْ قلبي تأسّفاً وجرّعتني كاساتِ دمعي دماً صِرْفا
لما زادني إلّا هوًى ومحبّةً ولا اتّخذتْ روحي سواك لها إلْفا

ومن شِعره، رحمه اللّه:

أبى الوجدُ إلّا أنْ أموت تأسُّفاً ألم يجر من دمعي على الوجد مألفا
لك اللّه دعني يا عذولي فإنّني بما جرت من بلوى الغرام على شفا
إذا لم يكن لي مسعداً فدع الهوى لعلّي أشكو[1] ما لقيت لتنصفا
تعشّقت أحرى أغنَّ، مهفهفا رشأً[2] كحيلاً مائل العِطف أهيفا
سبى اللؤلؤَ المكنون من نظْم ثغره واخجل أقداح السُلافة مرشفا
/ ١٥٨ب/ أيعقوبُ إنّي يوسُف قد تركتني من الحزن يعقوباً وأصبحتُ يوسفا
فما لك لا تحنو[3] عليّ وعُذّلي بكوا لي حتّى عاد يبكي لي الصفا
وأمسيتُ مخذولاً وقد كنت ناصراً وكنت مليكاً صرتُ عبداً مُكلَفا

ومن شِعره، رحمه اللّه:

البدر يجنح للغروب ومُهجتي لفراق مشبّهة أسىً تتقطّع

---

(١) في الأصل: «أشكوا».
(٢) في الأصل: «رسا».
(٣) في الأصل: «تحنوا».

والشرب[١] قد خاط النّعاس جفونهم والصُبح من جلبابه يتطلّع

ومن شِعره، رحمه اللّه:

اليوم يوم الأربعا فيه يطيب المربعا
يا صاحبي أما ترى شمل المنى[٢] قد جمعا
وقد حوى مجلسنا جُلّ السرور أجمعا
فقُمْ بها نشربها ثلاثةً وأربعا
من كفّ ساق أهيَفٍ يشبه بدراً طلعا
يسطو ويرنو[٣] تارةً كالليث والظبْي معا

ومن شِعره، رحمه اللّه، قاله لما تُوُفّي سيف الدين بكتاش مملوك مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين بن العديم:

نُبّئتُ أنّ السيف فلّ غرارُه وقد كنت أرجوه لنائبة الدهرِ
فعاندني فيه الزمانُ ورِيْبُهُ وجاءت صروفُ الدّهر من حيث لا أدري

وكان السلطان الملك الناصر، رحمه اللّه، بنى بدمشق مدرسةً حسنة قريب الجامع، وتُعرف بالناصرية، ووقف عليها وقفاً جليلاً، وجعل في خزانة كتبها كتباً جليلة المقدار جدّاً، وقفها على الفقهاء بالمدرسة، ومن يرد إلى المدرسة، وبنى بالصالحية تُربةً، غرم عليها غرامات كثيرة، وأحضر لها من حلب من الرخام الأصفر شيئاً كثيراً، ونهرُ يزيد جارٍ فيها، وشبابيكُها/ ١٥٩أ/ مشرفة على دمشق والغوطة، وكان يُظنّ أنّه يُدفن بها. وقدِم عليه بعض رسل التتر ورآها، وسأل عنها، فقيل له إنّه بناها ليُدفن بها، فقال: ما دام التتر خلفه ما يتركونه يُدفن حيث يختار، فقدّر اللّه سبحانه أنّه كانت منيّتُه في بلاد التتر.

وكان عُمُره، رحمه اللّه، نحو اثنين[٤] وثلاثين سنة، لأنّ مولده كان سنة سبعٍ وعشرين وستمائة، رحمه اللّه ورضي عنه.

ذِكر بعض المتجدّدات في هذه السنة

[قتل نقيب قلعة دمشق وواليها]

في الخامس عشر من شعبان من هذه السنة أخرج التتر نقيبَ قلعة دمشق

(١) هكذا في الأصل، ولا معنى لها هنا.
(٢) في الأصل: «المنا».
(٣) في الأصل: «يسطوا ويرنوا».
(٤) الصواب: «اثنتين».

وواليها، وضربوا أعناقهما بداريّا، وكانا في الاعتقال من حين تسلّموا قلعة دمشق(١).

وتجهّز التتر نحو بلاد الساحل، وأخذوا الرجال من الحارات والأسواق، واشتهر عند أهل دمشق خروج عساكر المسلمين من مصر لمحاربة التتر.

[الانتقام من نصارى دمشق]

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان أوقع المسلمون بالمدينة بالنصارى، فأخربوا(٢) كنيسة مريم، وكانت كنيسةً عظيمة، وهي بالقرب من باب توما وباب الشرقي(٣).

[فتح دمشق في العهد الراشدي]

وكانت دمشق لما فتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه دخلها خالد بن الوليد من جهة الباب الشرقي بالسيف، ودخلها أبو عُبيدة رضي اللَّه عنهم من جهة باب الجابية(٤) بالأمان. فكانت كنيسة مريم في الجانب الذي [أخِذ](٥) عنوةً، والكنيسة التي كانت إلى جانب الجامع في الجانب الذي أُخِذ بالأمان، فأبقى للنصارى التي إلى جانب الجامع، ولم يُطلق لهم كنيسة مريم، لأنها في الجانب الذي أُخذ عَنوةً(٦).

ولما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة خرّب الكنيسة التي إلى جانب الجامع، وأضافها إلى الجامع(٧).

ومنارتها التي كان يُضرب عليها/ ١٥٩ب/ الناقوس باقية إلى الآن.

---

(١) ذيل مرآة الزمان ٣/ ٩٢، ذيل الروضتين ٢٠٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٥٦، البداية والنهاية ١٣/ ٣١٩، السلوك ج١ ق٢/ ٤٢٦.

(٢) في الأصل: «فأخربو».

(٣) ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٦٢، ٣٦٣، ذيل الروضتين ٢٠٨، أخبار الأيوبيين ١٧٥، الدرّة الزكية ٥٢، ٥٣، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٤، ٢٠٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٢، دول الإسلام ٢/ ١٦٣، مرآة الجنان ٤/ ١٤٩ البداية والنهاية ١٣/ ٢٢١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٦، السلوك ج١ ق٢/ ٤٣٢، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٠٤، ٢٠٥، تاريخ ابن سباط ١/ ٢٩٣، تاريخ الأزمنة ٢٤٣، شذرات الذهب ٥/ ٢٩١.

(٤) باب الجابية: من غربيّ دمشق، منسوب إلى قرية الجابية، لأن الخارج إليها يخرج منه لكونه مما يليها. وكان ثلاثة أبواب: الأوسط منها كبير، ومن جانبيه بابان صغيران. انظر: تاريخ مدينة دمشق ـ لابن عساكر، طبعة دار الفكر ـ ج٢/ ٤٠٨.

(٥) إضافة يقتضيها السياق.

(٦) تاريخ دمشق ٢/ ١١٢ وكان فتح دمشق في سنة ١٤هـ.

(٧) تاريخ دمشق ٢/ ٢٥٣.

ولما ولي عمر ابن[١] عبد العزيز رضي اللَّه عنه عوّضهم عن تلك الكنيسة بكنيسة[٢] مريم، فخرّبها المسلمون في هذا اليوم غيظاً عليهم، لأنهم في دولة التتر استطالوا على المسلمين، وتظاهروا بضرب الناقوس، ودخلوا الجامع على ما ذكر بالخمر، فعفّوا آثار الكنيسة ونهبوا دُور النصارى وخرّبوا بيوتهم، واستغنى أكثر الخلق من أموالهم، وتركوهم على الأرض، وقتلوا بعضهم.

وفي غد هذا اليوم نهبوا اليهود وتركوا حوانيتهم دكًّا، ولولا أنّه تداركهم عسكر المسلمين وإلّا كانوا أخربوا كنيستهم[٣]، وأخربوا بيوتهم. واختفت النصارى فلم يجسر أحدٌ منهم يظهر، وقُتل أيضاً جماعة من المسلمين كانوا يلزّون بالتتر ويخدمونهم، وقتل أهل دمشق جماعة من المُغْل والعجم المظاهرين للتتر في ظاهر البلد وباطنه.

وكان ـ على ما قيل ـ في نيّة النصارى إنْ ظهر التترُ على المسلمين، أن يخرّبوا المساجد، ويفعلوا العظائم بالمسلمين، فكفى اللَّه المسلمين شرّهم، وجعل الدائرةَ عليهم.

ذِكر انتصار المسلمين على التتر بعين جالوت

لما اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر ألقى اللَّه تعالى في روع السلطان الملك المظفّر سيف الدين قُطُز المُعِزّي، رحمه اللَّه، أن يخرج بالعساكر الإسلامية لقتالهم، بعد أن كانت القلوب قد يئست من النُصرة عليهم، ولما تحقّقوه من كثرة جموعهم، واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين، وأنّهم ما قصدوا إقليماً إلّا وفتحوه، ولا عسكرَ إلّا هزموه، ولم يبق خارجاً عنهم في جانب المشرق إلّا الديار المصرية، والحجاز، واليمن. وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا/ ١٦٠أ/ بمصر إلى الغرب، وجماعة من الناس إلى اليمن والحجاز، والباقون بقوا في وجَلٍ عظيم وخوفٍ شديد، يتوقّعون وصول العدوّ وأخْذه البلاد.

[اللقاء الأول بين المؤلّف والملك المنصور]

وكنت كثيراً أتردّد إلى خدمة مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور، صاحب حماه، رحمه اللَّه، ولم يكن تقدّمتْ لي معرفة [به][٤]. فإنّي لما كنت في خدمة السلطان الملك المظفّر، كان صغيراً جداً، وفارقتُ حماه من مرض والده وكان عُمُره

(١) الصواب: «عمر بن».
(٢) تاريخ دمشق ٢/ ٢٧٣، ٢٧٤.
(٣) الصواب: «كنسيهم».
(٤) إضافة يقتضيها السياق.

نحو تسع سنين، فلما قدم مصر، ونزل بداره في درب شمس الدولة، عرّفه بي أخي، فإنّه كان في خدمته، وله به أنسٌ كثير.

وكان كثيراً يُجري ذِكري، فيودّ لو رآني. فلما اجتمعتُ بخدمته بالقاهرة مال إليّ، رحمه اللّه، جدّاً، وسُرّ بي سروراً كثيراً، ولازَمتُهُ مدّة مُقامي بالقاهرة، فأجريت يوماً عنده ذكر حماه، وقلت: يا خَوَنْد، إنْ شاء اللّهُ ترجع إلى مقرّ مُلكك، وأخي في خدمتك، وأقيم تحت ظلّك. فتعجّب من قولي هذا، وقال: سبحان اللّه، مثلُك في ذكائك ومعرفتك تقول هذا القول، وتؤمّل هذا الأمل، متى يُتَصَوَّر هذا أو يتّفق؟

فقلت: أو يقدّر اللّه سبحانه ذلك وييسّره، وما ذلك على اللّه بعزيز.

وصمّم الملك المظفّر عزمه على لقاء التتر، وخرج في الجحافل الشامية والمصرية من القاهرة، في شهر رمضان، من هذه السنة، وخرج في صُحبته السلطان الملك المنصور، رحمه اللّه، وخرجتُ في صُحبته مودّعاً له إلى الصالحية، وأفطرت ليلةً عند السلطان الملك المنصور وودّعته، وأنشدته هذين البيتين:

سَيْري إليكم بالحقيقة والذي تجدون عنكم فهو سَير الدهر بي
أنحوكم ويُردّ وجهي القهقرى دهري فسَيْري مثل سَير الكوكَبِ

وهذان البيتان أظنّهما للقاضي الأرّجانيّ(١)، ومَعناهما لطيف/ ١٦٠ب/ إلى الغاية، فإنّ أهل الهيئة يقولون: إنّ الكواكب السبعة تسير بها أفلاكها الخاصّة بها من المغرب إلى المشرق، والفَلَك الأقصى يردّها قهراً إلى جهة المغرب، فتحريكه لها

---

(١) هذا أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرّجاني، ناصح الدين، قاضي تستر، وصاحب الديوان المشهور. توفي سنة ٥٤٤هـ. انظر عنه في:
المنتظم ١٠/ ١٣٩، ١٤٠ رقم ٢١٠ (١٨/ ٧٢ ـ ٧٤ رقم ٤١٥٩)، والأنساب ١/ ١٧٤، ومعجم البلدان ١/ ١٤٤، وخريدة القصر (قسم العراق) ١/ ١٤١، ١٨٧، ١٨٨ و٢/ ١٩٠، والتذكرة الفخرية للإربلي ١٦، ١٦٨، ١٨٣، ٢٦٠، وبدائع البدائه لابن ظافر ٣٧٨ رقم ٤٧٢، والكامل في التاريخ ـ بتحقيقنا ـ ج٩/ ١٧٤، والمختصر في أخبار البشر ٢/ ٤٩، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٢٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢١٠، ٢١١ رقم ١٣٤، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٠٦، ودول الإسلام ٢/ ٦٠، والعبر ٤/ ١٢١، وتاريخ الإسلام (وفيات ٥٤٤هـ.) ١٧٦ ـ ١٨٢ رقم ١٩٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٧، ٧٨، ومرآة الجنان ٣/ ٢٨١، ٢٨٢، وطبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٥١، ٥٢، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ١١٠ ـ ١١٢، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٢٢ ـ ٤٣٠، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٢٦، ٢٢٧، والوافي بالوفيات ٧/ ٣٧٣ ـ ٣٧٨، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٨٥، وتاريخ الخلفاء ٤٤٢، ومعاهد التنصيص ٣/ ٤١ ـ ٤٦، وشذرات الذهب ٤/ ١٣٧، وهدية العارفين ١/ ٨٤، وديوان الإسلام ١/ ١٠٢ رقم ١٣٠، وتاريخ الأدب العربي ٥/ ٣٣، ٣٤، وانظر ديوانه، طبعة المطبعة الجديدة، بيروت ١٣٠٧هـ ـ بتصحيح أحمد عباس الأزهري، وطبعة ١٣١٧هـ. ببيروت، نشره عبد الباسط الأنسي.

بضدّ حركة أفلاكها بها، فشبّه هذا للممدوح[١] نفسه في أنّه أبداً يقصد جهة ممدوحه، ويردّه الدهر إلى خلاف تلك الجهة، كردّ الفَلَك الأقصى الكواكب السبعة إلى ضدّ الجهة التي يتحرّك إليها الكواكب السبعة.

وكان في صُحبة السلطان الملك المظفّر الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب، وهو أكبر من أكثر الأمراء الصالحية.

وكنّا ذكرنا أنه انتصب أتابكاً للملك المنصور علي بن الملك المُعِزّ، بعد القبض على الأمير عَلَم الدين سَنْجر الحلبيّ.

ولما قبض الملك المظفّر على ابن أستاذه الملك المنصور واعتقله، بقي الأتابك، وكانت الأمور مفوّضة إليه كلّها، وسيّر إلى سلطاننا الملك المنصور، ونحن بالصالحية: لا تحتفلْ في هذا بسِماط، بل كلّ واحدٍ من أصحابك يُفْطر على قطعة لحمٍ في صَولقه.

وسافر الملك المظفّر بالجحافل من الصالحية ووصل إلى غزّة، والقلوب وجِلة خائفة على المسلمين.

وجمع كتُبُغا مَن في الشام من التتر، وقصد محاربة، المسلمين، وفي صُحبته الملك السعيد بن الملك العزيز بن الملك العادل.

[مقتل كتبُغا مقدَّم التتار]

ثم رحل الملك المظفّر من غزّة، ووصل إلى الغَور، وفيه جموع التتر، فوقع المصافّ بين المسلمين والتتر في يوم الجمعة، الخامس والعشرين من شهر رمضان، من هذه السنة، فانهزم التتر هزيمة قبيحة، وأخذتهم سيوف المسلمين، وقُتل كُتْبُغا[٢] مقدَّمهم، واستؤسر ابنُه، وتعلّق من سلِم منهم برؤوس[٣] الجبال، واتّبعهم المسلمون فأفنوا أكثرهم، وولّى الباقون منهزمين، طالبين جهة الشرق، واتّبعهم الأمير ركن الدين

---

(١) في الأصل: «للمدوح».

(٢) انظر عن (كتبغا) في:
ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٦١، وتاريخ الزمان ٣١٧، وتاريخ مختصر الدول ٢٨٠، ٢٨١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٥، والعبر ٥/ ٢٤٧، ٢٤٨، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٨هـ.) ٣٥٥، ٣٥٦ رقم ٤٥٥، ودول الإسلام ٢/ ١٦٤، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٤٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٢٦، ٢٢٧، والوافي بالوفيات ٢٤/ ٣١٨ رقم ٣٣٤، والجوهر الثمين ٢/ ٦٣، والنفحة المسكية ـ بتحقيقنا ـ ص٥١، وزبدة الفكرة ٥١، والنجوم الزاهرة ٧/ ٩٠، وعقد الجمان (١) ٢٨٠ ـ ٢٨٢.

(٣) في الأصل: «برؤس».

البُنْدقداري في جماعة/ ١٦١أ/ شجعان من العسكر إلى أطراف البلاد، وقبض على الملك السعيد بن الملك العزيز[(١)]، وكان معهم، وأُحضِر، فأمر الملك المظفّر قُطُز بضرب عنقه فضُربت.

[تأمين الأشرف مظفّر]

وكان الملك الأشرف مظفّر الدين موسى بن الملك المنصور صاحب حماه معهم، كما قدّمنا ذِكره، ففارقهم وسيّر إلى الملك المظفّر بطلب الأمان منه، فآمنه، فوصل إليه فأكرمه وردّ إليه حماه، وبارين، ومَعَرّة النُعمان. وكانت المَعَرّة قد أخذها الحلبيّون منه من سنة خمسٍ وثلاثين وستمائة. وأنعم الملك المظفّر بسَلَمية، وكانت قبل ذلك للملك المنصور علي صهر الأمير شرف الدين عيسى بن مُهَنّا بن مانع أمير العرب[(٢)].

وفي هذه الوقعة[(٣)] يقول الصاحب شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن

---

(١) هو الملك حسن بن عثمان بن العادل، صاحب الصبيبة وبانياس. انظر عنه في:
ذيل الروضتين ٢٠٧، ٢٠٨، وذيل مرآة الزمان ١/ ٣٣٦، ودول الإسلام ٢/ ١٦٤، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٦، والعبر ٥/ ٢٤٥، ٢٤٦، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٧هـ.) ص٣٤٠، ٣٤١ رقم ٤٢٥، والدرة الزكية ٥١، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٢٥ وفيه: «حسن بن عبد العزيز» وهو وهْم، والوافي بالوفيات ١٢/ ١٠٠، ١٠١، رقم ٨٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٣٥، ٢٣٦، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٤١، وعقد الجمان (١) ٢٧٧، والنجوم الزاهرة ٧/ ٩٢، والمنهل الصافي ٥/ ٩٠ ـ ٩٢ رقم ٩٠٦، والدليل الشافي ١/ ٢٦٤، وشفاء القلوب ٣٦٠، ٣٦١، رقم ٧٩، وترويح القلوب ٧١، وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٢، وزبدة الفكرة ٥١، ونزهة الأنام ٢٧١.

(٢) ذيل الروضتين ٢٢٩، ذيل مرآة الزمان ٢/ ٣١٤.

(٣) انظر عن (وقعة عين جالوت) في:
ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧، وذيل الروضتين ٢٠٧، ٢٠٨ و٢٠٩، والحوادث الجامعة ١٦٦، والروض الزاهر ٦٣ ـ ٦٦، والدرّة الزكية ٤٩ ـ ٥١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٥، والتحفة الملوكية ٤٣، ٤٤، وزبدة الفكرة ٥٠ ـ ٥٢، ونزهة المالك ١٤٩، وتاريخ النوادر ٤/ ورقة ٦٩أ، ونهاية الأرب ٢٩/ ٤٧٤، وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني ٣١٣، والفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، لشافع بن علي ـ بتحقيقنا ـ ص٨٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٨٠، وحسن المناقب السرية، ورقة ٧ب، وتالي كتاب وفيات الأعيان ١٢٩ وفيه: «عين جالود»، ودول الإسلام ٢/ ١٦٣، والعبر ٥/ ٢٤٢، ٢٤٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٠ ـ ٦٢، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٩، وأخبار الأيوبيين ١٧٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠٦، ٢٠٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٢٠، ٢٢١، ومآثر الإنافة ٢/ ١٠٥، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٧٩، ونزهة الأنام ٢٦٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٣٠، ٤٣١، وعقد الجمان (١) ٢٤٣، ٢٤٤، والنجوم الزاهرة ٧/ ٧٧ ـ ٨١، وتاريخ الخلفاء ٤٧٥، وشذرات الذهب ٥/ ٢٩١، وتحقيق النصرة للمراغي ٧٠، ومعركة عين جالوت للدكتور عماد عبد السلام رؤوف ـ بغداد ١٩٨٦.

عبد المحسن الأنصاري، شيخ الشيوخ، يهنّئ السلطان الملك المنصور بهذا الفتح الجليل ويصف ما كان له من الأثر بقصيدةٍ مطلعُها:

رُعتَ العِدى فضمنْتَ ثلّ عروشها	ولقيتَها فأخذتَ فلّ جيوشها
للّه درّ كتيبةٍ ملمومة	تبغيك حين حملتَ في شاليشها
نازلتَ أملاك التتار فأنزلتْ	عن فحلها قسراً وعن إكديشها
فغدا لسيفك في رقاب كُماتها	حصْدَ المناجل في يبيس حشيشها
صمّت عن الإنذار حتى أوحرت	صمّا بفتح مسمعي أطروشها
روّيت أكبادَ القنا بدمائهم	لما أطال سواكَ في تعطيشها
فتشقّ غُلف قلوبهم عن غلّها	عُمري لقد بالغن في تفتيشها
فُقْتَ الملوك ببذل ما تحويه إذ	ختمت خزائنهم على منقوشها
نزلَتْ على ما ترتضيه ولو أبتْ	أركبتَها قهْراً ظهورَ نعوشها
/١٦١ب/ وطويت عن مصر فسيح مراحل	ما بين بركتها وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادَها	من رومها الأقصى إلى أحبوشها
فرشَتْ حماةُ لوطْأة نعلِك خدَّها	فوطئتَ عينَ الشمس من مفروشها
وضربْت سكّتها التي أخلصتها	عمّا يشوب النقْدَ من مغشوشها
وكذا المَعَرَّة مُذ ملكْتَ قيادها	دهشت سروراً منك في مدهوشها
طربَتْ برجعتها إليك كأنّما	سكرت بخمرةِ كاسها أو جيشها
شمَل الرعايا منك بِرٌّ زاد في	إفراطه ما زاد من تشويشها
لا زلت تنعش بالنوال فقيرَها	وتنال أقصى الحمد من منقوشها

[دخول قطز دمشق]

ووصل السلطان الملك المظفّر سيف الدين قُطُز، رحمه اللّه، بعد كسر التتر إلى دمشق بالعساكر، وفي صُحبته مولانا السلطان الملك المنصور، قدّس اللّه روحه، فابتهجتْ بذلك الرعايا، وتضاعف شُكرهم للّه تعالى، إذ نصر المسلمين، وهزم الكفّار، والتقاه أهل دمشق شاكرين للّه سبحانه على النُصرة، والظفر بالعدوّ، وذلك بعد أن عفّى المسلمون آثار النصارى، وخرّبوا كنائسهم، وهدموا دُورهم جزاءً لِما كانوا أسلفوه من ضرب النواقيس على رؤوس[1] المسلمين، ودخولهم بالخمور في الجامع، واستهانتهم بالمسلمين.

---

(١) في الأصل: «رؤس».

وفي ذلك يقول بعض شعراء دمشق:

هلك الكُفر في الشام جميعاً	واستجدّ الإسلامُ بعد دحوضِهِ
بالملك المظفّر الملك الأروع	سيفِ الإسلام عند نهوضِهِ
ملك جاءنا بعزمٍ وحزمٍ	فاعتززنا بسُمْره وبيضِهِ
أوجب اللَّه شُكر ذاك علينا	دائماً مثل واجبات فُرُوضِهِ

وأمر الملك المظفّر يوم دخوله دمشق بشنْق جماعةٍ من المفسدين، وفيهم الحسين الكردي طبر[1] دار السلطان الملك الناصر، رحمه اللَّه، وهو/ ١٦٢أ/ الذي خدع الملك الناصر، كما قدّمنا ذكره، حتى أوقعه في أيدي التتر.

[عودة الملك المنصور إلى حماه]

وتوجّه السلطان الملك المنصور، رحمه اللَّه، إلى حماه بعد أن تقدّمه إليها أستاذ داره الأمير مبارز الدين أقُش[2].

وكان الخبر لما وصل إلى خسروشاه النائب عن التتر بحماه، بكسر التتر، خاف على نفسه من المسلمين، فأوهم أهلَ حماه أنّ الفرنج قد عزموا على قصد حماه، ونادى في الناس أن يغتدوا للقائهم، فاشتغلهم[3] بذلك. وسافر هو وأصحابه إلى جهة الشرق. وقدِم الأمير مبارز الدين إلى حماه، فنزل بداره التي بشاطئ العاصي، وسُرّ الناس بمَقْدمه، ووصل بعده السلطان الملك المنصور، وقبض على جماعةٍ كانوا قد خدموا التتر، فاعتقلهم في القلعة.

[ترتيب أمراء بالنواحي]

وتوجّه السلطان الملك المظفّر سيف الدين قُطُز عائداً إلى الديار المصرية بمن معه من الجيوش، وفوّض إلى الأمير مبارز الدين أقُش البُرْلي، أمير الساحل، من غزّة إلى الجسر الذي بالغور[4] على نهر الأردنّ، ورتّب عنده جماعة من العزيزية وغيرهم، وممّن رتّب عنده من الأمراء العزيزية الأمير عَلَم الدين الوباش[5]، وكان

---

(١) في الأصل: «طير»، و«طبردار»: لفظ فارسي، أصل: «طبرزين». سلاح حربي يشبه الفأس. وانظر الخبر في: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٣.

(٢) المختصر لأبي الفداء ٣/ ٢٠٦، نهاية الأرب ٢٩/ ٤٥٧، البداية والنهاية ١٣/ ٢٢٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ٦٣، السلوك ج١ ق٢/ ٤٣٣، عقد الجمان (١) ٢٤٨.

(٣) الصواب: «فشغلهم».

(٤) في الأصل: «الذي العود».

(٥) مهمل في الأصل.

رجلاً ديّناً، سمع كثيراً من الأحاديث النبوية، وعزّ الدين أيبك السليماني، وبدر الدين الأتابكي، وبدر الدين المعرب، وغيرهم. ودَرَّك شمسَ الدين الساحل، واعتمد عليه فيه لِما يعلمه من شجاعته وجودة رأيه، وأقطعه ولمن معه إقطاعات جليلة.

وكنّا ذكرنا أنّ شمس الدين كان هرب من مصر إلى الشام، لما نُمي إلى الملك المُعِزّ أن العزيزية أرادوا القبض عليه، وأنّ الملك المُعِزّ قبض على جمال الدين أيدُغدي العزيزي واعتقله. وأنه لما قُتل الملك المُعِزّ كان جمال الدين معتَقَلاً، فنُقِل إلى إسكندرية، وبقي بها معتَقَلاً. فلما خرج الملك المظفّر إلى الشام/ ١٦٢ب/ للقاء التتر أمر بإخراج الأمير جمال الدين من الاعتقال فخرج ولحِق بالملك المظفّر بالشام، وقدِم معه إلى مصر لما عاد من الشام، وجرى ما سنذكره.

وأمّا شمس الدين أقُش فإنّه وصل إلى السلطان الملك الناصر، ثم إنه قبض عليه واعتقله بقلعة عجلون لأمرٍ بلغه عنه، فلما أخذ التتر حلبَ، واندفع الملك الناصر إلى جهة الديار المصرية، أخرجه من الاعتقال، وسافر معه. فلما هرب الملك الناصر من قَطْيا، ودخل العسكر إلى القاهرة، دخل معهم، وقرّبه الملك المظفّر، وأحسن إليه، فلما كسر الملك المظفّر التتر رتّبه وبعضَ العزيزية بالساحل، كما ذكرنا. وكان مقرُّه تارةً بنابلس، وتارةً ببيت المقدس.

[نيابة السلطنة بدمشق]

وفوّض الملك المظفّر نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير عَلَم الدين سَنْجَر الحلبيّ، وهو الذي كان أتابكاً للملك المنصور بن الملك المُعِزّ أوّلاً، ثم قبض عليه، وولي الأتابكية بعده فارسُ الدين أقطاي المستعرب[1].

[نيابة السلطنة بحلب]

وفوّض نيابة السلطنة بحلب إلى الأمير بدر الدين طيدم[2] العزيزي، وبقي بدمشق أياماً.

ثم تُوفّي، ففوّض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل[3]. وكان خرج في صُحبة الملك لما خرج إلى الشام. وكان سبب تفويض ذلك إليه أنّ أخاه الملك الصالح كان بالموصل قد مَلَكها بعد أبيه

(١) نزهة الأنام ٢٦٥، زبدة الفكرة ٥٢، ذيل الروضتين ٢١٠، إعلام الورى، لابن طولون ٤.
(٢) هكذا في الأصل.
(٣) زبدة الفكرة ٥٢، نزهة الأنام ٢٦٥.

بدر الدين لؤلؤ. وكان له أخٌ آخر متملّك[١] لجزيرة ابن عمر[٢] يقصد بتوليته أن يكاتبهما ليكاتباه بأخبار التتر. وجرّد الملك المظفّر معه كل من كان إقطاعه بحلب في الأيام الناصرية، ومن جملة من كان في صُحبته من الأمراء العزيزية: الأمير حسام الدين العزيزي الجَوكنْدار، وبكتَمُر الساقي العزيزي، وجماعة من العزيزية والناصرية.

ولما وصلوا إلى حلب عاملهم الملك السعيد معاملةً وذية/ ١٦٣أ/ وسار بحلب سيرةً غير مُرْضية، وكان دأبه التحيُّل في أخْذ مال الرعيّة، فكان ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر مقتل الملك قُطُز رحمه اللّه
واستقلال الملك الظاهر ركن الدين البندقداري بالسلطنة

ولما وصل السلطان الملك المظفّر، رحمه اللّه، إلى القُصَير من الرمل، وبينه وبين الصالحية مرحلة واحدة، رحل العسكر طالباً الصالحية، وضرب الدّهليز السلطانيّ بها. وكان جماعة قد اتّفقوا على قتْله، منهم ركن الدين بيبرس البُنْدُقْداري الصالحيّ، وقد تقدّم ذِكر قتْله الملك المعظّم تورانشاه بن السلطان الملك الصالح، رحمهما اللّه، وما كان منه من الحوادث.

وكان شهماً شجاعاً، مقداماً، ساعده القدر إلى أن بلّغه أعلى المراتب، وفتح على يديه على ما سنذكره الفتوحات الجليلة من بلاد الفرنج، وانتصر به على التتر. وكان من جملة من اتّفق معه سيف الدين أنص، وهو من غلمان نجم الدين الرومي الصّالحيّ.

وقد ذُكر قتْلُ الملكِ المظفّر له في الوقعة التي كانت بينه وبين الملك المغيث بن الملك العادل صاحب الكرَك.

وكان الملك الظاهر المذكور قد طلب من الملك الناصر، رحمه اللّه، أن يسيّر معه عسكراً يلقى بهم التتر، فلم يُجبْه إلى ذلك لعدم ثقته به.

ثم لما ملك الملك المظفّر قُطُز دمشق طلب منه أن يستنيبه بحلب، فلم يُجبْه إلى ذلك. وكانت نفسه أبداً تطلب معالي الأمور حتّى نالها، وكان معه في هذا الاتّفاق مملوكٌ يقال له الهارونيّ، وعَلَم الدين صون أغلي، وكانت له أيضاً همّة عالية يسمو إلى معالي الأمور. وسنذكر شيئاً من أخباره، وكان معه أيضاً (غير)[٣] هؤلاء. فاتفق عند القُصَير أنه ثارت أرنب فحمل الملك المظفّر عليها، وحمل هؤلاء المتّفقون على قتله معه، فلما أبعدوا ولم يبق معه غيرهم تقدّم إليه الملك/ ١٦٣ب/ الظاهر ركن

---

(١) الصواب: «متملّكا».
(٢) في الأصل: «الجزيرة أبي عمر».
(٣) عن هامش المخطوط.

الدين، وشفع إليه في إنسانٍ، فأجابه إلى ذلك، فأهوى لتقبيل يده، وقبض على يده ليقبّلها، وحمل أنُص على الملك المظفّر، وقد أشغل الملك الظاهر يده وضربه أنص بالسيف، وحمل الباقون عليه ورموه عن فرسه، ورشقوه بالنّشاب وقتلوه[(١)]، ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتّى وصلوا إلى الدّهليز السُلطانيّ، فنزلوا ودخلوه، والأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب على باب الدِهليز، وأخبروه بما فعلوا.

فقال: من قتله منكم؟

فقال الملك الظاهر: أنا.

فقال: يا خَوَنْد اجلس في مرتبة السلطنة.

فجلس، واستُدعيت العساكر للحَلَف[(٢)].

وكان القاضي برهان الدين الخضر بن الحسن، رحمه اللّه، قد وصل إلى العسكر ملتقياً للملك المظفَّر، رحمه اللّه، فاستُدعي، وحلف العسكر للسلطان الملك الظاهر ركن الدين. واستقرّت قدمه في السلطنة، وأطاعته العساكر.

---

(١) انظر عن (قطز ومقتله) في:

ذيل الروضتين ٢١٠، وذيل مرآة الزمان ٢/ ٢٨ ـ ٣٦، وأخبار الأيوبيين ١٧٦، والحوادث الجامعة ٤٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٧، والدرّة الزكية ٦١، والروض الزاهر ٦٨، وحسن المناقب السرية، ورقة ٩ و١٣٦، وتاريخ مختصر الدول ٨٢، وتاريخ الزمان ٣١٩، ونهاية الأرب ٢٩/ ٤٧٧، ٤٧٨، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٥٠ و١٢٩، والعبر ٥/ ٢٤٧، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٠٠، ٢٠١ رقم ١١٩، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٥، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٦، ودول الإسلام ٢/ ١٦٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٤، ٦٥ و(وفيات ٦٥٨هـ.) ٣٥٢ ـ ٣٥٥ رقم ٤٥٤، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٩، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٢٧٧، والتحفة الملوكية ٤٥، وزبدة الفكرة ٥٣، ٥٤، وآثار الأول في ترتيب الدول، للعباسي ٢٦٨، ونزهة المالك والمملوك، له ١٥٠، وتاريخ النوادر ٤/ ورقة ١٦٩، ونزهة الأنام ٢٦٧، وفوات الوفيات ٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٣ رقم ٣٩٨، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٢٥ ـ ٢٢٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٢٩، و٢٤١ ـ ٢٤٣، والجوهر الثمين ٢/ ٥٩ ـ ٦٥، والنفحة المسكية ٥٢، والنور اللائح ٥٦، وفوات الوفيات ٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٣ رقم ٣٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٨٠، ٣٨١، ومآثر الإنافة ٢/ ١٠٥، والدرة المضية لابن صصرى ١٨٠، والوافي بالوفيات ٢٤/ ٢٥١ ـ ٢٥٣ رقم ٢٦٦، والسلوك ج١ ق٢/ ٣٠٧، ٣٠٨، وعقد الجمان (١) ٣٥٢ ـ ٣٥٤، والنجوم الزاهرة ٧/ ٨٣، وتاريخ الأشرف قايتباي ٥٨، وتاريخ الخلفاء ٤٧٦، وحسن المحاضرة ٢/ ٣٩، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٩٧، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣٠٨، وتحفة الأحباب ٤١٠، ونزهة الأساطين ٧٣ رقم ٤، وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٣، وأخبار الدول ١٩٨، وتحفة الناظرين ١/ ١٧٨، ١٧٩.

(٢) الروض الزاهر ٦٩.

[رؤيا شخص عن المظفّر قُطُز]

وممّا وقع لي من الغرائب أنّي كنت بالجيزة وأنا متولّي الحكم بالأعمال: الجيزة والإطفيحيّة، وقد غرمت على نفسي هديّة لأمضي بها إلى العسكر، لأقدّمها للملك المظفّر، فاجتمعت بشخص وقَصّ عليّ رؤيا، وقال: رأيتُ في منامي كأنّ الملك المظفّر على سور خندق، وقد جاء إليه شخص فركله برِجله، فرماه إلى الخندق، فتعجّبتُ من هذه الرؤيا، وتألّمت لها، وبقيتُ مفكّراً فيها. ففي الوقت دخل عليّ إنسان وقال: النداء بمصر بتملُّك البُندُقداريّ، وقد اشتهر قتْل قُطز، وهذا الرأي لم يكن ممّن يخالط الناس، ولا يطّلع على شيءٍ من أمورهم، فما رأيت أسرع من تصحيح هذه الرؤيا، وهي كما قال النبيّ ﷺ: «الرؤيا الصادقة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النُّبُوَّة»[(١)].

[سلطنة الظاهر بيبرس]

ولما قُتل الملك المظفّر وحلف العسكر للملك الظاهر ركن الدين، ساق في جماعةٍ من أصحابه، ووصل إلى القلعة، ففُتحت له واستقرّ مُلكه،/ ١٦٤أ/ وأحسن إلى الأمير جمال الدين أيدُغدي العزيزي، رحمه الله،

وكان البلدان قد زها[(٢)] لمَقْدَم الملك المظفّر، فاستمرّت الزينة، وأحسن إلى

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير ٨/ ٦٨ من حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النُّبُوَّة».
ومسلم في الرؤيا ٦/ ٢٢٦٣ من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النُّبُوَّة» و٧/ ٢٢٦٤ و٨/ ٢٢٦٣ و٩/ ٢٢٦٥ وأبو داود في الأدب، باب ما جاء في الرؤيا (٥٠١٨) من حديث عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «رؤيا المؤمن».
والترمذي في الرؤيا (٢٣٩٣) باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ في الميزان والدلو.
وابن ماجه في تعبير الرؤيا، باب الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح . .» رقم (٣٨٩٣) ومن حديث أبي هريرة، رقم (٣٨٩٤) ومن حديث أبي سعيد الخدري: «رؤيا الرجل المسلم الصالح . . .» رقم (٣٨٩٥) ومن حديث ابن عمر «الرؤيا الصالحة . .» رقم (٣٨٩٧).
والطبراني في: المعجم الكبير ١٠/ ٢٧٥ رقم ١٠٥٤٠ من حديث ابن مسعود، بلفظ: «الرؤيا الصادقة»، والمعجم الصغير ٢/ ٥٦.
والهيثمي في: مجمع الزوائد ٧/ ٧٣.
والإمام أحمد في: المسند ٢/ ١٨ و٥٠ و٢١٩ و٢٣٢ و٢٣٣ و٢٦٩ و٣١٤ و٣٤٢ و٣٦٩ و٤٣٨ و٤٩٥ و٥٠٧ و٤/ ١٠ و١١ و١٢ و١٣ و٥/ ٣١٦ و٣١٩.
ومالك في: الموطأ، باب الرؤيا ١ و٣.

(٢) الصواب: «زهيا».

خُشداشيته البحرية، وأمّرهم، مثل: سيف الدين الرشيدي، وشمس الدين سُنقُر الروميّ، وغيرهما. واستقرّت قواعد مُلكه[١].

وكانت هذه الواقعة في ذي القعدة من هذه السنة ـ أعني سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة.

ولما مَلَك الملك الظاهر نَفَى الملك المنصور بن الملك المُعِزّ وأمّه وأخاه ناصر الدين قاآن إلى بلاد الأشكريّ، وكانوا مقيمين بها[٢]، كما قدّمنا ذِكره.

فهذا ذِكر ما حدث في الديار المصرية.

[تجديد عمارة قلعة دمشق]

وأمّا الذي حدث بالشام، فإنّ في العشر الآخر من ذي القعدة أمر الأمير عَلَم الدين الحلبيّ، النائب بدمشق، بتجديد عمارة قلعة دمشق، فشُرع في تجديدها، وزُفّت بالمغاني والطبول والبُوقات، وفرح أهل دمشق بذلك، وحضر كبراء الدولة، وخلع [على][٣] الصُّنّاع والنُّقَباء، وعمل الناس في البناء، حتّى النساء. وكان يوم الشروع في تجديد عمارتها يوماً مشهوداً[٤].

ذِكر تحليف الأمير عَلَم الدين الحلبي الناسَ في دمشق لنفسه بالسلطنة

وفي العشر الأول من ذي الحجّة، دعا الأميرُ عَلَمُ الدين الحلبيّ النّاس إلى

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧٣، الروض الزاهر ٦٩، الدرّة الزكية ٦١ ـ ٦٤، تالي كتاب وفيات الأعيان ٥٠، حسن المناقب، ورقة ٩ب، و١٣٦أ، والفضل المأثور ٢٦ و٨١، والحوادث الجامعة ١٦٦ (حوادث سنة ٦٥٩هـ.)، نهاية الأرب ٣٠/ ١٤، ١٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٧، التحفة الملوكية ٤٥، زبدة الفكرة ٥٥، مختار الأخبار ١٢، المختار من تاريخ ابن الجزري ٢٢٧، العبر ٥/ ٢٤٣، دول الإسلام ٢/ ١٦٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٥، ٦٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٩٩، عيون التواريخ ٢٠، ٢٢٩، ٢٣٠، البداية والنهاية ١٣/ ٢٢٣، نزهة الأنام ٢٦٧ ـ ٢٦٩، النفحة المسكية ٥٣، حسن المناقب، ورقة ٩ب و١٣٦ب، الدرة المضيّة ١٨٠، عقد الجمان (١) ٢٦٢، السلوك ج١ ق٢/ ٤٣٦، ٤٣٧، تاريخ الخلفاء ٤٧٦، تاريخ ابن سباط ١/ ٣٩٨.

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٦، ٦٧.

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

(٤) خبر عمارة قلعة دمشق في: ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٧٣، ٣٧٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٠، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٣٠، ٢٣١، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٣٩، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٩٩.

الحلف له بالسلطنة، فأجابوه إلى ذلك، فحضر الجُند والأكابر، وحلفوا له بالسلطنة، ولقّب نفسه الملك المجاهد[(١)]، وخُطِب له بذلك على المنابر، وضُربت السكّة باسمه، ونقش على الدراهم والدنانير لَقَبه[(٢)] واسمه، وكاتب السلطان الملك المنصور صاحبَ حماه بذلك ليحلف[(٣)] له، فامتنع من ذلك، وقال: أنا مع من تملّك الديار المصرية كائناً من كان[(٤)].

[تلقّب السلطان بالظاهر]

وكان الملك الظاهر لما ملك لقّب نفسه الملك القاهر، واشتهر/ ١٦٤ب/ بذلك في الشام.

وكان الوزير بمصر زين الدين بن الزُبَير ترتّب في الوزارة من حين مَلَك الملِك المظفّر. وكان فاضلاً في الأدب والترسّل وعلم التاريخ، وهو من أهل صعيد مصر، وكان يعرف لسان التُرك، فَنَفَق بذلك عند الملك المظفّر. فلما ولي الملك الظاهر أقرّه على ذلك، وأشار بتغيير[(٥)] هذا اللقب ـ أعني: الملك القاهر ـ وقال: ما لُقّب به أحد فأفلح، لُقّب به القاهر بالله محمد بن المعتضد، فلم تطُل أيّامه وخُلع، وسُملت عينه، ولُقّب به الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن نور الدين أرسلان صاحب الموصل، فسُمّ على ما قيل، ولم تزِدْ أيام مُلكه على سبع سنين. وتصرّف بدر الدين في الملك، وأزال الدولة الأتابكية. فلما سمع الملك الظاهر أبطل بذلك هذا اللقب، ولقّب نفسه: الملك الظاهر[(٦)].

(١) الروض الزاهر ٩٤.
(٢) في الأصل: «ولقبه».
(٣) في الأصل: «التحلف».
(٤) خبر تحليف الأمير علم الدين الحلبي في:
(٥) ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٧٣ و٣٧٤، وذيل الروضتين ٢١٠، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٥١، والتحفة الملوكية ٤٥، وزبدة الفكرة ٥٩، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٨، ونهاية الأرب ٣٠/ ٣٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٦، ودول الإسلام ٢/ ١٦٣، ١٦٤، ومرآة الجنان ٤/ ١٤٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٠، والعبر ٥/ ٢٤٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٢٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٣٩، وعقد الجمان (١) ٢٦٥، وتاريخ ابن سباط ١/ ٣٩٩، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣١١.
(٦) في الأصل: «بتغير».
ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧٣، الدرّة الزكية ٦٤، الفضل المأثور ٨١، حسن المناقب، ورقة ١٣٦ب، تالي كتاب وفيات الأعيان ٥٠، الحوادث الجامعة ١٦٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٦، السلوك ج١ ق٢/ ٤٣٧.

[وزارة مصر]

وأقام زينُ الدين في الوزارة مدّةً يسيرة[١]، ثم عزله الملك الظاهر،

وولّي وزارته بهاء الدين علي بن محمد المعروف بابن حِنا، فغلب عليه غلبةً عظيمة[٢]، واستمرّ في الوزارة إلى أن تُوُفّي الملك الظاهر، وأفنى من الأكابر ممّن ناصبه جماعةً كثيرة، ولم ينفذ لأحدٍ أمر في ولايةٍ أو عزْل إلّا بطريقه.

ذِكر دخول التتر إلى الشام
واندفاع عسكر حلب وحماه بين أيديهم

وفي هذه السنة تحرّك التتر إلى الشام وذلك لما صحّ عندهم قتْل الملك المظفّر، رحمه اللّه.

وكان النائب بحلب، كما قدّمنا، الملك السعيد، علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ، صاحب المَوْصِل، وقد ذكرنا إساءته إلى الجُند والرعيّة، فأجمع رأي الأمراء بحلب على القبض عليه وإخراجه من حلب، وتحالفوا على ذلك، وعيّنوا القيامَ بالأمير حسام الدين الجَوْكَنْدار العزيزيّ[٣]، فبيَنا هم في العزم/ ١٦٥أ/ على ذلك، وردت عليهم بطاقة من البيرة تخبر والي البيرة فيها أنّ التتر قد قاربوا البيرة لمحاصرتها، ويستصرخ بعسكر حلب، ويطلب أن يُنجدوه بعسكر. وكانت التتر قد هدموا أبراج البيرة وأسوارها، وهي مكشوفة من جميع جهاتها، فجرّد الملك السعيد عسكراً إلى البيرة، وقدّم عليهم الأمير سابق الدين أمير مجلس الناصريّ، فحضر الأمراء عنده، وقالوا له: إنّ هذا العسكر الذي جرَّدْتَه لا يمكنه ردّ العدوّ، ونخاف أن يحصل النَّشَبُ بيننا وبين العدوّ، وعسكَرُنا قليل، فيصل العدوّ إلى حلب، ويكون ذلك سبباً لخروجنا منها، فلم يقبل ما أشاروا به، وخرجوا من عنده وهم غضبانون[٤]، وسار العسكر المسيّر إلى البيرة من حلب، ولما وصلوا إلى عُمق البيرة صادفوا التترَ بجموعهم، فوقع النَّشَبُ معهم، وتراءت الفئتان، فلم يُمكن سابق الدين لقاءهم، فقصد البيرة، واتَّبَعهم التتر، وقتلوا من أصحابه جماعةً كثيرة، وما سلِم من الجماعة الذين معه إلّا القليل، وورد الخبر بذلك إلى حلب فجفل أهل حلب إلى جهة القِبلة، ولم يبق بحلب إلّا القليل من الناس. وندم الملك السعيد على مخالفة الأمراء فيما أشاروا به عليه، وقوي بسبب ذلك غضبهم عليه، وقاطعوه وباينوه، ووقعت بطاقةٌ من

---

(١) السلوك ج٢/ ٤٣٨ و٤٤٧.

(٢) وُلّي (ابن حنا) الوزارة في سنة ٦٥٩هـ. (السلوك ج١ ق٢/ ٤٤٧).

(٣) الروض الزاهر ٩٩.

(٤) الصواب: «غاضبون».

البيرة، يُذكر فيها أنّ طائفة من التتر توجّهوا إلى جهة مَنْبج، وهم على عزم كَبْس العسكر بحلب، فانثنى عزْم الأمراء على القبض عليه، لئلّا يَطمع العدوّ فيهم(١).

وأخذ الملك السعيد يتذلّل الأمراءَ، ويعتذر إليهم مما صدر منه، من مخالفتهم، وطلب من الأمراء أن يشيروا عليه فيما يعتمده، فأشاروا عليه بالخروج إلى جهة التتر، وأن يضرب دِهليزه بالقرية المعروفة ببابلا، وهي شرقيّ حلب، وأن يكون/ ١٦٥ب/ العسكر حوله، وأن يجمع إليه العرب والتُركمان، ويكون على أُهبة لقائهم، فأجابهم إلى ذلك، وضرب دهليزه ببابلا، ونزل العسكر حوله، وأخذ في تجهّز الأمير عُصيّة، وهو أحد أمراء العرب إلى مَنْبج للكشف، واستطلاع أخبار العدوّ، فوقع التتر عليه، وقاتلوه وقتلوه، وورد الخبر بذلك إلى حلب، فاشتدّ خوف الملك السعيد من ذلك، وخاف غائلة هذا الأمر.

وبعد يومين وصل الأمير بدر الدين أردم الدوادار العزيزيّ. وكان الملك قُطُز، رحمه اللّه، قد رتّبه نائباً باللاذقية وجَبَلَة، فقصد خُشداشيته بحلب. ولما قرُب من حلب ركبت العزيزية والناصرية والتقوه، فأخبرهم بأنّ الملك المظفّر قُطُز قد قُتل، وأنّ ركن الدين بيبرس البُندقداريّ قد مَلَك الديار المصرية، ولقّب نفسه الملك الظاهر، وتقرّرت له السلطنة بها، وأنّ الأمير عَلَم الدين سَنْجَر الحلبيّ قد خُطب له بالسلطنة في دمشق، وصار مالكاً لها ولبلادها، قال: ونحن نعمل أيضاً مثل عمل أولئك، ونقيم واحداً من الجماعة مقدّماً، ونقبض على هذا المُدْبر - يعني ابن صاحب الموصل - ونقتصر على حلب وبلادها مملكة أستاذنا، فأجابوه إلى ذلك، وتقرّر بينهم أنه حال وصولهم إلى المخيّم يمضي إليه حسام الدين الجَوْكَنْدار، وسيف الدين بكتمر الساقي، وبدر الدين أردم الدوادار.

وكان الملك السعيد نازلاً ببابلاً، في دار القاضي بهاء الدين بن الأستاذ، قاضي حلب، وكان فوق سطحها، والعساكر حوله، وكانت الإشارة بين هؤلاء الأمراء، وبين باقي الأمراء أنهم (إذا)(٢) شاهدوا هؤلاء المذكورين معه على السطح، أنّهم يشرعون في نهب وطاقه، والذين عنده يقبضون عليه. فلما حضر المذكورين(٣) بابه، وطلبوا الإذن، للدخول عليه أذِن/ ١٦٦أ/ لهم. فلما حضروا عنده على السطح، وأعيُن الباقين من الخُشداشية ممتدّة إليهم، شرعوا في نهْب وطاقه وخيله وأصحابه، فسمع الضجّة، فاعتقد أنّ التتر قد كبست العسكر، ثم شاهد نهْب العزيزية والناصرية لوطاقه، ووثب

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٨، ٢٠٩، الدرّة الزكية ٦٤، ٦٥، العبر ٥/ ٢٤٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٦٧، دول الإسلام ٢/ ١٦٤، مرآة الجنان ٤/ ١٤٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٠، البداية والنهاية ١٣/ ٢٢٥، عقد الجمان (١) ٢٦٧، النجوم الزاهرة ٧/ ٨٤، تاريخ ابن سباط ١/ ٣٩٩.

(٢) عن هامش المخطوط.

(٣) الصواب: «المذكورون».

الأمراء الذين عنده ليقبضوا عليه، فطلب منهم الأمان على نفسه، فأمّنوه وشرطوا عليه أن يسلّم إليهم جميع ما حصّله من الأموال، ثم نزلوا به إلى الدار، وقصدوا الخزانة، فما وجدوا فيها طائلاً، فهدّدوه بالنّكاية فيه، [و] قالوا له: أين الأموال التي حصّلتها؟، فطلبوا قتْله أو المال، فقام إلى ساحة بستانٍ في الدار المذكورة، وحفر تحت أشجار نَارَنْج هناك، وأخرج أموالاً كثيرة، ذُكر أنّها كانت تزيد على أربعين ألف دينار، ففُرّقت على الأمراء على قدر منازلهم، ورسّموا عليه جماعةً من الجُنْد، وسيّروه إلى شُغْر وبكَاس معتقَلاً، وبقي في الاعتقال أياماً، ثم أخرجوه بعد أن اندفعوا بين يدي التتر، كما سنذكره.

وبعد أيام قلائل دهم العدوّ حلب، فاندفع الأمير حسام الدين الجَوْكَنْدار، وهو مقدّم العسكر بمن معه من العسكر إلى جهة دمشق.

ذِكر واقعة قرنيبا

ولما اندفع العسكر عن حلب دخلت التتر إلى حلب وملكوها، وأخرجوا من فيها من المسلمين إلى المكان المعروف بقرنيبا، ومن الحلبيّين من يُسمّي المكان مقرّ الأنبياء، فخرج المسلمون قهراً بعيالاتهم وأولادهم، وأحاط التتر بهم في ذلك المكان، ثم ألقى السيوف في بعضهم فأبادوهم وأطلقوا الباقين، فدخلوا إلى حلب في أسوأ[1] الحال[2].

ذِكر توجّه العسكر الإسلامي إلى جهة حمص

ووصل حسام الدين الجَوْكَنْدار ومن معه من العسكر إلى مدينة/ ١٦٦ب/ حماه، وبها صاحبُها السلطانُ الملك المنصور، قدّس اللّه روحه، فنزلو ظاهرها من جهة القِبلة، وقام، رحمه اللّه، بضيافتهم، وهو مستشعِر منهم، خائف من غدرهم، ثم تقدّم التتر إلى جهة حماه طالبين العسكر، ولما قربوا من حماه رحل الجَوْكَنْدار بالعسكر متوجّهاً إلى حمص، ولم يمكن الملك المنصور إلّا الرحيل معهم إلى حمص، فرحل بعسكره، ووصلوا كلّهم إلى حمص، ووصل التتر إلى حماه، فغُلّقت أبوابها، ونازلها التتر، وطالبوا من أهل حماه فتْحَ الأبوابِ لهم، وأنهم يؤمّنونهم كالمرّة الأولى، فلم يثق أهل حماه إلى ذلك، ولم يكن مع التتر خُسْرُوشاه الذي كان نائباً بها، ولم يكن أهل حماه يثقون إلّا إليه. وأخرج أهل حماه إليهم شيئاً من المأكول، واندفعوا عن حماه طالبين لقاء العسكر. وجفل[3] الناس بين يدي التتر، وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً.

---

(١) في الأصل: «أسود».

(٢) ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٣٥، نهاية الأرب ٣٠/ ٤١، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٧٠، ٧١، المختار من تاريخ ابن الجزري ٢٥٩، ٢٦٠، عقد الجمان (١) ٢٦٩.

(٣) في الأصل: «وجعل».

٦٥٩هـ

ودخلت سنة تسعٍ وخمسين وستمائة

ذِكر كسرة التتر على حمص

ولما وصل عسكر حلب والسلطان الملك المنصور، رحمه اللّه، صاحب حماه إلى حمص، اجتمعوا بالملك الأشرف، مظفّر الدين موسى بن الملك المنصور صاحبها، وعزم عسكر حلب على التّوجّه إلى دمشق، وقارب التتر حمصَ، فلام الملك الأشرف للجَوْكَنْدار على هذا الرأي، وقال له: ما يقال عنّا في البلاد، وبأيّ وجهٍ نلقى[(١)] صاحب مصر، وأخذ في تثنيته[(٢)]، وكذلك تثنية[(٣)] الملك المنصور، وحرّضه على لقاء العدوّ وجهادهم.

وكان قد وقع بين حسام الدين الجَوْكَنْدار، وبعض خشُداشيّته مُنافرةٌ من أجل الأموال التي أخذوها من ابن صاحب الموصل، وما زال بهم الملك الأشرف حتّى أصلح بينهم.

ووصل التتر، فحمل عليهم المسلمون، ورزقهم اللّه النصرَ عليهم، فبدّدوا شملهم، وأخذتهم سيوف المسلمين، وكان فيهم جماعة كثيرة من شجعان المُغل[(٤)].

حكى لي الأمير مبارز الدين/ ١٦٧أ/ أستاذ دار الملك المنصور، رحمهما اللّه، قال: كان من بها ذريّة المُغل في هذه الوقعة أكثر من الذين كانوا منهم في وقعة عين جالوت بالغَوْر، وانهزم من سلِم من التتر، والمسلمون في آثارهم.

---

(١) في الأصل: «يلقى».

(٢) الصواب: «ثنيه».

(٣) الصواب: «ثنى».

(٤) خبر كسرة التتر في: ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٣٤، وذيل الروضتين ٢١١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٩، والدرّة الزكية ٦٨، ٦٩، والروض الزاهر ٩٧، وتاريخ مختصر الدول ٢٨٢، وتاريخ الزمان ٣١٩، والعبر ٥/ ٢٥١، ٢٥٢، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٢٥٩، ٢٦٠، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٨هـ.) ص٧٠، ٧١، ومرآة الجنان ٤/ ١٥٠، ١٥١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٠، ونهاية الأرب ٣٠/ ٤٠، ٤١، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣٠، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٤٢، وتاريخ الخميس ٢/ ٤٢٣، وعقد الجمان (١) ٢٦٨، ٢٦٩، والنجوم الزاهرة ٧/ ١٠٦، ١٠٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٠٠، وتاريخ الأزمنة ٢٤٥، وشذرات الذهب ٥/ ٢٩٦.

[مديح شيخ الشيوخ للظاهر بيبرس]

ومدح الصاحب، شيخُ الشيوخ، شرفُ الدين، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلطان، الملكَ المنصور، وهنّأه بهذا الفتح الجليل بقصيدةٍ مطلعها:

لك في الندا وردى ذوي الإشراك ... شِيَم تفوق بها على الأملاك

ومنها:

لما شكا دين الهدى أشكيته ... بشديد بأسك والسلاح الشاكي
دعت المعالي يا أباها دعوة ... لزمت عليك فقلت: لبّاك
جرّبت يوم الأربعاء عزيمة ... خفيتْ عواقبُها عن الإدراك
وأقمتَ في يوم الخميس مُبالغاً ... في الجمع بين طوائف الأتراك
ووقفتَ في يوم العروبة موقفاً ... أوسعتَ فيه الفتك بالفتّاك
قيّدت أبطالَ التتار بصَولةٍ ... تركتَهم كالصَّيد في الأشراك
وأطَرْتَ منهمُ هامَ كلّ مدحجٍ ... للّه كلّ موحّدٍ سفّاك
بالطعن والطاعون أسلمهم إلى ... ضربٍ كأشداق المخاض دراك
برّدْتَ أكباد الورى بقواضبٍ ... قذفت عليهم كالضّرام الذاكي[(١)]
أضحكتَ سِنّ ثغورنا من بعدما ... ظفروا بها، فبكى عليها الباكي
غادَرتهم صَرْعَى كأنّ كُماتهم ... في المرج سَكْرَى من سلاف جناك
ثم ارتحلتَ إلى دمشق موضحاً ... سُبُل الرشاد المَحْض للسُّلّاك
ورجعتَ في غُرَر الجيوش مُعاجلاً ... منّا رهان نفوسنا بفكاك
فلقد أنمْتَ المحصَنات أوامناً ... لقد أقمتَ شعائر النُسّاك
سلّمت (مهْجة)[(٢)] كل برّ مسلم ... وهزمتَ كلَّ مُعاندٍ أفّاك
نوّهت باسمك في سماء مدائح ... أعلته فوق مَجَرّةٍ وسَمَاك
تسبي العقايلَ والعُقولَ جميعَها ... من صانع لنُضارها سبّاك
فَلَكَ الهناءُ بما مُنحتَ ولا يزل ... يجري بسعدك دائر الأفلاك

وكانت هذه الوقعة يوم الجمعة خامس المحرّم من هذه السنة ـ أعني سنة تسعٍ وخمسين وستمائة.

---

(١) في الأصل: «الذاك».
(٢) عن هامش المخطوط.

[ثورة أهل حماه على الخونة]

ولما بلغ خبر هذه الوقعة إلى حماه، وكان بها جماعة يميلون إلى دولة التتر، وربّما أراد بعضهم أن ينقب من السّور إليهم موضعاً يدخلون منه إلى البلد، فثار أهل حماه عليهم، فقتلوا بعضهم، منهم رجلٌ من أطراف الناس، يقال له «ابن دخان»، فقَتَلَتْه العامّة، واعتُقل بعضُهم. ووصل السلطان الملك المنصور إلى حماه.

وبعد هذه الوقعة رجع التتر ونازلوا حماه، وكانت قِواهم تضعُف لقلّتهم، والرعب الذي داخلهم عن المقام على حصار البلد، فرحلوا ولم يقيموا إلّا يوماً واحداً. وأراد السلطان الملك المنصور السفر إلى دمشق يستصحب عسكراً يتقوّى بهم على التتر، فمنعته العامّة من ذلك، حتّى استوثقوا منه بأنّه يعود إليهم عن قُرب، ويدفع العدوّ، فمكّنوه من السفر بطائفةٍ قليلة من خواصّه ومماليكه، وترك عندهم الطواشي شجاع الدين مرشد المنصوريّ والعسكر، وسار إلى دمشق ونزل بلاده التي بقرب باب توما، المعروفة بدار ابن الزنجيليّ.

وتوجّه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق، ونزل بداره التي بقرب الجامع، والمتولّي لدمشق عَلَم الدين الحلبي، [الملقّب][١] بالملك المجاهد. وحين ورد الخبر إلى دمشق بهذا الفتح زيّن البلد، وضُربت البشائر، ووصل إلى دمشق رؤوس[٢] التتر محمولةً في السّرائح[٣]، ورُميت في الطُرُق، ولعب بها الصبيان، ووصل الأمير حسام الدين الجَوْكَنْدار ومن معه من العزيزية والناصرية، ونزلوا المرج، وما دخل إلى دمشق خوفاً من علم الدين/ ١٦٨أ/ الحلبيّ، ثم رحل إلى الكسْوة، وتوجّه إلى الديار المصرية بمن معه، وكان في قلبه أنه متى وصل إلى مصر تقلّد الملك الظاهر حلب وأعمالَها نيابةً عنه، فلم يتمّ له ذلك.

وأمّا التتر فإنّهم اندفعوا إلى ناحية أفامية، وتولّوا في تلك الأرض، وطمع المسلمون فيهم، ودخل عليهم الشتاء واشتدّ البرد، وورد إلى أفامية الأمير سيف الدين الديْبُلي الأشرفيّ، ومعه جماعة، فأقام بها، وواتر الإغارة عليهم، وقتل ونهب. ثم رحلوا طالبين الشرق.

ذِكر القبض على عَلَم الدين سنجر الحلبي

وفي أوائل هذه السنة قدِم عسكر كثيف من الديار المصرية، مقدّمهم الأمير علاء

---

(١) استدركناها للسياق.

(٢) في الأصل: «رؤس».

(٣) السرائح: مفردها سَرْج.

الدين أيدكي الصالحي، وهو من أكابر الأمراء الصالحية، وهو كان أستاذ دار الملك الظاهر ركن الدين، وإليه ينسب.

وكان علاء الدين هذا مملوكاً قبل الملك الصالح للأمير جمال الدين بن يغمور. وورد الأمر من مصر إلى الأمير شمس الدين البُرلي ومن معه من العزيزية والناصرية أن تقدّموا إلى دمشق، فأجاب إلى ذلك، وقدِم بهم إلى دمشق. ولما قرب الأمير علم الدين ومن معه من العساكر إلى دمشق وقعت خبلة ظاهر دمشق وداخلها، وغُلّقت أبواب البلد. وخرج عَلَم الدين سَنْجر الحلبيّ، الملقّب بالملك المجاهد، بأصحابه ومماليكه، حمل العسكر المصريّ، فانهزم من معه، وجُرح الحلبي، وقُتل من غلمانه جماعة، وعاد إلى القلعة، فأقام بها إلى أن أجَنّه الليل، وهرب إلى جهة بعلبك، فاتُّبع وقُبض عليه[١]، ثم حُمل إلى الديار المصرية واعتُقل بها، ثم أُطلق بعد ذلك[٢].

وكان ورود العسكر المصريّ إلى دمشق في ثالث عشر صفر.

[الخطبة للظاهر بيبرس ببلاد الشام]

واستقرّت العساكر الظاهرية/ ١٦٨ب/ بدمشق، وأقيمت الخطبة بها وببلادها للملك الظاهر، وكذلك أقيمت الخطبة له بحماه وحمص وحلب. وقبل ورود العسكر المصريّ سيّر السلطان الملك المنصور، رحمه اللّه، وهو مقيم بدمشق ابن عمّه الأمير ناصر الدين محمد بن الملك المسعود عثمان بن الملك المنصور ـ وكانت منزلته[٣] عالية عنده ـ رسولاً إلى الملك الظاهر ركن الدين، فأُنزِل باللوق[٤]، وأُكرم إكراماً كثيراً، وأجيب بما طاب به قلب الملك المنصور، ورجع إلى صاحبه مُكرماً.

وكان ناصر الدين هذا متميّزاً له نظْم، منه:

لـلّـه دَرُّ عـصـابـةٍ تـعـنـي الـوغـى ... يـهـوى الـخـيـاطـة لا إلـيـهـا ينـتـمي

درّعوا الفوارسَ بالوشيج وفصّلوا ... بالمرهفات وخيّطوا بالأسهم

ذِكر خروج البُرلو والعزيزية
من دمشق على حميّة واستيلائهم على حلب

ولما استقرّت العزيزية بدمشق تبع مقدّمهم شمس الدين البُرلي، وكان التتر قد نازلوا البيرة، وضايقها العدوّ من غير محاصرة، والأمير علاء الدين البُنْدُقْدار مقيمٌ بدمشق، وكان قد جرّد إلى حلب الأميرَ فخرَ الدين الحمصيّ مقدّماً، وصُحبته جماعة

---

(١) الروض الزاهر ٩٥.

(٢) الروض الزاهر ٩٦.

(٣) في الأصل: «منزليه».

(٤) في الأصل: «باللوف».

من الأمراء، فوصلوا إلى حلب، وحكم فخر الدين فيها، وضمّ فيها شمل الرعيّة. وتوجّه الملك المنصور والملك الأشرف إلى بلديهما.

واشتدّت مضايقته[١] للبيرة[٢] فكتب فخر الدين الحمصيّ إلى الملك الظاهر إنجاده على التتر، فكتب الملك الظاهر إلى الأمير علاء الدين البُنْدُقْداري بأن يكون على أُهبة المسير إلى حلب بجميع مَن عنده من العسكر، وأن يقبض على شمس الدين البُرلي، والأمير بهاء الدين بُغدي الأشرفيّ، وقد تقدّم له ذِكر عند/ ١٦٩أ/ ذِكر قتْل الملك المُعِزّ التركمانيّ، وعلى جماعة كثيرة من العزيزية والناصرية، وبلغ ذلك هؤلاء الأمراء، فاجتمعوا إلى شمس الدين البُرلي، واتّفق رأيهم على الخروج من دمشق يداً واحداً[٣] على حميّة، وأن يتوجّهوا إلى حلب ويقبضوا على فخر الدين الحمصيّ، ويقيموا في تلك الجهات، وتحالفوا على ذلك، فتوجّه بهاء الدين بُغدي إلى الأمير علاء الدين ليلاً. رجاء أن يسلّم بذلك ويتقدّم عنده، فحين دخل إليه قبض عليه، وقيّده ورسّم عليه جماعة. وورد الخبر بذلك إلى شمس الدين البُرلي ومن معه من العزيزية والناصرية، فركبوا وخرجوا من دمشق ليلاً.

ووقع بسبب هذه الحركة انزعاج شديد بدمشق، ونزل البُرلي بأصحابه في المرج، فبعث إلى الأمير علاء الدين البُنْدُقداري يلومه على ذلك، وحلف له أنّ هذا لم يخطر له ببال، ولا[٤] وقعت منه حالةٌ توجب تشويش خاطره، وما كان الأمر ورد إلّا بقبض بهاء الدين خاصّةً، وأرسل إليه مثالاً ورد عليه بما يُرْضونه. وكان قد تحقّق شمس الدين من جهة من ورد إليه من مصر، بخلاف ما ذكره البُندقدارية، ثم توجّه بأصحابه طالباً حلب. ولما وصل إلى حمص راسل الملك الأشرف بأن يتّفق معه، فلم يُجبه إلى ذلك، وكان قد كاتب بعض أمراء الملك المنصور، رحمه اللّه، بأن يفتح له أحد أبواب المدينة، ليدخل إليها ويستولي عليها، فأجيب إلى ذلك، وكان في عسكره، وهو نازل بظاهر حمص، ناصر الدين ناصر الميدومي الخدامي، وهو من أصحاب الملك المنصور المختص بخدمته، وإنّما كان في عسكر البُرلي ليكشف الأخبار لصاحبه، فبلغه ذلك، فسار مسرعاً إلى حماه، وأخبر السلطان الملك المنصور بذلك.

وكان الذين كاتبوا البُرلي على الباب الذي واعدوا البُرلي إلى حماه، فنزل ظاهرها وقد فاته/ ١٦٩ب/ ما طلب.

فحكى إلى ناصر الدين ناصر: لما انفَصَلَتْ تلك الواقعة لم يُظهر التغيّر على الذين كان منهم من المخامرة ما كان، ولم يغيّر أخبارهم، ولم يطلعوا على أنه عرف

(١) في الأصل: «مضايقه».
(٢) في الأصل: «للبترة».
(٣) في الأصل: «يداً واحدة».
(٤) في الأصل: «إلا».

شيئاً من أمرهم، وهذا غاية ما يكون من الحلم والتّجاوز لم أسمع لغيره مثله، رحمه اللّه ورضي عنه.

ولما نزل شمس الدين ظاهر البلد أرسل إلى الملك المنصور يدعوه إلى الاتّفاق معه، وأن يقيم الملك المنصور سلطاناً ويكون في خدمته.

فحكى لي السلطان الملك المنصور، قدّس اللّه روحه، قال: أرسل إليّ الأمير شمس الدين يقول: ينبغي أن تقوم وتجيء بيتك الكريم، فما بقي في البيت الأيوبيّ من يصلح لهذا الأمر سواك، ونكون بين يديك، ونقاتل معك، ونملك البلاد، قال، رحمه اللّه، فأرسلت إليه ناصر الدين البدوي أقول له: متى[1] وفيتم أنتم لأحدٍ من بيت أستاذكم حتّى تفوا لي، وأنا مالي حاجةٌ بالمُلْك، وإنّما أنا قانع بهذه البلدة، وأكون فيها مطيعاً لمن يكون مالكاً للديار المصرية.

ولما أيس شمس الدين من إجابة الملك المنصور إلى [ما] دعاه إليه، غضب، وأمر بإحراق بيدر العُشر غربيّ البلد، فاحترق، وأعقب ذلك جدْبٌ وغلاءٌ شديد.

ثم توجّه شمس الدين والعزيزية إلى شيزر ونازلوها أياماً. ثم ساروا إلى حلب، فلما وصلوا إلى الوضحى جمع شمس الدين أصحابه واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بأن يكون الدخول في صبيحة الغد، وأنهم لا يلبسون لامة الحرب ولا يُظهرون إلّا طاعة الملك الظاهر، ويقولون: إنّا خفنا على أنفسنا لما سمعنا تغيّر خاطره علينا فالتجأنا إلى أطراف البلاد إلى أن يصلنا أمانه ونعود إلى خدمته، فوافقهم على ذلك.

وفي صبيحة الغد رحلوا إلى حلب وقد خرج فخر الدين الحمصي ومن معه من العسكر لابسين لامة الحرب، مستعدّين للّقاء، وجاء البُرلي/ ١٧٠أ/ ومن معه ودخلوا بينهم، واختلطوا جميعاً بهم ودخلوا حلب، ونزل شمس الدين البُرلي في دار الأمير شمس الدين لؤلؤ، ونزل أمراء العزيزية والناصرية حوله، ثم طلبوا من الأمير فخر الدين الحمصيّ أن يتوجّه إلى الملك الظاهر، ويطلب لهم الأمان والرضى، بشرط أن يكون شمس الدين البُرلي مقدّم العساكر بحلب، والأمراء الذين في صُحبته عنده، وأنه تصلهم المناشير من الديار المصرية بما يختاره الملك الظاهر، ويكون شمس الدين مستقلاً بنيابة السلطنة، ولا يكلّف الاجتماع بالملك الظاهر، وتوجّه فخر الدين إلى مصر ليدبّر هذه القاعدة، فلما وصل إلى الرمل وجد أنّ الأمير جمال الدين المحمدي الصالحي، وقد جُرّد معه عسكر ليتوجّهوا إلى السلطان، يخبره بما قدِم لأجله، فورد عليه كتاب السلطان يُنكِر عليه غاية الإنكار، ويأمره أن ينضمّ إلى المحمدي بمن معه من العسكر، ويقصدون البُرلي.

---

(١) في الأصل: «متّي».

ثم رضي الملك الظاهر عن عَلَم الدين سَنْجَر، وجهّزه وراءهم في جَمْعٍ من العسكر، ثم جهّز بعدهم الأمير عزّ الدين الدمياطي في جَمْعٍ آخر، وتوجّهوا كلّهمْ إلى جهة حلب ليقبضوا على شمس الدين البُرلي، ويطردوه عن حلب.

وكان شمس الدين لما توجّه فخر الدين الحمصي إلى دمشق، علم أنّ الملك الظاهر لا يوافقه على ما طلب، فأخرج من عنده من العسكر المصريّ، واستبدّ بالأمر، وجمع إليه العربان والتُركمان، وأخرج ما كان مخبّأً في حلب وبلادها من الغلال، وفرّقه على الحشود. وكان قصْده إخلاء حلب من الغلال، لئلّا يبقى منزلاً[1] العسكر مصر. واستعدّ للقاء عسكر مصر. وبلغه توجّههم إلى قتاله.

وانقضت هذه السنة والأمر على ذلك.

[وفاة خطيب الجامع الأعلى بحماه]

هذه السنة تُوُفّي الخطيب، زين الدين، عبد الرحمن بن صدر الدين/ ١٧٠ب/ عبد القاهر بن موهوب[2]، خطيب الجامع الأعلى بحماه، وذلك صُبح يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الأول.

وكان متمولاً، وله وجاهة وكرم، ومعروف كثير. وكان الملك المظفّر، رحمه اللّه، صاحب حماه يحترمه كثيراً، وأرسل إلى الديار المصرية بعد وفاته إلى الملك الصالح نجم الدين فأكرمه واحترمه، وبنى بحماه مدرسةً جليلة المقدار، ووقف عليها وقفاً جليلاً، وكان حَسَن الخطابة.

ومولده سنة ثمانين وخمسماية.

[العزاء بالملك الناصر]

وفي سابع جمادى الأول عُقد عزاء بجامع دمشق للملك الناصر يوسف، قدّس اللّه روحه، وذلك لما ورد الخبر بمقتله.

وصورة قتْله، على ما ثبت بالتواتر، أنّ هولاكو لما بَلَغَه مقتل كُتْبُغا، ثم كَسْرة أصحابه بحمص، أحضر الملك الناصر، وأخاه الملك الظاهر، وقال للتُرْجُمان: قل له ما أنت زعمت أنّ البلاد ما فيها عسكر، وأنّ من فيها في طاعتك، حتّى غرّرْتَ بي،

---

(١) الصواب: «يبقى منزل».

(٢) هو: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبد القاهر بن مرهوب.
انظر عنه في:
ذيل مرآة الزمان ٢/ ١٢٩، وذيل الروضتين ٢١٢، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٩هـ.) ص٣٨٩ رقم ٤٩٥، وزبدة الفكرة ٧٣ وفيه «بن موهوب»، وعقد الجمان (١) ٣٢٦.

وقتلتُ المُغل؟ فقال الملك الناصر: أما إنّهم على طاعتي، فلو كنتُ في الشام ما ضرب أحد في وجه غلمانك سيف[١]، ومن يكون ببلاد توريز وكيف يحكم على من في الشام؟

فرماه هولاكو[٢] بفردة نشّاب[٣] فأصابه.

فقال الصنيعة: يا خَوَنْد.

فقال أخوه الملك الظاهر: أسكت يا خَوَنْد، تقول لهذا الكلب هذا القول وقد حضرت!

فرماه هولاكو فردةً ثانية فقتله. ثم أخذ الملك الظاهر وبقيّة أصحابهم إلى خارج فضُربت أعناقُهم[٤]، رحمهم اللّٰه تعالى ورضي عنهم.

ومن العجائب أنّ الملك الناصر عمّر له بجبل الصالحية بدمشق تُربةً عظيمة، فكانت منيّته وحُفرته ببلاد العجم، وحضر كرمون من أمراء التتار فدُفن في تُربة الملك الناصر المذكورة، فسبحان من لم يُدْر نفساً بأيّ أرضٍ تموت.

ذكر البيعة بالخلافة للمستنصر باللّٰه أبي القاسم أحمد بمصر

/ ١٧١أ/ وورد إلى مصر في رجب من هذه السنة أبو القاسم أحمد، ومعه جماعة من العرب، وذكروا أنّه ابن الظاهر بأمر اللّٰه أبي نصر محمد بن الناصر. وهو أسود اللون. وذكروا أنه خرج من دار الخلافة لما مَلَكَها التتر، فأراد الملك الظاهر أن يقلّده الخلافة، فعقد له مجلس عام[٥] بقلعة الجبل، وحضر الأعيان والأكابر، وحضر المجلس الشيخ العلّامة عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام[٦]، رحمه اللّٰه، والقاضي تاج الدين عبد الوهّاب بن خَلَف المعروف بابن بنت الأعزّ.

وكان الملك الظاهر قد عزل القاضي بدرَ الدين يوسُفَ بنَ الحسن عن قضاء الديار المصرية في أوائل هذه السنة.

وقلّد القضاء تاج الدين المذكور، فشهد أولئك العرب أنّ أبا القاسم هذا هو ابن الظاهر بأمر اللّٰه وعمّ المستعصم باللّٰه. وأقام القاضي تاج الدين جماعة من الشهود اجتمعوا بأولئك العرب، وسمعوا شهادتهم، ثم حضروا عند القاضي تاج الدين

---

(١) الصواب: «سيفاً».
(٢) في الأصل: «هلاكو».
(٣) في الأصل: «تفرده يا صح»، والتصحيح من: تاريخ الإسلام.
(٤) الخبر نقله الذهبي عن المؤلّف ـ رحمهما اللّٰه ـ في تاريخ الإسلام (وفيات ٦٥٩هـ.) ص٤٠٣، ٤٠٤.
(٥) الصواب: «مجلساً عاماً».
(٦) في الروض الزاهر: «عز الدين عبد السلام».

فشهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة، فقام القاضي تاج الدين على قدميه، وقال: ثبت عندي نَسَبُ أبي القاسم أحمد هذا، وأنّه ابن الإمام الظاهر بأمر اللَّه، فبايعه الملك الظاهر، والشيخ عزّ الدين، والقاضي تاج الدين، وبايعه الحاضرون. ونودي بالقاهرة ومصر بخلافته، ولُقّب المستنصر باللّه لقب أخيه.

ويوم الجمعة الثالثة لهذه البيعة حضر السلطان والأكابر والقضاة، وخطب الخليفة خطبةً مختصرة، وصلّى بالناس صلاة العصر، ونُثرت الدراهم والدنانير باسمه، وخلع على الملك الظاهر خلعة سوداء وعمامة مذهبة، وطُوّق بطوق ذهب، وركب بالخلعة(١).

ذكر تبريز الملك الظاهر والخليفة للمسير إلى الشام

وفي شهر رمضان برز السلطان الملك الظاهر، وضرب دِهليزه خارج باب النصر، وبرزت العساكر للتّوجُّه إلى الشام(٢).

وكان قد قدِم إلى خدمة(٣) الملك الظاهر الملك الصالح بن بدر الدين صاحب الموصل، وأخوه صاحب الجزيرة، فنزلا في المخيّم السلطانيّ خارج البلد.

[قضاء الشام]

وكنّا ذكرنا أنّ محيي الدين بن زكيّ الدين ولّاه التتر قضاءَ الشام، فلما كسر الملك المظفّر، رحمه اللَّه، التَتَرَ بعين جالوت، وقدِم إلى دمشق، عَزَلَه عن القضاء، وولّى القضاء بدمشق وأعمالَها لنجم الدين بن صدر الدين بن سَنِيّ الدولة. وكان أبوه صدر الدين تُوُفّي ببَعْلَبَكّ، لما رجع هو والقاضي محيي الدين من عند هولاكو ملك التتر، ودُفن بمقبرة الشيخ عبد اللَّه اليونينيّ(٤)، رحمه اللَّه.

---

(١) خبر خلافة المستنصر في: ذيل مرآة الزمان ١/ ٤٤١، ٤٤٢، وذيل الروضتين ٢١٣، والتحفة الملوكية ٤٧، وزبدة الفكرة ٦٠، ٦١، وحسن المناقب، ورقة ١٤ب، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٢، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٩هـ.) ص٧٥، والروض الزاهر ٩٩ ـ ١٠١، ومرآة الجنان ٤/ ١٥١، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣٢، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٤٨ ـ ٤٥٧.

(٢) في الأصل: «خدمته».

(٣) الروض الزاهر ١١١، ١١٢.

(٤) هو عبد اللَّه بن عثمان بن جعفر بن محمد اليونيني، الزاهد الكبير، الملقّب بأسد الشام، أصله من قرية يونين من قرى بعلبك. توفي سنة ٦١٧هـ. ودُفن عند اللوزة على تلّة شرقيّ بعلبك.
انظر عنه في:
مرآة الزمان ج٨ ق٢/ ٦١٢ ـ ٦١٧، وذيل الروضتين ١٢٥ ـ ١٢٨، ونهاية الأرب ٢٩/ ١١١ ـ ١١٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٢٣، ودول الإسلام ٢/ ١٢١، والعبر ٥/ ٦٧، ٦٨، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٠١ ـ ١٠٣ رقم ٧٤، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦١٧هـ.) ص٣٣٨ ـ ٣٤٦ =

ثم تحدّث الناس في نجم الدين بن صدر الدين، وطعنوا فيه بأمورٍ نُسبت إليه، وبلغ ذلك الملكَ الظاهرَ ركنَ الدين، فذُكر ذلك للأمير جمال الدين أيدُغدي العزيزي، رحمه اللّٰه، وكان يعتمد عليه الملك الظاهر ويستشيره في الأمور.

وكان جمال الدين، رحمه اللّٰه، ديّناً، عاقلاً، يحبّ العلماء والفُضلاء وأهل الصلاح، فاتّفق الأمر بينهما على عزله، وأشار على الملك الظاهر أن تولّي القضاء بدمشق القاضي شمس الدين أحمد بن خَلّكان، رحمه اللّٰه، وكان ينوب عن القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن قاضي الديار المصرية بالقاهرة حين كان القاضي بدر الدين متولّياً للقضاء بالديار المصرية، فأجاب الملك الظاهر إلى ذلك، وتقدّم بأن يسافر القاضي شمس الدين بن خلّكان صحبته[1].

[قضاء مصر]

وفي هذه الأيام ولّى الملك الظاهر القاضي برهان الدين الخضر بن الحسن أخا/ ١٧٢أ/ القاضي بدر الدين بمدينة مصر وعملها، وهو الوجه القِبْليّ،

وبقيت القاهرة وعملها، وهو الوجه البحريّ، في ولاية القاضي تاج الدين المعروف بابن بنت الأعزّ[2].

* * *

اللّٰه وليّ التوفيق

يقول العبد الفقير إلى اللّٰه تعالى وعفوه علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب الملكي المظفّري: انتهى إلى هاهنا ما أملاه القاضي الإمام جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، متّع اللّٰه تعالى بحياته، ولم يستوعب حوادث سنة تسع وخمسين وستماية.

وكانت المتجدّدات في هذه السنوات كثيرة جدّاً من تنقّل التتار في الأطراف

= رقم ٤٥١، ومرآة الجنان ٤/ ٣٨، والوافي بالوفيات ١٧/ ٣١٦ رقم ٢٦٧، والبداية والنهاية ١٣/ ٩٣، ٩٤، والعسجد المسبوك ٢/ ٣٨١، وطبقات الأولياء لابن الملقن ٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧، وعقد الجمان ١٧/ ورقة ٤٠٨، ٤٠٩، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٤٩، وشذرات الذهب ٥/ ٧٣ ـ ٧٥، وموسوعة علماء المسلمين ق٢ ج٢/ ٣٦٣ ـ ٣٦٨ رقم ٦٠٦.

(١) خبر قضاء الشام في: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١٣، والدرّة الزكية ٨٥، ونهاية الأرب ٣٠/ ٤٩، وتاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦٥٩هـ.) ص٧٥، والعبر ٥/ ٢٥٢، ومرآة الجنان ٤/ ١٥١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٦٣٥، وعقد الجمان (١) ٣١٤، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٠٣.

(٢) زبدة الفكرة ٧٦، نهاية الأرب ٣٠/ ١٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٩هـ.) ص٧٧، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٥.

المجاورة للشام واضطراب الناس وانتزاحهم من أوطانهم والغلاء الذي بلغ المملوك فيه أربع مائة درهم، ورطل اللحم ثلاثين درهماً، واختلاف الأمراء والنواب في الديار المصرية والممالك الشامية، واستيعاب هذه الأحوال على حقيقتها يطول. وليس ذلك مما نحن بصدده لأنّ الغرض حصول الفائدة. وهذا يتفق، إن شاء اللّه، بالقول المختصر.

[تجهيز الخليفة بالرجال والأمتعة]

/ ٣٩٥أ/ . . .[١] رحمه اللّه، وتأمير الأمراء، وتجهيز الخيام، عليها اسمه الشريف، فعُمِلت له خيمتان عظيمتان بدهاليزها[٢]، وعليهما (نُصِبت)[٣] خيمة لإقامته عند نزوله، وللسَبَق خيمة، وما يحتاج إليه من الخيام لحاشيته، وأمر بتحصيل الجِمال والخيول واستخدام كل من يتعلّق بخدمة الخلافة.

وكُتبت مناشير الأمراء، الأمير سابق الدين بودبا[٤] أتابك العسكر بألف فارس، والأمير فتح الدين سليمان أمير جَنْدار[٥] بمايتي فارس، والأمير ناصر الدين بن صيرم[٦] الخزندار بمايتي فارس والطواشي بهاء الدين صندلة الشرابي بخمسماية[٧] فارس، والأمير الشريف نجم الدين استادالدار بخمسماية فارس، والأمير سيف[٨] الدين بَلَبان الشمسي الدويدار[٩] بخمسماية فارس، وكذلك جماعة من العربان أمّرهم، وحُملت إليهم الطبلخانات والصناجق، وأُنفقت فيهم الأموال الكثيرة لعدّة أشهر.

واشترى السلطان، رحمه اللّه، ماية مملوك جمدارية[١٠]، وسلحدارية[١١]، (وحرب داريّة)، وزَرَدْكاشيّة[١٢]، ووشاقيّة[١٣]،)[١٤] وأعطى لكلّ واحدٍ منهم -ثلاث[١٥]

---

(١) من هنا ليس في (أ)، وهو من (ب)، ورقة ٣٩٥أ.

(٢) الصواب: «بدهاليزهما».

(٣) في الأصل: «دمويه» مهملة. وما أثبتناه مكانها يتطلّبه السياق.

(٤) في الأصل: «بردبا»، والتصحيح من: الروض الزاهر ١١٠.

(٥) تقدّم التعريف بهذا المصطلح.

(٦) في الأصل: «صرم».

(٧) في الأصل: «بخمساية».

(٨) في الأصل: «شمس»

(٩) الدويدار = الدوادار.

(١٠) تقدم التعريف بهذا المصطلح.

(١١) تقدم التعريف بهذا المصطلح.

(١٢) تقدم التعريف بهذا المصطلح.

(١٣) وشاقية = أو شاقية: مفردها: أوشاقي: لقب موظف له النظر والإشراف على خيل السلطان.

(١٤) ما بين القوسين لم يرد في الروض الزاهر. انظر صفحة ١١١.

(١٥) الصواب: «ثلاثة».

رؤوس[١] خيل، وجملاً واحداً لعدّته[٢]. ولم يبق أحدٌ ممّن يدعو[٣] حاجةُ منصب الخلافة إليه، من صاحب ديوان، ولا كاتب إنشاء، ولا ديوان (مناشير المهمّات)[٤]، ولا أئمّة، (ولا مؤذّنين)[٥]، ولا غلمان البيوت جميعها على اختلافها إلّا استخدمه، حتّى الحكماء، والجرائحيّة، والبردارية[٦]، والحرّاس ونَفَقَ فيهم المال الجزيل، حتّى صارت حاشيته عظيمة، وبيوته أكثر البيوت، لِما جمعت من الآلات، والأصناف، والأمتعة، والأسلحة، والخيول، والجنايب، والجِمال، والخِلَع، والتُحَف.

ولما تكامل ذلك كلّه تقدّم السلطان الملك الظاهر ركن الدين بخروج العساكر، وخروج الدِهليز للتوجُّه صُحبة الخليفة. وتجهّز السلطان. ولم تزل النفقات تُنفق في أصحاب الخليفة وأجناده إلى يوم الأربعاء تاسع عشر[٧] شهر رمضان من سنة تسع وخمسين وستماية.

فلما كان اليوم المذكور ركب الخليفة والسلطان صُحبة الخليفة وساقا، ونزل كلّ واحدٍ منهما في دِهليزه عند النزول، واستمرّت النفقة في أجناد الخليفة وهم يجتمعون من كل جهة[٨].

ولما كان يوم العيد المبارك/ ٣٩٥ب/ ركب السلطان، رحمه اللّه، صُحبة الخليفة تحت المظلّة، وطلبا صلاة العيد، وفي خدمتهما الملوك وسائر الناس، وتوجّه كلّ واحدٍ منهما إلى خيامه، وجلس لأصحابه على طعامه.

وفي هذه الأيام حضر مولانا الخليفةُ إلى خيمة السلطان بالمَنْزَلة، وألبس السلطان، رحمه اللّه، سراويل الفُتُوّة[٩].

ولما كان يوم السبت سادس شوال دخل الخليفة والسلطان متوجّهين إلى الشام، ولم يزالا إلى دمشق، فنزلا بالكسوة[١٠].

---

(١) في الأصل: «روس».
(٢) في الأصل: «وحمل واحدِ لعدته».
(٣) في الأصل: «يدعوا».
(٤) ما بين القوسين ليس في الروض الزاهر.
(٥) ما بين القوسين ليس في الروض الزاهر.
(٦) البردارية = البرد دارية: هي بمعنى: الجندارية، وقد تقدّم التعريف بها.
(٧) في الأصل: «تاسع عشره».
(٨) الروض الزاهر ١١١، السلوك ج١ ق٢/ ٤٥٧.
(٩) سراويل الفُتُوة: زيّ خاص لنظام وسلوك مستحبّ كان يمارسه عظماء الرجال ومن بينهم بعض الخلفاء، (معجم المصطلحات ٣٣٦).
(١٠) الروض الزاهر ١١٢، السلوك ج١ ق٢/ ٤٥٩، النهج السديد، لابن أبي الفضائل ٨٤، ٨٥، مختار الأخبار ٨١٨

[خروج عسكر مصر إلى الشام]

وكان السلطان قد تقدّم مرسومُه بخروج عسكر الشام جميعه، وأن يقف كلّ أميرٍ في وسط جماعته، وساروا أميرَ أميرَ[1] إلى دمشق، وكذلك القضاة، والشهود، والكُتّاب، والرعايا. وركب الخليفة والسلطان، وانتشرت الأعلام فوق الأطلاب والحَلَقة، حتّى صار الإنسان لا يرى إلّا خيولاً تصهل، وأعلاماً تخفق، وحوافرَ خيلٍ تقدح النيران، وطبول خاناه تضرب، وأسِنّة تلمع، ودعاء للسلطان يرتفع لِما فعله من إعادة رسوم الخلافة.

[نزول السلطان والخليفة دمشق]

وساق السلطان فنزل قلعة دمشق، ونزل الخلفة مُبرداً في جبل الصالحية، في المكان الذي أنشأه الملك الناصر، رحمه اللّه تعالى، وأمراؤه وأجناده حوله، وشرع السلطان في إعادة النّفقات في جماعة الخليفة، فَنَفَقَ فيهم عدّة أشهر، وعمّ الإحسانُ جميعَهم، وزاد في استخدام جماعةٍ وتأمير جماعةٍ في الشام، وحمل إلى الخليفة جملةً من المال برسم الكُلَف إلى العراق، وجملة من الخِلَع. وجرّد الأمير سيف الدين الرشيدي، والأمير شمس الدين سُنقُر الروميّ، ومعهما جماعة من الأمراء إلى جهة حلب، وأمرهم بالمسير إلى الفُرات[2]، وأنهم متى ورد عليهم كتاب الخليفة يحضروا[3] إلى خدمته في العراق من يستدعيه منهم. وركب السلطان فودّع الخليفة والملوك في خدمته، وقعد عنده وأكل طعامه، ووصّاه في الأمور كلّها، وأكّد عليه في التثبيت وعدم العجلة، وأخْذ أمره بالتُؤَدة، ووصّى[4] أصحابه، وساروا بعد ذلك[5].

فوردت كتب/ ٣٩٦أ/ الخليفة بأنّه جدّ في السير، وأنّه مستقبلٌ كلَّ خير. وسيّر السلطان في خدمته بالملوك المواصلة، وفيهم الملك السعيد بن صاحب الموصل الذي كان بحلب.

[عودة السلطان بيبرس إلى مصر]

وعاد السلطان إلى دمشق من التوديع، ورحل إلى مصر، فوردت كتب الخليفة إلى السلطان إلى مصر بأنه وصل إلى الحديثة وعانَة، واستولى على

---

(١) الصواب: «أميراً أميراً».

(٢) في الأصل: «الفراة».

(٣) الصواب: «يحضر».

(٤) في الأصل: «ووصا».

(٥) الروض الزاهر ١١٢، زبدة الفكرة ٦٦، ٦٧.

ذلك، وولّى فيها، وأنّ كتب أهل العراق وصلت إليه باستعجاله، فكتب السلطان إليه يشير عليه بالتّأنّي، وعدم العجلة، وأخْذ الأمور بالحزم، وأن لا يثق بكلّ وافد، ولا يركن إلى (كل)[١] مشير.

قال: فاستبدّ الخليفة برأيه، ووثق بأباطيل نُسبت إلى أهل العراق، وطمع في ذلك، فلم يطلب أحدٌ من العسكر الذي كان قد توجّه إلى الفُرات[٢]، ولا احترز على الطرقات، فكان ما قدّره اللّه تعالى من انتقاله إليه مجاهداً في سبيل اللّه، وعوّضه اللّه مُلك الآخرة. وكتب اللّه للسلطان الملك الظاهر أجر اجتهاده في خدمته، وقيامه بحقوق وفاء ذِمّته، ونشر بَيعته في الآفاق، وما أنفقه من الأموال في نُصرته[٣].

قال صاحب التاريخ: فكان من جملة ما أنفقه على الخليفة والملوك المَوَاصلة ألف ألف دينار وستّون ألف دينار عيناً، والأقدار لا تُعانَد، وما النصر إلّا من عند اللّه، وإذا أراد اللّه شيئاً أمضاه، (ولعلّ في ذلك خيرة يُحمَد عواقبها ويُنتظر لُطْف اللّه تعالى فيها، ومهما أراده اللّه بلغه)[٤]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٥].

ووصلت هذه الأخبار والسلطان، رحمه اللّه، قد أمّر جماعة وكتب المناشير، وقد شرع في تجهيز عسكرٍ آخَرَ يَردُفُهم به، فعرف اللّه حُسنَ نيّته وأثابه عليها. ونيّةُ المؤمن أبلغ من عمله[٦].

ذِكر ما اعتمده السلطان الملك (الظاهر)[٧] رحمه اللّه تعالى في توجّهه إلى الشام وصُلحه مع الإفرنج وغير ذلك

قد ذكرنا توجّه السلطان صُحبة الخليفة، فنذكر أمور[٨] في أثناء ذلك، منها حديث حلب، لما توجّه الأمير عَلَم الدين الحلبيّ عائداً إلى دمشق، بقيت حلب خالية، فحضر الأمير شمس الدين البرلوا[٩] وجماعته، وسيّر/ ٣٩٦ب/ رسولاً إلى

(١) كتبت فوق السطر.
(٢) في الأصل: «الفراة».
(٣) زبدة الفكرة ٦٨، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٣، ذيل الروضتين ٢١٤، الدرّة الزكية ٨٢.
(٤) ما بين القوسين ليس في الروض الزاهر.
(٥) سورة البقرة، الآية ٢١٦.
(٦) قارن بالروض الزاهر ١١٢.
(٧) عن هامش المخطوط.
(٨) الصواب: «أموراً».
(٩) في الروض الزاهر ١١٣ «البرلي».

السلطان يستعطفه ويبذل له الطاعة، فأبى السلطان إلّا حضورَه إلى الخدمة[١].

ووصل السلطان إلى دمشق فجرّد العساكر على ما ذكرنا، ولما بلغ الأميرَ برلوا[٢] ذلك انفصل عن حلب ورحل منها، وكان قد شرع في عمارة أسوارها، فما قدّر اللّه ذلك، وسار العسكر إلى حلب، ورحل منها، ولم يزل سائقاً إلى الفُرات[٣]، وعاد أغار على بلاد أنطاكية، وكسب العسكر، وغنِمَ، وجاهد، وأحرق للعدوّ غلالاً كثيرة ومراكب، وحرّق أماكن وعاد[٤].

[نيابة حلب]

وكان الملك الظاهر قد رسم بتقليد النيابة بحلب للأمير علاء الدين البُندقدار، فلبثت[٥] له، فأقام بها، وولّى وعزل، والبلاد في أشدّ ما تكون من الغلاء وعدم الأقوات، فتضرّر ذلك العسكر، ولم يمكنه الإقامة[٦].

[طلب برلو الصلح]

ووصلت كتب الأمير شمس الدين برلوا[٧] تطلب الصفح[٨]، وسيّر الأمير علم الدين [جكم][٩] الأشرفي جُعبَتَه[١٠] وسيفه، ويقولون إنّهم ما اندفعوا قدّام العسكر إلّا طاعةً، وأنّ عبوديّتهم خالصة، ويلتمسون النظر في حالهم، فكتب السلطان إليهم بإطابة قلوبهم، ووعدهم جميلاً، وأحسن إلى رُسُلهم.

ووصل الأمير علاء[١١] الدين البُنْدُقدار (إلى حماه)[١٢]، فأقام بها[١٣].

وورد كتاب الأمير شمس الدين البرلوا[١٤] يعتذر من رجوعه، وأنه ما رجع إلّا طائعاً للمراحم السلطانية، وأن الأمير علاء[١٥] الدين انفصل عن حلب اختياراً[١٦] منه، ولو أقام ما قصده أحد، وتوالت كُتُبُه بالاعتذار، ويستأذنه في توجّهه إلى الموصل، والملك الظاهر يُغلظ عليه وقتاً، ويلين له وقتاً آخر.

وجرّد الملك الظاهر العساكر مع شمس الدين سُنقر الروميّ، وأنفق فيهم المال،

---

(١) الروض الزاهر ١١٣.
(٢) في المصادر: «برلي».
(٣) في الأصل: «الفراة».
(٤) الروض الزاهر ١١٣.
(٥) في الروض الزاهر: «فكتب».
(٦) الروض الزاهر ١١٣.
(٧) في الروض: «برلي».
(٨) في الروض: «الصلح».
(٩) استدراك من الروض الزاهر ١١٣ وفيه «جلم» وهو غلط، والتصحيح من زبدة الفكرة ٧٠.
(١٠) في الروض الزاهر: «كفنه».
(١١) في الأصل: «علاى».
(١٢) عن هامش المخطوط.
(١٣) الروض الزاهر ١١٣.
(١٤) البرلوا = البرلي.
(١٥) في الأصل: «علاى».
(١٦) في الأصل: «اختيار».

وبلغ الأميرَ شمسَ الدين البرلوا، فساق إلى جهة سِنجار، والتقى بالتتر طالباً للجهاد في سبيل اللَّه تعالى، فكان ما قدّره اللَّه تعالى من خذلانه، (وإذا أراد اللَّه أمراً أمضاه. وكان، رحمه اللَّه، لما ملك حلب كان فيها جماعة قد تعصّبوا على أخذ أموال الناس، سمّوا أنفسهم الزَّنَاطرة، فأخذهم وقتلهم جميعهم، وأقام الهيبة بحلب، ولكنّه استعجل في أموره/ ٣٩٧أ/ فتمّ له ما تمّ،)[١] ووصل العسكر المنصور إلى دمشق، واستصحب عسكرها[٢].

ذكر وصول الملوك إلى عند السلطان بدمشق ومصر

منهم الملك الصالح ابن[٣] صاحب الموصل وغيره.

ووردت الكتب من دمشق المحروسة بحضور الملك الصالح المذكور بأهله وأولاده وغلمانه وخدّامه، فكتب السلطان إلى النّواب بدمشق المبالغة في خدمتهم، وحمل الإقامات إلى جميعهم، وأنّهم يستريحون مدّة ويتوجّهون، فخُدموا في دمشق أتمّ خدمة، وعُبّيت لهم الإقامات من دمشق إلى مصر، وتوجّه المَهمندارية[٤] إلى خدمته، فوصل في شعبان سنة تسع وخمسين وستماية إلى مصر، وتلقّاه الملك الظاهر وجميع الناس، وأنزله في الدُّور التي أُخليت لهم، وحُملت لهم النِعَم على اختلافها، وهو شيء تضيق بذكره الأوراق. وبعد ذلك سبقت إليه الخيول المسَوَّمة بالسّروج المذهبة، والخِلَع، والحوايص الذهب، والأمتعة على اختلاف أنواعها، والهدايا، والتُحَف، والآلات، وذلك لا يوجد مثله في خزائن الملوك الكبار، ولا يسمع بشر بمثله.

ووصل بعده بمدّة أيام الخبر من دمشق بوصول أخيه، فعمل السلطان في حقّه مثل ما عمل في حقّ أخيه في الشام ومصر، من التلقّي والخدمة، والتّقادم، وحمل الأموال، والتُحَف، وسياقة الخيول، والإنزال، وإقامة الخدمة[٥].

[إطلاق صاحب سنجار]

وأمّا الملك المظفّر صاحب سنجار فإنه كان قد اعتقله العزيزية في بعض قلاع

---

(١) ما بين القوسين ليس في الروض الزاهر.

(٢) الروض الزاهر ١١٤، حسن المناقب، ورقة ٢٢٣أ، ب، نهاية الأرب ٣٠/ ٤٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١٠، ٢١١، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٩هـ.) ص٧٦، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٣ و٤٦٥، ٤٦٦، وعقد الجمان (١) ٣١٠، زبدة الفكرة ٧٠.

(٣) في الأصل: «بن».

(٤) المهمندارية: مفردها: مهمندار: لقب موظف مهمّته تلقّي الرسل واستقبال السفراء والمبعوثين من الخارج إلى بلاط السلطان ومن يرغبون بمقابلته. (معجم المصطلحات ٤١٢).

(٥) الروض الزاهر ١١٤، مختار الأخبار ١٧، ١٨.

حلب، فبعث السلطان أطلقه وكتب له الكتب بردّ ما أُخذ له، وغلّظ على الأمراء بسبب ذلك. ووصل إلى الديار المصرية فأحسن السلطان الملك الظاهر إليه وأكرمه وحمل إليه الخِلع والأنعام والإقامة، ولما وصل استأذن أخواه في تلقّيه، فخرجوا[1] واجتمع بهما، وصار الافتقاد لا ينقطع عنهم ولا الخيول ولا الحوايص، والخِلَع لهم ولأصحابهم عند لعب الأُكرة مع السلطان، وعيّنت جماعةٌ من البحرية برسم خدمتهم، وتصريف مهمّاتهم[2]، وكفّ من يقصد/ ٣٩٧ب/ تكليفهم والتثقيل عليهم، وأعطاهم الأخباز الجيّدة العظيمة بمصر، وأقاموا بديار مصر في ألذّ عَيش وأهناه، إلى أنْ مات الملك الظاهر وتغيّرت الدول، فتشتّت شملهم بالموت وغيره.

[إكرام السلطان صاحبي حماه وحمص]

قال: ثم بعد ذلك رحل السلطان إلى الشام، ولما وصل إلى دمشق وصل إلى خدمته الملك المنصور صاحب حماه، والملك الأشرف صاحب حمص فتلقّاهما بصنوف الإكرام والإنعام الذي يليق بهما، من الملابس الفاخرة، والخيول المسوّمة، ثم طلبهما فحضرا، وأُحضرت الخلع فلبساهما، ثم قاما وقبّلا الأرض، وخرجا فوجدا خيل النَوبة والعصائب، والجَمْدارية، والسّلحدارية، وشعار المملكة كلّها، فركب كلٌّ منهم بمفرده، والأمراء مرَجّلون في خدمتهما، وكتب لهما التقاليد، وزيد الملك الأشرف على بلاده تلّ باشر، وزيد الملك المنصور مناصفات بلاد الإسماعيلية، وحُملت إليهما الأمتعة والتُحَف، وتوجّها إلى بلادهما شاكرين[3].

[الخسف ببلاد الفرنج]

قال: وفي ربيع الآخر من هذه السنة - وهي سنة تسع وخمسين وستماية - وردت أخبار من ناحية عكا وبلاد الفرنج أنّ سبع جزائر في البحر خُسِف بها وأهلها بعد أن نزل عليهم دم عدّة أيام، وهلك منهم خلائق كثيرة قبل الخسف، وبقا[4] أهل عكا لابسين السواد، وهم يبكون، ويجلدون أرواحهم بأكمام الزَرَد الذي عليهم، ويستغفرون من الذنوب بزعمهم[5].

---

(١) الصواب: «فخرجا».

(٢) الروض الزاهر ١١٥، مختار الأخبار ١٧.

(٣) الروض الزاهر ١١٧، الدرّة الزكية ٨١، نهاية الأرب ٣٠/ ٤٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٥٩هـ.) ٧٧، البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٣، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٢، عقد الجمان (١) ٣١٧.

(٤) الصواب: «وبقي».

(٥) الدرّة الزكية ٨٥، المختصر ٣/ ٢١٣ (حوادث سنة ٦٥٩هـ.)، تاريخ الإسلام ٨٥، السلوك ج١ ق٢/ ٤٤٧.

[فأر الغِلال]

وفي هذه السنة خرج على الغِلال فأرٌ في أرض حَوران والجولان وأعمالها، حتّى أكلوا أكثر الغِلال، فقدّروا ما أكل الفأر، فكان مقدار ثلاثمائة ألف غرارة[١] قمح غير الشعير، حتى ابتاعت[٢] الحنطة في حماه المكّوك[٣] بأربع مائة درهم، وفي دمشق الغرارة بأربع مائة درهم، وغيرها من البلاد بالنسبة إليهما، واستأصلت[٤] الفرنج أموال المسلمين بثمن الحنطة وسببها[٥].

ذكر الصلح مع الفرنج خذلهم اللّه تعالى

قال: لما توجّه الملك الظاهر إلى دمشق على ما ذكرنا سيّر بسرجوان[٦] كُنْد يافا[٧] يبذل الطاعة والعبودية وحمل الإقامات.

/ ٣٩٨أ/ وكان الملك الظاهر وجماعة من الأمراء قد بعثوا شيئاً عظيماً من الشعير والدقيق في البحر من جهة دمياط إلى يافا، من أجل حصارها، فلما وصل السلطان إلى العوجا بعث كُنْد يافا يسأل الأمان بالحضور إلى الدهليز، فأمر السلطان للأتابك أن يأتيه به، فساق إليه الأتابك فأخذه، وأحضره بين يدي السلطان، فأكرمه وكتب له منشور[٨]، وردّه مسلّماً إلى مدينته[٩]. وتوفّر على السلطان الذي جاء به من دمياط من الشعير والدقيق وغيره.

ولما استقرّت الأخبار عند الإفرنجية بقدوم الركاب الشريف، بعثوا بالإقامات العظيمة، وبعثوا رُسُلهم يهنّئون السلطان الملك الظاهر بالسلامة.

ولما وصل إلى دمشق حضر رسولٌ من جهة عكا يسأل أماناً للمتوجّهين من الرسل من البيوت كلّها، فكتب إلى والي بانياس بتمكينهم، فحضر عند ذلك أكابر

---

(١) غرارة: في الأصل وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه، توسّع الناس في استعماله في العصرين المملوكي والعثماني فأصبح عندهم من المكاييل، وهو أكبر من الجواليق، يعادل ثمانين مُدّاً، والمدّ عند أهل الشام من مكاييل الحبوب والزيتون، زنته ١٨ كلغ. من الحنطة ـ (معجم المصطلحات ٣٣٠).

(٢) الصواب: «حتى بيعت».

(٣) المكوك: مكيال معروف معمول به منذ العصر العباسي، في وزنه وسعته اختلاف.

(٤) في الأصل: «استصالت».

(٥) تاريخ النوادر ٤/ ورقة ٧٩أ، الدرة الزكية ٨٥.

(٦) هو «سيرجوان دبلين» كما في: الروض الزاهر ١١٧، وهو: «جان إبلين John of Ibelin».

(٧) كند يافا: أمير يافا.

(٨) الصواب: «منشوراً».

(٩) الروض الزاهر ١١٧، ١١٨، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٣، ٤٦٤، زبدة الفكرة ٦٧، مختار الأخبار ١٩.

الفرنجية والتمسوا الصلح، فتوقّف عليهم السلطان الملك الظاهر، رحمه اللّه، وطلب منهم أموراً[١] كثيرة، فامتنعوا لما رأوا إحسانَ السلطان إليهم، وتوقّفوا وقد طمعوا، فأحضر السلطان، رحمه اللّه، مَن زَجَرَهم وأهانهم، فعند ذلك طلبوا العفو، وسألوا الصلح والصفح، وخافوا أن يقصدهم.

وكان العسكر قد توجّه إلى بلادهم بقصد الإغارة على بلادهم من جهة بعْلَبَكّ، فسألوا رجوعهم، والإمساك إلى حين تدبير الحال. واتّفق غلاء الأسعار، كما ذكرنا، بالشام والعلوفات والأقوات بها، وإنّ كثرته إنّما تكون من بلاد الفرنج، فتقرّر الصلح على ما كان الأمر مستقرّاً[٢] عليه إلى آخر الأيام الناصرية، وإطلاق الأسارى من حين انقضاء الأيام المذكورة إلى وقت الهدنة، ونُقلت النُسَخ، واستقرّ الحال على ذلك. وتوجّهت الرسل معهم لأخذ العهود والمواثيق عليهم.

وكذلك تقرّرت الهدنة لصاحب يافا أيضاً.

وحضرت رُسُل متملّك بيروت وطلب العهد، فتقرّرت لهم الهدنة أيضاً على حكم الأيام الناصرية إلى آخرها، وطابت قلوب جماعة الفرنج والرعايا المجاورون[٣] لبلادهم، ووصلت الرُسُل من جهاتهم باستقرار الصلح، وشرع السلطان/ ٣٩٨ب/ في جمع الأسارى، وسيّرهم حفظاً للعهد إلى نابلس، وأخذ جماعة من الخيّالة رهناً على أموال التّجار، وأقامت[٤] الأسارى بنابلس مدّةً، والإفرنج يُكاسرون في أمر الأسارى من يوم إلى يوم. ولما طال ذلك رسم السلطان بنقل الأسارى إلى دمشق، واستعمالهم في العَمايِر، وتعلّل الفرنج بالعِوَض عن زرعين، فأجابهم السلطان: «إنكم أخذتم العِوَض عنها في الأيام الناصرية من مرج عيون[٥]، وقايضتم صاحب تبْنين بمواضع، والعِوَض الآن في يده، والمقايضة في أيديكم، فكيف تطلبون العوَض مرّتين؟ وهذا لا سبيل إليه، ولو طلبتم شبراً واحداً من بلاد المسلمين ما أعطيته لكم إلّا بحقّه، فإن كنتم باقين على العهد فنحن لا نغيّر عهودنا، وإن كنتم تختارون غير ذلك فنحن، بحمد اللّه، لم يبق لنا عائقٌ ولا عدوّ، ولا لنا شُغلٌ إلا الجهاد».

فوردت كُتبهم يتنصّلون ويجيبون، وبقي[٦] الحال موقوفاً[٧].

---

(١) في الأصل: «أمور».

(٢) في الأصل: «مستقر».

(٣) الصواب: «المجاورين».

(٤) الصواب: «وأقام».

(٥) مرج عيون = مرجعيون: سهل تكثر فيه عيون الماء في الجنوب اللبناني، وعند ياقوت: في سواحل الشام. (معجم البلدان).

(٦) في الأصل: «وبقا».

(٧) الروض الزاهر ١١٨، ١١٩، نهاية الأرب ٣٠/ ٢٥٥، تاريخ ابن الفرات، مخطوطة فلوجل بڤيينا، رقم ٨١٤، ج٦/ ورقة ١٧أ، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٤.

[إقبال أمراء العربان]

قال: وبعد ذلك وصل أمراء العُربان وجميع القبائل، فأعطاهم وأرضاهم ووصل أرزاقهم، وعمّهم السلطان بفضله، وأطلق رسومهم، وكتبت مناشيرهم، وسلّم إليهم خَفَرَ البلاد، وألزمهم حِفظَها إلى حدود العراق[١].

[نيابة السلطنة بالشام]

وفوّض إلى الأمير علاء[٢] الدين طيبرس الوزيري نيابة سلطنة الشام، من حدود العريش إلى شيزر، وكتب تقليده بذلك، وجعل إليه أمر القلاع والحصون[٣].

[لعب السلطان بالأكرة]

وخلع السلطان على ملوك الشام وأولاد الملوك وأعطاهم الخيول، وكذلك الأمراء، والحلقة، والقضاة، والأكابر، ونظر في الأحكام الشرعية.

وولّى القاضي شمس الدين أحمد بن خلّكان، على ما ذكرناه[٤].

ولعب بالأُكرة في ميدان دمشق، وفي خدمته جماعة من الملوك، وهم: الملك الصالح، صاحب الموصل، ابن بدر الدين، والملك المجاهد أخوه، صاحب الجزيرة، وأخوهم[٥] الملك المظفّر، صاحب سنْجار، والملك الأشرف، صاحب حمص، وعمّه الملك الزاهر بن أسد الدين، والملك المنصور، صاحب حماه، وأخوه الملك الأفضل، علي، والملك المنصور، والملك السعيد، والملك المسعود، أولاد الملك الصالح، عماد الدين إسماعيل، والملك الأمجد، تقيّ الدين بن الملك العادل أبي بكر، والملك الأشرف/ ٣٩٩أ/ بن أقسيس، والملك الأمجد، وإخوته أولاد الملك الناصر بن الملك المعظّم، صاحب الكرَك، وجماعة كثيرة. وهذا ما تمّ لملكٍ آخر[٦].

قال: ولقد حكى ابن الأثير في «تاريخه»[٧]، قال:

ركب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه اللّه، في

(١) الروض الزاهر ١٩، زبدة الفكرة ٧٠، مختار الأخبار ١٩، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٥.

(٢) في الأصل: «علاى».

(٣) الروض الزاهر ١١٩، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٥.

(٤) الروض الزاهر ١١٩، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٥.

(٥) الصواب: «وأخوهما».

(٦) الروض الزاهر ١١٩، ١٢٠.

(٧) في آخر حوادث سنة ٥٨٧هـ. (الكامل في التاريخ ١٠/ ١٠٤).

بعض الأيام، فقصده[١] رجل كان في خدمته من أبناء الملوك السلجوقية، وعدل (ثيابه)[٢] رجل من بيت أتابك، فرآه رجل فقال: ما بقيت، تبالي بعدها بالموت يا ابن أيّوب، سلجوقيٌّ يقصدك[٣]، وأتابكيّ يعدّل ثيابك[٤]».

فأين هذا القائل يشاهد السلطان وهؤلاء[٥] الملوك في خدمته[٦] وإحسانه يعمّ الجميع بالأنعام والخيول، والخِلَع، والهبات.

[الغارة على الفرنج والعرب]

قال: وجرّد بعض ذلك الأميرَ جمالَ الدين المحمّديّ، وجرّد معه عسكراً كبيراً[٧]، وأمرهم بالإغارة على بلد الفرنج، فساقوا ونهبوا وكسبوا، وعادوا سالمين. وجرّد جماعة من المماليك البحرية وكتم الخبر، وما عرف أحد لأيّ مكانٍ يتوجّهون، ولا هم، إلّا المقدّم.

وسبب ذلك أنّ السلطان بلغه أنّ جماعةً من عرب زَبيد كثُر فسادهم، وأنهم مخالطون الفرنج، وأنهم يدلّونهم على عورات المسلمين، وأنّهم لا يقدر أحد عليهم، فساقت الجماعة من البحرية فوصلوا إليهم، وأوقعوا بهم، ونهبوا أموالهم وبيوتهم، وذبحوا منهم جماعة، وبدّدوا شملهم وكفوا الناسَ شرّهم[٨].

[عودة السلطان بيبرس إلى مصر]

قال صاحب التاريخ: ولما استقرّت هذه الأمور بالشام وترتّبت الأحوال، رجع الملك الظاهر إلى الديار المصرية، وذلك في يوم السبت سابع عشر ذي الحجّة من هذه السنة، وهي سنة تسع وخمسين وستماية. ووصل إلى مستَقَرّ مُلكه سالماً، وطلع بدَسْت المملكة كما ينتقلُ البدر في منازله، ويطلع في بروج شُرفه، وشرع فخلع على كافّة غلمانه وأتباعهم، وعمّهم بالإحسان وجَبَر قلوبهم[٩].

---

(١) في الأصل: «فعضده».
(٢) مهملة، عن هامش المخطوط. والتحرير من: الروض.
(٣) في الروض: «يعضدك».
(٤) مهملة في الأصل.
(٥) في الأصل: «وهولاى».
(٦) الروض الزاهر ١٢٠
(٧) في الأصل: «وجرد معه عسكر كبير».
(٨) الروض الزاهر ١٢٠.
(٩) الروض الزاهر ١٢١.

ذِكر أخْذ الشَوْبك

قال: وبعد ذلك جهّز الملك الظاهر الأمير بدر الدين الأيدمُري، وبعث صُحبَته جماعة، وما علم أحدٌ ممّن جرّده توجُّهَهم إلى أيّ جهة.

ولما وصل بدر الدين إلى الصالحية خرج الأمر إلى النواب أن يسلّم له أحمال دقيق/ ٣٩٩ب/ كانت قد جُهّزت قبل خروجه. وسار بعد ذلك فوصل إلى الشوبك، ويذل المال والخِلَع[١]، وقال: من أطاع مولانا السلطان الملك الظاهر فله هذا الإحسان، ومن عصاه فله هذا السيف.

فلما كان يوم الأحد، سلْخ ذي الحجة من سنة تسع وخمسين وستماية، العصر، تسلّم الشوبك، ووصل الخبر بتسليم الشوبك، وضُربتَ البشائر. وشرع السلطان في تدبير أحوال الشوبك، فسيّر الخِلَع والأنعام لأهلها، وولّى فيها الأمير، المختصّ سيف الدين [بَلبان][٢] نائب السلطنة، ورتّب أمر الولاة فيها، واستخدم فيها النقباء والجنادرة من الباب الشريف، وحمل النّفقات، وأقطع عرباناتها[٣]، الإقطاعات الكثيرة، وحضروا عنده وشملهم جُوده، وأفرد لخاصّ القلعة ما كان في الأيام الصالحية[٤].

واستقرّ بعد ذلك حال الشوبك أحسن قرار.

---

(١) الروض الزاهر ١٢١، تاريخ النوادر ٤/ ورقة ٧١ب.
(٢) إضافة على الأصل من الروض.
(٣) الصواب: «عربانها».
(٤) الروض الزاهر ١٢١، مختار الأخبار ٢٠.

٦٦٠هـ

ودخلت سنة ستين وستماية

[تردّد الرسل بين السلطان بيبرس والملك المغيث صاحب الكرَك]

قال: وبعد ذلك تردّدت الرسل بين السلطان، وبين الملك المغيث، صاحب الكرك عدّة رسائل.

وكان الملك المغيث قد سيّر عسكراً[1] يَقْدَمه الأمير شجاع الدين طُغْريل في الباطن إلى جماعة الشهرزورية[2]، فاستمالهم إليه لما أُخِذ منه الشوبك، فهربوا إلى الكرَك، وفسادُهم معروف. وكان الملك الظاهر قد سيّر عسكراً يقدمهم الأمير سيف الدين [طغريل][3] الشبليّ[4]، لما عاد والشهرزورية[5] وعسكر الكرَك على البلاد مرّة بعد مرّة، فردّهم. ولما كثُر ذلك جرّد السلطان الملك الظاهر الأمير جمال الدين المحمدي فتوجّه إلى الكرَك مُحاصراً لها، فنزل عليها وضايقها، ثم رحل عنها.

ولقد قال السلطان، رحمه الله، : «والله ما قصدتُ الملكَ المغيث، صاحب الكرَك بشرٍّ[6] إلّا[7] حين ابتدى[8] هو به، وسيّر إلى بلادي، وأفسد الشهرزورية[9] واستعان بهم على فساد البلاد».

وشرع السلطان في تجهيز عسكرٍ آخر إلى الكرَك، فوردت رُسُل صاحب الكرَك إلى الخليفة ـ وهو الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله ـ الذي قام بعد الخليفة الذي سار إلى بغداد، وجرى له ما قدّره الله عليه، يسأله الشفاعة، فكتب الخليفة إلى السلطان/ ٤٠٠أ/ يشفع فيه، وعاود فقبل الشفاعة، ولم يجرّد بعد ذلك عسكراً ولا غيره، وأبقا[10] عليه الكرَك وبلادها، وأنعم عليه، وأقطعه دبيان[11] بمنشورٍ شريف، واستقرّ الحال[12].

---

(١) في الأصل: «سير عسكر».
(٢) في الأصل: «الشهرورية».
(٣) الإستدراك من الروض.
(٤) مهملة في الأصل.
(٥) في الأصل: «الشهرورية».
(٦) في الروض: «بسوء».
(٧) في الأصل: «إلى».
(٨) الصواب: «ابتدأ».
(٩) في الأصل: «الشهرورية».
(١٠) الصواب: «وأبقى».
(١١) مهملة في الأصل. وهي قرية بالأردنّ تجاه البلقاء.
(١٢) الروض الزاهر ١٢٣، زبدة الفكرة ٧٤، ٧٥.

[ركوب صاحب الكرك بشعار السلطنة]

ثم بعد هذا التاريخ بمدّةٍ سيّر السلطان صنجقاً، وشعار السلطنة، وخِلعةً، ومنشوراً كريماً. ولما وصل ذلك إلى صاحب الكرَك لبس الخلعة وقبّل عقب الصنجق، وركب بشعار السلطنة، ونوّاب السلطان في خدمته، وشمله ما شمل غيره من الملوك. وأثبت بلاده، واستأمن الشهرزورية[١] إلى السلطان فعفا عنهم وأمّنهم وأحسن إليهم، وأمّر بعضهم وأعطاهم.

ذِكر تحليف الناس لولده الملك السعيد في هذه السنة

ثم إنّ السلطان الملك الظاهر عرض العساكر بنفسه، وحلّف بعد ذلك الناسَ بولاية العهد به لولده الملك السعيد، ملك البسيطة، ناصر الدين، بركة خان، فحلف عند ذلك الأمراء، والمفاردة، والحلقة، والبحرية، وسائر الناس له بآمالٍ منبسطة، وطاعةٍ غير مشروطة، وعهودٍ بالوفاء مقسَّطَة، وكتب بهذا العهد إلى البلاد كلّها والقلاع وإلى الملوك، وسُيِّرت الأَيْمان تتضمّن حَلَفَ جميعهم، وكُتبهم تتضمّن الفرح بذلك والسرور به[٢].

[قدوم جماعة من البغاددة على السلطان]

قال: وفي هذه السنة ـ وهي سنة ستّين وستماية ـ وردت[٣] جماعة من البغاددة في نصف رجب، من مماليك الخليفة، الإمام المستعصم بالله، الذين كانوا قد تأخّروا في العراق بعد قتل الخليفة، رحمه الله، ومقدّمهم الأمير شمس الدين سلّار، فالتقاهم السلطان بالإقامات والخِلَع، والأنعام، والخيول المسوّمة، وكرّر ذلك إليهم مراراً، وأنزلهم في الدُور الحسنة[٤].

[إقطاع الأمير سلّار]

وأعطا[٥] الأميرَ شمسَ الدين سلّار المذكور إقطاعاً بخمسين فارس[٦] بالشام، وهو نصف مدينة نابلس، وأعطاه أيضاً إقطاعاً بمصر، وطبل خاناه، وخلع عليه وأحسن إليه، فلما شاهد الأمير سلّار من إحسان السلطان ما شاهد كتب إلى من تأخّر

---

(١) في الأصل: «الشهرورية».

(٢) الروض الزاهر ١١٣، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ٤٠٧، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٨، مختار الأخبار ٢٠.

(٣) في الأصل: «وددت».

(٤) الروض الناضر ١٢٣، ١٢٤، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ٤٠٩، مختار الأخبار ٢٠.

(٥) الصواب: «وأعطى».

(٦) الصواب: «بخمسين فارساً».

من خُشداشيّته، وإلى أصحابه من خفاجة، يُعلمهم الحالَ، وبما عمّه وعمّ من وصل معه من الإحسان، وبما شاهده من عظمة الملك الظاهر، فكان كما قال اللّه تعالى/ ٤٠٠ب/ : ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾[1] ويُطلعهم[2] على اهتمام السلطان بأمور الجهاد وقوّة عزمه على ذلك، ويحثّهم على الاهتمام في العدوّ وسرعة الحضور[3].

[عفو السلطان عن الأمير قليج البغدادي]

وكان قد جرى من الأمير سيف الدين قليج البغداديّ، المستنصريّ، أمرٌ أوجب اعتقاله، وكان السلطان لما قدِم عليه أعطاه إقطاعاً جيّداً إلى غاية، ولولده، فلما كان في بعض الأيام افتكر الملك الظاهر، وعلم أنّه لعظم ذنبه لم يجسُر أحدٌ من الأمراء يشفع فيه عنده، وأنّ الأسباب قد انقطعت عنه، ولم يبق له إلّا الرحمة والعفو، فأطلقه من ذاته بغير شفيع، وخلع عليه وأحسن إليه، وجعله يلعب معه بالأُكرة، وأعطاه خيلاً يلعب عليها حتّى أنساه بالإحسان ما جرى عليه، وشاهده البغاددة الواصلون على هذه الحالة، فدعوا للسلطان، وشكروا صدقاته وعفوه وحُلمه ومروءته وجُوده[4].

[عودة رسل السلطان من بلاد الإمبراطور]

قال: وفي شعبان من هذه السنة ـ وهي سنة ستين وستماية ـ وصل الأمير سيف الدين الكردي[5]، والقاضي أصيل الدين خواجا الذي[6] توجّها رسل[7] إلى الإنبرور[8] ملك الفرنج بهديّة من عند السلطان، وفي جملة الهدية زرافة[9]، وصُحبتهما كتابه، فذكروا أنّ الأنبرور اهتمّ بهما اهتماماً عظيماً، وتجمّل لهما تجمّلاً عظيماً، وأُعرضت[10] عليه الهدية، فأعجبته الزرافة إعجاباً عظيماً، ورأى من التُحَف ما أذهله وملأ عينه، وقُرئ عليه كتاب السلطان أحد عشر مرّة، وهو يردّده ويفهمه،

(١) سورة يّس، الآية ٢٦.
(٢) في الأصل: «وتطلعهم».
(٣) الروض الزاهر ١٢٤، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٠١، مختار الأخبار ٢٠.
(٤) الروض الزاهر ١٢٤.
(٥) في الأصل: «الكرزي»، ومثله في: السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٩.
(٦) الصواب: «اللذان».
(٧) الصواب: «رسولين».
(٨) مهملة في الأصل.
(٩) مهملة في الأصل.
(١٠) الصواب: «وعرضت».

وأحسن إلى الرسل غاية الإحسان، وجهّز رسولاً وهدية فيما بعد، وكانت هدية لا تحصى[١].

ولما وصل رُسُل الملك الظاهر، رحمه اللّه، المذكورين كان في جملتهم نَفَرَان من البحرية قد أساءا[٢] الأدب، فلما شاهدهما أمر بتأديبهما، لأنه بلغه سوء اعتمادهما، فسيّرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها مقيَّدين، وفي ذلك تأديب وحُسن سياسة، وردْع للمعتدي، وحفظاً[٣] لناموس السلطنة، وإقامة لحُرمة المملكة[٤]،

وكذلك الأمير جاكي، والشريف عماد الدين الهاشميّ، وصلا من عند صاحب الروم عزّ الدين كيكاوس بن كيخُسْرُوا، وصُحبتهما الأمير ناصر الدين/ ٤١٠أ/ نصر اللّه بن كوخ[٥] رسلان أمير حاجب، والصدر صدر الدين الأخلاطي، رسولان[٦] منه، ومعهما كتاب مضمونة الاستعطاف، وأنه ينزل للسلطان عن نصف بلاده، وسيّر دروجاً فيها علايم بما يُقطع من البلاد لمن يختاره السلطان، ويؤمّره، ويكتب له من جهته منشوراً قرين منشور صاحب الروم. فلما وصل الرُسُل أكرمهم السلطان إكراماً جميلاً، وأجاب دعواهم، وسكّن جأشهم[٧].

[كتاب السلطان بيبرس إلى سلطان الروم]

وشرع السلطان الملك الظاهر في تجهيز جيشٍ نجدةً لسلطان الروم، وأمر بكتب المناشير، فعيّن الأمير ناصر الدين أغلمش[٨] السلحدار، الصالحيّ، لتقدمة العساكر، وعيّن ثلاثمائة فارسٍ أيضاً فأقطعهم في بلاد الروم[٩]، وكذلك جماعة أخَر كتب مناشيرهم بذلك. ووصلت تذكرةٌ على يد الأمير ناصر الدين المذكور، نُسختها بالعربية بمقتضى الوقت والحال: «حصل من جلال السلطنة[١٠] ـ أجلّها اللّه ـ للجانب[١١]

---

(١) في الأصل: «لا تحصا».

(٢) في الأصل: «اسيا».

(٣) الصواب: «وحفظ».

(٤) الروض الزاهر ١٢٤، ١٢٥.

(٥) في زبدة الفكرة، ومختار الأخبار ٢١: «كوج»، والمثبت يتفق مع الروض الزاهر. وفي السلوك: «كوح» بالحاء المهملة.

(٦) الصواب: «رسولين».

(٧) الروض الزاهر ١٢٥، زبدة الفكرة ٧٥، السلوك ج١ ق٢/ ٤٦٩، ٤٧٠، مختار الأخبار ٢١.

(٨) مهمل في الأصل.

(٩) الروض الزاهر ١٢٥.

(١٠) في الروض: «جعل من جهة حضرة جلال السلطنة».

(١١) في الروض: «للجناب».

المحروس (الأمير الأجل)[١]، الإسفهسلّار[٢]، الأجلّ، الكبير، العالم، العادل، المؤيّد، المنصور، المظفّر، المجاهد، المثاغر، (العارف)[٣]، المفاخر، ناصر الدين، نصر[٤] الإسلام، عدّة الملوك، وعمدة الممالك، ذخيرة الحضرة، كهف الجيوش، قائد العساكر، نُصرة الغزاة، سيّد الأمراء والحجّاب، صاحب السيف والقلم، عضُد الملوك والسلاطين[٥]، سيّد الأمراء والخواصّ، ملك الحجّاب، إينا قتلغ حاكماً مطلقاً[٦]، فسلّم إليه المناشير، وشرف بما يليق به، ورسم له بالصنجق والمنديل واليد، كجاري العادة، وسيّر إلى خدمة الجناب العالي، المولويّ، الملكي، الظاهري، خلّد اللّه سلطانه، وأقسما[٧] باللّه، سبحانه وتعالى، وابتديا[٨] باللّه[٩]، واللّه، واللّه[١٠]، وباللّه وباللّه، الطالب، الغالب، الضارّ، النافع، المدرك، المهلك، الحيّ، القيّوم، الذي أرسل مائة ألف[١١] وأربع[١٢] وعشرين ألف نبيّ إلى الخلائق كافّة، وبالحلال والحرام، يعني الطلاق، أنه مهما أمر به مولانا السلطان الملك الظاهر، خلّد اللّه مُلكه[١٣]، بحضور الأمير ناصر الدين، هو مقرّر على ما يتقرّر، من غير تبديل ولا تغيير، على جماعة الأمراء وغيرهم، لا يتطرّق إلى ذلك كلام أحدٍ، ولا يسمع في ذلك قول قائل، ولا ينقضه/ ٤٠١ب/ وهذه اليمين يميني، وقد حلفت بها مُهِمّا من المدن والإقطاعات والملكية، وغير ذلك مما[١٤] قرّر ورسم، يكون مقرّراً على الوجه الذي يؤمر به، ولا يُعزل أحد من الجماعة المذكورين، (ويرعاهم بعين رعايته)[١٥]، وكلّ من أحضر من الديوان العالي، المولوي، السلطاني،

---

(١) ما بين القوسين ليس في: الروض الزاهر.

(٢) الإسفهسلّار = اسبهسلار: لفظ فارسي مركب، من: «أسفه» بمعنى مقدّم. و«سلّار» بالتركية، بمعنى العسكر. فيكون: أمير الجيش، أو القائد. (صبح الأعشى ٦/ ٨).

(٣) في الروض: «المعاون، المساعد».

(٤) في الروض: «نصرة».

(٥) بعدها في الروض: «اينا قتلغ ملكا وقادار خاص، سوباشي».

(٦) في الروض: «ملك الحجاب، ناصر الدين، حاكماً مطلقاً».

(٧) في الأصل: «واقسما».

(٨) في الروض: «وابتدينا».

(٩) في الروض: «بواللّه».

(١٠) في الروض: «وتاللّه وتاللّه وتاللّه».

(١١) في الروض: «مائة ألف نبيّ».

(١٢) الصواب: «وأربعة».

(١٣) في الروض: «سلطانه».

(١٤) في الروض: «مهما».

(١٥) ما بين القوسين ليس في: الروض.

الملكي، الظاهري، مثالاً، وتوقيعاً[١] يمثل[٢] ذلك بعد اليوم. وصار البيتين واحد[٣]، والمحبّة الكلّية تؤكّد ذلك، و﴿ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[٤].

كُتب في آخر[٥] جمادى الآخر سنة ستّين وستماية[٦].

وكتب مولانا الملك الظاهر للأمير ناصر الدين، الرسول المذكور، منشور[٧] بثلاثماية فارس[٨]، وأقطعه آمِد[٩] وأعمالها، وتقرّر سفره صُحبةَ العسكر المتوجّه، وأن يتوجّه صدر الدين، الرسول الآخر، صُحبة رسول[١٠] السلطان الملك الظاهر في البحر، إلى السلطان عزّ الدين، وإعلامه بما تجدّد، ولتقوية نفسه، والإعلان أنّ الملك الظاهر قد أجاب داعيه، ولبّى مُناديه، ووقع الاهتمام في كتب المناشير، وتجريد الأمراء من حلب والشام، وتأمير جماعة[١١].

[وصول رسول صاحب صهيون]

قال: وفي شهر رجب من هذه السنة، وهي سنة ستين وستماية، وصل الأمير عماد الدين، ولد الأمير مظفّر الدين، صاحب صهيون رسولاً من جهة أخيه الأمير سيف الدين، وصُحبته الهدايا الحسنة، والتُحَف الجميلة، فأحسن السلطان الملك الظاهر إليه، وأجمل[١٢] في حقّه، وأطلق له الإقامات الوسيعة ولمن معه، وحُملت إليه الخيول. وكتب له منشور[١٣] آخر في البلاد الروميّة بماية فارس[١٤]. وهو إلى حين نسطّر[١٥] هذه الجملة يتقلّب في الإحسان الشريف السلطانيّ[١٦].

إلى (أن)[١٧] قال:

---

(١) في الروض: «أو».
(٢) في الروض: «يمتثل».
(٣) الصواب: «وصار البيتان واحداً».
(٤) سورة يوسف، الآية ٦٦.
(٥) في الروض: «أواخر».
(٦) الروض الزاهر ١٢٦، ١٢٧، مختار الأخبار ٢١ (باختصار شديد).
(٧) الصواب: «منشوراً».
(٨) في الروض: «طواشي».
(٩) آمد: أعظم مدن ديار بكر.
(١٠) في الروض: «رسل».
(١١) الروض الزاهر ١٢٧.
(١٢) في الأصل: «احمل».
(١٣) الصواب: «منشوراً».
(١٤) في الروض: «بمائة طواشى».
(١٥) المراد: «تسطير».
(١٦) الروض الزاهر ١٢٧، ١٢٨، السلوك ج١ ق٢/ ٤٧٠، مختار الأخبار ٢٢.
(١٧) كتبت فوق السطر.

[وصول كتاب صاحب الروم]

وفي هذا التاريخ وصل كتاب صاحب الروم، يذكر فيه أنّ العدوّ لما بلغهم اتّفاقه مع الملك الظاهر خافوا من هيبته، فولّوا هاربين لا يلوي أحدٌ منهم على أحد، وأنه وجميع أصحابه قد سيّر إلى قونية، ليأخذ من بها من أصحاب أخيه[١].

[وصول رسول صاحب حماه]

وفي هذا التاريخ وصل رسول الملك المنصور، صاحب حماه، وصُحبته قُصادٌ وصلوا إليه من جهة التتر، خذلهم اللّه، ومعهم فَرَمان الملك/ ٢٠٤أ/ المنصور، صاحب حماه المذكور، فشكره الملك الظاهر، رحمه اللّه، على ذلك، وأمر باعتقال القُصّاد المذكورين[٢].

[تبدُّد عربان الصعيد]

قال: وفي هذا التاريخ المذكور وصلت كتب الأمير عزّ الدين، أمير جَنْدار، مقدَّم العساكر الذي توجّه إلى الصعيد، بأنّ العربان تبدّد شملهم، وسبب ذلك سوء أعمالهم الذي[٣] ما كان يصلحها[٤] إلّا السيف، بتَعَدّيهم على والي قوص[٥] وقتْله، وهو يذكر أنه بدّد شملهم، وفرّق جمعهم، وغنِم أموالهم، وأراح المسلمين من فسادهم، ومُهِّدت البلاد، وصلُحت أحوال العباد، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ[٦]﴾[٧].

[وصول جماعة من أصحاب البرلوا]

وقال: وفي شعبان من هذه السنة، توالى وصولُ جماعةٍ من أصحاب الأمير شمس الدين البرلوا، من العزيزية والناصرية، وهم ممّن كان يرجع إلى قولهم، ويعتمد على فعلهم، فأحسن السلطان الملك الظاهر إليهم، وأقبل عليهم، ووصلهم بإحسانه وإنعامه، وخلع وأمّر من يستحقّ الإمرة منهم، وقدّم مَن شمله عفوُه وحلمه

---

(١) الروض الزاهر ١٢٨، السلوك ج١ ق٢/ ٤٧٠.
(٢) الروض الزاهر ١٢٨، السلوك ج١ ق٢/ ٤٧١، مختار الأخبار ٢٢.
(٣) الصواب: «التي».
(٤) في الأصل: «تصلحها».
(٥) قوص: مدينة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً، وهي شرقيّ النيل. (معجم البلدان).
(٦) سورة البقرة، الآية ٢٠٥.
(٧) الروض الزاهر ١٢٨، السلوك ج١ق٢/ ٤٧١، مختار الأخبار ٢٢.

وإحسانه، ولم يؤآخذ أحد[١] منهم بشيءٍ مما جرى[٢]، ولا عتب في شيءٍ منه.

وذكروا بأنّ الأمير شمس الدين البُرلوا مقيماً[٣] في البيرة، وكان وقت التقى[٤] التتر وكسروه، قد وقع من على جواده، فانفكّت رُكبته، وهو في أسوأ حالٍ منها، ومن خوفه من الملك الظاهر والتتر.

[قدوم رسول الأشكري على السلطان]

قال: وفي هذه المدّة وصل الأمير فارس الدين أقوش المسعوديّ، الذي كان توجّه رسولاً إلى الأشكري[٥]، وكان قد سيّر الأشكري[٦] إلى السلطان يلتمس منه إقامةَ بَطْرَكٍ[٧] لجماعة النّصارى الملكيّين[٨]، فحصل الاتّفاق على الرشيد الكحّال، فقُدّم، وسيّر إليه صُحبة الأمير فارس الدين المذكور، فأكرمه السلطان وعظّمه وقرّبه، وقرّب من جاء معه من الأساقفة وأعطاهم. ولما وصل البطْرك المذكور، أحضر هديّة كثيرة سنيّة، فردّ السلطان الملك الظاهر ذلك عليه. وكان قد صادف وصولهم إلى الأشكري[٩] فتح القسطنطينية، فركب الملك يوماً ليفرّج فارس الدين المذكور فيها وفي عمايرها، ثم عبر به على مكانٍ/ ٤٠٢ب/ فقال: هذا جامع قد أبقيته ليكون ثوابُه لمولانا السلطان، فلما سمع السلطان هذا الخبر فرح به واستبشر، وأعجبه ليكون[١٠] اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ قد هيّأ هذا الأجر في دولته، وجعل شعار الإسلام يُقام في بلاد الكفر لهيبته. وأمر لوقته بتجهيز الحُصر العَبَّداني[١١] [و] الرقاع الحسنة، والقناديل

---

(١) الصواب: «أحداً».

(٢) الروض الزاهر ١٢٨، ١٢٩، السلوك ج١ ق٢/ ٤٧١.

(٣) الصواب: «مقيم». (٤) في الأصل: «التقا».

(٥) في الأصل: «الأسكري».

(٦) في الأصل: «الأسكري».

(٧) بطرك = بترك: رتبة كهنوتية عند النصارى. يُعدّ صاحبها رئيس رؤساء الأساقفة. جمعه: بطارك وبطاركه.

(٨) النصارى الملكيون = الملكية = الملكانية: هو المتواتر في الكتب بإحدى الفرقتين الدينيتين اللتين نشأتا في مصر المسيحية قبل الإسلام، والثانية هي «اليعقوبية»، وكان قيامهما نتيجة الخلاف الذهبي الذي قام بها وبسائر بلاد الدولة الرومانية الشرقية حول طبيعة المسيح وجوهره ومشيئته وأقنومه. والملك على مذهب الكاثوليك وهو مذهب الطبيعتين والمشيئتين الذي اعتنقته كنيسة روما قرّره مجمع خلقيدونية سنة ٥٤١ الذي حضره زوج الملكة، فسُمّي المذهب بالملكاني.

(٩) في الأصل: «الأسكرى». (١٠) في الأصل: «ليكون».

(١١) العبّداني = بتشديد الباء الموحّدة. نسبة إلى عبّادان، فيقال: عباداني، وعبداني، وعبادي أيضاً. وهي بلد جنوبي البصرة. (معجم البلدان).

المذهبة، والستور المرقومة، والمباخر، والسجّادات، إلى غير ذلك من المِسك والماورد، والبُسُط الروميّة، والعنبر الخام، والعود[1].

قال: وذُكر أنّ سبب بنائه هذا الجامع المذكور في كتاب «تذكرة ابن حمدون»[2]، أنه بُني في سنة ستة[3] وتسعين للهجرة، ووقع الصلح مع الروم على أن يُبنا[4] بالقسطنطينية جامع، فلما طالت مدّته جعلوه حبْساً[5].

وقال غيره: إنّ الصُلح تقرّر بين المسلمين والروم، على أن يُبنى جامع على قدر جلد بعير، فقدّوه سيوراً[6] ومدّوها، فأنكروا[7] الروم ذلك، فقالوا[8] المسلمون: إنّ هذا جلد بعير، ما زدنا عليه شيئاً. ووقع الاتّفاق عليه، فسكتوا.

وقيل: إنّ بانيه مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان، في أيام أخيه الوليد.

وكان يزيد بن معاوية في سنة أحد[9] وخمسين من الهجرة غزا القسطنطينية، ومعه أبو أيوب الأنصاريّ، رضي اللّه عنه، صاحب رسول اللّه ﷺ، فلما حضَرَته الوفاة أوصى بأن يُترك تحت أرجُل الخيل إذا مات، حتّى يدوسوه[10] خيل المجاهدين، ففُعل ذلك به.

وقيل: إنه دُفن تحت سورها، والروم إلى الآن يستسقون المطر إذا انحبس عنهم بقبره، ويدعون اللّه تعالى به[11].

وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه اللّه، لما صالح مَلكَ القسطنطينية أراد أن يجدّد عمارة هذا الجامع، ويُخطب له فيه، وسيّر ابن البرار في هذا السبب، فما أجابه الروم إلى ذلك، ولا مكّنوه منه، وأخّر اللّه ذلك، ليكون أجره للسلطان الملك الظاهر، ركن الدين بيبرس، وفخره لدولته، وذِكر اللّه فيه بطريقته، وهذا عمل صالح للسلطان/ ٤٠٣أ/ لأن اللّه تعالى يقول في كتابه العزيز الكريم: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾[12] الآية.

(١) الروض الزاهر ١٢٩، السلوك ج١ ق٢/ ٤٧١، ٤٧٢، زبدة الفكرة ٧٦، مختار الأخبار ٢٢ وفيه أن الجامع بُني عام ٥٨هـ.

(٢) نشر في ٥ مجلّدات بعنوان: «التذكرة الحمدونية»، لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون.

(٣) الصواب: «سنة ست».

(٤) الصواب: «يُبنى».

(٥) الروض الزاهر ١٢٩ وفيه: «جعلوه جباً».

(٦) في الأصل: «بسورا».

(٧) الصواب: «فأنكر».

(٨) الصواب: «فقال».

(٩) الصواب: «سنة إحدى».

(١٠) الصواب: «حتى تدوسه».

(١١) الروض الزاهر ١٣٠.

(١٢) سورة التوبة، الآية ١٢٠.

[حركة التجار من اليمن]

قال: وفي هذه السنة توالت[١] التجّار من اليمن في سنة [واحدةٍ][٢] مرّتين، وما سبب ذلك إلّا عدل السلطان وحُسن سُمعته، وقد كانوا[٣] التجّار سافروا إلى اليمن، وعزموا على الإقامة، وترْك السفر، فلما بلغهم عدل السلطان، رحمه اللّه، وما هو عليه من الإنصاف، سافروا في غير أوان السفر، ووصل منهم أُناس بعد أُناس، وهذا ما لا يُسمَع بمثله. ووصلوا إلى عَيْذاب، فوجدوا الملك الظاهر قد سبقت كُتُبه بالوصيّة على التّجار.

ومن جملة هيبة هذا السلطان الملك الظاهر وعظمته أنّ التجّار وما معهم من الأموال العظيمة وصلوا إلى براري عَيْذاب عندما هرب العربان قدّام العسكر، وخُلُوّها من والي[٤]، وذلك عندما جرى على الأمير عزّ الدين ما جرى من الكسرة، فلم يتعرّض أحد لشيءٍ من أموال التجّار ولا عُقال بعير، وهذه مهمات[٥] عظيمة، وحُرمة قائمة[٦].

ذِكر نزول العساكر المنصورة على أنطاكية ورجوعهم عنها

قد ذكرنا تقدّم العساكر السلطانية إلى حلب. ولما استقرّت البلاد الحلبية صلُحت الأمور، وحُفظت الغلّات، وانضبطت (وجرت)[٧] على أحسن عادةٍ وقاعدة.

وكان البرنْس صاحب أنطاكية مستمرّ[٨] على ما هو عليه من الخوف، فحصل التّقدّم للعساكر للإغارة على بلاد أنطاكية ونهْبها ومضايقتها، فتوجّهت العساكر إليها صُحبة الأمير شمس الدين سُنقُر الروميّ. وكان من جملة من كان معه صاحب حمص، وصاحب حماه، والأمراء كلّهم، فنازلوها وأخذوا الميناء، وأحرقوا المراكب، وأخذوا حواصلها، وحاصروا السُوَيداء وأخذوها، وقتلوا وأسروا، وأنكوا في بلاد العدوّ أعظم نكاية. وعادت العساكر ودخلت القاهرة في يوم الخميس تاسع وعشرين شهر رمضان سنة ستّين وستماية ومعهم أسرى[٩] ما نيّفت على ثلاثمائة أسير[١٠]. وجرى السلطان على عادته في الإحسان والإمتنان[١١]، وسيّر إليهم الخِلَع والخيول والأنعام.

---

(١) الصواب: «توالى».
(٢) استدراك من الروض.
(٣) الصواب: «وقد كان».
(٤) الصواب: «من والٍ».
(٥) في الأصل: «مهماة».
(٦) الروض الزاهر ١٣٢.
(٧) عن هامش المخطوط.
(٨) الصواب: «مستمراً».
(٩) في الأصل: «أسرا».
(١٠) في الروض الزاهر ١٣٣، «وهم مائتان نيف وخمسون أسيراً».
(١١) الصواب: «والمنّ».

/ ٤٠٣ب/ وسُيِّرت الخِلَع للملوك في بلادها[١].

قال: وخرج السلطان في سلْخ ذي الحجّة، سنة ستّين وستماية، وصُحبته الأمراء، فتصيّد ورمى[٢] بالبُنْدُق، ثم خلع على الأمراء جميعهم الخِلَع الفاخرة الكاملة، وسيّر إليهم الأغنام والخيول وغير ذلك، وانتقل إلى البركة للصيد أيضاً، فجرى على عادته في الإحسان إلى من في صُحبته من الأمراء والخواص[٣]، لا زال نوره يتمّ، وجوده يعمّ.

ذكر حضور شمس الدين البُرلوا إلى عند السلطان وما جرى له

قد ذكرنا أحوال الأمير شمس الدين أقوش البُرلوا[٤] العزيزي وما جرى له في بلاد حلب وغيرها، وكيف تقلّبت به الأحوال. ولم يزل الملك الظاهر يرهّبه ويرغّبه، ويضيّق عليه المجال، ويبسط له الآمال، إلى أن سأل الدخول في الطاعة وبذْل الخدمة، فأجابه السلطان إلى ذلك، وطيّب قلبه، فوصل إلى دمشق، ووصلت الأخبار بذلك إلى السلطان، فكتب إلى النواب بالإحسان إليه، والإنعام عليه، وحمل إليه ما يدعوا[٥] إليه حاجته وحاجة من معه من الإقامات، ورتّب له ذلك في جميع الطرقات إلى مصر، وكان متمرّضاً، كما ذكرنا، من جراحةٍ في رجله، فسيّر إليه الأدوية، وسيّر إليه الأمير بدر الدين بكتاش، أمير سلاح، أحد أمرائه ليلتقيه، وخدمه واهتمّ به اهتماماً عظيماً[٦].

ولما كان ثاني ذي الحجّة سنة ستين وستماية وصل إلى القاهرة، فركب الملك الظاهر، رحمه اللّه، والتقاه هو وجميع الأمراء والناس، فأكرمه الملك الظاهر غاية الإكرام، وبالغ في الإقبال عليه والإحسان إليه، وسيّر له من المال، والخِلَع والقماش، والخيول المسوّمات، شيئاً كثيراً، لعلّه يكون خزانة ملك عظيم، ولم يترك شيئاً مما يحتاجه الأمراء إلّا وسيّره إليه، وكذلك جميع من وصل معه من الأمراء وغيرهم، وأعطى كلّ واحدٍ منهم على قدر منزلته، وأرضاهم جميعهم، وأمر أمراء مصر كلّهم بافتقاده والإهداء إليه، فاستغنى في وقتٍ واحدٍ، وحصل له ما ملأ خزائنه/ ٤٠٤أ/ واصطبلاته ومناخاته، وفاض على غلمانه وأصحابه وأهله. ثم بعد ذلك كتب له منشور[٧] بستّين فارساً، وأعطاه خاصّاً جيّداً، وأعطاه طبلخاناه، وخلع عليه، وكذلك على الأمراء الواصلون[٨] صُحبته، وأمّرهم وأحسن إليهم وقرّبهم.

---

(١) الروض الزاهر ١٣٢، ١٣٣.
(٢) في الأصل: «ورما».
(٣) الروض الزاهر ١٣٣.
(٤) في الروض: «البرلي».
(٥) الصواب: «ما تدعو».
(٦) الروض الزاهر ١٣٣، ١٣٤.
(٧) الصواب: «منشوراً».
(٨) الصواب: «الواصلين».

ولما استقرّ كتب إلى الملك الظاهر يطلب منه زيادة في الشام، إمّا في نابلس، وإمّا في بلاد الصَّلْت، وإمّا في بلاد بَعْلَبَكَّ، وإمّا في حرّان، وينزل عن البيرة، ويقول له إنّ قدرته تعجز عنها، فشكره السلطان على ذلك، وجزاه خيراً، ولم يقبل البيرة منه، وقال: «أنا أرجوا[١] لك الزيادة، وما يكون إن شاء اللّه إلّا ما يَسُرُّك».

وانفصل الأمر على ذلك، والملك الظاهر يقرّبه ويُسايره إذا ركب، ويشاوره إذا جلس، وأحسن إليه، فإنـ[ـه] ساهمه في كل شيء حتّى فيما يكون بينه وبينه فيما يتصرّف فيه، ولم يفارقه في صيدٍ، ولا غيره، وهو يوافقه في الأحوال.

ولم يزل شمس الدين البُرلوا يسأل السلطان حتّى قبل منه البيرة[٢]، وأعطاه الرُها وغيرها، وأمّر مماليكه وخلع عليهم وعليه، وسافر في الخدمة إلى الطور، وما بطّل الملك الظاهر الإحسان إليه ولا افتقاده بالخيل والأنعام وغير ذلك طول الطريق، وهو يفتقده بأنواع الإحسان. ولم يزل كذلك حتى (جرى منه ما)[٣] أوجب التغيير عليه والتنكّر منه، على ما سنذكره إن شاء اللّه تعالى، وذلك في شهر رجب سنة أحد (وستين)[٤] وستماية، وأحسن إلى أهله وولده، وقرّر لهم الرواتب وكل ما يحتاجون إليه، وقرّبهم وأمرهم بملازمة الخدمة، وكذلك مماليكه وأصحابه طيّب قلوبهم، ومَطّ لهم آمالهم، وأمرهم بملازمة الخدمة الشريفة، واستمرّوا في إقطاعاتهم في مصر[٥].

[سفر شيخ الشيوخ رسولاً من صاحب حماه إلى الملك الظاهر]

قال صاحب الكتاب[٦]]:

وفي هذه السنة في ثاني يوم من المحرّم توجّه الصاحب، شرف الدين، وشيخ الشيوخ[٧] رسولاً من السلطان الملك المنصور، صاحب حماه، إلى الملك الظاهر، في شُغلٍ للسلطان، فقضى أشغاله، وأحسن إلى شرف الدين إحساناً عظيماً إلى غاية ما يكون من/ ٤٠٤ب/ الإحسان.

وسبب ذلك أنّ الملك الظاهر لما أتى إلى عند الملك الناصر مقفّزاً من الكرَك،

---

(١) الصواب: «أرجو».

(٢) نزهة المالك والمملوك ١٥١.

(٣) ما بين القوسين عن هامش المخطوط.

(٤) عن هامش المخطوط.

(٥) الروض الزاهر ١٣٤، ١٣٥، السلوك ج١ ق٢/ ٤٧٥، ٤٧٦، باختصار شديد، نهاية الأرب ٥٩/٣٠، تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٦٦٠هـ.) ص٧٩.

(٦) من هنا يعود النص في النسخة (أ).

(٧) هكذا في (ب). وفي (أ) ورقة ١٧٢أ «شيخ الشيوخ جدّي قدّس اللّه روحه».

في سنة سبع وخمسين وستماية، أحسن إليه شرف الدين شيخ الشيوخ، وقضى له حوائج كثيرةً عند الملك الناصر، فعاد له شاكراً.

وكان الملك الظاهر مَهيباً في أول أمره إلى آخره.

قال القاضي جمال الدين بن واصل صاحب التاريخ:

([1] لقد أخبرني الصاحب شرف الدين شيخ الشيوخ[2]، وقد سألته عن الاجتماع بالملك الظاهر ونحن بالماردانيّة: من هذا؟

فقال: هذا ركن الدين البُنْدُقداريّ الذي لا يركب إلّا بطبلٍ[3] ومِخْلاة فرسه والحبل والدلو معه على مركوبه، لشدّة حزمه وتجاربه. وأخبر أنّ الملك الناصر صاحب حلب ودمشق حصل له بوصوله إليه سروراً كثيراً[4].

وحكى، رحمه اللّه، للجماعة قال: كان الأمير علاء[5] الدين البُنْدُقداري الصالحيّ لما قُبض وأُحضر إلى حماه، اعتُقل بجامع القلعة لمصلحةٍ أفضت إلى ذلك، فاتّفق حضور الملك الظاهر مع تأخّر.

وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك في سِنّ الصِّبا، وكان عادته أنه متى أراد شراء رقيق أُحضر، وتراه الصاحبة والدتُه، ومن أشارت بابتياعه أُخذ.

وكان الملك المنصور لما بلغه وصول الملك الظاهر و(هُو)[6] مع التأخّر تقدّم بإحضاره، فأُحضر ومعه خُشداشٌ له، وعُرضاً على الصاحبة، فرأتهما من داخل الستارة، فلما أستأذنها السلطان ولدُها في شرائهما، قالت له: خُذ المملوك الأبيض، والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة، يعني الملك الظاهر بأن عينيه فيهما الشرّ لائح، فردّهما جميعاً على التاجر، فسرَّها ذلك. وبلغ الأميرَ علاء[7] الدين البُنْدُقداري حضورَ هاذين المملوكين اللذَين[8] جُلبا، فطلبهما إلى عنده، فلما رآهما صلحا له فاشتراهما وهو في الاعتقال، إلى أن أفرج الملك الصالح نجم الدين (أيوب أستاذه)[9] عنه، وتوجّه بهما إلى مصر، فأخذهما الملك الصالح منه، فكان من الملك الظاهر ما كان، (والمُلْك للّه يؤتيه من يشاء)[10].

---

(١) من هنا تكرّر الخبر باختلاف كلمات يسيرة في أول سنة ٦٦٢هـ. انظر النسخة (ب) ورقة ٤٠٥ب ـ ٤٠٦أ.

(٢) في (أ) ورقة ١٧٢أ «أخبرني جدي وقد سألته».

(٣) في (أ) ورقة ١٧٢أ، «إلا بطبل وباز».

(٤) الصواب: «سرور كثير».

(٥) في الأصل: «علاى».

(٦) كتبت فوق السطر.

(٧) في الأصل: «علاى».

(٨) في الأصل: «الذين».

(٩) ما بين القوسين عن هامش المخطوط.

(١٠)هنا ينتهي التكرار في النسخة (ب) ورقة ٤٠٦أ.

ذِكر وصول جماعة التتار الوافدين إلى الديار المصرية

قال صاحب التاريخ: لم يزل السلطان/ ٤٠٥أ/ الملك الظاهر مهتمّاً من أمر الأعداء، محترزاً من مكائدهم، وآخذ[١] بالحزم في أمورهم، وقُصّاده لا تنقطع من بغداد وأخلاط، وغيرهما من بلاد الشرق والعجم، وهو يَغْرم عليهم الأموال الكثيرة، لأنّ من يسافر في هذا الأمر المهمّ، ويسخوا[٢] بنفسه لا بُدّ يأخذ مثل دِيَته قبل سفره، ولولا ذلك ما غرّر أحدٌ بنفسه، فأرسل اللّه تعالى السلطان لهذه المصلحة، فجعل يردّد القصّاد، ويتعرّف بمن يُطْلعها على البواطن، وكاتَبَهم وسيّر إليهم التُحَف والهدايا الفاخرة، فسيّروا يعرّفون أنّ هلاون ـ خزاه اللّه تعالى ـ قد جمع جمعاً كثيراً، ولم نعلم قصده إلى أيّ جهة، فاحترز السلطان، وسيّر الكشّافة من خواصّه، وجرّد معهم جماعة من التُرك الخفاف بالخيول المسوَّمة والجنائب المستريحة، فسيّر الأمير جمال الدين الرومي السِلحدار من الخواصّ، ومعه الخيول، منها حجرة من خيل خَفَاجة سابقة، وغيرها من الخيل، كلّ فَرَس بألف دينار، ومع كلّ واحدٍ فرسين[٣]، ثم الأمير علاء[٤] الدين أقسُنْقُر (الناصري)[٥] كذلك، حتى أخذ الأخبار، ومسك[٦] من وسط التتار أناساً، وأخذ الأخبار منهم، وكانوا مسلمين، فأطلقهم، وكتب إلى الشام بإردافهم بجماعةٍ، وإرسال أمراء العربان خلفهم، فساقوا إلى حدود العراق[٧].

ولما تواترت الأخبار بحركة الملك هلاون، أمر السلطان، رحمه اللّه، بالحزم، وتقدّم أهلِ دمشق بالحضور بأهاليهم لتخفّ ظهورهم، وترخص الأسعار، ويؤمّن نِفاق مَن له مَيلٌ إلى العدوّ، فحضرت جماعة كبيرة. وكتب الملك الظاهر إلى وُلاة البلاد بتخفيرهم من ولايةٍ إلى ولاية، إلى باب القاهرة المحروسة. وكتب إلى جميع الطرقات الشامية والمصرية أن لا يؤخذ منهم حقّ على طريق، ولا يتعرّض إلى ما معهم من متجر، وقماش، وأثاث، ومَصُوغ، وجوهر، ولا يفتّش لهم محاير، ولا تعتبر لهم شدّات، ولا يتحدّث معهم ديوان ولا ضامن، ولا يصل إليهم رقاص. فوصلوا إلى القاهرة سالمين آمنين.

وكتب أيضاً إلى النواب بحلب بحريق الأعشاب، وسيّر جماعة من غلمانه /

---

(١) الصواب: «وآخذاً».

(٢) الصواب: «ويسخو».

(٣) الصواب: «فرسان».

(٤) في الأصل: «علاى».

(٥) عن هامش المخطوط.

(٦) هكذا ترد كثيراً في المصادر، والصواب: «وأمسك».

(٧) الروض الزاهر ١٣٥، ١٣٦.

٤٠٥ب/[و] رجاله إلى بلاد آمِد، إلى موضع الأعشاب التي جرت عادة هلاون ملك التتر بنزولها لما وصل إلى حلب، وقد كانت محميّة.

وكتب إلى دمشق بأن تُجهّز القدّاحات والصوفان وآلة النار، بحيث لا يعلم أحد، فتوجّهوا فأحرقوا تلك المروج جميعها، وهي مسيرة عشرة أيام، إلى أن صارت جميعها رماداً، وسلّمهم اللّه تعالى، ووصلوا سالمين. وفعل في إحراق أعشاب أخلاط كذلك، وأحرق قُصّاده الأعشاب التي في طريق العدوّ، وقطع السبيل احترازاً، وأمرهم أن لا يتحرّك أحد من مكانه.

ثم إنه سيّر كشّافةً أخرى مثل الأولى وأكثر، وفي صُحبتهم العُربان.

وفي أثناء هذا الحال بَلَغَتْه أمور عن الأمير علاء[١] الدين طيبرس الوزيري، النائب بدمشق، أنكرها، فسيّر الأمير عزّ الدين الدمياطي، والأمير علاء[١] الدين أيدُغدي، الحاج الركني، مع جماعةٍ من الأمراء إلى دمشق[٢] (فخرج الأمير علاء[٣] الدين طيبرس للقائهم، فقبض الدمياطي عليه حتى كارشه، وقبض على غلمانه، ووبّخوه وإيّاهم جميعاً وأهانوهم، وقيّدوا الحاج علاء[٤] الدين طيبرس. ووقف شَوْشة في دمشق، وكانت سليمة العاقبة بحمد اللّه تعالى.

وكان الناس قد لقوا من الحاجّ علاء[٥] الدين طيبرس شدائد وأهوال[٦]، وتشتّت الناس من البلاد، وأخافهم، وأخلا[٧] القلعة من الأموال والذخائر. وكان بيته يعصي ببعض القلاع، فلم يتمّ له ذلك، وكان هذا من قلّة عقله وسوء تدبيره، فقبض عليه من موكبه ولم يعُد إلى القلعة بعد ذلك، بعد تمليكه إيّاها. وكان قد توجّه قبل ذلك في عسكر الشام وبعض عسكر مصر إلى أنطاكية، وهو في جيشٍ كثيف، فأشرف إلى أخذها، فحملوا[٨] إليه الفرنج مالاً، فأصبح أمَرَ العسكر بالرحيل على غفلة، ورحل وجاء إلى دمشق. وتوجّه عسكر مصر إلى مصر، وأخذوا[٩] الفرنج من أهل أنطاكية من رجّالة المسلمين ما لا يُعدّ بسبب رحيله[١٠] على غفلةٍ من الناس. وشرع بعد ذلك في تخويف الناس وتجفيلهم من التتر.

وجرت أمور يطول/ ٤٠٦أ/ شرحها.

---

(١) في الأصل: «علاى».
(٢) الروض الزاهر ١٣٦، ١٣٧.
(٣) في الأصل: «علاى».
(٤) في الأصل: «علاى».
(٥) في الأصل: «علاى».
(٦) الصواب: «وأهوالاً».
(٧) الصواب: «وأخلى».
(٨) الصواب: «فحمل».
(٩) الصواب: «وأخذ».
(١٠) زاد بعدها في الأصل: «كان آخر العهد» ثم شطب عليها.

وكان قصده خراب الشام حتى لا ينتفع به غيره من نواب السلطان ركن الدين بيبرس)[١] فلما قبضوه وقيّدوه وجّهوا به إلى مصر، [و] كان آخر العهد به.

وتسلّم الأمير علاء[٢] الدين أيدُغدي دمشقَ فنظر فيها إلى حين يحضر نائب مستقلّ، وذلك في يوم الأربعاء رابع ذي القعدة سنة ستين وستماية[٣].

(ووالى السلطان الملك الظاهر الكتبَ بإرسال الكشّافة)[٤]، فسيّر علاء[٥] الدين أيدُغدي جماعة بعد جماعة.

وفي هذا التاريخ وصل كتاب الحاج علاء[٦] الدين أيدُغدي إلى السلطان، مضمونه: أنّ الكشّافة وجدوا جماعة كثيرة من النفر مستأمنين وافدين إلى الأبواب الشريفة، لأنهم من أصحاب الملك بركة، وكانوا نجدة عند هلاون، فلما وقع بينهما كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه، وإن لم يقدروا على ذلك ينحازون إلى عسكر الديار المصرية، ويذكرون أنّ العداوة قد استحكمت بينهما، وأنّ ابن هلاون قُتل في هذا المصافّ، وأنهم فوق الثلاثمائة فارس[٧].

قال: وللوقت كتب إلى النواب بالشام بإكرامهم والإقامة بهم، وحمل الأموال والخِلَع إليهم، وكذلك إلى نسائهم. وقُدّمت إليهم الخيول والأنعام، وأحسن إلى مقدّميهم. وسيّر معهم مهمندار[٨] برسم الإقامات في الطرقات. وكتب السلطان الملك الظاهر إلى جميع المقيمين في الطرقات بخدمتهم، وسيّر إليهم الإقامات من مصر فيها كل شيء من الأغنام والسُكَر، وحوايج خاناه، والشعير، وغير ذلك.

ووصلوا في يوم الخميس رابع وعشرين ذي الحجّة. وخرج السلطان والناس أجمعون[٩] للقائهم يوم السادس والعشرين منه سنة ستّين وستماية، ولم يبق من سائر أهل القاهرة ومصر أحد حتّى خرج. وكان يوماً عظيماً.

ولقد رأوا[١٠] التتر من كثرة العالم والعساكر ما أبهرهم وحيّر عقولهم. وكان

---

(١) ما بين القوسين، من قوله: «فخرج الأمير علاء الدين طيبرس للقائهم..» إلى هنا، ليس في الروض الزاهر. انظر ص١٣٧.

(٢) في الأصل: «علاى».

(٣) الروض الزاهر ١٣٦، ١٣٧.

(٤) ما بين القوسين ليس في الروض الزاهر ١٣٧.

(٥) في الأصل: «علاى».

(٦) في الأصل: «علاى».

(٧) في الروض الزاهر ١٣٧ «فوق المائتي فارس».

(٨) الصواب: «مهمنداراً».

(٩) الصواب: «أجمعين».

(١٠) الصواب: «ولقد رأى».

الملك الظاهر قد رسم بعمارة دُور ومساكن لهم قريب اللّوق، فنزلوا فيها. ثم عمل لهم دعوةً عظيمة في اللوق، وحُملت الخِلَع إلى جميعهم، وسيقت إليهم الخيول. وفرق فيهم الأموال، ولعبوا بالأكرة مع/ ٤٠٦ب/ السلطان، فأعطاهم عدّةً من الخيول. ثم أمّر كُبراءهم من مِاية فارس وما دونها أجناد[١]، وباقيهم نزّلهم في جملة بحريّته ومماليكه، وأعطى[٢] للأمراء منهم الطبل خاناه والصناجق والخيام، واستخدم لهم الاستداريّة، ورتّب لهم النوبات جميعها، ووصلت لهم الأقمشة، وصار كلٌّ منهم كأميرٍ مستقلّ له الأجناد، والغلمان، والمناخات، والإسطبلات، وأسبغ عليهم النِعَم ظاهرةً وباطنة، وتقرّرت لهم جهات يُستخرج منها مؤنهم[٣]. وحسُن إسلام جمعهم وإيمانهم.

ولما سمع الناس هذا الإحسان، وبلغ التتَرَ ذلك توافدوا جماعةً بعد جماعة، فلم يخلُ وقت من جماعةٍ تصل، والملك الظاهر يعتمد معهم من الإحسان هذا الاعتماد، وينعم عليهم، ويخلع عليهم الخِلَع الفاخرة، ويُعطيهم الخيول، ويُطلق لهم الأرزاق وغيرها من الكساوي والنفقات، ويفرّقهم[٤] كلّ جماعةٍ بين أضعافها من المماليك السلطانية، وجعل عليهم الخدّام والمقدّمين، واستمرّ حالهم على ذلك[٥].

[عودة ابن العديم إلى حلب]

قال صاحب التاريخ: وفي هذه السنة، وهي سنة ستين وستماية، رجع كمال الدين أبي[٦] القاسم عمر بن عبد العزيز، المعروف بابن العديم، إلى حلب من مصر، وكان قد جفل مع الخلق لما جفلوا من التتر، فوصل إلى حلب فنظر إليها وما فعل التتر (فيها)[٧] وما قتلوا، ونظر إلى خرابها بعد ذلك العمارة، فأنشأ يقول هذه القصيدة في حلب وأهلها:

هو الدّهر ما تبنيه كفّاك يُهدَم ... وإنْ رُمتَ إنصافاً لديه فتُظْلَمُ
ويَرفع ذا[٨] نقصٍ، ويخفض زائد ... ويَرزق من غير اكتسابٍ ويَحرم
أباد ملوكَ الفُرس جمعاً وقيصراً ... وأصمت لدى فرسها منه أسهُم
ومال على عادٍ وطَسَم وتُبَّعٍ ... قضاء بأنواع الردى منه مُبْرَم
ونمرود مع آل الجديس ووائلٍ ... وقوم سواهم والخليل المكرّم
أدارت عليهم بالمنيّة أكؤسٌ ... فكم بُليَت منهم جُسُومٌ وأعظُمُ

(١) الصواب: «أجناداً».
(٢) في الأصل: «وأعطا».
(٣) في الروض الزاهر: «مرتبهم».
(٤) الصواب: «ويفرّقها».
(٥) الروض الزاهر ١٣٧، ١٣٨.
(٦) الصواب: «أبو»
(٧) عن هامش المخطوط.
(٨) في الأصل: «ذو».

/ ٤٠٧أ/ وأفنى بني أيوب مع كثر جَمْعهم   وما منهم إلّا مليك معظَّم
وملك بني العباس زال ولم يدع   لهم أثراً[١] من بعدهم وهمُ همُ
وأعتابهم أضحت تُداس وعهدها   تُباس بأفواه الملوك وتُلثم
محارم آل للنُبُوّة حلّلت   لكل كفور بالردى متغشّمُ
فواعجباً ممن دها آل هاشم   من النكر ما قد حل خطراً ويعظُم
وكانت ملوك الأرض ترعد خشيةً   لهنّ وأيدي البوس عنهن تجدم
لهم أسوةٌ إنْ كان أَخْنَتْ عليهمُ   صُروف الليالي بالذين تقدّموا
وعن حلب ما شئت قُلْ من عجائب   أحلّ بها إن كنتَ يا صاح تعلم
غداة أتاها للمنيّة بغتةً   من المغل جيشٌ كالسّحاب عرمرم
أحاطوا بساحات الفضا[٢] بربوعها   تقل بهم جرد من الخيلُ طهَّمُ
وَجُوهٌ كأمثال المِجَنّ وأعيُنٌ   مضيّقة حور المحاجر شهّم
ومن بعد ستٍّ هاجموها ومالهم   من الموت واقٍ لا ولا منه مِعصم
فما دفعت أسوارها عنهُم الذي   دهاهم ولا ما سنّدوه ورمّموا
أتوها كأمواج البحار زواخراً   ببيض وسُمْر والقُتام مخيّم
وصالوا على تلك النفوس بأنفُس   بعجالهم حفظاً لها وهي هرّم
على النقع ليلاً والسيوفُ بوارق   وهن رُعود والأسنّة أنجُم
واوُ جرّهم ضرباً يطير لوقعه   فراح يدبّ عن رعيها[٣] وهي خيم
وثارت بهم أُسْدُ الشَّرَى وتلاحمت   هياجاً ونارُ الحرب فيهم تضرم
وكم فوق وجبات الوهاد تنافرتْ   معاقلُهُ منهم فراراً وترغم[٤]
إلى أن ظما مما هرقن فومنها   وشال على الغبراء بالمزج يلطم
فلو حلب البيضاء عاينت تُربَها   وقد عندم الفضّي من تربها[٥] الدم
/ ٤٠٧ب/ وقد سيّرت تلك الجناب وسحرت   بهنّ بحار الموت والجو أقتم
وقد عطّلت تلك العشار وعطُّلت   مواضع عمّا أرضعت وهي هيّم
لأيقنت أنّ الأرض مادت وأقبلت   به الصّاخّة الكبرى وآن التنعم
فيا لك من يوم مَهُولٍ بعامه   وقد أصبحت فيه المساجد تُهدم
وقد دُرِست تلك المدارس وارتمت   مصاحفُها فوق الثرى وهي تخم

---

(١) في الأصل: «لهم أثر».
(٢) في الأصل: «كاسحات الفضاء».
(٣) مهملة في الأصل.
(٤) في الأصل: «فرار وتسعم».
(٥) في الأصل: «موربها».

فـمـا غـادروا إلّا الـيـسـيـر وقـد أتـى ... الحسامُ على الباقين بالحتْف منهم

تـراهـم سُـكـارى لـم يـفـيـقـوا مـخـافـةً ... فـلا هُـنّ أيـقـاظ(١) ولا هـنّ نُـوَّم

وسـيـق بـربّـات الـحـجـال فـلـو تـرى ... شـتـاتـاً مـلـوك الأرض كـيـف تـقـسّـم

وقـد سـطـحـت فـوق الـبـسـيـطـة فـضـع ... كـمـثـل الـدّنـا يـعـتـقـن بـالـمـوت فـطّـم

وقـد جُـزّرت تـلـك الـشـعـور وضـمّـخـت ... وجـوهٌ بـأفـواه الـدّمـا وهـم تـلـطـم

وجـوهٌ لـهـا تـعـنـي الـبـدور وتـخـجـل ... الـشـمـوس وعـنـهـنّ الأهـلّـة أنـجـم

لـكـلّ مـهـاةٍ قـد أهـيـنـت سـبـيَّـةً ... وقـد طـال مـا كـانـت تـعـزّ وتـكـرم

تـنـادي إلـى مـن لا يـجـيـب نـداءهـا(٢) ... وتـشـكـو(٣) إلـى مـن لا يـرقّ ويـرحـم

حَـوَتـهـم جـيـوش الـكـفـر والأرمـن والأُلـى(٤) ... طَـغَـوا بـعـد ذُلّ كـان يـشـهـر عـنـهـم

وقـيـدوا إلـى أرض الـسـواحـل بـعـدمـا ... أذلّـوا لـذاك الـعِـزّ مـنـهـنّ مـغـرم

وقـرعـهـم دهـراً قـضـى(٥) بـشـتـاتـهـم ... وأوضـح أمـراً مـنـهـمُ كـان مُـبْـهـم

وقـد مُـحـيَـت(٦) بـعـد الـكـرامـة مـنـهـم ... ربـوع بـهـم كـانـت تـنـيـر وأرسُـمُ

فـمـا كـان مـنّـا الـظـنّ عـن حـلـب بـأن ... تـغـادر نـهـبـاً لـلـبـلـى وتُـقـسّـم

وتـصـبـح مـأوًى لـلـوحـوش ومَـرْبـعـاً ... وقـلـعـتـهـا قـهـراً لـذلـك تـهـدم

يـمـزّق أهـلـيـهـا الـزمـانُ ويـرتـمـي ... شـتـاتـاً وشـمـلاً مـنـهـم يـتـصـرّم

حَـيـارَى بـآفـاق الـبـلاد رواغـمـاً ... فـذا مـبـحـر(٧) قـصـداً وهـا ذاك مـتـهـم

/ ٤٠٨أ/ وأضحى(٨) الملك الناصر بن محمد ... بـأيـدي الأعـادي وهـو لـلـسـيـف مـطـعـم

حووا منه شيئاً كنّ بالأمس لم يطق ... بـقـوة(٩) ذكـراهـم لـسـان ولا فـم

فـيـا ظـبـيـا آثـار ربـوعـك أقـفـرت ... وأعْـيَـت جـوابـاً فـهـي(١٠) لا تـتـكـلّـم

وأقـوت عـراصـاً فـي فـنـاك ومَـعـهـداً ... ولـيـس لـداعـي فـي رسـومـك مـعـلـم

وكـنـت لـمـن وافـاك بـالأمـس جُـنّـةً ... فـمـا بـالُ هـذا الـيـوم أنـت جـهـنّـم

بأيّ جَناء(١١) منك استحقّيت ذا الذي ... أصـابـك والأعـداء فـيـكـم تـحـكّـمـوا

أمـا كـنـت لـلـراجـيـن مـلـجـأً ومَـفْـزعـاً ... وفـيـك عـن الـبـأسـاء والـضـرّ أنـعـم

(١) في الأصل: «أيقاضاً».

(٢) في الأصل: «نداوها».

(٣) في الأصل: «وتشكوا».

(٤) في الأصل: «الذي».

(٥) في الأصل: «قضا».

(٦) في الأصل: «وامحت كرمته وأفقرت».

(٧) في الأصل: «مبحرا».

(٨) في الأصل: «اضحا».

(٩) في الأصل غير واضحة.

(١٠) في الأصل: «فهم».

(١١) في الأصل: «جنا».

أما كنت عَرفاً[١] للوفود ومقصداً ويخشاك ذو عدوى ويرجوك مُعدم
أما كنتِ للداعي إذا ما دعا صدًى[٢] وفيك لمن يبغي من البغي معدم
أما كنت للّاجي حِمًى[٣] ولمن أتى قرى ومن يحبو إليك التكرم
أما فُقْت آفاق البلاد تشرّفاً وقد كان حُور العين فيك تنعّم
وكيف أصابتك الحوادثُ غرّةً بعين الردى والبؤس عنك يترجم
يعزّ على قلبي المُعَنّى[٤] بأنني أرى رَبْعك المأنوس قفراً يحطّم
فأقسم بالبيت العتيق ومن دعا إليه فلبّاه الحطيم وزمزم
لئن لم يعُد أهلوك وقعودي[٥] بهم كما كنت قدماً أو أرى الشمل منظم
فمالي من طرفٍ أراك به ولو يقرّحه دمعٌ بخدّيه عندم
نعم، إنني قد جئتك اليوم زائراً ولم أغيّر من[٦] قولي ولا أتبرّم
فأين أحبّائي الذين عمّدتهم بَربْعك والقطّانُ فيكِ تخيّم
وأين شموسٌ كنّ بالأمس بزّغاً وأين استقلّوا بالركاب ويمّموا
فها أنا ذو وجْدٍ مقيم بأضلُعي عليك وعَيشي في البلاد مذمّم
وأصبحتُ لا حيّاً ولا ميّتاً قضاء[٧] عليك أساءوا الظنّ فيك تترحّم
/٤٠٨ب/ أنوح على أهليك في كل منزلٍ وأبكي الدُجى شوقاً وأسأل عنهم
لقد كنت دهراً فيك أحذر خطةٍ وأخشى[٨] زوالاً فيك مذ قيل يمّموا
إذا ذَكَرَتْك النفسُ تزهق حُرقة وكادت بي الدنيا تضيقُ وتظلم
عليك سلامُ اللّه ما سار راكبٌ وما لاح في أُفْق السماوات أنجُم
عسى داعي الإسلام منهم بمثل ما أحلّوا بنا قدما يعود ويعظم[٩]

(١) في الأصل: «مهملة».
(٢) في الأصل: «إذا ما دعى صدا».
(٣) في الأصل: «حما».
(٤) في الأصل: «المعنا».
(٥) في الأصل: «إهليك وتعيدي».
(٦) في الأصل: «ولم أعيرم».
(٧) في الأصل: «قضا».
(٨) في الأصل: «احشا».
(٩) في الأصل: «أحلوا بنا قد أحلوا سيعمر».

ولكنما للّه في ذا مشيئة فيفعل فينا ما يشاء ويحكم

[وفاة العزّ بن عبد السلام]

وفي هذه السنة ـ وهي سنة ستين وستماية ـ مات الشيخ الصالح، العلّامة، الإمام، عزّ الدين، عبد العزيز بن عبد السلام[1] الدّمشقيّ، المصنّف: «نهاية المطلب»، وغير ذلك من المصنّفات المفيدة الجليلة، بمصر، قدّس اللّه روحه، ونوّر ضريحه، وانتهت إليه رئاسة أصحاب الشافعيّ.

[وفاة ابن العديم]

وفي ذي الحجّة أيضاً من هذه السنة مات صاحب هذه القصيدة المذكورة الذي رثا[2]

---

(١) انظر عن (العز بن عبد السلام) في:
ذيل الروضتين ٢١٦، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٩٥ رقم ١٤٢، وذيل مرآة الزمان ١/ ٥٠٥، ٥٠٦، ونهاية الأرب ٣٠/ ٦٦ ـ ٦٧، والوفيات لابن قنفذ ٣٢٧ رقم ٦٦٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١٥، والدرّة الزكية ٩٣، وتاريخ علماء بغداد لابن رافع السلامي ١٠٤ ـ ١٠٧، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٦، والعبر ٥/ ٢٦٠، ودول الإسلام ٢/ ١٦٦، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٨، والمعين في طبقات المحدّثين ٢١٠ رقم ٢٢٠١، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٦٠هـ.) ص٤١٦ ـ ٤١٩ رقم ٥٣٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٥، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٨٠ ـ ١٠٧ (٨/ ٢٠٩ ـ ٢٥٥)، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ١٩٧ ـ ١٩٩، ومرآة الجنان ٤/ ١٥٣ ـ ١٥٨، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣٥، ٢٣٦، وطبقات الفقهاء الشافعيين ٢/ ٨٧٣ ـ ٨٧٥ رقم ١٠، والوافي بالوفيات ١٨/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٧٤، وفوات الوفيات ٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥٢، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢ رقم ٤١٢، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٧٦، وزبدة الفكرة ٧٧، وذيل التقييد للفاسي ٢/ ١٢٨ رقم ١٢٨٧، ودرّة الأسلاك ١/ورقة ٢٩، وعقد الجمان (١) ٣٣٨، ٣٣٩، والمنهل الصافي ٧/ ٢٨٦ ـ ٢٨٩ رقم ١٤٣، والدليل الشافي ١/ ٤١٦، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٠٨، وحسن المحاضرة ١/ ٣١٤ ـ ٣١٦، وتاريخ الخلفاء ٤٨٣، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ٣٠٨ ـ ٣٢٣، وطبقات الشافعية لابن هداية اللّه ٢٢٢، ٢٢٣، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٣١٧، ٣١٨، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٠٦، وكشف الظنون ٩٢ و١١٦ و٢٢٠ و٢٦٠ و٣٩٩ و٤٣٩ و٤٥٣ و٨٨٣ و١٠٢٧ و١٠٨١ و١١٤٣ و١١٥٨ و١٢١٩ و١٣٥٩ و١٣٦٠ و١٥٩٠ و١٧٨٠ و١٨١٧ و١٨٥٥ و١٩٨٥، وشذرات الذهب ٥/ ٣٠١، ٣٠٢، وإيضاح المكنون ١/ ٨٤ و١٦٧ و٦٣١، وهدية العارفين ١/ ٥٨٠، وديوان الإسلام ٣/ ٢٨٩، ٢٩٠، رقم ١٤٤٣، وفهرس المخطوطات المصورة ٢٤٩/ ٢٨٧، ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٤٩.

(٢) الصواب: «التي رثى».

فيها حلب، كمال الدين عمر المعروف بابن العديم[١]، المصنّف: «تاريخ حلب»[٢].
انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر، رحمة الله عليه.

[إنفاذ الرسل إلى الملك بركة]

قال: ثم إنّ الملك الظاهر نظر في مصلحة عامّة الإسلام، وهي إنفاذ رُسُلٍ إلى الملك بركة، زيدت عظمتُه، فأنفذ الفقيه مجد الدين، والأمير سيف الدين كسر بك[٣]، ومعهما نفران من التتر الواصلين من أصحاب صراعان[٤]، وكتب على أيديهم الكتُبُ بأحوال الإسلام، ومبايعة الخليفة عليه السلام، وأمر، رحمه الله، بعمل نسبته الطاهرة إلى النبيّ ﷺ، فكُتبت وأُذهبت، وسيّرها إلى الملك بَرَكة، وسيّر ثبوت نسبه مسجولاً[٥] على قاضي القضاة تاج الدين.

ولما تجهّزت هذه الكتب أحضر الملك الظاهر سائر الأمراء، والمَفَاردة وغيرهم، وتحدّث معهم في إنفاذ الرُسُل إلى الملك بَرَكة، واستشارهم في ذلك، وقُرِيء الكتاب على الجميع، فاستصوبوا هذا الرأي السعيد، فأنفذ/ ٤٠٩أ/ الرُسُل بعد

---

(١) انظر عن (ابن العديم) في:
معجم الأدباء ١٦/ ٥ ـ ٥٧ رقم ١، وذيل الروضتين ٢١٧، وعقود الجمان في شعراء أهل هذا الزمان لابن الشعار ٥/ ٢٠٣، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٩٥، ٩٦ رقم ١٤٣، وحوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (في آخر وفيات ٧٣٥هـ.) ج٣/ ٨٣٧، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١٥، ٢١٦، ونهاية الأرب ٣٠/ ٧٧، وعقود الجمان للزركشي، ورقة ٢٣٧ب، والمعين في طبقات المحدّثين ٢١٠ رقم ٢٢٠٢، ودول الإسلام ٢/ ١٦٦، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٦٠هـ.) ص٤١٩، ٤٢٠ رقم ٥٣٧، والعبر ٥/ ٢٦١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥٨، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٥، ومرآة الجنان ٤/ ١٥٨، وذيل مرآة الزمان ١/ ٥١٠ و٢/ ١٧٧، الوافي بالوفيات ٢٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٦ رقم ٣٠٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٧٥، وفوات الوفيات ٢/ ٢٠٠ وفيه وفاته سنة ٦٦٦هـ. ودرّة الأسلاك ١/ورقة ٣٠، والجواهر المضيّة ١/ ٣٨٦، والبدر السافر، ورقة ٣٧ب، وتاج التراجم ٤٨ رقم ١٤٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٧٦، وزبدة الفكرة ٧٧، وعقد الجمان (١) ٢٣٩ ـ ٢٤٢، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٠٨، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٠٦، وحسن المحاضرة ١/ ٢٦٥، وشذرات الذهب ٥/ ٣٠٣، وهدية العارفين ١/ ٧٨٧، وديوان الإسلام ٣/ ٣٣٠، ٣٣١ رقم ١٥٠٥، وأعيان الشيعة ٤٢/ ٢٢٢، والأعلام ٥/ ٤٠، ومعجم المؤلفين ٧/ ٢٧٥، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤/ ٤٤٤ ـ ٤٧٢ رقم ٢٥١.

(٢) له: «بغية الطلب في تاريخ حلب»، و«زبدة الحلب في تاريخ حلب»، وغيره.

(٣) في الروض الزاهر: «كشريك».

(٤) في الروض الزاهر: «صراغان».

(٥) الصواب: «مسجَلاً»

قراءته الكتب، نفرين من التتر المذكورين من غلمان الملك بركة وأصحابه، وممّن يعرف البلاد.

ووصل بعد ذلك كتاب الأشكري يذكر وصول هؤلاء الرُسُل عليه، وأنه جهّزهم صُحبة رُسُله خدمة للسلطان[١].

وكان السلطان قد كتب على أيدي الرسل كتاب[٢] مطوّلاً يذكر فيه شيء عظيم[٣] من الاستمالة والحثّ على الجهاد، ووصف له العساكر الإسلامية وكثرتها وعدّة أجناسها، ووصف قبائلها ومن فيها من جيل تركمان، وعشائر أكراد، وقبائل عربان، ومن أطاعها من الملوك الإسلامية والفرنجية، ومن خالفها ووافقها، ومن هاداها ومن هادنها، وأنّ جميعها في طاعته وسامعه لإشارته، إلى غير ذلك من الإغراء بهلاون، خزاه اللّه، وتهوين أمره والإشلاء عليه، وتقبيح الغفلة عنه وإفهامه أنّ كل ما يفعله عناداً له، وأنه لم يوفّر خدمته، وأنه استعان به، ويعلم في الرسالة بوصول جماعة التتار الذين وصلوا وادّعوا أنهم من أصحابه، وأنّ الإحسان إليهم إنّما هو من أجله[٤].

وكانوا الأميرين الذي سيّرهم[٥] **أحدهما**: سيف الدين كسربك[٦]، وهو رجل تركيّ كان جَمدار خوارزم شاه، له معرفة بالبلاد، وخبرة بالألسنة. **والآخر**: الفقيه، العالم، مجد الدين الروذرَاوَريّ. ولما جهّزهم أنعم عليهم[٧] بشيء كثير، وركّبهم في الطرائد، وأعطاهم زوّادة شهورٍ كثيرة.

ثم أحضر الخليفة وبويع بحضورهم، وبايعه الرسل، ثم حضروا خطبته المباركة واجتمعوا به، وحمّلهم السلطان من المشافهة ما فيه صلاح الإسلام، وعرّفهم أصحابهم التتار أحوال عساكره وكثرتها، وما السلطان الملك الظاهر بصدده من جهادٍ واستخدام وما يبذله في نُصرة الدين وقتال الأعداء والمشركين، وأنه مُحبّ في الملك بركه وداعٍ له بالنصر على الأعداء، وموافق له على ما فيه صلاح العالم[٨].

---

(١) الروض الزاهر ١٣٨.
(٢) الصواب: «كتاباً».
(٣) الصواب: «يذكر فيه شيئاً عظيماً».
(٤) الروض الزاهر ١٣٩، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ٤٨٨.
(٥) الصواب: «وكان الأميران اللذان سيّرهما».
(٦) في الروض: «كشريك»، وفي السلوك ج١ ق٢/ ٤٧٩ «كش تك».
(٧) الصواب: «ولما جهّزهما أنعم عليهما».
(٨) الروض الزاهر ١٤٠.

وسافروا في أواخر هذه السنة، فلما وصلوا إلى بلاد الأشكري كما ذكرنا، رجع الفقيه مجد الدين/ ٤٠٩ب/ لمرضٍ حصل له[(١)].

ذكر تفويض نيابة سلطنة الشام

للأمير جمال الدين النُّجْيبي[(٢)] الصالحيّ، رحمه اللّٰه تعالى.

ولما تسلّم الأمير علاء[(٣)] الدين الركني تدبيرَ دمشق بعد علاء[(٤)] الدين طيبرس، اختار الملك الظاهر الأمير جمال الدين آقوش النجيبي، الصالحيّ، وعيّنه لنيابة السلطنة بدمشق،

وتقدّم الصاحب عزّ الدين بن وداعه وزير الشام، وكان قد جرى بينه وبين الأمير علاء[(٥)] الدين طيبرس مفاوضاتٌ أوجبتْ حضورَه إلى مصر، فردّه السلطان إلى وزارته بدمشق مع النجيبيّ، وكتب على أيديهما كتاب تذكرةٍ يشتمل على كل شيء من الكلّيّات والحروبات[(٦)]، وأحوال الحصون وذخائرها شيئاً فشيئاً، ولم يخلُ فيها أمرٌ من الأمور، ولا مصلحةٌ من المصالح، ولا حالةٌ من الحالات يستعين من يتولّى الأمور بالنظرفيها والاستمداد منها، وفيها من الأمور الملوكية، والأسباب الدينية، وأحوال الأموال، وعرض الرجال، ما لوكُتب بمفرده لكان كتاباً يُنتَفَع به في تدبير الملك، كتبْتُها فجاءت سبع ماية سطر بقلم النسخ، وقُرئت هذه التذكرة في الإيوان الشريف بحضور الأمراء وحضورهما، وخلع السلطان عليهما وأعطاهما الإقطاعات في الشام ووصّاهما وودّعهما، وتوجّها[(٧)].

ذكر تجديد البيعة

للإمام الحاكم بأمر اللّٰه أبي العباس أحمد أمير المؤمنين سلام اللّٰه ورضوانه عليه.

كان قد وصل هذا الإمام إلى الديار المصرية في أواخر سنة تسع وخمسين وستماية، فأكرمه مولانا السلطان الملك الظاهر، والتقاه وخدمه، وأنزله بقلعته، وأدرّ

(١) الروض الزاهر ١٤٠.
(٢) مهمل في الأصل.
(٣) في الأصل: «علاى».
(٤) في الأصل: «علاى».
(٥) في الأصل: «علاى».
(٦) في تاريخ ابن الفرات: «والجزيات».
(٧) الروض الزاهر ١٤١، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ٤٨٩، ٤٩٠.

عليه الرزقَ من جميع ما يدعوا[١] إليه حاجة، وكذلك جميع من معه. فلما جرى على الخليفة الذي توجّه إلى العراق ما جرى[٢]!

فلما كان يوم الخميس بعد ذلك، سلْخ سنة [إحدى][٣] وستين وستماية، جلس السلطان مجلساً عاماً فيه جميع الناس، وجماعة التتار الوافدين، وأحضر الإمام الحاكم بأمر اللَّه/ ٤١٠أ/ راكباً إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل المحروسة، وبسط له إلى جانبه، وذلك بعد ثبوت نَسَبه الشريف. وأمر السلطان بعمل شجرة نسب له، فعُملت وقرأت[٤] بين يديه على الناس. وبعد ذلك أقبل السلطان عليه، وبايعه على كتاب اللَّه وسُنّة رسول اللَّه ﷺ، والأمر بالمعروف والنَهْي عن المنكر، والجهاد في أعداء اللَّه، وأَخْذ أموال اللَّه بحقّها، وصرْفها في مستحقّها، والوفاء بالعهود، وإقامة الحدود، وما يجب على الأئمّة فِعلُه من أمور الدين، وحراسة المسلمين.

وبعد ذلك أقبل على السلطان وقلّده أمور البلاد والعباد، ووكّل إليه تدبير الخلق، وجعله قسيمه في القيام بالحقّ، وفوّض إليه سائر الأمور، وعلّق[٥] به صلاة الجمهور.

ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم في مبايعته، فلم يبق لا ملك، ولا أمير، ولا وزير، ولا قاضٍ، ولا مشير، ولا جنديّ، ولا فقيه إلّا وبايعه. وتمّت هذه البيعة المباركة، وحصل الحديث معه، رحمة اللَّه عليه، في مصالح للمسلمين، وانفصل المجلس[٦].

[خُطبة الخليفة]

فلما كان يوم الجمعة ثاني هذا اليوم اجتمع الناس، وخطب الخليفة، وصلّى بالناس، وهذه الخطبة المباركة:

---

(١) في الأصل: «يدعوا».

(٢) الصواب: «فلما جرى على الخليفة ما جرى توجّه إلى العراق».

(٣) استدراك على الأصل يقتضيه السياق. وفي الروض الزاهر ١٤١ «يوم الخميس ثاني محرّم سنة إحدى وستين».

(٤) الصواب: «وقرئت» وفي الروض ١٤٢ «فعملتها وقرأتها بين يديه».

(٥) في الروض: «وعد».

(٦) الروض الزاهر ١٤١، ١٤٢، تاريخ النوادر ٤/ورقة ١٧٦أ، ونزهة المالك ١٥١، والتحفة الملوكية ٥١، وزبدة الفكرة ٧٨، ونهاية الأرب ٣٠/ ٧٩، والدرة الزكية ٩٤، ٩٥، والعبر ٥/ ٢٦٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٦٠هـ.) ص٥، ٦، ودول الإسلام ٢/ ١٦٧، ومرآة الجنان ٤/ ١٥٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣٧، ٢٣٨، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٨٧، ومآثر الإنافة ٢/ ١١٢ ـ ١١٤ و١١٨، وتاريخ الخميس ٢/ ٤٢٣، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٧٧ ـ ٤٧٩، وعقد الجمان (١) ٣٤٦ ـ ٣٥٣، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢١١، وتاريخ الخلفاء ٤٧٩، وبدائع الزهور ج١ ق١/ ٢٢٠.

«الحمد للّه الذي أقام لآل العبّاس ركناً وظهيراً، وجعل لهم من لَدُنْه سلطاناً نصيراً، أحمده على السرّاء والضرّاء[١]. وأشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، ﷺ، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء، الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمّه، وكاشف غمّه، إلى[٢] السادة الخلفاء الراشدين، والأئمّة المهديّين، وعلى بقيّة الصحابة والتابعين [لهم][٣] بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أيّها الناس، اعلموا أنّ الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم على الجهاد إلّا باجتماع كلمة العباد، ولا سُبيت الحُرَمُ إلّا/ ٤١٠ب/ بانتهاك المحارم. ولا سُفكت الدماء إلّا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال[٤]، وهتكوا حرم الخليفة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم. فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجّات من هول ذاك اليوم الطويل. فكم من شيخ خُضّب بدمائه[٥]، وكم من طفلٍ بكى[٦] فلم يُرحم لبكائه، فشمّروا عن ساق الاجتهاد، في إحياء فرض الجهاد، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرًا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٧]، فلم يبق معذرة في القعود[٨] عن أعداء الدين والمحاماة عن المسلمين.

وهذا السلطان الملك، الظاهر، السيّد، الأجلّ، العالم، المجاهد، المؤيّد[٩]، ركن الدنيا والدين، قد قام بنُصرة[١٠] الإمامة عند قلّة الأنصار[١١]، وتشرّد جيوش الكفّار[١٢]، بعد أن جاسوا خلال الديار، فأصبحت البيعة بهمّته[١٣] منتظمة العقود،

---

(١) زاد في الروض بعدها: «واستنصره على دفع الأعداء»، وفي حسن المناقب: «وأستعينه على شكر ما أسبغه من النعماء».

(٢) في الروض: «أبي».

(٣) زيادة من الروض.

(٤) في الروض: «وقتلوا الرجال والأبطال والأطفال».

(٥) في الروض: «خضبت شيبته بدمائه».

(٦) في الأصل: «بكا».

(٧) سورة التغابن، الآية ١٦.

(٨) في الأصل: «العفود».

(٩) في الروض ١٤٤: «المرابط»، والمثبت يتفق مع حسن المناقب ٢٩.

(١٠) في الروض ١٤٤: «بنصر».

(١١) في الروض ١٤٤: «أنصار».

(١٢) في الروض ١٤٤: «وشرد جيوش الكفر».

(١٣) في الروض ١٤٤ «باهتمامه».

والدولة العباسية متكاثرة الجنود، فبادِروا عبادَ اللّه إلى شُكر هذه النعمة، وأخلِصوا نيّاتكم تُنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يروعنّكم ما جرى، فالحرب سجال، والعاقبة للمتّقين، والدهر يومان، والأجر[١] للمؤمنين.

جمع اللّه على التقوى أمركم، وأعزّ بالإيمان نصركم، وأستغفر اللّه[٢] لي ولكم، ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم»[٣].

الخطبة الثانية وهي

«الحمد للّه حمداً يقوم بشكر نَعمائه، وأشهد أن لا إله إلّا اللّه، وحده، لا شريك له، عدّة عند لقائه، وأشهد أنّ محمداً سيّد رُسُله وأنبيائه، صلى اللّه عليه وعلى آله وصَحبه، عدد ما خَلق في أرضه وسمائه.

أوصيكم عبادَ اللّه بتقوى اللّه، إنّ أحسن ما وُعظ به الإنسان كلامُ الملك الديّان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ الآية[٤].

نفعنا اللّه (وإيّاكم)[٥] بكتابه، وأجزل لنا ولكم من ثوابه،/ ٤١١أ/ وغفر لي ولكم وللمسلمين أجمعين».

وكتب بدعوته إلى الآفاق، وتعلّل بذكرها الرفاق، وكتب اللّه للسلطان بهذه الحسنة التي يجدها يوم يَنفَدُ كلّ شيء، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾[٦][٧].

[وصول شيخ الشيوخ رسولاً من صاحب حماه إلى السلطان بيبرس]

([٨] ولما كان في ليلة الأربعاء ثالث شهر رمضان، من هذه السنة، توجّه الصاحب شرف الدين، شيخ الشيوخ، أيضاً، رسولاً من الملك المنصور إلى الملك

---

(١) في الروض الزاهر: «والآخر». وفي السلوك: «الأحرى»، وفي حسن المناقب: «الاحر».

(٢) في الروض: وأستغفر اللّه العظيم».

(٣) انظر الخطبة في: الروض الزاهر ١٤٣، ١٤، وحسن المناقب ٢٨ ـ ٣٠، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٧٨، وزبدة الفكرة ٧٩.

(٤) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٥) ليست في الروض.

(٦) سورة النحل، الآية ٩٦.

(٧) الروض الزاهر ١٤٥، زبدة الفكرة ٨٠.

(٨) من هنا أعيد الخبر ثانية بتغيير ألفاظ يسيرة في حوادث سنة ٦٦٢هـ. في النسخة (ب) ورقة ٤٢٦أ.

الظاهر، فلما وصل إلى دمشق التقاه النائب بدمشق بالإقامات الكثيرة، وكتب إلى الملك الظاهر يعرّفه حضوره إليه، فعاد الجواب يتضمّن المبالغة في إكرامه، وأن يرتّب له الإقامات في جميع المنازل الشامية إلى أن يصل لمعاملة الديار المصرية. فتوجّه شرف الدين، شيخ الشيوخ، إلى أن وصل المَطَريّة، فوجد بها المهمندار ومعه جماعة وفرس من خيل النَوبة (برقبه)[١]، فركبه الصاحب شرف الدين، ودخل إلى القاهرة، فأنزله بالقصر من القاهرة المُعِزّية، والرواتب في نهاية الكثرة والافتقاد (والنوال)[٢] له متواصلة من الملك الظاهر.

واجتمع به بعد ثلاثة أيام. ولما حضر وجد الملك الظاهر غائب[٣] بسبب من الأمور التي من أجلها كانت الرسالة،

وأول خطابه[٤] كانت[٥] بترجمة فارس الدين الأتابك، ثم تحدّث معه بغير ترجمان، فقال الملك الظاهر لشيخ الشيوخ: «ما حدّثتك بترجمانٍ إلّا لأُطْلع الأمراءَ الحاضرين على أنّ في نفسي من هذا الأمر، بحيث لا يحصل طمع». وقال له: «الشُغل قد انقضى[٦] وأنت تقيم عندنا، ونسيّر الجواب إلى الملك[٧] المنصور. فأقام في الديار المصرية في أرغد عَيْش.

قال: وحضر القاضي بدر الدين السنجاري أوان زهر النارَنج، وسأل الصاحب شرف الدين، شيخ الشيوخ، وزير الملك المنصور، صاحب حماه، أن يشرّف بنقل قدمه إليه، فإنه إلى جانب البحر، وفيه بستان أكثره شجر النارنج، فاعتذر الصاحب شرف الدين أنه وصل رسولاً، ولا يمكنه التصرّف بنفسه/ ٤١١ب/ من غير مرسوم، فتوجّه القاضي بدر الدين، وسأل السلطان الملك الظاهر الإذْن في هذا، فرسم للمهمندار الجاكي بأن يجتمع بالصاحب شرف الدين ويعرّفه الإذن في ذلك، فلما حصل المرسوم توجّه[٨] إلى دار القاضي بدر الدين، وهي عند باب البحر بمصر، فنزل[٩] بها، ورأى[١٠] بها من حُسن الآثار، وعُلُوّ همّة القاضي بدر الدين، وشرف نفسه، وكثرة مماليكه وخدَمه وآلاته، ما يعجز كثير من الملوك عن مُضاهاته، فأقام[١١] عنده سبع[١٢] أيام،

---

(١) من (أ) ورقة ١٧٥أ.

(٢) من (أ) ورقة ١٧٥أ.

(٣) الصواب: «غائباً».

(٤) في (أ): «حديثه».

(٥) الصواب: «كان».

(٦) في الأصل: «انقضا».

(٧) في (أ) ورقة ١٧٥أ «إلى السلطان الملك».

(٨) في الأصل: «توجّهنا».

(٩) في الأصل: «فتزلنا».

(١٠) في الأصل: «ورا».

(١١) في الأصل: «فامام».

(١٢) الصواب: «سبعة».

و(صعد)[١] بعد ذلك إلى الرصد، وهو مكانٍ عالٍ[٢]، وفيه تُرَبٌ.

وقال القاضي لشرف الدين: «يا مولانا، ها هنا أعجوبة أحبُ أن تراها»، وأمر بفتح تُربة لبعض الأمراء فيها ساقية، وبجنْبها جاموس. وقال: «هذه التُربة لفُلان[٣]، وعمل هذه السّاقية، وشرا[٤] هذه الجاموس»، ولهذا الحديث ما يزيد على ثلاثين سنة، والجاموس على حاله يدور هذه المدّة الطويلة، ولم يكن أوقف صاحبُ التربة عليها شيئاً، وأنه عوجل، والمقيم بالمكان له جاري من بعض أقارب صاحب التربة بسبب القراءة على جماعةٍ له، (دُفِنوا)[٥] ثَمّ، والناس يقصدون رؤية هذا الجاموس فيتصدّقون عليه، فلا يبرح عليقه[٦] فاضلاً، ولو مات ما يكون للمكان من يخلفه، وهذا من لطف اللّه تعالى.

قال: «ولما عزم شرف الدين بعد ذلك على الدخول إلى القاهرة بعد أن حلف عليه القاضي بدر الدين، (في يوم الثالث)[٧]، كتب إلى جانب الشبّاك بخطّه الكريم أبياتاً منها:

نـزلـنـا فـي حـمـاه فـواجَـهَـتْـنـا ... وجوهُ الطيب[٨] من كلّ الجهات

وزاد بـنـا عـلـى مـا كـان حُـسـنـاً ... مـحـاسـن يـوسـف قـاضـي الـقـضـاة

ثم إنّ القاضي خلع على من كان مع الصاحب شرف الدين، وعلى شرف الدين خِلعة لم يُر[٩] مثلها[١٠]، رحمة اللّه عليهما.

وأقام شرف الدين بالقاهرة[١١] إلى أن انقضى[١٢] شهر رمضان (من سنة إحدى وستين وستماية)[١٣]، وكُتب الملك المنصور تردّد[١٤] إلى الملك الظاهر في طلب شرف الدين، فجهّزه السلطان الملك الظاهر بأحسن تجهيز عند المسير إلى حماه والنفقات/ ٤١٢أ/ وفرَسَ وسَرْج مُذَهّبان، وتوجّه إلى حماه في أسرّحال[١٥])[١٦].

(١) كتبت فوق السطر. وفي (أ) زاد بعدها: «بنا».
(٢) في (أ): «عالي».
(٣) وزاد في (ب) الورقة ٤٢٦ ب. «وأظنه من أولاد بن أبي علي».
(٤) الصواب: «واشترى».
(٥) إضافة يقتضيها السياق، من (أ).
(٦) في (أ) ورقة ١٧٣ب «علفه».
(٧) ما بين القوسين من (أ).
(٨) في الأصل: «الطبيب».
(٩) في (ب): «ترى».
(١٠) الصواب: «لم أر مثليهما».
(١١) في (أ): «وأقمنا بالقاهرة».
(١٢) في الأصل: «انقضا»، وفي (أ): «يفض».
(١٣) ما بين القوسين من (أ).
(١٤) الصواب: «تتردد».
(١٥) في (أ) ورقة ١٧٣ أ: «وفرساً بسرجها ولجامها، وتوجّهنا إلى الشام في شوال من السنة المذكورة».
(١٦) إلى هنا ينتهي المتكرّر في حوادث سنة ٦٦٢هـ. في النسخة (ب) ورقة ٤٢٧أ.

٦٦١هـ

ودخلت سنة إحدى وستين وستماية

[خلعة السلطان للخليفة]

([١]) وفي هذه السنة سأل السلطان الملك الظاهر للخليفة: هل لبس الفُتُوَّة من أحدٍ من أهل بيته الطاهرين، أو من أوليائهم[٢] المتّقين؟

فقال: لا.

والتمس من السلطان أن يصل نسبته هذا[٣] المقصود، ويتيحه[٤] هذا الأمر الذي من بيته بدأ وإليه يعود.

فلم يمكن مولانا الملك الظاهر، رحمه اللّه، إلّا طاعته المفترضة، وأن يبيحه[٥] ما كان ابن[٦] عمّه، رحمه اللّه، أفرضه[٧]، وأن يحلّي بالجوهر منضّده، وأن يقلّده بالسيف مجرّده، وأن يُعطي القوس لباريها، ويسلّم الصهوة لراقيها، ويكون في ذلك كمجيب الحلّة للابسها، ومقتدح الجذوة لقابسها، ولبس في الليلة الذكورة بحضور من يعتبر بحضوره في مثل ذلك، وباشر[٨] ذلك المولا[٩] الأتابك فارس الدين أقطاي بطريق الولاية المعتَبَرة عن مولانا السلطان.

وقال الملك الظاهر: «أنا للإمام الظاهر، وأبوه لجدّه الناصر لدين اللّه، لعبد الجبّار، لعلي بن زعيم[١٠]، لعبد اللّه بن العين[١١]، لعَمر بن الرصاص، لأ[بي][١٢] بكر بن الجُحَيش[١٣]، لحسن بن الساربار[١٤]، لبقاء بن الطباخ، لنفيس[١٥]

---

(١) من هنا ليس في (أ).

(٢) في الأصل: «أولياهم».

(٣) في الروض الزاهر ١٤٦ «سببه بهذا».

(٤) مهملة في الأصل.

(٥) في الروض: «يمنحه».

(٦) في الأصل: «بن».

(٧) في الأصل: «افترضه».

(٨) مهملة في الأصل.

(٩) الصواب: «المولى».

(١٠) في الروض الزاهر ١٤٦ «دغيم».

(١١) في الروض، والسلوك «الغير».

(١٢) استدراك من الروض.

(١٣) مهملة في الأصل.

(١٤) مهملة في الأصل: والتحرير من: الروض ١٤٦، وفي النهج السديد: «الشراب دار».

(١٥) مهملة.

العلوي، لأبي القسم[١] بن حِنّه[٢]، لمُعِزّ بن أنس، لأبي على الصوفي، لمُهَنّا العلوي، للقائد عيسى، للأمير وهران، لرُوزبة[٣] الفارسيّ، للملك أبي كنجيار[٤]، لأبي الحسن النجّار، لفضل الرقاشي[٥]، للقائد شبل[٦] بن المكدّم[٧]، لأبي الفضل القُرشي، للأمير حسّان، لجوشن الفزاري[٨]، للأمير هلال النبهانيّ، لأبي مسلم الخُراسانيّ، لأبي العزّ النقيب[٩]، لعوف الغسّانيّ، للحافظ الكِنْديّ، لأبي علي النّوبيّ، لسَلمان الفارسيّ رضي اللّه عنه، صاحب رسول اللّه ﷺ، قال له ﷺ: «سَلمان منّا[١٠] أهل البيت[١١]»، للإمام، الطاهر النقيّ، التقيّ، علي بن أبي طالب، رضي اللّه عنه[١٢]».

وحمل إليه السلطان من الملابس الشريفة لأجل ذلك ما يليق به.

وفي الليلة الثانية ألبس السلطان جماعة من المعيَّنين، وحمل إليهم / ٤١٢ب/ ما يليق بهم[١٣].

[خطبة الخليفة للسلطان]

ولما كان يوم الجمعة (ثاني جمعة هذا التاريخ)[١٤] خطب الخليفة، ودعا للسلطان والملك بركة، وصلّى بالناس[١٥].

---

(١) في الأصل: «هام».
(٢) في الروض: «بن أبي حية».
(٣) في السلوك: «لرؤبة».
(٤) مهملة في الأصل.
(٥) في الروض: «الفرقاشي»، وفي النهج «الرقاسي».
(٦) مهملة في الأصل.
(٧) في حسن المناقب: «المكرم»، وفي النهج: «شبل أبي المكارم».
(٨) مهملة في الأصل.
(٩) في حسن المناقب: «أبي العز المطيع النقيب».
(١٠) في الأصل: «من».
(١١) حديث ضعيف لضعف كثير بن عبد اللّه المزني. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢٦٠، ٢٦١ رقم ٦٠٤٠، والهيثمي في: مجمع الزوائد ٦/ ١٣٠.
(١٢) الروض الزاهر ١٤٦، ١٤٧، وحسن المناقب ٣١، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٩٦، والنهج السديد ٤٢٧.
(١٣) الروض الزاهر ١٤٧.
(١٤) في الروض الزاهر ١٤٧ «ثامن وعشرين شعبان».
(١٥) الروض الزاهر ١٤٧، ١٤٨.

[خروج السلطان للصيد]

قال: ولما كان في شهر ربيع الأول من سنة أحد[١] وستين وستماية، عزم الملك الظاهر على التوجّه إلى الشام، فتجهّز الناس، وخرج من قلعته المحروسة في سابع شهر ربيع الآخر، وأقام على باب القاهرة مخيّماً إلى حيث فرغ الناس [من] أشغالهم.

وسافر في حادي عشر الشهر المذكور، فوصل محروسة غزّة، وهو في جميع الطريق يُديم الصيد، وضرْبَ البُنْدُق. وضرب حلقة بالعريش بثلاثة آلاف فارس كلّهم خواصّه. وكان في هذه الحلقة من الغزلان، والأرانب والثعالب، والمحامير[٢]، وبقر الوحش جملة[٣]، وصاد شيء كثير[٤]، حتّى لقد هجمت الوحوش من حَرّ السيوف، ودخلت وسط الخيام، فقام الغلمان إليها بالعصيّ والمجارف، فقتلوا ما قدروا عليه، وتقنطر بالأمير سيف الدين سُنقُر الروميّ الفَرَسُ، فرماه إلى الأرض، فساق الملك الظاهر إليه، ونزل عنده، وجعل رأسه على رُكبته، وأخرج من خريطته موميا فسقاه وركّبه على فرسه، وسار به إلى خيمته، وكذلك الأمير سيف الدين قلاون الألْفيّ تقنطر به فرسُه، فاعتمد معه هذا الاعماد[٥].

[إحسان السلطان إلى والدة الملك المغيث]

ولما وصل إلى غزّة وجد فيها والدة الملك المغيث فأحسن إليها وأنعم عليها، وأعطاها شيئاً كثيراً، وحصل الحديث في حضور ولدها، وأعاد الإنعام والعطاء عليها، وعلى كلّ من معها، حتى إنه حمل[٦] في جملة ذلك من الصيد خمسة عشر حملاً، وتوجّهت والدة الملك المغيث صاحب الكرَك وصُحبتها الأمير شرف الدين الجاكي المهمندار برسم الإقامات وتجهيزها للملك المغيث إذا حضر على ما يُشرح[٧].

---

(١) الصواب: «سنة إحدى».

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) مهملة في الأصل.

(٤) الصواب: «وصاد شيئاً كثيراً».

(٥) الروض الزاهر ٤٨.

(٦) عن هامش المخطوط.

(٧) خبر والدة المغيث في: الروض الزاهر ١٤٨ ـ ١٥١، وتالي كتاب وفيات الأعيان ٩٨ رقم ١٤٦، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١٦، والتحفة الملوكية ٥١، وزبدة الفكرة ٨٠، ونزهة المالك ١٥١، ونهاية الأرب ٣٠/ ٧٩، والدرة الزكية ٩٥، ٩٦، والعبر ٥/ ٢٦٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٦١هـ.) ص٦، ٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٦، ومرآة الجنان ٤/ ١٥٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٨٨، ٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٨٤، ومآثر الإنافة ٢/ ٩٦، و١٠٨، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٨٢، ٤٨٣، وعقد الجمان (١) ٣٥٥، والنجوم الزاهرة ٧/ ١١٩، ١٢٠، وشفاء القلوب ٤٣٣ ـ ٤٣٥، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٠٧، ٤٠٨، وترويح القلوب ٥٦ رقم ٨٥، وشذرات الذهب ٥/ ٣٠٥.

[إحسان السلطان لأمراء التركمان]

ثم إنّ السلطان نظر في أمر أمراء التركمان فخلع عليهم، وأحسن إليهم، وطيّب قلوبهم، وأعطاهم، واستخدمهم بالإحسان[١].

[إحسان السلطان لأمراء العُربان]

وأحضر أمراء العُربان، وضمن لهم البلاد، وعيّن لهم ديواناً/ ٤١٣أ/ ومشدّاً، وأنعم عليهم إنعاماً كثيراً، وأن يغزوا اللعين هلاون ملك التتر، تارةً بالخيول، وتارة بالحيلة[٢].

[تحريض الملوك على هلاون]

وكتب إلى ملك شيراز، وإلى ملك اللور[٣]، وإلى جماعة خَفاجة يستجيشهم على هلاون، ويغريهم[٤] به، ويقوّي جأشهم على الإيقاع به، ويعرّفهم بما وصلت الأخبار به من جهة الروم في البرّ والبحر، من كسر الملك بركة له مرّةً بعد أخرى[٥]، وما آل إليه أمره، وسيّر في ذلك جماعة ممّن يوثق بهم، وأطلق لبيوتهم كلّما يحتاجون إليه إلى حيث وصولهم.

[سفر الظاهر بيبرس إلى الطور]

وسافر من غزّة إلى جهة الساحل، فنزل إلى الطور في ثاني عشر جمادى الأول. وكان قد جرّد جماعةً من الأمراء إلى جهة الشرق، وقدّم عليهم الأمير جمال الدين المحمدي قبل وصوله إلى الطّور، فمضوا وقضوا أشغالهم ورجعوا سالمين.

ولما وصل الملك الظاهر إلى الطّور، سيّر الملك الأشرف صاحب حمص يلتمس الإذن منه في حضوره إلى الخدمة الشريفة، فأذِن له، فحضر في نصف الشهر المذكور، فتلقّاه الملك الظاهر أحسن ملتقى[٦] وحمل إليه أصناف التُحف والأمتعة والخِلَع، وإلى أصحابه وخواصّه ومن يلوذ به، وساق إليه من الخيول المسوّمة عدّة، وتأدّب معه أدباً عظيماً.

---

(١) الروض الزاهر ١٤٩.

(٢) الروض الزاهر ١٤٩.

(٣) في الأصل: «اللون»، والتصحيح من: الروض الزاهر. و«اللور»: كورة واسعة بين خوزستان وأصبهان معدودة في عمل خوزستان. واللور: جيل يسكن هذا الموضع، واللور خصيب تغلب عليه الجبال، ويقال له: لرّستان: (معجم البلدان).

(٤) مهملة في الأصل.

(٥) الروض الزاهر ١٤٩.

(٦) في الأصل: «ملتقا».

وركب الملك الظاهر بيبرس متصيّداً، فسيّر إلى صاحب حمص سبعين غزالاً جملةً واحدة، وقال له: «صَيْد هذا اليوم قد جعلته لك». وأقام معه يتقلّب في الأنعام والإحسان، ويتوالا[1] إليه بالخيرات الحِسان[2].

[التخلّص من الملك المغيث]

قال: وأمّا الملك المغيث فإنه صارت رُسُله تتوالا[3] إلى الملك الظاهر، وهو يفسح في آمالهم، ويعطيهم، ويُنعم عليهم، فعند ذلك خرج الملك المغيث من الكَرك وأقام مدّة في الطريق، فأظهر الملك الظاهر من الاحتفال به شيئاً كثيراً، وخدعه أعظم خديعة، وأمدّ له في الأمل، وأتى بيوتَ الخداع من أبوابها، وكتم أمره عن كل أحد، فكان كما قال الشاعر:

/ ٤١٣ب/ إذا اللّه ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذِكر الحوادث جانبا
ولم يستشر في أمره غيرَ نفسه ولم يرض إلّا قائم السيف صاحبا[4]

ولما وصل الملك المغيث إلى بيسان اهتمّ الملك الظاهر بتلقّيه، وركب في يوم السبت سابع[5] وعشرين جمادى الأول. وركبت العساكر، وسار في أحسن زيّ وأعظم هيئة، وامتلأت الدنيا بالخلائق، فلا تسمع إلّا صهيل فرس، ووقْع حافر، وامتلأت الروابي والجبال وبطون الأودية. فلما شاهد الملك المغيث الملكَ الظاهر ترجّل، فمنعه، فركب والتقاه، وساقت الحلقة خمسة آلاف من كل جناح، ثم الأمراء، ثم الملوك. وساق الملك المغيث إلى جانب الملك الظاهر، وترجّل الناس، ولما وصل إلى باب الدِهليز ترجّل الملك المغيث، فأُدخل إلى الخيمة المنصوبة له، فعند ذلك أحيط عليه وعلى أصحابه، وشفى الملك الظاهر غيظه[6] منه وأخذ ثأره، فكان آخر العهد به[7].

قال: وكان الملك الظاهر قد استدعى قبل ذلك قاضي القضاة بدمشق، والعلماء أئمّة الفتوى، وأظهر أنّ ذلك لمُلْكٍ ومبايعة، ولم يظهر أحدٌ على غير ذلك. فلما وقعت الحوطة على الملك المغيث أحضر الملك الظاهر الملوك، والأمراء،

---

(١) الصواب: «ويتوالى».
(٢) الروض الزاهر ١٤٩، زبدة الفكرة ٨٠، السلوك ج١ ق٢/ ٤٨٢.
(٣) الصواب: «تتوالى».
(٤) لم يرد في الروض الزاهر ـ ص١٥٠ سوى عجز البيت الثاني.
(٥) في السلوك ج١ ق٢/ ٤٨٢ «سادس» والمثبت يتفق مع: الروض، وزبدة الفكرة.
(٦) في الأصل: «غيضه».
(٧) الروض الزاهر ١٥٠، زبدة الفكرة ٨٠، السلوك ج١ ق٢/ ٤٨٢.

والقاضي، والشهود، والأجناد، ورسُل الفرنج وجميع الناس، وأخرج كتباً من جهة العدوّ المخذول إليه، فقال الأتابك للملك الظاهر يسلّم عليكم ويقول لكم: «ما أخذت الملك المغيث إلّا بهذا السبب»، وقُرئت الكتب، وكانت أجوبة كُتِبت من الملك التتر منه واعتداده باعتزائه إليه، ويعده بوعودٍ حسنة، ويقول في أمور منها: «قد أقْطعْتُك من بُصْرى إلى غزّة»، ويقول: «قد عرفت ما أشار إليه من طلب عشرين ألف فارس تسيّرها إليه، يفتح بها مصر ويعده بإرسالها إليه، ويوصّيه على أمورٍ جمّة». فقُرئت هذه الكتب، وانصرف الملك الأشرف/ ٤١٤أ/ والجماعة كلّهم. وقال الملك الظاهر للقاضي وللجماعة وللعلماء: «ما طلبتكم إلّا لهذا»، وكتب مكتوب[1] بصورة الحال، وكتب فيه القاضي والجماعة، وأثبت في دمشق بعد ذلك. وخلع الملك الظاهر على جميع من حضر وانصرفوا،

ثم تجهّز الملك الأشرف للمسير إلى حمص. وجدّد الملك الظاهر له العطاء والإنعام، وركب لوداعه، وسار إلى مملكته.

ثم جلس بعد ذلك الملك الظاهر فأمر بالكتب إلى الكرَك يعد من فيها بالإحسان، ويحذّرهم عواقب الطغيان، وسيّر الأمير بدر الدين البيسري الشمسيّ، والأمير عزّ الدين أستاذ الدار العالية الظاهري إلى جهة الكرَك، وأمرهما بما يعتمدانه، وجهّز الخِلَع والأموال. ثم نظر الملك الظاهر في الذين كانوا مع الملك المغيث فأطلقهم وبسط الآمال، وأمر لهم بالرواتب.

وبعد ذلك تحدّث مع رسل الفرنجية، ما سنذكره إن شاء اللّه.

وانفصلوا[2] رُسُل الفرنج على غير رضاء، وتوجّهوا إلى عكا[3].

[مكاتبات السلطان للفرنج]

قال صاحب التاريخ: وذلك أنّ الفرنج لما رأوا كثرة الإحسان من الملك الظاهر إليهم شرعوا يحيدون عن الحقّ، ويطلبون زرعين، والملك الظاهر يجاوبهم بأنكم أخذتم عِوَضها في الأيام الناصرية عشر ضياع من مرج عيون، وقايضتم بها صاحب تبْنين. وهم لا يزدادون إلّا شكوى. وآخر الحال طلبوا كتاباً إلى والي غزّة بتمكين رُسُلهم إذا حضروا، فكتب لهم الكتاب، وتواصلت بعد ذلك كتبهم بالشكوى، وكتب النواب يشكون منهم ويصفون بعدهم[4]، وأنهم قد اعتمدوا أموراً توجب للفسْخ.

(١) الصواب: «مكتوباً».

(٢) الصواب: «وانفصل».

(٣) الروض الزاهر ١٥٠، ١٥١، زبدة الفكرة ٨٠.

(٤) هكذا في الأصل. ولعلّ الصحيح: «بعضهم» أو «بغضهم».

فأجاب الملك الظاهر بأن يحضروا إلى الشام، وتحقّق هذه الأمور جميعها[١].

ولما استقلّ ركاب الملك الظاهر وسار إلى وسط بلاد الفرنج ورد رسولٌ منهم يذكر أنّ البيوت يقبّلون الأرض ويهنّون بالسلامة، ويقولون: «ما عرفنا بوصول السلطان، وكنّا طلبنا يسيّر رسولاً، وسيّرنا إلى والي غزّة نعرّفه ذلك». قال: «أريد مرسوماً من السلطان بتمكين رسولكم». فكان الجواب: / ٤١٤ب/ «من يريد أن يتولّى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة[٢]، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر من مقرّها، وجهل ما علمته الوحوش في مستقرّها، وفي الفلاة، والحيتان في المياه، من كثرة هذه العساكر التي لعلّ بيوتكم ما فيها موضع إلّا ويُكنس فيه التّراب الذي أثارته[٣] حوافر خيول هذه العساكر، ولعلّ وقْع سنابكها قد أصمّ أسماع من وراء البحر من الفرنج، وفي موغان من التتر. وإذا كانت هذه العساكر جميعها تصير إلى أبواب بيوتكم وأنتم لا تعلمون، فأيّ شيءٍ تعلمونه[٤]؟ وماذا تحيطون به علماً؟ ولِمَ لا أعطيتم لوالي غزّة الكتاب الذي كنّا سيّرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر؟».

قال الرسول: «نسينا، وما علِمْنا كيف عُدم».

فكان الجواب: «إذا نسيتم هذا، فأيّ شيء تذكرون؟ وإذا ضيّعتموه فأي شيء تحفظون»؟

وانفصل الرسول على هذا الحال.

ووصلت نواب يافا ونوّاب أرسوف بهديّة، أُخِذت منهم تطميناً لقلوبهم وتسكيناً لهم. هذا، والملك الظاهر يرسم أن لا ينزل أحد في زرعٍ، ولا يسيّب فرس[٥]، ولا يؤذي للفرنج ورقةً خضراء، ولا يتعرّض إلى شيءٍ من مواشيهم، ورفق بهم أتمّ الرفْق، وحفظهم أعظم حِفْظ، كل هذا انتظار[٦] لرجوعهم عن الغيّ واستصلاحاً لهم، وانتظار[٧] لصلاحهم. ولم تزل رسلهم تتردّد، وكتبهم تصل بما لا زُبدة فيه، وكانت كتبهم تصل قبل توجّه السلطان، مضمونها طلب فسخ الهدنة، والندم[٨]، وتمنّى نقيضها، فصارت عند قربه (ترد)[٩] كتبهم بزيادتهم[١٠] باقون على العهد، متمسّكون بأذيال المواثيق[١١]، مستمرّون عليها: ولم نفسخ لهم حكماً، ولا نغيّر لها رسماً، ولا تفصحون عن حالةٍ إلّا تطلبون مدافعة الوقت وامتداد الحال.

---

(١) الروض الزاهر ١٥٢.
(٢) في الأصل «يقضه».
(٣) في الأصل: «أثار به».
(٤) الروض الزاهر ١٥٢.
(٥) الصواب: «فرساً».
(٦) الصواب: «انتظاراً».
(٧) الصواب: «وانتظاراً».
(٨) في الأصل: «الدم».
(٩) استدراك من: الروض الزاهر ١٥٢.
(١٠) في الروض: «بأنهم».
(١١) الروض الزاهر ١٥٢، ١٥٣.

وكان مقدَّم الاسبتار قد كتب عدّة كتبٍ، منها جوابٌ عن مشافهةٍ على لسان كُمَنْدُو الداوية[١] مضمونها: «إنكم نقضتم العهد بأمورٍ منها سوف تسمعونها»، يعني بأخبار التتار، فكتب السلطان إليهم: «إنّ شرط الهدنة التي كانت بيننا لا يُجدّد بناء، وقد شرع بيت الاسبتار في بني[٢]/ ٤١٥أ/ [٣] [رَبَضٍ على أرسوف».

فكان جوابهم: «إنّنا لم نبْن هذا الربض إلّا لحماية الصعاليك من متحرّمة المسلمين، ولأمورٍ قد بَلَغَتْنا سوف تسمعونها ـ يعني أخبار التتر ـ.

فكان الجواب إليه: «أما تجديد الرَبَض لحفظ الصعاليك، فالبلاد ما تُحفظ بالأسوار، ولا تُحفظ الرعية بالخنادق، ولا تُحفَظ إلّا بأحد أمرين: إمّا بالسيوف، والعزائم، وإمّا بحُسن الجيرة، وبذل الإحسان، وكفّ الأذى، ومن يخاف من اللصوص لِمَ لا يخاف من غيرهم؟ وأما أمر التتار، فقد علم كل أحدٍ أنّا عندما تحصّنتم بالأسوار والخنادق خرجنا إلى التتار، وما جعلنا حصوننا إلّا خيولنا، ولا خنادقنا إلّا سيوفنا، ولا أسوارنا إلّا رجالنا».

ولم تزل رسلهم تتردّد في هذا ومثله إلى أن فرغ السلطان من شُغله الذي كان في نفسه، وهو حديث الملك المغيث. فلما كان في اليوم الذي أمسكه فيه أحضر رُسُل بيوت الفرنجية، وقال: «ما تقولون؟»، قالوا: «نتمسّك بالهدنة التي بيننا».

فكان الجواب: «لِمَ لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان، وإنفاق الأموال التي لو جرت لكانت بحاراً، ونحن ما آذينا لكم زرعاً ولا غيره، وأنتم منعتم الجَلَب والميرة عن العسكر، وحرمتم خروج شيء من الغلّات والأغنام وغير ذلك، ومن انفرد من غلمان العسكر أسرتموه، وسيّرتم إلينا إلى دمشق نسخة يمين حلفنا عليها، وسيّرنا نسخة يمينٍ من عندنا لم تحلفوا عليها، وعملتم أنتم نسخة يمين حلفتم عليها، وشرط اليمين الأولى متعلّق بالثانية، وسيّرنا الأسارى إلى نابلس، ومنها إلى دمشق،][٤]/ ٤١٦أ/ وما سيّرتم أنتم أحد[٥] إلّا كل بيت يُحيل على الآخر، وما سيّرنا الأسارى إلّا وفاء بالعهد، وإقامة الحجّة عليكم، (وسيّرنا كمال الدين بن شيث رسولاً يُعلمكم بوصول الأسرى، فلم تبعثوا أحداً، ولم ترحموا أهل مِلّتكم الأسرى، وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم)[٦]، كل ذلك حتّى لا تبطُل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم، ثم

---

(١) في الروض الزاهر ١٥٣ «كمندور الديوية».

(٢) الصواب: «بناء».

(٣) من هنا ناقص من النسخة (ب)، وهي حسب ترقيم المخطوط بين ٤١٤ ـ ٤١٦.

(٤) هنا ينتهي النقص من النسخة (ب)، وهو بمقدار صفحة واحدة.

(٥) الصواب: «أحداً».

(٦) ما بين القوسين مستدرك من: الروض الزاهر ١٥٤.

أموال التجار شرطتم القيام بما أخذتموه لهم. ثم قلتم: ما أُخِذت في بلادنا، وإنّما كان أخْذُها في أنطرسوس[1]، وحمل المال إلى خزانة بيت الداوية. فإن كانت أنطرسوس[2] ما هي لكم فاللّه يحقّق ذلك. ثم إنّا سيّرنا رُسُلاً إلى جهة الروم، وكتبت إليكم بتسييرهم في البحر، فأشرتم عليهم بالسفر إلى قبرص، فسافروا بكتابكم وأماكنكم، فأُخذوا وأُخذت أموالهم، وضُيّق عليهم، وأُتلف أحدهم، على ما ذُكر. فإنْ كان هذا رضاكم فقبيح أن تعتمدوا هذا الاعتماد مع إحساننا لرُسُلكم وتجّاركم، والوفاء أحد أركان المُلْك، وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى، وما زالت الحروب قائمة، والرسل تتردّد، وما القدرة على الرسول بشيءٍ تُسكّن غيظاً[3] وإن كان بغير رضاكم فهذا نقصٌ في حُرمتكم إذا كان صاحب جزيرة قبرص من أهل مِلّتكم يخرق حُرمتكم، ولا يفي بعهدكم، ولا يحفظ ذِمامكم، ولا يقبل شفاعتكم، فأيّ حُرمةٍ تبقى لكم؟ وأيُّ ذمامٍ يوثق به منكم؟ وأيّ شفاعة تُقبل عند المسلمين والفرنجة؟ وهل كانت الملوك الماضية تعين[4] النفوس والرجال والأموال إلّا في حِفظ الحُرمة وقيام الناموس. وما صاحب جزيرة قبرص ملك عظيم، ولا صاحب حصن منيع، ولا قائد جيشٍ كثير، ولا هو خارج عنكم، أكثر تعلّقاته في عكا والساحل، وله عندكم المراكب والتجار والأموال والرسل، وهو لا هو منفرد بنفسه عند الداوية، وجميع البيوت والنّواب مقيمين[5] عنده، وعنده كُنْد يافا وغيره. فلو كنتم لا تؤثرون ذلك قمتم جميعكم عليه، واحتطتم على ما يتعلّق/٤١٦ب/به وأصحابه، واسترحتم من هذه الفضيحة. وكتبتم إلى ملوك الفرنجية، وإلى الباب[6] بما فعله، وإذا قلتم صاحب قبرص لا يسمع منكم ولا يطيقكم، فإذا لم يسمع منكم صاحب جزيرة قبرص وهو من أهل مِلّتكم فمن يسمع منكم؟ وهل له[7] التقدمة إلّا الأمر والنهى، ولا سيّما أنتم تقولون أموركم دينية، ومن ردّها عصى المعبود ويغضب عليه المسيح، فكيف لا يُعصى المعبود، ويغضب المسيح على صاحب قبرص، وهو قد ردّ أمركم، وأغرى بكم، وقبّح قولكم، وكنّا لو اشتهينا أخذنا حقّنا منه، وإنّما الحقّ عندكم، نحن نطلب منكم، وأنتم تطلبون منه. واعلموا أنكم في أيام الملك الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف على أنكم تنجدونه، فجرى ما جرى من خذلانه، وقتلكم وأسركم وأسر

---

(١) هكذا، والصواب: «انطرطوس»، وهي طرطوس على ساحل الشام.

(٢) الصواب: «أنطرطوس».

(٣) في الأصل: «غيظاً».

(٤) مهملة في الأصل.

(٥) الصواب: «مقيمون».

(٦) الباب = الباب، رأس الكنيسة المسيحية.

(٧) في الأصل: «لده».

ملوككم وأسر مقدّميكم، وكل أحدٍ يتحقّق ما جرى عليكم من ذهاب الأرواح والأموال. وقد انقضت تلك الدولة، فلم يؤاخذكم السلطان الشهيد، رحمة اللّٰه عليه، فتوجه البلاد، وأحسن إليكم في آخر الأمر. وكان عِوَض ذلك أنكم رحتم إلى الريدافرنس[١]، وساعدتموه، وأتيتم صحبته إلى مصر، حتى جرى عليكم ما جرى من القتل والأسر. فأيّ مرةٍ وفَيْتُم فيها لمملكة مصر؟ أم أيّ حركة أفلحتم فيها؟ وعلى الجملة، فإنكم ما أخذتم هذه البلاد من الملك (الصالح)[٢] إسماعيل إلّا لإذعانه مملكة الشام ونُصرته، والخروج في خدمته، وإنفاق الأموال في نجدته. وقد صارت ـ بحمد اللّٰه ـ مملكة الشام وغيرها لي، وما أنا ـ بحمد اللّٰه ـ محتاج إلى نُصرتكم ولا إلى نجدتكم، ولم يبق لي عدوّ أخافه، فتردّون ما أخذتم للإسلام بهذا الطريق، والحال ينصلح بعد ذلك لأنكم جيران، وتفكّون أُسراء المسلمين جميعهم، وغير ذلك لا أقبله ولا أسمعه».

فلما سمعوا/ ٤١٧أ/ هذه المقالة بُهِت الذي كفر، وقالوا: «نحن لا ننقض الهدنة، ومراحم السلطان في استصحابها واستدامتها والاستمرار عليها، ونحن نزيل شكوى النواب جميعها، ونخرج من جميع الدعاوى، ونفكّ الأسرى، ونستأنف الخدمة فقال الملك الظاهر: «كان هذا قبل خروجي في هذه الأشتية وهذه الأمطار». ووصول العساكر إلى هنا»[٣].

[هدْم كنيسة الناصرة]

وانفصلوا في هذه الأمور، وأمر أنهم لا يبيتون في الوطاق. ورسم بهدم كنيسة الناصرة، وهي أكبر مواطن العبادات التي هي لهم، ويقولون إنّ منها خرج دين النصرانية، فوجّه الأمير عزّ الدين أمير جَنْدار إليها، فهدمها إلى الأرض، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجية أن يخرج من باب عكا ولا يتكلّم بكلمة[٤].

[مهاجمة عكا]

ثم جرّد الأمير بدر الدين الأيدمُري وصُحبته جماعة، فتوجّهوا إلى عكا، وهجموا أبوابها فقتلوا وأسروا. وتوجّه الأمير المذكور مرةً أخرى، فأغار على مواشي

---

(١) الريد افرنس: هوملك فرنسا لويس التاسع، Roi de France.

(٢) عن هامش المخطوط.

(٣) الروض الزاهر ١٥٢ ـ ١٥٦، نهاية الأرب ٣٠/ ٢٥٦، تاريخ ابن الفرات ٩/ ورقة ١٧أ، السلوك ج١ ق٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٧.

(٤) خبر هدم الكنيسة في: الروض الزاهرة ١٥٧، وتاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ١٨ ب، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٨٧.

عكا، وأخذ منها شيئاً كثيراً، وحضر بجميع ذلك إلى المخيّم المنصور.

واستمرّ الملك الظاهر بالجلوس في كلّ يومٍ على باب الدِهليز، وعلى الصُفّة التي عمّرها هناك، وكتب اسمه عليها، وهيَ مبنيّة بالحجر المنحوت لا يحتجب عن أحد، ومن وقف له أحضره وأخذ قَصَّته وأنصفه، وهو لا يشتغل بغير أمرٍ ولا نهْي وإنعام وعطاء وتدبير في أمر الكرَك، وإرسال خِلَعٍ ومالٍ لاستجلاب قلوب أهلها[١].

[الخِلَعَ على الأمراء]

قال صاحب التاريخ: ووصلت رُسُل دار الدعوة ومعهم الهدايا. ووصل ولدين[٢] الصاحبين مقدمَيْ الدعوة، فأحسن الملك الظاهر إليهما وجهّزهما، وتوجّها إلى أماكنهما[٣].

ولم يخلّ الملك الظاهر وقتاً من الأوقات من تأمير جماعةٍ في الشام والساحل، فمن جملتهم الأمير علاء[٤] الدين أيديكين البُنْدُقْدار أعطاه إنعاماً جيّداً في مصر، وأعطاه طبلخاناة، وخلع عليه، (وكذلك الأمير شمس الدين الرومي الأشرفي أعطاه إمرةً في الشام وطبلخاناة،/ ٤١٧ب/ وخلع عليه)[٥]، (وكذلك الأمير سيف الدين الكاملي، والأمير سيف الدين سُنقر الخزندار العمادي، أمّرهما بالشام وأعطاهما طبلخاناه والخِلَع)[٦]، وكذلك الأمير حسام الدين العَيْنتابيّ أمّره في بلاد حلب، وأعطاه طبلخاناه، وخلع عليه. وكتب للأمير جمال الدين أيدُغدي[٧] العزيزيّ بزيادة جماعة جيّدة[٨]، وخاص في الشام، وهي ثلاثون فارساً، وخلع عليه. ولم يزل هذا دأبه طول هذه المدّة[٩].

[إلزام المفسدين بالدية]

ثم إنه وجد أهل البلاد قد عاثوا وتسلّطوا على الرعيّة الضعفاء، فألزمهم

---

(١) الروض الزاهر ١٥٧، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ١٩أ، والسلوك ٤٨٧.

(٢) الصواب: «ووصل ولدا».

(٣) الروض الزاهر ١٥٧، السلوك ج١ ق٢/ ٤٨٧.

(٤) في الأصل: «علاى».

(٥) ما بين القوسين تكرّر في الهامش.

(٦) ما بين القوسين عن هامش المخطوط.

(٧) في الأصل: «أيغدى».

(٨) في تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ١٩أ «جنده».

(٩) الروض الزاهر ١٥٧، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ١٩أ، السلوك ج١ ق٢/ ٤٨٨.

بذلك دياتٍ مجهولة الصرف[١] وأذلّهم، وتحقّق أنّ أكثرهم عيونٌ للإفرنج، وأنهم يميلون إليهم، ووجدهم[٢] فلّاحي البلاد، لا يمكن إتلافهم، وبهم عمارتها، فقرّر عليهم حملاً كثير[٣] من الجنايات[٤] يقومون بها لبيت المال المعمور عن ديات من قتل وليس له وارث، وعن ما نهبوه من مالٍ جُهِل مالكُه، إلى غير ذلك من الأمور الموجبة، فتناول ذلك منهم، فحُمِلت جُمَل كثيرة من البلاد الساحلية والجبال النّابُلُسيّة، فانكسرت بذلك شوكتهم، وانكشفت همّتهم[٥].

[زيارة السلطان لقبر دحية الكلبي]

وركب الملك الظاهر مرار[٦] إلى قبر دِحية الكلبيّ[٧]، رضي اللّه عنه، صاحب رسول اللّه ﷺ، وزاره ودعا عنده[٨].

[زيارة أبي هريرة]

وكذلك في طريقه نزل عند قبر أبي هريرة رضي اللّه عنه، صاحب رسول اللّه ﷺ وسلم، وزاره ودعا عنده[٩].

[وصول عربان الشام بالخيول]

ووصلت جماعة من عربان الشام بالخيول والتقادُم، فقبلها، وعوّضهم وخلع عليهم، وأحسن إليهم.

[مهاجمة السلطان عكا]

قال صاحب التاريخ: ولما كانت ليلة السبت رابع جمادى الآخر ركب الملك

---

(١) في تاريخ ابن الفرات: «المصرف».
(٢) في الأصل: «وتطرقوا جدهم».
(٣) الصواب: «مالاً كثيراً».
(٤) مهملة في الأصل، والتحرير من: الروض الزاهر.
(٥) الروض الزاهر ١٥٧، ١٥٨، السلوك ج١ ق٢/ ٤٨٧، ٤٨٨.
(٦) الصواب: «مراراً».
(٧) هو: دحية بن خليفة بن فروة بن فَضَالة الكلبي القُضاعي. أرسله النبيّ ﷺ بكتابه إلى قيصر. ذكره الذهبي في طبقة المتوفين بين سنتي ٤١ ـ ٥٠هـ. ص٤٨، ٤٩ من تاريخ الإسلام، وفيه حشدنا عشرات المصادر لترجمته.
(٨) الروض الزاهر ١٥٨، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ١٩أ.
(٩) الروض الزاهر ١٥٨، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ١٩أ.

الظاهر، وجرّد صُحبته من كلّ عشرة فارس[١]، واستناب الأمير شجاع الدين الشبلي في الدِهليز المنصور، وساق من منزله للطور نصف الليل إلى الصباح، وقف قريب[٢] من عكا في الوادي، فقاربَهَا، ومنه يشرف عليها، وأمر الناس بلبس السلاح والعُدّة، فلبسوا جميعهم، فبان من لَمَعَان الخُوَذ والحديد والجواشن[٣] والأسِنّة ما كاد يذهب بالأبصار، ورتّب الميمنة والميسرة والقلب والصَّنجقيّة، ولم يزل بعد ذلك سائقاً/ ٤١٨أ/ إلى أن أطاف بعكا من جهة البرّ. وسيّر جماعة إلى برجٍ كان قريباً منها، فيه جماعة، فحاصره، وللوقت أُخذت فيه النقوب.

وكان توجُّه الملكِ الظاهر إليها في هذه الجماعة إنّما هو لكشْفها، وكان الفرنج يقولون: إنّ أحد[٤] لا يجسر على أن يَقْرُب منها، فلم يزل كذلك إلى قريب المغرب، والفرنج ينظرون من أبواب المدينة وتلّ الفضول، ومن داني الأسوار. ثم رجع إلى الدِهليز المنصور، وأخذ البرج المذكور وقتل كلّ من فيه.

ولما أصبح الملك الظاهر ركب، وركب العسكر في خدمته، وساق إلى عكا.

وكان الفرنج ـ خذلهم اللّه ـ قد حفروا خنادقاً[٥] حول تلّ الفضول، وجعله مغاير في الطريق، ووقعت الفرنج صفوفاً على التلّ المذكور. ولما أخذت العساكر أُهبة القتال. والملك الظاهر بنفسه يسوق ميمنةً وميسرةً، ويرتّب، حتّى إنه مما كان يذكر اللّه، سبحانه وتعالى، ويأمر الناس به من التّهليل والتّكبير، وينوب إليه من المصالح شرس[٦] صوته، وللوقت رُدمت الخنادق بحوافر الخيل وبأيدي الرجّالة من غلمان العسكر، والفقراء والمجاهدين. وطلع العسكر على تلّ الفضول، وانهزمت الفرنج إلى المدينة وشرعوا[٧] فحرّقوا ما كان حول عكا من الأبراج والأسوار، وقطّعوا الأشجار، وحرّقوا الأثمار، فلا يرى الإنسان إلّا دخاناً وعجاجاً، وسيوف[٨] لامعة، وأسِنّة قاطعة، وخيول[٩] سابقة، ولا تسمع إلّا صهيل أو تكبير[١٠].

ولما رأى الفرنج أنّ اللّه تبارك وتعالى قد نصر السلطان حاروا في أمورهم، وبُهت الذي كفر. ولما رأى العسكر هذه الحالة ساقوا إلى أبواب عكا يقتلون ويأسرون، ففي ساعةٍ واحدة قُتل جماعة من كنودهم وفرسانهم وخيّالاتهم، وأُسرت جماعة بخيولهم، وخرج أكابرهم، وحفّ بهم البلاء من كل جهة، وطمع الناس

---

(١) الصواب: «فارساً». (٢) الصواب: «قريباً».
(٣) الجواشن: مفردها: جوشن = جَوسن: درع من نوع خاص.
(٤) الصواب: «إن أحداً». (٥) الصواب: «حفروا خنادق».
(٦) في الروض الزاهر ١٥٩ «تشوش». (٧) في الأصل: «وشرع».
(٨) الصواب: «وسيوفاً». (٩) الصواب: «وخيولاً».
(١٠) الصواب: «إلا صهيلاً أو تكبيراً».

فيهم، ورموهم في الخنادق بخيولهم، وفيهم جماعة من الداوية والاسبتارية. وهرب من بقي[١] من الخارجين من الفرنج إلى جهة الأبواب، من جهة الأسوار، ونزلوا لحفظ الأبواب وتساووا[٢] بالنساء بالستر بالبيوت، وهم يزعقون بصوتٍ واحدٍ: «الباب، الباب»، خوفاً من/ ٤١٨ب/ الهجوم عليهم، والسلطان واقفٌ على رأس التلّ مما يلي عكا، يُعطي ويَهب ويُنعم ويعد. وحضر إليه رجل اسمه حسن من أصحاب ابن[٣] أطلس خان، بفارس طعنه أرماه، وقامت الضجّة من الفرنج لأجل رميته، فأمّره[٤] وأعطاه الملك الظاهر منديله الشريف بأربعين فارساً، والأمراء حافّون به.

وضرب السلطان المشورة على تلّ الفضول، من أيّ جهةٍ يأخذها. ورأى جهاتها السهلة، وعرف أحوالها. ثم شرعوا[٥] الأمراء فحملوا إلى الأبواب، فخرج في ذلك النهار من أعيان الأمراء جمال الدين أيدُغدي العزيزي في رُكبته جرحاً خفيفاً، فأعطاه السلطان فَرجيَّتَيْن[٦] من أفخر ملابسه، وسيّر إليه ما يحتاج إليه من المشروب والمأكول.

ثم حمل الناس حملةً واحدة، إلى أن رموا الفرنج في الخنادق، وهلك جماعة منهم في الأبواب، وكان أول ما وقف السلطان ساق الأمير علاء[٧] الدين علي الشهرزوري عند اللقاء فأتى برمح اقتلعه من يد أحد الخيّالة، فخلع عليه السلطان.

ولم يزل الملك الظاهر واقفٌ[٨] على ما ذكرنا، والخلق تحمل وتقاتل، والطعام يصل إلى باب المدينة، فكان مما أحضر تسع حصن[٩] من خَيار خَيلهم ببرك اصطواناتها[١٠].

ولما رأوا[١١] الفرنج أنهم ليسوا قبالة عسكره غلّقوا أبواب البلد، وتحصّنوا فيه،

---

(١) في الأصل: «من بقا».

(٢) في الأصل: «وتساوو».

(٣) في الأصل: «أصحاب بن».

(٤) في الروض الزاهر ١٦٠، «فأسره».

(٥) الصواب: «ثم شرع».

(٦) مهملة في الأصل. و«الفَرَجِيّة»: رداء طويل الكم، يلبس فوق الثياب، وهو الجبّة.

(٧) في الأصل: «علاى».

(٨) الصواب: واقفاً.

(٩) الصواب: «تسعة أحصنة».

(١٠) برك اصطواناتها = بركستوان = بركصطوان: غطاء الحصان المزركش، وتكون أيضاً لغير الخيول كالفِيَلة.

(١١) الصواب: «ولما رأى».

فعند ذلك لوى السلطان عنان فرسه إهمالاً وإمهالاً، وسار إلى عسكره المنصور، فجلس وخلع وأنعم وأعطى، وكتب كُتب البشائر، وجزا[1] الناسَ خيراً، وأحسن إلى من جاهد في خدمته أحسن الجزاء، ونفّذ كتب البشائر إلى جميع البلاد، وفرّق ذلك اليوم أموالاً عظيمة على كل من عمل صالحاً في ذلك اليوم. ولم يزل كذلك منتصباً إلى قريب العصر. فركب ولبس عدّته، وساق إلى برج هناك فوقف حتى أخذه، وكان فيه جماعة، فأخرج منه بأمانه أربع خيّالة إخوة، وستةً وثلاثين رجلاً. ثم سيّر إلى جهة عكا من جهة البحر وعاد.

ولما جُرح الأمير جمال الدين أيدُغدي العزيزي ساق الملك الظاهر إليه والتقاه وسلّم عليه، فلما نزل سيّر إليه أيضاً تشريفاً من ملابسه الخاص[2]/ ٤١٩أ/ وطعاماً من مأكوله، وبات وأصبح راجعاً متصيّداً في طريقه مع جماعةٍ لطيفة، وعبر على بلاد الفرنج وكشفها مكاناً مكاناً، وعاد وجلس على المصطبة التي أمر ببنائها قبالة الطور، وأحضر الشموع الكثيرة، ونصب خيمة، وأحضر الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وكمال الدين أحمد بن العجميّ، وفتح الدين بن قُريش، وفتح الدين بن القيسرانيّ، وجماعة من الأكابر والعُلماء. وجعل الأمير سيف الدين أمير عَلَم جالساً عند ديوان الجيش، لأجل كتابة المناشير، لتجهيز الطبلخاناه والأمير أتابك فارس الدين أقطايا جالساً. وسيّر من استدعى من دشاراته[3] خمس ماية فرس برسم الطبلخانات، وأُحضرت الخِلَع بين يديه على عدّة طرق.

ولم تزل المثالات[4] تكُتَب والمناشير، وهو يعلّم عليها إلى أن فرغ أكثر الليل، وأعطى[5] الملك الظاهر تلك الليلة حمل[6] كثيرة إنعاماً. ولما تكامل ذلك وتكاملت الخِلَع، وبات في ليلته، فلما أصبح جهّز الطبلخانات والصناجق والخيل إلى أصحابها، وعمّ جميع الناس الجميل[7].

(١) الصواب: «جزى».
(٢) الصواب: «الخاصة».
(٣) دشارات = جشارات: الخيل والأبقار التي تساق مع الجيش.
(٤) المثالات: مفردها: مثال. هو أمردون الفرمان والمنشور، وكان يصدر عن ديوان الجيش بمنح إقطاع أو بتحويله أو بإعادته أو بزيادته. (معجم الألفاظ التاريخية ١٣٥ رقم ٧٥٥).
(٥) في الأصل: «وأعطا».
(٦) الصواب: «أحمالاً».
(٧) خبر عكا في: الروض الزاهر ١٥٨ ـ ١٦١، ومختار الأخبار ٢٤، وزبدة الفكرة ٨١، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٨٨، ٤٨٩.

[نيابة السلطنة بالفتوحات]

ثم جعل الأمير ناصر الدين القيمُري نائب السلطنة بالفتوحات وحلّفه، وردّ الأمور جميعَها إليه[١].

[زيارة السلطان مسجد الصخرة بالقدس]

ورحل بعد ذلك من الطور ثالث عشر جمادى الآخر سنة أحد[٢] وستين وستماية، وساق إلى العَوْجا، ثم سار إلى بيت المقدس، وأتى إلى الجامع مُبكراً، ومضى إلى موضع الزيارة، وطلع على القبّة التي على الصخرة من خارجها، هو والشيخ الذي للحرم، وطاف، ورأى تلك البقاع، وأمر بعمارة ما يحتاج إلى العمارة، ثم صلّى الجمعة وتصدّق، وقرأت[٣] القرّاء، وخشع الناس، وطاف بعد ذلك بالأماكن كلّها، وخلع على الخطيب، وأمر بالنظر في أمر الأوقاف وتحريرها، وكتب بحماية أوقافه. ووصّى على الرهبان، وكتب باحترامهم، ونادى بأن أحد[٤] لا ينزل[٥] في زرع، ولا يتعرّض لزرع. حتّى إنّ الأتابك ضرب أحد مماليكه بين يديه على شيء يسير من حشيشٍ أطعمه لفرسه.

/ ٤١٩ب/ وبعد ذلك سار الملك الظاهر إلى جهة الكرَك وبقي[٦] لا ينزل في منزلةٍ إلّا ينظر في أمورها، ويرسم بمصالحها، وأهل البلاد ينقلون إليه ويُنْهون[٧] إليه حالهم، وهو يقضي حوائجهم[٨].

ذِكر فتوح الكرَك المحروس حرسه اللّه تعالى

ولما كان يوم الخميس ثالث [و] عشرين جمادى الآخر، سنة أحد[٩] وستين وستماية، نزل الملك الظاهر على الكرَك وصُحبته العساكر، وأُحضرت السلاليم[١٠]

(١) الروض الزاهر ١٦١، السلوك ج١ ق٢/ ٤٩١، زبدة الفكرة ٨١.
(٢) الصواب: «سنة إحدى».
(٣) الصواب: «وقرأ».
(٤) الصواب: «بأن أحداً».
(٥) في الأصل: «لا يزل».
(٦) في الأصل: «وبقا».
(٧) في الأصل: «ينهبون».
(٨) الروض الزاهر ١٦٢، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ٢١أ، السلوك ج١ ق٢/ ٤٩١ وفيه أن مسير الظاهر كان في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة.
(٩) الصواب: «سنة إحدى».
(١٠) الصواب: «السلالم».

الخشب من البلاد. وكان قد استصحب من الديار المصرية من الحجّارين، والنقّابين، والبنّائين، والنجّارين، وجميع الصُنّاع جماعة على أنه يبني قلعة الطور، وأحضر جماعة من بلاد الشام من الصُنّاع، ونُفِقت فيهم جملة أموال، وسيّر إلى عين جالوت. وأشاع الخبر أنّ ذلك لبناء جامع، وكان كل ذلك لأجل الكرَك، وهو يفكّر في أخذها، وقد عزم على الطلوع إليها بنفسه، فخاف أهل الكرَك منه، وطلبوا رحمته.

قال: فنزل أولاد الملك المغيث وقاضي المدينة وخطيبُها، وجماعة من أهلها، ومعهم مفاتيح الحصن والمدينة، وطلبوا الأمان، فأمّنهم وأجابهم إلى كلّ ما طلبوا، وخلع عليهم وأعطاهم.

ثم سيّر الأمير عزّ الدين أيدمُر أستاذ الدار، والصاحب فخر الدين ولد الصاحب بهاء الدين لتسلُّم الكرَك، فطلعوا إليه في ليلة الجمعة وقت المغرب في جمادى الآخر سنة أحد(١) وستّين وستماية، وتسلّماه.

ولما كان بكرة يوم الجمعة دُعي للملك الظاهر على أسوارها، ونُصِبت صناجقه على أبراجها، ومُدّ الخوان(٢).

وكتب في تلك الساعة إلى دمشق وعجلون بإحضار الرُماة والرجّالة، ورسم بإحضار الصُنّاع الحربية برسم خزائن سلاحها.

ثم ركب في الساعة الثالثة من يوم الجمعة المذكور، وطلع إلى الحصن في أبرك ساعةٍ وأسعدها وأيمنها، ونادى بأن لا يؤذى أحدٌ من أهلها، وصفح عن جميع الذنوب، وجلس في القلعة في القاعة الناصرية، وسجد للّه تعالى على ما وهبه من هذه النعمة السنيّة، وطلب بعد ذلك ديوانها وكُتّاب الإنشاء، فرتّب أمر جيشها ورجّالتها، وسأل عن أمر/ ٤٢٠أ/ رجّالتها، فقيل له: لهم عدّة أشهر لم يُعطوا شيئاً، فرسّم لهم بجامكية ثلاثة أشهر من ماله، وأمر أن يُعطَوا الجراية من المُغَلّ، وأنفق المال فيهم في تلك الساعة، واهتمّ في أمر بلادها، وأطلق جامكيّات أهلها، وما غيّر على أحدٍ شيء(٣)، وأعطى أولاد الملك المغيث جميع ما حواه الحصن من مالٍ وقماش وأثاث. وكذلك سائر غلمانهم وخدّامهم، ولم يتعرّض لأحدٍ منهم بشيء. ونزلوا(٤) الجميع إلى الوادي، ونودي الجمعة، فقام الملك الظاهر ومشا(٥) إلى

(١) الصواب: «سنة إحدى».

(٢) في الأصل: «ومد الاخوان».

وفي النسخة (أ) ورقة ١٧٣ب: «وفي هذه السنة تسلم الملك الظاهر الكرك».

(٣) الصواب: «شيئاً».

(٤) الصواب: «ونزل».

(٥) الصواب: «ومشى».

الجامع، وخطب له على منبره، ثم صلّى وعاد إلى مجلس، وأعاد النظر والبحث عن مهمّات الحصن والبلد، وتدقيق السؤال عن مصالحها. ولم يقم من مكانه حتى رتّب أمرها، ودبّر أمر جيشها ورجالها وبلادها.

ونزل وقت المغرب يوم السبت فسيّر إلى الملك العزيز بن الملك المغيث الخلَع والقماش، وحبا له ولإخوته بأنواع الإحسان، وكذلك الطواشي بهاء الدين صندل وغيره. وكتب كُتب البشائر إلى ممالكه جميعها، وأمر بحمل الغلال والذخائر إليها.

ولما كان يوم الإثنين في أواخر جمادى الآخر ركب وطلع إليها وأحضر الدواوين، وكتب المناشير لعربانها وجميع من بها، وكانت جمل[١] كثيرة، ونزلت، وعُلّم عليها، وسُلّمت إلى أصحابها بعد تحليفهم، وأجرى أرزاق الخلق على ما كانت عليه. وأحضر الأمير عزّ الدين أيدمر أستاذ الدار، وسلّم الكرَك إليه وجعله نائباً له فيها، وحلّفه له ولوليّ العهد بعده (ولده)[٢] الملك السعيد، وكتب تقليداً وتشريفاً بذلك، وأضاف إليه الشَوبك وأعمالها. وحلّف جميع من في البلد من المسلمين والنصارى، وقال لهم: إنكم قد أسأتم إليّ وعفوتُ عنكم لكونكم ما خامرتم على صاحبكم وقد ازددتم بذلك محبّةً عندي ولا تقيموا فتنة، ولا تفتحوا باب[٣] ينفتح عليكم منه عدّة أبواب، وإن كانت بينكم دماء فاتركوها، وأصلح بينهم، وأحضر الأمير عُتبة[٤] من بني عُقْبة، وغيره من بني مهدي. وقال: «يا أمير عُتبة كنت بالأمس أحسن/ ٤٢٠ب/ إليك وأغفر زلّاتك، كل هذا لأجل الكرَك حتى حصل لي، والآن بذلك مضى، واللّهِ ما يروح لأحد خيط إلّا آخذه منك، وأمسك رقبتك عليه، واعلم أن هذا[٥] البلاد لا يشرب أهلها إلّا من صهاريج ماء المطر، ومتى شرب العربان منها أو سقوا خيولهم فرغت، فتعطش[٦] أهل القرية، فيبعدون عنها إلى غيرها فتخرب القرية، فهذا سبب خراب البلاد، ولا يشرب أحد من العربان من هذه الصهاريج، ومن فعل ذلك شنقته. فأجابوا إلى ما قال. فأشهد على الأمير سابق الدين عُتبة وعلى جماعة المشايخ الأمراء بذلك، وأخذ عنهم الرهائن، وضمّنهم خفر الطريق والبلاد إلى الحجاز، وركب بعد ذلك وطاف بالقلعة والمدينة من خارجها وباطنها، ووقف عند برج برج، وبَدَنَةٍ بَدَنَة، فما كان يحتاج إلى العمارة رسّم بعمارته، وأمر بحفْر ما يجب حفْره من الخنادق وغيرها، وكتب تذكرة بجميع هذه المهمّات، ورسّم بأنّ جميع من كان صُحبته من الصُنّاع بالإقامة بالكرَك، ورتّب لهم الجامكيّات والجرايات، وحمل إليها جميع الزَّرَدْخاناه التي كانت معه ومن الأموال وغير ذلك، وسبعين ألف دينار عيناً

(١) الصواب: «جملاً».
(٢) عن هامش المخطوط.
(٣) الصواب: «باباً».
(٤) في الأصل: «غبيه».
(٥) الصواب: «هذه».
(٦) الصواب: «فيعطش».

ومائة وخمسين ألف درهم نُقْرة[١]. وأعطى الأمير عزّ الدين ثلاثين ألف دينار، وحمل[٢] من القماش، وخِلعةً من ملبوسه، وفرساً من مراكيبه. ونزل بعد ذلك إلى المخيّم، ثم أصبح وطلع إليها، ووصّى الأمير عزّ الدين، وأقرّ نفسه[٣] الأحوال، ونزل وتوجّه مسافراً إلى ثغر سلطانه.

ولم يزل سائقاً إلى القاهرة السعيدة المحروسة، فدخلها في سابع عشر رجب الفرد سنة أحد[٤] وستين وستماية، وزُيّنت القاهرة ومصر، فعند ذلك خلع على جميع الأمراء والمفاردة ومقدّمي البحرية، ومقدّمي الحلقة، وجميع حاشيته. وعَمّ بإحسانه جميع الناس وأرباب المراتب. وبلغ ما أراد.

وكان هذا كلّه في مدّة خمسة وتسعين يوماً. فرحمه اللّه تعالى[٥].

ذِكر السبب في مسْك الأمراء الرشيدي والبُرلي والدِمياطي

/ ٤٢١أ/ قال صاحب التاريخ: لما فوّض اللّه تبارك وتعالى للملك الظاهر أمرَ المملكة ساهم الأمير سيف الدين الرشيدي في كلّ شيء، وأنفذ كلمته، وأعلى منزلته، وأقام حُرمته، وأطلق له في كلّ جمعة خوانَيْن من عنده، يُمدّان له حتّى الماورد، إلى غير ذلك، ورتّب له في كلّ شهر كلوتَتَين من الزَّرْكَش، كل كلوتة[٦] بماية دينار، ورتّب له برسم مشروبه اثني عشر ألف دينار في كلّ سنة، زيادةً على إقطاعاته والرواتب الكثيرة، وعلى الإنعام في المواسم وغيرها، والخيول الثمينة، والسُروج المذهبة، والنَّفَقَة في السرّ، حتّى جامكيّات البردارية، والفهّادين، وعليق خيلهم من ديوان السلطان، فاشتغل الرشيدي بالشُرب، واستندب حاشيته بالأمور، وحملوا أشياء كثيرة من البلاد، ومنعوا حقوقها من الديوان، وحموا أشياء كثيرة من المراكب، وصار ديوانه ديوان ملك كبير. وبقي[٧] يصدر منه أشياء لا تسُرّ السلطان يكاسر عنها، ولا يزيده في ذلك إلّا إحسان[٨].

---

(١) الدرهم النُقرة: أصل موضوعه أن يكون ثلثه من فضة وثلثه من نحاس أحمر، ويكون منه دراهم صحاح وقراضات مكسّرة. والعبرة في وزنها بالدرهم، وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً، وقدّر بست عشرة حبّة من حباب الخرّوب.

(٢) الصواب: «وحملاً».

(٣) الصواب: «بنفسه».

(٤) الصواب: «سنة إحدى».

(٥) الروض الزاهر ١٦٢ ـ ١٦٦، نزهة المالك والمملوك ١٥٢، تاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ٢٦أ، زبدة الفكرة ٨١، السلوك جـ١ ق٢/ ٤٩١، ٤٩٢.

(٦) كلوته = كلفتاه: لباس رأس، مصنوع من القماش المزركش على هيئة طاقية كانت تُلبس إما لوحدها أو بعمامة.

(٧) في الأصل: «وبقا».

(٨) الصواب: «إحسانا».

قال: وأمّا الأمير عزّ الدين الدمياطيّ، فإنّ الملك الظاهر أعطاه وزاده وقدّمه على عساكره، ومن جملة ما كان بيده نصف مدينة غزّة، زيادةً على ما كان في يده. ولم يزل يضاعف حُرمته ويُعلي منزلته، ويراه في صورة أنه رجل كبير في الدولة، ولا يقدّم أحد[١] عليه، وكتب له توقيعاً إذا سافر في جميع بلاد الشام لا يُمنع من شيئاً[٢] يطلبه من غزّة إلى الفرات[٣]، وكذلك الأموال والخِلع يصرفها جميعها على من يختاره في مهمّات الدولة ولا يُحاقق عليها.

قال: وأمّا الأمير شمس الدين البُرلوا، فقد تقدّم حديثه.

ولما سافر الملك الظاهر إلى جهة الطور أحسن إلى هآولاي[٤] الأمراء الثلاثة إحساناً كثيراً، سرّاً وجهراً، وبعد ذلك بلغه أنّ نيّة الرشيدي قد تغيّرت، فلم يؤاخذه بشيء، وكلّما فعل شيئاً كاسَرَ عنه.

ولما جرى ما جرى من طلب صاحب الكرَك وتقرير حضوره وخروجه من الكرَك وصل كتاب الأمير أسد الدين أستاذ الدار الملك المغيث يقول: إنّ كتاب[٥] من الرشيدي قد حضر إلى عندي/ ٤٢١ب/ ويقول للملك المغيث: «لا تحضر عند الملك الظاهر، فإنه يريد أن يقبض عليك». وأشياء غير ذلك. وجرى ما جرى. فكتم الملك الظاهر هذا كلّه ولا أشاعه ولا ظهرت منه كلمة واحدة بسوء. فلما توجّه الملك الظاهر إلى الكرَك جعل على الرشيدي عيوناً تخبره بأحواله، وكانوا يخبروه[٦] بأحوال فاسدة عنه، فيبطل الملك الظاهر جميع حركاته إلى أن تسلم الكرَك كما تقدّم ذكره. وهو لا يزيد الرشيدي إلّا إحساناً وتقريباً إلى قلبه. ولما وصلت الخيل من جهة العربان طلب منه الرشيدي شيئاً منه، فسيّر إليه ثلاث روس[٧] خيل من أجودها.

ولما رجع السلطان طالب[٨] القاهرة نزل في غزّة، فقام ليُسبغ الوضوء على عادته، وتفرّقت الأمراء والخواصّ، فقام يتركّع قبل الأذان، وإذا هو بالرشيديّ أقبل في نحو ثلاثمائة فارس مستعدّة[٩] من مماليكه، والدّمياطي، والبُرليّ. فما احتفل الملك الظاهر بهم، ولا خاف منهم، ولا قطع صلاته وسلّم، فلم يجد أحداً حاضراً إلّا الأمير شمس الدين الروميّ، فقال له السلطان: «ما الذي رأيت؟» قال: «رأيت جماعةً ما جاءوا لخير». وبعد هذا الكلام حضر الأمير سيف الدين قلاوون الألْفي

(١) الصواب: «أحداً».
(٢) الصواب: «من شيء».
(٣) في الأصل: «الفراة».
(٤) الصواب: «هؤلاء».
(٥) الصواب: «إن كتاباً».
(٦) الصواب: «يخبرونه».
(٧) الصواب: «ثلاثة رؤوس».
(٨) الصواب: «طالباً».
(٩) الصواب: «مستعدّين».

بغير سيف إلّا في وسطه تركاشه[١] لأجل الصيد، فأنكر الملك الظاهر عليه ذلك، فقام وراح لبس سيفه، وركب فرساً جيّداً، ووقف، وتراجعت الخاصكيّة[٢] والجماعة.

وركب الملك الظاهر فأتى الرشيديّ فوقف قريباً منه في مكانٍ ما جرت به عادة، فحضر الأمير عزّ الدين أوغان الرُكنيّ، وقال للرشيديّ: «أراك في هذا المكان وما هو مكانك يا سيف الدين»، وأظهر أنه في مرج، وما زال به حتى ساق من ذلك المكان، وساق الدمياطي والبُرلي، وتفرّقوا.

قال: وجرت من الدمياطي قضيّة، وهو أنّ الملك الظاهر لما ملك الكرَك وأنزل أولاد الملك المغيث وأعطاهم ما لهم والخِلَع، وأنعم عليهم إنعاماً كثيراً، وأنزلهم في الوادي تحت الكرَك/ ٤٢٢أ/ قريباً من منزلة الملك الظاهر، فسيّر الدمياطي ضوءاً وجماعة يبيتون حولهم بغير مرسوم شريف، ثم أحضر في الليل إليهم جماعة من مماليكه بالسيوف ملثّمين، فكسروا الصناديق، وأخذوا القماش اعتقاد[٣] منهم أن تقوم فتنة في الليل وشَوشة في العسكر، ولا يعلم لهم أحد، فإذا عوتب الدمياطي قال: «أنا سيّرت من يحفظهم، وسيّرت المشاعل والضوء، فكشف اللّه ذلك، وظهر القماش عند مماليكه». واطّلع السلطان على القضيّة، فتحدّث الأمير شجاع الدين مع الدمياطي في مماليكه وما قد فعلوا، فما سلّمهم ولا أنصف منهم، وقال: «أنا أغرم عن مماليكي ما عُدم، وأحضر بعض القماش»، وتقرّر أن يقوم بدراهم عن بقيّة القماش. والملك الظاهر ساكت لا يتكلّم بكلمةٍ واحدة، إلّا يحتمل هذا كلّه ويحترز على نفسه.

وأمّا البُرلي فإنّه اتّفق مع جماعةٍ على أن يملّكوه مصر.

ولم يزل الملك الظاهر كذلك إلى أن دخل مصر، وهو يبلغه عنهم كلّ شيء لا يُرضيه. فلما استقرّ في مملكته طلب الرشيديَّ، فأتاه فاعتقله، وطلع الأمراء إلى الخدمة في اليوم الثاني، فقبض على الدمياطيّ والبُرليّ، وترك الجميع في برج القلعة، فكان الناس يروهم[٤] مدّة، ثم بعد ذلك نقلهم، فكان آخر العهد بهم[٥]. وحسم هذه

---

(١) التركاش = التركش: لفظ فارسي بمعنى الكِنانة أو الجعبة التي يوضع فيها النشاب.

(٢) الخاصكية: مفردها: خاصكي: لفظ فارسي معناه نديم السلطان أو الملك. والخاصكية فئة من المماليك السلطانية ظهرت في العصر المملوكي، كان السلطان يختارهم لنفسه من الأجلاب، وهم بمثابة الندماء في العصر العباسي، كانوا يقيمون مع السلطان ويحضرون خلواته ويركبون لركوبه وهم يتقلدون السيوف بلباسهم المطرز والمزركش. (معجم المصطلحات ١٥٧).

(٣) الصواب: «اعتقاداً».

(٤) الصواب: «يرونهم».

(٥) في النسخة (أ) ورقة ١٧٣ ب «وقبض على جماعة من الأمراء، وهم: الرشيدي والدمياطي وأمثالهما».

المادّة، وأحسن إلى مماليكهم وخواصّهم وأقرّهم على أخبارهم، ولم يغيّر على أحدٍ منهم شيئاً، ولا تعرّض إلى بيوت الأمراء بسوء أبداً، وزاد الأمراء الناصحين له على إقطاعاتهم إقطاعاً، وأمّر من يستحقّ الإمرة، وجعل اللّه أعداءه غنائم له.

قال: ثم وصل ولد الملك المغيث الأكبر وحريمه وإخوته، فأمّره علىماية فارس، وخلع عليه وأعطاه طبلخاناه، وأطلق لإخوته وحُرَم والده جميعهم كلّما[١] يحتاجونه لهم ولغلمانهم وخدّامهم ومعارفهم، ورتّب ذلك لهم، ولم يُعدموا شيئاً، وعمّتهم صدقات السلطان، الكبير والصغير منهم، وكذلك جميع المفاردة الكرَكيّة، عوّضهم عن جُعْلهم الذي كان لهم في/ ٤٢٢ب/ الكرَك، وأعطاهم الإقطاعات الحسنة والإنعام. وكان قد حضر إليه الأمير شرف الدين الزرزاري برسالة في سبب الكرَك. فلما كان في بعض الأيام رآه الملك الظاهر فطلبه فأعطاه ألف دينار، وطلب من السلطان أملاكاً، فكوتب عليها مكاتبة شرعية[٢]].

قال: ولما وصل شرف الدين شيخ الشيوخ إلى حمص من مصر وجد السلطان الملك الأشرف موسى صاحب حمص مُثْقَلاً بالمرض، فلم يجتمع به الصاحب شرف الدين، وبات على باب القلعة مفتوحاً، وافتقاد الملك الأشرف واصلاً[٣] إليه، إلى أن رحل من آخر الليل[٤].

[وفاة الملك الأشرف]

ومات الملك الأشرف[٥] من ذلك المرض.

---

(١) هكذا في الأصل، وهي: «كل ما».

(٢) حتى هنا ينتهي النقص في النسخة (أ).

(٣) الصواب: «واصل».

(٤) النص في (أ): «ولما وصلنا إلى حمص كان الملك الأشرف موسى صاحب حمص مثقلاً بالمرض فلم يجتمع به الصاحب، وبات باب القلعة مفتوحاً وافتقاداته واصلة إلى أن رحلنا من آخر الليل» (ورقة ١٧٣ب، ١٧٤أ).
وخبر السبب في إمساك الأمراء في:
الروض الزاهر ١٦٦ ـ ١٧٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١٨، والدرة الزكية ٩٦، ونهاية الأرب ٣٠/ ٨٤، وتاريخ النوادر ٤/ورقة ٧٦أ، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٦١هـ.) ص٧، وذيل مرآة الزمان ٢/ ١٩٤، ودول الإسلام ٢/ ١٦٧، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٩٠، وتاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ٢٨ب، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٩٣، وعقد الجمان (١) ٣٥٨، ٣٥٩، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٠٩، وزبدة الفكرة ٨٤ باختصار شديد.

(٥) هو الأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي الحمصي. انظر عنه في:
الروض الزاهر ١٨٦، وذيل الروضتين ٢٢٩، وذيل مرآة الزمان ٢/ ٣١٣ ـ ٣١٤، ونهاية الأرب =

وتسلّم الملك الظاهر حمص في ذي القعدة[١] سنة أحد[٢] وستين وستماية.

[نهْب الفرنج والأرمن لعدّة مدن وقرى]

[[٣] وفي هذه السنة قصد الفرنج والأرمن سَرْمين[٤]، والفُوعَة[٥]، ومَعَرَّة مَصْرِين[٦]، وما حولهم[٧] من القرى، فنهبوها وأخذوا أكثر ما فيها[٨].

ذكر حضور رُسُل الملك بركه

قال صاحب الكتاب: لما وصل الملك الظاهر قريباً من غزّة وهو عائداً[٩] من

= ٣٠/ ٩١ (سنة ٦٦١هـ.) و٣٠/ ٩٤ (سنة ٦٦٢هـ.)، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١٨، ومختار الأخبار ٢٦، وتالي كتاب وفيات الأعيان ١٣٤، ١٣٥، رقم ٢١٣، والعبر ٥/ ٢٧٠، ٢٧١، ودول الإسلام ٢/ ١٦٨، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٦٠، وتاريخ الإسلام (وفيات ٦٦١هـ.) ص١١٥ ـ ١١٧ رقم ٧٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢١٦، ٢١٧، والدرّة الزكية ١٠٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٤٣، وعيون التواريخ ٢/ ٢٩٣، و٢٩٦، ومرآة الجنان ٤/ ١٦٠، ودرة الأسلاك ١/ ورقة ٣٢، والسلوك ج١ ق٢/ ٥٠٥ و٥٢٢، وعقد الجمان (١) ٣٧٢، والنجوم الزاهرة ٧/ ٢١٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ٤٠٩، وشذرات الذهب ٥/ ٣١١، وأخبار الدول ٢/ ٢٦٧.

(١) أعيد خبر موت الملك الأشرف، وتسلّم الملك الظاهر حمص في الورقة ٤٢٧أ، ب، وزاد بعده ما يلي:
«وحكى لي من أثق به في سبب تسليم الملك الظاهر الكرك هو أنّ والدة الملك المغيث صاحب الكرَك حضرت إلى عند الملك الظاهر/ ومعها نسخة يمين، ومن جملتها الطلاق الثلاث لوالدة بركه خان إنْ غدر بابنها. وكان ظنّها أنه لا يطلق والدة الملك السعيد بمكانها منها، فحلف بحضور والدة الملك المغيث، وأجاب بكل ما سألت، فعند ذلك أحضرت ولدها، فكان ذلك آخر العهد به. وأما ابن الملك المغيث فإنّ الملك الظاهر مات وهو في سجنه».
وانظر الخبر في النسخة (أ) ورقة ١٧٤أ.

(٢) الصواب: «سنة إحدى».

(٣) من هنا يعود النقص في النسخة (أ).

(٤) سَرْمِين: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وكسر ميمه، ثم ياء مثنّاة من تحت ساكنة، وآخره نون. بلدة مشهورة من أعمال حلب، قيل إنها سميت بسرمين بن اليفز بن سام بن نوح، عليه السلام، وقد ذكر الميداني في كتاب الأمثال أن سرمين هي مدينة سدوم التي يضرب بقاضيها المثل، وأهلها اليوم إسماعيلية. (معجم البلدان ٣/ ٢١٥).

(٥) الفوعة: بالضم. قرية كبيرة من نواحي حلب. (معجم البلدان ٤/ ٢٨٠).

(٦) مَعرّة مَصْرين: بليدة وكورة بنواحي حلب و«مَصرين». بفتح الميم وسكون الصاد المهملة وراء مكسورة، وياء تحتها نقطتان ساكنة، ونون. (معجم البلدان ٥/ ١٥٥).

(٧) الصواب: «وما حولها».

(٨) انفرد المؤلّف بهذا الخبر، وسيُعاد.

(٩) الصواب: «وهو عائد».

الكرَك، وصل البريد إليه من الأمير عزّ الدين الحلبيّ نائبه بالديار المصرية، يذكر وصول الكتب من جهة الإسكندرية تخبر بوصول (رسل)[١] الملك بركة، وهم: الأمير جمال جلال الدين[٢]، والشيخ نور الدين[٣]، ومعهم[٤]، جماعة، ورُسُل الملك الأشكري، ومقدّم الجنوية، ورسُل صاحب الروم.

قال: فكتب الملك الظاهر بالإحسان إلى جميعهم، وحمْل الضيافات إليه، والزيادة في إكرامهم. وتوجّه الملك الظاهر، فلما حصل في قلعته اجتمع بهم بحضور الأمراء والناس.

وقُرِيء كتاب الملك بركه، مضمونه الشكر والحمد وطلب الإنجاد على هلاوون، «وأنّي قدِمتْ أنا وإخوتي[٥] لحربه من سائر الجهات، لإقامة منار الإسلام، وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة، وذِكر اللّه والأذان والقراءة والصلاة، وأخذْ ثأر الأئمّة والأمّة»، ويلتمس إنفاذ جماعةٍ من العسكر إلى جهة الفُرات، لمسك الطريق على هلاون/ ٤٢٣أ/ ويوصي على صاحب الروم[٦]. وانفصل على هذا. وحمل إلى الرُسُل من الأنعام ما لا يُحصى، ومن الخِلَع شيء كثير[٧]. ورسّم بتجيهز الهديّة إلى الملك بركة من كلّ شيء على اختلافه، وكذلك لجميع الملوك التي[٨] أتت رسلهم. وعمل لهم في اللوق دعوة عظيمة، وبقي[٩] يلعب معهم بالأكرةِ، ويفتقدهم بأصناف الكرامات.

وكتب الملك الظاهر جواب كتاب الملك بركة في سبعين ورقة بغدادية، من الأحاديث النّبويّة، والآيات من القرآن الكريم في التّرغيب في الجهاد، وفي مصر وما ورد فيها من الأحاديث النبويّة والآيات، وقتال المشركين، وفيه من ذِكر مواطن العبادات، ومواضع الزيارات في سائر الشام[١٠]. وجمع في هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والإغراء على هلاون، وإظهار المَيْل إليه، ووصف جنودَ الديار المصرية وما هي عليه وأهلها من حُبّ الجهاد في سبيل اللّه تعالى، وأنّها موافقة له في نصرة

---

(١) عن هامش المخطوط.
(٢) في الروض الزاهر ١٧٠ «جلال الدين بن القاضي».
(٣) في الروض الزاهر ١٧٠ «نور الدين علي».
(٤) الصواب: «ومعهما».
(٥) في الروض الزاهر ١٧١ «إخوتي الأربعة».
(٦) في الروض الزاهر ١٧١ «ويوصي على السلطان عز الدين، صاحب الروم، ويستمد مساعدته».
(٧) الصواب: «شيئاً كثيراً».
(٨) الصواب: «الذين».
(٩) في الأصل: «فبقا».
(١٠) في الروض الزاهر ١٧٢ «في سائر البلاد».

الإسلام، إلى غير ذلكم من (الأمور)[١] الملكية، والأحوال الجهادية ما لا جُمع في كتاب.

ولمّا تكامل هذا الكتاب، وتجهّزت الهدية المباركة، وهي ما نذكر إن شاء اللّه تعالى: «ختمة شريفة، يُذكر أنها خطّ عثمان بن عفّان، رضي اللّه عنه، بغلاف أطلس[٢] مُزَركش، ضمن دَرْج أحمر آدِم، مُبطّن بعتّابي، وكرسيّ لها آبنُوس وعاج مخرّم، بسَقَطْ فضّة[٣]، ومعها هدية عظيمة ما لا توصف. ومن جملة الهدية سيوف قلجورية بأسقاطِ ذهب وفضّة[٤] عدد كثير، ومن الدبابيس والقِسيّ الحلَقَ الدمشقية جملة كثيرة، ومن قسيّ البُنْدُق أوتارها[٥] عدّة كثيرة، ومن جملة الهدية قناديل كبار مذهبة شيء كثير، ومن الجواري الطبّاخات جماعة، ومن الخيل الجياد السُّبَّق عدد كثير. ومن الدوابّ الفُرَّه التي لا تُلحَق عددٌ كثير، وأصناف كثيرة. وما ذكرناها لطول شرحها[٦].

وزاد في الإحسان إلى رُسُل الملك بَرَكَة، ثم جهّزهم وجهّز معهم عدّةً كثيرة من الرُماة والزرّاقين[٧] والجَرَخة[٨]، وحمل معهم مؤنة[٩] سنة من جميع الأشياء على اختلافها/ ٤٢٣ب/ وهي بألوفٍ كثيرة من الدنانير، وهي حوايج خاناه[١٠] ملك كبير.

---

(١) عن هامش المخطوط.

(٢) في الروض ١٧٢ «أطلس أحمر مزركش».

(٣) في الروض ١٧٢ زيادة: «وقفل فضة، خروق بندقي كوامل عدة كبيرة، غزلوقات للصلاة، وسجادات ألواناً متنوعة، أكسية لواقية ألواناً عدّة، من الأديم الدسوت، والأنطاع المسردقة، وسفر الشمعدانات». وقد أشار محقّق الكتاب عبد العزيز الخويطر، بالحاشية رقم (٢) أن هذا النص في «مفرّج الكروب» وذكر الجزء ٢/ ورقة ٤٢٣، وليس في الجزء والصفحة والمخطوط الذين بين أيدينا هذا النص.

(٤) في الروض: «بإسقاط فضة» فقط.

(٥) في الأصل: «وتارها».

(٦) للاستزادة يراجع: الروض الزاهر ١٧٢، ١٧٣.

(٧) الزرّاقون: من الزرّاقة: آلة حربية على هيئة القارورة أو الأنبوب، تحشى من الداخل بكرةٍ من الكتّان والأنسجة المخلوطة بذرّات الحديد، تزرق بزيت النفط وتُشعل وتلقى على الأعداء، يختص باستعمالها صنف من العسكر يُعرفون بالزرّاقين. واحدهم زرّاق. (معجم المصطلحات ٢٢٠).

(٨) الجرخة = الشرخة: الجرخية = الشرخجية: طائفة من الجند العاملين بتجريخ الحجارة وتكسيرها: وكانوا ينتقون من بين الشبّان الصغار والأقوياء البنية، ممن تتراوح أعمارهم ما بين ١٥ و١٦ سنة. (معجم المصطلحات: ٢٧١).

(٩) الصواب: «مؤونة».

(١٠) حوايج خاناه = خانه: لفظ فارسي، معناه: سَلَخَانة، للدلالة على المسلخ، أو المجزر.

ولما تجهّزوا جدّد لهم العطاء والخِلَع والإنعام.

وكتب الملك الظاهر بالدعاء له بمكة، والمدينة، وبيت المقدس. وسافروا في سابع عشر رمضان سنة أحد[١] وستين وستماية. وكذلك فعل بالرسل التي وصلت معهم، وقد شاهدوا من عظمة الملك الظاهر، وكثرة عساكره، ومن الطاعة ومن العدل في الرعيّة. وأقام الشريعة المحمدية ما بهر عقولهم[٢].

[غزو بلاد الأرمن]

ولما انفصلت الرسل، وخلا قلبه، جهّز جيشاً إلى بلاد الأرمن، فنهبوا وأحرقوا وأخرجوا شيء كثير[٣]، وقتلوا وأسروا خلق كثير[٤]. ورجعوا سالمين غانمين بحمد اللّه تعالى[٥].

ذكر توجّهه إلى الإسكندرية رحمه اللّه تعالى

وفي سادس شوّال سنة أحد[٦] وستّين وستماة توجّه الملك الظاهر إلى الصيد بمن (معه من)[٧] أوليائه، ودخل إلى البرّيّة يتصيّد ويُديم الركوب، ويضرب حلَق الصيد ويتفرّج، فحصل له من ذلك شيء كثير وفرحة عظيمة، وهو مع ذلك ينظر في الأحوال، ويقطع ليله في تدبير مَهمّات الإسلام، وقراءة كتب البريد. وكان إذا وصل البريديّ بكرةً سفّره ثالث ساعة من النهار، وإذا وصل ثالث ساعة سفَّرَه الظهر، وهذا كان ترتيبه في سائر أوقات وصول البريدية ويخلع عليهم، وينعم، وهذا (دأْبُه)[٨]. وكذلك على سائر الأمراء الذين معه في الصيد.

واهتمّ، رحمه اللّه، بأمر المياه، وأن يتساوى في ورودها القويّ والضعيف، فولّى، أمرَها أحد حجّابه الأمير شجاع الدين الزاهري[٩]، وأحضر من الإسكندرية

---

(١) الصواب: «سنة إحدى».

(٢) الروض الزاهر ١٧٠ ـ ١٧٤، والتحفة الملوكية ٥١، وزبدة الفكرة ٨٤، ٨٥، ونهاية الأرب ٣٠/ ٨٧، ٨٨، والدرّة الزكية ٩٧، ودول الإسلام ٢/ ١٦٧، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٦١هـ.) ص٨، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨، والسلوك ج١ ق٢/ ٤٩٥، وعقد الجمان (١) ٣٦٠ ـ ٣٦٣، وتاريخ ابن الفرات ٦/ ورقة ٣٠ب.

(٣) الصواب: «شيئاً كثيراً».

(٤) الصواب: «خلقاً كثيراً».

(٥) تقدّم مثل هذا الخبر قبل قليل.

(٦) الصواب: «سنة إحدى».

(٧) عن هامش المخطوط.

(٨) كتبت فوق السطر.

(٩) في الروض الزاهر ١٧٤ «الزاهدي».

الرجال لحفر الآبار ونزجِها[١] من الأكدار. ولما قضى وطره من الصيد توجّه قاصداً إلى الإسكندرية.

وكان الصاحب بهاء الدين قد سبق إلى الإسكندرية، فأحسن إلى أهلها عند دخوله إليها، وأهدى من ماله لواليها وناظرها وأكابرها من الحلاوات شيء كثير[٢]، ولم يشرب لأحدٍ منهم شربة من الماء، وكانت جميع النفقات من ماله، وانتصب لتحصيل/ ٤٢٤أ/ الأموال وتدبير الأحوال، ودخلها قبل الملك الظاهر. ونظر في الأمور بدينه وعفافه وسكونه، فحصّل جُملاً كثيرة من الأموال، وحمل من جملة ما حمل خمسة وتسعين ألف درهم، وخمسة[٣] وتسعين لفّة قماش من أنواع الأمتعة، والحلل، والبندقيّ الرفيع، والجوخ من الأحمر، وغير ذلك، ما لعلّه لا يوجد في خزانة ملكٍ عظيم مثله، فكان قيمتهماية ألف دينار، وحصّل من الأموال ما لا يُحصى كثرة، ولم يعامل أحد[٤] بغير العدل، ولا ضرب معامل بمِقْرَعة ولا شتْم، والفرنج على نِحَلهم وكثرة شكاويهم داعون شاكرون. ونظر في أحوال المدينة ومصالحها. والأسوار والخنادق والفقراء، ووجوه البِرّ كلّها، ورتّب ما يُدعى لأجله بمولانا الملك الظاهر، وهذا شأن الوزير الصالح الذي يجمع لمخدومه بين الدنيا والآخرة، وتكون عينه للإحسان والحسنات ناظرة.

ولما نزل السلطان قريباً من المدينة زُيّنت أحسن زينة، ونُصِبت الأبرجة. وأخرج أهل الإسكندرية ما عندهم من العُدد المُعَدَّة للجهاد من القسيّ، والعَقارات، والزَرَد، والخُوَذ، والطوارق، والحوبات، والجعابي، والكوره[٥]، والكُزاغندات[٦]، وزيّنوا بها الشوارع والأسواق، وهكذا ينبغي أن تكون زينة الثغور.

ولقد رأيت برجاً فيه أحسن ما يكون من العُدّة والكنوره[٧]، فسألت عن ذلك، فقيل: لرجلٍ صبّاغ من بعض العوامّ عمل عُدّة بألفين[٨] دينار، وعنده رجال يقوم بهم وبعدهم بالغُزاة، وعنده صياملة[٩]، وصُنّاع بجامكيّة لأجل افتقاد هذه العُدّة، وهو من آحاد العوامّ الذي لا يُعرفون.

---

(١) مهملة في الأصل.

(٢) الصواب: «شيئاً كثيراً».

(٣) الصواب: «خمساً».

(٤) الصواب: «أحداً».

(٥) هكذا مهملة، ولم أتبين المقصود.

(٦) كزاغند: لباس تخين يقوم مقام الدروع في القتال. واللفظ فارسي.

(٧) هكذا مهملة في الأصل.

(٨) الصواب: «بألفي دينار».

(٩) في الأصل مهملة. و«صياملة» من: صالمة: رتبة عسكرية كان حاملها يرأس وحدة «الصالمة»، وهي وحدة تشبه في أيامنا الشرطة العسكرية أو البوليس الحربي.

قال صاحب التاريخ: كنت حاضر[١] هذا كلّه.

ورَفَق الملك الظاهر بأهل الإسكندرية فأمر أن تُضرب خيمته خارج المدينة، ونادى: لا يقيم في المدينة جنديّ، ولا يخرج أحد من مكانه، فحصل للناس رَمَقٌ عظيم، واستقرّ الناس في أوطانهم.

ولما كان مُستَهلّ [ذي] القعدة سنة أحد[٢] وستّين وستماية ركب الناس على اختلاف/ ٤٢٤ب/ طبقاتهم، واجتمع القبائل والرسل والتّجّار من الفرنج، وجميع الناس على قدر منازلهم إلى لقاء السلطان، فاحترمهم وأحسن إليهم، وساق فدخل من باب رشيد، فتلقّاه أهل إسكندرية بالسرور والفرح والدعاء والابتهال إلى اللّه تعالى بدوام ملكه، ودوام عزّه، ورأى الناس من حُسن صورته، وعِظَم مهابته، ما بهر عقولهم، ووصف ما فعله معهم في تقريبهم منه واستمالة خواطرهم، وتمنّى دوام دولته. ولما[٣] استقرّ في مجلسه حتّى استدعى بالخزائن والأمتعة والخِلَع، وشرع في عرض ذلك بنفسه، وتعبية لمن يعيّنه من الأمراء[٤] على قدر مراتبهم، فاستوعب نهاره كلّه، وأصبح يأمر بمهمّات الثغر وأمور المدينة. وكان قد أمر بأن يكون لقدومه أثر، ولوفوده ذِكر جميل تكتب الملائكة[٥] والناس ذلك في صحائف الأجر الباقيات الصالحات. ورسّم بمكتوب شريف يُقرأ على رؤوس[٦] الأشهاد بصِلة أرزاق الفقراء والمساكين، وشمولهم بالعواطف والمراحم. وأمر بتبطيل ضماناتٍ كثيرة، وهي ألوف عظيمة، وأمر بكسوة الجامع وعمل قناديله وعمارته من ماله.

ولما قرُب وقتُ الجمعة ركب الملك الظاهر وحضر إلى الجامع، وبسط المقصورة التي جرت عادة الملوك أن تصلّي فيها لسماع الخطبة، فجلس تحت المنبر، وخطب الخطيب، فأمره بالدعاء لوليّ العهد بعده الملك السعيد بركة خان، وللملك بركه، وفرغ من الصلاة، وقُرِيء المنشور الشريف بما رسّم للفقراء والمساكين.

ولما كان يوم السبت ركب ولعب بالأُكرة، وشرع فخلع على جميع الأمراء الخِلَع الفاخرة، وكذلك على مقدّمي مماليكه البحرية. وخلع على مقدّمي الحلقة، وخلع على خواصّه، وأعطى للأمير أتابك فارس الدين أقطايا ثلاثة آلاف دينار، وأرضى جميع العسكر.

(١) الصواب: «حاضراً»
(٢) الصواب: «سنة إحدى».
(٣) الصواب: «وما».
(٤) في الروض الزاهر ١٧٥. «وشرع في تعبية ما يعبيه الأمراء».
(٥) في الأصل: «تكبت الملايله».
(٦) في الأصل: «روس».

قال صاحب التاريخ: وجرت نكتة غريبة، وهي أنّ شيخاً كان قد حضر.

وقال: إنّ الشيخ قُطْب الدين العادي[١] قد استؤذن على حضور السلطان/ ٤٢٥أ/ إليه (. . .)[٢] السلطان قد طلب منه الإذن لزيارته، ثم حضر شخصاً[٣] آخر. وقال: إنّ الشيخ قد قال: لا سبيل إلى النزول إليه ولا إلى كلامه إلّا من أسفل البستان. فقال السلطان: أنا رائح للّه تعالى، فمن أيّ مكانٍ شاء يكلّمني.

ولما وصل السلطان أعلم الشيخ قُطْب الدين العارى[٤] بحضور السلطان، فأمر بدخوله إليه، فدخل وحادثه وباسَطَه، وجرى في أثناء ذلك حديث ثغر الإسكندرية وعمارته، فللوقت تقدّم السلطان بإجابة إشارة الشيخ، ووقع بعد ذلك التعيين على القاضي ناصر الدين أحمد ففوّض إليه الخطابة والقضاء، ورسّم له بالخِلَع وكتابة التقليد، وأمر بالوصيّة على القاضي بدر الدين[٥] بن أبي الفَرَج، القاضي المعزول[٦] وكفّ الأذى عنه، وأبقى[٧] جامكيّته، وما كان له عليه، وأن تزاد حُرمته وإكرامه، وعاد بعد ذلك من زيارة الشيخ، أعاد اللّه بركته، ودار على أسوار المدينة ونظر فيها، وأمر بما يجب في أمرها، ومضى[٨] بعد ذلك لزيارة الشيخ الشاطبيّ[٩]، واستعرض حوائجه. فقال الشيخ: ليست لي حاجة، لأنّ راتب السلطان علينا، ونحن في نعمته في إنعام تفضّل علينا، وعنّا. وزار بعد ذلك قبور مشايخ، ودعا عندهم، وعاد في البحر إلى سرير ملكه، وقد كتب اللّه له أجره هذه الخُطى[١٠]، وجعلها له ذخيرة.

قال: صاحب التاريخ: ولما كان يوم الخميس ثامن ذي القعدة[١١] سنة أحد[١٢] وستّين وستماية ركب الملك الظاهر، وحضر إلى مجلس بين الناس الذي جرت العادة بالجلوس فيه. وحضر الأمير الأتابك والصاحب بهاء الدين بن حنا[١٣] والحاكم والأئمّة والعلماء أولي الفتاوى، ووكيل بيت المال والكتّاب. وأزال الملك الظاهر الحُجّاب عن الضعيف والصغير، واليهوديّ، والنّصراني، والمرأة، وتساوى[١٤] الناس

---

(١) هكذا في الأصل. ولم أجد ما يؤيد هذه النسبة في المصادر، لانفراد المؤلّف بهذا الخبر.

(٢) مقدار كلمة مطموسة.

(٣) الصواب: «حضر شخص».

(٤) هكذا في الأصل، وسبق أن ورد: «العادي».

(٥) في الروض الزاهر ١٧٧ «زين الدين».

(٦) في الأصل: «العذول».

(٧) في الأصل: «وأبقا».

(٨) في الأصل: «ومضا».

(٩) الروض الزاهر ١٧٦.

(١٠) في الأصل: «الخطا».

(١١) في الروض الزاهر ١٧٦ «في يوم الثلاثاء سابع ذي القعدة».

(١٢) الصواب: «سنة إحدى».

(١٣) في الأصل: «حني».

(١٤) في الأصل: «وتساوو».

في القرب منه، وصار القويّ به ضعيفاً، والضعيف[1] به قويًا. وأُحضِرت إليه قَصَص الظلامات، فأمر أن تقرى[2] عليه حرفاً حرفاً، وهو يتفهّمها كلّها، ويأمر بما يعتمد فيها، وفي ذلك يستحضر الخصوم، ويسمع كلامهم، ويأمر بإحضار غرمائهم إلى بين يديه[3]، (قال)[4].

(. . . . .)[5].

يا مَلِكاً[6] له الحسام المبيد	وكريماً له العطاء المعيد[7]
لك سيف به الغَوِيّ شقي	ونوال به الوليّ سعيد
شاهد[8] الناس منك يا ملك الأر	ض أموراً بها[9] يلين الحديد
حتى[10] وافى[11] التتر في خلع منـ	ـك وكل صنائع وعبيد[12]

وهي قصيدة طويلة ذكرنا منها ما فيه كفاية خوفاً من التطويل والإملال.

قال الفقير إلى رحمة اللّٰه تعالى وعفوه نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفّري: انتهى إلى ها هنا إملاء، القاضي، الإمام، العالم، العلاّمة، جمال الدين، محمد بن سالم بن واصل، رحمه اللّٰه تعالى، ولم نستوعب حوادث سنة أحد وستين وستماية. وجرت أمور كثيرة، ونحن نذكر بعون اللّٰه تعالى مختصراً من تمام التاريخ على حسب الطاقة ونسأل اللّٰه تعالى المعونة في ذلك، إنه على كل شيءٍ قدير، وإليه المصير.

---

(١) في الأصل: «الضعف».

(٢) الصواب: «تقرأ».

(٣) قارن خبر توجّه السلطان إلى الإسكندرية بما ورد في: الروض الزاهر ١٧٤ ـ ١٧٦، وزبدة الفكرة ٨٤، ومختار الأخبار ٢٥، ٢٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٦٦١هـ.) ص٨، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٣٩، وعيون التواريخ ٢٠/ ٢٩٠، والسلوك ج١ ق٢، ٥٠٠، وعقد الجمان (١) ٣٦٣.

(٤) كتبت لوحدها في آخر الصفحة، وهي نظام التعقيبة.

(٥) هنا نقص ورقة من الأصل (ب).

(٦) في الأصل: «يا ملكاً»، والتصحيح من: الروض الزاهر.

(٧) في الروض الزاهر: «المفيد».

(٨) في الأصل: «شاهدوا».

(٩) في حسن المناقب: لها.

(١٠) في الروض: «حين».

(١١) في الأصل: «وافا».

(١٢) الأبيات في: الروض الزاهر ١٧٩، وحسن المناقب ٤٣ وهي من نظم محيي الدين بن عبد الظاهر.

فهرس المحتويات

مفرّج الكروب
في أخبار بني أيّوب

فهارس الكتاب

حملة لويس التاسع على مصر

وهزيمته فى المنصورة

تأليف

محمد مصطفى زيادة

(سابقاً)
أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

القاهرة

1961

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

ملحق رقم ١

أخبار حملة الملك لويس التاسع على مصر ، منذ قدومها إلى الشواطئ المصرية إلى جلائها نهائياً عن دمياط ، وهى منقولة من مخطوطة ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبـــار بنى أيوب (تاريخ الواصلين ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ ا - ٣٧٤ ا) . انظر صور شمسية بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ ، تاريخ ، وهذه الصور الشمسية مأخوذة من نسخة خطية من هذا الكتاب ، بالمكتبة الأهلية بباريس[1].

(٣٥٦ ا)ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية وتملكهم ثغر دمياط

قال (٣٥٦ ب) ولما كانت ثانى ساعة من نهار يوم الخميس ، لتسع بقين من هذه السنة ، وهى سنة سبع وأربعين وستمائة ، وصلت مراكب الفرنج ، وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها ، فأرسوا فى البحر بإزاء المسلمين .

---

(١) هذا الملحق والذى بعده مادة تاريخية معاصرة ، وكل منهما مأخوذ من مؤرخ خاص ، وهو فى كل من الحالين شاهد عيان للحوادث . وهذه المادة التاريخية بطبيعتها خامة أولية أصلية ، وبها من تبعات هذه الصفات ومستلزماتها ما يتطلب اختبارها أولاً بالجرح والتعديل ، فضلاً عن ضرورة مقارنتها وموازنتها بغيرها من المادة التاريخية بالمراجع المشابهة ، قبل استخدامها على أنها حقائق تاريخية مقبولة . ولذا سوف يجد القارئ بهذين الملحقين عبارات وتواريخ وإشارات لم يأخذ المؤلف بها فى فصول هذا الكتاب ، لعدم وجود ما يؤيدها من المراجع الأخرى ، أولرجحان المادة التاريخية فى تلك المراجع الأخرى على الوارد بهذين الملحقين هنا ، أو لعدم علاقتها المباشرة بموضوع الكتاب .

وفى هذا اليوم ، وهو يوم السبت ، شرعوا فى النزول إلى البحر الذى فيه المسلمون ، وضربت خيمة الملك أريدافرنس ، وكانت حمراء . وناوشهم[١] بعض المسلمين بعض المناوشة . فاستشهد فى ذلك اليوم الأمير نجم الدين بن شيخ الإسـلام ، رحمه الله ، وقد قدّمنا ذكره ، وأنه كان هو وأخوه شهاب الدين يؤنسان الملك الصالح [نجم الدين أيوب] ، وهو بالكرك ، بأمر الملك الناصر داود لهما بذلك ؛ وكان [الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام] رجلاً صالحاً . واستشهد أيضاً من أمراء مصر أمير يقال له الوزيرى .

فلما أمسى المسلمون ، رحل بهم الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى الذى فيه دمياط ، وخلا البرّ الغربى للفرنج .

ولما عدّى[٢] فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والعسكر إلى البرّ الشرقى ، (٣٥٦ ب) رحل العسكر طالباً أشمون طناح . وحصل عند العسكر طمع ، بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين[٣] أيوب ، فلم يكن لهم من يردّهم ولا يردعهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشمون طناح .

وخلا البر الشرقى من عساكر المسلمين ، فخاف أهل دمياط على أنفسهم أن يُستحصَروا . وكان فيهم جماعة من الكنانية شجعان ، فألقى الله

---

(١) فى الأصل " وناوشوهم " ، والتصحيح يقتضيه السياق . وسوف يقتصر تحقيق المتن هنا على نهاية صغرى من تعديل بحذف أو إضافة ، أو ترقيم أو ضبط ، أو تصحيح بعض الألفاظ أو تصويبها ، كما فى هذه الصفحة . أما شرح المصطلحات التاريخية ، والأعلام الجغرافية ، فينبغى الرجوع من أجلها إلى فهارس كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، وغيرها من الفهارس المطبوعة المشابهة ، ومنها ما سوف يظهر قريبا فى آخر الجزء الثالث من طبعة كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، لابن واصل ، بتحقيق الدكتور جمال الدين محمد الشيال ، وهو الذى سمح لى بنقل صفحات هذا الملحق ، من الصور الشمسية التى عنده ، قبل ظهورها فى الطبعة المشار إليها .

(٢) فى الأصل " عدا " .

(٣) فى الأصل " نجم الدين بن ايوب " ، وهو خطأ ، والصحيح ما بالمتن .

سبحانه وتعالى الرعب فى قلوبهم ، فخرجوا هم وأهل دمياط على وجوههم طول الليل . ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفراً من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشموم طناح .

وكان هذا فعلاً قبيحاً منهم ، ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط ، فإن دمياط فى الكرّة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل ، كانت أقلّ ذخائر وعدداً(١) ، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة . فلما نوزلت سنة خمس عشرة وستمائة ، وأخذت سنة ست عشرة وستمائة ، لم يتمكن العدوّ منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع .

والكنانية وأهل دمياط لو غلّقوا أبوابها ، وتحصّنوا بها ، بعد رجوع العسكر إلى أشموم طناح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العساكر ردّت إليهم ، ومنعت [الفرنج] عنهم ، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم فى غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين ، أو أكثر من ذلك ؛ ولكن إذا أراد الله أمراً فلا مردّ له .

ولكن أهل دمياط كانوا معذورين ، لأنهم لما رأوا هرب العساكر ، وعلموا مرض السلطان ، خافوا أن يستمرّ عليهم الحصار مدة طويلة ، فيهلكوا جوعاً ، كما هلك أهل دمياط فى المرة الأولى .

قال ولما أصبح الصباح يوم الأحد ، لسبع بقين من صفر ، جاء الفرنج إلى دمياط ، فوجدوها صفراً من الناس ، وأبوابها مفتحة ، فملكوها صفواً وعفواً ، واحتووا على ما كان فيها من العدد والأسلحة ، والذخائر والأقوات والمناجيق(٢) ؛ وكانت هذه مصيبة عظيمة لم يجر مثلها .

---

(١) فى الأصل " وعدد " .

(٢) كذا فى الأصل .

قال صاحب التاريخ ، ووردت يوم الأحد إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبي على الهذبانى ، وأنا عنده ، بطاقة[١] بذلك ، فاشتد الجزعُ[٢] والخوف ، ووقعَ [الرعب[٣] بين] الناس (١٣٥٧ ا) بالديار المصرية بالكلية ، والسلطان مريض ، وقد ضعفت قواه عن الحركة ، وليس قد بقى له قدرة على ضبط جسده ، وقد اشتد طمعهم فيه .

ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان حنق على الكنانيين حنقاً شديداً ، وأمر بشنقهم ، فشنقوا جميعاً . وتألم [السلطان] مما فعله فخر الدين والعسكر ، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإغضاء[٤] عما فعلوه .

ذكر رحيل السلطان الملك الصالح [وعساكره] إلى المنصورة ونزولهم بها

ولما جرى ما ذكرناه ، رحل السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى المنصورة ، فنزل بها ، وهى المنزلة التى كان أبوه [السلطان] الملك الكامل نزلها ، [فى] نوبة دمياط الأولى ، وهى شرقى النيـــل فى قبالة جوجر[٥] ، وبينها وبين الجزيرة — التى هى برّ دمياط — بحر أشموم طناح .

---

(١) فى الأصل " لطافة " ، والصحيح ما بالمتن .

(٢) فى الأصل " الجوع " ، والمثبت بالمتن يقتضيه السياق .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين لاستكمال المعنى الأقرب للمقصود .

(٤) فى الأصل " الاعفاء " .

(٥) فى الأصل " وجوحر " ، والصحيح ما بالمتن . انظر ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤٢) ، حيث ورد أن جوجر " بليدة من جهة دمياط فى كورة السمنودية " . ويلاحظ أن ورود اسم هذه القرية التى لاتزال توجد حتى العصر الحاضر ، جنوبى طلخا الحالية ، هو أول إشارة معروفة ، للدلالة على موضع المنصورة الأولى ، وليس فى المراجع والخرائط المتداولة هنا ما يضيف إلى هذا التعريف ، المذكور هنا . انظر كذلك على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٠ ، ص ٧٠ .

وكنا ذكرنا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان أمر ببناء الأبنية فيها ، وجعل بينها وبين البحر سوراً . و [كان] لأبيه الملك الكامل فيها قصرٌ[1] عالٍ على بحر النيل ، فنزله الملك الصالح ، وضرب دهليزه إلى جانبه . وكان استقرار السلطان [الملك الصالح] بالمنصورة يوم الثلاثاء ، لخمس بقين من صفر .

وشرعت العساكر فى تجديد الأبنية ، وقامت بها الأسواق ، وأُصلح السور الذى على البحر ، وسُتّر بالستائر . وجاءت الشوانى والحراريق ، وفيها العدد الكاملة والمقاتلة ، فأرسوا قُدّام السور .

وجاء إلى المنصورة من الرجالة والحرافشة ، والغزاة المطوعة ، من سائر النواحى ، خلقٌ كثيرٌ ، لا يقع عليهم الإحصاء .

وورد[ت] من العربان أمم كثيرة ، وشرعوا فى الإغارة على الفرنج ومناوشتهم . وحصّن الفرنج أسوار دمياط ، وشحنوها بالمقاتلة .

وفى يوم الاثنين سلخ ، ربيع الأول ، ورد إلى القاهرة من أسارى الفرنج الذين تخطفتهم العربان وغيرهم ، ستة وأربعون أسيراً ، منهم فارسان .

وفى يوم السبت ، لخمس مضين من ربيع الآخر ، وصل أيضاً منهم تسعةٌ وثلاثون أسيراً ، أسرتهم العرب والخوارزمية ، [قرب غزة][2] .
ثم دخل منهم إلى القاهرة أيضاً اثنان وعشرون أسيراً ، أخذوا من غزة . وكان دخولهم لسبع مضين (٣٥٧ ب) من ربيع الآخر .

وفى يوم الأربعاء ، لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر ، وصل أيضاً منهم خمسة وثلاثون أسيراً ، منهم ثلاثة من الخيالة .

---

(١) فى الأصل " قصرا عالى " ، والتصحيح والإضافة للتوضيح .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين استنادا إلى المعروف بشأن الخوارزمية ، وهو أنهم كانوا ممنوعين من دخول الأراضى المصرية ، وذلك بأمر السلطان الصالح أيوب ، أى أنه لم يوجد أحد منهم فيما وراء غزة من البلاد . ولذا كان وقوع أولئك الأسرى الصليبيين فى أيديهم فى هذه المنطقة ، دون غيرها من المناطق المصرية . انظر كذلك الفقرة التالية ، حيث يرد اسم مدينة غزة على أنه مصدر لفئة أخرى من الأسرى .

وورد يوم الجمعة ، لخمس بقين من ربيع الآخر ، بأن عسكر السلطان الملك الصالح بدمشق خرجوا إلى صيدا ، وتسلّموها من الفرنج .

ثم كان بعد كلّ قليل يصل من الفرنج أسارى ، جمعٌ بعد جمعٍ .

ووصل منهم ، لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، خمسون أسيراً[1] .

وكل هذا يجرى والسلطان الملك الصالح يتزايد مرضه ، وقواه تضعف وتتلاشى ، والأطباء ملازمون له ليلاً ونهاراً ، وقد وقع يأسهم من عافيته ، ونفسه مع ذلك وعزيمته فى غاية القوة . وتعاضَدَ عليه مرضان عظيمان ، [وهما] الخرّاجة فى مخاصيه والسلّ .

ذكر تسليم الكرك إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب

قال صاحب التاريخ ، ولما ضاقت الأمور على الملك الناصر داود بن الملك المعظم [عيسى] بالكرك ، مع قلة سعده ، استناب بالكرك ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى ، وأخذ ما يعزّ عليه من الجواهر ، ومضى فى البرية إلى حلب ، وقد زالت السعادة عنه ، مستجيراً بالسلطان الملك الناصر [يوسف] صاحب حلب ، [وهو] بن الملك العزيز ، وملتجئاً إليه ، كما فعل عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل . فأنزله الملك الناصر [يوسف عنده بحلب] ، وأكرمه غاية الإكرام . ثم إن[2] [الملك الناصر داود] سيّر ما معه من الجواهر إلى بغداد ، لتكون وديعة عند الخليفة المستعصم بالله . فلما وصل الجوهر[3] إلى بغداد ، قبضه [الخليفة] . وسيّر إلى الملك الناصر [داود] خطّه بقبضه[4] ، وأراد الملك الناصر

---

(١) فى الأصل " خمسين " .

(٢) فى الأصل " انه " وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للإيضاح .

(٣ ، ٤) فى الأصل " فلما وصل الجوهر إلى بغداد وقبض وسير إلى الملك الناصر خط بقبضه . . " ، والتعديل يقتضيه السياق .

بذلك أن يكون آمنا عليه ، بكونه مودعاً فى دار الخلافة ، فلم تقع عينه بعد ذلك عليه . و [هكذا] كان [هذا الجوهر] رزقاً للتتر ، ساقه الله إليهم ، لما أخذوا بغداد ، وقتلوا الخليفة . [و] ذكر الملك الناصر [داود] أن قيمة الجوهر الذى بعثه إلى بغداد يزيد على خمسمائة ألف دينار ، إذا بيع بالهوان ، فإنه يزيد على ذلك .

وكان ولده الملك المعظم [شرف الدين عيسى] الذى تركه نائباً عنه بالكرك ، أمه أم ولد تركية ، كان يميل إليها الملك الناصر داود ميلاً كثيراً . وكان الملك الناصر يحبه أكثر من محبته لإخوته الباقين . وكان له ولدان من ابنة عمه الملك الأمجد بن الملك العادل ، هما أكبر من ابنه الملك المعظم [عيسى] ، وهما الملك الناصر شادى ، والملك الأمجد حسن . والملك الظاهر أكبر أولاده ، وُلد له بقلعة دمشق ، قبل أن تؤخذ دمشق منه . وكان ابنه أيضاً الملك الأمجد نبيهاً فاضلاً ، مشاركاً[1] فى علوم شتى . وكان له أولاد من أمهات شتى ؛ فلما قدّم الملك الناصر [داود] ولده الملك المعظم [عيسى] ، تألّم الباقون من ذلك ، وخصوصاً ولداه لابنة عمه ، لكبر سنهما ، وتميّزهما فى أنفسهما عن الباقين .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، لما كان بالكرك ، كانت أمهما بنت الملك الأمجد تخدمه ، وتقوم بمصالحه كلها ، لأنها ابنة عمه ، ولوصية زوجها الملك الناصر داود لها بذلك . فكان ولداها الملك الظاهر والملك الأمجد يأنسان بالملك الصالح ، ويلازمانه فى أكثر الأوقات . واتفق مع ذلك مضيعة[2] الوقت ، وتطاول مدة الحصر ، فاتفقا مع أمهما على أخيهما الملك المعظم [عيسى] ، ففعلا ذلك ، واستوليا على الكرك ، لذهاب الملك منهما . ثم عزما على تسليمها إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يأخذا منه عوضاً عنها . فسار الملك الأمجد إلى المعسكر بالمنصورة ،

---

(١) فى الأصل " مشارك " .

(٢) فى الأصل " ضيقة " .

فوصل إليه يوم السبت ، لتسع مضين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة . وقرّر [الأمجد] مع السلطان الصالح تسليم الكرك إليه ، وتوثق منه لنفسه ولإخوته ، وطلب[1] منه خبزاً بالديار المصرية ، ليقوم بهم[2] . فأكرمه الملك الصالح ، وقد أقبل عليه إقبالا كثيراً ؛ وسيّر إلى الكرك الطواشى بدر الدين الصوابى متسلّماً لها ، ونائباً عنه بها .

وبعد ذلك وصل إلى المعسكر[3] أولاد الملك الناصر جميعهم ، وأخواه الملك القاهر عبد الملك ، والملك المغيث عبد العزيز (٣٥٨ ب)، [ومعهما] أولاد الملك المعظم ، ونساؤهم[4] وجواريهم ، وغلمانهم وأتباعهم ؛ وأقطعوا إقطاعات جليلة ، ورتبت [لهم] الرواتب الكثيرة . وأنزل[5] أولاد الملك الناصر ، الأكابر منهم ،و [أنزل] إخوته فى الجانب الغربى ، قبالة المنصورة .

وفرح الملك الصالح نجم الدين أيوب بأخذ الكرك فرحاً كثيراً ، مع ما هو فيه من المرض . وزينت القاهرة ومصر ، وضربت بالقلعتين البشائر . وكان تسلم الملك الصالح نجم الدين أيوب الكرك يوم الاثنين ، لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة .

وفى يوم الخميس ، لثلاث عشرة ليلة مضت من رجب ، وصل إلى القاهرة من أسارى الفرنج سبع وأربعون[6] أسيراً أيضاً منهم ، حتى امتلأت القاهرة بالأسارى .

---

(١) فى الأصل " وطلبا " ، ولعل الصحيح ما بالمتن .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل " العسكر " ، وسوف يدأب الناشر على إيراد الصيغة المثبتة بالمتن هنا ، فيما يلى ، بغير تعليق .

(٤) فى الأصل " ونسابهم " .

(٥) فى الأصل " وانزلوا " .

(٦) فى الأصل " واربعين " .

ذكر وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل رحمه الله تعالى

قال وتزايد المرض بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واشتدّ . وكان كما ذكرنا مرضان : من مخاصيه والسلّ . وما كان يشعر بالسلّ ، وإنما كان يظن أن عجزه وضعفه عن الحركة إنما هو بسبب الجرح الذى فى بيضه . و[فى] آخر المرض قلّت الموادّ ، وفنيت ، فجفّ الجرح ؛ فكتب [السلطان الصالح] إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] يبشّره بذلك ، ويعلمه بعافيته ، وأن الجرح قد برأ ، وما بقى إلا الركوب واللعب بالصوالجة[١] .

وكان عند[٢] [السلطان الصالح] بالمعسكر من الأطباء الرشيد المعروف بأبى حليقة[٣] ، [وهو] طبيب والده الملك الكامل . وكتب [السلطان الصالح] إلى حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] يطلب منه إنفاذ الحكيم موفق الدين بن أبى الفضل الحموى ، فسيره إليه . ثم بعث [السلطان الصالح] يطلب منه إنفاذ الحكيم فتح الدين ابن أبى الحوافر ، فسيره إليه . فوصل [ابن أبى الحوافر] إليه قبيل موته بأيام ، وقد ضعفت قواه ، وامتنع عن تناول الغذاء ؛ فلم يحضر [ابن أبى الحوافر] عنده .

ولما مات[٤] الملك الصالح نجم الدين أيوب أحضر الحكيم [فتح الدين] ليتولى غسله ، وقُصِد بذلك (١٣٥٩) كتمان موته ، فإن غيره لو دخل ارتيب به ، وتفطّن بموته . وانتقل الملك الصالح إلى رحمة الله تعالى ورضوانه ، وهو فى مقابلة الفرنج ، مرابطاً مجاهداً ، فى سبيل الله تعالى . وكانت وفاته ليلة الأحد ،

---

(١) فى الأصل " الصوبلجة " .

(٢) فى الأصل " عنده " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للتوضيح .

(٣) فى الأصل " خليفة " .

(٤) فى الأصل " ومات الملك الصالح نجم الدين بن ايوب ولما مات احضر الحكيم ... " ، والتعديل بالتقديم والتأخير ، والإضافة بين حاصرتين ، يقتضيه السياق . انظر ما يلى ، ص ٢٨١ .

لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان ، من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة . فكانت مدة ملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما ، وكان عمره نحو أربعين سنة ، لأن مولده سنة ثمانٍ (١) وستمائة .

ذكر سيرته رحمه الله تعالى

كان الملك الصالح رحمه الله تعالى ملكاً مهيباً ، عزيز النفس عن أموال الرعية ، حَشِماً عفيفاً ، طاهر اللسان والذيل ، لا يؤثر الهزل ولا العبث ، شديد الوقار ، كثير الصمت . واشترى من المماليك الترك ما لم يشتره غيره من الملوك ، ولا أحدٌ من أهل بيته ، حتى صاروا معظم عسكره ، منهم سيف الدين قلاون الألفى ، وركن الدين بيبرس [البندقدارى] الصالحى ، وعز الدين [أيبك] التركمانى ، وغيرهم ، ومن هؤلاء وأشباههم .

وكنا ذكرنا الأمير ركن الدين بيبرس الذى أعدمه ، كان من مماليك الملك الكامل ، وأن الملك الصالح لما رأى من غدر الأكراد وغدرهم به ، يوم أُخذت دمشق ، وثبات مماليكه معه ، لمّا فرّ الناس عنه بقصر معين الدين بالغور ، مال إلى مماليكه ورجّحهم . وصار [السلطان الصالح] لما ملك مصر يقطع [أخباز] الأمراء الذين [كانوا] عند[ه من أيام] أبيه وأخيـــه ، ويعتقلهم ، وكلما قطع خبز أمير جعل مملوكا(٢) من مماليكه بموضعه ، حتى صار أكثر الأمراء [من] مماليكه .

واشترى [السلطان الصالح] بمصر جماعة كثيرة من الترك ، وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه ، وسماهم البحرية . وصاروا عسكراً كثيراً فى نهاية الشهامة والشجاعة ، انتفع المسلمون بهم غاية الانتفاع ، لما طرقت الفرنج البلاد ، وخصوصاً يوم الكبسة ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ،

---

(١) فى الأصل " ثمانية " .

(٢) فى الأصل " مملوك " .

فهم كانوا أنصار الإسلام يومئذ ، وعدته وعمدته ، وبهم انتصر المسلمون على التتر بعد ذلك .

قال القاضى جمال الدين بن واصل ، (٣٥٩ ب) صاحب هذا التاريخ ، وحكى لى حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، رحمه الله تعالى ، أن هؤلاء المماليك ، مع فرط جبروتهم وسطوتهم . بلغ من عظيم هيبة الملك الصالح نجم الدين أيوب [عندهم] ، أنه كان إذا خرج [الملك الصالح] ، وشاهدوا صورته ، يرعدون منه ، ولا يبقى أحد منهم يجسر يتحدث مع أحد ، وأنه كان مع هذه الشهامة العظيمة والهيبة البالغة ، لا يكاد يرفع طرفه إلى محدثه حياءً منه وخفراً[١] ، وأنه لم يُسمع منه قطّ فى شتمه لغلمانه لفظٌ[٢] فيه هجر ، ولا ينطق حال غضبه بكلمة قبيحة قطّ ، وأكثر ما كان يقول إذا شتم [أحداً] : " يا متخلف " ، لا يزيد على هذا .

وكان [السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب] مع هذه الطهارة فى اللسان ، طاهر الذيل ، لم يعرف إلا الحلال ، من جارية مملوكة له ، أو زوجة له ، مع أنه كان قليل العناية بأمر الباه . [و] لم يكن عنده فى آخر وقت غير زوجتين : إحداهما هى المعروفة ببنت العالم ، تزوّجها بعده الجوكندار أحد مماليكه ، والأخرى شجر الدر[٣] والدة [ابنه] خليل ، وهى التى دُعِى لها بالسلطنة بعد ابنه الملك المعظم [تورانشاه مدّة] ، وتزوجها الملك المعزّ عزّ الدين أيبك التركمانى ، وكان من أمرها وأمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل " وحعرا " ، من غير نقط ألبتة .

(٢) فى الأصل " لفظا " .

(٣) فى الأصل " شجرة الدر " ، وفى مواضع أخرى بالمتن بدون ياء التأنيث ، كما هنا . والناشر يفضل هذه الصيغة الثانية ، ويلتزمها فى سائر المتن ، بدون تعليق ، لأنها هى الصيغة الغالبة فى مختلف المراجع والنقوش المعاصرة .

وحكى أن الملك الصالح نجم الدين كان إذا جلس مع ندمائه ، ويلعبون عنده ، لا يحصل عنده من الخفة والطرب ما يحصل عند غيره ، بل إنه يكون صامتاً لا يتزعزع ولا يتحرك ، وعليه السكينة والوقار ، وجلساؤه لما يرون من وقاره يلزمون هذه الحالة ، ويكون كأن الطير على رؤوسهم .

و [الملك الصالح نجم الدين] إذا تكلّم مع بعض خواصه تكلّم كلمات نزرة[١] فى غاية الوقار ، وتكون تلك الكلمات متعلّقة بمهمّ عظيم ، من استشارة فى أمر ، أو تقدّمٍ بأمر من الأمور المهمة ، لا يعدو حديثه فى غالب أحواله هذا النحو ؛ ولا يتكلم أحد قط بين يديه إلا جوابا . وعند ما لا يكون فى مجلس الأنس ، يكون منفرداً بنفسه ، لا يدنو منه أحد ، والقصص ترد إليه مع الخُدّام .

وكان [الملك الصالح نجم الدين] حسن العقيدة (١٣٦٠) ، حميد الطوية ، ومع ذلك فإنه[٢] ما كان له ميل إلى مطالعة الكتب والعلوم .

وكان يحب أهل الفضل والدين ، ويجرى عليهم الجامكيات والجرايات ، ويحسن إليهم ، ولكنه كان قليل المخالطة لهم ولغيرهم ، لمحبته للعزلة[٣] والانفراد ، ولا يجتمع كثيراً بندمائه إلا على الوجه الذى ذكرتُ من الانقباض والسكينة .

وكانت همته عالية جداً ، ينمو[٤] على الاستيلاء على المعاقل والحصون ، والانفراد بها لنفسه .

وكان ميالاً[٥] إلى العمارة واتخاذ الأبنية العظيمة ، ويباشرها بنفسه ؛ وعُمل له من ذلك ما لم يُعمل [لأحد] من ملوك زمانه . [و] بنى القصور

---

(١) فى الأصل " نذره " .
(٢) فى الأصل " انه " .
(٣) فى الأصل " بالعزلة " .
(٤) كذا فى الأصل .
(٥) فى الأصل " مايلا " .

التى فى وسط قلعة الجزيرة ، غرم عليها جملا عظيمة من المال . وهذه الجزيرة كانت متنزهاً للملوك ، وكان للملك الكامل فيها قصر يتنزه [فيه] على الأحايين ، ومقعد يعرف بالبانياسى . فبنى الملك الصالح فيها من الدور العظام والقصور ما لم يبن مثله من جميع الملوك ، ولا أكاسر العجم فى قديم الزمان ، يحار الناظر إذا دخلها ، ورأى ما فيها من الذهب العظيم ، والزخرفة الكثيرة ، والرخام الفاخر . وجعل [الملك الصالح] فى المقعد المعروف بالبانياسى طاقات عظام بالشبابيك الحديد على البحر ، وشاذروانين للماء ، وبينهما بحرة كبيرة ، كلها معمولة بالرخام الفائق . ويلى المقعد من جهة الشرق بستان فيه صنوف المحمضات . ويخرّج من هذا المقعد إلى قاعات مزخرفة فى غاية الحسن ، تنفذ من كل واحدة إلى أخرى ، كثيرة العدد . وفى آخرها مجلس عظيم برسم مدّ السماط ، فيه من الذهب والترخيم البديع ، والنحت[1] المذهب ، ما لا يمكن التعبير عنه ، ولا عن وصف حسنه ، بل خبره أبدا يصغر الخبر عنه[2] .

وكانت هذه الجزيرة لا يحيط بها الماء إلا أيام الزيادة ، [و] فى معظم الأيام[3] يكون [الماء] أبدا غربها . فلم يزل السلطان الملك الصالح يتحيّل بتغريق السفن فى البحر من جهة الغرب (٣٦٠ ب) إلى أن انصرف شطر من الماء عظيم إلى جهة الشرق . وصار الماء يحيط بها من الجانبين دائما ؛ وصار بينها[4] وبين مصر بحرٌ زاخرٌ ، فنصب عليه جسراً يُجاز عليه من مصر إليها .

وبنى [الملك الصالح] أيضاً على البحر من جهة اللوق قصوراً أيضاً[5] فى غاية الحسن ، وجعل إلى جانبها ميداناً يضرب فيه بالصوالجة ، وكان الملك الصالح مُغرّى بها .

---

(١) فى الأصل " المحب " ، بغير نقط .
(٢) كذا فى الأصل .
(٣) فى الأصل " البحر " .
(٤) فى الأصل " بينهما " .
(٥) كذا فى الأصل ، وهى مكررة فى الجملة .

وبنى قصراً عظيماً بين مصر والقاهرة ، على تلٍّ عالٍ فى غاية الحسن والإشراق ، وسماه الكبش ، وقصوراً حسنة فى بستان الخشاب .

وكذلك بنى بالعلاقة[١] والسانح ، وأمر باختطاط بلدة بالسانح ، فرتب قصوره [بها] ، وسماها الصالحية . وبالجملة فكانت همته فى العمارة وبناء[٢] الآدر والقصور لا يشبهها همة .

وكان للملك الصالح نجم الدين أيوب ثلاثة[٣] بنون ، لما ورد[٤] إلى دمشق من الشرق ، أكبرهم الملك المغيث فتح الدين عمر ، وأوسطهم الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ، وأصغرهم الملك القاهر . وكان يحب الملك المغيث ويؤثره جداً ، لأنه كان يناسبه فى كثرة العقل والسكون ، والشهامة والنجابة ، فاستصحبه معه لما قدم إلى دمشق ، واستصحب معه أيضاً ابنه الأصغر الملقب بالقاهر . وترك ابنه الأوسط الملك المعظم [تورانشاه] بآمد ، وكان مرتِّباً معه فيها الأمير حسام الدين محمد أبى على [الهذبانى] .

وكان الملك المعظم [تورانشاه] يميل إلى العلوم ، ويجتمع بالفقهاء ويباحثهم ، ويعرف شيئاً من الخلاف والفقه والأصول والأدب ، إلا أنه كان عنده هوج واضطراب ؛ وكان أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب يكرهه لذلك . وكان جدّه الملك الكامل يحبّه ، فكان يلقى عليه — وهو صغير — المسائل العويصة فى العلوم ، ويأمره أن يعرضها على من يحضر مجلسه من العلماء ، ويمتحنهم بها .

ثم جرى للملك المغيث [عمر] من موته معتقلاً بقلعة دمشق ما جرى ، فى حبس الملك الصالح عماد الدين إسماعيل . ومات الملك القاهر ، وهو ابن

---

(١) فى الأصل « العلاقة » .

(٢) فى الأصل « وبنى » .

(٣) فى الأصل « ثلاث » .

(٤) فى الأصل « ولما » .

الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو الأصغر ، بقلعة دمشق أيضاً ، قبل أن يأخذها الملك الصالح إسماعيل أيضاً ، وقد ذكرناه .

ولما قدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشرق ، كان قد استدعى حسام الدين محمد بن أبي على [الهذبانى] من آمد ؛ وبقى [الملك المعظم تورانشاه] بآمد . فجاءت عساكر الروم مع الحلبيين ، وحاصروا آمد ، كما ذكرنا ، وأبقوا حصن كيفا للملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين ، مع قلعة الهيثم ؛ فأقام [تورانشاه] بها إلى أن مات أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وكان وُلد للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو معتقل بالكرك ، ولده خليل من أم ولده المسماة شجر الدر . وكان قد عقد عقده عليها ، وصارت زوجة له . وورد معه ولده خليل إلى القاهرة ، لما ملكها ، ومات خليل فى حياة أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب صغيراً .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، لكراهته لابنه الملك المعظم [تورانشاه] ، لم يأذن له فى القدوم عليه إلى مصر ، مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ، ويكون ولىّ عهده إذا مات . وبلغ من كراهيته له ما أخبرنى [به] الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، قال : " قال السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، إذا قُضى علىّ بالموت ، فلا تسلّم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه " .

ولما مرض [السلطان الملك الصالح] المرضة التى مات فيها[1] ، كانت نفسه قوية ، وأمله متسعاً ، ولم يغلب على ظنّه أنه يموت من مرضه[2] ذلك . وكان به ما قدمنا ذكره : الخرّاجة والسلّ . ولم يكن

---

(١) فى الأصل " فيه " .

(٢) فى الأصل " موضعه " .

يشعر أن به سلاًّ ، بل كان يجتهد في مداواة الخرّاجة[١] ، فورد عليه السلّ قبل موته بأيام يسيرة ، كما ذكرنا . وكانت الخرّاجة لمّا انقطعت عنها المواد ختمت وصلحت . وكتب [الملك الصالح] كتابا[٢] إلى حسام الدين محمد بن أبي علي : " إن الخرّاجة التي فيّ قد صلحت ، وختمت الرطوبات التي فيها ، ولم يبق إلا ركوبي ولعبي بالصوالجة[٣] . فتأخذ بحظك من هذه البشرى " ؛ فسرّ (٣٦١ ب) حسام الدين بذلك .

قال صاحب التاريخ ، فأوقفني حسام الدين على كتابه ، وقد كنتُ أسمع من الأطباء حقيقة مرضه . ولم يكن جفاف الخراجة إلا بسبب[٤] فناء الموادّ ، كما ذكرنا ، مع ضعف[٥] القوة عن دفع شيء مما بقي منها[٦] ؛ فلذلك تمّ قبض الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولم ينصّ [الملك الصالح أيوب] على من يقوم بالأمر بعده ، ولو أوصى لما خرج عن حسام الدين محمد بن أبي علي [الهذباني] ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . و [أما] فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، فلم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة ، سيما و [أنه] كان متألماً منه ، لرجوعه بالعساكر عن دمياط ، وتهاونه بها حتى أخذها الفرنج .

---

(١) في الأصل " الجراحة " ، انظر السطر السابق هنا ، وسوف يلتزم الناشر هذه الصيغة ، فيما يلي بالمتن ، بغير تعليق .

(٢) في الأصل " كتاب " .

(٣) في الأصل " بالصولجة " .

(٤) في الأصل " سبب " .

(٥) في الأصل " وضعف " .

(٦) في الأصل " اليها " .

ذكر قيام الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بعد موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بتدبير المملكة .

قال ولما توفى السلطان الملك الصالح ، أحضرت شجر الدرّ زوجة الملك الصالح ، الأميرَ فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسن ، وهو كان[1] أقرب الناس إلى السلطان الملك الصالح ، وإليه كان القيام بأمر مماليكه . وأمرتهما [شجر الدرّ] بكتمان موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، خوفاً من الفرنج ، فإنهم كما ذكرنا قد ملكوا ثغر دمياط ، وفيها من جموعهم ما لا يحصى ولا يعدّ ، وهم على شرف[2] الاستيلاء على مملكة الديار المصرية .

واتفقوا جميعهم على أن يقوم بتدبير المملكة الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، إلى أن يقدم الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من حصن كيفا ، وأن يَحلِف الناس للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولابنه الملك المعظم [تورانشاه] بعده بولاية العهد ، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر ، والقيام بأمر الملك .

ثم أُحضر الحكيم فتح الدين بن أبى الحوافر ، رئيس الأطباء ، وهو أحد حكماء السلطان [الصالح نجم الدين أيوب] . وكان كما تقدّم ذكره قد استدعاه السلطان ليداويه[3] ، فسيره حسام الدين من القاهرة إليه ، فوصل إلى (١٣٦٢) المعسكر المنصور ، وقد شارف السلطان الموت . فلما مات أحضروه ، ليغسل السلطان والصلاة عليه ، لئلا يُرتابَ بدخول

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل " ليداوه " .

غيره إذا دخل بهذا الغرض . فغسّل فتحُ الدين الطبيب السلطانَ ، وكفّنه ، وصلّى عليه ، وجعله فى تابوت ؛ وكُتم موت السلطان عن كل أحد .

قال : واستمر الأطباء يلازمون الدهليز [السلطانى] غدوةً وعشيةً ، ليظنّ الناس أن السلطان مريض . ونُقل التابوت الذى فيه السلطان سرًّا إلى قلعة الجزيرة ، فترك بها إلى أن نقل إلى القاهرة ، فيما بعد ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم أحضرت [شجر الدرّ] الأمراء بالدهليز السلطانى ، وقيل لهم : " إن السلطان قد رسم أن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة " ؛ فأجابوا كلهم إلى ذلك ، وحلّفوا الأمراء والأجناد ، ومماليك السلطان .

ثم ورد المرسوم إلى القاهرة إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، بأن يحلّف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة ، على ما وقع التحليف عليه بالمنصورة ، وأن يخطب على المنابر للملك المعظم [تورانشاه] ، بعد أبيه السلطان الملك الصالح . فحضر قاضى القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن قاضى القاهرة والوجه البحرى ، وبهاء الدين زهير كاتب الإنشاء ، وكان الملك الصالح قد عزله لأمرٍ قد نقمه عليه ، وحضر[1] إلى القاهرة [لهذا الغرض] شمس الدين باخل[2] ، [وحضر] غيرهم من الأجناد وأرباب الدولة ؛ ووقع التحليف على الوجه المذكور ، يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان .

---

(١) فى الأصل " وحضروا " .

(٢) فى الأصل " باحل " ، بغير نقط ألبتة .

ثم استدعى بهاء الدين زهير إلى المعسكر [بالمنصورة] ، فمضى [إليه] ، ورجع إلى منصبه .

وبولغ فى كتمان موت السلطان الملك الصالح عن كل أحد ، من كبير فى الدولة وصغير ، حتى على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، نائب السلطنة بالديار المصرية . وكانت الكتب تردُ من المعسكر [بالمنصورة] إليه ، ويُكتب فيها علامة السلطان التى صورتها : " أيوب ابن محمد بن أبى بكر بن أيوب " ، بخط يشبه خطه جداً ؛ وكان يكتبها خادم من خدام السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، يعرف بالسهيلى . وكان حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] يظن أن السلطان حىّ ، وأن الخط الوارد إليه فى الكتب خطه .

قال جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ . و [أما] أنا فقد كان تحقق عندى موته بقرائن كثيرة ، [ومنها] أنه يوم التحليف الذى جرى بالقاهرة ، قال لى ابن طبيبه الذى يباشره ويعرف حقيقة مرضه : " إنى فارقت المعسكر ، والسلطان رحمه الله قد امتنع عن الغذاء بالكلية ، وسقطت[١] قواه ، ولا شكّ أنه قد مات " . وعلمتُ من جهة قريبة أخرى ، أقوى القرائن عندى ، وهو أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ما كان يثق بالأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، بالثقة التى توجب أنه يفوّض إليه الأمور بعده ، وهو يعرف همة فخر الدين وتعاليها ، وأنه يوم ملَكَ السلطان الملك الصالح مصر ، وأطلق فخر الدين [من سجنه الذى كان به بقلعة الجبل ، منذ أيام الملك العادل الصغير][٢] ركب فخر الدين ركبة عظيمة ، ودعا له المصريون ، واحتفوا[٣] به .

---

(٣) فى الأصل " وسقط " .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٠) ، والمقريزى (كتاب السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٢٧٦) ، حيث توجد معلومات إضافية كثيرة ، بشأن حياة الأمير فخر الدين .

(١) فى الأصل " واحفوا " .

فأوجب ذلك أن استشعر [السلطان الملك الصالح] منه ، وألزمه داره ، كما تقدّم ذكره ، إلى أن مات أخوه[١] الصاحب معين الدين [بن شيخ الشيوخ] بدمشق ، فاحتاج السلطان إلى الاستعانة بفخر الدين يوسف ، لشهامته ونجابته ، فأخرجه وقدّمه .

وكان السلطان الملك الصالح لا يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، حتى إنه فى السفرة الأولى قال له : " إنى أسافر ، وأخاف أن يعرض لى موت ، وأخى فى قلعة الجبل ، فربما استولى على الأمر ، فيهلككم " ، وذكر له أشياء شتى ، [مما] لا يمكننى أن أسطره . وقال له مرة أخرى : " إن حدث بى موت ، فسلّم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله ، يرى فيها رأيه " ، وقد تقدم ذكر ذلك .

ثم جرى من فخر الدين يوسف [ما جرى] ، من رجوعه عن ثغر دمياط ، حتى بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا أمرٌ عظيم ، وحنق عليه ، وعلى جماعة من الأمراء الذين كانوا مع فخر الدين ؛ ولم يتمكن [الملك الصالح] فى ذلك الوقت الصعب أن يحدث حادثاً[٢] يوجب الاضطراب ، (١٣٦٣) وخروج الديار المصرية من أيدى المسلمين . فتحقق عندى ، من هذا وما أشبهه ، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو أوصى إلى أحد بتدبير الملك بعده ، ما عدل عن حسام الدين بن أبى على [الهذبانى] .

فورد على حسام الدين مرةً كتاب فى اقتضاء أمرٍ من الأمور ، قال القاضى جمال الدين قاضى حماه صاحب هذا التاريخ ، فأوقفنى عليه ، وكان قد حصل له بعض الارتياب . فقلت له : " والله العظيم ، ما هذا خط السلطان الملك الصالح ! ! " . فقال : " وكيف عرفت ذلك ؟ " ، فقلت له :

---

(١) فى الأصل " اخاه " .
(٢) فى الأصل " حادث " .

" احضر لى بعض الكتب التى فيها خطه " ، فأحضر لى [ذلك] . فقابلت بين حروفه وحروف ذلك الكتاب ، فتبيّن مخالفة الخط للخط : من ذلك أنه كان يكتب الياء ممتدّة ، وفى ذلك الكتاب تشبه الراء . فغلب على ذهن حسام الدين إذن ما قلته ، وأخذ فى التبيين عنه ، والكشف له من خواص السلطان نجم الدين أيوب بالمعسكر ، فتحقّق موته . وحينئذ اشتدّ خوفه من الأمير فخر الدين يوسف أن يغلب على الملك ، ويستبدّ به لنفسه ، فإن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جداً ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر .

قال ، وشرع فخر الدين يوسف فى إطلاق المحبوسين[1] ، فأفرج عن محيي الدين الجزرى[2] ، وسيف الدين بن عدلان ؛ ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب اعتقلهم . وكان السلطان رحمه الله قد غضب على جمال الدين بن مطروح ، وأبعده وعزله عن نيابة السلطنة بدمشق ، فقرّبه فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وأحسن إليه . وأحضر [فخر الدين] بهاء الدين زهير ، كما ذكرنا ، بعد إبعاد السلطان له ، وردّه إلى منصبه .

ثم أخذ [فخر الدين] فى التصرف فى الأموال ، فأطلق منها جملة ، وخلع على خواص الأمراء . فعلم الناس كلهم [من ذلك] موت السلطان ، وتحققوه ، إلا أن أحداً لا يستجرئ أن يتفوّه به ، إقامة للهيبة ، بسبب كون الفرنج فى البلاد ، والخطبة والسكة مستمرّة للملك الصالح ، وبعده لولده الملك المعظم تورانشاه .

وتوجه من المعسكر قصّادٌ لإحضار الملك المعظم [تورانشاه] ، من جهة الطواشي بجمال الدين محسن ، وشجر الدر (٣٦٣ ب) ؛ وما أمكن

---

(١) فى الأصل " المحبسين " .

(٢) فى الأصل " الحررى " ، بغير نقط البتة .

فخر الدين يوسف إلا الموافقة على ذلك . ومن جملة من توجه لإحضاره الأمير فارس الدين أقطايا[١] ، وكان من الجمدارية. وكانوا [٢] يستبعدون وصول الملك المعظم [تورانشاه إلى الديار المصرية] ، بسبب[٣] حصن كيفا ، وأنه ربما لا يتمكن بسبب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، والحلبيين .

وسيّر حسام الدين محمد بن أبي على [الهذباني]من عنده قاصداً ، هو أحد مماليكه الخواص ، يعرف بزين الدين العاشق . وبعث معه كتاباً[٤] يحث فيه الملك المعظم [تورانشاه] على سرعة القدوم ، خوفاً من أن تخرج البلاد من يده ، ولم يثق حسام الدين بمن توجه من المعسكر لإحضاره .

وكان التقدم بالخطبة للملك المعظم [تورانشاه] تالياً [٥] للخطبة لأبيه ، يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان ، سنة سبع وأربعين وستمائة . ورُسم فى ذلك اليوم أن يُنقش اسم الملك المعظم على سكة الدراهم والدنانير ، بعد اسم أبيه ؛ فخطب الخطباء باسم الملك المعظم ، فى يوم الجمعة التالية ليوم الاثنين المذكور .

وكان الملك المغيث بن الملك العادل بن الملك الكامل عند عماته بنات الملك العادل ، فذُكر للأمير حسام الدين محمد بن أبي على [الهذباني] ، أن فخر الدين بن شيخ الشيوخ ربما طمع فى السلطنة ، ليستولى على المملكة ، ويديرها باسمه . وكان عمر الملك المغيث يومئذ ، على ما بلغنى ، أربع عشرة سنة أو نحوها . قال ، فأحضر حسامُ الدين حين سمع هذا القول شمسَ الدين بن باخل[٦] والى القلعة ، وأمره أن ينقل الملك المغيث إلى

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل " وكان " .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) فى الأصل " كتاب " .

(٥) فى الأصل " تالية بالخطبة " .

(٦) فى الأصل " باحل " ، بدون نقط ألبتة . انظر ما سبق ، ص ٢٨٢ .

القلعة ، فنقله إلى القلعة . وصعد حسام الدين إلى القلعة ، وأمر والى القلعة بالاحتفاظ به ، والاحتياط عليه ، وألا يسلّمه إلى من يطلبه منه .

واستمرت المكاتبة متردّدة بين فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وحسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، وعنوان المكاتبة من : " فخر الدين الخادم يوسف " ، " ومن حسام [الدين] المملوك أبوعلى بن أبو على ، وبينهما مجاملات فى الظاهر ، وفخر الدين يعمل على الاستبداد ، (١٣٦٤) والاستقلال بالأمر ، إن تعذّر وصول الملك المعظم . وصار لفخر الدين[1] موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجّلون له كلهم عند النزول ، ويحضرون لسماطه .

قال ، ووصل قاصد حسام الدين [محمد بن أبى على الهذبانى] إلى حصن كيفا ، واجتمع بالملك المعظم [تورانشاه] ، وحثّه على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، وقال له : " إن تأخرتَ فات الأمر ، وتغلّبَ الأمير فخر الدين على البلاد ، وربما جعلها باسم ابن عمك الملك المغيث بن الملك العادل " . ووصل[2] إلى حصن كيفا أيضاً قصّاد المعسكر[3] [بالمنصورة] ، و [معهم] فارس الدين أقطايا[4] الجمدار ، وحثّوه على الحركة .

ذكر مسير الملك المعظم غياث الدين توران شاه بن الملك الصالح إلى الديار المصرية

قال ، ولما حث الملكَ المعظمَ القصّادُ على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، خرج فى جماعة قليلة من أصحابه وخواصّه ، ومعه كاتبه النشو ابن حشيش النصرانى المصرى ، متخفياً ، [خشية] أن يظفر به بدر الدين لؤلؤ

(١) فى الأصل " و صار له " وحذف الضمير وإضافة العائد للتوضيح .
(٢) فى الأصل " وصلت " .
(٣) فى الأصل " العسكر " .
(٤) كذا فى الأصل .

صاحب الموصل ، والحلبيون . وكان خروجه من حصن كيفا ، ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان المعظم ، من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة .

وترك [المعظم تورانشاه] بحصن كيفا ولده الملك الموحد عبد الله ، وعمره على ما سمعتُ منه عشر[1] سنين ؛ وترك عنده من يقوم بتدبير أمره .

وكانت[2] عدة من خرج مع الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من خواصه وألزامه ، خمسين[3] فارسا . وقصد [المعظم بهم إلى] جهة عانة ، وهى من بلاد الخليفة [المستعصم العباسى] . وبلغ الحلبيين وبدر الدين لؤلؤ خروجُه ، وتوجهه إلى الديار المصرية ، فأرصدوا له جماعة ليقبضوا عليه[4] ، ويتفقوا[5] معه على ما يريدون ؛ فلم يقع أحد منهم به . ووصل [المعظم تورانشاه] إلى عانة ، فعدّى الفرات منها .

ذكر تقدم الفرنج ونزولهم قبالة عسكر المسلمين

قال : ولما تحقق الفرنج من موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رحلوا من دمياط بفارسهم وراجلهم ، وشوانيهم فى البحر تحاذيهم[6] . فنزلوا على فارس كور (٣٦٤ ب) ، ثم تقدّموا منها مرحلة ، وذلك فى يوم الخميس ، لخمسٍ بقين من شعبان ، من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة .

---

(١) فى الأصل " عشرة " .
(٢) فى الأصل " كان "
(٣) فى الأصل " خمسون " .
(٤) فى الأصل " ليقبضوه " .
(٥) فى الأصل " يتفقون " .
(٦) فى الأصل " تحاديهم " بالدال .

وفى غد هذا اليوم ، وهو يوم الجمعة ، ورد من الأمير فخر الدين يوسف كتاب ينذر[١] الناس ، ويأمرهم بالجهاد ، وفيه علامة تشبه علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ليظنّ الناس أنه كتابه ، [و] أوله [بعد البسملة] " انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون " ، وهو كتاب بليغ ، [وعلمت فيما بعد] أنه من[٢] إنشاء بهاء الدين زهير ، وفيه مواعظ جميلة ، وتحريض على قتال الكفار ، وأن الفرنج قد قصدوا الديار المصرية والبلاد الإسلامية ، بحدّهم وحديدهم ، وقد أطمعتهم أنفسهم بملك البلاد ، وقد وجب على المسلمين كافةً النفرُ إليهم ، ودفعهم عن البلاد . فقرئ هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلاة بالقاهرة ؛ فبكى الناس بكاء كثيرا ، وانزعج الناس لذلك .

وخرج من القاهرة ومصر وسائر النواحى خلق عظيم ، وعظم الخوف لموت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وتمكن الفرنج بتملك[٣] دمياط وكثرتهم[٤] ، وتحققوا أنه إنْ اندفع العسكر الذين بالمنصورة إلى ورائهم مرحلة واحدة ، مُلكت ديار مصر أجمعها فى أسرع الأوقات .

ولما كان يوم الثلاثاء ، مستهلّ شهر رمضان ، وقعت بين الفرنج والمسلمين وقعة عظيمة ، استشهد فيها أمير مجلس المعروف بالعلائى ، وجماعة من الأجناد ؛ ونزلت الفرنج بشرمساح .

وفى يوم الاثنين ، لسبع مضين من رمضان ، نزلت الفرنج البرمون ، وكثر الاضطراب بسبب دنوّ مَلِكِ الإفرنج من عساكر المسلمين .

(١) فى الأصل " يدر " .

(٢) فى الأصل " انه بانشا " .

(٣) فى الأصل " بملك " .

(٤) فى الأصل " وكبرتهم " ، بدون نقط ألبتة .

وفى يوم الأحد ، لثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان ، وصلت الفرنج إلى طرف جزيرة دمياط ، وصاروا فى مقابلة المسلمين ، ومعظم عسكر المسلمين فى المنصورة ، وهى فى البرّ الشرقى ، و[معهم] جماعة من العسكر ، وأولاد الملك الناصر داود بن الملك المعظم [عيسى صاحب الكرك] ، وهم الملك الأمجد ، (١٣٦٥) والملك الظاهر ، والملك المعظم ، والملك الأوحد ؛ و [كان] الأكابر منهم فى البرّ الغربى . وكان[١] أولاد الملك الناصر [داود] ، الأكابر والأصاغر الذين قدموا القاهرة ، اثنى عشر ولداً ذكراً . وكان بالبرّ [الغربى] أيضا أخوا[٢] الملك الناصر داود ، [وهما] الملك القاهر ، والملك المغيث .

ولما نزل[٣] الفرنج بجموعهم فى طرف الجزيرة التى فيها دمياط ، وصاروا فى مقابلة المسلمين ، خندقوا عليهم خندقاً ، وأداروا عليهم سوراً ستروه بالستائر ، ونصبوا المناجيق[٤] يرمون بها المسلمين . ونزلت شوانيهم بإزائهم[٥] فى بحر النيل ، وشوانى المسلمين بإزاء المنصورة ؛ ونشب القتال بين الفريقين براً وبحراً .

وفى يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان ، قفز إلى المسلمين [ثلاثة][٦] من خيالة الإفرنج ، وأخبروا بضائقة الفرنج .

وفى غد هذا اليوم ، وهو يوم الخميس ، كان وصول الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح إلى عانة ؛ ثم انفصل [المعظم] عن عانة متوجهاً إلى دمشق ، على طريق السماوة .

---

(١) فى الأصل « وكانوا » .

(٢) فى الأصل « اخو » ، والصحيح ما هنا . انظر المقريزى : كتاب السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .

(٣) فى الأصل « نزلت » .

(٤) كذا فى الأصل . انظر ما سبق ، ص ٢٦٧ .

(٥) فى الأصل « باءوهم » .

(٦) أضيف ما بين الحاصرتين من المقريزى : كتاب السلوك — نشر زيادة — ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

ذكر وصول الملك المعظم غياث الدين توران شاه إلى دمشق

وكان رحيل[١] [المعظم تورانشاه] من عانة يوم الأحد ، لعشر بقين من شهر رمضان . ثم وصل إلى القصر ، ونزل فى دهليزٍ ضربه له جمال الدين [بن] يغمور ، نائب السلطنـــة بدمشق ، يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر رمضان .

ودخل [المعظم تورانشاه] غدِ يوم الاثنين إلى دمشق ، وزينت له ؛ ودخل بقلعتها ؛ وقام بخدمته جمال الدين بن يغمور . ووصل إليه أيضاً من حماة الخطيب زين الدين بن مرهوب ، رسولاً من صاحبها السلطان الملك المنصور ، رحمه الله ، مهنئاً له بقدومه . ووصل إليه أيضاً رسول السلطان الناصر ، صاحب حلب ، وعيّد [معه] بدمشق .

وفى هذا اليوم أُسر من الفرنج كُند كبير ، من أقارب الملك ريدافرنس . واستمرّ القتال بين الفريقين فى البحر والبرّ ، وكلّ يوم يُقتل من الفرنج ويُؤسر جماعة كبيرة .

وكان الفرنج يجدون من حرافشة المسلمين أذىً كثيراً ، و[كان أولئك الحرافشة] يتخطفون من الفرنج ويقتلون ، فإذا شعروا بالفرنج رموا أنفسهم فى الماء ، وسبحوا إلى أن يخرجوا من جانب المسلمين . وكانوا يتحيلون على التخطف من الفرنج بكل حيلة ، فبلغنى أن إنساناً[٢] منهم قوّر بطيخة خضراء ، وجعلها ملبّسة على رأسه ، ثم سبح فى الماء ، وقرب من الفرنج حتى ظنه بعض الفرنج سا بيلة[٣] على الماء ، فنزل ليتناولها ، فخطفه ذلك الشخص وأسره ، وأتى به إلى المسلمين ؛ فعجبوا من ذلك .

---

(١) فى الأصل " رحيله " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للتوضيح .
(٢) فى الأصل " انسان " .
(٣) كذا فى الأصل ، وبدون نقط على التاء المربوطة .

ولأربع ليالٍ مضين من شوال ، وردت البطائق إلى القاهرة ، بوصول الملك المعظم [تورانشاه] إلى دمشق ، واستقراره بقلعتها . فضُربت البشائر بالقاهرة وبالمعسكر المنصور ، وحصل السرور بذلك .

وفى يوم الأربعاء ، لسبع مضين من شوال ، أخذ المسلمون من الفرنج شينياً ، فيه مائتا[١] رجل وكُند كبير .

وفى يوم الخميس ، منتصف شوال ، ركب[٢] الفرنج والمسلمون ، ودخل المسلمون إليهم إلى برّهم ، واقتتلوا فيه قتالاً شديداً . فقتل من الفرنج أربعون فارساً ، وقتلت خيلهم أيضاً .

وفى غدِ هذا اليوم ، وهو يوم الجمعة ، وصل إلى القاهرة سبعة وستون[٣] أسيراً ، منهم ثلاثة من أكابر الدولة .

وفى يوم الخميس ، لثمان بقين من شوال ، أحرقت للفرنج مرمة[٤] عظيمة فى البحر ، واستظهر عليهم المسلمون استظهاراً عظيماً بيّناً .

ذكر مسير الملك المعظم [تورانشاه] من دمشق إلى الديار المصرية

قال ، وسافر الملك المعظم [تورانشاه] من دمشق ، بعد أن عيّد بها ، متوجهاً إلى الديار المصرية ، بعد أن خلع على الأمير بدر الدين بن يغمور ، وقرّره فى النيابة عنه بها . وخلع على الأمراء القيمرية ، وأعطاهم عطاءً كثيراً ،

---

(١) فى الأصل " مايتى " .

(٢) فى الأصل " ركبت " .

(٣) فى الأصل " سبع وستين " .

(٤) فى الأصل " مراكب " ، وهو خطأ من جملة أخطاء ناسخ هذه المخطوطة ، وصحته المثبتة هنا منقولة عن المقريزى (كتاب السلوك - نشر زيادة - ج ١ ، ص ٣٤٨) ، وغيره من المؤرخين الذين نقلوا أخبار هذه الحوادث من مخطوطة أخرى ، هى أحسن كثيراً مما لدينا هنا ، من تاريخ ابن واصل .

وأخرج من الخزائن جملة من المال ، وفرّقها فى الجند . واستصحب [الملك المعظم تورانشاه] معه القاضى الأسعد شرف الدين الفائزى ، وكنا قد ذكرنا أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب جعله فى دمشق ، ناظراً فى ديوانها .

ولما دخل الملك المعظم [تورانشاه] الرمل ، أسلم على يده كاتبه النشو بن حشيش النصرانى ، ولقبه [السلطان بلقب] معين الدين ، ورشّحه للوزارة بالديار المصرية .

ذكر الكبسة التى وقعت على المسلمين بالمنصورة ومقتل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ثم انتصار المسلمين بعد ذلك على الفرنج

(٣٦٦ ا) قد ذكرنا استقرار الفرنج فى قبالة المسلمين ، واتصال القتال بين الفريقين ، وبينهما بحر أشمون ، وهو بحر صغير ، وفيه مخائض رقاق[١] . فدلّ بعضُ المسلمين [ملكَ] الفرنج على مخاضة بسلمون ، فركب الفرنج وقصدوا المخاضة بكرة الثلاثاء ، لخمس مضين من ذى القعدة ، فلم يشعر المسلمون بهم إلا وقد خالطوا معسكرهم .

وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل فى الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر . فركب [الأمير فخر الدين] دهشاً غير مستعدٍّ ولا متحفّظ . فصادفه[٢] جماعة من الفرنج ، فقتلوه رحمه الله . وكان أميراً فاضلاً ، عالماً متأدباً ، جواداً سمحاً ، عالى الهمة كبير النفس ، ما كان فى إخوته مثله ، بل ولا فى غير إخوته . [و] نال [الأمير فخر الدين] من الدنيا سعداً عظيماً ، ومكانة عالية ، وانتهى إلى

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل " فصادفوه " .

قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت همته تترقى إلى الملك ، وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضى عنه .

ودخل ملك الإفرنج[١] ريدافرنس المنصورة ، ووصل إلى القصر الذى للسلطان . وتفرّق الفرنج فى أزقة المنصورة ، وهرب كل مَن فيها من الجند والعامة والسوقة ، يميناً وشمالاً ، وكادت شأفة الإسلام تُستأصل ؛ وأيقن الفرنج بالظفر ، و [لكنه] كان من سعادة المسلمين تفرّق الإفرنج فى الأزقة .

واشتدّ الأمر ، واعضلّ الخطب ، فانتحت الطائفة التركية ، [وهى طائفة] مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من البحرية والجمدارية ، و [هم] أسود الحرب وفرسان الهيجاء ، وحملوا على الفرنج حملة واحدة . وكانت حملة عظيمة ، فزعزعوا بها أركانهم ، وهدّوا بنيانهم . وأخذت الفرنجَ السيوفُ والدبابيسُ من كلّ جانب ، فأثخنوا فيهم القتل والجراح ، وطرحوهم فى أزقة المنصورة ، فكانت عدة من قتل من الفرنج ألف وخمسمائة فارس من فرسانهم ، وصناديدهم وشجعانهم .

وأما رجالة الفرنج فكانوا قد جاءوا على الجسر المصون على بحر أشمون ، ليعدّوا منه ، ولو تراخى الأمر ، وعدّت الرجالة (٣٦٦ ب) إلى المسلمين ، وتكاملوا فيه ، لاعضلّ الداء ، فإن الرجالة كانوا جمعاً عظيماً ، وكانوا حموا فرسانهم . ولولا ضيق مجال القتال ، فإن الحرب كان بين الأزقة والدروب ، لكانوا استأصلوا[٢] الفرنج عن آخرهم . لكن سلم الباقون منهم ، ومضوا إلى جديلة ، واجتمعوا بها . ودخل الليل ، ففرّق

---

(١) كذا فى الأصل ، وهو خطأ مشهور ، والصحيح أن أخا الملك لويس التاسع ، واسمه روبرت كونت أرتوا ، هو الذى دخل مدينة المنصورة محارباً ، على رأس فتات الطليعة من الجيش الصليبى ، وهو الذى لقى حتفه فى معركة المنصورة . على أن الملك لويس التاسع جاء إلى مدينة المنصورة أسيراً ، على رأس أفواج من الأسرى الصليبين .

(٢) فى الأصل " استوصلوا " .

بينهم [وبين المسلمين] . وضربوا على جديلة سوراً ، وخندقوا خندقاً عليهم . وأقامت طائفة منهم فى البرّ الشرقى ، ومعظمهم فى طرف الجزيرة المتصلة بدمياط ، و[صار] على الطائفتين الخندق والسور .

وكانت هذه الواقعة أول النصر ومفتاح الظفر . ووردت البطاقة إلى القاهرة ، فأُحضرت إلى حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، بعد الظهر من يوم الوقعة ، ومضمونها أنه سرح الطائر ، وقد هجم العدو المنصورة ، والحرب قائمة ، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد ؛ وليس فى البطاقة غير ما هذا معناه . فانزعجنا ، وانزعج المسلمون كافة ، وغلب على الظنون بوار الإسلام .

وورد المنهزمون من المسلمين آخر النهار ، وبقى باب النصر مفتوحاً طول ليلته ، وهى ليلة الأربعاء ، والجند والعامة والكتاب والمتصرّفون يدخلون منه منهزمين ، ولا علم لهم بما تجدّد بعد دخول الفرنج المنصورة . وممن دخل تلك الليلة ، وجاء إلى الأمير حسام الدين ، القاضى تاج الدين المعروف بابن بنت الأعز ، وكان متولّى النظر بديوان الصحبة .

وبقيت القلوب منزعجة ، إلى أن طلعت الشمس من يوم الأربعاء ، فوردت البشرى بالنصر . وزيّن البلد ، وضُربت البشائر ، وعظم السرور والفرح ، بالانتصار على الفرنج ؛ وكانت هذه أول واقعة انتصر فيها أسود الترك على كلاب الشرك . ووردت البشرى على الملك المعظم [تورانشاه] بذلك ، وهو فى الطريق ؛ فجدّ فى السير إلى الديار المصرية .

ذكر وصول الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى المعسكر بالمنصورة

قال ، ولما تواترت الأخبار بقرب [وصول] الملك المعظم [تورانشاه إلى الديار المصرية] ؛ قال صاحب التاريخ ؛ خرج الأمير حسام الدين

[محمد بن أبى على الهذبانى] نائب السلطنة إلى لقائه ؛ وخرجتُ أنا فى صحبته ؛ (٣٦٧ ا) فالتقيناه بالصالحية يوم السبت ، لأربع عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة . وكان قاضى القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن [السنجارى] قد التقاه من غزّة ؛ فوصل فى صحبته . ونزل الملك المعظم [تورانشاه] بالصالحية بقصر والده ؛ ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح نجم الدين أيوب ؛ وكان قبل [ذلك] ما يقدر واحد ينطق بموته ؛ وكانت الخطبة مستمرّة للملك الصالح إلى ذلك الوقت .

وخلع الملك المعظم [تورانشاه] بالصالحية على الأمير حسام الدين خلعة سنية تامة ، ومنطقة وسيفاً محلّى بالذهب والجوهر ، وسير إليه فرساً(١) من أجود الخيل بخلعة مذهبة ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ؛ فلبس [الأمير حسام الدين] الخلعة ، وقبّل حافر الفرس ، وركبه .

ورحل الملك المعظم [تورانشاه] من الصالحية ، متوجهاً إلى المنصورة ، فنزل بالمنزلة المعروفة بمنزلة حاتم . وحضرتُ يومئذ فى خدمته بعد صلاة العصر ، وجرت بينى وبينه مباحثة فى أنواع شتى من العلوم والآداب : من ذلك أنى أوردتُ أن ابن نباتة الخطيب [قال] ، وأخذه بعض الناس فى قوله : الحمد لله الذى إذا وعد وفا ، وإذا أوعد تجاوز وعفا ، فإن تجاوز البارى تعالى بعد الإخبار عنه ، أنه يعاقب المتجاوَزَ عنه ، يلزم منه الخلف فى الخبر ، وهو على الله تعالى محال ، وإنما يصحّ مثل هذا فى حق الآدميين ، إذ يجوز فى أخبارهم ، كقول القائل :

وإنى وإن أوعدته أو وعدته ... لمنجز إيعادى ومخلف موعدى

وإنما يعفو الله تعالى عمن(٢) لم يخبر أنه يعاقبه ، وأما من أخبر أنه يعاقبه ،

---

(١) فى الأصل " فرس " .

(٢) فى الأصل " من " .

فلابدّ وأن يعاقبه ، واللا[١] نام أن يخبره مطالعاً للمخبر عنه ، وهذا محال ؛ وانجرّ البحث فى هذا إلى أشياء كثيرة[٢] .

وانتقل البحث إلى مسائل أدبية ، وبحثَ [المعظم تورانشاه] فى ترجيح أبى تمام على المتنبى ، وغير ذلك من الفنون . وكانت عبارته رحمه الله غزيرة ، وعنده استحضار لمسائل كثيرة من العلوم ؛ ولم نزل ذلك الوقت نتجارى فى العلوم إلى أن كادت الشمس تغرب .

ثم رحل [المعظم تورانشاه] من الغد من تلك المنزلة إلى تلبانة ، ثم رحل منها مرحلة قريبة من المنصورة ، ثم وصل [إلى] المنصورة ، (٣٦٧ب) يوم الخميس ، لتسع بقين من ذى القعدة .

وتلقته الأمراء والبحرية مماليك أبيه ، وفرحوا به ، فلو أحسن إليهم وسلك معهم ما كان أبوه يسلكه من البرّ بهم ، لنصروه وشدّوا أزره ، وعاضدوه . ولكنه اطّرحهم وجفاهم ، وقدّم عليهم من لا يصلح للتقدّم . ففسدت أحواله ، كما فسدت أحوال عمه الملك العادل ، بعد أبيه الملك الكامل .

ولما استقرّ [المعظم تورانشاه] بقصره بالمنصورة ، ركب بالعساكر إلى قبالة الفرنج ، وبايتهم[٣] للقتال ، وحاصرهم فى منزلتهم التى نزلوها .
وكان [المعظم تورانشاه] يمدّ السماط كلّ يوم ، ويحضر سماطه الأمراء والأكابر والمعمّمون .

وقدم إلى المنصورة جماعة من العلماء ، منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه بهاء الدين بن الحميرى ، وفخر الدين بن عماد الدين بن السكرى ، والشريف عماد الدين السلمانى ، والشيخ سراج الدين

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) أودّ هنا أن أشكر لزميلى وصديقى القديم الدكتور أبو العلا عفيفى ، معونته العلمية على تقويم هذا النص الكلامى ، وما يليه من النصوص الفقهية والأدبية ، بهذا الملحق .

(٣) كذا فى الأصل .

الأرموى ، والقاضى عماد الدين بن القطب ، وكان الملك الصالح قد ولاه قضاء مصر وما معها من الوجه القبلى ، وهو الذى ذكرنا أنه كان قاضى حماة ، ثم عزل منها . وكان الملك المنصور صاحب حمص أرسله إلى الملك الصالح ، فنعه الملك الصالح من الرجوع اليه ، وقد ذكرنا ذلك . وتوفى القاضى أفضل الدين الخونجى(١) فى سنة ست وأربعين وستمائة ، والسلطان [الصالح أيوب] بالشام ، فلما رجع من الشام ولّى(٢) [عماد الدين بن القطب] الحكم بمصر وما معها من البلاد . وكان الملك المعظم [تورانشاه] يجتمع بهؤلاء الفقهاء ، ويباحثهم ، ويجرى بين يديه فوائد كثيرة .

وحضرتُ عنده بالمنصورة ، وهو يسأل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : " نِعم العبد صُهيب ، لو لم يخفِ الله لم يعصِه " . والقاعدة أن(٣) لو للمثبت بعد ما يكون منفياً ، والمنفى مثبتاً ، ويلزم أن يكون المعنى أنه خاف الله وعصاه . وليس هذا مراد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وإنما المعنى أنه لا يعصى الله تبارك وتعالى على تقدير عدم الخوف ، فمن طريق الأولى أنه لا يعصيه فى حال الخوف .

ومال [المعظم تورانشاه] إلىّ ميلاً كثيراً ، ولم أزل ألازمه إلى أن دخلتُ القاهرة ، لما دخلها [الأمير] حسام الدين [محمد بن أبى على الهذبانى] ، وكنتُ على عزم العود اليه ، وجرى ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وقوع أسطول المسلمين على مراكب الفرنج وضعف الفرنج

ولما استقرّ الفرنج بمنزلتهم ، كانت تأتيهم الميرة من دمياط فى نهر النيل ، فعمد المسلمون إلى مراكب شحنوها بالمقاتلة ، وحملوها على الجمال إلى بحر

---

(١) فى الأصل " الخويجى " .

(٢) فى الأصل " ولاه " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين ، للتوضيح .

(٣) فى الأصل " وقاعدة لوان " ، والصحيح ما هنا بالمتن .

المحلة ، وألقوها فيه ، وفيه ماء من زيادة النيل واقفة ، لكنه متّصل بالنيل . فلما جاوزت مراكب الفرنج وهى مقلعة من دمياط فى بحر المحلة ، وتلك المراكب التى[1] للمسلمين مكمنة ، خرجت عليها تلك المكمنة فى بحر المحلة ، ووقع القتال بين الفريقين . وجاءت أساطيل المسلمين من ناحية المنصورة منحدرة إليهم ، والتقى الأسطول والمراكب التى كانت مكمنة ، فأحاطوا بالفرنج ، فأخذوهم ومراكبهم أخذاً باليد . وكانت عدة المراكب المأخوذة للفرنج اثنين وخمسين مركباً ، وأُسِرَ مَن كان فيها ، [وهم] نحو ألف رجل ، وأُخذ جميع ما فيها من الميرة . ثم حُملت الأسرى على الجمال ، وقُدِم بهم إلى المعسكر .

وانقطعت الميرة بسبب ذلك عن الفرنج ، ووهنوا وهناً عظيماً . واشتدّ عندهم الغلاء ، وبقوا محبوسين لا يستطيعون المقام ولا الذهاب ، واستظهر عليهم المسلمون[2] ، وطمعوا فيهم .

وفى مستهل ذى الحجة ، أخذ الفرنج من مراكب المسلمين التى فى بحر المحلة سبع حراريق ، وهرب من فيها من المسلمين . .

وفى تانى ذى الحجة ، تقدّم الملك المعظم [تورانشاه] إلى الأمير حسام الدين [محمدبن أبى على الهذبانى] ، فى[3] الدخول إلى القاهرة ، وفى المقام بدار الوزارة ، ليجرى على عادته فى نيابة السلطنة .

قال صاحب التاريخ القاضى جمال الدين بن واصل ، وخلع المعظم [تورانشاه] علىّ وعلى جماعة من الفقهاء الذين وردوا إلى خدمته ، ووصل إحسان الملك المعظم إلى كلّ من قصد بابه . قال ودخلتُ القاهرة مع الأمير حسام الدين .

---

(١) فى الأصل " الذى " .

(٢) فى الأصل " المسلمين " .

(٣) كذا فى الأصل .

(٣٦٨ ب) وفى يوم الاثنين ، لتسع بقين من ذى الحجة ، وهو يوم عرفة ، خرجت شوانى المسلمين على مراكب وصلت للفرنج على[1] الميرة ؛ فالتقوا عند مسجد النصر[2] . وأخذت شوانى المسلمين من مراكب الفرنج اثنين وثلاثين مركباً ، منها سبعُ شوانٍ[3] . فازداد عند ذلك ضعف الفرنج ووهنهم ، وقوى الغلاء عندهم .

وعند ذلك شرع الفرنج فى مراسلة المسلمين وطلب المهادنة منهم ، ووصلت رسلهم [لذلك إلى المعسكر] . فاجتمع بهم الأمير زين الدين أمير جندار ، وقاضى القضاة بدر الدين [يوسف بن الحسن السنجارى] . فرغّب الفرنج على أن يسلّموا دمياط للمسلمين ، على أن يأخذوا بذلك بيت المقدس وبعض الساحل ؛ فلم تقع الإجابة إلى ذلك .

وفى يوم الجمعة ، لثلاث بقين من ذى الحجة ، أحرق[4] الفرنج أخشابهم كلها ، وأبقوا مراكبهم ، وعزموا على الهروب إلى دمياط ؛ وخرجت هذه السنة وهم مقيمون بمنزلتهم ، فى مقابلة المسلمين .

ذكر ما تجدّد فى هذه السنة بالشرق

كانت نصيبين قد صارت مشتركة بين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والملك السعيد صاحب ماردين ، ولكلٍّ واحدٍ منهما والٍ [فيها] . فوقع

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يعثر على موضع هذا المكان ، بالمراجع الأخرى المتداولة بهذه الحواشى ، أو بالخرائط والمعاجم الجغرافية المختلفة ، كما أنه لم يستطع أن يهتدى إلى أىّ أثر لهذا الموضع ، وربما يكون هو موضع البدالة الحالية . على أنه يوجد فى (Joinville : Op. Cit. p. 161) إشارة لتحديد تقريبى لهذا الموضع ، إذ قال إنه على مسافة سبعة أميال شمالى المنصورة .

(٣) فى الأصل " شوانى " .

(٤) فى الأصل " شرعت " .

(٥) فى الأصل " احرقت " .

بين الولاة تنازع ، وكثر بينهما القال والقيل ، فأدّى ذلك إلى خروج بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين ، فاستولى عليها .

ثم سار [بدر الدين] إلى دنيسر ، وهى [كذلك] للملك السعيد صاحب ماردين ، فنهبها . ثم سار إلى رأس عين ، وبها عسكرٌ لصاحب ماردين ، [وألئك] كانوا قد توجهوا لإنجاد السلطان الملك الناصر صاحب حلب ، على عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، لما كان نازلاً[١] عل مدينة حمص . فلما وقع الصلح عادوا ، فوقع عليهم بدر الدين ، فنهبهم ، وأخذ خيولهم ، وقبض على مسومرهم[٢] . ثم رجع [بدر الدين] إلى دنيسر ، فنقل ما كان فيها من الغلال إلى نصيبين ، وخرّب دنيسر ، حتى لم يبق فيها قائماً سوى الجامع ، على ما قيل . فبعث صاحب ماردين إلى الملك الناصر صاحب حلب مستغيثاً به ، فجهز الملك الناصر رحمه الله عسكراً من حلب ، وقدّم عليهم عم أبيه الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين ، فساروا إلى ماردين ، فنزلوا بحرزم[٣] . ونزل إليهم الملك السعيد صاحب ماردين ، وتأهبوا للقاء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وكان نازلا بنصيبين ، وقد عمر قلعتها فى مدة قريبة ، وهو مهتمّ بجمع العساكر والجند .

فبينما هو كذلك إذ ورد رسول الخليفة المستعصم بالله ، ليصلح بينهم ، وطلب من بدر الدين تسليم دارا إلى صاحب ماردين ، فأجاب [بدر الدين] إلى ذلك ، ولم يبق إلا انتظام الصلح .

---

(١) فى الأصل " نازل " .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل " بحرزم " ، بغير نقط . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٩) ، حيث ورد أن حرزم بليدة بين ماردين ودنيسر .

ثم إن بدر الدين لؤلؤ رجع عن ذلك ، فوقع بين الفريقين مصاف(١) ظاهر نصيبين ، فوقعت الكسرة على بدر الدين لؤلؤ ، وهزمه الحلبيون والملك السعيد هزيمة قبيحة ، واستولوا على خيامه وسرادقه وخزائنه . ونزلت العساكر على نصيبين ، ففتحوا قلعتها بالأمان ، ورتبوا فيها الولاة . ثم ساروا إلى دارا ، ونصبوا عليها المجانيق ، وحاصروها ثلاثة أشهر ، ثم ملكوها وأخربوها . ثم توجهت فرقة من عسكر حلب إلى قرقيسيا ، فملكوها . ثم عاد العسكر الحلبي إلى حلب ، وصاحب ماردين إلى بلده .

ودخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة ، والحال على ما ذكرناه ، من ضيق الحال على الفرنج ، وعزيمتهم على الهرب إلى دمياط .

ذكر هزيمة الفرنج واستئصالهم قتلاً وأسراً والقبض على ملكهم ريدافرنس

لما جرى ما ذكرناه ، وعيل صبر الفرنج من الضيق ، وقلّت(٢) الذخائر عندهم ، وعُدِم القوت ، لم يبق لهم لفرط الجوع وانقطاع المادة صبرٌ على المقام ، فأحرقوا كما ذكرنا أخشابهم ، وأبقوا مراكبهم ، وتأهبوا للهرب .

ولما كانت ليلة الأربعاء ، لثلاث مضين من المحرم ، من سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وهي الليلة الغرّاء المسفرة عن النصر الأعظم والفتح الأكبر ، (٣٦٩ ب) رحل الفرنج بفارسهم وراجلهم متوجهين إلى دمياط ، ليستعصموا بها ؛ وأخذت مراكبهم في الانحدار في البحر قبالتهم . وعلم المسلمون بذلك ، فتبعوهم ، وركبوا أعناقهم ، بعد أن عدّوا إلى برّهم ، فاتبعوهم .

---

(١) في الأصل " مصافا " .

(٢) في الأصل " وقلة " .

وطلع الصباح من يوم الأربعاء المذكور ، وقد أحاط بهم المسلمون ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، وأحاطوا عليهم قتلاً وأسراً ، فلم يسلم منهم أحد ؛ فذُكر أن عدّة القتلى بلغت ثلاثين ألفاً . وكان لمماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية ، فى هذه الوقعة ، الهمة العالية والتقدّم العظيم ، فأذاقوا الفرنج البلاء ، وكان لهم الحظ الأوفى الأوفر ، [و] كانوا قاتلوا قتالاً شديداً ، وهم الذين أقدموا على اتّباع[1] الفرنج ، وهم كانوا داوية الإسلام .

قالوا ، وانحاز الملك ريدافرنس الملعون ، والأكابر من ملوك الفرنج ، إلى تل قونة[2] ، مستسلمين طالبين الأمان . فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى ، فنزلوا على أمانه ؛ واحتيط عليهم كلهم . ومضوا بالملك ريدافرنس ومن معه من ملوك الفرنج إلى المنصورة ، فضربوا فى رِجل الملك الكبير ريدافرنس القيد ، وكذلك جميع من معه من الملوك . واعتقل [ريدافرنس] فى الدار التى كان نازلا بها كاتب الإنشاء فخر الدين [بن] لقمان ، ووُكِّل به الطواشى صبيح المعظمى ، وهو أحد خُدّام الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو ممن قدِم فى صحبته من حصن كيفا ، فقدّمه وأعلى شأنه وعظّمه فى هذه الكرة .

وفى اعتقال ملك الفرنس[3] ريدافرنس فى دار فخر الدين بن لقمان ، وتوكيل الطواشى صبيح به ، قال جمال الدين يحيى بن مطروح ، رحمه الله تعالى :

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) كذا فى الأصل ، والمعروف أن الملك لويس التاسع لجأ إلى قرية منية الخولى عبد الله ، وهى قرية صغيرة مطلة على النيل ، بين شارمساح وفارسكور الحالية . غير أن كاتب هذه السطور لم يستطع أثناء زيارته لهذه القرية الصغيرة ، أن يحدد موضع هذا التل المذكور .

(٣) كذا فى الأصل .

قل لفرنسيس إذا جئته … مقال حقٍّ عن قؤول نصيح

آجرك الله على ما جرى … من قتل عباد يسوع المسيح

(٢٧٠) فساقك الحمق إلى موضع … ضاق له عن ناظريك الفسيح

وكلّ أصحابك أوردتهم … بحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفاً لا يرى منهم … إلاّ قتيل أو أسير جريح

وفقك الله لأمثالهـا … لعلّ عيسى منكمو يستريح

إنْ كان باباكمُ بذا راضياً … فربّ غش قد أتى من نصيح

وقلْ لهم أنْ أضمروا عودة … لأخذ ثأر أو لقصد[1] صحيح

دار ابن لقمان على حالها … والقيد باقٍ والطواشى صبيح

قال ولما جرى ذلك ، رحل [الملك المعظم] تورانشاه والعساكر من المنصورة إلى جهة دمياط ، فنزلوا بفارسكور ، وهى من أعمال دمياط . وضُرب بها دهليز السلطنة ، ونُصب إلى جانبه برج خشب ، [و] كان الملك المعظم [تورانشاه] يصعد اليه فى بعض الأوقات . وأقام [الملك المعظم] متراخياً عن قصدِ دمياط ، ولو أسرع إلى النزول عليها والدخول إليها ، وطلبَ تسليمها من الملك ريدافرانس ، وهو فى قبضته ، لحصل له ذلك فى أقرب الأوقات . لكن أبعده عن ذلك سوء التدبير الذى اقتضاه ، بما سبق له من التقدير .

قال ، وفى يوم الجمعة ، لخمس مضين من المحرم ، ورد أمر الملك المعظم ابن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، نائب السلطنة [بالقاهرة] ، بالقدوم عليه [فى فارسكور] ؛ واستناب الملك المعظم [تورانشاه] بدله الأمير جمال الدين أقوش التجيبى الصالحى .

---

(١) فى الأصل " لهد " . انظر المقريزى ، المواعظ والاعتبار – بولاق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ، وكذلك أحمد أحمد بدوى : من النقد والأدب ، ص ٣٦ .

قال ، فرحل حسام الدين من القاهرة ، متوجهاً إلى المعسكر بفارسكور ، فنزل به مُطَّرَح الجانب ؛ وحسام الدين الذى كان عمدة أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وعدّته . واطّرح [الملك المعظم تورانشاه] أيضاً أمرَ أمراء أبيه الكبار ، من المماليك الذى أنشأهم الملك الصالح ؛ وكان [الملك الصالح] يعتمد عليهم فى جميع الأمور ، وكانوا معظم العسكر ، وهم البحرية الذين كسروا الفرنج ، وأبلوا بلاءً عظيماً . واطّرح [الملك المعظم] الأمراء من الأكابر[1] ، وغيرهم ؛ وكان بالمعسكر من الأمراء الأكراد جماعة ، منهم الأمير فخر الدين بن أبى ذكرى ، والأمير سيف الدين القيمرى ، والأمير عز الدين القيمرى — ، ولم يكن [هذا الأمير] من القيمرية بأنفسهم ، وإنما كان من أتباعهم ، فنسب إليهم — ، والأمير فخر الدين حسين ، والأمير مجير الدين بن خشترين ، وغيرهم . وكان فيه من غير الأكراد الأمير زين الدين أمير جندار ، والأمير شهاب الدين بن سعد الدين بن كهسا[2] ، وهؤلاء جماعة كبيرة .

فاطّرح السلطان الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] هؤلاء الجميع ، وجفاهم ، وقدّم أقواماً لا خلاق لهم ، جاءوا معه من الحصن ، منهم رجل يقال له الطورى . وقدّم [الملك المعظم] الطواشى صبيح ، وجعل إليه أموره كلها ؛ واعتمد على وزيره ابن حشيش الذى أسلم على يديه ، ولقبه معين الدين ؛ ليفوّض إليه ما كان مفوّضاً إلى معين الدين بن شيخ الشيوخ ، ويقيمه مقامه .

وعزم [الملك المعظم تورانشاه] على عزل قاضى القضاة بدر الدين [يوسف بن الحسن السنجارى] ، وكان والده الملك الصالح نجم الدين أيوب يرجع إليه فى الرأى والمشورة . وأراد [الملك المعظم] أن يولّى عوضه

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل المقصود " الأكراد " .

(٢) كذا فى الأصل .

قاضى حصن كيفا ، وكان قد ورد معه ؛ فنفرت بهذه الأفعال قلوب أكثر أهل المعسكر .

واطّرح [الملك المعظم] المماليك البحرية الذين هم كانوا سيوف أبيه الملك الصالح ، وبهم كان يصول ، وبهيبتهم يجول ، وكانوا بطانته ، والنازلين حول دهليزه ؛ وفارس الدين أقطايا الذى هو مقدم البحرية ، هو الذى كان توجه اليه إلى حصن كيفا ، وقاسى الشدائد والمشاق حتى وصل إليه ، ثم عاد به إلى الديار المصرية ؛ فلم ير[١] فارس الدين أقطايا منه — لما ملك الديار (٣٧١ ا) المصرية — ما كان يؤمله .

قال ، وعزم الملك المعظم — على ما ذُكِر — على إرسال فارس الدين أقطايا بالبشرى بالفتح إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وذُكِر أنه أراد من بدر الدين أن يقبض عليه ، ويقتله فى بعض القلاع .

وكذلك قيل إنه عزم على أن يسيّر جماعة من[٢] [المماليك البحرية] إلى جماعة من الملوك فى هذا المعنى ، ففطنتْ المماليك والأمراء بذلك ، وعلموا أن مقصوده يفعل معهم ما كان أبوه الملك الصالح سلكه فى الأشرفية ، نوبة الملك العادل [بن الملك الكامل] . فقتل أكثرهم وبدّد شملهم . فاستوحش[٣] البحرية وغيرهم منه . وإنما فعل أبوه الملك الصالح ما فعل ، وهو فى قلعة دمشق محبوس[٤] فيها ، والملك المعظم [تورانشاه] كان فى المخيّم بينهم .

ذكر مقتل الملك المعظم غياث الدين توران شاه ابن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] رحمه الله تعالى

قال ، ولما جرى ما ذكرنا من تغيّر قلوب العسكر منه ، خصوصاً مماليك أبيه البحرية ، اتفق جماعة من مماليك أبيه على قتله :

---

(١) فى الأصل " يرى " .

(٢) فى الأصل " منهم " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للتوضيح .

(٣) فى الأصل " فاستوحشوا " .

(٤) فى الأصل " مجبور " .

فلما كانت[١] بكرة الاثنين ، لليلة بقيت من المحرم من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، مدّ الملك المعظم [تورانشاه] السماط فى دهليزه ، وجلس على طرّاحته ، وأكل الناس بين يديه ، وأكل معهم على ما جرت عادته . ثم فرغت الناس من الأكل ، وتفرقت الأمراء إلى وطاقاتهم . وقام [الملك المعظم] من مجلسه ، وطلب الدخول إلى خيمة له صغيرة : فدخل عليه ركن الدين بيبرس ، وكان أحد جمدارية أبيه ، وكان يعرف بالبندقدارى ، وهو الذى ملك مصر بعد ذلك ، ولُقِّب الملك الظاهر ، وهو الذى كسر التتر مع الملك المظفر قطز ، على عين جالوت ، وتبعهم إلى فامية[٢] ، ورجع . ولما ملك [بيبرس البندقدارى] فتح أكثر بلاد الإفرنج ، مثل صفد والشقيف وأنطاكية ، وغيرها[٣] من البلاد . وفتح بلاد الإسماعيلية ، وكسر التتر مراراً . فضرب [بيبرس البندقدارى] الملك المعظم [تورانشاه] بسيف ، فجرحه فى (٣٧١ ب) كتفه ؛ ورمى ركن الدين السيف من يده :

ورجع الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح إلى مجلسه ، واجتمع حوله الناس وأصحابه ، وبعض مماليك أبيه ، فقالوا له : "أى شىء جرى ؟" فقال : " جرحنى أحد البحرية " . وكان ركن الدين بيبرس البندقدارى واقفاً ، فقال : " ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية " . فقال [الملك المعظم تورانشاه] : " ما فعل بى هذا إلا البحرية " . فخافت البحرية حينئذ ، واستشعروا منه .

ثم قام [الملك المعظم] ، وصعد إلى البرج ، وأحضر الجرائحى ليداوى يده . فاجتمع مماليك أبيه ، وخافوا لمّا سمعوه ينسبهم إلى أنهم قصدوا قتله ؛ وانضمّ هذا إلى ما كان فى نفوسهم من اطّراحه لهم ، واحتاطوا بالبرج ؛

---

(١) فى الأصل " كان " .

(٢) فى الأصل " فامه " ، بغير نقط ألبتة .

(٣) فى الأصل " وغيرهم " .

ففتح [الملك المعظم] طاقاته ، واستغاث بالناس ، فلم يجبه أحد ، ولا أغاثه[١] أحد . ولم يأت[٢] إليه أحد من الأمراء المصرية ، لأن الجميع كانت قلوبهم نافرة منه . واحضرتْ نار ليُحرق بها البرج ، فنزل [الملك المعظم] من البرج . فحَمل عليه [بيبرس] البندقدارى الذى كان جرحه ، فهرب [الملك المعظم] إلى جهة البحر ، فكانت فيه حراريق له ، فأراد أن يسبق إليها ويعتصم بها ، فأدركه فارس الدين أقطايا ، وضربه بالسيف ، فقتله ، رحمة الله عليه .

وكان [الملك المعظم تورانشاه] شاباً ما أظنه كان استكمل ثلاثين سنة ، ولم أحط علماً بتاريخ مولده ، وكانت[٣] مدّة ملكه لمصر شهرين وأياماً .

ذكر سيرته رحمه الله تعالى

كان [الملك المعظم تورانشاه] ، كما تقدّم القول ، عنده مشاركة جيدة فى العلم وفضيلة ، إلا أنه كان فيه هوج واضطراب ، وعدم تأنٍّ فى الأمور . فلم تحسن سيرته فى مماليك أبيه وأمراء دولته ، لأنه قدّم عليهم الأطراف والأرذال ، فجنى ذلك عليه ، كما جنى على عمه الملك العادل [بن الملك الكامل] .

ولما ورد كتابه على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، يستدعيه من القاهرة ، وكان قد ولاّه نيابة السلطنة [٤] بها ، على ما كان الأمر عليه فى أيام (١٣٧٢) الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رحمه الله تعالى ، فلم يمهله الملك المعظم إلا شهراً واحداً . فقال لى حسام الدين عنه ذلك ، إنه بلغني سيرة هذا الرجل ، يعنى الملك المعظم ، وما يعتمده من اطّراحه

(١) فى الأصل " غاثه " .
(٢) فى الأصل " ياتى " .
(٣) فى الأصل " كان "
(٤) فى الأصل " وكان قد ولاه النيابه بها فى الملك " .

للأكابر من الأمراء ، وما سلكه مع مماليك أبيه من سوء سيرته ، وإنى أظنّ أنه يجرى له تقريباً نظير ما جرى لعمّه الملك العادل بن الملك الكامل ؛ فكان والله كما قال حسام الدين ، فلم تمض إلا أيام يسيرة ، وجرى الأمر ، كما قال .

ولما توجه الأمير حسام الدين محمد بن أبي على [الهذبانى] إلى عند الملك المعظم [بفارسكور] ، عزمتُ أنا ، بعد أيام ، على التوجه إلى المعسكر [بفارسكور] . وأخذتُ معى للملك المعظم بن الملك الصالح هدية ، وثلاثة[1] كتب قد ألّفتها : كتابان[2] منها فى التاريخ ، وكتاب قد جمعته لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولم تتفق تقدمته له . قال صاحب التاريخ ، وكتاب قد ألّفته فى تلك الأيام التى أقمت فيها بالقاهرة ، بعد دخولى مع حسام الدين ، فى علم الهيئة[3] . فتوجهت من القاهرة نحو المعسكر ، وكان غرضى فى ذلك حضورى فتح دمياط ، ومشاهدة دخول المسلمين إليها . وكان سفرى من القاهرة فى يوم الاثنين ، لليلتين بقيتا من المحرم ، قبل قتل الملك المعظم بيومٍ واحد . فبتُّ بقليوب ، ثم رحلتُ منها إلى مرصفا ، وهى ضيعة من الضياع الجارية فى حيز حسام الدين محمد ابن أبي على [الهذبانى] ، فبتُّ بها ليلة الثلاثاء ، وسريتُ منها لطلب جهة المعسكر . فجاءنى الخبر بقتل الملك المعظم ، فرجعتُ من وقتى ذلك إلى القاهرة .

---

(١) فى الأصل " ثلاث " .

(٢) فى الأصل " كتابين " .

(٣) فى الأصل " الهيه " ، بغير نقط ألبتة .

ذكر الاتفاق على تمليك الستر العالى والدة خليل شجر الدرّ ، وعزّ الدين التركمانى [يكون أتابك العسكر]

ولما جرى ما جرى من قتل الملك المعظم [تورانشاه] ، اجتمعت الأمراء والبحرية عند الدهليز السلطانى ، واتفقت كلمتهم على أن تكون شجر الدرّ والدة خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، هى القائمة (٣٧٢ ب) بأمر السلطنة والملك ، وأن التواقيع السلطانية تخرج بأمرها واسمها ، وعليها علامتها .

وكانوا[١] عرضوا[٢] التقدمة على حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، وقالوا له : " أنت كان الملك الصالح نجم الدين يعتمد عليك ، فأنتَ أحقّ بهذا الأمر . فامتنع [حسام الدين] ؛ وأشار بأن يكون الطواشى شهاب الدين رشيد الكبير هو القائم بهذا الأمر ، فعرضوا ذلك عليه فامتنع ؛ فوقع الاتفاق على الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى ، وحلف الجماعة كلهم على ذلك .

وورد إلى القاهرة الأمير عز الدين أيبك [التركمانى] الصالحى ، وصعد إلى القلعة ، وأنهى ذلك إلى [شجر الدرّ] والدة خليل بن الملك الصالح نجم الدين أيوب . فصارت الأمور كلها معدوقة بها ، وصارت تبرز من جهتها علامة ما صورته : " والدة خليل " ؛ وخُطب لها بالسلطنة بالقاهرة ومصر ، وسائر الديار المصرية .

وذلك الأمر لا يُعرف أنه جرى مثله فى بلد من البلاد فى أيام الإسلام ، وأما الحكم والتصرّف فقد جرى مثله ، فإن ضيفة[٣] خاتون بنت السلطان

---

(١) فى الأصل " وكان " .

(٢) فى الأصل " عرضوا هذه التقدمة " ، وضمير الإشارة لا محل له هنا ؛ والمقصود بلفظ التقدمة وظيفة مقدم العسكر ، أى الأتابكية . انظر ما يلى ، ص ٣١٣ .

(٣) فى الأصل " صفيه " .

الملك العادل نظرت فى أمر الملك بحلب وبلادها ، بعد موت ولدها الملك العزيز ، [وظلّ الحال على ذلك بحلب] إلى أن توفيت ؛ لكن الخطبة بالسلطنة كانت لابن ابنها الملك الناصر ، رحمه الله تعالى .

قال ، ولما قُتل الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح ، بقى مطروحاً على ساحل البحر ، لا يجسر أحد يتقدّم إليه . فعدّى بعض الملاحين من الجانب الغربى ، ودفنه فى برّ الغرب[1] .

ذكر فتح دمياط

ولما حلف الأمراء والأجناد ، واستقرّت القاعدة على ما ذكرناه ، وقع الحديث مع ملك الفرنج ريدافرنس ، على تسليم دمياط للمسلمين ؛ وجُعل (٣٧٣ ا) المتحدّث فى ذلك حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، لاتفاق الجماعة على الاقتداء برأيه ومشورته ، لما يعلمون من عقله ومعرفته ، واعتماد ملكهم الملك الصالح نجم الدين أيوب عليه . فجرت بينه وبين ريدافرنس الملك محاورات ومراجعات ، حتى وقع الاتفاق على[2] تسليم دمياط ، وأن يذهب [ريدافرنس] بنفسه [عن الديار المصرية] سالماً .

قال القاضى جمال الدين بن واصل ، صاحب هذا التاريخ : حكى لى الأمير حسام الدين قال : " كان ريدافرنس ملك الإفرنج عاقلاً فطناً إلى الغاية ، قلتُ له فى بعض محاورتى ما معناه ، كيف خطر للملك ، مع ما أرى فيه من فضله وعقله ، وصحة ذهنه ، أن يتقدّم على خشب ، ويركب متن هذا البحر ، ويأتى إلى هذه البلاد المملوءة خلقاً من المسلمين والعساكر ، ويعتقد أنها تحصل له ويملكها ، وفيما فعَل غاية التغرير بنفسه ، وبأهل

---

(١) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يجد أثراً لهذا القبر ، بين النخيل والمزارع الممتدة على طول الشاطئ الغربى للنيل ، قبالة فارسكور الحالية .

(٢) فى الأصل " فى " .

مملكته ؟ قال [حسام الدين] ، فضحك [ريدافرنس] ، ولم يُرِدْ جواباً ، فقلت له : " إنّ من شريعتنا مَنْ ركب هذا البحر مرّة بعد أخرى مغرّراً (١) بنفسه وماله ، لا تقبل شهادته إذا شهد " . فقال الملك : ولم ذلك ؟ . قال ، فقلت : " إنا نستدلّ بذلك على نقصان عقله ، ومن كان ناقص العقل لا ينبغي قبول شهادته . قال فضحك [ريدافرنس] ، وقال : " والله لقد صدق هذا القائل ، وما قصّر فيما حكم به " .

قال صاحب التاريخ ، وهذا الذى ذكره حسام الدين هو قول منقول عن بعض العلماء ، لكنه ليس بقوىّ ، لأن الغالب فى ركوب البحر السلامة . وأما هاهنا وجهان ، إذا لم يكن للإنسان وصول إلى مكة إلا بركوب البحر ، هل يجب عليه الحج ؟ . فأحد الوجهين لا يجب ، لما فى ركوب البحر من الخطر ، والتغرير بالنفس ، والثانى يجب لأن الغالب إنما هو السلامة .

ولما وقع الاتفاق بين ريدافرنس والمسلمين على تسليم دمياط ، أرسل (٣٧٣ ب) ريدافرنس إلى مَن بمدينة دمياط يأمرهم بتسليم البلد إلى المسلمين ؛ فأجابوا إلى ذلك ، بعد امتناع ومراجعات بينه وبينهم ؛ وسلّموا دمياط إلى المسلمين .

ودخل العلم السلطانى [مدينة دمياط] ، فى يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر ، من هذه السنة ، أعنى سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة . ورُفع العلم السلطانى على سورها ، وأُعلن فيها بكلمة الإسلام . وأُفرج عن ريدافرانس ، وانتقل هو ومَن بقى من أصحابه إلى البرّ الغربى . ثم ركب [ريدافرانس] البحر غدِ هذا اليوم ، وهو يوم السبت ، هو ومَن معه ، وأقلعوا إلى عكا . وأقام [ريدافرنس] بالساحل مدّة ، ثم رجع إلى بلاده ، وطهّر الله الديار المصرية منهم .

---

(١) فى الأصل " مغر " .

وكانت هذه النصرة أعظم من الأولى ، بأضعاف مضاعفة ، لكثرة من قُتل منهم وأُسر ؛ وامتلأت(١) الحبوس بالقاهرة من الفرنج . ووردت البشرى بذلك إلى سائر الأقطار ، وأُعلن فيها بالفرح والسرور .

ولما رحل ريدافرنس ، رحلت العساكر [المنصورة] متوجهة إلى القاهرة ، فدخلوها وقد ضُربت البشائر بها أياماً متوالية ، لنصرة المسلمين على الفرنج ، واسترجاع ثغر دمياط ، وهى عقيلة الإسلام ، وثغر الديار المصرية . وكانت هذه [المرّة] ثانية [مرّة] لأخذ الكفار لها ، واسترجاعها منهم ، وانصرافهم مكسورين مفلولين .

وكان دخول العساكر المنصورة إلى القاهرة يوم الخميس ، لتسع مضين من شهر صفر . .

وتوجّه إلى دمشق الخطيب أصيل الدين ، لاستحلاف نائب السلطنة بها ، [وهو] الأمير جمال الدين بن يغمور والأمراء(٢) الذين معه بها . وكان بها جماعة من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وجماعة أمراء من غيرهم ، منهم ناصر الدين القيمرى ، وضياء الدين القيمرى ؛ وكان سيف الدين القيمرى بالديار المصرية .

ولما قدم أصيل الدين دمشق ، وطَلَبَ (١٧٤ ا) اليمين لوالدة خليل شجر الدرّ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولمعزّ الدين أيبك التركمانى بالأتابكية وتقدمة العساكر ، وطَلَب إقامة الخطبة لوالدة خليل شجر الدرّ ، فغلطه جمال الدين بن يغمور ولم يجبه(٣) إلى ذلك . ونفذت المكاتبات من القيمرية وغيرهم إلى السلطان الملك الناصر بن الملك العزيز صاحب حلب ، يستدعونه للقدوم عليهم ، ليسلموا له دمشق .

---

(١) فى الأصل " وامتلت " .

(٢) فى الأصل " وللامرا " .

(٣) فى الأصل " يجيبه " .

وفى يوم الاثنين ، لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر ، خُلع على الأمراء بالقاهرة ، وأعطوا الثقة .

قال ، وورد الخبر فى هذا التاريخ أن الملك السعيد بن الملك العزيز بن الملك العادل قد أخذ ما فى مدينة غزة من المال ، وهرب . وكان الملك السعيد قد أعطى قبل هذا قلعته المعروفة بالصبيبة ، لابن عمه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت قلعة الصبيبة قبل ذلك فى يده ، من حين مات أخوه الملك الظاهر بن الملك العزيز ، كما قدّمنا ذكره . ولما سلّم [الملك السعيد قلعة] الصبيبة ، بقى فى خدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى هذا التاريخ ، وله خُبْزٌ فى الديار المصرية . فلما قتل الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح بفارسكور ، هرب الملك السعيد إلى غزة ، وفعل ما ذكرناه ؛ فاحتيط على داره بالقاهرة . ثم بعد ذلك سَلّم البوّاب[1] من جهة الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة إلى الملك السعيد ، ثم كان من آخر أمره ما سنذكره ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل . " تسلم البواب من وجهة الملك الصالح ... " .